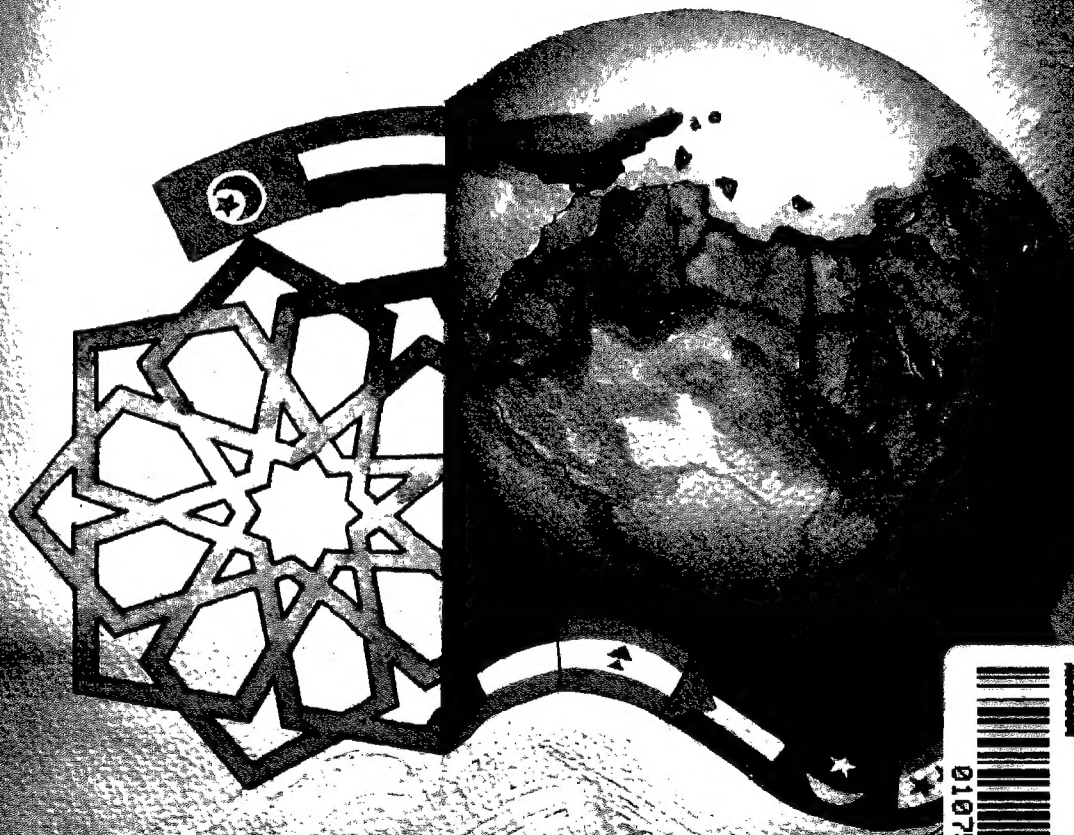


تاريخ موجز للفكر العربي



Bibliotheca Alexandrina

0107593

الدور عين مؤنس



تاریخ موجز
لفکر العرني

الناشر : دار الرشاد

العنوان : ١٤ شارع جواد حسنى - القاهرة

تليفون : ٣٩٣٤٦٠٥ - ٢٩٩٢٦١٥

رقم الإيداع : ٩٦/٢١٠٠

الترقيم الدولى : 2 - 26 - 5324 - 977

طبع : آمون

العنوان : ٤ عطفة فيروز - متفرع من إسماعيل أباطة

تليفون : ٣٥٤٤٣٥٦ - ٣٥٤٤٥١٧

الجميع : أوهس للكمبيوتر

العنوان : ٣٢ شارع على عبد اللطيف - مجلس الشعب

تليفون : ٣٥٦٤٤٠٤

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

أعد الفهارس : عادل أبو المعاطى

خطوط الغلاف : محمد حمام

تصميم الغلاف : محمد فايد

تاریخ موجز للفكر العربی

تألیف :
الدكتور حسین مؤنس



مُقَدِّمَةٌ

لا أدري إن كنت أستطيع أن أسمى هذا كتاباً ؛ لأنه في الحقيقة مجموعة آراء تكونت داخل نفسي ثم خرجت منها - ربما على رغمي - شيئاً فشيئاً في صورة مقالات عن الفكر العربي ، فأنا رجل أقرأ كثيراً جداً ، والكتب تملأ حياتي ، وأنا أحس أحياناً أنني كتاب ، وأنتى واحد من كتب مكتبتى ، فإذا أعجبك ، فالحمد لله وإلا فإننى أرجوك ألا تغضب عزيزى القارىء ، وألا تحاول أن تناقشنى ؛ لأننى لن أرد ، فأنا لا أملك ما أقوله نظراً لأننى قلت كل ما عندى في موضوع الفكر العربى ، وهذه الآراء كلها داخل نفسى وما كان لى أن أخرجها من نفسى ، ولكنها خرجت ، والذي أدهشنى عندما بدأت أنشر هذه الدراسات أن الناس رحبوا بها ترحيباً عظيماً ، وقراء هذا الكتاب زادوا على قراء أى كتاب آخر لى ، وإلى يومنا هذا يتصل بى ناس بالتليفون ويسألون : أين الكتاب ؟ ! وأنا الآن أقول : هذا هو الكتاب ، (مبسوطون) ؟

وكل واحد منا في ذهنه مثل هذا الكتاب ، فنحن كلنا نقرأ ، والفكر العربى موجود في صورة ما في ذهن كل واحد منا ، ولكن المسألة هنا هى مسألة كتابة ما في ذهنك عن الفكر العربى ، إنها مسألة تأليف ، والتأليف تسبقه مسألة ترتيب ، فكل شىء موجود في ذهنك ، هذا صحيح ، ولكنه مضطرب غير مرتب ، ثم إن الموضوعات في ذهنك غير كاملة . فهى تكونت نتيجة للقراءة أو لسماع المحاضرات ، ولكنها شىء من الشرق وشىء من الغرب ومعلومات متناقضة وغير مرتبة ، ولكى تكتبها لابد أن تجلس وتجمع الكتب وتقرأ بعناية ما في ذهنك وترتبه وتكمله على قدر ما تستطيع ثم تأخذ في الكتابة ، وما كتبه اليوم تبيضه في الغد ، وتظل تكتب وتبيض ولا شىء مما تكتبه يعجبك حتى تطلع روحك ، ومع ذلك فأنت تجد في النهاية أنك لم تؤلف كتاباً وإنما هو كلام مجموع في صورة غير لائقة .

ولكننى عندما شرعت في كتابة هذا الكتاب لم يكن في ذهنى أن أسجل ما يحول في خاطرى ، فإن الذى في ذهنى عن الفكر العربى قليل ولا يستحق التسجيل ، إنما

لدىّ في ذهني أفكار غريبة عن الفكر العربي ، وقد أردت أن أكتبها في شكل منظم وأجعل منها كتاباً ؛ لأدخل في مناقشات مع الناس ، وعندما بدأت الفصول تظهر في مجلة أكتوبر انهارت على الرسائل من كل مكان في العالم العربي ، ومعظم هذه الرسائل ليست غاضبة بل هي خطابات مندهشة ، وتبينت مع مرور الزمن أن الناس (مبسوطون) .

والحقيقة أننا في العالم العربي ليس لدينا تواريخ كافية للفكر العربي ، إنما نحن لدينا تواريخ للأدب العربي مختصرة جداً مثل تاريخ الأدب العربي لجورجي زيدان أو مطولة بعض الشيء مثل تاريخ الأدب العربي للدكتور شوقي ضيف ، ومع أن هذه تواريخ طيبة إلا أنها تقتصر أولاً على الأدب العربي ، ثم فيها ثانياً نقص كبير ، ولو أنك رأيت تاريخاً للفكر الإنجليزي أو الفرنسي أو الأسباني لدهشت ، فإن أنواعها ممتازة ، ثم إنها من كل حجم ، ما بين مجلد واحد وعشرين مجلداً ، ومعنى ذلك - بكل صراحة - أننا ليس لدينا تواريخ كافية لا للفكر العربي أو الأدب العربي ، وقد تدهش إذا علمت أن التاريخ المحترم الوحيد للفكر العربي هو الذي كتبه الألماني كارل بروكلمان ، وأنا أعتمد عليه اعتماداً تاماً .

ولكنني أرجو القارئ ألا يظن أن الآراء التي أسوقها هنا مبادئ أو من بها ولا أتنازل عنها ، فهذه في الحقيقة آراء عامة مما يقع في خاطر ولا يصعب التخلي عنها إذا تبين خطؤها ، إنها في الحقيقة آراء أسوقها إلى القارئ راجياً منه ألا يغضب إذا لم يعجبه شيء ، فأنا مستعد أن أتخلى عن آرائي وأغير منها ، فإن الآراء ينبغي أن تكون قابلة للتغيير ولا معنى أبداً للتمسك بالآراء كأنها عقائد ، إنما أنا أقول لك إنه لا ترضيني قلة الآراء الشخصية الخاصة بالفكر العربي عندنا ، فإن الناس - حتى المتخصصين - لا يحفظون في أذهانهم إلا القليل جداً من المعلومات عن الفكر العربي .

وأنا أسألك الآن : أنت طبعاً تعرف كتاب « البيان والتبيين » لأبي عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ ، ولكنني عندما أقول لك : اكتب لي صفحتين عن هذا الكتاب فأنت لن تستطيع ؛ لأن الأفكار موزعة في ذهنك والكثير منها أشبه بالضائع ، والذي أفعله أنا هنا هو أنني أجمع الأفكار التي في ذهني وذهنك عن الفكر العربي

وأضعها أمامنا لكي نفكر فيها ، وقد وجدت لذة كبرى في ذلك وأنت أيضاً ستجد مثل هذه اللذة ، بل ستجد عندك لذة في أن تقرأ هذا الكتاب أكثر من مرة ؛ لأنه فعلاً طريف ، أحياناً ستحس أنك غير راضٍ عما تقرأ ، ولكنك عندما تقرؤه مرة ثانية ستجد لذة في إدارة ذهنك فيما تقرأ ؛ لأن الفكر العربي في الواقع طريف جداً ، ولكننا مهملون ، ونحن لا نعني بأشياءنا ، فحاول الآن أن تقرأ هذا الكتاب أكثر من مرة ، وحاول أن تدبر ذهنك فيما تقرأ ، وليس من الضروري أن تنتهي إلى رأى ، بل المهم أن تدبر ذهنك في الفكر العربي وترجع إلى الكتب وتراجع ما تقرأ مرة ومرتين أو ثلاثة ، فهذا هو الهدف الذي كُتِبَتْ هذه الفصول من أجله .

وبعد ، فهذا الكتاب مقدمة للفكر العربي ، ولا أريد أن أجعل لهذه المقدمة مقدمة طويلة ، فأنا سأترك الآن لتقرأ الكتاب وتفكر فيه ، ويمكنك أيضاً أن تكتب لى فأنا أحب المناقشة ، فاقرأ وليعنيك الله على الاستمرار في القراءة ، والله سبحانه معك ، وهو سيعينك ، ونحن جميعاً سندخل بهذا الكتاب في ندوة عن الفكر العربي ، والله سبحانه يعيننا كلنا بإذنه .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .

المؤلف

ط. حسين مؤنس

أَنَا أَفَكِّرُ ، إِذَنْ فَأَنَا غَيْرُ مَوْجُودٍ !

هذه محاولة لإعادة النظر في التراث العربى الفكرى كله .

كان لابد أن أقوم بها ؛ لأننى - وأنا من أكثر الناس إنشغالا بالفكر العربى وتراثه - كنت أسأل نفسى مرة بعد أخرى : هل أنا وريث أعلام الفكر العربى الماضى من امرئ القيس والجبرتى وحسن العطار ؟ إن رجل الفكر الإنجليزى يشعر شعوراً متصلاً بأنه يواصل عمل شيكسبير وستيوارت مل وبرنارد شو ، ويواصل عملهم على طريقته وأسلوبه ومطالب عصره ؛ لأنهم يعيشون فيه ، فلماذا لا نشعر نحن بأثر الجاحظ وأبى تمام والمتنبى وابن سينا وابن حزم وبقية الأعلام فى نفوسنا وفكرنا ؟ شعورى الخاص أن الباقي لنا من تراث الفكر العربى قليل جداً ، والباقي رماذ .

هذا مجرد رأى ، والباب مفتوح ، والفكر حوار ، والحضارة أخذ وعطاء ، والتاريخ كله حوار بين الماضى والحاضر .

كانت أمة الإسلام أيام رسول الله ﷺ أمة رجال أعزاء بدينهم ، كانوا أمة القرآن الذى أرسله الله إلى قوم يعقلون ؛ أى يفكرون ، ولأنهم كانوا يفكرون فقد كانوا صحابة لرسول الله ، وما أعظم أن تكون لرسول الله صاحباً ! .. كانوا أنصار الله ، وما أعظم أن تكون لله ناصراً ، فلما ذهب أمة الأحرار والصحابة وأنصار الله ، قامت دولة الخليفة الكسرى القيصرى ، وأصبح الحكم للسيف ، والسيف والفكر لا يجتمعان ، وسيف الطاغية هو على رءوس المفكرين ، وتحولت الأمة إلى رعية .. أى إلى قطع .

عندما كتب رينيه ديكارت عبارته المشهورة : « أنا أفكر — أو أدرك — إذن فأنا موجود » .. كان يعلم إنه بهذه العبارة القصيرة التى كتبها باللاتينية Cog, To Ergo Sum قد هدم كل بناء العلم القائم إلى عصره ١٥٩٦ — ١٦٥٠ ، فإن معظم ما كان يتناقله الناس من العلم إلى أيامه فى العالم الكاثوليكي كان يقوم على التسليم بالموروث فى كل ميادين المعرفة : التسليم بكل ما وصل إلى أهل العصور الوسطى من علم أرسطو ، والتسليم بكل ما كان يردده أهل الطب والنجوم وما إليها مما كان يدخل فى نطاق العلوم .

والتسليم بكل ما ورد في الكتاب المقدس : أسفار بنى إسرائيل والأنجيل الأربعة التى أقرتها الكنيسة ورسائل بولس وكتابات آباء الكنيسة ، وكل ذلك مكتوب فى لاتينية عسيرة على الفهم ، مغلقة إلا على الراسخين فى علوم الدين .

ثم التسليم بكل ما وصل إليهم من قرارات المجامع وأقوال البابوات ، والتسليم بأن جميع البابوات معصومون من الخطأ والغلط أو الوقوع فى أيسر الخطايا ، والتسليم بسلامة كل ما كان قائماً إذ ذاك من نظم السياسة والمجتمع .

أمام هذا الجدار الهائل الأصم من التسليم المطلق وقف ديكارت وقال : إن كل شىء ينبغى أن يوضع موضع الشك *de omnibus dubitando* ومن الشك ينتقل الإنسان بالفكر والبحث والدرس ليصل إلى اليقين ، وجود الإنسان نفسه يحتاج إلى دليل ! وعبارة ديكارت التى ذكرتها هى فى الحقيقة جواب على سؤال أطال هو التفكير فيه ، هو : وما الدليل على أننى كائن أو موجود ! الدليل على أننى موجود هو أننى أفكر وأدرك الأشياء من حولى ، فإن الذى يجعلك تشعر بوجودك هو فكرك ، أو تحرك ذهنك ، والحيوان يعيش ويتحرك ويأكل دون أن يشعر بوجود نفسه ، لأنه لا يملك الذهن الذى يتحرك ويدرك .

والتسليم بالموجود القائم ينتهى بالذهن إلى الركود .

وأنت عندما تسلم بكل شىء تكون غير موجود ، وعندما تسكن وتصمت والحياة تتدفق من حولك ، فإنك غير موجود ، وقد قرأت كلمة جميلة فى إحدى مقالات أنيس منصور الأخيرة ، فقد ذكر أن (جيتة) قال فى ختام حوار ممتع بينه وبين بيتهوفن : إذن فنحن أحياء فقط عندما نتكلم ! والمراد : عندما نقول كلاماً صادراً عن فكر .

وإذا كان التسليم المطلق يعنى إلغاء الفكر والإحساس بالوجود ، فإن التفكير يعنى الحياة بالنسبة للإنسان ، وأول حركة للفكر هى الشك حتى فى الوجود نفسه ، وعن طريق الشك يصل الإنسان إلى اليقين ، واليقين فى شىء ينقلك إلى الشك فيما يليه . فأنت إذا أيقنت بوجودك وجدت نفسك تسأل : ولماذا أنا موجود ؟ وتتصل حركة ذهنك ، فتنتقل من شك إلى يقين ، ومن يقين إلى شك ، ومن شك إلى يقين ، وهكذا يرتفع بناء العلم اليقيني الذى لا يتوقف ، وعلى العلم اليقيني وحده يقوم بناء حضارات العمران ،

أما الأوهام والتخيلات والفروض والمسلمات فلا يقوم عليها بناء حضارى نافع ، وحضارة الانكا مثلاً ركبت ثم تحجرت ؛ لأنها قامت على أوهام ومخاوف وتخيلات .

وهذا مثل واحد من حضارات أخرى كثيرة قامت على أوهام وخرافات وعاشت على الأوهام والخرافات . وماتت تحت ركام الأوهام والخرافات .

ديكارت إذن أيقن أنه موجود عندما أدرك أنه يفكر .

وعلى هذه البداية الصغيرة قام بناء الفلسفة الكارتية كلها ، وعلى قاعدة الفكر الكارتى قام الفكر الغربى الذى دخل فى دور الحركة المتصلة من ذلك الحين ، وعلى الفكر المتحرك دائماً من الشك إلى اليقين قام بناء الحضارة الغربية كلها ؛ لأنهم تعلموا كيف يبنون كل أشياءهم على أساس الفكر المنظم والعلم الدقيق النافع ، وديكارت كان لاهوتياً ، ولكنه كان كذلك رياضياً وصاحب علوم ؛ لأن الغرب تَعَلَّمَ منه كيف يصل إلى اليقين فى أى شىء يفكرون فيه عن طريق الشك فيه ، فإذا انتهى إلى اليقين فى أمر بدأ الشك يساوره فيما يليه ، وكل جواب عندهم يصبح سؤالاً عن شىء يليه ، وذلك هو سر الحيوية والقوة فى فكر الغرب وحضارة الغرب .

وكلاهما يقوم على منهج علمى يطبقونه على كل شىء ، والمنهج أو النهج هو الطريق ، ومن هنا فقد أصبحت الحياة عندهم نهجاً أو منهجاً بلا نهاية ، فاتسعت رحابها وامتدت آفاقها حتى تخطت حدود عالمنا الشمسى ، وبالأمس فقط وصلت مركبة فضائية أطلقها الأمريكيون من أحد عشر عاماً إلى أقصى عالمنا الشمسى وخرجت منه وانطلقت فى فضاء الله الشاسع وهى نابضة بالحياة ، ولا تزال ترسل لهم الإشارات والصور عن عوالم أخرى ، وهذا كله بدأ من عبارة ديكارت التى ذكرناها .

ويستوقف انتباهنا أن منهج ديكارت : منهج الوصول إلى اليقين عن طريق الشك موجود عندنا منذ أن أكرمنا الله بالقرآن ، ولكننا لم نحسن تطبيقه ولم نطق الصبر عليه .

وهذا هو السبب فى ركود الفكر العربى وتوقفه بعد حقبة من الزمان طويلة ، والقرآن نفسه يقول : إن الله يحب عبده الذى يصل إلى اليقين عن طريق الشك ، وكلنا نذكر آيات سورة الأنعام التى ترينا كيف أن إبراهيم - عليه السلام - وصل إلى اليقين

عن طريق الشك المتجدد ، ففي بحثه عن خالق الكون رأى كوكباً فظنه ربه ، ثم وجده يأفل فشك فيه ، وشكه جعله يتجه نحو القمر حاسباً إياه ربه ، فلما أفل عاوده الشك واتجه إلى الشمس ، فلما رآها تأفل فطِنَ إلى الحقيقة الكبرى ، وهى أن ربه لا بد أن يكون خالق هذا الكون كله ، وهنا استقر قلبه ووصل إلى اليقين فقال في لفظ القرآن : « الأنعام ٧٨ - ٧٩ » . ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

واقرا معى هذه الآيات البينات من « سورة الحجر - ١٥ / ٩٧ - ٩٩ » ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ .

والمراد : حتى يأتيتهم اليقين بعد الشك والتكذيب .

بل إننا لنجد مصاديق منهج الوصول إلى اليقين عن طريق الشك في السيرة النبوية ذاتها ، فعمر بن الخطاب كان قبل إسلامه من أشد الناس إنكاراً لحقيقة الإسلام ، وهو عندما أراد الله له أن يصل إلى اليقين دفعته حميته الجاهلية إلى أن يذهب ليعصف بأخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل عندما بلغه نبأ دخولهما الإسلام ، وبالفعل ضرب أخته وشجها شجاً قبيحاً ، فلما رأى دمها يسيل رق قلبه لها ، وبدأ شكه وحيرته من أمر هذا الإسلام ، عندما وجد أن ضربه إياها زادها ثباتاً على إيمانها ، والشك أول الطريق إلى اليقين ، فطلب أن يطلع على الآيات التي كانا يقرأنها عندما دخل عليهما ، فلم تعطه إياها إلا بعد أن يتطهر ، ثم تناول الصحيفة فإذا فيها الآيات الأولى من « سورة طه » وهنا انتهى به الشك إلى اليقين ، وأدرك بذهنه وقلبه أن هذا لا يمكن أن يكون كلام بشر ، فأخذ طريقه إلى دار الأرقم ، ودق الباب على رسول الله وأصحابه ، ثم دخل فأسلم وأمن إيمان يقين .

ولم يمنعه إيمانه بعد ذلك من أن يناقش رسول الله فيما لم يقتنع به ؛ لأن يقين عمر كان يقيناً متجدداً ، وبفضل هذا اليقين المتجدد أصبح عمر قوة دافعة متجددة الابتكار داخل جماعة الإسلام ، وجداله مع رسول الله ﷺ في حديث الحديبية يدل على أن إيمان عمر لم يكن إيمان تسليم مطلق دون تفكير ، فهو لا يسلم إلا بما يقتنع به ، ورسول الله أحب هذه الخصلة في عمر ، فهو لم يغضب عليه حين جادله ، بل تركه حتى

يقتنع بنفسه ، فمثل عمر لا يسلم دون اقتناع ، وبهذا الطراز من الإيمان على أساس الإقناع أصبح عمر من أكابر بناء أمة الإسلام ، فهو إيمان رجل يفكر ، ولا يسلم إلا بما يهتدى إليه عقله ، ومع ذلك فلم يكن عمر عنيداً أو لجوياً إذا تبين له خطأ رأيه ، وما أكثر المواقف التي أخذ فيها عمر برأى أبى بكر ، وما أكثر مواقف الجدل بينه وبين إخوانه من الصحابة أثناء خلافته ، وما أكثر ما كان عمر يترك رأيه ويأخذ برأى مجادليه إذا تبين له أن هذا هو الصواب .

وإنه ليستوقف نظرنا أن رسول الله ﷺ لم يطلق على من دخل الإسلام وأصبح عضواً في أمة الإسلام اسم الأتباع بل الأصحاب أو الصحابة ، فهم صحابته لا أتباعه أو رعاياه ، ولزمهم هذا اللقب بعد أن قامت أمة الإسلام واشتد عودها في المدينة ، والصحة تعنى الألفة والمودة والصداقة والمساواة ، فلم يرض رسول الله ﷺ لهم إلا المساواة بنفسه الكريمة رغم أنه كان نبيهم وهاديهم ورائدهم ، ولو شاء أن يكون أميرهم أو سيدهم لكان ، ولما وجدوا في أنفسهم غضاظة ، لأن إيمانهم كان إيمان يقين ، وكانت معاملة الرسول لأصحابه معاملة الصاحب ، فكان يأخذ منهم ويعطى ، وكان يستمع إليهم ويقبل الجيد الصالح من آرائهم ، وعلى طول حياته ﷺ كان الحوار ممتداً بينه وبين أصحابه ، بل لقد أطلق رسول الله على أعضاء جماعته من أهل المدينة لقب الأنصار ، وهو لقب فيه إعزاز وتكريم ورفعة ؛ لأن نصيرك هو أخوك وصاحبك عند الشدة ، وبروح المساواة والأخوة ، وبروح الصحبة والمحبة والحوار والمشورة وتبادل الرأي ؛ بلغت أمة الإسلام في المدينة ذروة قوتها على عهد الرسول ﷺ وصحابيه من بعده ، وعندما فقدت أمة الإسلام روح الصحبة والأخوة ، وانقطع الحوار بين الخليفة عثمان بن عفان والأمة ، دخل العنف والقهر أمة الإسلام ، وتغيرت روحها ودب في كيانها الوهن لأنها خرجت عن منهجها الذي رسمه لها الله سبحانه وتعالى وطبقه رسوله الكريم ، وبعد أن كانت أمة الإسلام أمة حرة تتكون من أصحاب مؤمنين أحرار أصبحت (رعية) يسوسها راع بعصاه هو الخليفة الذي أصبح ملكاً ، ويغفل فقهاؤنا عن هذه الحقيقة الكبرى ، ويغيب عنهم أن أمة الإسلام كانت أول أمرها وفي عصر قوتها « أمة من دون الناس » كما ورد في نص « الصحيفة » ثم انحرفت بعد ذلك عن منهج الله ؛ فأصبحت أمة من الأمم يجرى عليها ما يجرى على غيرها من الأمم من ظلم وقهر وذل وهزيمة .

وهنا بالتحديد عندما تتحول أمة الإسلام من جماعة من الأخوة والأصحاب الأحرار المتساوين الذين يجمعهم الإيمان ، إلى رعية يحكمها ملك هو سيدها وصاحب حق الحياة والموت في أهلها ، لم تعد أمة الإسلام بل أمة ورثت الإسلام فيما ورثت دون أن تحس به وتعرف قدره ، وهذه حقيقة غفل عنها رجال من طبقة ابن خلدون ؛ لأنهم لم يتعمقوا حقيقة الإسلام وما أراد الله أن يميز به أمته عن غيرها من الأمم ، لتكون بهذه الميزات فتحاً في تاريخ البشر ، فغابت هذه الحكمة عنهم ونظروا إلى الإسلام نظرتهم إلى أى أمة أخرى وأرخوا لها على أنها أمة لا يميزها عن غيرها شيء ، والأسوأ من ذلك أن المسلمين أنفسهم لم يفتنوا إلى ما أراد الله من أمتهم ، فساروا في سياسة أمور جماعتهم على نفس القواعد التى كانت تسير عليها الدول قبل الإسلام ، واعتبروا أمة الإسلام دولة أو مملكة أو سلطنة ، وما داموا قد نظروا إلى أمتهم هذه النظرة فقد خرجوا بها عن منهج الله أى عن المنهج الذى رسمه لها الله ، وأصبحوا دولة كغيرها من الدول التى ينشئها الناس من نصر وهزيمة وضعف وتفكك وفساد وعز وذل .

وانطبق عليهم قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (آل عمران : ١٤٠ / ٣) وقد قالها الله سبحانه في سياق كلامه عن معركة أحد ، وهى معركة خرج فيها المسلمون عن نهج الله ، فأصبحوا ناساً كغيرهم يداول الله الأيام بينهم كما يداولها بين غيرهم من الناس .

أما في معركة بدر فقد ثبتوا على منهج الله فنصرهم الله وهم قلة وأذلة ، أعزهم إيمانهم وبه نصروا على الكثرة ، وأتى فقهاء القرن الثالث الهجرى وما بعده فوجدوا ملكاً قائماً ودولة تقوم على القهر والقوة والسلطان ، فكان كل همهم أن يوجدوا لأنفسهم مكاناً ووظيفة في هذا الملك القائم ، فجعلوا أنفسهم سدنة النظام القائم وسلموا بما فيه واجتهدوا في تحليله وإضفاء صبغة الدين عليه ، وأصبحوا بهذا جزءاً من ذلك الملك القائم على الظلم لا على منهج الله سبحانه .

في ذلك العالم الدنيوى الخالص لم يعد أفراد الأمة صحابة بل رعية ، وتلاشت قيمة الإنسان فأنحدر من صاحب وأخ إلى فرد من أفراد رعية أو قُل : إلى رأس من رؤوس الغنم أو الماشية التى يرعاها الملك الغاشم الذى سمّوه إماماً أو خليفة أو سلطاناً أو ملكاً . وفى هذا البناء الشامخ تضاعف قدر الفكر وصاحب الفكر وتدهور حتى

أصبح مواطناً غير مرغوب فيه ؛ لأن المواطن المطلوب أو المرغوب فيه في هذا البناء السياسي غير الإسلامى هو المواطن الذى يعتبر نفسه رأس غنم ويتصرف على أنه رأس غنم !!

وإذا كانت القيمة في أمة الإسلام في العصر النبوى والنصف الأول من العصر الراشدى للفرد ، كلها للإنسان المؤمن الذى يعتز بإيمانه وشخصيته ويجتهد في الارتفاع بقدر نفسه بالبذل في سبيل الجماعة والاجتهاد في خدمتها ، أصبحت القيمة كلها في عصور الخلفاء السلاطين - بداية من خلافة معاوية بن أبى سفيان - للإنسان الضعيف الطائع المستسلم الذى لا يفكر ولا يتحرك إلا بما شاء السلطان ، وفي قصره في دمشق جلس معاوية بن أبى سفيان البدين المترهل على عرشه يحيط به جند اختارهم من أجلاف العرب يضع في كف الواحد منهم مائة دينار ويشير بأصبعه فيهوى بسيفه على من أشار إليه ، والويل لمن يبكى على القتل ، ومكة مهد الإسلام الأول أصبحت ضيعة من ضياع معاوية ، يتولاها له رجل من بيت أبى سفيان يسمى عتبة أو عتبة بن أبى سفيان ، وهو أخو معاوية ، ثم يخلفه عليها خالد بن العاص بن هشام المخزومى من قوم أبى جهل ، أما المدينة فلا يحكمها لمعاوية إلا مروان بن الحكم طريد رسول الله ، ثم يخلفه عليها رجال من بيت أبى سفيان أو بيت مروان ، وكذلك الأمر في بقية نواحي الدولة .

وكان معاوية قد أمر المغيرة بن شعبة واليه على العراق ألا يخطب على المنبر مرة إلا سب على بن أبى طالب ولعنه ، يقول الطبرى : فأقام المغيرة - وهو من الصحابة - عاملاً على الكوفة لمعاوية سبع سنين وأشهرًا ، وهو من أحسن شىء سيرة وأشدّه حباً للعافية ، غير أنه لا يدع ذم على والوقوف فيه والعيب لقتلة عثمان واللعن لهم ، والدعاء لعثمان بالرحمة والاستغفار والتزكية لأصحابه ، فكان حجر بن عدى إذا سمع ذلك قال : بل إياكم ذم الله ولعن ! ثم قام فقال : إن الله عز وجل يقول : ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ « النساء : ١٣٥ » وأنا أشهد أن من تذمّون وتعيرون لأحق بالفضل ، وأن من تُزكّون وتطرون أولى بالذم .. فيتغاضى عنه المغيرة ، وحجر بن عدى كان رجلاً حراً من كندة ، كبر عليه أن تستعمل منابر الإسلام في معصية الله ، فقام يعلن رأيه . كان رجلاً ذا فكر وعقل وقلب وإحساس بحقيقة الإسلام ودعوته ، فيأبى

عليه إسلامه أن يدع سب ابن عم رسول الله وصهره وفارسه يجرى على منابر الإسلام فيقوم ويحتج عليه ، واجتمعت عليه جماعة من أصحابه من الأحرار صاروا يفعلون فعله ، ومعاوية مع ذلك لا يروعى ولا يزال يأمر رجاله أن يسبوا على بن أبى طالب على المنابر ، ويضيق صدره بهذه الحفنة من الأحرار ، فيولى العراق بعد موت المغيرة بن شعبه رجلاً من خلصائه هو زياد ابن أبيه ، وزياد كان طاغية ظالماً دخيلاً ألحقه معاوية بأهله واستعمله لإذلال الناس وكانت قاعدته البصرة ، واستمر في سب عليّ على المنابر ، ويظل حجر وأصحابه على احتجاجهم على هذا الظلم ، ويبلغ ذلك زياداً فيقبل إلى الكوفة ويصعد منبرها ويخطب ويطيل ، ويسب علياً وأصحابه فيكثر ، وطال الوقت حتى كاد وقت الصلاة يفوت ، فرمى حجر زياداً بكف من الحصى ونهض للصلاة ونهض معه الناس ، فنزل زياد وصلى بالناس .

وكتب زياد إلى معاوية في أمر هذا الرجل الحر وأصحابه ، فكتب إليه معاوية : أن شدة في الحديد واحمله إلى ، فلما جاء كتاب معاوية أراد قوم حجر أن يمنعوه ، فقال : لا ولكن سمع وطاعة ! فشد في الحديد وحمل إلى معاوية ، فلما دخل عليه قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمته وبركاته ، فقال له معاوية : أمير المؤمنين ! أما والله لا أقيلك ولا أستقيك ! أخرجوه فاضربوا عنقه ! فأخرج من عنده فقال حجر للذين يلون أمره : دعوني حتى أصلى ركعتين : فقالوا : صل ! فصلى ركعتين خفف فيهما ثم قال : لولا أن تظنوا في غير الذي أنا عليه لأحببت أن تكونا أطول مما كانتا ، ولئن لم يكن فيما مضى من الصلاة خير فما في هاتين خير ، ثم قال لمن حضره من أهله : لا تطلقوا عنى حديداً ، ولا تغسلوا عنى دماً .. فإنى ألقى معاوية غداً على الجادة ، ثم قدم فضربت عنقه .

قال محمد : فلقيت عائشة معاوية في مكة فقالت : أين كان حلمك عن حجر ! فقال لها : يا أم المؤمنين ، لم يحضرني رشيد .. يريد أنه لم يجد حوله رجلاً رشيداً يرده عن هذه الجريمة .

قال ابن سيرين : فبلغنا أنه لما حضرته الوفاة جعل يغرغر بالصوت ويقول : يومى منك يا حجر يوم طويل .

هى قضية فكر ورأى إذاً ، فحجر بن عدى لم يكن منافساً سياسياً بل هو لم يخلع

طاعة ولا فر أو استخفى ، إنما هو رجل أبى أن يكون رأساً من الغنم فقام يعلن رأيه وثبت عليه حتى الموت ، إنه رجل قال : أنا أفكر . فقال له الطاغية : إذن فأنت غير موجود ! ولا يجوز لك أن توجد ؛ لأن الذى يريد أن يعيش أو يوجد معنا لا ينبغي أن يكون له رأى أو فكر أو حتى إحساس إنسان ! وتأمل والله أمر معاوية الذى يستحل دم رجل وأصحابه لمجرد أنه يحتج على شيء بالغ السخف هو لعن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - على المنابر ، ولكنه الطغيان والغرور بالدنيا والعمى بالسلطان ، وهذا كله بعيد عن الإسلام وأمة الإسلام ، فأين والله عصر أمة الصحابة والأخوة واحترام قدر الإنسان وعقله وفكره ؟ لا عجب أن يقول رجل من حكماء العرب عندما بلغه مقتل حجر وأصحابه : والله ما زالت العرب تقتل بعد ذلك أبداً !

والغريب أن الطبرى عندما يسوق هذا الخبر بروايات شتى وينتهى إلى موت حجر لا يقف عند موته لحظة ولا يرثيه بكلمة ، كأن حجراً كان سفاكاً أو خارجاً على القانون ، والطبرى كان رجل فكر ورأى ، ولكنه كان يكتب فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، وكانت قاعدة : أنت تفكر .. إذن فأنت غير موجود قد استقرت وتبلد عليها إحساس الناس .

والطبرى نفسه ضُربَ ورُمىَ بيته بالحجارة على أيسر من مقالة حجر ، وكان الذين رموا بيته بالحجارة هم العامة الذين درجوا على الظلم وكراهة الفكر وأصحابه حتى قاموا يقتلون أهل الفكر بأيديهم ؛ لأن الوجود مع الطغاة أصبح مقصوراً على الطغاة ، أما من عداهم فقد ثبت فى أذهانهم أنهم كالأنعام أو أضل سبيلاً ، واعترفوا هم بذلك حتى قاموا بأنفسهم يقتلون من قال منهم : إنه إنسان ذو فكر وكرامة !

وقصة رجل آخر من رجال الفكر نهض يعلن رأيه ويتمسك برأيه ويذود عنه ، فأبَت الدولة إلا أن تطارده وتحرمه حق الوجود ، وهو قطرى بن الفجاءة الفارس الخارجى التميمى الشاعر .

وقطرى كان رجلاً نجداً ذا فكر ورأى ، وكان يرى الخوارج الأزارقة وهم أشد الخوارج على أهل السنة والجماعة .

ونحن نسميهم الخوارج ولكننا لا نعلم إن كانوا هم الخوارج أم نحن . ثم نسأل : خوارج على من ؟ والجواب : على طواغيت بنى أمية : السفليانيين أولاً ثم المروانيين بعد

ذلك ، أولئك المسمون بالخوارج يرون أن الإمامة تكون فيمن يرضاه المسلمون ويجتمع رأيهم عليه ، ولا يعترفون بهذا الحديث الذي لا تثبت صحته : الأئمة من قریش ، وليس في القرآن أو الحديث الشريف الصحيح ما يدل على أن رسول الله قال هذه المقالة ، وبماذا تفضل قریش غيرها من بنى آدم ؟

ولماذا تكون الإمامة فيها دون غيرها من الناس ؟ وأول ما سمعنا هذه المقالة يوم السقيفة إذ احتج بها فيما يقال أبو بكر في مناقشته للأنصار ، وقد أنكر الخوارج ذلك بل أنكروا أن يكون للمسلمين إمام أشبه بالملك ينفرد بالحكم ويستبد هو وآله بالأمور ، وإذا نحن قرأنا السيرة قراءة تدبر وتعمق وقرأنا كتب الرسول ﷺ - إلى رؤساء العرب في الجزيرة وجدنا أنه كان يقر على رئاسة الناس في نواحي الجزيرة من يرضاه الناس في كل ناحية وتحمد سيرته فيهم على أن يظل مسلماً ، صحيح الإسلام ، عضواً في جماعته ، مشاركاً بنفسه ومن استطاع من قومه في الجهاد مع أمة الإسلام .

أما أن يكون لأمة الإسلام كلها رئيس واحد مطلق السلطان في كل ركن من أركان دار الإسلام يولى على كل ناحية من يشاء ويعزل من يشاء ويجبى أموال الناس جميعاً ويتصرف فيها تصرف كسرى في أموال رعاياه ، فأمر ليس لدينا على ضرورة وجوده على رأس أمة الإسلام من النصوص دليل واحد ، وعمر رضى الله عنه كان يرى نفسه رمزاً لوحدة الأمة وكان يترك سادات العرب على نواحيهم ما أقاموا على الولاء للأمة وبعثوا إليه بصدقاتهم يستعين بها على الجهاد وندبوا الناس من أقوامهم للاشتراك في جيوش الإسلام .

إنما كان سلطان عمر يتمثل في ميادين الجهاد والأراضى المفتوحة وثغور الإسلام أما داخل دار الإسلام فعمر - رضى الله عنه - كان الأب الشفيق والرائد الصالح ، وكان لا يطلب من الناس إلا طاعة الله ورسوله ، أما طاعة عمر في ذاته فلم يطلبها من أحد ، وهذا هو الخليفة حقاً .

أما الإمام الواحد المتفرد بالأمر في كل دار الإسلام ، فأمر لم يظهر إلا مع قيام دولة معاوية بن أبى سفيان ، وتحول أمة الإسلام إلى كسروية ساسانية أو قيصرية رومية ، وأصبح المتسمى بالخليفة في دمشق يصر على أن يذل الناس ويستعبدهم ولو كانوا على الطاعة لله ورسوله ، فلم يكونوا يرضون منك بأن تكون مسلماً صادقاً وعضواً صالحاً

في الجماعة فحسب ، بل لا بد أن تكون إلى جانب ذلك رعية لهم ولأهل بيتهم ، ذليلاً
تعتبر نفسك رأس غنم ! وهل ننسى حديث عبد العزيز بن موسى بن نصير ؟ لقد
كان عبد العزيز والياً صالحاً ، وفاتحاً نجداً ، خلفه أبوه موسى بن نصير على الأندلس ،
فتم فتح ما بقي منها ، وأصبح بذلك ثالث فاتحى الأندلس بعد طارق وموسى ، فيأبى
السخيف سليمان بن عبد الملك إلا أن يدس عليه من يقتله ؛ لأنه لم يكن ذليلاً ولا رأس
غنم ، ويلقى عبد العزيز بن موسى مصرعه بسيف الغدر في غبش الصبح وهو ذاهب
لصلاة الفجر ، وتغرق الأندلس في الفتنة والدماء ويبلغ الخبر أباه موسى فيبكيه ويقول
رحمه الله ما عرفته إلا مصلياً قائماً ، وصدق موسى في دعائه لابنه فلا يطلب من المؤمن
إلا أن يكون مصلياً قائماً بدين الله ، أما أن يكون عبداً لسليمان بن عبد الملك فلا ، كل
ذلك بأمر رجل بغيض أعجف قبيح الوجه هزيل البدن ما وقعت عين جارية عليه إلا
أشاحت بوجهها عنه ونظرت إلى غيره فتمتلىء نفسه حقداً على غيره من الرجال وغيره
منهم ، وهذا سبب حقهده على قتيبة بن مسلم الباهلى العظيم ، وكان فارساً ذا بأس
وشكل وهيئة .

إِثْنَانُ لَا يُجْتَمِعَانِ رَجُلُ الْفِكْرِ .. وَالطَّاعِيَةُ

حقيقة أدركها الجاهليون قبل الإسلام : أن الشاعر - وهو المفكر الأديب الفنان - لسان قومه وضمير قبيلته ، وإذا نبغ في القبيلة شاعر احتفلوا به وفاخروا به غيرهم ، فقد وجدوا من يعبر عن ضميرهم ، وقالوا : أحسن الشعر أصدقه ! وعندما قامت دولة الطغاة بعد الإسلام ، أصبح الهم الأول للطاغية ورجاله قتل ضمير الأمة وقطع لسانها المعبر ؛ لأن الطاغية والفكر الحر لا يجتمعان أبداً ، بدأت مذبحة الفكر والمفكرين على طول تاريخنا إلى حين قريب ، وأصبحت القاعدة أحسن الشعر أكذبه ! .

نكمل خبر قطرى بن الفجاءة لندخل بعد ذلك في موضوع هذا الجزء الثانى من دراستنا .

نقول : أن قطرى بن الفجاءة كان من رءوس المسمين بالخوارج الذين طاردهم الحجاج بن يوسف والمهلب بن أبى صفرة وأنفقا في قتالهم أضعاف ما أنفقا في قتال الكفار ، وكان أمر الخوارج الأزارقة قد وهن وضعف بطول الحرب وهلاك رجالهم واحداً بعد واحد ، فاكتفوا من الدنيا بقطعة أرض صحراء قاحلة تمتد من أصفهان إلى كرمان ، وهى جزء من دشتى لوط التى كان العرب يسمونها بالمفازة لوعورتها وقلة خيرها ، وكان الخوارج قد ولوا على أنفسهم قطرى بن الفجاءة بعد أن قتل زعيمهم الزبير بن أبى الماحوز سنة ٦٨ هجرية ، فظل الرجل يقاتل عن قطعة الصحراء التى بقيت له حتى سنة ٧٧ هجرية ، والحجاج لا يكف عن إرسال الجيوش إليه ، فخرج فى قلة من الرجال إلى جبال طبرستان يحتفى فيها ، وطبرستان هى الأقليم الجبلى جنوبى بحر قزوين ، وفيها اليوم طهران وهو الاسم الحديث لبلدة الرى القديمة ، وإختلف أمر الخوارج على قطرى ، فأنحاز معظمهم إلى زعيم منهم يسمى عبد ربه الكبير ، وفى النهاية بقى قطرى وحده ليس معه إلا سيفه وحصانه .

فهل تركوه ؟ لا والله ! ومادام يعتز برأيه وفكره فلا يمكن أن يكون له وجود ، والقاعدة كانت : أنت تفكر إذن فلا يمكن أن يكون لك وجود ، وأرسل إليه الحجاج جيشاً عظيماً من أهل الشام يقوده سفيان بن الأبرد .

ووحده سار الشاعر البطل ، أوغل في الجبال والجنود في أثره حتى لحقوه في شعب من شعاب طبرستان ، ونفق فرسه فنزل يمشى على رجله وزلت به قدمه وهو في مخارم الجبل فتدهور حتى استقر أسفل الوادى ونهض يمشى وهو لا يكاد يستقيم ، وتبعه رجل من الفرس يطلب رأسه ليبيعه للحجاج بمال ! ولحقه الفارسي فطلب منه قطرى شربة ماء فأبى الخسيس أن يعطيه إياها إلا مقابل سيفه فأبى قطرى ، ولحق به الجيش فقتلوه فمات حاملاً سيفه معتزاً بكرامته ، وادعى شرف قتله مائة « أبطال » أورد الطبرى أسماءهم [٢١٠ / ٦] وحملوا رأس رجل الفكر الحر إلى الحجاج ، ثم إلى عبد الملك بن مروان في دمشق ، فتأمل والله دولة طويلة عريضة لا تحتل بقاء رجل واحد يفكر ؛ ولسان حالها يقول : تزعم أنك تفكر يا ملعون ، إذن فأنت لا يمكن أن تكون موجوداً !

ومن طبائع حكومة الظلم والاستبداد والطغيان أنها إذا بدأت لا تقف عند حد ، فالطاغية إذا أنت سلمت أمرك له لم يرض منك بالطاعة ، بل يصر على أن تكون طاعة وإذلاً ، وقد رأينا الفارسي الأعجمي الذي تتبع قطرى بن الفجاءة ليقترله ويفوز من الطاغية بجائزة ، يصر على أن يذل قطرياً وهو على أبواب الآخرة ، فهذا رجل مطارذ وحيد ، مهيب الجانب ، كسير الساق ، يطلب شربة ماء قبل أن يموت ، فيأبى الأعجمي إلا أن يذله ، فيطلب إليه تسليم سيفه ، والسيف عند الفارس رمز شرفه وعزة نفسه ، وقطرى كان قد وصل إلى حد من الإعياء لا يستطيع معه قتالاً بالسيف ، ولكنه أصر على أن يموت وسيفه معه ، ومات وسيفه معه ، واستحق بذلك خلود الاسم ، فها نحن أولاء اليوم نروى لك خبره بعد أربعة عشر قرناً ، فنترحم عليه ، وتنفر نفسك من معاوية وآله ورجاله ، وماذا حدث لمعاوية وأولاده ؟ غلبوا على أمرهم ، وانتقل الملك منهم إلى مروان ابن الحكم وبنيه ، وهذا حال عبيد الدنيا ! وماذا حدث لبني مروان ؟ ! أكلتهم سيوف العباسيين بقسوة فاقت قسوة معاوية ، وهذا حال عبيد الدنيا ! وفوق الستين رجلاً منهم قتلهم واحد من العباسيين هو داود بن علي في مذبحه على نهير أبى فطرس ، ولم يقنع بذلك .. بل بسط على الجثث أنطاعاً أى جلوداً ، وجلس هو وأصحابه يأكلون ! فهل هؤلاء مسلمون أو حتى بشر ؟ لا والله ، ولكن بداية الظلم كانت عند معاوية ومروان بن

الحكم وعبد الملك بن مروان ، وهذه عاقبته ، وأذكر هنا قول الله سبحانه وتعالى في سورة الأنعام ٦ آية ١٢٩ ﴿ وَكَذَلِكَ نُولِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

وآه .. لو قرأ المسلمون ما بين أيديهم من القرآن وعملوا بما فيه !

وأنا أستشهد بالقرآن في كلامي المرة بعد المرة وأنا أعرف أن من بين قرائي غير مسلمين ، فأما من كان من القراء مسلماً فهو يؤمن بما يسمع منه لفظاً ومعنى ، وأما من لم يكن فلا بأس عليه ، وليسمع القرآن على أنه كتاب إيمان وحضارة وفكر ، فإن كلام الله دين وعقيدة وخلق وحضارة ، ففيه لكل من يقرؤه ما يكفيه أيّاً كانت عقيدته ودينه ، فمن لم يجمعنا وإياه الدين جمعتنا وإياه الحضارة ، وما نحن بواعظين ، فللوعظ أهله ورجاله ، وإنما نحن مواطنون نخاطب مواطنين .

وتجىء أيام بنى العباس وقد استقرت قواعد الظلم وخرج حكام الإسلام عن منهج الله خروجاً يهون معه خروج أبى جهل ولا والله ما فعل أبو جهل بالمسلمين جزءاً مما فعله أبو عبد الله السفاح وأبو جعفر المنصور وأعمامهما ورجالهما أجمعون ، ويكفيك أن أبا عبد الله أول خلفاء بنى العباس دخل التاريخ بصفة السفاح ، حتى أصبح هذا اللقب جزءاً من اسمه ، فكيف بالله ينال عفو الله ورضاه رجل لا يذكر إلا بلقب السفاح ؟ !

وأما أبو جعفر المنصور فقد كان دم الإنسان أهون عليه من بعوضة ، وهو مع ما له من مكانة في تاريخنا لا يمكن أن يعد في المسلمين أو المؤمنين أو حتى البشر ؛ لكثرة من قتل من الناس ، أما من قتل من أهل السياسة فحسابه في أمرهم على الله ، ورجال السياسة جميعاً طلاب سيادة وسلطان ، وما داموا قد دخلوا ميدان الصراع على السيادة فعليهم أن يتحملوا النتائج ، وكلهم في تلك العصور ظلمة لا يحفلون لأمر الأمة ولا ينظرون إلى صالحها ، إنما هم الواحد منهم نفسه وسلطانه ، وهنا يخرجون عن منهج الله ويصبحون في جملة الظالمين الذين يولى الله بعضهم بعضاً .

وأما الذين يعيننا أمرهم في هذا البحث فهم أهل الفكر وما أصابهم على أيدي الظالمين ، وأبدأ بذكر عبد الحميد الكاتب ، وهو عبد الحميد بن يحيى مولى العلاء بن وهب العامري ، من عامر بن لؤى ، وكان كاتباً ، أى يعمل في الشئون الإدارية لمروان بن

محمد الجعدى آخر خلفاء بنى أمية ، وعقاباً له على ذلك يقتله أبو العباس السفاح دون ذنب أو جريرة .

ولماذا قتله ؟ لأنه كان رجلاً صاحب علم واسع وثقافة مستقيضة وفكر وقاد ، ولكنه اضطر إلى أن يدخل في خدمة الخلفاء كما يدخل الواحد منا في خدمة الدولة ليكسب عيشه ، لأن الأدب وحده على طول تاريخنا لا يعين صاحب الفكر على مطالب العيش ، ولكن الرجل كان صاحي الذهن حاضر الفكر بعيد الهمة ، وربما كان أول من وصل من البشر بال نشر العربى إلى مراتب الفنون ومن أشهر ما يؤثر عنه وصيته إلى الكتاب أى إلى الناشرين الذين كانوا يعملون في خدمة الدول ، وفيها عبارات عظيمة تنفع الأديب الكاتب في كل عصر ومكان .

قال بعد أن نصح الكتاب بالدراسة الواسعة والتمكن من صنوف العلم والأدب والتفقه في أمور الدين بادئين بكتاب الله سبحانه وتعالى منتهين بالحساب وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها [يريد علم التاريخ] : « فإن ذلك معين لكم على ما تسعون إليه بهمكم ، ولا يضعفن نظركم في الحساب ، فإن قوام كتاب الخراج منكم ، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع ، سنيها ودينها ، ومساوىء الأمور ومحاقرها ، فإنها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب ، ونزّهوا صناعتكم وارباؤا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الدناءة والجهالة ، وإياكم والكبر والعظمة فإنها عداوة مجتلبة ، بغير إحنة [أى أن غرور الكاتب بما عنده يثير كراهة الناس له وعداوتهم إياه دون أن يكون هناك سبب للخصومة] وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم وتواصلوا عليها فإنها شيم أهل الفضل والنبيل من سلفكم ، وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى ترجع إليه حاله ، وإن أقعد الكبر أحدكم عن مكسبه ولقاء إخوته فزوروه وعظموه وشاوروه .

واستظهروا بفضل رأيه وتجربته وقديم معرفته ، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه أحذب وأحوط منه على أخيه وولده ، فإن عرضت في العمل محمدة فليضيفها إلى صاحبه ، وإن عرضت مذمة فليحملها من دونه ، وليحذر السقطة والذلة والملال عند تغير الحال » .

فهل رجل مثل هذا يستحق القتل ؟

نعم يستحق ! .. في نظر الظالمين ، فما عرفنا لعبد الحميد الكاتب ذنباً إلا علو الهمة والبعد عن الدنية واستقلال الذهن والرأى ، وهذه هى الأخبار بين أيدينا ، فما نجد فيها أن الرجل سعى على بنى العباس أو دبر عليهم أو عاب فيهم ، وإنما هو رجل ذو فكر وبراعة في فن الكتابة ، وعزة نفس وهمة ، وبنو العباس في أول أمرهم لم يكن لهم عدو إلا مثل هذا الرجل ؛ لأن بنى أمية إذا كانوا قد وصلوا إلى الخلافة بالخبث والحيلة والجرأة على الحق ، فإن بنى العباس كانوا أسوأ في هذه المجالات كلها وأبعد ، وجدُّهم العباس دخل الإسلام في نفس الوقت الذى دخل فيه أبو سفيان ، بل إن أبا سفيان لم يحارب الله ورسوله في بدر ، وحاربه العباس ، وأحفاده أبناء على بن عبد الله بن العباس ضلّلوا الناس وموهوا عليهم واستظهروا على أمرهم بكل جبار ، واستغلوا حب الناس لآل البيت من أبناء فاطمة وعلى ليفوزوا بالخلافة بالغش والتدليس ، ونحن ننكر الوراثة في رئاسة الأمة جملة ، فأمة الإسلام لا تورث ، وهى في حقيقتها أمة حرة من المؤمنين لا يلي أمرها إلا من تختاره لرياستها عن رضا منها وطواعية ويكون لها الحق في خلعه إذا أساء ، فكيف وبنو العباس يقولون : إن الخلافة ميراث لهم عن النبى - ﷺ - هذه الأمة كلها بأرضها وناسها ميراث لهم كأنها بيت أو عقار ، وهذه حقيقة يعرفها أهل الفكر ولا يعرفها من الناس من غسل الطغاة ورجالهم أذهانهم ، وألحوا في الغسل حتى لم تعد لهم أذهان ، ومن هنا فلا حياة لأهل الفكر معهم ، وهل تصدق مثلاً أن أبا جعفر المنصور عندما استتب له الأمر ذهب ليزور دمشق قاعدة الأمويين ، فلقبه أعيانها ، فجعل يلومهم على تأييد بنى أمية على بنى هاشم ، فأقسموا له أنهم ما كانوا يعرفون أن لرسول الله قرابة إلا في بنى أمية ، وهذا كله من التضليل وغسل الدماغ ، فكيف والله يرضى بنو العباس أن يكون هناك وجود معهم لرجل مثل عبد الحميد الكاتب يعرف الإنسان والتاريخ ؟

ثم إن عبد الحميد كان يعرف خراج الدولة وأموالها ومصادرها ومواردها ، وبنو العباس لا يحبون من يعرف ذلك دونهم ؛ لأنهم لا يطمنون على سلطانهم إلا في أمة جاهلة ، ولهذا قرروا قتله دون ذنب كان له إلا العلم والفكر وعلو الهمة ، ولقد طلب إليه مروان بن محمد عندما استبان له أن أوان بيته قد زال ، أن يدخل في خدمة أبى عبد الله السفاح ، ويسعى في كسب ثقته ، ثم يتوسط لمروان بن محمد ! فأبى عبد الحميد ذلك ،

وقال : وكيف لى بأن يعلم الناس أن هذا عن رأيك ؟ وكلهم يقولون : إنى غدرت وصرت إلى عدوك ! وهذا الرجل العاقل الأريب الصادق لا حياة له مع الطغاة ، وكان كتبة بنى العباس والقائمون على شئون المال فى دولتهم الجديدة أشد من الخلفاء رغبة فى قتل عبد الحميد ! لأنه كفيل بتعريف الخليفة حقائق أموال الدولة ، وهم يريدون أن يظل الأمر فى أيديهم سرّاً مقفلاً عليهم لكى ينهبوا كما يريدون ، ولهذا فما أن قتل مروان بن محمد حتى حمل عبد الحميد إلى أبى العباس ، فسلمه إلى عبد الجبار بن عبد الرحمن ، فكان يحمى طسناً ويضعه على رأسه ، فلم يزل يفعل به ذلك حتى قتله ..

وهل يخطر ببالك أن أبى العباس السفاح أسف لحظة على موت هذا الرجل الفريد فى بابيه ؟ لا والله ! ولا أهمه الأمر لحظة ، ومن الذى مات ؟ رجل من أهل الفكر ! فى ستين ألف داهية ! ولقد حكوا أن رجلاً من صغار أهل العلم كان يخدم إبراهيم بن أحمد الأغلبى ويكتب له فبينما هو داخل مرة لقي عبداً خصياً ممن يخدمون فى الحريم ، فسارع العبد وحمل الدواة والورق للفقير ، فلما دخلاً على إبراهيم بن أحمد على هذه الصورة سب العبد على أن سمحت له نفسه أن يحمل الدواة والورق للفقير ، وأمر الفقير الشاب بأن يحمل نعل الخادم ويضعه على رأسه ، وقال له : أنت أهل ثقتى والمؤتمن على حريمى تحمل الدواة لصعلوك من الكتاب يجلس إلى قمطر على باب القصر يكتب لهذا بدرهم ولهذه بدرهمين ؟ !

ورجل آخر من أهل الفكر كان يكتب لإبراهيم الإمام بن محمد بن على بن عبد الله ابن عباس ، وهو الرأس الماكر الكبير الذى دبر مؤامرة تحويل الخلافة إلى بيت العباس كلها خفية عن الناس وغشاً للأمة ، وكان يكتب له رجل من أصل فارسى يسمى بكر بن ماهان ، وكان بكر هذا قد زوج ابنته من شاب من مساعديه يسمى حفص بن سليمان الملقب بأبى سلمة الخلال ، وكان ذكياً أريباً موهوباً ، فتقدم الصفوف ، ولما أحس إبراهيم الإمام قرب وفاته جعل أبى سلمة رأس الدعاة ، أى أنه أصبح كما نقول اليوم

رئيس المخابرات والدعاية ، فهو يعرف الدعاة وسر الدعوة ، ويعرف الأموال التي كان دعاة بنى العباس يجمعونها باسم الصدقات لآل البيت ، وكان الناس لضيقهم ببنى أمية يميلون إلى دعوة أهل البيت ويؤدون للدعاة أموالاً تسمى الصدقات ، فاجتمعت من ذلك ملايين من الدنانير لا يعلم بأمرها إلا مثل أبى سلمة ، ولكن إبراهيم الإمام قبل موته كان قد اتفق مع أبى مسلم الخراساني على أن تكون الدعوة لبنى هاشم ، فإذا كان النصر أخذ البيعة ممن عنده لأخيه أبى عبد الله السفاح ثم لأخيه الثانى أبى جعفر ، ولم يخبر بذلك أبا سلمة الذى كان شديد الإخلاص لآل البيت العلويين ويحسب أن الدعوة لهم ، ولهذا فقد كان لقبه الرسمى وزير آل محمد .. ولما انهزم ابن هبيرة آخر المدافعين عن دولة بنى أمية فى واسط ، ودخل القائدان العباسيان حميد والحسن ابنا قحطبة الكوفة ، سلما الأمر لأبى سلمة وزير آل محمد ، وتصرف الرجل على أنه وزير آل محمد فعلاً دون أن يعلم بما دبره إبراهيم الإمام مع أبى مسلم من وراء ظهره ، فبادر الوزير التعيس وكتب يعرض الخلافة على ثلاثة من آل على منهم جعفر الصادق ، وكان جعفر رجلاً ذكياً يحس أن بنى العباس لا يمكن أن يخدموا آل على ، فأحرق كتاب أبى سلمة أمام الناس ، ليرى الملأ أنه زاهد فى الخلافة غير راغب فيها حتى لو عرضت عليه ، فكان فى عمله هذا حتف أبى سلمة ! ذلك أن أبا العباس السفاح وأبا جعفر المنصور لم يلبثا أن أهلا على الكوفة مع الجند يطلبان الخلافة ، فظن أبو سلمة أنهما متهوران متسرعان ، فاستوقفهما ومن معهما من آل العباس فى موضع يسمى « قصر مقاتل » قرب الكوفة ، وأقام ينتظر رد جعفر الصادق ، ثم سمح لهم بدخول الكوفة ولكنه أخفاهم فى دار بعيدة نحو شهرين خوفاً عليهم فيما ظن ..

ودخلت جيوش العباسيين الكوفة ، فسأل قائدها عن ابن الحارثية وهو أبو العباس ، فلما عرف مكانه دخل عليه وسلم عليه بالخلافة وبايعه وقبل يده ورجله ! ومنذ متى عرف الإسلام تقبيل اليد والرجل ؟ والله ما سمعنا أن سيد الخلق محمداً رسول الله سمح لرجل أن يقبل يده فضلاً عن رجله ! لا ولا عرفها أبو بكر أو عمر ، لأن أمة الإسلام كانت أمة صحابة رسول الله ..

وبلغ خبر دخول أبى عبد الله السفاح أبا سلمة فأسقط فى يده ، فأسرع مع رجاله إلى أبى العباس ليبايعه ، واستفتحوا الباب وقالوا : وزير آل محمد ! فأسمعوه بعض ما

يكره ، ثم فتحوا له بعد حين ، فدخل فاستقبل القبلة فسجد وسلم وقبل يد أبى العباس وقدميه ، وبدأ فى الاعتذار فقال أبو العباس : عذرنك يا أبا سلمة غير مفند ، وحقق لدينا معظم وسابقتك فى دولتنا مشكورة ، وزلتك مغفورة ، انصرف إلى معسكر لا يدخله خلل ، فانصرف إلى معسكره بحمام أعين ..

يقول محمد بن عبدوس الجهشيارى فى كتاب « الوزراء والكتاب » : إن أبا العباس هَمَّ بأبى سلمة [رغم الصفح والأمان] فقال له داود بن على [عمه وشبيهه فى الطغیان وقد مات قتيلاً على يديه] لا آمن عليك أبا مسلم إن فعلت أن يستوحش ، ولكن اكتب إليه فعرفه ما كان من أمر أبى سلمة [يريد بما كان من أمر أبى سلمة فى الكتابة إلى من كتب إليه من ولد على] وما كان أجمعه من صرف الدعوة إليهم ، فوجه أبو مسلم بالمرار ابن أنس لقتل أبى سلمة ، فلما وافاه ، أمر أبو العباس قبل قتله بثلاثة أيام - منادياً ينادى بالكوفة : إن أمير المؤمنين قد رضى عن أبى سلمة .

ثم دعاه قبل مقتله بيوم ، وكان يسمر عنده ، فخرج ليلته تلك يريد الانصراف إلى منزله ، وقد كمن له المرار بن أنس وأسيد بن عبد الله فقتلاه ، وأغلقت أبواب المدينة فقيل لأبى العباس : إن أبا سلمة قتله الخوارج ! فقال : لليدين والفم ! [عبارة معناها عندنا : فى ستين داهية] وقتل فى رجب ١٣٢ هـ ، وهذا الغشاش الغادر الكاذب هو الذى أصبح خليفة المصطفى ﷺ والأمين على أمة الإسلام ! وهو الذى قال فى خطبته الأولى على منبر الكوفة يخاطب الأمة : « لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله ﷺ وذمة العباس رحمه الله أن نحكم فيكم بما أنزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير فى العامة والخاصة منكم بسيرة رسول الله ﷺ » .

أجل ! وفى رأى هذا الطاغية هى سيرة رسول الله ﷺ ! وهذا هو السر فى موت أبى سلمة ، فإن أبا سلمة فعلاً قد انخدع وأخطأ ، ولكن هذا خطأ لم يتأت منه شر ، ولكن جريمة أبى سلمة الكبرى هى أنه كان رجلاً ذا فكر وضمير ، وما دامت الدعوة للرضا من أهل البيت فإن أبناء على وفاطمة هم من ترضاهاهم الأمة من آل البيت ، وليسوا قطعاً إبراهيم الإمام وأصحابه فى تدبيرهم مع أبى مسلم .

دعوة الحق لا بد أن تموت ، وصوت الحق لا بد أن يخمد ، وأبو سلمة لا بد أن يموت .

ثم إن أبا سلمة كان يعرف كل الحقائق : أسماء الدعاة وشبكات الدعوة والأموال ومقاديرها ، ما أنفق منها وما بقى ، ومن أخذ منها وكم أخذ ، وهذا العلم كله من الممكن أن يتسرب إلى الأمة ، والأمة لا ينبغي أن تعلم شيئاً لا عن حقائق الأمور في دولتها ولا عن أموالها ، وإذن فليمت أبو سلمة : ليموت معه علمه كله ، والموت أصبح المصير المحتوم لكل من يعلم ، لكل من يفكر ، لكل من يعرف الحق ، والحياة حق لرؤوس الغنم دون غيرها ، وهى اليوم ميراث يورث كالمتاع والماشية ، ألم يقل عبد الله بن على عم أبى العباس مكملاً خطاب ابن أخيه على منبر الكوفة : إن الله أحيا شرفنا وعزنا ورد علينا حقنا وإرثنا ..

لهذا السبب نفسه كان لا بد أن يموت عبد الله بن المقفع ، وكان عبد الله بن المقفع أديباً ومفكراً عظيماً ، ورسالته المسماة برسالة الصحابة أى صحابة الخليفة ونصحاؤه وأهل دولته ، تدل على فكر سليم وعقل صاف وقريحة وقادة وعلم غزير ، وما بقى لنا من كلامه يدل على عقل وفهم وعلم واسع ، وكان قد طال به العهد بالكتابة للأمراء وولاية الأعمال ، فانتسع علمه وزادت خبرته وعظمت مكانته حتى تصاغت بالنسبة إليه مقادير أجلاف الكتاب من أمثال سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ، فكرهوه وأبغضوه وسَعَوْا في هلاكه ، وكان أبو جعفر المنصور أمين الله على أمته - كما زعم - يتحين فرصة للإيقاع به ، وكان ابن المقفع يعمل كاتباً لعيسى بن على عم المنصور ، وكان المنصور قد أوقع بمعظم أعمامه ، وهم جبابرة حسبوا أنهم شركاء ابن أخيه في ملكه ، فكان في هذا موتهم ، وبقى منهم اثنان : عبد الله بن على وعيسى بن على ، وكانا أقلهم شراً وأضعفهم حيلة ، فطلب عبد الله إلى ابن المقفع كاتب أخيه عيسى أن يكتب لأبى جعفر ليؤمنه ، فوافق أبو جعفر ، وتولى عبد الله بن المقفع كتابة نص الأمان ، فكتبه واحتاط في كتابته حتى لا يدع لأبى جعفر حيلة في الغدر بعبد الله بن على ، ووردت في نص الأمان عبارات أحس منها أبو جعفر مهانة له ، وسأل بعد أن قرأه : من كتب له هذا الأمان ؟ فقيل : ابن المقفع كاتب عيسى بن على ، فقال أبو جعفر : فما أحد يكفينيه ؟

ومعنى ذلك أن أمين الله في خلقه أهدر دم الرجل عقاباً له على علمه وذكائه وفكره ، وما أن حصل خدم المنصور على الإذن في قتله حتى تسارعوا وكل منهم يرجو أن يكون

هو السفاك القاتل الذى يعصى الله ويرتكب الكبيرة الشنيعة إرضاء لخلوق غدار ، وفاز بغضب الله في هذا الوطن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ، فدبر حيلة للقبض على ابن المقفع وقتله إذا زاره في عمل ، وقد كان ، ووقع ابن المقفع في يد غريمه فقيده بالحديد وألقى به في غرفة مظلمة ، وزعم لخدام ابن المقفع أن مولاه خرج ، فلما انفض مجلس سفيان قام فدخل على ابن المقفع وأبلغه في لهجة المتشقى أنه حكم عليه بالموت ، وكيف قتله ؟ أحمى التنور وهو الفرن وألقى به فيه فيما يقال قطعة قطعة ، وهذه والله طريقة في قتل الناس لم نسمع بها في أسود أيام الجاهلية قبل الإسلام وعند أدخل الشعوب في الجاهلية والقسوة ، ولكن المسلمين عرفوها بعد الإسلام والنور والهدى ، وخصوا بها المجرم الأكبر وهو رجل الفكر والعلم .

وضاع أمر الرجل ! تصنع أبو جعفر التهم بأمره ، ثم تراخى ، وضاع أمر الأديب بل نهب ماله ؛ لأن ذلك كله كان عن أمر الخليفة .

ومحمد بن عبدوس الجهشياري وأبو جعفر الطبرى يرويان خبر مقتل الأديب المفكر دون لفظ إنكار أو كلمة عطف ، كأن الذى مات أهون من دجاجة ذبحت لطعام ، بل تبرع رجل من أهل الفكر من دعاة بنى العباس ، فزعم أن ابن المقفع قتل ؛ لأنه كان زنديقاً يعبد النار في السر ويظهر الإسلام .

لقد انتهى عصر رجل الفكر الحر ، الذى يحسب أنه ضمير الأمة ، وبدأ عصر الأديب الذليل الذى يعتبر نفسه عبد السلطان ولا يستحى من المذلة من أمثال أبى دلالة الشاعر الذى قال متسولاً بين يدي المنصور :

هَبَّتْ تعاتبنى من بعد رقدتها أمُّ الدلامة لما هاجمها الجزعُ
قالت : تبغ لنا نخلاً ومزدرعاً كما لجيراننا نخل ومزدرعُ
خادع خليفتنا عنها بمسألة إن الخليفة للسؤال ينخدعُ

فتفضل الخليفة عليه بما طلب من أرض يملكها ويزرعها فقال أبو دلالة لأبى جعفر : أتأذن لى في تقبيل يدك ، فهم يفعل فمنعه : لا تواضعاً بل تظاهراً بالتواضع ، فيقول أبو دلالة قولاً هو الغاية في الذلة والصغار والخوف : ما معنى [الخليفة] شيئاً هو أقل على عيالى ضرراً من هذا !

بقيام دولة الخليفة السلطان الحاكم بأمره انتهت أيام صاحب الفكر ، وصدق قول من قال : اثنان لا يجتمعان : طاغية وصاحب فكر حر ، وثلاثة يجتمعون دائماً : مستبد طاغية غاشم ، وامرأة عاهر ، وإنسان داعر ! وأناطول فرانس يحكى فى رواية « الآلهة عطشى » : إن الرسام الصغير إيفارست جاملان نظر إلى لوحة « مدام ريكامبيه » لرسام عصر الثورة الفرنسية الأكبر « جاك لوى دافيد » وقال لصاحب له : ترى هل أستطيع أن أرسم لوحة مثل هذه ؟ فقال له صاحب صانع اللعب : ولا دافيد نفسه يستطيع الآن ! فأمثال هذه الغانية مضت مع أيام عشيقها الملك ، ولم يعد مفروضاً عليك أن تقف بباب القصر وتطلب العيش برسم العاهرات .. الآن نحن فى عصر الثورة والحرية ، فعليك أن ترسمنا نحن صعاليك الشوارع ، ودافيد نفسه أخرج للناس اليوم لوحة موت سقراط التى رسمها قبل الثورة ، وكان يخاف منها فأصبح يفخر بها .. !

أما صاحب الفكر الحر الذى يقول ما يخطر بباله فقد كتب عليه أن يعيش مطارداً ومشرداً ، يأكل يوماً ويجوع أياماً ، يحب الناس فنه ويخشون فكره ولسانه ، وأمامك حياة بشار بن برد ، وهو عبقرية شعرية نادرة ، عاش بعض عمره أيام بنى أمية وبقيته أيام بنى العباس ، وكان رجلاً خارق الذكاء واسع العلم ، فطره الله على قول الشعر ، فكان يتنفسه تنفساً ، وبلغ من ذكائه أنك تقرأ شعره فلا تظن إلى أن قائله محروم من نعمة البصر ، فهو يرى ببصيرته ما لا يراه أهل النظر ، ورجل كهذا يكون من طبعه عدم الاحتياط ، ولا يزال ذهنه الوقاد وشاعريته المرسلة يرميان به فى المعاطب ، وهو لهذا فى عصر الطغاة مهدر الدم أبداً ، أضف إلى ذلك أن الرجل لم يرزقه الله من حسن الشكل شيئاً فكان قبيح الصورة تفتحمه العيون ولا تمتلئ منه نفس ، وكان هو متبذلاً فى مأكله وملبسه ، فلم يكن على هيئة تدعو إلى توقيره ، فكثرت الزراية به ، وهان أمره على الناس فأكثرُوا فيه ، وأحس هو ذلك منهم فأطلق لسانه فيمن ناله منهم أذى ، وأقذع فى هجوه فكثُر أعداؤه ، وكان شعره الجميل يزيد بلواه ؛ لأن أبياته المحكمة البديعة كانت تطير فى الناس طيراناً ، فلما كثر أعداؤه هان عليه أمر الناس والمجتمع ، فلم يعد يحتشم فى قول أو فعل ، واشتهر أمره بالمجون والتبذل وقلة التحفظ ، ولكننا لا نستطيع الحكم السليم على شاعريته ، فكل ما لدينا من شعره لا يزيد على ثلاثمائة وعشرين بيتاً هى كل ما ورد لنا عنه فى كتاب الأغاني ، وما جمعه الخالديان وهما أبو بكر وأبو عمر خازنا كتب سيف الدولة الحمدانى ، مع أن بشاراً نفسه يقول إنه صنع نحو اثنى عشر ألف

قصيدة ، والغالب أن الناس تحاموا حمل شعره وحفظه لما كان فيه من الفحش والتبذل والوقوع في أعراض الناس فضاع معظمه .

ولكن هذا كله لا يبيح قتله ؛ لأن هذا الرجل كان لاتساع شاعريته مصور عصره بكل ما فيه ، حتى ما وصف بالفاحش من شعره كان صورة لما شاع في عصره [٩٦ - ١٦٨ هـ / ٧١٤ - ٧٨٤ م] من تبذل ، وقد هبط بشار بالشعر من دنيا النجوم والكواكب واللائىء إلى أرض الناس ، وقال الشعر في كل شيء وأراد له سوء حظه أن يكتسب عداوة يعقوب بن داود وزير الخليفة المهدي ، ثالث خلفاء بنى عباس ، فقال فيه أبياتاً أحفظ بها الوزير والخليفة معاً ، فقال يخاطب الزاهبين من بنى أمية أعداء العباسيين :

بنو أمية هبوا ! طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود

وهذان البيتان وأمثالهما هَوْنًا دم الرجل في عصر هانت فيه الدماء جميعاً ، وخاصة دماء أهل الفكر ، فأغرى الوزير الخليفة فأمر بقتله فضر به نحو سبعين سوطاً ومات تحت الضرب سنة ١٦٨ هـ / ٧٨٤ م وقد جاوزت سنه السبعين بشهور ، وإذا كان بشار قد قتل على المجون ، فقد كان نصف كبار رجال الدولة شركاءه في ذلك ، وأولهم الخليفة المهدي نفسه ، فقد كان ماجناً فاسقاً يستر فسقه بظاهر من الورع ، وكان الوزير نفسه على رأس قائمة الفاسقين ، ولكن دم رجل الفكر كان أهون على الناس من قلامة ظفر ، فقتل الرجل ولم يأسف على موته أحد .

ومسكين رجل الفكر تحت رحمة الطغاة ، على رأسه تحط كل الذنوب ، وبه وحده يحل كل عقاب ؛ لأنه لمجرد كونه رجل فكر - عدو الطاغية محكوم عليه أبدأً بالموت .

الْمَفْكَرُ وَالْمَتَسَوِّلُ وَالنَّدِيمُ وَالْمَهْرَجُ وَالْمَعْلَمُ

منذ سنوات طويلة أهدانى الصديق الأديب محمد عبده عزام ديوان أبى تمام حبيب
ابن أوس الطائى من تحقيقه ، فتصفحته وقلت :

– هل هذا كل شعر أبى تمام ؟ !

فقال : هو والله كل شعره ، نشرناه كما جمعه الصولى ، وراجعناه على ما جمع على
ابن حمزة الأصفهاني من شعره .

قلت : ما أظن هذا بقية ما استطاع أبو تمام أن يقول من الشعر ؛ لأنه لو قال كل ما
كان يدور في نفسه لقتلوه ، كما قتلوا دعبلاً الخزاعى وابن الرومى ؛ لأن أهل الفكر عندنا
أصبحوا منذ أن قامت سطوة الدولة كالدواجن ، قص الظلم أجنحتهم فاستحال عليهم
الطيران والتحليق ، وأصبحوا متاعاً تملكه الدولة إذا هم رضوا بأن يكونوا دواجن ، فإذا
تمرد واحد منهم على الدولة وأراد التحليق والتعبير عما في نفسه بحرية وصدق قصوا
جناحه بالضرب والسجن والتعذيب ، أو قصوا رقبتة من أصلها إذا خافوه وتبينوا أنه
عصى على الترويض والتدجين ، فالذين خضعوا واستكانوا وساروا في ركاب الدولة
أمنوا سطوتها وعاشوا ، ومعظم هؤلاء طووا الحقائق في نفوسهم ، ألقوا أسلحتهم
واستسلموا ، وقالوا ما سمح لهم السلطان أن يقولوا ، وظل الباقي في نفوسهم حبساً
حتى ماتوا به ، أما الباقيون من المتمردين على الظلم والطغيان فقد اغتالتهم أيدي
الظالمين قبل أن يقولوا ما يريدون ، وأنا أقول لك : إن مثل الفكر العربى في ذلك مثل جبل
الثلج العائم في مياه المحيط ، فالذى تراه العين منه هو السُّبع البادى للعيان ، وأما
الباقي ، وهو ستة أسباع فقد غرق في مياه بحر الظلمات !!!

وأمامك تاريخ الفكر العربى كله إلى مطالع العصر الحديث .

تعال نطبق عليه هذه القاعدة لنرى إن كانت تصدق أو لا تصدق .

* * *

ونبدأ بعصر صدر الإسلام ، فنقرأ أسماء الظاهرين من أهل الفكر : من الشعراء وأهل الأدب ولدينا أسماء [جميل بن معمر ، وعمر بن أبي ربيعة ، والأحوص ، والأخطل ، والفرزدق ، وجريز ، وعبيد الله بن قيس الرقيات ، والطرماح بن حكيم ، والكميت بن زيد الأسدي] وهذه هي أسماء الكبار من أهل الصف الأول ، وفيهم كفاية لطلبتنا هنا ، فنجد أن جماعة من هؤلاء قد بالغوا في الخضوع والطاعة حتى تركوا شئون الأمة جملة ، وانصرفوا إلى اللهو والعبث والغزل والتشبيب ، وهؤلاء جميعاً شعرهم جميل مطرب ، ولكنه هامش الأدب لا صلبه ولا لبابه ؛ لأن الأديب الجدير بهذا الاسم ينبغي أن يكون لسان قومه ، وضمير أمته ، المعبر عن أفكارهم وآمالهم وآلامهم ، كما كان الشاعر الجاهلي لسان قومه المعبر ، حتى الذين بالغوا في الفخر من الجاهليين كانوا يرفعون بمبالغاتهم شأن قومهم ويخيفون أعداء قبيلتهم حتى يخشاهم الناس ، وهل هناك أبلغ في هذا من لامية العرب للشَّنْفَرَى ، حيث نجد الشاعر الصادق يبدأ بلوم أهله على تقاعسهم في طلب المعالي ، حتى إنه يقول : إنه زهد فيهم ولا يريد أن يكون منهم :

أقيموا بني قومي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميل

ثم يمضى فيمدح قومه فيجعلهم سادة الناس قوة وبسالة وحماسة ، أو يذكر فضائل نفسه على أنها مثال لفضائل قومه ، فهو كريم زاهد في الطعام ، إذا وضعه لم يتهافت عليه ولا يسابق غيره فيه ، وإنما هو رجل ابن نعمة شبعان ، يضع الطعام للناس ويسعد إذ يراهم يأكلون بين يديه ، حتى إذا شبعوا جلس هو فأصاب من الطعام أيسر اليسير .

وهو — أي الشاعر الجاهلي — في أثناء كلامه يذكر أسماء أماكن وعيون ماء في مواطن قبيلته ويفخر بها وجمالها كأنها وديان تجري فيها الأنهار وتنبت فيها الأشجار الوارفة الظلال ، وما هي بذلك طبعاً ، وإنما هو البدوي الحر الأبى الذي يتمسك بالحرية وعزة النفس ويرى في الصحراء الجرداء ذلك الجمال كله ، ويستغنى بكرامته وعزة نفسه عن خفض العيش في ظل كسرى وقيصر .

واستمع إلى جابر بن حنّ التغلبي المتوفى / ٥٦٤ م قبل ميلاد رسول الله ﷺ بنحو

سبع سنوات ، وهو هنا يبدى ألمه لتفرق أمر قومه ووقوع الفتنة بينهم ، وقد كانوا قبل ذلك أقوياء يرهبهم الأكاسرة والقيصرة :

لتغلب أبكى إذ أثارت رماحها	غـوائـل شر بينهـا مُتـلـم
وكانوا هم البانين قبل اختلافهم	ومن لا يشد بنيانه يتهدم
إذا نزلوا الثغر المخوف تواضعت	مخارمه ، واحتله ذو المقدم
أنفت لهم من عقل قيس ومرثد	إذا وردوا ماء ، ورمح بن هرثم
ويوماً لدى الحشار من يلو حقه	يـبـزـبـز وينزع ثوبه ويلطم
وفي كل أسواق العراق إتاوة	وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم
وقيظ العراق من أفاع وغدة	ورعى إذا ما أكلوا متوحم
ألا تستحي منا ملوك وتتقى	محارمنا لا يبوء الدم بالدم
نعاطي الملوك السلم ما قصدوا بنا	وليس علينا قتلهم بمحرم
وكائن أزرنا الموت من ذى تحية	إذا ما ازدرانا أو أسف لمأثم
وقد زعمت بهراء أن رماحننا	رماح قصارى ، لا تخوض إلى الدم

فانظر كيف يعتز هذا الشاعر الجاهل بصحرائه ويفضلها على أرض العراق حيث يجبى رجال الأكاسرة الإتاوات والمكوس ، ويبلغ الأمر أن يقول : إن قبيلة بهراء التي خضعت للروم لم يعد أهلها بقادرين على القتال ، أما التغلبيون فأبناء صحراء على الفطرة ، كلهم شجاعة ونجدة رغم فقرهم .

فقارن بهذا شعر عمر بن أبي ربيعة المخزومي ، سليل آل مخزوم الذى دجن ، وانفصل عن قومه ومضى ينفق أيامه فى الجرى وراء الغوانى والتشوق إليهن والبكاء ضعفاً أمامهن :

كتبت إليك من بلدى	كتاب مـولـه كـمـد
يمسك قلبه لهيب الشوق	بين السحر والكبد
فيمسك قلبه بيـد	ويمسح دمعـه بيـد

وعمر بن أبى ربيعة كان يشهد مأسى ما يقع للمسلمين على يد طغاة بنى أمية ،
فيغمض عينيه ويجد في هذا الشعر الضعيف السلامة من الأذى وأمن السرب والصدعة
وخفض العيش ، ومثله في هذا جميل بن معمر العذرى وشعره في بثينة :

فلو أرسلت بثينة يوماً تبتغى يمينى ، وإن عـزّت على يمينى
لأعطيتها ما جاء يبغى رسولها وقلت لها بعد اليمين : سلىنى

ثم خذ بعد ذلك الثلاثة الكبار من شعراء العصر الأموى : الأخطل أبا مالك غياث بن
غوث بن الصلت الذى باع نفسه وضميره لمعاوية وبنى أمية ، وقال مثل البيت التالى
الذى خان فيه ضمير أمته العربية :

ذهبت قريش بالمكارم والعلا واللؤم تحت عمائم الأنصار

واقرا أبياته التالية التى يقول فيها : إن بنى أمية خلفاء الله فى أرضه ، وإن
الله نصرهم على عـلى بن أبى طالب ، ومن أيده خاصة الأنصار ، أى أنصار رسول
الله ﷺ .

إلى امرئ لا تعدينا نوافله	أنظره الله ، فليهنأ له الظفر
الخائض الغمرة الميمون طائره	خليفة الله يستسقى به المطر
نمت جدودهم والله فضلهم	وجد قوم سواهم خامل نكد
هم الذين أجاب الله دعوتهم	لما تلاقت نواصى الخيل ، فاجتلدوا
ويوم صفين ، والأبصار خاشعة	أمدهم — إذ دعوا — من ربهم مدد
على الألسى قتلوا عثمان مظلمة	لم ينههم نشد عنه وقد نشدوا

وهذا مثال من شعر الشاعر الذى باع نفسه وضميره للسلطان ، ومثل هذا الرجل
كثير جداً ، والغاية الأخيرة عندهم هى كسب المال ، فإن بنى أمية كانوا يعطون أمثاله
عن كرم : لأنهم يعطون من أموال المسلمين لا من أموالهم ، ولكن الشاعر يقول فيهم :

قوم إذا أنعموا كانت فواضلهم سيباً من الله لا من ولا حسد

وعلى « هذه الفواضل » أى الإحسانات يهجو كل من نافس بنى أمية :

فألله لم يرض عن آل الزبير ولا عن قيس عيلان ، قوماً طالما خرجوا

فى هامة من قريش دونها شذب

أما الفارسان الآخرا : الفرزدق أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة ، وجريز ابن عطية الخطفى التميمى ، فقد سلكا فى الفكر والشعر مسلكاً غريباً ، فأما الفرزدق فقد نسى تماماً أن الشاعر لسان قومه وضمير أمته ، وانصرف يستخدم شاعريته الفذة أسوأ استخدام ، فهو يذم رجال بنى أمية حيناً ويمدحهم حيناً ، ويمدح ابن الزبير مرة ويهجوهم أخرى ، ثم حج ومدح علياً زين العابدين وتجاوى عن بنى أمية فحبسوه ، ولكنه عاد يمدح بنى أمية ، وأسرف فى هذا حتى لقب سليمان بن عبد الملك بالمهدى .

ثم هجا آل المهلب ، ثم مدحهم ، ثم هجاهم ، وعندما صارت الخلافة إلى هشام بن عبد الملك مدحه بعد أن كان يهجوهم أميراً ، وهو فى غلوائه تلك ينسى أن أمة الإسلام واحدة ، فيأخذ هو جانب مُضَرٍ - لأنه مضرى - ويحمل على اليمن خصوم المضريين ، مع علمه - وهو الرجل الشاعر اللبيب - أن كل قتنة المضرية واليمنية ابتدعها وأجج نارها بنو أمية ليسودوا بها العرب جميعاً .

فقل لبنى مروان : مابال ذمة	وحرمة جدّ ليس يرعى ذمامها
ألا فى سبيل الله سفك دمائنا	بلا جرمة منا يبين اجترامها
أرى مضر المصرين قد ذلّ نصرها	ولكن قيساً لا يذل شامها
فغيره أمير المؤمنين ، فـإنها	يمانية حمقاء أنت هشامها

ثم يتعب الشاعر من طول التنقل والهرب من الولاة ، فيستسلم للخليفة الوليد بن يزيد ويقول فى بنى أمية :

أما الوليدُ فإن الله أورثه بعلمه فيه ملكاً ثابت الدعم
خلافه لم تكن غصباً مشورتها أرسى قواعدها الرحمن ذو النعم
كانت لعثمان لم يظلم خلافتها فانتَهك الناسُ منه أعظم الحرم

وأما جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي ، فنشأ فقيراً في بني تميم وتكشف حين شب عن شاعرية باهرة ، وبدلاً من أن يعتز بقومه وصحرائه كما كان الجاهليون يفعلون ، نراه يجرى لبيع شاعريته لبني أمية ، وتدركه الغيرة من الأخطل شاعر البلاط الأموي فيريد أن يجاريه في التسول فأسرع يمدح عبد الملك بن مروان ويذم ابن الزبير ، بل هو لم يوقر الأموات فهجا ابن الزبير بعد موته ، وفي أثناء ذلك يقع في الفرزدق وتهيج بينهما العداوة ، ويقم الشعاعان مسرحاً هزلياً كله جراءة على الحق وإسفاف في القول وتشاتم بالآباء والأمهات وتنابز بالألقاب ، وأصبحت نقائص جرير والفرزدق ضحكة الناس وتسلية العصر ، والشاعر - وهو ضمير قومه - أصبح مهرجاً مضحكاً ، فيقول جرير في الفرزدق :

ألا إنما كان الفرزدق ثعلباً ضفاً وهو في أشداق ليث ضبارم
لقد ولدت أم الفرزدق فاسقاً وجاءت بوزواز قصير القوائم

وضفاً : معناها صاح ، والضبارم : الأسد القوى ، والوزواز : هو الإنسان الخفيف الطائش الذي لا يعتدل في مشيه .

وقد أفحش في هذه القصيدة وتجاوز حده حتى أغضب كثيراً من الناس ورد عليه الفرزدق بقصيدة أفحش منها قال فيها :

وإن حراماً أن أسب مقاعساً بأبائي الشم الكرام الخضارم
ولكن تصفوا لو سببت وسبني بنو عبد شمس من مناف وهاشم
أولئك آبائي فجنني بمثلهم وأعيذ أن أهجو كليباً ودارم

ودارم : هي قبيلة جرير .

ويدخل في هذه المأساة الأليمة الأخطل شاعر البلاط الأموى والراعى عبيد بن حصين النميرى وأبو النجم الراجز وهو الفضل بن قدامة العجلي من بكر بن وائل ، وهكذا يتخلل أولئك الفحول عن رسالتهم الرفيعة ويتركون الأمة وقضاياها ومشاكلها وينصرفون إلى هذا العبث يبتغون به إضحاك الناس تارة ونيل أموال بنى أمية تارة أخرى ، وإن الإنسان ليعجب كيف جاز لأولئك الشعراء الفطاحل أن ينحطوا بملكاتهم التى لا شك فيها إلى هذا الدرك الأسفل من نسيان وظيفتهم وإهدار كراماتهم والانحطاط بالفكر كله إلى مستوى يصعب علينا تصويره أو تصوره .

وأمامى نقائض جرير والفرزدق وطبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي ، وطبقات الشعراء لابن المعتز والجزء السابع من كتاب الأغاني ، ولا أصدق عيني فيما أقرأ من البذاءات والعبارات التى كانت تجرى على السنة أولئك الشعراء دون حياء أو خجل ودون تكلف ، وهذا هو أسوأ الظواهر ؛ لأن العيب إذا صدر عن الإنسان طواعية دون تكلف كان معنى ذلك أن الإحساس الخلقى نفسه قد خف ورق حتى لم يعد له وجود .

ويقول بعض العارفين بتاريخ العرب : إن السياسة هى التى أفسدت أخلاق الناس وجعلت أهل الأدب ينحرفون هذا الانحراف ، ونقول لهؤلاء : إن أهل السياسة فى تلك العصور ليسوا أهل فكر ، إنما هم كانوا رجال مطامع ودنيا ، وليس فى الدنيا من يقول : إن وظيفة رجال السياسة تقويم أخلاق الناس ، إنما هذا واجب أهل الفكر ، وإذا نسى الناس جميعاً حقيقة الأمة ووحدتها وصالحها ومبادئها ، فإن هذا لا يجوز لرجال الفكر ، وها هى ذى دواوين الشعراء الجاهليين فقل لى : أين تجد شاعراً منهم خان قومه أو قبيلته وحمل عليها عن سوء نية أو طلباً للمال ، أفكان الجاهليون أيقظ ضميراً وأوعى ذهنأ وأبعد نظراً من شعراء ما بعد الإسلام ؟ الجواب : نعم .

وقد حذر من ذلك رسول الله ﷺ فى إحدى خطبه الثلاث فى حجة الوداع قال : إن المسلم أخو المسلم : إنما المسلمون إخوة ولا يحل لامرئ مسلم دم أخيه ولا ماله إلا بطيب نفس منه ، إنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله ، ولا تظلموا أنفسكم ولا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، إنى تركت فيكم ما لا تضلون به : كتاب الله ! ألا هل

بلغت ؟ قال الناس : نعم ، قال : اللهم اشهد [الواقدي ، مغازي ٣ / ١١١٣] وهذه المعاني كلها واردة في القرآن مرة بعد أخرى ، وهي الميزان الخلقى لأمة الإسلام ، ولكن رسول الله ﷺ يجعلها هنا في صورة الميثاق المباشر بين صاحب الرسالة الذي بلغها وكل فرد من أفراد الأمة على حدة ، فلعل بعض الناس لا يذكرون شيئاً من آيات العهد والميثاق بين الله سبحانه والمؤمنين ، ولعل بعضهم الآخر يقرؤها دون أن يفهمها أو دون أن يتفطن إلى معانيها ، فيضعها رسول الله ﷺ هنا موضع الميثاق المباشر بينه وبين كل مؤمن ، فإن بعض الناس لا يفهمون إلا إذا واجهتهم وألقيت الكلام في وجوههم مباشرة وصككتهم بالحق صكاً .

ولكن إخواننا بعد رسول الله نسوا ذلك كله ، وعادوا لا ينفع معهم صك على الوجوه أو صفع على القفا ، فعادوا ضلالاً كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض ، وكان واجب أهل الفكر أن يقفوا في وجه هذا التيار أو ينبهوا إلى خطورته ، وهذا أضعف الإيمان ! فما بالك وأصحابنا تدهوروا إلى ما هو دون أضعف الإيمان هذا ، فساروا دون حياة في موكب الظلم والقتل بل تدنوا إلى ما دون ذلك فجعلوا أنفسهم ندامى أو مضحكين ومتسولين أو مسوخاً بين الناس . وعندما يصل أهل الفكر إلى هذا المستوى فقد ألغوا وجودهم أصلاً ولا يقل لى هنا أحد : ولكن جريراً أبعد في النسب ، والفرزدق تجلى في الصور والأخيلة وعمر بن أبي ربيعة تلالاً في الغزل فأقول لك : والله ما كنا بحاجة إلى نسب جرير إذا صدر عن قلب مريض ، ولا إلى صور الفرزدق إذا طلعت من نفس هزيلة ، ولا إلى غزل ابن أبي ربيعة إذا جاء من قلب خلى ، جعل الحياة ضحكة وذيل امرأة وخذ أخرى .

ومن جميل ما يستوقف نظرنا أن بعض شعراء ذلك العصر كانوا ملتزمين جادين شاعرين بمسئوليتهم وكانت لهم مواقف سياسية واضحة قائمة على شعور أخلاقي سليم ، وهؤلاء عرّضوا أنفسهم للخطر وواجهوا الظالمين دون خوف وهتفوا بأرائهم غير هيابين فكانت جدبتهم وسلامة خلقهم سبباً في احترام الحكام إياهم وهيبتهم لهم فتعقبوهم ولكنهم هابوهم ، فلم ينالوا من شرفهم أى مبلغ وظلوا رغم غضب الدولة عليهم أعز مكاناً ممن باعوا أنفسهم ونسوا رسالتهم وتدنوا بأدبهم ، وأمامك أشعار عبيد الله بن قيس الرقيات والطرماح بن حكيم والكميت بن زيد الأسدي ، فهؤلاء جميعاً

ظلوا معظم أيامهم إلى جانب الأمة على الظالمين ، حقاً إن بعضهم كانوا متشيعين لآل البيت من دون الأمة ، ولكن هذا موقف سياسى اختاره الرجل ، وأنت تحترمهم لموقفهم مهما كان رأيك مخالفاً لرأيهم ، ولا يقلل من فضلهم أن بعضهم تعب في النهاية ومال إلى مهادنة بنى أمية أو بنى العباس ، فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، ولا نطلب من كل إنسان أن يكون حديداً إلى النهاية ، كما كان قطرى بن الفجاءة ، والإنسان لحم ودم ، فإذا بذل أقصى وسعه ثم تعب فلا تثريب عليه ، والغريب أن هؤلاء الأحرار من الشعراء الذين وقفوا موقف الرجال ورفضوا أن يبيعوا ضمائرهم وعانوا الكثير في سبيل ذلك يضعهم ابن سلام وابن المعتز في الطبقة السادسة وما دونها من شعراء العصر الإسلامى ، أما شعراء الطبقة الأولى فهم جرير والأخطل والفرزدق والراعى أى المادحون المهرجون بالنقائض .

ولكن أمامك إذا شئت شعر الخوارج وأظنك تميل معى الآن إلى القول بأنهم ليسوا بخوارج ، وإنما الآخرون هم الخوارج وهل تعتبر أبا العباس السفاح ممثلاً للأمة ، وقطرى بن الفجاءة غير ممثل لها ؟ إذا كان الإسلام هو الشورى واحترام العقيدة والتزام الخط الأخلاقى الإسلامى واحترام كرامة الإنسان فالأزارقة والصفورية والإباضية إلى هذه المعانى أقرب من سواهم ، ولكن رجال الحرب والسياسة أخرجوا الأمة عن منهاج الله وجعلوها رعية ، وجعلوا أنفسهم رعاة ، وجاء معظم رجال الفكر فجعلوا أنفسهم حداة هذا القطيع الحزين ، والقلة الباقية من أحرار الفكر والرأى الذين آمنوا بالشورى وحكم الجماعة ورفضوا استبداد بنى أمية ورجالهم وبنى العباس وأنصارهم أصبحت تسمى خوارج ، وحكم الظالمون عليهم بأن يعيشوا خارج الأسوار كأنهم خوارج على القانون ، وإذا لم يعجبك تشدد الأزارقة الحرورية فأمامك الصفورية أصحاب زياد بن الأصفر وكانوا أرفق من غيرهم في محاربة عدوان الظالمين ومن أيدهم ، وأمامك بعد ذلك إذا كنت لا تريد أن تقف موقف المعادى للحكام المتصدي لحربهم ، أمامك جماعة الإباضية أتباع عبد الله بن إباض المرى التميمى ، فهؤلاء لا يكفرون الجماعة ولا يعلنون الحرب على الوداعين .

وإنما هم ينشئون جماعتهم الشورية الحرة بعيداً عن أيدي رجال الدولة ، في جبال عمان تارة أو في جبال المغرب تارة أخرى ، حتى لا يبيعوا إيمانهم ببخس ولا يذلوا

رقابهم لجبار ولا يفرطوا في أمانة الإسلام وكرامات المؤمنين .

هل بلغت أخبار غزاة الحرورية تلك المرأة الباسلة التي وقفت عند مبدئها وأعلنت الحرب على جبار العصر الحجاج بن يوسف الثقفي ، وهاجمت البصرة مع رجالها فرعب الحجاج وطلب العون من جنده وأعجب بها شاعرٌ يسمى عمران بن حطان ، فذهب إليها ليردها عن مذهبها خوفاً عليه فطوته بإيمانها تحت جناحها وقال أبياته التي لا بد أنك سمعتها يخاطب فيها الحجاج :

أسد عليّ وفي الحروب نعامة	ربداء تجفل من صغير الصافر
هلا برزت إلى غزاة في الوغى	بل كان قلبك في جناحي طائر
صدعت غزاة قلبها بفوارس	تركت منازلها كأمس الدابر

وهذا الرجل الشهم قال يخاطب الفرزدق :

أيها المادح العباد ليعطى	إن لله ما بأيدي العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم	وارجُ فضل المقسم العواد
لا تقل في الجواد ما ليس فيه	وتسم البخيل باسم الجواد

وهذا الرجل الكريم يفخر بأنه لم يكذب في شعره قط ، واستمع إليه يقول في ذلك مخاطباً امرأته وكان اسمها جمر :

يا جمر إنى على ما كان من خلقى	مئن بخلاّت صدق كلها فيك
الله يعلم أنى لم أقل كذباً	فيما علمت وإنى لا أزكيك

ولكن واحداً من أهل الفكر في صدر الإسلام رباً بنفسه عن معظم ذلك وقام بواجب المفكر الحر ، وجعل نفسه معلم أمتة ومربيها وخادمها بفكره وما منحه الله من علم ، ولكي يقوم بهذه المهمة هادن السلطان وحاول إصلاح حاله ورفض في الوقت نفسه أن

يدخل في خدمته حتى لا يكون من أدواته وأعوانه ، وهذا الرجل هو الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر [١٥٩ - ٢٥٥ هـ / ٧٧٥ - ٨٦٩ م] معلم العرب ومثقفهم ، وقد زان هذا العصر كله بأدبه وفكره وعلمه وخلقه ، وهو جدير منا بوقفة هنا ؛ لأنه مثال لصاحب الفكر الذى عرف كيف يوازن بين حريته واستقامة خلقه وما فرضه أهل السلطان على الناس من ظلم وجبروت وانحراف .

وقد نشأ الجاحظ نشأة متواضعة ، ولكن فكره واجتهاده رفعاه عن مذلة الحاجة ، فأخذ طريقه صعوداً كالشهاب وهو منسوب إلى كنانة ، ولكن الغالب أنه مولى من أصل إفريقي سمى به ملكاته إلى مراتب فحول العرب ..

وهب الله الجاحظ ذهنًا وقادراً وقريحة حافظة وملكة أدبية قل أن نجد لها نظيراً ، ولكنه لم يركن إلى ملكاته ، فمضى ينميها بالقراءة والدرس وبلغ من إقباله على ذلك أنه كان يقيم في دكاكين الوراقين أى بائعى الكتب حتى يقرأ كيف شاء .

نشأ الجاحظ في البصرة ودرس مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن على المؤدبين ، ثم انطلق يطلب العلم في رحاب مساجد البصرة وهى مولده ومهده ومغنى شبابه ، وكانت البصرة إذ ذاك عاصمة الفكر في عالم الإسلام ، وقد اشترك عالمان معاصران في تعريفنا بأحوال البصرة ونظام الناس الاجتماعى فيها والجو الفكرى الذى كان يسودها .

الأول هو : د / أحمد الصالح على رئيس المجمع العلمى العراقى فى كتابه « التنظيمات السياسية والاجتماعية فى البصرة » وهو من كلاسيكيات الدراسات التاريخية العلمية .

الثانى هو : المستشرق الفرنسى المعروف شارل بيلا فى كتابه الكلاسيكى أيضاً « البيئة البصرية وتكوين الجاحظ »

Le Mifiev Iasiem et la formation du Djohis (Paris 1953)

وهذه مناسبة أقول فيها لبعض الناس عندنا : كفى حملة على المستشرقين واتهاماً لهم بالحق والباطل ، فإن فيهم محسنين كما فينا محسنون ، وفيهم مسيئون كما أن فينا مسيئين ، وأفضلهم على النهضة الأدبية وبعث التراث العربى لا تنكر ، وما تعلمنا

نشر النصوص وتحقيقها على الضبط إلا منهم ، وما عرفنا فهرسة الكتب على وجه الدقة إلا على أيديهم ، وهذا الجاحظ درسه من علمائنا نفر كبير ، ولكن الذين قرأوه ودرسوه من المستشرقين أكثر ، وفيهم أسماء جديرة بكل احترام من أمثال شارل بيللا و « ا . ج أربري وفرانشيسكو جابرييلي وجوستاف فان فلوطن وج فنكل و أوريشر » وشارل بيللا بالذات أنفق سنوات طويلة من عمره يدرس الجاحظ وينشر نصوصه ويكتب المقالات عنه ، وهو الوحيد الذي أتانا بثبت كامل لكتابات الجاحظ ما ظهر منها وما لم يظهر في مقال له عظيم في مجلة أرابيكا التي تصدر في باريس المجلد الثاني من سنة ١٩٦٢ .

وهذا الكلام لا يقلل من أهمية العمل الجليل الذي قام به علماءنا في نشر أعمال الجاحظ ، وأذكر منهم هنا بالشكر والعرفان عبد السلام هارون ، وطه الحاجري ، وحسن السندوي ، وهم من أجلاء العلماء .

نقول : إن الجاحظ درس على نطاق واسع وهو رجل علم نفسه بنفسه شأنه في ذلك شأن الكثيرين من أعلام الفكر عندنا من أمثال ابن حزم ، وعباس محمود العقاد ، فبدأ بشهود مجالس المساجدين وهم ناس من أهل الفكر كانوا يجلسون في المساجد للمناقشة ، ثم درس على بعض الشيوخ وأفاد منهم قدر ما أفاد من شهود اجتماعات أهل الأدب والفكر في المربد ، وهو سوق الدواب في البصرة ، وهو المكان الوحيد المفتوح لأهل الفكر ليتلاقوا فيه دون حرج ، وهناك أيضاً كان الشعراء يتلاقون ، وما أكثر القصائد العصماء والنقائض التي طارت كل مطار والتي سمعها الناس لأول مرة في سوق الدواب هذا .

حَصَلَ الجاحظ العلم على نطاق واسع ، ونشره كذلك على نطاق أوسع ، وقد اندرج من شبابه في جماعة المعتزلة ، وهم جماعة أحرار الفكر حاولوا ابتداء من القرن الثالث أن ينظروا للدين نظراً عقلياً دون أن يفرطوا في ذرة من إيمانهم ، وهم مدارس شتى حاولت - كل منها بطريقتها - أن توفق بين العقل والدين ، وكان الناس يظنون أن بينهما تناقضاً ، مع أن العقل هو الدين والدين هو العقل ، وما منع المعتزلة من أن يقودوا حركة فكرية كبرى إلا أنهم ظنوا أنفسهم طبقة فوق الناس بعلمهم ، فتعالوا على الأمة ، ولم ينفعوها بعلمهم ، كما سنرى في فصل قادم .

وهادن الجاحظ الدولة العباسية لا عن تسليم لها ، بل لأنه مؤدّب ومعلّم ولا يريد أن يدخل في مشاكل مع السلطان ، إنما هو مع العقل دائماً ، فهو يؤيد الصالحين من بنى العباس ومن حسن حظه أنه عاصر — فيمن عاصر — المأمون وهو مع ذلك لم يغمط حق آل علي بن أبي طالب ، ولكن الجاحظ كان يزن كلامه بالعقل ويوازن بالحساب ، ففى بعض رسائله لا يذكر العلويين وفي أخرى يثنى عليهم ، وهو يعرف قدر العرب ، ويكتب في فضائلهم ، ولكنه لا ينسى الموالى وغير العرب ، وهو يكتب في فضائل الترك وجند الخلافة وفضائل السودان ، وهو يكتب عن صنوف الحيوان والعلم كتباً هي كلها استطرادات دون منهج ، والرجل لم يتلق العلم على منهج حتى يعلمه على منهج ، فهو يعطيك إياه كما أتاه مرسلاً في كتب كبيرة أو صغيرة فهو بستان وأنت البستاني وهو يزرع وأنت تحصد ، وهو لا يتبذل ولا يتسول أو يطلب وإنما يأتيه المال دون مسألة ، وهو عقل متحرك نشيط يفتح لك الآفاق ويحرك ذهنك ، وهو لا ينسى وظيفته معلماً أبداً فلا يبدأ رسالة من رسائله أو كتاباً من كتبه إلا دعا لك ولنفسه : اعلم أرشدنا الله وإياك وحفظك وصانك .

* * *

المُفَكَّرُونَ فِي وَادِي عَنَقَر وَالنَّاسُ فِي وَادِي سَقَر

لم يبلغ أهل الشعر وأهل الفكر من الغنى والمال والوجاهة في عصر من عصورنا الماضية ما بلغوه خلال العصرين العباسي الأول والثاني ، فقد حكى صاحب الأغاني أن الشاعر سلماً الخاسر المتوفى سنة ١٨٦ ، خلف ثروة مقدارها ٥٠ ألف دينار و ١٥٠ ألف درهم من الضياع ، وسلم بن عمرو هذا كان مداح ملوك ووزراء ، وقد بلغ في هذا النوع من الشعر الرخيص حتى صار يتقاضى عن القصيدة الواحدة ألف دينار وألفين ، وأنت إذا قرأت مديحه أعجبك لفظه دون أن تعجبك روحه ، فهو رجل يتسول على أبواب الملوك ، بمثل قوله يمدح الخليفة المهدي ثالث خلفاء بني العباس :

جمع الخلافــــــــــــــــة والسما	حة والشجاعة في نظام
ملك ضريبة رأيه	أَمْضَى من السيف الحسام
يقضى أمــــــــور المسلميـــــــــــــــــ	من برأى حزم واعتزام
قالت قريش كلها	وهم الكرام بنو الكرام
وخيــــــــار من وطىء الحصا	من بين كهل أو غــــــــلام
فضل المــــــــلوك محمــــــــد	فضــــــــل الحلال على الحرام
فــــــــاسلم أمير المــــــــؤمنيـــــــــ	من فانت رهن بالسلام

وهذا في رأينا شعر لا يساوى ألف دينار ولا عشرة ، ولكن السبب في هذا الكرم هو أن الخليفة المهدي نفسه كان — بصفته خليفة المسلمين — لا يساوى عشرة دراهم ، فإذا جاء سلم بن عمرو هذا ليقول له : إنه أفضل الملوك جميعاً أعطاه هذا المال ، ولا عليه ، فهذا مال المسلمين وضع في يد منافق ضئيل الحجم مثل محمد المهدي هذا ، فصار يعطى منه لكل خادم ومادح ومنافق ، وهذا الخليفة المهدي الذي كان يزعم أنه حامى السنة والجماعة ورمز الإيمان ، كان يقتل الناس على الظن ، بل بلغ به الأمر عندما

غضب على وزيره أبى عبيد الله بوشاية وزير آخر هو الربيع بن يونس ، أن أمر أبى عبيد الله بقتل ابنه بيده بتهمة الزندقة ، فلما قام الشيخ ليضرب عنق ابنه تعثر ووقع ، فأمر رجلاً آخر فقتله ، وكان يحضر هذا المجلس فقيه قاض يسمى عافية بن يزيد ، فطلب إلى الخليفة أن يقبل توبة الرجل ؛ لأنه صاح بإعلانه التوبة ، وحكم الشريعة فيمن يتهم بالزندقة أن يستتاب ، فإذا تاب خلى سبيله ، ولكن المهدي غضب على القاضي ؛ لأنه كان يريد قتل الرجل ظلماً ؛ فأمر بضرب القاضي وإخراجه من مجلسه ، فأخرج على أسوأ صورة .

وكان المنصور والد المهدي قد خلف له في خزائن الدولة ٩٦٠ مليون درهم [والدرهم في ذلك الحين قرابة العشرة قروش] فأنفق المهدي معظم ذلك المال في لذاته وأهوائه .

وهذا المتشدد في الدين ظاهراً كان لا يمانع في شرب الخمر ، وكان ندماؤه من أمثال عمر بن بزيع والمعلّى مولاة يشربون عنده بحيث يراهم الجهشيارى ١٥٩ - ١٦٠ ، وقد أرغم المهدي عمه عيسى بن موسى على التنازل عن ولاية العهد لموسى الهادي بن محمد المهدي ، وأعطاه في مقابل ذلك عشرة ملايين من الدراهم ، وأعطاه ضياعاً بالزبب الأعلى وكسكر [الطبرى ٨ / ١٢٥] كل ذلك من مال المسلمين .

وسلم بن عمرو الخاسر الشاعر الذى قال في الخليفة المهدي هذا الكلام كذباً ، قال شعراً آخر ضعيفاً في تهنئة موسى الهادي بولاية العهد مع علمه بأن عيسى بن موسى تنازل عن ولاية العهد مرغماً ، ثم وافق على التنازل لقاء المال الذى ذكرناه ، فقال سلم يمدح موسى الهادي :

لقد جعل الله في راحتك	حياة النفوس وأجبالها
وجسدناك في كتب الأولين	محيى النفوس وقتالها
وموسى شبيهه أبى جعفر	ومعطى السرغائب سـوالها

وقد أنكر عليه أبو العتاهية هذا التسول وقال فيه :

تعالى الله يا سلم بن عمرو اذل الحرص أعناق الرجال
هب الدنيا تساق إليك عفواً اليس مصير ذاك إلى الزوال ؟

فلما بلغت هذه الأبيات سمع سلم قال : ويلى على ابن الفاعلة ! .. قد كنز في بيته
البدور [أى أكياس الدنانير] ، وأنا في ثوبى هذين ، وليس عندي غيرهما ، وهو ينسبني
إلى الحرص . ابن المعتز : طبقات الشعراء ١٠٥ .

وهذا الكلام يقوله الرجل الذى خلف الأموال الجسيمة التى ذكرناها ، وهو هنا
يشبه عتاة المتسولين الذين يسيرون في أسمال ، والمال في بيوتهم أو ملابسه مخزون .
ومثل سلم الخاسر في ذلك مروان بن أبى حفصة الشاعر ، فقد حكى ابن رشيق في
العمدة أنه خلف ثروة طائلة ، وأن جوائزه عن القصائد كانت تبلغ ١٠٠ ألف دينار
أحياناً ، وكان يفخر بتسوله :

ما زلت أنف أن أولف مدحة إلا لصاحب منبر وسريـر
ما ضرني حسد اللئام ولم يزل ذو الفضل يحسده ذوو التقصير

وهذا مروان بن أبى حفصة لم يكن متسولاً فحسب ، بل كان مزوراً أيضاً ، وهو
صاحب البيت الخسيس الذى قاله متقرباً لبني العباس ومنكراً حق أبناء على بن أبى
طالب في الخلافة :

أنى يكون ؟ وليس ذاك بكائن لبنى البنات ورائة الأعمام ؟

وقد كذب على الواقع بهذا القول ، لأن أبناء على بن أبى طالب لم يكونوا أبناء فاطمة
فحسب ، بل كانوا أبناء ابن عم الرسول ﷺ ، وقد نال مروان بهذا البيت من بنى
العباس مالاً جسيماً ، وكان قبل ذلك يمدح معن بن زائدة ورجال الأمويين ، فلما ذهب
دولتهم تحول بتسوله إلى أبواب السادة الجدد .

وبلغ من وفرة المال في أيدي هذا الطراز من الشعراء أن أبانواس والعباس بن
الأحنف ومسلم بن الوليد الملقب بصريع الغواني كانوا يتنافسون في إنفاق المال دون
حساب ؛ لأنهم كانوا يكسبونه دون حساب أيضاً ، وكانوا يكسبون هذا المال من أيدي

حكام معظمهم ظلمة فاسقون ، فكان مالهم كله حراماً ، وعلى هذا المال الحرام عاش أولئك الشعراء ، فلم يفتح الله عليهم بخير ، رغم أنه كان فيهم شعراء فطاحل رزقهم الله من الشاعرية ما كان جديراً بأن يكون فخراً للعربية وأهلها ، لو أنه وجه في اتجاهات الخير أو الإنسانية ، ولكن هؤلاء العباقرة أنفقوا ملكاتهم الغادرة في أسوأ ما تنفق فيه الملكات : مديح الملوك والسروات والخمریات والطردیات ، وما إلى ذلك مما يعجبك نظمه وجرسه وتسحرك موسيقاه ، ولكنك تخرج منه صفر اليدين أفقر مما دخلت .

وهذا هو الذى يغيظنا من أولئك الأفذاذ ، فإن الإنسان إذا لم يرزق ملكة جلية وكان حظه من المواهب قليلاً ، فمضى يتكسب بالقليل الذى عنده ، لم يكن عتبنا عليه شديداً ، فهذا رجل مسكين يرتزق على قدر ما يستطيع ليقيم أوده ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

أما أن يكون الإنسان عبقرىاً موهوباً من طبقة أبى نواس وهو أبو على الحسن بن هانىء [١٤٥ - ١٩٨ هـ / ٧٦٢ - ٨١٣ م] ثم ينطق شعره وموهبته فيما لا ينفع الناس فى شىء ، فهنا يكون لومنا شديداً ونكيرنا قاسياً ، لأن الله آتانا كنزاً فأبى صاحبه إلا أن يكون سفيهاً ، فأنفق ما عنده فى هباء لا يتحصل منه شىء ، ونحن نقرأ لفحول شعراء الدنيا ، فنجدهم خدموا أممهم بملكاتهم ، وأنشأوا لها صفحات من المجد من أمثال دانتى الليجيرى ووليام شكسبير وولفجانج جيته ، ثم ننظر فيما خلف لنا أبو نواس فتدركنا الحسرة ، ولا نزاع فى أن أبا نواس رزق من الشاعرية والموهبة ما لا يقل عن هؤلاء ، فانظر والله ماذا خلف لهذه الأمة ، ثم انظر إلى ما خلف وليام شكسبير من عالم فياض بالحيوية والابتكار والإبداع والتصرف فى وجوه القول ، وتأمل كم أفادت الأمة الإنجليزية من الحكمة والشاعرية والتجربة الواسعة من شهود مسرحيات مثل يوليوس قيصر وماكبث والملك لير وهاملت وكليوباترة وأنطونيوس وروميو وجوليت ، تجد نفسك أمام صرح عظيم من المجد للأمة وشاعرها ، فماذا قدم لنا أبو نواس بشاعريته ؟ كلام جميل رائع حقاً ، ولكنه خواء فارغ لا يتحصل منه فى النهاية شىء ، والله سبحانه لا يرزق الشاعر شاعريته لينفقها فى دكان خمار ، بل لكى يرفع بها نفسه وقومه .. ويعزها ويعزهم .

وانظر إلى الصرح الذى خلفه جيته من عمق يروع النفس فى فاوست ، إلى رقة تهز المشاعر فى هرمان ودورويينا ، إلى إبداع نفخر به نحن - ونحن غرباء عن الشاعر ولغته - فى قصة آلام فرتر ، ثم تقرأ شعر أبى نواس فتتالك حسرة ! فهذا رجل وهبه الله مثل ما وهب هذين ، فماذا أعطانا من موهبته ؟ حقاً إننا أمة عاثرة الحظ ، وما أعطانا الله خيراً إلا تصرفنا فيه أسوأ تصرف ! وهل فيما وهب الله الناس من الخير شئ هو أعظم من الإسلام ، هداية ورشد وعلم وإيمان وقوة وفكر وصراط مستقيم لو اتبعه إنسان وعرف حقه لساد به الدنيا ، فانظر والله أين نحن من أمم الدنيا ، وكأن الله لم يرزقنا إسلاماً ولا أعطانا إيماناً ، وفى دنيانا هذه أمم لم ينزل الله عليهم كتاباً أو يبعث فيهم رسولاً ، لأن الله سبحانه وتعالى عندما أهدانا الإسلام أمرنا بأن نبلغه إلى الناس كافة ، وأن نحمل الهدى والنور إلى أمم العالمين ، فاجتهدنا جيلين ثلاثة ، ثم قعدت بنا ملكاتنا عن المطلب العظيم ، وأثرنا الدعة ومطالب الدنيا العاجلة ، وبدلاً من أن نسير بالإسلام أمة هى طليعة للخير والمساواة والفضيلة والشورى ، استخدمناه فى إقامة دول للظالمين وبقاء عروش سفاكين ، ويا ليتهم مع هذا كانوا ملوكاً ! لقد كانوا لصوصاً وقطاع طرق وجبارين ظالمين ، أقامتهم الأمة على العروش فكافأوها بالسجون والقتل والنهب ونسيان الإسلام ومعاداة الإيمان .

والصورة التى قدم بها أبو نواس نفسه للدنيا هى نفسها أشد عقابٍ له على ما صنع بملكته ، فهى صورة رجل ماجن مستهتر منحل الأخلاق لا يستحى ولا يرعوى ، وهو طول عمره يتصرف تصرف غلام فاسد مفسود لا يعرف مسئوليته لا عن نفسه أو ملكته أو أمام أمته أو ملكه ، فهل هذا كل ما كان يمكن أن نخرج به من أبى نواس ؟ لا والله ، والرجل كان عالماً دارساً حافظاً ، قال فيه ابن المعتز : كان أبو نواس عالماً فقيهاً ، عارفاً بالأحكام والفتيا بصيراً بالاختلاف ، صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث ، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ، وقد تأدب بالبصرة ، وهى يومئذ أكثر بلاد الله علماً وفقهاً وأدباً ، وكان أحفظ لأشعار القدماء والمخضرمين وأوائل الإسلاميين والمحدثين .

وحدثنى حمدون بن أحمد القصار قال : حدثنى يوسف بن الداية قال : قال لى أبو نواس : أحفظ سبعمائة أرجوزة ، وهى عزيزة فى أيدي الناس ، سوى المشهور عندهم ،

وكان لزم بعد والبة بن الحباب خلفاً الأحمر ، وكان خلف نسيجاً وحده في الشعر ، فلما فرغ أبو نواس من إحكام هذه الفنون تفرغ للنوادر والمجون والملح ، فحفظ منها شيئاً كثيراً حتى صار أغزر الناس ، ثم دخل في قول الشعر ، فبرز على أقرانه وبرع على أهل زمانه ، طبقات الشعراء لابن المعتز ١ - ٢ .

وليس في هذا الكلام مبالغة ، فإن الرجل كان في الحقيقة موهبة يندر أن نجد لها مثلاً في العلم والمعرفة ، وله قصيدة بديعة يفضل فيها اليمنين على العدنانيين ، وكان في أبي نواس نفور من العدنانية لتعاليمهم على الناس وزعمهم أنهم أفضل خلق الله لمجرد أنهم عدنانية ، وهذا تفكير غير إسلامي ؛ لأن الله سبحانه خلقنا سواسية من تراب ، كلنا لآدم وآدم من تراب ، وإنما نحن نتفاضل بالتقوى وهى جماع فضائل الإنسان .
أقول : إن هذه القصيدة تدل على علم واسع جداً بتاريخ العرب ودقيق تفاصيله ، واسمع إليه يقول فيها :

واهج نزار وافر جلدتها	وهتكت الستر عن مثالبها
وأحب قریشاً أحب أحمدها	واشكر لها الجزل من مواهبها
إن قریشاً إذا هى انتسبت	كان لنا الشطر من مناسبها

* * *

أما تميم فغير راحضة	ما شلشل القيد في شواربها
أول مجد لها وآخره	- إن ذكر المجد - قوس حاجبها
وقيس عيلان لا أريد لها	من المخازى سوى محاربها
ومما لبكر بن وائل عصم	إلا بحمقاتها وكاذبها
ولم تقف كلبها بنو أسد	عبيد عيرانه وراكبها

إلى آخر هذه القصيدة التى تدل على علم غزير بتاريخ كل قبيلة ، فهو يقول : إن كل ما تفخر به تميم في تاريخها كله هو رئيسها حاجب بن زرارة ، وكان من شيوخ تميم الذين وفدوا على النبى ﷺ ، وهم يحسبون أنهم أعز أهل الأرض وأعلمهم ، فأراهم

الرسول عن طريق خطباء الإسلام وشعرائه أنهم أجهل الناس ، وهو يذكر من مخازى قيس عيلان قبيلة بنى محرب ما كان من سوء موقفها من الإسلام أيام الرسول ، ويعير قبيلة بكر بن وائل بما اشتهر به زعمائها من الحمق والتراعى فى المهالك .

وهذا الرجل الذى يسوق التاريخ هذا المساق السهل الممتنع كان يستطيع ، لو أنه وجّه شاعريته التوجيه السليم ، أن ينشئ لنا شيئاً هو أعظم من الشاهنامة ، فإن أبا نواس دون شك أشعر من الفردوسى ، ولم يكن حافظ الشيرازى بأعظم من أبى نواس ملكة ، ولكنه كان رجلاً محترماً وإنساناً جليلاً ، فأنشأ من الشعر الإنسانى الفلسفى الجميل ما جعله حقاً من أرفع شعراء الإسلام درجة ومكانة ، وهو علم من أعلام الفكر فى الدنيا ، نقرأ شعره مترجماً إلى كل لسان ، أما أبو نواس فأضاع شاعريته فى مجونه ، وحاله حال رجل أعطيته قارورة عطر رفيع القدر فلم يجد ما يفعله بها إلا أن يصب ما فيها فى بالوعة ! وأقرأ الشعر التالى لأبى نواس فى وصف مجلس خمر ، وقل لى : إن كان من الممكن لشاعر أن يصل بشعره إلى هذه الطبقة من الإتقان مع تفاهة الموضوع وهباء المقصود :

ودار ندامى عطلوها فأدلجوا	بها أثر منهم ، جديد ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى	وأضغاث ريحان ، جنى ويابس
حبست بها صحبى وجددت عهدهم	وإنى على أمثال هاتيك حابس
أقمنا بها يوماً ويوماً ثالثاً	ويوماً له يوم الترحل خامس
تدور علينا الراح فى عسجدية	حبثها بألوان التصاوير فارس
قرارتها كسرى ، وفى جنباتها	مها تدريها بالقسى الفوارس
فللراح ما زرت عليه جيوبها	وللماء ما دارت عليه القلانس

فانظر كيف يصف لك الدار التى شربوا فيها بعد أن رحلوا عنها ولم يبق فيها منهم إلا آثارهم الدارسة ، فأنت ترى آثار زقاق الخمر التى جروها على الثرى ، وعلى الأرض بقايا الزهور التى كانت معهم ، بعضها جف وبعضها ما زال رطباً .

ثم انظر إلى تصويره للكأس التى شرب فيها ، فهو يرى الخمر فيها ذهبية بلون

الذهب ، والكأس مزينة برسوم رسمها فنانون من الفرس ، وهذه التصاوير ترى في أسفلها رسم كسرى وعلى جوانبها تصاوير فرسان يطاردون الظباء وفي أيديهم القسي ، وقد أضيف الماء إلى الخمر فطفأ أعلاها قبل أن يختلط بها ، فبدت تصاوير قلانس الفرسان في الماء .

فهذا مستوى من القدرة الشاعرية لا يصل إليه واصل ، بل إن الرجل يصف أحاسيس نفسه عندما سمع قارئاً يقرأ القرآن ويصل إلى قوله تعالى : ﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين ﴾ قال أبو نواس :

وقرأ معلناً ليصدع قلبي والهوى يصدع الفؤاد العزوما
أرأيت الذي يكذب بالدين فذاك الذي يدعُ اليتيما

وهكذا ينجح أبو نواس دون تكلف في تضمين معنى الآية بل معنى سورة [الماعون] في لمحة خاطفة .

وأنت تسأل : ماذا في الخمر حتى ينفق أبو نواس في الكلام عنها أكبر شطر من شاعريته ؟ .. مع أن الخمر ليست جزءاً من ثقافتنا ، بل إن ديننا حرمها - بحق - حماية للعقل والجسم الإنساني من شرورها ، ولكن شعراءنا مع الأسف الشديد كانوا في أحيان كثيرة يعيشون خارج نطاق الأمة نظاماً وأدباً ودينياً ، أليس من العجيب أن يظهر في مجتمع يحرم فيه شرب الخمر رجل يسمى الحصري القيرواني يؤلف كتاباً في نحو ألف صفحة عنوانه وموضوعه : السرور في وصف الخمر ! سرور في عينك أيها الأعمى القبيح ! وفي فرنسا وهي بلد الخمر فيما نزعهم يظهر في أواخر القرن الماضي شاعر فاسد الطبع عظيم الشاعرية هو أرنور رامبو يفسد من حوله بإباحيته وجراته ، ويجر معه إلى الهاوية شعراء آخرين منهم شارل بودلير وبول ماري فرلين ، وتجتمع حولهم جماعة من الشعراء الإباحيين فينفرد منهم المجتمع الفرنسي ويطلق عليهم الناس هناك اسم الشعراء الملعين Les Poetes Maudits مع أن واحداً منهم على الأقل وهو بول فرلين تاب وأنقذ نفسه من تلك الحمأة وصلح حاله ، وقال شعراً إنسانياً دينياً عظيماً أحبته بسببه الأمة الفرنسية وغفرت له ما سبق من نزواته مع الملعون حقاً أرنور

رامبو ، وصاحبنا أبو نواس أوغل في اللعنة من أولئك الملاحين جميعاً ، فما أكثر خسارتنا معه وفيه .

وأننتقل معك إلى شعراء آخرين ممن وهبهم الله ملكات جليلة حقاً فأنفقوها في التسول والهباء .

أننتقل بك إلى حبيب بن أوس الطائي وهو أبو تمام [١٨٠ - ٢٣١هـ / ٧٩٦ - ٨٤٣ م] وهو رجل نشأ نشأة متواضعة جداً ، فقد ولد بقرية من قرى الشام ، ثم عمل صبيّاً لحائك ، ثم أنتقل إلى مصر حيث سقى الماء في جامع الفسطاط ، وهو في أثناء ذلك يدرس ويجود قريحته حتى ملك ناصية الشعر ، وتفتح عن ملكة شاعرية صافية ، حتى إذا اتصل بالخليفة المعتصم نجد هذا الرجل يتجلى عن شاعر فحل حقاً ، ولكنه يتنكر لأهله وأمه وأصله ، ويصبح شاعراً أرستقراطياً لا يقول الشعر إلا في الملوك والسروات ، ولا يقنع إلا بألوف الدنانير ، ويظهر للناس في أبهة الأمراء ، فكان له كما يقول ابن رشيق في كتاب « العمدة » قهارمة أى خدم وكتاب ، وهو في معظم شعره يغادر الواقع الإنسانى والصدق الشاعرى ، ويسرف في مبالغات ذات وقع جميل ، ولكنها في النهاية لا شىء ، واسمع إليه يقول في مدح المعتصم :

هو البحر من أى النواحي أتيته	فلجّته المعروف والجود ساحله
تعود بسط الكف حتى لو انه	ثناها لقبض لم تطعه أنامله
ولو لم يكن في كفه غير روحه	لجاد بها ، فليتيق الله سائله

وهذا المعتصم الذى يسرف أبو تمام في مدحه هذا الإسراف ، كان طاغية فظاً غليظاً تنكّر للعرب وأسقطهم من الديوان وأخرجهم من ميدان الحرب والسياسة جملة ، وكان جاهلاً غشوماً سيطر عليه قاضٍ جافى القلب يضرب الناس ويأمر بقتلهم ويستبيح

دماءهم عقاباً على إنكار بدعة سخيصة لا معنى لها ولا متحصل وراءها هي بدعة القول
بخلق القرآن ، وأنت في الواقع لا تدري ما يراد بها ، فإن أتقياء المسلمين لا يدخلون في
سخافات وألاعيب ذهنية ، ولا يرضون أن يكون القرآن - معجزة الإسلام الكبرى -
موضع سفسطة ، فإن القرآن كلام الله سبحانه خلقه عندما أراد ونزله على نبيه بالحق
عندما شاء ، فما معنى الجدل في شأنه وامتحان الناس في القول بأنه مخلوق أو
قديم ؟ ..

ولكن فرقة من فرق المعتزلة على رأسها أحمد بن أبي دواد خرجت على الناس بهذه
البدعة وملكت أذن الخليفة المأمون ، واستخدمت السلطان فجعلت من مسألة فكرية
محنة إسلامية ضرب الفقهاء فيها وسجنوا وعذبوا ، وجاء المعتصم وهو جاهل جلف من
أم تركية ، فأسرف في هذا الطريق ، وهذا هو المعتصم الذي يقول فيه أبو تمام هذا
الهرء ، وأنا هنا أتناول المعتصم من زاوية التاريخ الفكري ، وأترك جانباً ناحيته
السياسية والعسكرية ، فقد كان المعتصم من أكابر خلفاء الإسلام نجدة وشهامة
وفروسية .

وهل هناك أنكر من قول أبي تمام في مدح المعتصم :

سور القرآن الغر فيكم أنزلت ولكم تصاغ محاسن الأشعار

فهل يسمح لرجل فكر يحترم نفسه أن يزل هذه الزلّة ويقول : إن سور القرآن
أنزلت في طواغيت من أمثال أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور ومحمد الهادي
وأبي إسحاق المعتصم ؟

ومع ذلك فالرجل يا أخى شاعر عظيم الشاعرية وأنت قطعاً تذكر بيتيه :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألوه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

وهل هناك أرق وأبدع من قوله في الربيع :

دنيا معاش للورى حتى إذا حل الربيع فإنما هي منظر

وقبل أن أستطرد في ذكر أولئك الشعراء والمفكرين أحب أن أعلن لك سبب نفوري منهم ونقدى الشديد لهم ، فهؤلاء الناس تركوا الأمة في أشقى حال ، وقصروا فنهم على الملوك والقصور وأصحابها ، وباعوا رسالة الشاعر وأمانة الفكر واشتروا بها الذهب واللازورد والعسجد واللجين ، وشغلوا أنفسهم بطلب المال .

وسأتيك — في الختام — بصفحات من تاريخ الطبرى لنرى كيف كان الناس يعيشون ويعانون من الظلم والقهر والحرمان في ذلك العصر ، وأصحابنا أهل الفكر غارقون في الخمر والنعيم والمال والجنس والشذوذ .

والفقرات التالية تصور حالة بغداد وأهلها في عصر الرشيد وابنيه الأمين والمأمون من بعده ، وما أصاب الناس من فتنتهما من شر بالغ .

قال أبو جعفر الطبرى يصور لنا ظلم القضاة في عصر المهدي وسرعتهم في الحكم على الناس دون تحقيق سليم : لما حبس المهدي عبد الله بن مروان [بن محمد آخر خلفاء بني أمية] احتيل عليه ، فجاء عمرو بن سهلة الأشعري ، فادعى أن عبد الله بن مروان قتل أباه ، فقدمه إلى عافية القاضي [وعافية كان اسمه] ، فتوجه عليه الحكم أن يقاد به [أى يعدم عقاباً له على القتل] ، وأقام عليه البينة ، فلما كاد الحكم يبرم جاء عبد العزيز بن مسلم العقيلي إلى عافية القاضي يتخطى رقاب الناس حتى صار إليه فقال : يزعم عمرو بن سهلة أن عبد الله بن مروان قتل أباه ، كذب والله ! ما قتل أباه غيرى ، أنا قتلت به بأمر مروان ، وعبد الله بن مروان من دمه برىء ، فزال عن عبد الله بن مروان ولم يعرض المهدي لعبد العزيز بن مسلم ؛ لأنه قتله بأمر مروان ..

[الطبرى ٨ / ١٣٦]

وقد تسرع القاضي في الحكم على عبد الله بن مروان ؛ لأنه كان يعلم أن المهدي — شأنه في ذلك شأن بنى العباس جميعاً — يريد أن يقتل كل أموى على الأرض بأى سبيل ، فتقرب إلى السلطان بدم مسلم برىء ، وكان عبد الله بن مروان رجلاً صالحاً ، ومع ثبوت براءته فقد قتله المهدي بعد ذلك ظلماً بتهمة أخرى .

وقال الطبرى في حوادث سنة ٢٠١ هـ . يصف أحوال أهل بغداد مع اللصوص وقطاع الطرق وقيام الناس عليهم : « كان السبب في ذلك أن فساق الحربية [أى فساق

حتى الحربية ببغداد ومعظمهم من الجند المرتزقة [والشطار الذين كانوا ببغداد والكرخ
آذوا الناس أذى شديداً ، وأظهروا الفسق وقطع الطريق وأخذ الغلمان والنساء علانية في
الطرق ، فكانوا يجتمعون فيأتون الرجل فيأخذون ابنه ، فيذهبون به فلا يقدر أن
يمتنع ، وكانوا يسألون الرجل أن يقرضهم فلا يقدر أن يمتنع عليهم ، وكانوا يجتمعون
فيأتون القرى ، فيكاثرون أهلها ، ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال وغير ذلك ، لا
سلطان يمنعهم ، ولا يقدر على ذلك منهم ، لأن السلطان كان يعتز بهم [يعتز
باللصوص] ، وكانوا بطانته ، فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يركبونه ، وكانوا يجوبون
المارة في الطريق وفي السفن وعلى الظهر ، ويخفرون البساتين [أى يفرضون إتاوة
خفارة على أصحاب البساتين] ويقطعون الطريق علانية ، ولا أحد يقدر عليهم ، وكان
الناس منهم في بلاء عظيم .

وكان آخر أمرهم أن خرجوا إلى قطربل ، فانتهبوها علانية ، وأخذوا المتاع والفضة
والغنم والبقر والحمير وغير ذلك ، وأدخلوها بغداد ، وجعلوا يبيعونها علانية ، وجاء
أهلها فاستعدوا السلطان عليهم ، فلم يمكنه إعداؤهم عليهم [مساعدتهم] ، ولم يرد
عليهم شيئاً مما أخذ منهم ، وذلك آخر شعبان » .

* * *

مَعَ الْخَلِيفَةِ الْمَلِكِ اخْتَلَّ مِيزَانُ الْمُجْتَمَعِ كُلِّهِ

كان البحتري [أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى ٢٠٦ — ٢٨٤ هـ / ٨٢١ — ٨٩٧ م] صنو أبي تمام في الفصاحة والشاعرية والغنى والتسول بالشعر ، وكان تلميذه ومضاهيه ، وقد عاش الاثنان في عصر أسود كله أزمات وحروب وثورات وانقلابات وجرائم وتعاسة ، وقد عمت التعاسة في هذا العصر — القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي — كل الناس من الخليفة إلى الوزير إلى الخفير وساكن الريف وساكن المدينة ، لأن الظلم إذا بدأ على يد طاغية جبار مثل معاوية بن أبي سفيان أو أبي العباس السفاح يكون في بدايته لعبة مسلية يتصور الظالم أنه وحده مالك سرها والمستمتع بخيرها ، ولكنه إذا استمر زاد وعم حتى شمل الجميع ؛ لأنه كالنار إذا شبت ووجدت من يؤجج لهيبها استشرت وأتت على كل شيء .

وأنت تقرأ أخبار هذا القرن الثالث في مطول مثل تاريخ الطبري فتشعر كأنك تختنق لكثرة الظلم وسفك الدماء ومصارع الناس وبحر الدماء ، ثم تقرؤها في مختصر مثل تاريخ ابن الأثير فيزداد ضيقك لأن ابن الأثير مؤرخ صحفى النزعة ، فهو يشغف بالأخبار الفاجعة والنكبات الاليمة ، ويسردها عليك في عجلة تدور معها رأسك ، وقد توالى على عرش بنى العباس في حياة البحتري تسعة خلفاء هم المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد ، وبعض هؤلاء حكم فوق العامين الهجريين بقليل ، وأطولهم حكماً المعتصم ، فقد حكم حوالي إحدى عشرة سنة هجرية ، وقد شهدت هذه الفترة حادثين سياسيين على أكبر جانب من الخطورة :

الأول : هو استيلاء الجند التركي على الخلافة وتصرفهم في الخلفاء حتى صارت دولة الخلافة كلها بكل ما فيها ومن فيها فريسة بين أيديهم ، يتقاسمونها فيما بينهم .

والثاني : هو محاولة الخليفة المتوكل [٢٣٢ — ٢٤٧ هـ / ٨٤٧ — ٨٦١ م] القضاء على سلطان الأتراك والعصف بهم وتحرير الدولة من سلطانهم ، ولم يكن ذلك شهامة منه وعزة أو غضباً للعروبة وأهلها أو لبني العباس واسمهم ، بل كان طمعاً في

الأموال التى ظن أنها بأيديهم والخيرات التى كانوا يستمتعون بها ، ولكنه لم يكن رجل هذا الموقف أو القادر على القيام به ، فقد كان رجلاً سكيراً فاسداً منحط الخلق صاحب نسوان وغلمان وطعام ، وقد دبر مؤامرتة أسوأ تدبير وأقله حزمًا وبعد نظر ، وبلغ من سفاهة عقله وانحطاط خلقه أنه فى الليلة التى قتلوه فيها كان قد شرب أربعة عشر رطلاً من النبيذ — قل ١٤ زجاجة ! — وكان قد أمر أصحابه بأن ينبهوه إذا هو شرب سبعة أرطال أى أكواب كبيرة ، ويخرجوا الخدم حتى يستطيع رجاله القيام بالضربة الحاسمة ؛ فلا هو تنبه ولا رجاله نبهوه ، وكان التعيس مخلصاً ابنه أحمد المنتصر يخافه ويهيئنه ويعتزم تقديم ابنه المعتز عليه فى ولاية عهده ، وعرف ذلك المنتصر فاتفق مع الأتراك على قتل أبيه .

وكان المتوكل قد قرر مع أصحابه — وأهمهم وزيره الفتح بن خاقان — أن تكون الواقعة بالأتراك يوم الخميس الخامس من شوال سنة ٢٤٧ هـ .

ومن يقرأ هذا يظن أن المتوكل لا بد قد أحكم أمره وتربص بجنده ورجاله قبل الواقعة بأسابيع بل بشهور ، ولكن هذا الأحق جلس يأكل يوم الثلاثاء بالليل وهو على حال من الاستهتار وقصر النظر تدعو إلى العجب ، وأتى بابنه المنتصر فجعل يهيئنه ويسقيه على رغمة ويصفعه ، بل بلغ الأمر به أن طلب إلى وزيره الفتح بن خاقان أن يقوم فيصفع ابنه على قفاه ؛ ثم أعلن خلعه من ولاية العهد ، قال الطبرى : [٩ / ٢٢٥ وما بعدها] فقال المنتصر : يا أمير المؤمنين لو أمرت بضرب عنقى كان أسهل على مما تفعله بى ، فقال : اسقوه ! ثم أمر بالعشاء فأحضر ، وذلك فى جوف الليل فخرج المنتصر من عنده ، وأمر بناتاً غلام أحمد بن يحيى أن يلحقه ، فلما خرج وضعت المائدة بين يدي المتوكل ، وجعل يأكل ويلقم وهو سكران .

ثم خرج المنتصر [ابن الخليفة] إلى حجرته وقد أحكم أمره مع الأتراك على قتل أبيه الليلة وهو على الطعام سكران ، فإذا أقبل المتوكل على الطعام والشراب قام كبير المتآمرين وهو بغا الصغير بإخراج من فى المجلس وأغلق الأبواب ثم أدخل على المتوكل الرجال الموكلين بقتله وهم يغلون وبغا وموسى بن بغا وهارون بن صوراتكين ، وكلهم أتراك ، فضربه يغلون بالسيف على كتفه فكسرها وقطع أذنه ، ثم بدأت المذبحة فقتل الخليفة ووزيره ، وذهب القتلة إلى المنتصر ؛ فهناؤه بالنجاح والخلافة ، ففرح بها

واستبشر وزعم للناس بعد ذلك أن الفتح بن خاقان الوزير قتل أباه فقتله به .. !

هذا الحادث الجلل الرهيب وقع وشاعر العصر البحرى موجود ، وكان شاعر الخليفة والقصر ، فلم يشر إليه ببيت شعر أو كلمة ، ويزعم بعض الناس أنه حضر مشهد القتل ، ولكن ذلك غير صحيح ، ولكن الذى حدث هو أن البحرى استمر فى مديحه ، فمدح الابن القاتل كما كان يمدح الأب القتيل .

وكان البحرى — إذ ذاك — فى عنفوان صيته وقد جمع مالاً وفيراً وأصبح من الأثرياء ، ولو كان رجل غيره شاعرى النفس والإحساس لزهدته هذه الحادثة فى الدنيا وما فيها ، ولعاد بعد ذلك إلى بلده منبج — إلى شرقى حلب — وتفرغ فيها لشعره ، ولو أنه كان عربياً عزيز النفس لأغضبه ما حدث ولأسف على ضياع الفرصة فى التخلص من الأتراك الذين أذلوا العرب خاصة ، ولكن البحرى كان عربياً زائفاً وإن كان من طيء ، وكان غير عزيز النفس ، فلا هو ريع لما حدث ولا غضب له ولا تأثر به ، بل أسرف فى خدمة السادة الجدد واستمر فى مدحهم كأن هذا الشعر لا يخرج من عقله وقلبه بل من جيبه .

وتسأل الآن : ما الذى جعل أولئك الناس على تلك الحالة من موت الضمير وهوان النفس وجحود القلب فلا شيء يحكمهم غير المال والمتعة ؟ .. والبحرى هذا الذى كان يقول شعراً بديعاً هو البلاغة بعينها كان رجلاً متدهوراً منحرفاً حتى لقد اشتهر بغلام له يسمى نسيماً كان لا يفارقه يوماً ، ثم باعه لصاحب له يسمى أبا الفضل بألفى دينار ، ثم تحسر عليه بعد ذلك فجعل يرجو صاحبه أن يرد عليه الغلام ، ثم قال شعراً مخجلاً يستعطف أبا الفضل ، فأبى أبو الفضل أن يرد الغلام إلا فى مقابل كل مال البحرى ، فرضى البحرى وكتب على نفسه كتاباً بذلك لشدة ولعه بالغلام ، واسترده فعلاً ، ثم عطف عليه أبو الفضل فأعفاه من وثيقة التنازل عن أملاكه ، وفرح الشاعر بذلك ولم يخجل ، مع أن الرجل وجه إليه كلاماً مهيناً وحذره من هجاء الأحرار وقال : فإن لهم مكاييد يضل فيها هجوك ومدحك .. [ابن المعتز : طبقات الشعراء من ٣٩٢ — ٣٩٤] .

* * *

والجواب على ذلك هو أن أولئك الشعراء كانوا رغم إتقانهم صناعة الشعر ، بعيدين عن حقيقة الشاعرية وصدق الإلهام ؛ لأن الشاعر الصادق - مثله في ذلك مثل كل صاحب فن أو علم صادق - ينبغي أن يخرج من صفوف الناس ويظل متصلاً بهم مشاركاً إياهم الإحساس والعاطفة ، فيكون ما يصدر عنه من صور الفن كالفاكهة الطيبة التي تخرج من أرضها ، وأنت إذا تأملت الفاكهة ، أو ما يخرج من نبات الأرض الطيبة ، لم تجده دائماً حلو المذاق أو أنيق المنظر ، إنما هو طبعي صادق ، وهذا حسبه ، وهذا هو المنبع الوحيد الصادق للفن الحقيقي : أن يكون صادقاً طبيعياً غير مفتعل ، وهكذا كان الشعر عند الجاهليين ، كان على رغم حوشية ألفاظه أحياناً ، شعراً سليماً صادقاً تقرؤه فتشعر فيه بأن الشاعر صادق مع نفسه صادق مع قومه ، حتى إذا بالغ في كلامه تجد أن هذه المبالغة جزء مما يريد الشاعر أن يقوله وما يريد قومه أن يسمعوا منه ، وعمرو بن كلثوم لم يكن كاذباً عندما قال :

إذا بلغ الوليد لنا فطاماً تخرله الجبابر ساجدين

لأن الذي يريد أن يقوله هذا الشاعر هو أنه من قوم أعزة مرهوبين ، وهو إذ يقول ذلك يريد أن يخيف القبائل الأخرى ويردها عن العدوان على قبيلته ، لأنهم كانوا يعيشون في جزيرة قاسية قليلة الخير . وألحياة فيها صراع بقاء ، ولا دولة هناك تحمي ولا قانون مفروض ، إنما كل قبيل يعيش وينجو من الهلاك على قدر قدرته في الثبات والبقاء ، وللبقاء أسلحته ومنها الشعر الذي يؤكد قوة القبيلة ويرد عنها طمع الطامعين ، والناس كانوا لذلك في أمن نسبي ، وأنت تقرأ أخبار حرب البسوس التي يقال : إنها استمرت أربعين سنة ، وتحصى القتل والجرحى فيها فإذا هم لا يزيدون على أصابع اليدين ، ثم يتدخل أحد الحكام أو الحكماء ويصلح ذات البين وتسوى الديات ويسكن الحال ، فاذكر إلى جانب ذلك معركة مرج راهط التي دارت بين الأمويين واليمنيين في جانب والزبيريين والقيسيين في جانب آخر ، تجد القتلى ستة آلاف في يوم واحد ، ويدركك العجب ، ولا داعي للعجب هنا ، فإن حرب البسوس كانت حرباً طبيعية مشروعة للبقاء ، فهي طبيعية في أسبابها ونوع الحرب فيها ونتائجها . أما مرج راهط فكانت حرباً سياسية ساق إليها الطمع ، فالأمويون فيها طامعون مثل الزبيريين ، وكلاهما كان يتصارع للفوز بسيادة الأمة وانتهاج خيراتها ، ولو أن عبد الله بن الزبير

انتصر فيها لما كان خيراً من الأمويين ، ولما قل ظلمه عن ظلمهم ، وحرب المسلم مع المسلم على السلطان وسيادة الناس حرب ظالمة مهما كانت غايات المتحاربين فيها ، وهذه الأمة ليست غنيمة حتى يتحارب الطامعون على سيادتها ، وصدق رسول الله ﷺ عندما قال في مثل هذه الحرب : القاتل والمقتول في النار .

ذلك أن أمتنا هذه قدر الله لها أن تكون أمة حق وأخوة ، والأمر فيها شورى والجدال بالحسنى بل بالتى هي أحسن ، ولا يستعمل السلاح إلا خارج نطاق الأمة في حرب أعدائها ، ما عدا حالة إقامة القانون وتطبيق الشرع ، ولقد أقام الرسول أمة المدينة وظل فيها عشر سنوات وبضعة أشهر فلم تقم بداخلها فتنة ، وكان المنافقون وأعداء الأمة كثيرين يعرفهم رسول الله ﷺ وأصحابه بأعيانهم .

ولكن الرسول كان يجادلهم بالحسنى ويطيّل لهم في حبال الصبر لعل الله يهديهم . وبهذا يقول القرآن الكريم ، ولقد رفض أكثر من مرة أن يعمد إلى عقاب المنافقين بالقتل وما إليه ، وكان يقول دائماً : إنه لا يريد أن يقال : إن محمداً يقتل أصحابه .

ولقد سار أبو بكر وعمر على طريقة الرسول ، وأكبر دليل على ذلك هي حروب الردة ، فما كان كل من قام على أمة الإسلام فيها مرتدّاً عن الدين ، بل الذى حدث هو أن الكثيرين رفضوا إخراج الصدقات ظناً منهم أنها إتاوات تؤدى لمحمد ﷺ ومحمد مات فلا صدقات ، ولكن أبا بكر رأى أن إخراج الصدقات وأداء حق الجماعة منها - وهو جد قليل - رمز على وحدة الأمة ، أى برهان على بقاء الناس داخل الجماعة ، والجماعة لا بد أن تكون متحدة ؛ لأن اتحادها قوة لها . وقوة للإيمان وهو قاعدتها ومحورها ، وإذا نحن قرأنا كتب الرسول ﷺ إلى بعض الرؤساء في جزيرة العرب وجدناه لا يرى مانعاً من أن ينفرد قوم بناحياتهم يحكمهم من يرضونه من جماعتهم ما داموا باقين بجملتهم داخل أمة الإسلام يدينون بدينها ويطبقون شريعتها ويشاركون في جهادها في سبيل نشر الدعوة خارج نطاق الأمة ، وأبو بكر نفسه عندما أرسل الجيوش على من اعتبرهم مرتدين رضى من معظمهم بالعودة إلى الجماعة وإخراج الصدقات وأداء حق الأمة منها والمشاركة بمن استطاعوا في جيوش الفتوح ، ولم يصر أبو بكر على القضاء إلا على المتنبيين ؛ لأنهم كانوا خارجين فعلاً على الجماعة ودينها ، بل من المتنبيين من رجع عن دعوته وتاب وعاد إلى أمة الإسلام ، فقبل منه أبو بكر ذلك ، مثل طليحة بن خويلد الأسدى الذى أصبح بعد توبته من رجال الفتوح هو وقومه من طيء وأسد .

وأبو بكر كان خليفة رسول الله ، ولكنه لم يكن ملكاً ولا صاحب سلطان مطلق على الناس ، إنما هو كان رمز وحدة الأمة ، ولهذا فإن ذلك الرجل العظيم كان يقود أمة الإسلام برضا منها ، وهو يقيم في داره التي هي ملكه قبل الخلافة ولا يرتزق من بيت مال المسلمين إلا أربعة آلاف درهم زادوها له إلى ستة آلاف ، وظل الرجل طوال خلافته يلبس رداءه المتواضع ويأكل ما تيسر له من الطعام دون سيادة ولا سلطان على أحد ، وكانت الأمة راضية عنه وهو راض عنها ، وعلى نفس الطريق سار عمر ، وطريقته في تسيير أمور الأمة معروفة ، فهو ليس رئيساً إنما هو رئيس مجلس شورى الأمة ، وما تقررته الأمة أقره وما لم تقره تركه ، وعندما استبد بأمره في مسألة الأرزاق وقسمها عاد عندما تبين له أن طريقته ليست المثلى عن رأيه . وقرر الرجوع إلى طريقة أبي بكر في التسوية بين الناس في الأرزاق دون تفضيل أحد على أحد ، وكان أبو بكر يقول : هذا معاش والتسوية فيه أحسن ، وكان يسوى بين الناس جميعاً في العطاء .

الصحابي الكبير مثل أي فرد من أفراد الجماعة ، والعبد كالحر والأمة كالحرة ، أما عمر فقد جعل الناس مراتب بحسب السابقة في الإسلام والقرابة من رسول الله ، ثم بدا له أن ذلك ليس بعدل فقال كلمته المشهورة : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لفعلت غير الذي فعلت !

ولكن عمر لم يعيش ليستقبل من أمره ما استدبر ، وجاء عثمان والأمة في بداية تجربتها وعنقوان قوتها ، والفتوح على قدم وساق ، وأمة الإسلام تتوسع في كل اتجاه ، وشعوب جديدة تدخل أمة الإسلام بشخصياتها وحضاراتها وتقاليدها ، تدخل وهي متطلعة إلى عدل الإسلام ومساواته ومكارم أخلاقه ، والعرب الذين يقومون بالفتوح أنفسهم كانوا معظمهم جديدين في الإسلام لم يعرفوا منه إلا الشهادتين وظواهر العبادات ، وجموع تميم وشيبيان وأسد وطيء والأزد واليمن كانت تتدفق على المعسكرات وتتجه إلى ميادين الحروب بحماسة شديدة وتطلع كبير إلى مغنم الفتوح وخيراتها ، وعمر كان رجلاً شديد البأس ، يعرف كيف يقبض على زمام هذه الجموع ويوجهها ، وكانت له معرفة بالرجال وكانت له رهبة في قلوبهم زادها زهده وإيمانه وتفانيه ، فقد كان الرجل يقيم في المدينة ولكنه بعقله وقلبه كان يعيش مع الأمة المجاهدة الفاتحة .

كان يطلب إلى كل قائد أن يصف له الميدان الذى يحارب فيه كأنه يراه حتى يكون معه بنفسه وروحه ، وكان لا يطلب لنفسه شيئاً ولهذا كان عادلاً فى حكمه كله ، وكان يعرف صحابة رسول الله ويشاورهم ولا يصدر إلا عن رأيهم ؛ لأنه صاحب رسول الله ورأى كيف كان احترام الرسول للرجال وأقدار الرجال ، وكان عمر يحتاج إلى عشر سنوات أخرى على الأقل لكى ينظر فى نظام هذه الأمة التى تغير شكلها تماماً نتيجة للفتوح ، وكان التوسع سريعاً وغير منتظر ، وكل أمة تدخل جماعة الإسلام بمشاكلها التى تراكمت مع قرون الظلم والاستبداد ، والمشاكل تتطلب حلولاً ، والذى فات عمر هو أن ينظم أمر الشورى ويربط بينها وبين الإدارة ، لأن الإدارة السليمة هى أساس نجاح أى منشأة ينشئها البشر ، وإدارة أمة الإسلام كما كانت أيام الرسول ﷺ تقوم على الشورى وإشراك الأمة كلها فى المسئولية ، وسورة براءة وهى سورة حاسمة فى هذا الموضوع ، كان لا بد أن تدرس درساً عميقاً . ومن أهم الحقائق التى نصت عليها هذه السورة أن المسلمين جميعاً مسئولون بالتضامن عن مصير أمتهم ، وكلهم محاربون مكلفون بالجهاد ومطالبون بإنفاق أنفسهم وما ملكت أيماهم فى سبيل هذه الأمة ؛ لكى تسعد الأمة ، ويسعد كل من فيها ، فليس فى الإسلام حاكمون ومحكومون أو محاربون وغير محاربين ، فالأمة كلها حاكمة أمرها والشورى أساس قوتها وسلامتها والشورى مسألة تحتاج إلى تنظيم وتقنين ، وعمر كان يستشير ، ولكنه كان ينبغى أن يقرر من يستشير وكيف يستشير ، وأظن أن هذا كان فى ذهن عمر عندما قال : إنه لو ابتدأ أمره من جديد لसार على غير النظام الذى سار عليه ، والدليل على ذلك أنه عندما طعن واقترب من الموت حدد رجال الشورى ورسم لهم كيف يجتمعون ، ولم يدر بخلد عمر أن تكون مهمة أهل الشورى هى مجرد اختيار خليفة جديد وتسليمه الأمور ، ولكن الذى كان فى ذهنه أن هذه الهيئة تستمر كما هى تشترك مع الخليفة الجديد فى تدبير الأمور ، فيكون الخليفة رئيس مجلس الشورى ومنفذ قراراته .

وعبد الرحمن بن عوف كان مخطئاً عندما تصور أن مهمة أهل الشورى هى اختيار خليفة جديد وإلزامه بالسير على طريقة عمر ، لأن عمر نفسه كان على وشك أن يغير نظامه كله . والدولة كلها فى شكلها الجديد كانت فى حاجة إلى إعادة تنظيم شاملة ، وقد قضى الرومان ثلاثة قرون يضعون نظام دولتهم ويناقشون كل شىء فى مجلس

الشيوخ ، وقوة الدولة الرومانية أتت من أن أمورها في عصور ازدهارها وتوسعها كانت دائماً في أيدي مجلس الشيوخ وجماعة الفرسان المقاتلين أو الأكوستري Quetri التي كانت تقدم للدولة رجال الحرب والإدارة تحت إشراف مجلس الشيوخ .

شئ شبيه بهذا كنا بحاجة إليه لكي نستطيع تسيير أمور هذه الدولة الواسعة ، والقرآن نفسه ينص على ذلك ، ففي سورة آل عمران مجموعة من الآيات لو قرأناها معاً لوضعنا أيدينا على شخصية أمة الإسلام ووظيفتها وطريقة سياسة أمورها :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

﴿ وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

[آل عمران : ٣ / ١٠٣ - ١٠٥]

فتأمل والله هذه الآيات وإحكام وضعها وترابطها .. تجد فيها حكمة النظام الذي كان ينبغى أن تكون عليه الأمة الإسلامية ، وماذا كان قبلها ، وما الذي يقيم أمرها ويفلح به أهلها ، وما الذي يفسد أمرها ويضيع رسالتها ويجعل أهلها في عذاب أليم ، وأوجز لك حكمة هذه الآيات فيما يلي :

- ١ - أن المسلمين ينبغى أن يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا .
- ٢ - أن المسلمين ينبغى أن يذكروا أنهم كانوا قبل الإسلام أعداء .
- ٣ - والإسلام جاء فآلف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخواناً وينبغى أن يظلوا إخواناً .
- ٤ - وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها .
- ٥ - والإنقاذ هنا أتى من اعتصام المسلمين جميعاً بحبل الله ، ولا ينبغى أن يتفرقوا أبداً .

٦ - وهذه هي حكمة الإسلام الكبرى بيّنها الله لأمة الإسلام لعلها تهتدى وبدونها لا تهتدى .

٧ - ولكي يظلوا في طريق الفلاح ، فلا بد أن تكون فيهم جماعة تدعو إلى الخير ، والخير هو كل ما فيه صلاح الإنسان والجماعة .

وهذه الأمة أي الجماعة التي لا بد أن تكون في أمة الإسلام عليها أن تأمر بالمعروف ، والمعروف هو ما يتفق عليه الناس ويعترفون به من الأخلاق والسلوك والحقوق والواجبات .

وهذه الجماعة نفسها ينبغي أن تنهى عن المنكر ، والمنكر هو كل ما يتعارض مع قواعد الدين ومكارم الأخلاق ، فهذا كله منكر ؛ لأن الله سبحانه يستنكره والأمة - أمة الله التي تعتصم بحبله - تنكره ولا ترضاه وترفضه جماعة ، لأن الله أمر أهل الأمة بأن يعتصموا بحبل الله جميعاً .

٨ - هذه الأمة أو الجماعة التي تقوم بهذه الواجبات في أمة الإسلام هي وحدها الجماعة التي تفلح في الحفاظ على وحدة الأمة وتسييرها في الطريق السوي معتصمة بحبل الله .

٩ - ولا ينبغي لأمة الإسلام أن تكون كالذين كانوا من قبلها ، أولئك الذين تفرقوا واختلفوا من بعد أن جاءتهم البينات .

١٠ - وأولئك الذين يفرقون ويختلفون من بعد ما جاءتهم البينات لهم عذاب أليم في هذه الدنيا وفي الآخرة .

والله سبحانه عندما يقول : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ .. فهذا فعل أمر لا بد أن تنفذه الأمة ولا بد أن تنظم طريقة تنفيذه . فقد قال الله سبحانه : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ . فجاء رسول الله وبيّن لنا كيف نقيم الصلاة . وقال الله ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ .. ورسول الله دلنا على طريقة تنفيذ هذا الأمر وتطبيقه ، فهو ﷺ لم يكن حاكماً يأمر وينهى إنما كان كما وصفه الله في كتابه العزيز : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ قُضْلاً كَبِيراً ﴾ .

[الأحزاب : ٣٣ / ٤٥ - ٤٧]

وهذه هي وظيفة النبي : أنه شاهد أمته أى نموذجها ومثالها الذى يحتذى به فى خلقه وسلوكه ، ومبشر بأمة الله والخير والإخاء والمساواة ، ونذير لهم بما يصيبهم من الشر إذا انحرفت الأمة عن طريق الله ورسوله ، وهو داع إلى سبيل الله بإذن الله ، وهو بعد ذلك كله السراج المنير أى النور الذى تسير الأمة على هداه .

ولم يقل الله فى آية واحدة من الآيات : إن هذه الأمة ينبغي أن يكون لها بعد الرسول إمام واحد أو رئيس واحد يسيّر أمورها كما يشاء ، لأن إمام هذه الأمة هو القرآن الكريم ، وإذا كان هناك إمام للصلاة فهو يؤم الصلاة فحسب . والإمامة بمعنى رئاسة الأمة وتسيير أمورها والتحكم فيها أمر لا نجد له أثراً فى القرآن أو السنة ، فمن أين أتوا بهذا المعنى ؟ إن الإمام لا يكون إلا فى شئون الدين ومن أهمها الصلاة ، هكذا كان إبراهيم عليه السلام إماماً .

فرياسة الرجل المفرد على هذه الأمة أياً كان وضعه : خليفة أو إماماً أو أميراً للمؤمنين ليست إسلامية بالمعنى الذى أعطيناها إياها ، فالإمام إمام الصلاة وهو يؤم المصلين لينظم أمر صلاة الجماعة . والخليفة هو خليفة رسول الله فى السير مع الأمة فى طريق الهداية الذى بيّنه القرآن ووضحته السنة - ورسول الله لم يكن حاكماً بأمره حتى يكون خليفته حاكماً بأمره فى أمة الإسلام . إنما أمورها تدبرها تلك الجماعة التى تدعو إلى الخير وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، ورسول الله أنشأ هذه الجماعة من خيرة أصحابه وشاورهم فى الأمور كلها ما عدا مسائل الدين وخاصة العبادات والأحكام الواضحة الصريحة ، ورسول الله لم يكن أمير المؤمنين . وأمير المؤمنين فى أيامه - صلوات الله عليه - كان رئيس أى جماعة تخرج فى مهمة حربية ، وأول أمير للمؤمنين كان عبد الله بن جحش عندما أرسله الرسول فى سرية إلى قبائل جهينة ، وهذه السرية غير معروفة عند الكثيرين من مؤرخى السيرة ، ولكن لا نزاع عندهم فى أن عبد الله بن جحش كان أول من لقبه الرسول بأمر المؤمنين ، وهى إمارة تنتهى بنهاية المهمة التى كلف بها الصحابى ، وكل القادة الذين وجههم رسول الله ﷺ فى سراياه كانوا أمراء مؤمنين . وليس فى القرآن آية واحدة تقول : إن رسول الله كان أمير المؤمنين .

المسلمون أخطأوا خطأ جوهرياً عندما لقبوا عمر بأمر المؤمنين ، لأنهم أوجدوا بذلك صفة غير إسلامية لخليفة رسول الله فى تسيير أمور الأمة بحسب ما ترتئيه

الجماعة التي تدعو إلى الخير وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر لكي تسير الأمة في طريق النور ، على هدى من السراج المنير ، وعمر بن الخطاب لم يتأثر باللقب ، ولكن هذا اللقب أصبح أهم شيء عند الخلفاء من بعده .

وكان جديرًا بالفقهاء أن ينظروا في آيات سورة آل عمران التي ذكرناها ليستخرجوا منها أسس تنظيم جماعة الإسلام ، ولينظروا كيف كون الرسول جماعة الشورى من حوله ، وكيف كان يستشير ، وكيف كان يتخذ القرار على ضوء القرآن وما تقرره الشورى .

هذا كله كان جديرًا بأن يستلفت انتباه أهل الفقه بدلاً من التعلق بالإمامة والمجادلة فيمن يستحقها ومن لا يستحقها ، لأن الإمامة نفسها ثانوية ، أما الأولوية فتكون للشورى وجماعة الذين يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ولا بد أن يكونوا مختارين من بين رجال الأمة مرضياً عنهم منها كما رضى رسول الله عن أهل شوره . ألم يقل عمر بن الخطاب عندما اختار رجال الشورى : إنه اختارهم من بين من توفى رسول الله وهو عنهم راض ؟

ذلك هو أساس البلاء وسبب الانحراف والانكسار الهائل في سيرة أمة الإسلام ، لأن الإمامة أو الخلافة بصورتها التي تعارفوا عليها هي — في الحقيقة — ملك وسلطان مطلق ، ومن هنا بداية الضياع .

عِلْمُ الْكَلَامِ .. وَالطَّرِيقُ الْمُسَدُّود

القول السائر الذى يجتمع عليه الناس عندنا هو أن الإسلام دين ودولة ، والحقيقة التى انتهينا إليها آخر الفصل السابق هو أن الإسلام دين وأمة ، ولَبَّابُ الدين فى الإسلام هو التوحيد ، فإنك إذا آمنت بالله الواحد أمنت الزلل والانحراف فى شئون العقيدة ، فإله الواحد خلقك كما خلق الكون كله ، وإليه ترجع ، فيكون حسابك عن أعمالك على أساس ما بيّن سبحانه فى القرآن ، والعلاقة بينك وبين الله سبحانه مباشرة ، وأنت إذ تعامل الله أو الناس فعلى أساس ما رسم لك ، وهو مطلع على الأفئدة ، فلا سبيل إلى خداعه أو خداع النفس ، والعبادات كلها طريق إلى الله ، فأنت إذ تصلى وتصوم وتزكى وتحج وتلتزم ما أمرك به أو نهاك عنه فى القرآن ، فإن الطريق بينك وبين الله يظل مفتوحاً ، ويظل العمار بينك وبينه قائماً . والأمة هى جماعة المسلمين المؤمنين ومن دخل معهم وشاركهم الوطن وعاهدتهم وفى بعدهم من أهل الكتاب أى أصحاب الديانات السماوية ، وهذه الأمة صاحبة الرأى فى كل ما يتعلق بمصالحها وحمايتها وأمنها ، وهى تتولى إدارة شئونها عن طريق جماعة تختارهم اختياراً حراً على أساس الشورى ، وليس أيسر من تطبيق الشورى إذا كان الإنسان مؤمناً حقاً يعرف أنه يعامل الله فى كل ما يصدر عنه من تصرف ، وقد سارت أمور الأمة على أيام الرسول ﷺ على أساس الشورى ونجحت ، وعلى نفس الأساس سارت أيام أبى بكر وعمر ، فاطرد نجاح الأمة ، وما دام كل فرد من أفراد الأمة يعامل الله فى كل شىء ، فإن أى حفنة من المسلمين تختارهم الجماعة ترضى عنهم وتثق فيهم وتفوض إليهم الأمر ، يمكن أن تكون هى الأمة التى تدعو إلى الخير وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وأى رجل من هذه الجماعة تختاره ليقوم بالتنفيذ فهو رئيس صالح للرياسة ، ما دامت تلك الرياسة محدودة بزمن محسوب يرجع الأمر بعده إلى الأمة ، فإما أذنت له فى الاستمرار .. وإما استبدلت به غيره ، وأبو بكر نفسه قال : إن الأمة ولته أمورها ولها الحق فى محاسبته وتقويمه .

وهذا يقتضى بدهة حق الأمة فى عزله واستبدال غيره به إذا اجتمع رأيها على ذلك . والأمة بطبعها لا تجمع على ضلالة كما قال الرسول ، لأن الله الواحد هو البداية والنهاية فيما يتعلق بأمور الدين والدنيا ، والأمة هى البداية والنهاية فى أمور الدنيا ، وما دام كل

فرد من أفراد الأمة يعامل الله سبحانه في كل معاملاته فهو آمن على أنه في جانب الله ، وباستثناء تطبيقات أحكام المعاملات والمواثيق والجراحات والدماء فإن الأمر لا يحتاج إلا إلى فقيه عارف بهذه الأحكام قادر على إصدار الحكم بمقتضاها ، والأمة هي التي تقوم بالتنفيذ بالوسائل التي ترضاها ، وهناك دائماً جماعة الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تتولى عن الأمة أمور التشريع واتخاذ القرار والإشراف على التنفيذ وكل ما يتعلق بالمصالح العامة .

أما فكرة الدولة بمعنى السلطة الحاكمة التي تملك كل السلطات فهي في صميمها غير إسلامية ، لأنها تنقل سلطة الأمة إلى جماعة معينة هي الدولة أي صاحبة الدور ، وهذه الدولة تدول أي تزول ، وما دامت معرضة للزوال فإن أصحابها يجتهدون في القبض على زمام الأمور للبقاء في مناصبهم ، وهذا في ذاته يتضمن القهر والتسلط ، ويؤدي حتماً إلى وجود طبقة حاكمة وطبقة محكومة ، ورئيس هذه الطبقة الحاكمة مهما سميناه إماماً أو خليفة أو أميراً للمؤمنين فهو ملك ، وإذا لم يبدأ ملكاً فسينتهي قطعاً إلى أن يكون ملكاً ، وستنزع به نفسه إلى توريث ابنه ملكه وسيضطر إلى استعمال الحيلة والقوة ليصل إلى ذلك ، وهنا وما دام قد تولى أمر الأمة ملك مستبد بأمره من دون الناس .. يسير شئونها على هواه ، فقد تلاشت الحكمة من قيام أمة الإسلام ، وأصبحت دولة استبدادية لا تختلف عن الدول التي قام الإسلام لإزالتها وإعادة الأمر إلى أمة الإيمان والخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ..

وإذا نحن نظرنا فيما يسمى بالفكر السياسي الإسلامي وجدنا أنه كله يقوم أساساً على فكرة الإمامة أو الخلافة ، وهي الملكية أو الملك كما رأينا ، وتركز الفكر السياسي فيمن يستحقها ومن لا يستحقها ، كأن حل المشاكل السياسية كلها للعالم الإسلامي يتوقف على شخص الخليفة وكلهم يحلمون بما يسمونه المستبد العادل ، والمستبد العادل هذا خرافة ؛ لأنه ما دام مستبداً فلا يمكن أن يكون عادلاً ، لأن الاستبداد هو الانفراد بالأمر أو بالأمور كلها ، وهنا لابد من الخطأ ، وأين ذلك الإنسان الذي يصيب في قراراته كلها ؟ . ولا يعرف التاريخ مستبداً عادلاً واحداً ، فأما أهل السنة فقد تعلقوا بالثال البكرى العمرى وهو لا يتكرر ولا يقلد ، فلكي يتكرر فلا بد أن يبعث أبو بكر وعمر مرة أخرى ، وقرارات أبي بكر وعمر في ذاتها كانت تصدر عن الشورى ، ولكن الكلمة الأخيرة كانت لأبي بكر ثم عمر ، وأبو بكر أحرق رجلاً من المرتدين بالنار

وهو أمر لم يفعله رسول الله أبداً ، بل هو نهى عن الشناعة والحقد والغل في العقاب أو القصاص ، ونهى عن المثلة أى التمثيل بجثث المقتولين ، وقد ندم أبو بكر على ذلك حتى وفاته ، ولكن المهم أنه أحرق رجلاً بالنار ثم ندم ، فجاء بعده من يحرق الرجل والرجال بالنار ثم لا يأسف أو يندم ، وعمر قصر الشورى على عدد قليل جداً من الصحابة من القرشيين بينما كان رسول الله ﷺ يستشير الجميع ، وبعض الأنصار وغيرهم من عامة المسلمين ، كانت لهم الآراء الجميلة والبادرات الموفقة والأفضال المذكورة ، والخزاعيون كانوا من أعظم أعوان الرسول ﷺ حتى لقد رفعهم إلى مراتب المهاجرين دون أن يهاجروا إلى المدينة وبريدة بن الخصيب الأسلمى الخزاعى كان علماً من أعلام أمة الإسلام أيام الرسول ، وأبو ذر كان غفاريّاً من فرع من كنانة ولم يكن مضرّياً ، فجاء عمر وأبعد الخزاعيين وكل غير القرشيين عن الشورى ، واقرأ معى وصايتي في أمر الشورى وهو على فراش الموت ، والكلام هنا عن « الإمامة والسياسة » لابن قتيبة (١ : ٢٢ - ٢٣) قال عمر بعد أن قصر الشورى على الستة المعروفين « وأحضروا معكم من شيوخ الأنصار وليس لهم من أمركم شيء ، وأحضروا معكم الحسن بن علي وعبد الله ابن عباس فإن لهما فضلاً ، وأرجو لكم البركة في حضورهما ، وليس لهما من أمركم شيء ، ويحضر ابني عبد الله مستشاراً ليس له من الأمر شيء .. » . والسؤال هنا : لماذا لا يكون للأنصار من الأمر شيء ؟ ولماذا تقتصر الشورى على هذا العدد القليل من القرشيين دون غيرهم ؟ هل هي دولة قريش أو أمة الإسلام ؟ ولا يشك أحد في نزاهة عمر وإخلاصه ، ولكن انظر إلى الذي حدث بعد ذلك ، وما كان عمر يعلم الغيب ، ولكننا نحن أمة الإسلام نتأمل الحصاد المر الذي بأيدينا ، وننظر في مأساة تاريخ أمتنا الطويلة ، ونقول : من أين أتانا هذا البلاء كله ، وكان المفروض أن نكون أحسن الأمم نظاماً وتاريخاً ؟ ..

والمشكلة الكبرى أتت من أن المسلمين لم يحلوا مشكلة الحكم حلاً سليماً يتفق مع معاني القرآن وما جرى عليه رسول الله ﷺ في قيادة الأمة من الشورى الكاملة والمساواة التامة بين المسلمين ، مع الإفادة كذلك من تجارب الأمم قبلنا ، فإن الرومان لهم تجارب نافعة جداً في الحكم ، وهم أول من نقلوا السلطان إلى الأمة أو الشعب بعد عصر الملوك ، وهم أول من نظموا رياسة الدولة وجعلوها ولاية صادرة من الأمة موقوتة بزمان ، وتقسيم السلطات بين موظفين مسئولين يختارهم مجلس الشيوخ - لا رئيس

الدولة — واحدًا واحدًا ، ومدة ولاية كل منهم عامان على الأكثر يعود بعدهما الأمر إلى مجلس الشيوخ ، حقًا إن ذلك لم يكن نظامًا مثاليًا ، ولكن النظام المثالي ذاته مستحيل ، وهو حلم ولا يمكن أن يكون إلا حلمًا ، ومن هنا فإن الفكر السياسى لأهل السنة والجماعة أصبح يدور حول أو هام أو أحلام أو قل تفسير أحلام . وأما الشيعة فقالوا : إن الأمة لو نصبت على بن أبى طالب إمامًا لبلغت السعادة وانحلت مشاكلها . ونقول : على رسلكم ولكن إذا نحن ضمنا صلاح على بن أبى طالب فكيف نضمن صلاح أبنائه وأحفاده أجمعين للحكم ؟ . وعندك كتاب « نسب قريش » للمصعب الزبيرى وكتاب « جمهرة أنساب العرب » لابن حزم ، وقرأ فيهما أنساب العلويين فستجد فى أجيالهم الكثير من الفساد والمسيئين ، ولا يعرف التاريخ أسرة لا تضم الطالح والصالح ، وفى مسائل السياسة والدهاء والمكر فى تلك العصور تجد السابق دائمًا هو الطالح والفساد الذى لا يستحى أو يتورع ، ويشترى ضمائر الناس أو يستذلهم بالقهر والغلب ، فهذه إذن قضية خاسرة منذ البداية . والفكر السياسى الشيعى ليس خيرًا من الفكر السياسى السنى فى النهاية ، لأن أهل السنة والشيعة جميعًا قالوا بوجوب الإمامة المطلقة السلطان المطلق ، وإن اختلفا حول من يستحقها . والإمامة هى الملك ، والملك لا يطبق الحرية ، ومعنى ذلك أن حرية الفكر قد تحددت — على درجات متفاوتة — من يوم قامت الخلافة والإمامة بعد أبى بكر وعمر ، على النحو الذى كانت عليه فى تاريخنا ، ومن غريب الأمر أن العصر الحديث عندنا ، وهو الذى يوصف بأنه عصر الحرية والشورى التى نسميها ديموقراطية ، جاء بعد أن ألغيت الخلافة على يد مصطفى كمال أتاتورك سنة ١٩٢٢ ، فكأن إلغاء الخلافة كان شرطًا لتحرر الفكر ، وهذا على الأقل هو منطق الواقع الذى كان ويكون ، والواقع أصدق من الخيال على أى حال .

ومن أكبر الدلائل على كبرياء من كانوا يعتبرون أنفسهم الخاصة لأنهم أهل العلم المتميزون عن غيرهم ، أن ابن كثير مثلاً عندما يتعرض لتفسير هذه الآيات من سورة عبس ، لا يفتن إلى موقع الحكمة منها ، بل يمضى يسوق لنا أقوال علماء مثله : قال

الحافظ أبو يعلى فى مسنده ، وقال قتادة ، وقال ابن جرير (يريد الطبرى فى تفسيره) وقال الترمذى (فى صحيحه) وقال ابن أبى حاتم .. وهكذا ، وهؤلاء الذين يذكرهم جميعاً علماء ومحدثون وحفاظ مثله . وهو يعتبر العلم شيئاً خاصاً به وبأمثاله ممن كانوا يرون أنهم صفوة الله من خلقه ، وما كانوا بصفوة ، وإنما هم أوعية امتلأت بالمحفوظ المتوارث ، وكلهم ينقلون بعضهم عن بعض ، وعلمهم فيه حفظ كثير ولكن ليس فيه إلا تفكير قليل . وكلهم متعالون على الناس جداً يرون أن مكانهم إما أن يكون فى بلاط السلاطين والخلفاء وإما فى وظائف الدولة وإما فى أوساط العلماء أمثالهم . أما أن يتنازل واحد منهم ويضع نفسه حيث يكون الناس فمن النادر .

والنتيجة أن معظم الأمة لم تفد الكثير من علم أولئك الناس ، وازداد جهل العوام بترفع العلماء عنهم ومباعدتهم إياهم ، بل كانت كبرياء العلماء على من كانوا يرونهم من العامة مهينة لكل حس إنسانى ، واقرأ مثلاً كلام الجبرتى عن ثورة « العوام والحرافيش » كما يقول فى كلامه عن الذين ثاروا على الفرنسيين فى أكتوبر ١٧٩٨ وقتلوا حاكم القاهرة الفرنسى ، فإن الجبرتى يستنكر هذا العمل لأنه صدر عن العوام ، والعوام فى رأيه لا يحق لهم التدخل فى شئون السياسة والحكم ، فهذه من شأن العلماء والخاصة ، ومثل هذا الموقف وقفه الشيخ محمد عبده من الزعيم العظيم أحمد عرابى ، فقد كان عرابى فى نظر محمد عبده رجلاً جاهلاً تطلع إلى الحكم وليس هو له بأهل ، وهذا هو كلام محمد عبده على اتساع ذهنه ومعرفته بأحوال الدنيا ، ولكنها بقية من كبرياء أهل العلم من سلفنا الصالح ، لم يستطع الإمام محمد عبده أن يتخلص منها ، وكان الواحد من أهل العلم يبدأ حياته فقيراً معدماً ، ويتعلم على نفقة الأمة ، ويعظم مركزه فيتعالي على الناس ، وإذا كان كريم الخلق وظل متواضعاً اعتبر الناس ذلك منه مكراً أو كرامة ، فتجدهم يقولون لك فى كتب التراجم : إن فلاناً الفقيه كان لا يستحى أن يحمل خبزه بيده ، وهم ينسون أن رسول الله كان يكنس بيته بمكنسة فى يده ، ولا يرى فى ذلك تواضعاً ، وإنما هو خلق الرجل المسلم : يخدم نفسه بنفسه ولا حاجة به إلى أن يتخذ إنساناً مثله خادماً له يقف نفسه على خدمته .

ومهما تقرأ فى تاريخ الفكر العربى فإنك لا تجد إلا ناساً مترفعين متعالين يحسبون أنهم يحلقون فى سماوات العلم مثل المعتزلة ، وواصل بن عطاء وأبو الهذيل العلاف وإبراهيم النظام والقاضى عبد الجبار ومن إليهم ، يحسبون أنهم - من ناحية الفكر لا

الحياة - صفوة رفيعة تتكلم في مسائل لا يفهمها غيرهم ، ولهذا فإن القضايا التي تناولوها وجعلوها مادة فكرهم قضايا افتراضية لا تنفع الإنسان في شيء ، وكلامهم في التوحيد لم يزد الناس إيماناً ، ولا هو بيّن لنا ميزة التوحيد ، أى أنك إذا سألت نفسك : إن المسيحي يعبد الله سبحانه وكذلك اليهودى وكلاهما موحد ، فبماذا يمتاز المسلم عليهما في توحيده ؟ إذا مضيت تبحث عن جواب لهذا السؤال في كلام المعتزلة عن التوحيد ، فما أنت بواجده أصلاً وهل ينكر إنسان أن المسيحي العارف بدينه موحد وكذلك اليهودى ؟ فأين الامتياز ؟ وهناك فعلاً اختلاف بين توحيد المسلم وتوحيد غيره ، ولكن هذا الاختلاف لا تجده عند المعتزلة . وإنما تجد جوانب منه عند الشهرستاني وابن حزم الذى كان يبطل الاعتزال وينكر أصله . حقاً إن المعتزلة يجتهدون في تنزيه الذات الإلهية تنزيهاً يحسبون أنهم قد وصلوا به إلى ذروة العلم ، مع أنك لو سألت أبسط المسلمين عن التوحيد لوجدته يفهمه ويطبقه دون تكلف أو افتعال . ومن من المسلمين يتطرق إلى نفسه شك في وحدانية الله وتفردّه ؟ ومن منهم يخلط بين الله سبحانه وصفاته ؟ ومن في الناس لا يفهم أن الله كريم كرمًا إلهياً لا يشبه كرم الناس ، وأنه عليم علمًا إلهياً لا يشبه علم الناس ، وأننا إذا قرأنا أن يد الله فوق أيديهم فإن المراد بيد الله سبحانه شيء غير أيدينا هذه ذات الكف والأصابع ؟

ومثل ذلك مناقشة المعتزلة لمسألة قدرة الله ، وهل هو سبحانه قادر على الظلم ؟ والجواب بالنسبة للعوام - أمثالنا ممن هم ليسوا بمتكلمين - أن الله سبحانه لا يظلم الناس بنص القرآن ، فهو ليس بظلام للعبيد ، وما دام هذا في القرآن فقيم السؤال ؟ هل يريدون : هل الله يسلط الظالمين من الناس على غيرهم ، فيكون هو الذى فعل الظلم ؟ .. وجوابنا على مثل هذا السؤال : أن الله منحنا العقل وجعلنا لهذا مسئولين عما يصدر عنا ، وقرأ الآيات التالية من سورة البقرة وحدها تجد الجواب .. ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ آية ٢٨١ .
﴿ لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ جزء الآية ٢٨٦

وفي سورة آل عمران نقرأ :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْنَا لَهُم لَيُّومٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ آية ٢٥

وفي سورة المدثر نقرأ هذه الآية البليغة المعنى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۖ آيَةُ ٣٨ ﴾

فهل فكَّر هؤلاء السادة في المعانى البعيدة التى تكمن وراء هذه الآية ؟ وهل سألوا أنفسهم : كيف تكون النفس رهينة بما كسبت ؟ ..

فالسؤال الذى وضعوه بشأن قدرة الله على الإتيان بالظلم سؤال لا معنى له بالنسبة للمسلم العادى ، وهو الذى يفهم الإسلام في مجموعته ، ولا يأخذه مقطعاً مقسماً كما هى عادة هذا الطراز من مفكرى المسلمين .

وقضية كلام الله وخلق القرآن .. أليست قضية مفتعلة لا ينبغي أن توجد بالنسبة لمسلم يفهم الإسلام ؟ فإن الله سبحانه يتكلم بأبلغ بيان ، لا في القرآن وحده بل في الخلق كله ، وأنت إذا تأملت الكون وما فيه تشعر كأن هذا الخلق كله بآياته وعجائبه كتاب مفتوح تقرأ فيه كيف تشاء ، وكلام الله تحس به بنفسك أنه لا يمكن أن يكون شبيهاً بكلامنا ولا يمكن أن يكون حروفاً أو كلمات تكتب ، ولكننا نحن كتبناها في الصحف وجعلناها حروفاً مكتوبة محافظة عليها من الضياع حتى يظل كتاب الله الذى أوحى إلى محمد - صلوات الله عليه - ثابتاً بين أيدينا بلفظه وحرفه ويظل معجزة متجددة .

وهنا لا معنى للسؤال عن كلام الله وهل هو قديم أو مخلوق ؛ ولكن أصحابنا المعتزلة جعلوها قضيتهم الكبرى ، وما زالوا يطرحون الأسئلة المفتعلة ويحاولون الإجابة عنها ، حتى جعلوها قضية سياسية بل زلزلاً فكرياً امتحنت به الأمة كلها على غير طائل ، وانتهت محنة خلق القرآن في أيام الخليفة المتوكل ، واختفت من حياة المسلمين كأنها لم توجد أصلاً .

وهذا هو الذى يعنينا هنا : أن مفكرى الإسلام لم يعالجوا المسائل التى تهم الناس علاجاً حقيقياً ، وصرفوا جهدهم إلى ما لا يهم غالبية الناس في حياتهم ، فلم يقيم واحد منهم بإثارة موضوع مثل : حقوق الإنسان أو حرية الإنسان أو قيمة الإنسان ، ولو أثاروا أمثال هذه المسائل لدفع الكثيرون منهم حياتهم ثمناً للإجابة المفيدة عن هذه الأسئلة ، ولكن للمتكلمين وأصحاب الكلام دور حقيقى في حياة أمة الإسلام لأن شهداء الفكر هم الذين بنوا صرح الحضارة .

ولكن هذا هو الذى كان : اشتغل أهل الفكر والعلم بمسألة بعيدة عن صلب رسالة الإسلام ، وباعدوا بين أنفسهم والناس مع شدة حاجة الناس إليهم ، فما كان أبو الهذيل العلاف أو بشر بن المعتمر أو إبراهيم بن سيار النظام بأصحاب ملكات يستهان بها ، وإنك لتقرأ كلامهم وتعجب به ، ولكنك في نفس الوقت تحس أنك معهم تمضغ لبناً لا يتحصل منه شيء ، فهو مجرد كلام . كلام جميل ذكى بليغ ولكنه كلام . كلام بين ناس مترفعين متعالين يتصورون أن القرآن نزل على محمد صلوات الله عليه ليبلغه إليهم وحدهم من دون الناس كافة ، وهم — بارك الله فيهم — الأبحار الأجلاء الذين يحلون المشاكل ، أو قل يزيّدونها تعقيداً .

لقد ابتعدوا عن الناس وترفعوا عنهم ، فلم يجد الناس من يعلمهم أو ينير لهم الطريق ، والواجب الأول لصاحب العلم هو أن يسعى بعلمه إلى الناس ، ويتصل بهم وينظر في مشاكلهم ليحلها معهم على أساس العلم والفهم . أما علماؤنا والمتكلمون خاصة فقد باعدوا الناس واحتقروهم واشتغلوا بمسائل فكرية لا تعنى أحداً غيرهم . فكأنهم وقفوا بعلمهم في طريق مسدود ؛ لأن العلم لا يكون ذا قيمة إلا إذا وصل إلى الناس وانتفع به الناس ، وما قيمة مصباح وضع في غرفة مقفلة ؟ . وأقرأ معى هنا قول الدكتور توفيق الطويل في كتابه القيم عن أسس الفلسفة : ويقول (ديكارت) في كتاب مبادئ الفلسفة (ص ١٢٥) : « إن غرض الفلسفة هداية سلوك الإنسان في حياته والمحافظة على صحته ، وكشف الفنون . أى أن غاية الفلسفة ليست مجرد العلم — كما ذهب أرسطو ومن تابعه — بل غايتها تحقيق رفاهية البشر وسعادتهم ، وكمال العلم إنما يكون باتصاله بالحياة العملية حتى يسود الإنسان الطبيعة ويهيمن عليها . ولا يكون كمال العلم بمدنوه من النظر العقلى المحض وابتعاده عن المنفعة العلمية .. كما ظن أرسطو من قبل » .

مَوْقِفُ الْمُعْتَزِّلَةِ .. مِنْ قَضَايَا الْإِسْلَامِ !

أخشى أن يحسب القارئ - بعد الذي قلت عن المعتزلة - أنني أقلل من شأنهم أو أجهل أقدارهم ، هذا يكون خطأ جسيماً في حق طائفة من مفكرى الإسلام قل أن نجد لها نظيراً في العلم أو الذكاء والموهبة الأدبية وسلامة الخلق وصدق الإيمان والجد في الحياة والعمل . فقد كان شيوخ الاعتزال على أعلى مستوى في هذه النواحي كلها . ولكن الذى يؤخذ عليهم أنهم استخدموا ذكاءهم كله وعلمهم كله في قضايا موهومة أحياناً وغير مجدية بالنسبة للإسلام أحياناً أخرى . فأنفقوا ما وهبهم الله من المزايا .. والخلال في غير طائل .. وعندما نقرأ أن أبا الهذيل العلاف امتلأت حياته بالمناظرة والجدل مع الزنادقة والشكاك والمجوس والثنوية وأنه أسلم على يده أكثر من ثلاثة آلاف رجل (أحمد أمين . ضحى الإسلام ٩٩ / ٣) نتصور أن عالم الإسلام قد تحول إلى عالم كفار وزنادقة وملحدين . وأن الإسلام نفسه لم يفعل شيئاً لهداية الناس ، وأنه لولا المعتزلة لضاع أمر الإسلام وليس شئ من ذلك بصحيح . لأن عالم الإسلام كان - ولا يزال - في مجموعه عالماً سليماً من ناحية الإيمان والاعتقاد .

والإسلام نفسه عقيدة واضحة بيّنة لا يدخلها الشك الكثير . فهى قائمة على كتاب صادق مروي محفوظ بالتواتر ، وكلامه ناصع سواء فيما يتصل بقدرة الخالق أو وحدانيته . وقضايا التوحيد والعدل والرأى في مرتكب الكبيرة قضايا خلقوها هم أنفسهم وغرقوا فيها ونحن لا نفهم قول الخياط المعتزلى : إن إبراهيم النظام وأشباهه حاطوا التوحيد ونشروه وذبوا عنه وشغلوا أنفسهم بجوابات الملحدين ووضع الكتب عليهم إذ شغل أهل الدنيا بلذاتها وجمع حطامها ؛ لأننا نعرف أن العقيدة كانت مستقرة في قلوب جماهير المسلمين قبل المعتزلة وأيام المعتزلة وبعدهم . أما إنه كان هناك ملحدون وشكاكون فلا نزاع في ذلك لأن هؤلاء موجودون في كل زمان ومكان والرد عليهم لا يكون بالجدل معهم ؛ لأن الجدل في أمور العقائد عقيم لا يؤدى إلى نتيجة ، والملاحد المكابر لا يزيده الجدل إلا لجاجة . وفي القرآن آيات يكفى أن تتلوها على الإنسان لترى إن كان في هداه أمل . فإذا كابر بعد ذلك فلا ينفع معه كلام . وخير لك أن تتركه

على حاله والله سبحانه يهديه أو لا يهديه كيف شاء وأقرأ قوله تعالى في سورة الغاشية :

﴿ أَقْلًا يَنْتَظِرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ . (الغاشية ٨٨ / ١٧ - ٢٦) .

فبعد هذه الآيات التي هي في ذاتها أبلغ الحجج والبراهين - ماذا يستطيع محمد بن الهذيل العلاف أو إبراهيم بن سيار النظام ؟ لقد كان كلا الرجلين من أوسع أهل الأرض علمًا وأذكاهم وأبلغهم بيانًا ولكنهما - وبقية المعتزلة - أنفقوا علمهم كله وذكاءهم كله في مجادلات هي أشبه بالرياضات الذهنية أو ألعاب شطرنج ذهنية . لقد جاءوا ومضوا دون أن يخلفوا لنا شيئاً له قيمة عملية وذلك هو ما يبعث في النفس الأسى : أن يرزقنا الله الإسلام فلا نعرف قدر الإسلام ، ويعطينا الأرض فلا نعرف كيف نحافظ على الأرض ، ويمنحنا الذكاء فننفقه في الهباء ، وفي أيامنا هذه مثلاً يرزقنا ثروة لا نظير لها على الأرض : ثروة النفط فلا نجد ما ننفقها فيه إلا أن يحرق بعضنا به بعضاً ..

وقد اغتروا بذكائهم فصاروا كأنهم يتحلَّونَ به كأنه زينة وأولعوا بحب الظهور حتى إن بشر بن المعتمر شيخ معتزلة بغداد رمى أبا الهذيل بالنفاق وحب الظهور ، وقال فيه تلك الكلمة القاسية التي يرويها أحمد أمين في ضحى الإسلام (١٠٠ / ٣) ، وملخصها أن الرجل كان يفضل المظهر وثناء الناس وإعجابهم به على العلم الحقيقي والصدق في القول ..

وإبراهيم بن سيار النظام كان ذهنًا صافيًا وبحرًا من العلم بلا شك ولكنه كان يحلو له أن يأتيك بالقضية فيؤيد صدقها بكلام بليغ ثم ينقضها بكلام أبلغ . وهذا فيما نرى أمر لا يليق بصاحب الفكر الصادق ..

وكان أبو موسى عيسى بن صبيح المردار - وهو من أئمة مدرسة الاعتزال في بغداد - رجلًا صالحًا زاهدًا في الدنيا حتى لقب براهب المعتزلة ، وعندما حضرته الوفاة أوصى ألا يرث أحد من قرابته تركته وطلب أن تفرق كلها في المساكين وقال في ذلك كلمة جميلة جدًا مفادها أن هذا المال كله كان للفقراء وأنه خانهم فيه ولم يزل ينتفع به طول

حياته فهم أولى به بعد مماته (الانتصار للخياط ٦٩) ولكن هذا الرجل الصالح كان يكفر الناس أجمعين فمن قال : إن الله يرى بالإبصار فهو كافر ومن سها عن عبادة كافر ومن أخذ من السلطان أدنى شيء كافر ، حتى سأله رجل يسمى إبراهيم بن السندی مرة عن أهل الأرض جميعاً فأكفرهم فقال له إبراهيم : هل الجنة التي عرضها كعرض السماوات والأرض لا يدخلها إلا أنت وثلاثة وافقوك ؟ ولعل هذا الرجل كان من آثار بدعة القول بخلق القرآن في بغداد . وذهب به الغرور بنفسه أن قال - فيما يحكى الشهرستاني في الملل والنحل - إن الناس قادرون على مثل القرآن فصاحة وبلاغة ونظماً وإن إعجاز القرآن يكمن في معانيه وإخباره بالمغيبات . وهذا كلام رجل لا يملك أدنى إحساس بالقرآن الكريم .

أما ثمانية بن الأشرس فقد استعمل علمه في إمتاع الخلفاء بالكلام الجميل والنواتر اللطيفة . وكان - كما يقول الشهرستاني - خليع النفس . وعندما تقرأ بعض كلامه تحس أنك أمام مشعبذ مغرور . وقد أفاد من ذكائه وعلمه مالا كثيراً ولم ينفع الناس بشيء وعندما نصل إلى أحمد بن أبي دواد نجد أنفسنا أمام شيخ علامة واسع الذكاء حسن التصرف في القول ، ولكنه خان قضية الفكر كلها عندما أصبح من رجال السلطة وأدواتها وعندما أصبح قاضياً لبغداد - وهي وظيفة تشبه وزير العدل في أيامنا - استعمل جاهه كله في السطو بالفكر وأهله وامتنح الفقهاء وأهل الديانة بالقول بخلق القرآن واستحل ضرب الناس وعذابهم وتشريدهم وحرمانهم من وظائفهم ؛ لأنهم خالفوه في الرأي وظل ثمانية وعشرين عاماً سوط عذاب مسلطاً على الناس حتى أصيب بالفالج سنة ٢٣٢ هـ / في أول خلافة المتوكل فتنفس الناس الصعداء ..

هذا إلى ما عرف عن المعتزلة جميعاً من التعالي على الناس ونظرتهم إلى العمال والزراع وبقية أهل الحرف والأسواق على أنهم رعا عاهلة لا ينبغي أن يكون لهم أي نصيب من عقل أو فكر ؛ لأنهم في نظرهم أشبه بالأنعام ، وهذا الموقف من جانب المعتزلة جعل معظم كلامهم هباء لا يتحصل من ورائه شيء . وقد أبغض المعتزلة الفقهاء واتهموهم بالتقليدية والجمود والتسليم المطلق دون إعمال فكر ، ولكن الفقهاء كانوا على أي حال أكثر فائدة للأمة من المعتزلة فقد عاشوا بين الناس ونصحوهم وخدموهم ونفعوهم وطبقوا في معاملاتهم أحكام الشريعة ، وتلك خدمة جليلة لا ينزع فيها إنسان .

وما دام المعتزلة قد زعموا أنهم أهل الفكر الرفيع والفهم الصادق فلنحاسبهم على هذا الأساس ونسأل : هل فهم المعتزلة حقيقة الإسلام وأدركوا لماذا أرسل الله محمدًا ﷺ بالقرآن ؟

نقف هنا هنيهة ونسأل : هل كان في تقدير الله سبحانه عندما أرسل محمدًا ﷺ بالقرآن أن يزيد عدد الأنبياء واحدًا وعدد الأديان واحدًا ؟ ولماذا جعل الله محمدًا خاتم النبيين والقرآن آخر كلام الله للبشر ولا رسالة بعده ؟ إن لدينا في القرآن آيات من سورة القصص تجيب عن هذه الأسئلة وتشرح لنا حكمة الله في ذلك . قال جل وعلا : ﴿ إِن فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ .

[القصص ٢٨ / ٤ - ٦] .

هذه الآيات الكريمة تجيب عن الأسئلة التي لم تخطر ببال أحد من هؤلاء النوابع : لماذا أرسل الله محمدًا ﷺ بالقرآن ؟ لكي يهدي الناس إلى الصراط المستقيم ! ولكن الدنيا إذ ذاك كانت حافلة بالمسيحيين ، وكثيرون جدًا منهم كانوا ناسًا أتقياء يسرون على الصراط المستقيم ، والقرآن نفسه يقرر ذلك ويقول في سورة المائدة (٥ / ٨٤ - ٨٥) : **إِنَّهُمْ أَقْرَبُ مَوْدَةٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا لَأَن فِيهِمْ قَسِيسِينَ وَرَهَبَانًا وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ بَلْ كَانِ الْكَثِيرُونَ مِنْهُمْ تَفِيضُ أَعْيُنُهُمْ بِالْدمْعِ إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ وَعَرَفُوا أَنَّهُ الْحَقُّ .** ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ . والكثيرون منهم آمنوا لأنهم رأوا أن القرآن يصدق ما كان بين أيديهم .. إذن فلو أن الله أراد بالرسالة المحمدية مجرد تصحيح مسار الأديان السماوية السابقة على الإسلام وهداية أهلها وإعادةهم إلى الطريق القويم لما كانت هناك حاجة إلى نبي جديد ودين جديد .

لا بد أن هناك حكمة أخرى هي في رأينا التي تراها في هذه الآيات . إنها تبدأ بالتنبيه إلى ما فعل فرعون بالناس ، لا يمكن أن يكون المراد هنا فرعونًا معينًا أو فرعون ملك مصر وحده ؛ لأن الله يجمع في سياق الآيات بينه وبين هامان وجنودهما . وهامان كما نعرف لم يكن وزير فرعون . بل كان وزير ملك بابل أو هو ملك بابل نفسه ،

وجنودهما يراد بهم كل المستبدين الذين بطشوا بالناس وأنزلوا بهم المظالم التي تذكرها الآية وكلها من خصائص الحكام في العصور القديمة : الاستبداد بالضعفاء وجعل الناس شيعاً أى طبقات وإنزال المذابح بالمستضعفين . إذن فالمراد هنا هى العصور القديمة وسادتها من المستبدين والملوك والعسكريين ..

وماذا يريد الله سبحانه إذن بالقرآن والإسلام ؟ اقرأ قوله :

﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ .. الآية .

إذن فتلك هى الحكمة فى بعث الله سبحانه محمداً بالقرآن والإسلام . الحكمة هى إنهاء عصر من عصور التاريخ وبداية عصر جديد .

نهاية عصر الطفلة والمستبدين والظالمين الذين ظلموا الناس وأفسدوا فى الأرض طوال العصور القديمة .

وبداية عصر الذين كانوا مستضعفين فى الأرض . أولئك سيكونون الأئمة والوارثين ، ومن هم أولئك المستضعفون فى الأرض ؟

كل الذين كانوا يعملون فى عمران الأرض : العمال والحرفيون والزراع والتجار وأهل العلم وكل بناء الحضارة الحقيقية للإنسان .

هنا - وعلى ضوء التاريخ العالمى - تتجلى لنا رسالة الإسلام .

والبعثة المحمدية ونور القرآن فاصلان فى تاريخ البشر . إنهما بداية عصر العمل والعمران والخير . والقرآن الكريم أعطانا مفاتيح ذلك كله : الإيمان بالله وحده بلا شريك أو وسيط حتى لا يزعم إنسان أنه إله ، أو نصف إله أو إنسان رفعه الله وأحظاه بالقداسة ليصير وسيطاً بين الله والناس .

إنها بشارة بعصر العمل الصالح ، والقرآن ينص مرة بعد أخرى على العمل الصالح . العمل الصالح هو ما ينفع الناس ، لأن الله سبحانه لا يفيد من أعمالنا . والعبادات على رأس الصالحات ولكنها ليست غايات فى ذاتها . وأنت لا تصلى ؛ لأن الصلاة دين عليك الله أو ثمن لما ستنالاه فى الآخرة ، بل هى سبيل لتصفية النفس الإنسانية وحمايتها من الوقوع فيما يضرها : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا

تَصْنَعُونَ ﴿ (العنكبوت ٢٩ / ٤٥) هنا نرى حكمة الصلاة : إنها تنهى عن الفحشاء والمنكر . إن وقوفك بين يدي الله سبحانه خمس مرات في اليوم جدير بأن يشعرك بقدرك ومسئوليتك أمام الله وحده ، وهذا في ذاته يعصمك من التردى في أى خطأ فاحش منك .

والقرآن يجمع دائماً بين إقام الصلاة وإيتاء الزكاة . والصلاة واجبك نحو نفسك ونحو خالقك ، والزكاة واجبك نحو أخيك المؤمن وخالقك . والإنسان لا يتزكى إلا إذا كان لديه مال ، ولا يكون لديه مال إلا إذا عمل وكسب المال والعمل مفتاح الخيرات كلها . والعمل الصالح هو كل عمل يؤدي إلى صلاح النفس وصلاح الأرض وعمرانها . والله سبحانه وتعالى أورثنا الأرض لنعمرها بالعمل الصالح . وأسأل نفسك : ما معنى قولنا : إنسان صالح : صالح لماذا ؟ وفي سورة مريم آية تربط بين إقام الصلاة والضياع في الشهوات : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَغْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ، فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ . (مريم ١٩ / ٥٩ ، ٦٠) .

واقرا الآيات التالية من سورة الحج وتدبر معانيها وربطها بين الصلاة والقوة في الأرض والمعروف والمنكر : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (الحج ٢٢ / ٤١) .

وحسبنا هذه الآيات البينات ، فليس هذا بحثاً في فضائل الإسلام ، إنما هو بحث عن رسالة الإسلام . لماذا أهدانا الله إياه وهدانا إليه . والنظرة التاريخية للإسلام وحكمته تؤكد ما قلناه من أن الله بعث محمداً بالإسلام ليختم به عصرًا من عصور الإنسانية ويبدأ به عصرًا جديدًا . وهو نذير بنهاية عصر الظلم والاستبداد بالعالمين المصلحين للأرض وإذلالهم على أيدي الطغاة والظالمين من ملوك مستبدين ورمزهم فرعون ووزراء مفسدين ورمزهم هامان وعسكريات ظالمة طاغية باغية ورمزهم جنود فرعون وهامان .

مكان ذلك كله يريد الله أن يمن على المستضعفين في الأرض ويجعلهم الأئمة ويجعلهم الوارثين .

ورسول الله ﷺ أقام أمة العدل دون حكومة ؛ لأن الحاكم هو الشرع ، ودون جيش لأن الجيش هو الأمة و الأمة هي الجيش ، ودون شرطة لأن الشرطة الحقيقية هي القلب

أى الضمير . والأمور كلها تساس بالشورى . ورسول الله أمره كله شورى فى كل ما يتصل بشئون الدنيا والمعاش . رسول الله ضرب المثل ورسم الطريق وفيه سار الشيخان من بعده فنجحت أمة الإسلام نجاحًا لم تسبق إليه ، والله سبحانه أمرنا بأن تكون منا أمة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . وتلك الأمة هى أهل الشورى . وأهل الشورى بالاختيار . والبداية فى بيعة العقبة الثانية وهى بداية أمة الإسلام ، فإن الرسول قال لمن بايعوه فى العقبة : أخرجوا لى اثنى عشر نقيبًا . أى انتخبوا من بينكم فئة ترضون عنهم لتكون معى أهل شورى . وعندما نزل رسول الله فى قباء قضى أيامًا يشاور الناس ويبادلهم الرأى وتلك هى بداية عصر الشورى . والصحيفة التى كتبها الرسول بين المسلمين والمؤمنين من المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم وجاهد معهم لم تكن إملاء منه بل كانت ثمرة أخذ وعطاء وتبادل رأى فيما يرضى به الناس فى إطار القرآن . الصحيفة هى ميثاق الأمة ، وأساس تطبيق الميثاق هو البر ، والبر هو الوفاء .

* * *

تلك القضية ، قضية حكمة الله سبحانه فى إرسال محمد بالإسلام كان ينبغى أن تكون على رأس القضايا التى تشغل بال المعتزلة إذا كانوا يريدون فعلًا أن ينفعوا الناس بفكرهم وعلمهم ، لأن العلم والفكر - مثلهما فى ذلك مثل أى وجه آخر من وجوه نشاط الناس - ينبع من حاجات الأمة ويصب فى الأمة ليسد تلك الحاجات . وكل شىء لا ينبع من حاجة أساسية من حاجات الأمة ولا يسد حاجة من حاجاتها فهباء لا يتحصل منه شىء أو هو ضار . وخذ مثلًا لذلك القمح فهو نابع من حاجة الناس إلى الطعام ، وهو يسد حاجة الناس من الطعام وإذن فهو خير . وقارن بذلك الدخان أو التبغ ، فإن الله خلقه نباتًا من نبات الأرض لحكمة أرادها فنجىء نحن نحرقه ونستنشق دخانه ، ثم نجعله صناعة تنبع من غير حاجة وتصب فى غير حاجة إذن فالاشتغال بزراعته وصناعته وتجارته واستخدامه على هذا الوجه شر . كذلك الفكر والعلم أهدانا الله إياهما لنستخدمهما فى علاج موضوعات نابغة من حاجة الأمة وتصب فى حاجات الأمة . فيجىء أصحابنا المعتزلة ليستخدموا ذكاءهم وعلمهم وبلاغتهم فى قضايا لا حاجة للأمة بها ، ومن هنا كان الكلام فيها لا ينفع الأمة . ولا يسد حاجة من حاجاتها فقلت الفائدة منه وكان حصاده هشيما .

وانظر والله فى كلامهم فى موضوع العدل . إنهم يركزون على عدل الله سبحانه ،

وهل شكّت الأمة في عدل الله ؟ وإذا كان الله يقول بصريح اللفظ والمعنى في القرآن : إنه لا يظلم الناس مثقال ذرة ، وإن ما يصيب الناس من خير فإنما هو ثمرة اتباعهم سبيل الله وما يصيبهم من شر فإنما هو ثمرة الهوى والخروج على منهاج الله ، فما معنى أن نثير هذا الموضوع ونجادل فيه ؟ إن من يشغل نفسه — والناس معه — بالجدل في عدل الله والتساؤل : إن كان الجور يصدر عن الله ، يدل دلالة واضحة على أن من يفعل ذلك فهو متكلم في موضوع لا يشغل بال الأمة ، فالأمة مؤمنة بعدل الله وأن الله سبحانه عندما أعطانا العقل فقد حملنا مسئولية أعمالنا ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . فالكلام هنا — بالنسبة للمسلم — كلام في غير موضوع وهو لا يسد حاجة من حاجات الأمة .

أما المشكلة التي كان ينبغي على المعتزلة أن يشغلوا أنفسهم بها فهي عدل الناس أو العدل في الناس . وهنا وبدلاً من أن يدرسوا سنة الرسول ومنهاجه في تسيير أمور الأمة نجدهم يدخلون في مسألة الخلافة والإمامة ومن يستحقها ومن لا يستحقها ويسلمون تسليماً قاطعاً بأن الناس في حاجة إلى إمام مفرد أو حاكم بأمره ويطول بحثهم عن ذلك الإمام المفرد العادل أو الحاكم بأمره العادل ، والتاريخ لا يعرف إماماً مفرداً عادلاً . فما دام مفرداً يحكم بأمره فهو ظالم والمستبد العادل مخلوق خرافي ، إنما الحقيقة هي الأمة العادلة . الأمة التي تسير على منهاج الله ، والأمة العادلة تختار الإمام العادل ، هي تختاره وهي تعطيه سلطاته وهي تشاركه في هذه السلطات وهي تحاسبه وهي تحدد متى يتولى ومتى يعزل . الأمة في الإسلام أى في العصر الجديد الذي تحدثنا عنه هي الأصل والفرع ، هي البداية والنهاية والشورى هي طريق الحكم في الأمة وهي في القرآن أمر طاعته واجبة ، والشورى حق للأمة كلها والرأى لا يقتصر على أهل العلم بل يشمل الأمة كلها ، أما أن تكون في الأمة طبقة أرستقراطية عقلية هي وحدها صاحبة الرأى والفكر ومن عداها ففى مراتب البهائم فجهل بالإسلام فادح ، فهؤلاء العامة هم المستضعفون في الأرض ، هم الذين أراد الله أن يمن عليهم ويجعلهم الوارثين ، فهم العاملون في عمران الأرض ومن بينهم يكون الصالح والطالح ، أما الحاكم المستبد الذي لا يتولى برضا الأمة ولا يزول عندما تريد الأمة فهو ظالم بمجرد وجوده على هذه الصورة مهما زعم أنه يتحرى العدل ، بل إن وجود الحاكم على هذه الصورة رجوع بالإنسانية إلى عصور ما قبل الإسلام ، عصور فرعون وهامان وجنودهما ، وهذا

بالضبط ما حدث لأمة الإسلام ؛ لأنها غفلت عن حكمة الإسلام كله وخرجت بذلك عن منهج الله . وما معنى حصر النقاش السياسى كله فى البحث عن كان أفضل : أبو بكر وعمر وعثمان أم على ، فهو كلام فى غير موضوع . فأبو بكر وعمر وعثمان وعلى ليسوا كل تاريخ الإسلام ؛ لأن كل تاريخ الإسلام هو سنة محمد ﷺ ، ومحمد كان يستمع لكل الناس ويحترم آراء كل الناس ، وقد جعله الله يعبس ويتولى عندما جاءه المستضعف ابن أم مكتوم يسأله أمراً ثم لأمه فى ذلك لتكون للناس حكمة وموعظة ، والمستضعف ابن أم مكتوم كان أفضل وأزكى عند الله من الوليد بن المغيرة ومن فى طبقته . ثم يجىء الجاحظ ويحمل القول فى صاحبه إبراهيم بن سيار النظام المعتزلى ويقول :

لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل فإن لم أقل : ولولا أصحاب إبراهيم (النظام) وإبراهيم لهلكت العوام من المعتزلة ، فإننى أقول : إنه أنهج لهم سبلاً وفتق لهم أموراً واختصر أبواباً ظهرت فيها المنفعة ، وشملتهم بها النعمة (الحيوان للجاحظ ١٩ / ٤ رواه أحمد أمين فى ضحى الإسلام ١٢٧ / ٣) .

والسؤال الآن : وهل عرفنا فى تاريخ الإسلام إلا هلاك العامة أى عامة الناس ؟ وإذن فماذا فعل المعتزلة ؟

لكى تتضح لك حقيقة ما أريد قوله أتيك بحديث فقيه عالم لاهوتى من أهل الغرب ، وأهل الغرب نجحوا فى حياتهم ووقفوا إلى نصيب من الرخاء والنظام والعدل يفوق ما وصلنا إليه نحن بكثير ، وأنا عندما أتيك بحديث هذا الفقيه اللاهوتى فى العالم وما فعل وكيف فكر وكيف تصرف فأنت - أرجو - تفهم عنى ما أريد قوله ؛ لأننا عندما ننظر فى تواريخ غيرنا وتجارب الأمم نزداد فى أمرنا بصراً وبصيرة ، والأمور كما تتبين بأضدادها فهى تتضح بأندادها .

هذا الفقيه العالم الغربى المسيحى هو مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) صاحب الثورة الكبرى على الكنيسة الكاثوليكية ومنشئ الحركة البروتستانتية ، هذا الرجل ولد فى قرية صغيرة تسمى إيسلبينى فى مقاطعة ثورينجيا فى بلدة سكسونيا فى ألمانيا ، وكانت ثورته على واحد من أعظم أباطرة المسيحية ، وهو شارل الخامس الذى يعدل فى تاريخ الغرب المسيحى خليفة من عظماء خلفائنا هو هارون ، ومارتن لوثر رفض أن يكون فقيهاً من حواشى الامبراطور شرلكان ، رفض ما كان يسعى إليه ويحفى فى سبيله أئمة المعتزلة من واصل بن عطاء إلى أحمد بن أبى دؤاد القاضى الأعظم .

ومارتن لوثر لم يبلغ ما بلغ من المكانة فى التاريخ لمجرد احتجاجه على بيع صكوك

الغفران ، فالكنيسة الكاثوليكية منذ قامت كانت تبيع الغفران ، فهي الوسيطة بين المؤمنين والله ، والمسيحي الكاثوليكي مهما فعل من أعمال التقى لن يدخل الجنة إلا إذا رضيت عنه الكنيسة وتوسطت له عند الله ، وهذه الوساطة لها ثمنها ، وكان المسيحيون يدفعون هذا الثمن راضين ؛ لأن الكنيسة ليست مجرد مكان للصلاة بل هي ديوان وإدارة ودولة ، وهي تشرف على حياة المؤمنين من الميلاد إلى الوفاة فهي تعمد الأطفال وبدون التعميد لا يكونون مسيحيين وهي تثبتهم في العقيدة حوالي سن العاشرة وبدون التثبيت أو ما يسمى بالكونفير ماسيون لا يكون الإنسان عضواً في أمة المسيح وهي التي تتولى عقد الزواج ولا طلاق إلا بإذنها ، وهي كذلك تتلقى الاعتراف على مراحل العمر وتمنح الغفران أولاً بأول ، وهي في النهاية تصلى على روح الميت وتفتح له أبواب السماء وبدون ذلك تظل روح الإنسان معلقة في المطهر أو اليورجاتوري حتى تصلصل قطعة النقود في حصالة الكنيسة ، هنا تقفز الروح إلى الجنة Wenn Desgeld Klingt Die Sea La Sjingt ولوثر لم يعترض على ذلك ؛ لأنه كان يعرف أن أعمال الكنيسة ودفاترها تحتاج إلى سجلات والسجلات تتطلب مالا ، ولكن الذي اعترض عليه لوثر كان تحويل مال الغفران إلى صكوك يشتري منها ما يشاء ما شاء ، وعلى قدر ما يشتري يكون نصيبه من الفردوس ، ولم يعجبه أن يبيع البابا ليو العاشر وظيفة أسقف مدينة ماينتس لرجل يسمى البريخت ، كان أميراً على براندنبورج بمبلغ ٢٤,٠٠٠ قطعة من الذهب ، والأمير البريخت أصبح أسقفًا وبهذه الصفة أصبح له الحق في منح الغفران لقاء مال ، فأصدر وثائق الغفران وجعل لها سعراً وحولها إلى تجارة ، وأصبح أى فاسق على وجه الأرض يستطيع أن يشتري الغفران لنفسه وزوجته وأولاده الأطفال ، بل لأبويه وجديه الذين ماتوا .

احتج لوثر على ذلك في وثيقة يقال : إنها تضمنت ٩٥ حجة على بطلان بيع الصكوك وعلقها على باب كنيسة قريته وغضب عليه الأسقف الأمير وطلب من البابا حرمانه من رحمة الله ، والبابا طرده من الجنة ، ولكن حتى هذا لم يكن السبب فيما وصل إليه لوثر من المكانة في التاريخ .

والحقيقة أن مارتن لوثر أصبح من أعظم المصلحين في التاريخ ؛ لأنه فعل بعد ذلك ما لم يفكر فيه قط أصحابنا المتكلمون أثمة الاعتزال .

دَرْسٌ مِنْ فِقْهِهِ مُعْتَزَلِيٍّ مَسِيحِيٍّ مَازِنِ لُوتَر

مارتن لوتر رجل الدين الألماني (١٤٨٣ - ١٥٤٦ م) الذي يمكن اعتباره - إلى حد بعيد - فقيهاً متكلماً معتزلياً مسيحياً ، وتمكن - دون أن يغادر قاعدته الدينية الخالصة - من إحداث أكبر حركة فكرية دينية اجتماعية سياسية في تاريخ الغرب الأوروبي قبل الثورة الفرنسية سنة ١٧٩٨ ، وذلك لأنه - بخلاف الفقهاء والمتكلمين عندنا - لم يتكلم من المنصة الفقهية الرفيعة المتعالية عن سواد الناس ، بل هبط إليهم وخاطبهم بلغتهم وحمل إليهم الفقه وسلمهم مفاتيحه ودخلت جماهير الناس في الغرب ميادين العلم والفكر ودخل العلم والفكر حياة الجماهير ؛ فأصبحت جماهير متعلمة مفكرة وصانعة للتاريخ نتيجة لذلك .

بينما اقتصر صنع التاريخ عندنا على أهل الحكم وأهل الفقه ، فتوقفت هنا حركة التاريخ وتحركت هناك ، وصيحة الفقيه اللاهوتي مارتن لوتر حطمت سلطان الكنيسة المطلق وزعزعت عرش امبراطور الدولة الرومانية المقدسة فتوالت الحركات الفكرية والسياسية في الغرب ، وصيحة مارتن لوتر هي التي أنشأت كل مذاهب البروتستانتية وعلى أثر ذلك بدأ عصر الأنوار ، والمراد أنوار الفكر التي أثارته الطريق للشعوب ، وبعد مفكرى عصر الأنوار جاء الموسوعيون ثم السان سيمونيون ، وكل هؤلاء لم يكفروا بالله ، ولا هم خرجوا عن الطريق وإنما هم قالوا : إن الله منح الإنسان العقل وهو نعمة الله الكبرى ، وبالعقل يصل الإنسان إلى الله سبحانه وإلى الإيمان الصحيح به ، وكل تقدم الإنسان مرهون باستخدامه عقله والعقل المتفتح المتحرك هو الطريق إلى الرخاء والسعادة ، والعقل الجامد الساكن ينتهى بالإنسان حتماً إلى السكون والموت ، والمفكرون ينبغي أن يكونوا الطلائع في عصر الأنوار ، فقد رفعوا مكانة العقل إلى نفس المستوى الذي رفعه إليه القرآن الكريم ، والمفكرون في الغرب ساروا في طريق لوتر ، اتجهوا إلى الجماهير ؛ لأنها مستودع القوة والحضارة وهي صانعة التاريخ أو ينبغي أن تكون صانعته ، أما أهل العلم عندنا فقد نظروا إلى الجماهير نظرة ترفع واستكبار واعتبروها طغماً لا حق لها في أن تفكر ، وقد رويينا فيما سبق عبارة لأحد أئمة الاعتزال

قال فيها : إن صلاح المجتمع يكون بابتعاد العامة عن العلم ؛ لأنهم إذا تناولوه أفسدوه .

أما مارتن لوثر فقد سار في طريق يخالف طريق أهل العلم والفقه عندنا ، وهو عندما كتب وثيقة اعتراضه المشهور على بيع صكوك الغفران وعلقها على باب كنيسة وتنبرج في ٣١ أكتوبر ١٥١٧ ؛ تجمع الناس حوله وسأله أن يشرحها لهم لأنها كانت باللاتينية ، ولو أن مارتن لوثر كان يفكر بطريقة أهل العلم عندنا لقال لهم : أنتم عامة وسوقة ولا دخل لكم بمسائل الفقه والفكر ؛ لأنها فوق مستوى عقولكم ، ولكن لوثر أسرع فترجم الوثيقة إلى الألمانية وقام بطباعة النصين ووزعهما على الناس في نفس الوقت الذي أرسل فيه نسخاً باللاتينية إلى البابا والكرادلة والأساقفة والقساوسة ، وبهذا العمل أصبحت حركة مارتن لوثر حركة شعبية ، وما دامت قد أصبحت شعبية فقد أصبحت نافعة لأن الذي غاب عن ذهن المتكلمين والفقهاء هو أن جماهير الناس التي سموها بالعوام تتميز بإدراك لطيف لحقائق الأمور لا يصل إليه العلماء المتكلفون ، والجماهير بطبعها تميز بالفطرة بين ما ينفعها وما يضرها ، بين من يحبها ومن لا يحبها ، وإدراك الجماهير من هذه الناحية أعمق من إدراك العلماء المتحذلقين وأى فكرة تصل إلى الجماهير وتدرکها وتؤمن بها تصبح من تلقاء نفسها حركة إنسانية وأى فكرة يقتصر فهمها على أهل الذكاء العادى تصبح فكرة صالونات ومجالس منكمشة في ذاتها مقتصرة على أصحابها وتموت ، والله سبحانه وتعالى يقول في الآية ٢٨ من سورة سبأ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ولم يقل سبحانه : إنه أرسله لخاصة الناس أو للعلماء . والعرب البسطاء الأميون الذين قرأ عليهم رسول الله ﷺ آيات القرآن لأول نزولها ، فهموها وأحسوا بها بأكثر مما فهمها الفقهاء ، بدليل أن أولئك البسطاء تحركوا بآيات القرآن وساروا تحت رايته وفتحوا بها الدنيا وأدخلوا الملايين في الإسلام ، أما العلماء المتكلفون المترفعون فقد استعملوا القرآن لتكفير غيرهم من الناس ..

ولم يقف مارتن لوثر عند هذا في تحويل حركته إلى حركة شعبية أى حركة إنسانية نافعة ، بل اتجه في خطابه إلى المفكرين العلمانيين المثقفين ؛ لأنهم يعرفون كيف يستخدمون العقل فيما يصلح أمر الناس ، في حين أن السياسيين مثلاً يستخدمون عقولهم فيما ينفعهم ويصل بهم إلى القوة والسلطان ويقوى مركزهم فيهما ، وإذا

صرف أهل الفكر جهدهم في السياسة - دون تطلع إلى الاشتغال بها - كانوا بركة على أممهم ؛ لأنهم ينيرون الطريق للأمة وقادة الأمة وينشئون فكراً سياسياً سليماً يفتح عيون الناس إلى ما لهم وما عليهم ويكشف لأهل السياسة حقيقة كبرى تغيب عن الكثيرين منهم ممن يتعرضون للغرق في صراع القوة والسياسة ، وإذا غرق رجال السياسة في هذا الصراع اشتدت أنانيتهم وأصابهم عمى البصيرة وفقدوا التوازن وتردوا في أخطاء قاتلة لهم ومؤذية لأممهم ، وتلك هى الوظيفة العظيمة التى قام بها كتاب سياسيون اجتماعيون من أمثال « جون ستيوارت ميل » فى كتابه عن الحرية و « آدم سميث » فى كتابه الخالد عن ثروة الأمم و « مونتسكيو » فى دراسته الكبرى عن القوانين التى تحكم سير الأمم والجماعات فى كتابه (روح القوانين) و « جان جاك روسو » فى كتابه الصغير الضخم (العقد الاجتماعى) و « دالا مبير » وإخوانه من الموسوعيين الذين فتحوا للبشر أبواباً بلا حدود من الفكر السليم وخاصة «هلفيسوس» الذى لفت أنظار الناس إلى ما سماه بالسعادة العامة La felicité Publique و «فولتير» الذى نفذ بفكره وسخريته اللاذعة إلى مواضع الضعف والسخرى فى المؤسسات السياسية السابقة على زمانه والقائمة فى عصره ، وكانت تلك المؤسسات جميعاً تقوم على أسر مالكة تعتمد على عسكريين يمتصون دماء الناس دون أن نرى منهم إلا الخيلاء والأخطاء الفادحة ، وعلى سياسيين هم لصوص من ناحية ، وحشم سلاطين من ناحية أخرى ، وعلى رجال دين يستخدمون جاه العقيدة فى السيطرة على الجماهير وتضليلها وابتزاز الملوك والأمراء وإنشاء دولة الكنيسة إلى جانب دولة السياسة وكل منهما تخدم الأخرى ..

ومارتن لوتر - كما قلنا - كان رجل دين ولكنه تنبه إلى الحقيقة الكبرى التى غابت عن رجال الدين فى عصره ، وهى أنه من الخطأ أن يتصور رجال الدين أنهم أصحاب علم إلهى خاص بهم ، هم وحدهم أصحابه والمتمتعون بخيره ، وأنهم المتفردون بالعلم من دون الناس وعلمهم هو اللاهوت أو العلم الإلهى ، ولغة هذا العلم الإلهى هى اللاتينية وهى الستار الكثيف الذى كان يخفى عن عيون الناس كل المساهر والمهازل التى ترتكبها الكنيسة ورجالها باسم الدين ، ومن بينها بيع صكوك الغفران ولوتر عندما أعلن احتجاجه على الكنيسة أثار خمساً وتسعين قضية من قضايا خداع الكنيسة وتحالفها مع رجال السياسة على جماهير الناس ، وأحدث صدعاً هائلاً فى بناء الزيف

الذى أقامته الكنيسة ، ومن خلال هذا الصدع نظرت الجماهير فرأت من الجرائم التى ترتكب باسم الدين ما هالها ، وفى رسالة تالية كتبها لوثر باللغة الألمانية يقول للجماهير : ليس هناك - من وجهة نظر الدين - علماء وجهلاء أو أمراء وسوقة أو كرادلة وأساقفة أغنياء وأقوياء يتوسطون بين الله والناس ويملكون مفاتيح العلوم ، وعامة مستضعفة جاهلة عليها أن تتلقى العلم الدينى من أيدي أربابه وأصحابه ، فإن الدين نعمة الله الكبرى على البشر أجمعين مثلها فى ذلك مثل ضياء الشمس ، وكما أنه ليس من حق إنسان أن يبيع ضوء الشمس للناس فليس من حق بابا أو كردينال أو أسقف أن يزعم أنه متفرد بالعلم الإلهى وأن الله أعطاه الحق فى بيع نور الله لجماهير الناس ؛ لأن الدين للناس كافة ، والناس كافة ينبغى أن تفتح أمامهم سبل الوصول إلى العلم بالدين لأن الدين سهل ، والإنسان البسيط الذى يقول عنه رجال الدين : إن مداركه لا تصل إلى حقائق الإيمان هو أقدر بالبصيرة الهادية على الوصول إلى الهدى من أولئك الذين يزعمون أنهم وحدهم يملكون مفاتيح العلم والهداية .

لهذا كله ، وبشجاعة نادرة ، اتجه لوثر إلى جماهير الناس يخاطبها بلغتها وهى الألمانية ، وكانت الألمانية إذ ذاك لغة عوام ذات لهجات ، فهى لا تكتب ولكن لوثر بدأ يكتب بها ؛ لأنها اللغة التى يفهمها الناس وقبل أن يخطو هذه الخطوة كتب رسالة طبعها ووزعها على رجال الدين الألمان يقول لهم فيها : إنه ليس من حق بابا روما وكرادلته وأساقفته وكلهم من الإيطاليين أو من غيرهم من خدم الكنيسة أن ينفردوا بالعلم والتكلم فى الدين من دون غيرهم من البشر وعنوان الرسالة : اللاهوت الجرماني The Ologia Germanica وأعقب ذلك برسالة اسمها (فى حرية رجل مسيحى) : Von Der Freiheit Eines Christleschen Menschen وقد نشرت وذاعت بين الناس فى ديسمبر ١٥٢٠ ، وأدرك الناس منها أن كل ما يزعمه رجال الدين من أنهم وحدهم القادرون على فهم الدين وتفسير قواعده وحقائقه باطل .. وبدأت الجماهير تتحرك وتلتف حول هذا الرجل الذى يغامر بحياته ليفتح أبواب العلم ورحمة الله لهم ، ووجد لوثر أن أمراء الألمان مترددون خائفون من الكنيسة وسلطانها وتأييد الامبراطور لها ، فكتب بالألمانية أيضاً رسالة فى الغاية من الإقدام عنوانها : إلى أشراف الشعب الألمانى A de Christlichen Adel Deutscher Nation وعلى إثر ذلك اجتمعت رئاسة جماعة الرهبان الأوغسطينيين وقررت فصل لوثر وطرده من الجماعة ، وكان

لوثر راهباً أوغسطينياً يعيش في دير أوغسطيني فطروده من الدير وألقوا به في الطريق وحيداً فقيراً .

وفي ١٧ أبريل ١٥٢١ جمع الامبراطور شلكان مجلس الدولة في مدينة « ورمز » فأصدر بياناً يستنكر فيه كل ما قاله لوثر في نقد الكنيسة والبابوية ورجال الدين ، ويقرر أن لوثر لا بد من القبض عليه ومحاكمته وعقابه إلا إذا تاب وندم ورجع عن كل آرائه ورفض لوثر وطالت المناقشة والرجل الفقير الوحيد الأعزل قال كلمته المشهورة : هذا موقفى ولا موقف لى غيره Hneir Stehe Ich . Nhtics . Anderes Kann Ich Tun وطروده من المجمع ، ومن حسن حظه أنه كان هناك نفر من أصدقائه الذين تحمسوا لآرائه وأكبرهم وأشدهم حماسة له يوهان إيك . Johann Eck وفي نهاية الجلسات صاح لوثر : إن كل قرارات هذا المجلس الامبراطورى باطلة مثلها في ذلك مثل قرارات المجمع الكنسى ، وخرج من قاعة المناقشة رافعاً يديه إلى أعلى كأنه يقول : إنه فعل ما أملاه عليه ضميره والله يتولاه ، وما كاد يغادر المكان حتى اختطفه بعض أنصاره وأخذوه إلى معتزل آمن في قلعة وارنبورج قرب مدينة إيزنباخ ، وكان أمير الناحية وهو فرديريك العاقل من أنصاره فتولى حمايته .

وفي هذا المعتزل قام لوثر بعمل يعد من معالم التاريخ الحضارى والفكرى في الغرب كله وفي ألمانيا خاصة وهو ترجمة الإنجيل إلى اللغة الألمانية بمساعدة بعض أصدقائه وخاصة ميلانكتون Melanchthon وقد طبعت هذه الترجمة في سبتمبر ١٥٢٢ ثم أكب على ترجمة العهد القديم إلى الألمانية أيضاً ، وقد كانت الترجمة هذه المرة من العبرانية وتداولها الناس ، ولكنها لم تنشر إلا في سنة ١٥٣٤ ، ومن المعروف أن الكتاب المقدس المسيحى يتكون من قسمين : قسم كبير وهو العهد القديم أو بتعبير أوضح شهادة من العهود القديمة السابقة على بشارة المسيح عيسى ابن مريم Old Testament وفيه تواريخ أنبياء بنى إسرائيل وما بشروا به وما جرى لهم ولبنى إسرائيل والبشرية عامة ، وهذا القسم كله يعتبر في مجموعه وعداً من الله بتخليص البشر من خطاياهم وأولها خطيئة آدم وغضب الله عليه وإخراجه من الجنة ، والقسم الثانى هو تحقيق وعد الله بتخليص البشر بإرساله عيسى ابن مريم كلمة الله ، يحمل إليهم بشارة الخلاص ، ونحن المسلمين نقول : إن هذا الخلاص جاء في صورة كتاب أوحاه الله

إلى عيسى كما أوحى التوراة إلى موسى ، ولكن عامة المسيحيين يقولون : إن حياة عيسى ابن مريم نفسها وخلقها من كلمة الله التي امتزجت بدم السيدة مريم العذراء هي لباب رسالته وتبشيرها للناس بالخلاص من لعنة الله لكل من صدق قوله واتبعه وحصل على الخلاص منه بالتعميد على يده أو على يد أحد حواريه ويقولون كذلك : إن تمام حلول بركة هذا الخلاص كان بصلب المسيح وقتله وبشراء خلاص البشر بدمه ، وبشرى الخلاص هذه تسمى باللاتينية Evangelium وهو الإنجيل ، فالإنجيل أو تحقيق البشرى عندهم ليست كتاباً ، وإنما هي حياة المسيح نفسه ثم موته ، والذي لدينا عن حياة المسيح هو ما رواه عنه الحواريون ، وكلها روايات صغيرة قصيرة لا تزيد الواحدة منها عن سبعين أو ثمانين صفحة تضم ما وعوه من أخباره وخطبه وأقواله منذ خرج للتبشير علانية عند بحيرة طبرية ومسيره منها إلى القدس حيث قبض عليه أخبار اليهود ورجال الدولة الرومانية وجروه حافياً مكبلاً بالأغلال إلى المعبد أو الكنيس حيث أدانوه وحكموا عليه بالموت ثم كانت ليلته الأخيرة في سجن المعبد حيث كان العشاء الأخير لعيسى ابن مريم وحوارييه ، ومن بينهم يهوذا الإسخريوطى الذى وشى به إلى السلطات ، ثم صلبه وموته على الصليب في اليوم التالى ، وكانت الروايات أو الأناجيل عن ذلك كله كثيرة جداً ولكن مجامع الكنيسة اعتمدت منها أربعة ورفضت البقية واعتبرتها زيوفاً أو تلفيقات Apocrypha وهذه الأربعة هي أناجيل متى ولوقا ويوحنا ومرقص ، وأنت تجدها جميعاً في كتاب واحد ولم تكتب كلها باللاتينية ، بل بعضها بالسريانية أو العبرانية وبعضها باللاتينية ، ولكنها ترجمت كلها إلى اللاتينية عدا إنجيل مرقس الذى كتب أصلاً باللاتينية وهو أبلغ الأناجيل لغة وأسلوباً ؛ لأن مرقس أو ماركوس كان من أوسع الحواريين علماً ، وقد كتب إنجيله في مصر واحتفظت به الكنيسة المصرية الإسكندرانية التى تسمى لذلك بالمرقصية ، ولفظ كنيسة تحرف في لغة أقباط مصر فأصبح كرازة ، وكنيستنا المصرية لهذا تسمى بالكرازة المرقصية ، وكلا لفظي كرازة وكنيسة محرف من اللاتينية Ecclesia وهى ليست مبنى الكنيسة وإنما معنى الإكليزيا أو الكرازة في الأصل جماعة المسيحيين ، ثم استعمل اللفظ للدلالة على مكان اجتماع المسيحيين وهو الكنيسة .

وهذه كلها معلومات ينبغى أن نعرفها لكي نكون على بينة من أمرنا عندما نتكلم عن المسيحية والمسيحيين حتى يقوم بيننا الفهم والتفاهم والحوار الهادئ البناء الذى

أمر به الله سبحانه وتعالى عندما قال في سورة النحل بعد أن تحدث عن سبق محمدًا - صلوات الله عليه - من الرسل ، ونص على إبراهيم عليه السلام ودينه وهو الحنيفية الإسلامية ثم أشار إلى من انحرف عن ملة إبراهيم من أهل الأديان ثم قال بعد ذلك : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

(سورة النحل : ١٦ / ١٢٥)

وأنا الآن أحدث القارئ عن لاهوتى مسيحي وكيف تصرف وماذا عمل لخدم دينه وقومه دون أن يغادر قاعدته الدينية ، وسيرته وعمله تزيدنا علماء وفهماً بما عمل أهل العلم عندنا وكيف تصرفوا ليكون حكمنا عليهم وتقديرنا إياهم صائباً سليماً ، لأن الأمور تزداد وضوحاً بالقرائن والأمثال والأنداد ، ولوثر ينتمى إلى جماعة أهل الغرب وهم السابقون علينا في ميدان العلم والفكر والحضارة ، وهم لم يسبقونا عبثاً بل هم سبقونا ؛ لأنهم ساروا في طريق أسلم من الطريق الذى سرنا فيه .

أتعرف كيف ترجم لوثر نص الكتاب المقدس المسيحي وفي أى لغة صاغه ؟ إنه لم يتعالم ولم يتفهيق بل نزل إلى دنيا الناس أو العامة وكتب بلغتهم ، ففي سنة ١٥٣٠ كتب رسالة عن اللغة التى تخيرها لصياغة الترجمة قال فيها : عليك إذا أردت أن تترجم وتتخير الألفاظ التى ستستعملها فى الترجمة أن تلقى بالأسئلة إلى الأمهات فى البيوت ، إلى الأولاد فى الشارع ، إلى الناس العاديين فى الأسواق وتصغى إلى إجاباتهم وانظر إلى شفاههم وهم يتلفظون ثم تبدأ فى الترجمة بعد ذلك ، ومعنى ذلك أن هذا الرجل ترجم الكتاب المقدس إلى لغة من يسميهم أصحابنا المتكلمون بالعوام - بتعبير آخر - لقد نزل الرجل إلى الأسواق وأخذ لغة السوقه لكى يكتب لهم بالأسلوب واللفظ الذى يقبلونه ويفهمونه ، وهل تتصور أن اللغة التى كتب بها بعد ذلك كانت سوقية أو حوشية ؟ استمع إلى رأى الأستاذ هربرت وولف أستاذ اللغة الألمانية فى جامعة ماربورج فى ألمانيا : « إن عمله الأدبى يقوم على اختيار ممتاز للألفاظ وتخير المستوى المناسب للأسلوب والوقع الشفوى للكلام والجرس اللغوى المسوق فى نغم لطيف » إذن فجمال أسلوب لوثر يرجع إلى أنه استلهم العامة والسوقه فى اختيار ألفاظه وصياغة كلامه ، وهذا كلام يبدو غريباً جداً لأهل الأدب عندنا ممن تعودوا الترفع على العامة واستصغار

شأنهم واحتقار كلامهم ، وهذا كله ميراث رذيل سيء أخذناه عن أهل الأدب السابقين علينا جيلاً عن جيل ، فقد كانت أجيال أهل الفكر عندنا تتخير الفاظها من « صهاريج اللؤلؤ » كما فعل الشيخ توفيق البكرى في أيامنا هذه ، وحسن الزيادات ، ومصطفى صادق الرافعى اللذان يقفان في آخر خط البلاغة التقليدية الذى يقف الجاحظ في أوله ، كانا يعانيان في اختيار اللفظ الذى يسمونه أنيقاً ويتكلفان في صياغة العبارات كأنهما على كرسى التوليد ، فكانت النتيجة كتباً خاصة لا يقرأها إلا الخاصة ومعانى ضالة متصيدة من بطون المعاجم بجهد بالغ ، وما عرفنا اللغة العربية السهلة الجميلة إلا على أيدي جيل طه حسين والعقاد والمازنى ممن أخذوا بمذاهب أهل الغرب في إنشاء أساليبهم الكتابية ، وأهل الغرب يتحرون الوضوح والبساطة والواقعية في الكلام ، ولهذا فقد كتبوا أدباً يقرأ وأنشأوا فكراً ينفع وتكلموا بلسان أقوامهم فارتفعت لغة أقوامهم ، وبارتفاع مستوى الكتابة ارتقى مستوى الفكر .. والفكر هو مفتاح كل خير وتقدم وحضارة ، وإذا أردت أن تفهم عنى ما أريد حق الفهم فاقراً شيئاً من نثر توفيق الحكيم ونجيب محفوظ تجد أن كليهما يأخذان أفكار الناس العاديين أى العوام والفاظهم ثم يصوغانها بذوق رجل الفن المثقف فتكون من ذلك أصدق لغة وأصفاها وأقربها إلى القلوب .

وإذا أنت سألتنى لماذا ينحط مستوى اللغة العربية اليوم ؟ يكون جوابى : إن بعض الأسباب ترجع إلى قلة تراثنا من اللغة الصادقة السهلة التى تعبر عن أفكار من كان المتحذلقون يسمونهم بالعوام ، وأنا لا يخطر ببالي قط أن أقرأ الجاحظ لأخذ منه الأسلوب ؛ لأن أسلوب الجاحظ لا يخاطبنى بل هو يخاطب الجاحظيين مثله ، وهو أسلوب طريف ، ولكنه ليس إنسانياً ؛ لأنه أسلوب رجل يتعالى عن عامة الناس ويعتبرهم أحط منه منزلة .

ولوثر اللاهوتى الذى قام بهذا العمل العظيم أنشأ بترجمته تلك وبكتاباتة الكثيرة لغة كاملة كانت توصف بأنها عامية فأصبحت بفضل علمية وأدبية ولاهوتية ، وهو باللغة الألمانية التى وضع أساسها البلاغى أضاف لغة عظيمة من لغات الفكر والعلم فى عصرنا هى اللغة الألمانية ، وقد كان الناس فى الغرب يقولون : إن اللغتين الوحيدتين ذواتى الأدب الرفيع هما الإنجليزية والفرنسية ، فجاء فولفجانج يوهان جيته فكتب بلغة لوثر فارتفع مقام اللغة الألمانية إلى لغات الغرب الأدبية الفكرية الكبرى ، ولوثر ثم

جيتته ثم شيللر وبقيّة أدباء الألمان أنشأوا الأساس اللغوى الفكرى لوحدة الشعب الألمانى ، ومثل هذا فعل دانتى الليجيرى عندما ترك اللاتينية وكتب كوميدته الإلهية بالإيطالية ، وميجيل ترفانتس عندما رفع اللغة الأسبانية إلى مصاف اللغات الفكرية العالمية الكبرى . فأين من هذا كله فكر المتكلمين ولغة المتفهمين والمتفهمين ؟

* * *

سأقف بك هنا عند رأى الجاحظ وبقيّة المتكلمين — عدا قلة منهم مثل أبى بكر الأصم — فى العامة وفكر العامة وانحطاطه وعدم قدرتهم على الدخول فى مسائل الفكر والسياسة .

والجاحظ وأمثاله — بخلاف مارتن لوتر — كانوا يفكرون تفكير الكرادلة الذين حاربهم لوتر وهدم عروشهم وكانوا يقولون : إن هناك خاصة — هم منها — وعامة هى جمهور الناس وأهل الأسواق ، فإذا كان هناك أمر هام مثل اختيار الإمام ، فإن الذين يختارونه هم الخاصة وحدهم ولا يجوز بحال أن يسمح للعامة بالدخول فى مثل هذا الأمر الخطير مع علمهم بأن المرة الوحيدة التى اختار فيها المسلمون إمامهم اختياراً حراً صحيحاً فى مجلس حر كان فيه أخذ وزد وتبادل آراء كان انتخاب أبى بكر فى بيعة سقيفة بنى ساعدة والذين حضروا اجتماع السقيفة كانوا عامة المسلمين ، فقد كان الاجتماع فى مكان فسيح لا أبواب له إنما هى المساحة المسقوفة بعريش من سعف النخل التى كانت قبيلة بنى ساعدة تجتمع فيها ، وكانت لكل قبيلة من قبائل المدينة سقيفتها فى منازلها ، وكان الاجتماع عفويّاً ، حضره الناس جميعاً ، دون أن يكون هناك خاصة أو عامة ، ومعظم الحاضرين كانوا أميين لا يكتبون أو يقرأون فكان اختيارهم أصح اختيار وأسلمه ، وأبو بكر دون شك هو أعظم خلفاء الإسلام وأصلحهم بشهادة عمر نفسه .

ومع ذلك فإن الجاحظ وأصحابه يقولون لك : إن بيعة أبى بكر كانت فلتة .. أى مصادفة لا يقاس عليها ، واستمع إلى كلامه وكلام القاضى عبد الجبار أبى الحسن الأسد أبادى المعتزلى صاحب « المغنى فى أبواب التوحيد والعدل » يقول الجاحظ فى كلامه عن العامة : أما الأمر الذى يعرفونه فالتنزيل المجرّد (أى قراءة القرآن دون تفسير أو فهم) وجملة الشريعة (أى دون تفسيرها لأن عقولهم لا تصل هذا المستوى)

وما جُلَّ من الخبر واستفاض وكثر ترداده على الأسماع وكرروه على الأفهام (أى الأخبار العامة والأفكار البسيطة العادية التى تتكرر على ألسنة الناس كل يوم) وأما الذى يجهلون (وتعرفه الخاصة وحدها) فتأويل المنزل وتفسير المجمل وغامض السنن (أى الأحاديث النبوية) التى حملتها الخواص عن الخواص من حملة الأثر (أى الحديث) وطلاب الخبر . مما يتكلف معرفته ويتتبع فى مواضعه ولا يهجم على طلبه ولا يقهر سمع القاعد عنه .. (رسالة العثمانية للجاحظ ص ٢٥٣) .

ثم يتفضل الجاحظ فيقول لنا : لماذا يستبعد العامة عن الكلام فى مسائل يراها عالية لا يجوز الكلام فيها إلا للخاصة أمثاله « إذ العامة لا تعرف معنى الإمامة وتأويل الخلافة ولا تفصل بين فضل وجودها ونقص عدمها ، ولأى شئ أريدت ، ولأى أمر أملت ، وكيف مأتاها والسبيل إليها » بل هى مع كل ريح تهب وناشئة تنجم ولعلها بالمبطلين أقر عيناً منها بالمحققين .. (رسالة العثمانية ٢٥٠) ، ومن مأثور كلام الجاحظ فى هذا المعنى : فصلاح الدنيا وتمام النعمة فى تدبير الخاصة .. (نفس الرسالة ص ٢٥٣) ويقول : إنما يلزم الناس الأمر فيما عرفوا سبيله وليس للعوام خاصة معرفة بسبيل إقامة الأئمة فيلزمها أمر أو يجرى عليها نهى .. (وانظر : الدكتور محمد عمارة فى كتاب : المعتزلة وأصول الحكم ص ١٢٦ وما يليها) .

* * *

والعامة كما رأيناهم - تاريخياً - المستضعفون فى الأرض ، الذين أتى الإسلام ليرد إليهم الأمور وليجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين ، وتلك هى حكمة مجيء الإسلام الكبرى فى تطور تاريخ البشر ، إنه الفرقان بين عصور الخاصة من المستبدين بأمور الناس وفكرهم وأموالهم ، والعامة الذين هم عيال ، لا رأى لهم ولا ينبغى أن يحسب لهم حساب إذ لا عقل لهم ولا فهم ولا يجوز أن يؤذن لهم بإبداء الرأى فى عظام الأمور !

لهذا الاتجاه الفكرى غير السليم - البعيد عن منطق التاريخ ، الغريب عن الإدراك الحقيقى لطبيعة الإسلام والدنيا والناس - انتهى فكر المعتزلة إلى أن جعلوا أنفسهم أداة السلطان الغاشم يستذل بهم أهل الصلاح ويستحل بهم دماء الأبرياء .

* * *

القرن الهجري الثالث ربيع الفكر العربي

لكي أعطيك مثالا من نظرة المعتزلة للفكر ومقامه أختتم هذا الكلام عنهم بحكاية تروى عن شيخ من أئمة شيوخم هو إبراهيم بن سيار النظام ، فقد حكى أنه دخل وهو صغير على الخليل بن أحمد فقال له : صف هذه الزجاجة . فقال : بمدح أم بدم ؟ فقال له : بمدح . فقال كلاماً في غاية البلاغة في مدحها .

فقال له : فذمها . فذمها بأبلغ لفظ وأنقه (أحمد أمين . ضحى الإسلام ١٠٦/٣ - ١٠٧) ، فالمسألة عندهم كانت عبثاً فكرياً ولعباً بعقول الناس وغروراً بأنفسهم ، وعلى مثل هذا الحط الفكرى لا يقوم شيء صالح ، ولا يتأتى منه إلا هباء .

قبل أن نستطرد إلى الكلام عن الفقه وهو قاعدة تنظيم المجتمع الإسلامى ، والفقهاء وهم العمدة الحقيقية لعمران عالم الإسلام وأساس ما بقى سليماً من أعمدته ، نقف هنيهة عند القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى لنرى ما الذى قطعناه من الطريق وما بقى لنا منه ، ولنستطلع أحوال العالم الإسلامى بعد أن قطع قرناً هجرية ثلاثة من قيام أمة الإسلام . فقد كان ينبغى بناء على ما عرفنا من سلامة النشأة الأولى لأمة الإسلام أن تصل إلى درجات من الاستقرار والرخاء والتقدم لم يسبقها إليها سابق ، فهذه الأمة بدأت طريقها ومعها كل عوامل النجاح وعناصره : كتاب الله وسنة نبيه . كتاب الله هو هداية وحكمة وتشريع ووعظ وتجارب أمم بادت أو اضمحلت ؛ لأنها خرجت عن المنهج ، وهو كذلك جماع مكارم الأخلاق ومنهج فكرى لمعرفة مذاهب الخير ، وأما سنة نبيه فهى تطبيق لشرع الله ومنهجه وهى إلى جانب ذلك تشريع قويم لأن رسول الله ﷺ مشرع بنص القرآن فقد قال الله فى كتابه العزيز : ﴿ وَمَا آتَاكُم الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَانْهَاكُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا ﴾ .

أقول : إننا كان ينبغى أن نكون فى نهاية القرون الثلاثة الأولى قد وصلنا إلى أحسن ما انتهى إليه العالم من علم وقوة ورخاء ؛ لأننا بدأنا طريقنا وجمعنا العدة الكاملة لكل توفيق ، فإذا كان أمرنا قد انتكس وساءت بنا الأحوال ، فنحن المسئولون ولا ريب ، وقد

بينت لك آنفاً كيف خرجنا عن المنهج ولم ننشئ - في الفاحية السياسية على الأساس الذى تلقيناه وتركنا هدى الله وسنة نبيه ومضينا نحكم بعهد أردشير وأساليب الظالمين ، وعهد أردشير كتاب كتبه أردشير بن يابك كسرى فارس لابنه يبين له فيه نهج السياسة الذى ينبغى عليه اتباعه ليسود الناس ويهيمن عليهم وينفرد بالخيرات دونهم ، وتلك فى حكمة الفرس هى السياسة ، فهى فى عرفهم كذب ومين وخداع وتضليل واستغلال وإرهاب ، وقد أراد الله بالإسلام أن يمن على الذين استضعفوا فى الأرض ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين .

والمستضعفون هم الأشقياء العاملون فى عمارة الأرض ؛ لأن الله عهد إلينا فى عمارة الأرض وإصلاحها ، والإنسان الصالح هو العامل فى عمارة الأرض فكل عامل فى عمارة الأرض رجل صالح وهو من المستضعفين الذين من الله عليهم بالإسلام ليجعلهم الأئمة والوارثين للأرض ، والعامل هنا هو العامل بذهنه والعامل بيده ، وكل هذا الطراز من العمال كانوا أشقياء عصور ما قبل الإسلام وضحاياها ، فجاء الله بالإسلام بشرى لهم ليكونوا وارثى خيراتها وأصحاب الأمر فيها بعدل الله على منهج الله .

والذى عملناه خلال القرون الثلاثة الأولى كان كله مناقضاً لما أراد الله وخارجاً عن منهجه ، فبدلاً من أن نسوس أمورنا بأسلوب جماعة الخير والشورى كما كان حالنا أيام الرسول والشيخين انقلبنا على أنفسنا وحولنا أمة الشورى إلى خلافة الاستبداد والظلم وأصبح تاريخنا السياسى صراعاً على الملك الذى سميناه خلافة وأثبتنا بذلك أننا ورثة سفهاء ، والسفاهة جاءت من أننا عندما صارت إلينا موارث الأمم عملنا فيها بعهد أردشير وأساليب الظالمين لا بعهد الله ، وعهد الله هو ميثاقه الذى أخذه علينا وهو حبله الذى أمرنا بأن نعتصم به جميعاً ولا نتفرق ، فما كان لنا همٌّ إلا ترك حبل الله والتفرق فضاع أمرنا بدءاً وصرنا أسوأ من أمم الجاهلية .

وأقول : إننا لا بد لنا من وقفات عند مراحل معينة من هذه الرحلة فى تاريخ الفكر والمجتمع الإسلاميين ، وهى رحلة طائر يرى الأمور من فوق فتستبين الخطوط الرئيسية دون التفاصيل ، وفى أثناء هذه الرحلة نقف كذلك بين الحين والحين عند رجال يعدون معالم واضحة فى تاريخ الفكر ونقلات متميزة فى مسيرته كما وقفنا عند الجاحظ وعبد الحميد الكاتب وأبى نواس .

وستكون لنا وقفة ثانية مثل هذه عند القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، وثالثة عند القرن الثانى عشر الهجرى / الثامن عشر الميلادى نتأمل فى كل وقفة منها حصاد القرون قبل أن يدخل عالمنا الإسلامى فى العصر الحديث ويتبدل من حوله - وفيه - كل شىء .

ونحن نقف عند هذا القرن الثالث الهجرى ؛ لأنه ربيع الفكر الإسلامى والربيع فى عصر الحضارة هو عصرها الذهبى وقد تعودنا أن نقول : إن القرن الرابع الهجرى هو العصر الذهبى لحضارة الإسلام ، وهذا تقدير غير سليم ؛ لأن القرن الثالث الهجرى هو قرن إرساء قواعد العلم وتدفق الملكات وتدافع الإنتاج الفكرى ، فهو قرن القوة والشباب والربيع ، أما القرن الرابع فهو صيف الفكر الإسلامى ، والصيف هو فصل الثمر والحصاد ، وبعد حصاد الثمار لا يبقى إلا الهشيم المنذر بالخريف ثم الشتاء .

وفى القرن الرابع الهجرى دخلنا فى عصر الترف المفسد وهو ما يقابل فى المصطلح الغربى Earrysrin وهو يختلف عن الوفرة والترف الصالح ، وهما يقابلان مصطلحى Prassperity A Iundonce وابن خلدون عندما استعمل مصطلح الترف وحمل عليه كان يقصد الترف المفسد ؛ لأن الترف الصالح لا ضرر فيه بل هو طلبتنا جميعاً ، ومن منا لا يسعى للمسكن الطيب والأثاث الفاخر والسيارة الجميلة والنعمة الظاهرة ؟ إنما الترف المكروه هو ترف الجشع والكسب الحرام والاستزادة من الخيرات فى غير ضرورة على حساب الآخرين .

وابن خلدون عندما ينكر الترف المفسد ويقول : إنه إيدان بتدهور العمران وفساد المجتمع يلتقى هنا مع أوسفالد شينجلر Oswaed Jengler الذى قال : إن الحضارة بداية الفساد والمدخل إلى مغيب شمس الغرب Untergang Das Abend Landes ويلتقى أيضاً مع أرنولد توينبى فى قوله : إن حضارة الغرب دخلت دور التدهور خلال عصر الاستعمار والعدوان على الحقوق وإهدار القيم ونهب الدنيا لبناء ثروات الغرب ومدائنه وقصوره .

ولابن خلدون هنا عبارة يمر بها القارئ دون تفكير وهى لباب اللباب فى فهم تاريخ البشر وحضارته عند الماضين . قال فى الفصل الثامن عشر من الباب الثانى من المقدمة تحت عنوان « فصل فى أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره ، وإنها مؤذنة

بفساده « قد بينا لك فيما سلف أن الملك والدولة غاية للعصبية ، وأن الحضارة غاية للبداوة ، وأن العمران كله من بداوة وحضارة وملك ودولة له عمر محسوس (محسوب) ، كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات (الكائنات) عمراً محسوساً وتبين في المعقول والمنقول أن الأربعين للإنسان غاية في تزايد قواه ونموها ، وأنه إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشوء والنمو برهة ، ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط فلتعلم أن الحضارة في العمران أيضاً كذلك ؛ لأنه غاية لا مزيد وراءها ، وذلك أن الترف والنعمة إذا حصل لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها ، والحضارة كما علمت هي الترف والتفنن واستجادة أحواله (هنا يريد ابن خلدون الإسراف في الترف وهو الذي يقابل الفساد Carra Jtian كما قلنا آنفاً) والكلف بالصنائع المنشأة التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الأبنية ولسائر أحوال المنزل .. (المقدمة ص ٣٣٤ - ٣٣٥) .

وهذه كلها معان وأراء تغيرت الآن نتيجة لاتساع نطاق العلم وتطور الفكر وأثر ذلك في طبائع البشر والدول وأعمارهم ، ولكننا نتكلم عن العصور الماضية عندما كان مستوى العلم الطبى وعلوم الحياة عاجزاً عن حماية الإنسان من الأمراض ، فكان الرجل إذا بلغ الأربعين من عمره اكتهل وبدأ يميل نحو الشيخوخة ، والدولة الإسلامية كان ينبغي لها أن تظل في ربيع العمر من القرن الثالث إلى السابع أو الثامن على الأقل ، وقد حدث هذا للدولة الرومانية قبلها حيث دام ربيع عمرها - إلى عصر النمو والنشاط البالغ وتدفق الحيوية والعمران من القرن الثاني قبل الميلاد إلى نهاية القرن الثالث بعده نحو خمسة قرون فلم يظهر تدهورها الحقيقي إلا في القرن الرابع الميلادي - ولكن ضعف البناء السياسى لدول الإسلام وهشاشة تكوينه نتيجة لقيامه على غير قواعد الإسلام وخروجه عن منهجه جعلها - من الناحية السياسية - تدخل في دور الشيخوخة خلال النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، أما من الناحية الحضارية ، والحضارة دائماً من عمل الشعوب - فإن التدهور والدخول في مرحلة الترف المفسد تأخر قرناً من الزمان ؛ لأن أمة الإسلام ظلت مرتبطة بالعقيدة والقرآن والسنة مما حفظ لها إطارها ومكّن لها من مقاومة الآثار المفسدة التي دخلت على البناء السياسى الفاسد : وهى الاستبداد والظلم والعدوان على كرامة الإنسان ومحاربة الفكر

الحر الذى ينبغى أن يكون أساس حضارة الإسلام ولبابه وطابعه المميز له بين حضارات الأمم .

وإذا كان الأدب — شعراً ونثراً — والفكر — الذى ارتبط ارتباطاً وثيقاً بعلم الكلام ومذاهب الاعتزال — قد تأثرت كلها بالعوامل السياسية فضلت طريقها وفقدت الارتباط الضروري بالأمّة وروحها فتحول — فيما يتصل بالشعر والنثر — إلى إنتاج لفظى زخرفى لا يعبر عن حقيقة نافعة ، أما فى بقية ميادين الفكر الإسلامى التى سلمت من شرور السياسة فإن شبابها ظل متدفقاً ، ويتجلى ذلك فى ميادين الفقه — وستحدث عنه فى فصول قادمة من هذه الدراسة — ويليهِ التاريخ والجغرافية والرياضيات والطب والصيدلة والأعشاب وما إلى هذا مما يدخل فى نطاق ما نسميه بعلوم الحياة .

ويتجلى هذا الشباب — أو ربيع الفكر العربى — بصورة واضحة جداً فى ميادين هامين من ميادين علوم الحياة وهما التاريخ والجغرافية ، ذلك أن علم التاريخ — فى كل عصر وفى كل الحضارات — هو مظهر إحساس الأمة بنفسها وارتباط أجيالها بعضها ببعض ، وبالنسبة لعلم التاريخ عند المسلمين نجده قد ارتبط منذ البداية بالسيرة النبوية وهى ميراثهم التاريخى الأعظم وهى ديوان السلوك والأخلاق الأكبر وقد عنى المسلمون بها عناية كبرى وتوفر على تدوينها نفر من أهل الدين والحس التاريخى والإحساس بكيان أمة الإسلام ، ولهذا فقد بدأ علم التاريخ عندنا بداية سليمة بالتأليف فى السيرة من تاريخ مبكر جداً ، ووصل التأليف فى السيرة خلال القرنين الهجريين الثانى والثالث إلى تأليف جامعة تعتبر بالفعل من ذخائر التاريخ الفكرى العربى أولها وأقدمها سيرة ابن إسحاق المتوفى فى بغداد سنة ١٥١ هـ / ٧٦٨ ومغازى الواقدى المتوفى سنة ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ وطبقات ابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ .

وتستوقف نظرنا هنا سيرة ابن إسحاق وهو أبو بكر محمد بن إسحاق بن يسار المطلبى مولى بنى هاشم فإن سيرة النبى التى كتبها تعتبر دون شك أعظم ما كتبه القدماء فى سيرة الرسول ﷺ وأولاه بالثقة ، وقد كتب ابن إسحاق سيرته فى تاريخ مبكر قبل أن يتعالى بناء دول الاستبداد ويثقل بوزنه على نفس الفكر الإسلامى حتى تكاد روحه تزهد ، وقد كتب الرجل سيرة الرسول ﷺ كما وصلت إليه من الرواة الأولى ودونها دون تكلف أو خوف من دولة أو سلطان ، وتلك كانت مشكلته الكبرى التى

عانى هو منها الكثير وعانى منها كتابه أكثر ؛ لأن الرجل كتب كتابه في العصر العباسي وقال الحقائق كما وصلتته ، والحقائق لا تعجب السلطان ، لأن دور العباس بن عبد المطلب في تاريخ الإسلام الأول – وقبل فتح مكة خاصة – كان دوراً لا يشرف بنى العباس ، فقد كان في جملة أعداء الإسلام ومحاربيه وقد خرج في جملة من خرج لمحاربة رسول الله ﷺ في بدر ووقع أسيراً في أيدي المسلمين واضطر إلى فداء نفسه ودخل العباس الإسلام هو وأبو سفيان صخر بن حرب بن أمية قبيل فتح مكة في وقت واحد ولم يبق بعد إسلامه بدور كبير بل ظل مادياً ينظر لصالح نفسه وأهل بيته ويطمع في ميراث الرسول ، وهذا الموضوع يجعل العباس وبنيه أدنى بكثير من وضع علي بن أبي طالب وبنيه ، وما دامت رئاسة الأمة قد أصبحت ميراثاً سياسياً فقد تحارب عليه أهل الأطماع ومن يرون أنفسهم أولى بالميراث من أمثال بنى أمية ثم بنى علي بن أبي طالب وبنى العباس بن عبد المطلب وبنى الزبير بن العوام . فأما بنو أمية فقد أنكرت الأمة دولتهم وتمكنت من الخلاص منهم وانحصر النزاع في بنى علي وبنى العباس وتمكن بنو العباس من الفوز بالخلافة دون آل علي بالخداع والحيلة ولم يتنازل بنو علي وأنصارهم أبداً عما كانوا يحسون أنه حقهم الشرعي ، وهنا نجد سيرة ابن إسحاق لا ترضى الدولة العباسية ورجالها وقد كان مولى من موالى بنى عبد المطلب حتى نسب إليهم وكان صديقاً للإمام جعفر الصادق ولهذا اشتدت الحملة على ابن إسحاق وكتابه وإن كان أبو جعفر المنصور نفسه قد تظاهر بالرضا عن الرجل وقربه إليه وأكرم مثواه عندما أخرجه الفقهاء من المدينة وعلى رأسهم مالك بن أنس واتهموه بكل نقيصة ، فمالك ابن أنس قال عنه إنه « دجال من الدجاجة » وروى محمد بن إدريس الشافعي أنه كان يتحدث عن المغازي مع مالك بن أنس فذكر ابن إسحاق وقال إنه قال : أنا بيطار المغازي ! فقال مالك : نحن قصيناه عن المدينة . وقال أحمد بن زهير بن حرب : إن يحيى بن معين سئل عن ابن إسحاق مرة فقال : ليس بذاك ضعيف ، وقال عنه هشام ابن عروة بن الزبير : إنه كذاب خبيث ، وحكى أبو داود الطيالسي أنه سمع أحمد بن حنبل يذكره فقال : كان رجلاً يشتبه الحديث فيأخذ كتب الناس فيضعها في كتبه ، وقال يحيى القطان : ما تركت حديثه إلا لله ، أشهد أنه كذاب .

والحقيقة أن محمد بن إسحاق لم يكن كذاباً ولا مدلساً إنما كان يثبت ما يصل إلى علمه ، وقد يكون في الكثير مما يصل إلى علمه بعض ما لا يرضى هذا أو ذاك ، ولكن ذلك

لم يكن ذنب الرجل ، فقد كان التنافس على العلم بالحديث النبوى في ذلك العصر شديداً جداً ، وكان كل طالب علم يحب أن يكون بين من تروى عنهم الأحاديث فيعطيه ذلك مكانة كبرى عند الناس فكثير نقد الناس بعضهم لبعض وتزاحموا تزاحماً شديداً حتى دفع بعضهم بعضاً بالمناكب ، ولهذا كثر الهجوم على رجل مثل محمد بن إسحاق رغم أنه أعرف أهل زمانه بالمغازى - وأخبار المغازى كلها تدخل في السنة النبوية ، وربما كان من أشد ما جلب عليه العداوة أن بعض المعجبين به قالوا : إنه أمير المؤمنين في الحديث ، ومالك بن أنس كان يحب أن ينفرد بهذا اللقب وهو يستحقه .

والذى لا شك فيه هو أن ابن إسحاق نجح في أن يكتب سيرة كاملة لرسول الله ﷺ صادقة إلى حد كبير ، وقد يدهش بعض القراء عندما أقول : إن هذه هي أول مرة في الحضارة العالمية يكتب فيها رجل ترجمة حياة بهذا التفصيل وتلك الدقة ، وأقصى ما بلغه اليونان والرومان في فن ترجمة الحياة هو كتاب بلوتاركوس الرومانى في تراجم نفر من عظماء اليونان والرومان ، والمقابلة بين حياة واحد من هؤلاء وواحد من أولئك وتراجم بلوتارك ليست شيئاً إلى جانب هذا العمل الهائل الذى قام به ابن إسحاق ووصفه المستشرق الفريد جيوم الذى نقله إلى الإنجليزية بأنه Man Mental .

ولا يقل ما عمله ابن إسحاق عما عمله الواقدي وهو محمد بن عمر بن واقد المتوفى سنة ٢٠٧ هـ في كتابه العظيم المسمى بالمغازى أى : مغازى رسول الله ﷺ وهى الغزوات التى قادها والسرايا التى أرسلها تحت قيادة بعض أصحابه والبعوث التى كلف بها من رأى من الصحابة . فقد أتانا هذا الرجل بكل تفاصيل النشاط العسكرى للأمة الإسلامية أيام الرسول ﷺ في أكثر من ألف صفحة حافلة بالتفاصيل الدقيقة التى نستطيع أن نستخرج منها - إذا أردنا - صورة كاملة للمجتمع الإسلامى أيام الرسول ، وأجمل ما في سيرة المصطفى أنها ليست ترجمة لحياته الكريمة وحدها ، بل هى تاريخ للأمة كلها ، فقد كانت المغازى هى العمل الرئيسى لأمة الإسلام أيام الرسول ﷺ وما من صحابى ذى قدر إلا له فيها نصيب كبير أو صغير ، وهذا النصيب يعطينا صورة الصحابى ومكانته ، لأن الجهاد الدينى هو ميدان الامتحان الأكبر ، فالسيرة النبوية هى تاريخ لأمة الإسلام ، والمغازى تعرض علينا أجمل جوانب تاريخ هذه الأمة ، وإنك لتقرأ كتاب المغازى للواقدي ويملكك العجب : هل هذه الأمة العظيمة هى أسلافنا ؟ هل يعقل أن الأجيال التى تطاحت على السلطان السياسى خلال القرن

الهجري الأول هي بناء جيل العصر النبوي ؟ كيف يمكن أن يأتي هذا الهبوط كله من ذلك السمو كله ؟ لا بد أن شيئاً خطيراً ما قد حدث فأخرج الأمة كلها عن الطريق السوي الذي كانت فيه وانحرف بها إلى طريق آخر تماماً أدى بها إلى عالم غريب لا يمكن أن يكون هو عالم الإسلام .

وذلك الانحراف البالغ هو الذي زرع في نفوس المسلمين « عقدة العصر النبوي والعصر الراشدي الأول » ، فإن المسلمين من العصر الراشدي الثاني من منتصف خلافة عثمان وبداية الفتنة إلى يومنا هذا يسألون أنفسهم ، ماذا جرى لنا وماذا دهانا ؟ وكلهم يحلمون بأن يعودوا إلى العصر النبوي والعصر الراشدي الأول أو يعود هذان العصران إليهم ، وهذا مستحيل وذاك مستحيل ، ولكن الممكن وهو الذي يستطيع أن يعمل المسلمون هو أن ينشئوا بأيديهم عصرًا راشداً ثانياً ؛ لأن الذي جعل للعصر الراشدي الأول - عصر أبي بكر وعمر - هذا البهاء هو أن أهله كانوا يسرون فيه في منهاج الله كانوا يسرون في طريق الصراط المستقيم الذي سماه عمر بن الخطاب بالجادة ، وقال : وأما أنا فوالله لأحملنهم على الجادة ، وما من مسلم إلا يعزم على أن يلزم الجادة جادة الرسول وصحابته ، ولكنه لا يلبث أن ينصرف عنها ، وكان معاوية ابن أبي سفيان يضع في كف الرجل مائة دينار ويأمره بقتل ابن بنت رسول الله فينطلق يسابق الريح ليقول ابن بنت رسول الله ثم يبكي بعد ذلك ويلتمس التوبة ، وما أكثر ما يقول الناس في زماننا وكل أزمان الانحراف : ماذا تريد ؟ إنني بشر كأن ذلك ذريعة أو حجة لارتكاب أفدح الأخطاء . والجواب على مثل هذا التساؤل : بلى أنت بشر ولكن المطلوب منك إذا أردت أن تعيد العصر الراشدي أن تكون فوق مستوى البشر ، فالبشر فيهم الضعف أمام المال والجنس ، والمطلوب منك أن تكون أقوى من المال والجنس ، والبشر فيهم الخوف من الموت ، والمطلوب منك أن تستهين بالموت في سبيل مثلك الأعلى ، فقد قال رسول الله ﷺ لو اُحْد من الصحابة « يرحمك الله ! » فقال عمر : وجبت له يا رسول الله . أي وجبت له رحمة الله بالاستشهاد قريباً ، ففرح الرجل واعتبرها بشرى واستشهد عن قريب قريب العين .

وسعد بن خيثمة الصحابي الأوسى الأنصاري تزاخم مع أبيه خيثمة بن الحارث ابن مالك على الشهادة واستهما على ذلك أي اقترعا بالأسهم ، فخرج سهم سعد ، فاستشهد في بدر واستشهد أبوه في أحد ، هذا هو فوق « مستوى البشر » الذي أقصده ، وهو نفس المستوى الذي تصوره السيرة النبوية وهنا حكمتها . أما مستوى البشر

فرخيص : تسرق وتقول : إني بشر ، وتزني وتقول : إني بشر ، والطريق طويلة كلها وهاد ومساقط ، والقرآن الكريم يقول لك : أنت بشر فيما يتعلق بمطالب حياتك العادية ، فلك أن تعيش مرتاحاً راضياً طاعماً كاسياً حتى إذا طلب الإسلام منك شيئاً فلا بد أن تكون فوق مستوى البشر فلا راحة ولا رضاء ولا طعام ولا كساء يساوي شيئاً إلى جانب الإسلام ، فالإسلام هو الأول وأنت الآخر ، وإذا استطعت أن تجعل نفسك أخيراً بالنسبة للإسلام وجدت نفسك الأول على البشر ، وتلك هي المعادلة البسيطة العسيرة التي حَلَّها الصحابة عندما باعوا أنفسهم لله فقبل الله بيعهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة ١١١ / ٩) ، ومن أسوأ ما يفعله المسلمون هو أنهم يريدون الفوز العظيم دون أن يؤدوا ثمنه .

وتلك أيضاً هي المعضلة التي يضعنا فيها علم التاريخ عند المسلمين ، فكل كبار المؤرخين حتى الذين كتبوا منهم مختصرات مثل أحمد بن واضح اليعقوبى يبدأون بالسيرة ، ثم يستمرون في رواية الأحداث حتى أيامهم ، فتبدأ بالخط المستقيم ثم تجد الطريق ينحرف أمامك فترى مقدار الانحراف .

وربما كان هذا هو الذي دفع المسلمين إلى صرف الهمة إلى كتابة التاريخ والإبداع فيه ؛ لأنه عندهم الصلة بينهم وبين العصرين النبوي والراشدي ؛ إنه الخيط الذي يصل الحلم الجميل بالواقع الأليم ، وحتى إذا لم يكن صاحب التاريخ متفلسفاً فإن فكرة الربط بين ما مضى وما هو فيه ترقد في اللاوعي ، وهذا هو الذي حفز المسلمين على الإكثار من التأليف في التاريخ ، فإن المكتبة التاريخية الإسلامية تجيء بعد كتب الفقه وعلوم الدين مباشرة من حيث الكمية والقيمة بالنسبة للتراث كله ، وإذا كان معظم أهل التاريخ من أبناء القرن الخامس وما بعده قد عاشوا في ظلال الدولة وفي رعاية رجالها فإن مؤسسى علم التاريخ الأول كانوا يكتبون بدافع إسلامي عربي خالص ، وإلا فما هو دافع أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (٢٢٥ - ٣١٠ هـ / ٨٤٠ - ٩٢٢ م) إلى تجشّم عناء كتابة تاريخه المطول للإسلام ؟ لقد كتب تاريخه هذا بعد أن فرغ من تفسيره للقرآن الكريم وأحس أن واجبه يفرض عليه أن يسجل على هذه الأمة تجاربها

بادئاً بالسيرة النبوية ، وقد خصص قبل ذلك مجلداً لتاريخ البشر قبل الإسلام وهو في الحقيقة تاريخ الرسالات الإلهية قبل الإسلام مع تاريخ مطول للفرس . حقاً إن الطبرى لا يفلسف التاريخ ولا يبحث عن الأسباب ويخلل الحوادث ولا يستخرج أحكاماً ولكنه يضع الصورة أمامنا ويدعنا نحن نفكر ونرى مقدار الانحراف في مسيرتنا ، بل إن الطبرى لا يكتفى بصورة واحدة للحدث بل يأتيها بصور متعددة للخبر الواحد حتى نرى المنظر من كل زواياه الممكنة ثم نستخلص بعد ذلك النتيجة التي نرتضيها .

كل هذا الجهد بذله الطبرى لى يربط أجيال الأمة بعضها ببعض حتى يظل الخيط ممدوداً بين السابقين والمعاصرين ، فهو هنا يربط الأمة برابط الزمان وهو في نفس الوقت يأتيها في تاريخه بكل ما لديه من الأخبار عن الشعوب التي دخلت أمة الإسلام ، فهو لهذا - سنة بعد سنة - ينبه الأمة إلى رابطة المكان ويشعرنا بأن المسلم في حدود الصين وغربى الهند هو أخو المسلم في الأندلس والمغرب وذلك هو العمل العظيم الذى قام به المؤرخون ثم الجغرافيون المسلمون - واعين أم غير واعين - إنها المحافظة على وحدة الأمة في الزمان والمكان ، وبينما كان رجال السياسة لا عمل لهم إلا تقطيع أوصال الأمة الواحدة وجعلها ممالك أو دول طوائف متعددة متناحرة كان عمل المؤرخ والجغرافى هو تجاهل هذه الفواصل لى تظل أمة الإسلام واحدة في الشعور والإحساس على الأقل ، وقد كانت كل دولة من دول المسلمين تجتهد في تحطيم السابقة عليها وتشويه سمعتها ورجال الدولة بهذا كانوا يمزقون وحدة الأمة زمنياً ، فالأمويون في نظر العباسيين دولة غير إسلامية ، والعباسيون في نظر الفاطميين دولة كافرة ، وكل دول المشرق تعتبر دولة بنى أمية في الأندلس دولة خارجة عن إطار الإسلام فيصر المؤرخون على تذكير المسلمين بأن هذه الدول كلها إسلامية كلها فروع شجرة واحدة .. تلك هى الوظيفة الكبرى التى قام بها المؤرخ والجغرافى في تاريخنا الفكرى ، وسنواصل الكلام في هذه الناحية في صفحاتنا القادمة ..

أَهْلُ الْفِكْرِ وَبِنَاءُ وَحْدَةِ الْأُمَّةِ وَعَالَمِ الْعُرُوبَةِ : الْمُؤَرِّخُونَ

لقد ذكرنا في الصفحات الماضية أن المؤرخين والجغرافيين قاموا في تاريخنا الفكري بوظيفة الربط بين أجيال الأمة وشعوبها ، أى أنهم عملوا على تأكيد وحدة الأمة في الزمان والمكان .

وينبغي أن نضيف هنا أنهم قاموا بهذا العمل الجليل عن وعى منهم بالإسلام ودوره الذى ينبغي أن يكون له في تاريخ البشر ، وربما كان الجغرافيون أوعى لهذه الوظيفة من المؤرخين فمعظمهم - وخاصة المقدسى - يقولون : إن دافعهم إلى الرحلة في عالم الإسلام ثم وضعه في كتاب هو تصوير مملكة الإسلام وتعريف شعوبها بعضها ببعض .

أما المؤرخون فقد شغلتهم الأخبار عن ذكر أسباب تأليفهم لكتبهم ، بل إن عميد هؤلاء المؤرخين ، وهو أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى يكتب تاريخه الضخم في عشرة أجزاء ضخام ولا يكاد يقدم لهذا الكتاب الهائل بمقدمة معقولة ، ولكن فكرة الوحدة التاريخية أو الزمنية في كتابه واضحة جداً .

بل إن واحداً من كبار مؤرخينا هو البلاذرى أبو جعفر أحمد بن يحيى بن جابر المتوفى سنة ٢٧٩ هـ - ٨٩٢ م ، كتب في تاريخ أمة الإسلام كتابين عظيمين : الأول كتاب « فتوح البلدان » يؤرخ فيه لاتساع أمة الإسلام جغرافياً ، فيذكر كيف تم فتح كل بلد من بلاد الإسلام ومن أهم أبطال ذلك الفتح ، وكيف كانت استجابة الشعوب للإسلام ، فكأنه يؤرخ لأمة الإسلام أفقياً ، ثم يعود فيؤرخ لها رأسياً فيكتب كتاب « أنساب الأشراف » فيأخذ بيوت العرب الذين أنشأوا الدولة ويذكر أنسابهم بيتاً بيتاً ، ويتحدث عن الظاهرين من رجال كل بيت فنعرف أجيال الأمة وتسلسلها بعضها عن بعض حتى نصل إلى عصر المؤلف ، بل إنه يذكر أنساب الأنبياء واحداً واحداً حتى يصل إلى إبراهيم ثم ابنه إسماعيل ومن إسماعيل يتتبع الأنساب حتى يصل إلى محمد ﷺ فيذكر نسبه مطولاً ، ثم يخصص جزءاً كاملاً من كتاب أنساب الأشراف لرسول الله ﷺ فيقدم لنا

سيرة دقيقة أمينة متميزة عن غيرها بما يخص من فصول لكل فريق من رجال أمة الإسلام وأعدائها من اليهود والمنافقين والمستهزئين ، ثم يواصل رواية أحداث السيرة حتى وفاة الرسول ، وهو يتميز هنا بصدق وصراحة وجراءة لا نجدها عند غيره ؛ لأن الرجل كان صادقاً أميناً لا يقدم شيئاً على الصدق والأمانة ويكاد يكون الوحيد الذي يقف وقفة طويلة عند كل واحد من أعداء الإسلام ؛ لأن الأعداء يصنعون التاريخ كما يصنعه الأنصار .

من هذا الطراز من الصدق والأمانة كان أوائل المؤرخين الذين وضعوا أساس هذا العلم عندنا من أمثال محمد بن حبيب النسابة المتوفى سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م ، وعبد الرحمن بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ م وهو الذى أرخ لفتوح مصر والمغرب والأندلس ، أى لفتوح الجناح الغربى لدولة الإسلام ، وأبى زيد عمر بن شبة المتوفى سنة ٢٦٢ هـ / ٨٧٥ م ، وأبى الوليد محمد بن الوليد الأزرقى صاحب أخبار مكة ، وأبى الفضل أحمد بن أبى طاهر طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م صاحب تاريخ بغداد الذى لم ينشر منه إلا مجلد واحد ، واليعقوبى أحمد بن أبى يعقوب بن واضح المتوفى سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م وكتابه من أصغر الكتب التى ألفت فى التاريخ الإسلامى العام ، فهو يقع فى جزئين ، واحد منهما لتاريخ ما قبل الإسلام ، والثانى للإسلام وأخباره حتى أيامه ، وتاريخه لا يتميز فى مجموعه إلا بميله الشيعى ، ولكن له - بين الحين والحين - ملاحظات أو نواذر تستوقف النظر لنفاذها وعمقها ، وأبى حنيفة أحمد بن داود الدينورى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م صاحب كتاب « الأخبار الطوال » عن العصر الأموى وحروبه ومآسيه .

وهؤلاء هم أعلام مؤسسى علم التاريخ عند العرب وكتبهم كلها متشابهة من حيث مستوى المادة التاريخية ونوعها ، والخلاف بينهم يكون فى طريقة صياغة التاريخ فبعضهم يطيل الإسناد على طريقة المحدثين ، وبعضهم يختصر فيها أو يكاد يغفلها ، وبعضهم يذكر الأحداث فى نسق واحد فى حين يرتبها آخر على السنين ، وبعضهم دقيق وبعضهم الآخر أقل دقة ، ولكن طرازهم العلمى واحد واهتماماتهم واحدة ، فكلهم يهتمون بالسياسة وأحداثها لا يكادون يلغون بالآ إلى حياة الناس أو صور المجتمع الإسلامى ، وهم لا يلامون فى ذلك ؛ لأن علم التاريخ نفسه من العلوم التى لم يدخلها تغير أو تطور إلا فى العصر الحديث عندما اتجهت العلوم كلها نحو العمق والصدق والتركيز على ما ينفع فى هذه الدنيا .

كل هذا الإنتاج الغزير في ميدان كتابة التاريخ ثم قبل نهاية القرن الثالث وبداية الرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين) ويبدو أن أكبر ما دفع العرب إلى كتابة تاريخهم هو اعتزازهم بالسيرة النبوية ، وتعلقهم بها وفخرهم بالعصر الراشدى وما تم في نصفه الأول من فتوحات وانتصارات ، ثم دهشتهم وحسرتهم على ما وقع في نهاية العصر الراشدى من مأس استمرت بعد ذلك دون توقف ؛ لأن الحقيقة أن الذى وقع في منتصف خلافة عثمان كان أمراً عجيّباً ، وكأن الإنسان العربى المسلم الذى بدأ حياته قوياً باهراً مبشراً بكل خير أصابه مرض عضال مفاجئ أوقف نموه بل أقعده عن المسير وأصبح كإنسان أصابه شلل الأطفال وقدر عليه أن يقضى بقية عمره جالساً على كرسي ، فالعرب الذين بنوا الدولة وحملوا عبء نشر الإسلام حكم عليهم من منتصف عصر المعتصم أن يخرجوا من ميدان التاريخ ويصبحوا متفرجين لا صانعي تاريخ ، والمصيبة أتت أولاً من سوء فهم الناس في عصر عثمان لمعنى الخلافة وتحولها إلى ملك ، وبنو أمية - وهم عرب - حكموا بالإعدام على العرب واضطهدوا العروبة ليظلوا ملوكاً ، وهناك فكرة شائعة تقول : إن الأمويين اعتزوا بالعرب وأقاموا دولتهم على العرب وحكموا بهم ، وهذا خطأ فإن الأمويين عندما حولوا الخلافة إلى ملك غيروا طبيعة الدولة الإسلامية وجعلوها سلطاناً سياسياً ، وضربوا العرب بعضهم ببعض واتخذوا جماعات منهم جعلوهم جنداً مرتزقاً يأخذ المال ليقتل آل النبى ويرمى الكعبة بالمنجنيق ، وهو أمر لم يفعله الجاهليون أبداً ، وكان الكثيرون من رجال بنى أمية وقادتهم موالى مثل موسى بن نصير وبعضهم الآخر كانوا جلادين جلدوا ظهور العرب مثل الحجاج ابن يوسف وهذا الرجل وقف على المنبر وشمم عرب العراق جميعاً وسماهم أهل نفاق وهددهم بقطع رقاب من يرفع رأسه منهم ، ودسائس الأمويين جعلت عرب خراسان والمغرب والأندلس يقتل بعضهم بعضاً ويرتكبون جنایات لا تكاد تصدق ، وما رأيك في رئيس من عرب الأمويين وقع في يده ابن منافس له فحفر حفرة ووضعها فيها وأمر جنده بأن يبولوا عليه حتى مات . وفي مواقع مثل مرج راهط قتل العرب اليمينية ألوفاً من العرب القيسية بأمر الخليفة الأموى ، ثم يقولون لنا : إن الدولة الأموية كانت دولة عربية مع أنهم حولوا العربى كما قلت لك إلى شليل على كرسي ومتفرج على التاريخ لا صانع له ، وإذا كان بنو العباس قد أقاموا دولتهم على عرب ساخطين على بنى أمية وموالٍ ساخطين على العرب ، فإنهم كانوا في الحقيقة يكملون عمل بنى أمية .

ومن ذلك التاريخ ، أى منذ قامت دولة بنى العباس أخرج العرب من ميدان السياسة ولم يعد تاريخنا السياسى عربياً ، والتناقض البالغ بين العرب صناع التاريخ فى العصرين النبوى والراشدى ، والعرب المطرودين خارج ميدان التاريخ فى العصر العباسى كان من الأسباب الرئيسية فى اهتمام الناس بعلم التاريخ عند العرب ، فإن الاعتزاز بقيام أمة الإسلام ثم الحسرة على ما أصاب العرب على يد خلفاء الإسلام هو الذى دفع المسلمين إلى الاهتمام بالتاريخ بحثاً عن أسباب هذه الكارثة ، وما من مؤرخ عربى إلا يبدأ تاريخه سعيّاً متلهلاً بالسيرة النبوية ثم تنتابه الكآبة بعد ذلك وهو يؤرخ للعصرين الأموى والعباسى ، وعندما تقرأ كتاباً مثل « الإمامة والسياسة » لابن قتيبة الدينورى تحس كأنه فى حيرة وأنه يكتب لبحث عن حقيقة ما حدث . والطبرى نفسه عندما يصل إلى عصر المأمون تحس كأنه لا يكتب تاريخ العرب بل يسجل تفاصيل محنة قاسية نزلت بأمة الإسلام ، أو كأنه يعرض حيثيات حكم بالإعدام صدر على رجل برىء عاجز ، وهذا البرىء العاجز هو العربى الذى أصابه الشلل وأقعده طغاة العرب على الكرسى بقية عمره واحتاج إلى من يدفع به عجالات الكرسى لتسير به أحداث التاريخ .

ومعنى هذا أن التاريخ السياسى لم يعد عربياً ولا إسلامياً ، ولأنه أصبح كذلك فهو لم يعد تاريخاً طبيعياً يدرس تطور الأمة تطوراً عضوياً من الداخل كما ينمو كل كائن حى وكما ينبغى أن ينمو تاريخ الأمم الصحيحة التكوين المتينة البنيان ، وتلك هى مأساة تاريخ العرب كما بناه رجال السياسة وأهل الدول : بنوه بناء سيئاً من مواد مغشوشة وأبوا أن يكون تاريخاً عربياً ، وهل يمكن أن نقول إن الدولة العباسية مثلاً دولة عربية سليمة ؟ كل ذلك الذى كان عربياً فيها هو اسم الخليفة فهو الوثائق أو المعتضد أو المستعين ، أما الوزراء والكتاب فربما كانوا عرباً ، ولكنهم لا يحكمون بأخلاقيات العرب أو بمنهج الإسلام ، والدولة كلها تعتمد على جند مرتزق غير عربى ، وقادة الدولة يسمون أشناس وبغا ، ووصيف وتنكين ، والدستور السياسى كله ساسانى منحن ، والضرائب نهب لأموال الناس والمرافق مهملة ووطن العروبة والإسلام موزع قطعاً بين ناس من شرار الخلق : العرب منهم عرب بالاسم ، والمسلمون منهم مسلمون بالاسم ، أفكان عجباً بعد ذلك أن يكون نمو الدولة الإسلامية كله أوراًماً خبيثة ؟

وحقائق التاريخ لا تتبين إلا بالمقارنات ، فسأضرب لك هنا مثلاً من نمو أمة سارت سيرةً قومياً صحيحاً لكي تقارن ذلك بما رأيت من نمو دول الإسلام ، لناخذ فرنسا ، فهذه الأمة نشأت مع قيام دولة شارلمان خلال النصف الأول من القرن التاسع الميلادي ، وملوك الكارولنجين من أبناء شارلمان عرفوا بعد معاهدة فردان سنة ٨٤٣ م كيف يجمعون أطراف جاليا - وهو الاسم القديم لفرنسا - حول رايته .

ملك فرنسي قومي وجنوده فرنسيون والأشراف المحيطون به فرنسيون ، وبيت الكارولنجيين حلت محله أسرة فرنسية لحماً ودماً هي أسرة الهيوكابية ، وتوالت الدول الفرنسية الأصلية ، وكل دولة ملوكها وأشرافها ورجالها وجنودها فرنسيون ، حتى جاء ملوك البوربون بشتى فروعهم وعرفوا كيف يوحدون الوطن الفرنسي ، والملوك العظام من آل البوربون عظماء بقدر ما أضافوا إلى بنيان فرنسا وإظهار شخصيتها واستكمال أراضيها والعناية بعمران فرنسا وحضارتها ، ومؤسس أسرة البوربون وهو لويس الأول الكبير يعمل جاهداً ابتداء من سنة ١٣٢٧ في ضم الدوقيات الكبيرة التي كانت تتألف منها فرنسا ، ويحل محل بيت نافار سنة ١٥٥٥ ، وهنري الرابع ينجح قبل موته سنة ١٥٨٩ في ضم مملكة بزغنديا (يورجونيا وهي حوض نهر الرون كله) إلى عرش فرنسا ، وفرع أدواق أورليان من بيت البوربون يوفق بعد جهد طويل وحروب متصلة في تكوين فرنسا بصورتها الحالية تقريباً ، ومن أيام لويس الثالث عشر تظهر فرنسا قوة سياسية كبرى في غرب أوروبا ، قمة هذا النمو قبل الثورة الفرنسية كانت أيام لويس الرابع عشر (١٦٣٨ - ١٧١٥) عصر لويس الرابع عشر يقابل في تاريخنا عصر هارون الرشيد أو عبد الله المأمون ، ولكن أي فرق عضوي جوهري ؟ عصر الرشيد والمأمون في تاريخنا قمة ونهاية ، وعصر لويس الرابع عشر قمة وبداية ، عندنا في عصر الرشيد والمأمون لا يحكم العرب ولا يتمتعون بالمكانة الأولى ، وكل الذين يتصرفون في أمورنا لا يتبعون سياسة عربية أو إسلامية ، وهارون الرشيد عاش معظم عمره خارج بغداد ؛ لأنه كان يخاف من مؤامرات الفرس في بغداد ، لهذا نقول : إنه كان يحج عاماً ويغزو عاماً ؛ لأنه لم يعيش في بغداد إلا وقتاً قصيراً جداً ، والمأمون كان يرى في بغداد مدينة معادية لكي يدخلها بعد نصره على أخيه الأمين وقتله ظل يحاصر بغداد سنتين ، معظم حياته قضاه في خراسان ووزيره عبد الله بن طاهر كان عدواً للعرب . قارن بهذا رجال لويس الرابع عشر : تولى الوصاية عليه حتى بلغ سن

الرشد الأسقف الفرنسي ماذا رأى ؟ حتى توفي هذا الأخير سنة ١٦٦١ بعد ذلك أشرف على المالية الوزير كولبير فوضع سياسة تشجيع ونهوض بالزراعة ، من ذلك الحين إلى اليوم يعتبر الزارع الفرنسي أقدر فلاح في الدنيا ، والفلاحون الفرنسيون اخترعوا من الجبن وحده ١٤٣ صنفاً ، وكولبير وضع أساس الصناعة الفرنسية وأنشأ المدارس الصناعية التي قام عليها مجد الصناعة الفرنسية ، وتولى الجنرال « لوفوا » بناء جيش فرنسي قومي من رجال فرنسيين خالصين ، وظهر القائدان العظيمان تورين وكوندية ، وقام الجنرال فوبان بتحسين الحدود ، وكان رجال لويس الرابع عشر يعملون على رفعة فرنسا في أوروبا وفي أمريكا الشمالية ، وكندا الفرنسية بنيت أيام هذا الملك وفرنسا كلها تألفت في عصر الملك الشمس برواء لم يَخْبُ بعد ذلك أبداً ؛ لأنه قام على نمو سياسي وحضاري فرنسي داخل أصيل ، بعد لويس الرابع عشر فرنسا في صعود دائم وبعد عصر المأمون : العرب في هبوط دائم ؛ لأن رجال الدولة والحرب والسياسة لم يكونوا عرباً ولا اتبعوا سياسة عربية .

هنا في الدول التي نمت نموّاً داخليّاً عضويّاً قوميّاً سليماً نجد الأشياء كلها أصيلة ، وفي تاريخنا العربي لا نجد إلا الزيف ، وحفيد الخليفة الرشيد كان أسيراً ذليلاً بيد الجند التركي المرتزق الذي اشتراه أبوه ليذل به العرب ، صورة واحدة تكفي لتصور لك مأساة السياسة العربية . قال المسعودي يصف قتل الخليفة المعتز على يد الأتراك : فدخل عليه جماعة منهم فجروه برجله إلى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس (حراب صغيرة) وخرقوا قميصه وأقاموه في الشمس في الدار ، فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدة الحر ، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقى بيده وأدخلوه جرة وأحضروا ابن أبي الشوارب وجماعة وأشهدوهم على خلعه وسلموا المعتز إلى من يعذبه فمنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام فطلب حسوة (جرعة) من ماء من بئر فمنعه ثم أدخلوه سرداباً وجصصوا عليه (أغلقوه وبنوه بالجبس) فمات .. وكان غريباً من الأمر أن صالح بن وصيف شيخ الأتراك طلب من أم المعتز واسمها خديجة ولم تكن عربية خمسين ألف دينار ليعفى ابنها من القتل فرفضت وكان لها من المال والجواهر ما يقدر بالملايين (انظر ابن الأثير ج ٧ والمسعودي مروج الذهب ج ٢ - ٤٢٩ / ٤٣٠) .

وهنا لا تسلنى عن حال دولة الإسلام فقد تمزقت قطعاً ولم تعد هناك في الحقيقة

دولة إسلامية ، وتلك هي المأساة الأليمة التي تجرد لتسجيل أحداثها مؤرخون ورجل مثل محمد بن جرير الطبري كان يكتب وقلبه يقطر دمًا ، وكان دافعه إلى الكتابة هو الحسرة على ما صرنا إليه بعد العز الذي كان . كان غرضه الأساسي أن يقول لأمة الإسلام : لا تنسوا قط أنكم أمة محمد ﷺ وأبى بكر ، وعمر ، وهذا الذي حدث طارئ وضلال ولا بد أن تعود الأمور إلى نصابها ما دمنا متمسكين بوحدة كأمة وبمثلنا الأعلى العربي الإسلامي في الوحدة والعزة ، هذا هو السبب في كثرة التأليف في التاريخ عندنا أنت تحس في كتابات المؤرخين أنهم يقولون : إذا كانت الوحدة السياسية قد ضاعت فإن وحدة الأمة لا تضع . كلهم كانوا يطوفون بنواحي العالم الإسلامي ليطمئنوا على أحوال الأمة ثم يكتبون في التاريخ ليحافظوا على الوحدة الزمنية للأمة ، والمؤرخون العرب كثيرون جدًا بعد العصر الذهبي الأول لعلم التاريخ في القرن الثالث الهجري (وقد ذكرناه) وكلهم ساروا في أعقاب محمد بن جرير الطبري الذي كتب أجمل أجزاء تاريخه في السيرة النبوية والعصر الراشدي والفتوح الإسلامية تمسكاً منه بالعز القديم حتى لا يطفئ عليه التدهور الطويل ، سأكتفى هنا بواحد منهم يمثل هذه الفكرة أصدق تمثيل هو عز الدين بن الأثير .

وابن الأثير عربي من أهل الموصل عاصمة إقليم الجزيرة (شمال العراق في العصور الإسلامية) وقد طُوف في بلاد العراق والشام وحج ثم عاد إلى مدينة الموصل واستقر فيها بقية عمره ، وكان فقيهاً محدثاً واسع العلم مقبلاً على الدرس والتأليف عمره كله .

وقد ألف ابن الأثير كتباً كثيرة في التاريخ وعلوم الدين ، ولكنه مشهور بكتابين جليين : الأول هو الكامل في التاريخ العام ، والثاني كتاب من أحسن ما ألف في صحابة رسول الله ﷺ ، وهو أسد الغابة في معرفة الصحابة . والكتاب الأول - الكامل - يصور حرص المؤرخ الإسلامي على تتبع أحداث العالم الإسلامي في ماضيه وحاضره المعاصر له ، فقد ظل يتتبع الأحداث حتى سنة ٦٢٨ هـ أي إلى ما قبل وفاته بسنتين .

وهو يبدأ هذا التاريخ العالمي منذ خلق الله الخلق ، وماذا خلق الله أول ما خلق ، ثم ماذا خلق بعد ذلك حتى آدم ثم حواء ، ويلى ذلك تاريخ الأنبياء واحداً واحداً ، وهو هنا يوجز ما عند الطبري واليعقوبي دون زيادة كبيرة ثم ينقل عن الطبري خلاصة لتاريخ الفرس ويزيد عليه فصلاً عن الجاهلية وأيام العرب حتى البعثة النبوية .

وتمسك ابن الأثير بذكر ما يتصور أنه تاريخ العالم قبل الإسلام يصور لنا نظرية أساسية في مفهوم التاريخ العام عند المسلمين : وهى القول بأن التاريخ العالمى ينقسم فى جملته إلى ثلاثة عصور كبار يسميها ابن إسحاق - وهو أول من ابتكر هذه النظرية - « بالمبتدأ » ثم « المبعث » ثم « المغازى » . فأما المبتدأ فهو التاريخ القديم ، والتاريخ القديم عندهم هو كل ما سبق الإسلام ، وأما المبعث فهو سيرة النبى ﷺ وبناء أمة الإسلام على يديه ، والعصر الثالث أو القسم الثالث هو المغازى وهو بقية تاريخ العالم من وفاة رسول الله ﷺ إلى نهاية الزمان .

والتأمل فى هذا التقسيم يرى أن مؤرخى المسلمين كانوا يرون أن البعثة المحمدية هى قمة التاريخ الإنسانى وكل ما سبقها تمهيد لها ، وكل ما كان بعدها إكمال لرسالة الإسلام أى تاريخ انتشاره حتى يعم الأرض ومن عليها ، والمغازى على هذا المعنى ينبغى أن تستمر إلى آخر الزمان .

ومفهوم المبتدأ أخذه المؤرخون المسلمون من كتاب العهد القديم وكانوا يعرفونه حق المعرفة ؛ لأنه يضم تواريخ الأنبياء من لدن آدم إلى موسى عليهما السلام ، ثم تل ذلك تواريخ أنبياء بنى إسرائيل ومعظمهم أنبياء معترف بهم عند المسلمين ، ويتمسك المؤرخون المسلمون بذكر أولئك الأنبياء ، لأنهم يرون أنهم كلهم ممهدون لرسالة محمد ﷺ ، ومحمد ﷺ خاتم الأنبياء وحامل أصفى رسالاتهم إلى البشر وهى الإسلام وهو ختام الرسالات وقمة الهدى الإلهى للبشر ، وبذلك يكون التاريخ القديم السابق على الإسلام هو البداية أو المبتدأ ، وهو يقابل ما يعرف فى كتب النصرانية بسفر التكوين The Genesis مع اختلاف فى المحتوى .

أما ما يورده ابن الأثير من تاريخ الفرس قبل الإسلام فقد سار فيه على طريقة الطبرى الذى خصص جزءاً كاملاً من تاريخه لتاريخ الفرس ، والطبرى مخطئ فى وضع هذا الجزء الكبير من تاريخ الفرس وإعطائه هذه الأهمية كلها فى التاريخ العالمى ؛ لأن معظم هذا الجزء يدور حول ملوك الفرس الساسانيين ، وهم أسرة يمجدها الفرس وإن لم تكن مجيدة فى تاريخ البشر فإن الساسانيين كانوا طغاة ظلمة فى مجموعهم ومساهمتهم فى التاريخ العالمى لا تقاس إلى مساهمات الفراعنة أو اليونان أو الرومان أو الروم البيزنطيين أو دول الصين العظيمة ، ولكن الفرس بعد الإسلام عظموا تاريخ

الساسانيين وضخموه وجملوه ليرفعوا من شأن جنسهم أمام العرب الذين قضوا على مجد فارس القديم وخلصوا الإيرانيين أنفسهم من طغيان الساسانيين ومذاهبهم الدينية وكلها وثنية وثنوية ومجوسية وعقائد في غاية الانحطاط الخلقى .

وعندما تقرأ ما يذكره الطبرى من تاريخ الفرس وما اختصره عنه اليعقوبى ثم ابن الأثير تدرك كيف أن المؤرخين المسلمين كانوا في الغاية من الغفلة في أحيان كثيرة ، فإن هذا الإصراف في تعظيم ملوك الفرس الساسانية فيه إضرار بصورة التاريخ الإسلامى نفسه ، فهم يبالغون في تعظيم كسرى مثلاً حتى يبدو كأنه صنو عمر بن الخطاب ، وكسرى أنوشروان كان طاغية مستبداً ظالماً ، فلا وجه لتعظيمه ، وهو دون شك أدنى منزلة حتى من صفار ملوك الفراعنة وفيما عدا ذلك فإننا لا نرى بأساً بالتأريخ لأكاسرة الساسانيين ، بشرط أن يوضعوا في مكانهم بلا زيادة ، والطبرى عندما أفرد من تاريخه نحو نصف جزء لهم أدى بذلك خدمة للتاريخ العام ، فقد أتاناً بأوفى تاريخ عرفناه لهذه الأسرة الفارسية الكبيرة البأس ، أتى من أن هذا التاريخ ليس صحيحاً في جملة فقد صاغه فرس متحمسون لقوميتهم إعلاء لشأن جنسهم في مواجهة العرب الذين أزالوا ملك الأكاسرة ، وقد نقل الطبرى كلام الفرس على علاته ورفع بذلك من شأن جبابرة ظالمين من أمثال أردشير بن بابك منشئ دولة الساسانيين وسابور وهرمز وبعرام وكسرى أنوشروان ، بل بلغت به الغفلة أن روى عن أنوشروان هذا حكايات في العدل والفضل والعقل تجعله أعظم وأجل من عظماء خلفاء المسلمين من أمثال هارون الرشيد ، وما درى الطبرى أنه بهذا النقل عن الفرس أضر بقومه العرب كما أضر بهم عندما أفرد في الجزء الأول من تاريخه نحو عشرين صفحة يحقق فيها في أمر الذبيح من هو ؟ إسماعيل أم إسحاق ابنى إبراهيم ، عليهم السلام ؟ وانتهى التحقيق إلى القول بأن الذبيح هو إسحاق وهو الذى أطاع أباه عندما أبلغه أنه يذبحه تقريباً بدمه إلى الله ، ففداه بالكبش السمين ، وبذلك يكون الطبرى قد قرر أن بنى إسحاق وهم بنو إسرائيل خير من بنى إسماعيل وهم العرب ! وهذا مثال من غفلة علماء النقل الذين جعلوا العلم كله نقلاً نصيب العقل فيه قليل أو منعدم . والطبرى رجل واسع العلم ، ولكنه قليل القطنة في كثير من الأحيان ، وإذا كنا نشكو من الإسرائيليات التى أضرت بالفكر الإسلامى ضرراً بالغاً فلا بد أن نذكر الإيرانيات أيضاً ، فقد تسرب الكثير

منها إلى الفكر العربى فأضرت به فى ميادين علوم الدين والأدب والتاريخ وكان ضررها بالفرس المسلمين بالغاً .

وابن الأثير عندما ينقل ما نقل من تاريخ الفرس عن الطبرى أبدى فطنة كبيرة فاستبعد الكثير من تفاصيل تعظيم ملوك الساسانيين ، وجعل من تاريخ الفرس تفريعات ألم فيها بالكثير من تاريخ الرومان والروم البيزنطيين والهنود والعرب الجاهليين ، مع أنه لم يكن موفقاً عندما جعل تاريخ الفرس محوراً للتاريخ العالمى ولو أنه أتانا بفصول طيبة تعطينا فكرة سليمة عن مدى ما كان العرب يعرفون فى القرن السادس الميلادى من تواريخ الأمم القديمة وما يتصل بذلك من تواريخ اليهود والنصارى ومذاهب النصرانية قبل الإسلام .

وبعد أن يدخل ابن الأثير فى السيرة النبوية يبدى ذكاء وحسن تصرف فى الاختصار والاختيار ، والسيرة النبوية التى يقدمها لنا فى مستهل الجزء الثانى من تاريخه (بحسب طبعة المطبعة المنيرية التى يستخدمها هنا) سيرة جيدة رغم إيجازها ، ويستوقف نظرننا أن القليلين من أهل التاريخ المحدثين عندنا انتبهوا إلى مزاياها .

أما ما يرويه ابن الأثير من تاريخ الدول الإسلامية فيؤكد لنا ما أشرنا إليه من حرص المؤرخين المسلمين على إظهار وحدة الإسلام الزمنية والمكانية ، فهو عظيم الإحساس بقدر العصر الإسلامى الأول أو صدر الإسلام لا يزال يشير إليه فى تحسر ، وصدر الإسلام عنده هو العصر الذهبى الإسلامى ، فهو عصر الراشدين ووحدة المسلمين سياسياً وعقائدياً ، وعندما يروى أخبار الفتوح الإسلامية تشعر بالزهو بما يحكى من تفاصيلها ومن يلم بذكره من أبطالها ، وهو لا يشتد فى الحكم على بنى أمية حرصاً منه على عدم توسيع فجوات الخلاف بين المسلمين ، وعندما يدخل فى العصر العباسى وتتفرق وحدة الدولة نجد ابن الأثير جريصاً على أن يأتينا بأخبار دول المسلمين جميعاً من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، وهنا يتحول ابن الأثير إلى صحفى وأنت إذ تقرأ عنوانات ما يورد من الأخبار يخيّل لك أنك تقرأ واجهة جريدة يومية ، وعنوانات الأخبار هى المانشئات ، فهناك مثلاً : هجوم الترك على بلاد الجبال و « ذكر حريق ضرب بلاد طخارستان » وأسطول المسلمين يقضى على أسطول للروم عند سواحل أقریطش و « عبد الله صاحب الأندلس يهزم جيوش الفرنجة » و « ذكر خسوف

كامل للشمس » و « أمواج البحر تبتلع جزيرة بمن عليها » و « موت منويل ملك الروم الذى كان يريد الإيقاع بالمسلمين » .. وما إلى هذا من طرائف العناوين التى تعطى أخبار ابن الأثير جاذبية وطلاوة .

وهو فى كلامه الكثير لا ينسى أى بلد إسلامى فهو يأتينا دائماً بسير تاريخ دولة الخلافة فى بغداد ثم يأتينا بأخبار المسلمين فى أقصى المشرق وفى هضاب إيران ومصر وبلاد المغرب والأندلس وعينه مفتوحة دائماً على الصراع بين العرب والروم فى آسيا الصغرى وشرق البحر المتوسط ، وهو لا ينسى قط جزائر قبرص وأقريطش وصقلية وأخبار الأندلس عنده كاملة تقريباً لم يفته منها شئ يذكر ، وقد جمع المستشرق فانيان ما عند ابن الأثير من أخبار المغرب والأندلس وصقلية وترجمها إلى الفرنسية ونشرها فى كتاب واحد يعتبر فى ذاته تاريخاً متصلاً للغرب الإسلامى كله .

عندما يتحدث ابن الأثير عن المرابطين وقيام دولتهم فى شمال إفريقيا الاستوائية نشعر أن الرجل يشعر بأهمية ما يروى من أحداث ، فهو يأتينا بأخبار ملوك السودان وما كان للإسلام من انتشار فى بلادهم ، وهو يقف عند يوسف بن تاشفين وقفة طويلة تدل على تقدير وفهم ، ويحكى تفاصيل الصراع بين المرابطين والأسبان حكاية رجل ذكى يعرف أهمية الأخبار التى يأتينا بها ، وعينه لا تغفل فى نفس الوقت عن الجناح الشرقى لدولة الإسلام ، فهو يحكى أخبار الدولة الإيرانية حتى أوائل القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى ويأتينا بطلائع المغول فى سيرهم المخرب فى بلاد الإسلام وكلامه كلام رجل واعٍ لوحدة عالم الإسلام .

فى هذا كله نرى أن ابن الأثير يحس إحساساً واعياً بوحدة أمة الإسلام ، فهى المحرك الأساسى له فى كتابة تاريخه وإن الإنسان ليشعر بالإعجاب نحو هذا العربى الواعى لوحدة الإسلام زمنياً ومكانياً ، الحريص دائماً على أن تظل للإسلام وحدته فى عقل رجل الفكر ، وإن كان رجال الدول والسياسة لم يدخروا وسعاً فى تمزيق هذه الوحدة .

وابن الأثير يأتينا هنا بصورة أليمة من أفاعيل ملوك المسلمين وما جرى على المسلمين من ظلم وهوان وذلك على أيديهم ، وهنا ونحن نقرأ تاريخ هذا الرجل الكريم نتبين حقيقة كبرى وهى أن الفضل الأكبر فى بقاء شئ يسمى العالم الإسلامى أو

العالم العربى يرجع إلى أهل الفكر دون رجال السياسة والحرب ، فرجال الفكر اجتهدوا في الحفاظ على هذه الوحدة ولم يفرطوا قط في تذكير المسلمين بضرورة الحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية ، وقد رأينا هنا طرفاً مما قام به في هذا المجال رجال التاريخ ، وسترى صوراً أخرى في كلامنا عن المسعودى والمقدسى ثم الجغرافيين .

وعندما نتحدث عن الفقه والفقهاء سنتأكد بالدليل بعد الدليل على ما قام به أهل الفكر في عالم الإسلام في المحافظة على وحدة الأمة حتى الشعراء الذين كان حرصهم قليلاً على المثل الإسلامية العربية العليا وفرطوا تفريطاً معيباً في واجب صاحب القلم تجاه شعبه حتى هؤلاء خدموا أمة الإسلام بما قالوا من شعر بليغ حافظوا به على مستوى رفيع من البلاغة العربية ، وإذا كان الشعر نفسه قد خلا في كثير من الأحيان من الإحساس العربى الإسلامى فإن اللغة التى قيل فيها هذا الشعر كانت رباطاً مقدساً جمع شعوب العروبة والإسلام بعضها إلى بعض ، ورجل مثل المتنبى لم يكن لديه إحساس واضح بوحدة شعوب العروبة ، ولكن تلك العروبة استخدمت شعره رمزاً لجمال لغة العرب وإبداعها ، وهذا نفسه عاد بالثوية على المتنبى نفسه ويثاب الرجل رغم أنفه كما يقول الحديث الشريف .

* * *

المَسْعُودِيّ والمَقْدِسِيّ والْبَيْرُونِيّ

ثَلَاثَةُ نُجُومٍ مُضِيَّةٍ

فِي سَمَاءِ الْفِكْرِ الْبَشَرِيِّ

في تاريخنا الفكري يمثل المؤرخون والجغرافيون فكرة وحدة أمة العرب والإسلام في الزمان والمكان ، ولا يعترفون بغير هذه الوحدة ، ففي العصر الذي كتب فيه أعلام الجغرافيين من مدرسة المسالكين أى البلدانيين أى الذين وصفوا لنا بلاد الإسلام وطرقها (مسالكها) وهو عصر القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين . كانت بلاد الإسلام في الغاية من التفرق والتمزق السياسي . فالدولة العباسية دخلت في دور الاحتضار الطويل ، وكل قطر من أقطارها استبدت به أسرة من أهل الاستبداد والطغيان ، والبويهيون الذين بسطوا سلطانهم على دولة الخلافة يمثلون الحضيض المخيف الذي انحطت إليه معظم نظم الحكم في بلادنا ، في تلك العصور باستثناء دولة واحدة هي دولة بنى أمية في الأندلس ، ولكن الجغرافيين والرحالة لا يعترفون بالتقسيمات السياسية ولا بانحطاط الحكام عن سمت العدل واحترام الحقوق والحفاظ على كرامة الإنسان ، وهي الأساسيات التي ينبغي أن تقوم عليها أمة الإسلام .

لا يعترف أهل الجغرافية وأهل التاريخ بالسياسة وحمقاتها وأهلها ، ويؤرخون للدولة السابقة عليهم والمعاصرة لهم كما لو كانوا يكتبون عن عصابات من اللصوص ، ويصورون لنا أمة الإسلام واحدة بلا حدود أو تقسيمات ؛ لأن إيمانهم كان ثابتاً لا يتزعزع بالآمة ووحدتها في الزمان والمكان ، رأسياً وأفقياً ؛ فالمؤرخون يربطون الأجيال بعضها ببعض ، والجغرافيون يربطون بين شعوب أمة الإسلام بعضها ببعض .

وتلك هي المعجزة الكبرى لأهل التاريخ والجغرافية عندنا ، وقد تحدثنا فيما سبق عن ابن الأثير ذلك العربي المؤرخ الصحفي الصادق نحو أمتة وعقيدته ، وها هنا نتخير من أعلام المؤرخين والجغرافيين ثلاثة ونتحدث عنهم ، لأن سجل المؤرخين والجغرافيين عندنا طويل جداً : سأحدثك عن المسعودي والمقدسي ، ثم أحدثك عن رجل موسوعي

متوقد الذهن كان جغرافياً ومؤرخاً وفلكياً ورياضياً وخادماً صادقاً لأمة الإسلام والبشرية كلها ، هو أبو الريحان البيروني ، وأحب أن أقول لك : إننا ننظر إلى تاريخنا الفكري نظرة الطائر فنحن نخلق من ارتفاعات شاهقة فلا تبدو لنا إلا القمم ، وذلك لكي نستطيع أن نعطيك صورة هي أشبه بتلك التي يردها علينا القمر الصناعي ، وكما تبدو لنا في الصور ولوحات التلفاز ، وبدون هذا لن نستطيع أن نفرغ من دراستنا تلك ، ثم إننا لا نريد أن ننقل على أنفسنا بزحام أسماء الأعلام ..

فأما المسعودي فهو : أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي نسبة للصحابي الجليل عبد الله بن مسعود . ولد في بغداد في نهاية القرن العاشر الميلادي وتوفي في فسطاط مصر سنة ٢٤٥ هـ / ٩٥٧ م وهو شخصية عجيبة تعد من مفاخر الحضارة العربية بل الإسلامية كلها ، فهذا الرجل عاش عمره كله يقرأ ويدرس ويتعلم ويعلم ، والأرض عنده بساط محدود ، فهو في رحلة دائمة طلباً للعلم ، وهو في شوق دائم إلى المعرفة وهو في قلق لا يهدأ لاستكشاف المجهول ، وهمه الأول هو الاطمئنان على أحوال أمته العربية الإسلامية ، فهو يزرعها بالطول والعرض وهو يستعلم عن كل شيء فيها ويكتب لنا كتباً هي تقارير يرفعها إلى أمته العربية ليطمئننها على أنها بخير ويؤكد لها ألا مكان للجزع من شناعات رجال الحكم والسياسة فكلهم إلى زوال ولا تبقى في النهاية إلا الأمة ، أمة الإسلام يرعاها رب العزة خالق الكون سبحانه .

وقد كتب المسعودي عشرات الكتب ضاع الكثير منها ولم يبق إلا القليل ، وهذا القليل عظيم جداً وجيد جداً .

المسعودي مؤرخ جغرافي وعالم طبيعة ونبات وحيوان ومؤرخ حضارة ، وكتاب « مروج الذهب » الذي سنكتفي هنا بالحديث عنه هو بالفعل مروج ذهن وفكر وعلم ، وهو يتنقل بك في صفحات كتابه من باب لباب ومن ميدان إلى ميدان فهو لا يعرف المنهج ، ولكنه ينشد الحقيقة أبداً .

ومروج الذهب أساساً كتاب تاريخ ، أي أنه يحاول أن يعطينا تاريخاً عالمياً يؤرخ فيه لكل شعوب الدنيا ولكل الأنبياء والديانات . ويحدثنا عن ديانات الوثنية ومذاهبها ، ويقص علينا ما انتهى إليه علمه من أخبار المصريين والبابليين والآشوريين والعبرانيين واليونان والرومان ثم الروم وهم البيزنطيون ، ثم يدخل بعد ذلك في تاريخ الإسلام

ويمضى فى الرواية حتى يصل إلى عصر الخليفة المطيع العباسى ، وهو الخليفة العباسى الثالث والعشرون وهو أبو القاسم الفضل المطيع لله ابن المقتدر (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ / ٩٤٥ - ٩٧٤ م) وهو معاصر المسعودى ولكنه كما قلت لك لا يلتزم الخط التاريخى بل يستطرد إلى العلوم والثقافات وأحوال العمران ؛ لأنه كان رحالة لا يكل ، فأنت هنا مع كتاب حضارة مرسل فى أسلوب قصصى جميل لأن المسعودى قصاص بارع وهو أديب بليغ يسوق ما لديه فى نسق سهل ممتع ، واستمع إليه يقول فى فاتحة كتاب مروج الذهب : « أما بعد فإننا صنعنا كتابنا فى أخبار الزمان ، وقدمنا الكلام فيه فى هيئة الأرض ومدنها وعجائبها وبحارها وأغوارها وجبالها وأنهارها وبدائع معادنها ، وأصناف مناهلها ، وأخبار فياضها ، وجزائر البحار والبحيرات الصغار ، وأخبار الأبنية المعظمة والمساكن المشرفة ، وذكر شأن المبدأ وأصل النسل ، وتباين الأوطان ، وما كان نهراً فصار بحراً على مرور الأيام ، وما كان بحراً فصار برأ ، وما كان برأ فصار بحراً على مرور الأيام وكروور الدهور ، وعلة ذلك وسببه الفلكى والطبيعى » (مروج الذهب ٩ / ١) . فتأمل والله إشارته إلى الأراضى التى كانت برأ فصارت بحراً ، والتى كانت بحراً فصارت أرضاً فتشعر أن الرجل كان ذا علم بما نسميه اليوم بالجيولوجيا ، وأنه كان فى الحقيقة أقرب إلى علماء العصر الحديث منه إلى أهل العصور الوسطى .

بل هو يتطرق إلى الكلام فى أحوال الأمم والدول وما يعرض لها : « وكيف تدخل الآفات على الملك وتزول الدول وتبيد الشرائع ، والملك والآفات التى تحدث فى نفس الملك والدين ، والآفات المعترضة لذلك ، وتحصين الدين والملك وكيف يعالج كل منهما بصاحبه إذا احتل من نفسه أو من عارض يعرض له ، وماهية ذلك العلاج وكيفية ، وأمارات إقبال الدول وسياسة البلدان والجيوش على طبقاتهم ووجوه الحيل والمكائد فى الحروب .. وهو هنا فيلسوف تاريخ ورجل سياسة وحرب ، وهو يختم كلامه فى مقدمة المروج بقوله : « ثم ما دفعنا إليه من طول الغربة وبعد الدار وتواتر الأشعار ، طوراً مُشرقين وطوراً مُغربين كما قال أبو تمام :

خليفة الخضر ، من يربع على وطنى فى بلدة ، فظهور العيس أوطانى
بالشام قومى ، وبغداد الهوى وأنا بالبرقتين ، وبالفسطاط إخوانى

والخضر المذكور هنا كما يقول الماضون كان نبياً لا يموت ، فهو يطوف الأرض أبداً يعظ الناس ويهديهم إلى الصراط المستقيم ، فهو مثلاً عبد الله الذى صاحب موسى عليه السلام ، والصوفية عندنا يكثرون في ذكر الخضر وأخباره مع الصالحين ، فكان المسعودى هنا يشبه نفسه بالخضر في رحلاته وهو كما ترى عربى خالص : فهو شامى عراقى بغدادى مصرى مغربى ، لأن البرقتين المذكورتين في البيتين يراد بهما بلاد المغرب ، ومن هنا فإن المسعودى رمز على المفكر العربى الذى يقضى عمره في طلب العلم وخدمة أمة العرب وتوكيد وحدتها بالعلم ، وأمة الإسلام في ذلك العصر كانت قلب الدنيا وقائدة الحضارة على وجه هذا الكوكب ، بل إنه يبدو لنا في صفحات كتابيه الكبيرين الباقيين « مروج الذهب » و « التنبيه والإشراف » كأنه حارس الدنيا وراعى الحضارة فهو يتحدث عن مذاهب الوثنية والديانات غير الإسلامية حديثاً معقولاً منصفاً ، وهو يجتهد في فهمها ويمتدح ما يجده في أهلها من الفضائل ، ثم إنه يمتدح الرهبان والكهان والقسيسين ويتكلم عن مذاهب النصرانية باعتدال وفهم ويرجو لهم الهداية ، وهو هنا أقرب إلى روح الإسلام من المتعصبين المتشددین الذين ينسون أن الله أمر بأن ندعو إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة .

وهو في كلامه كله أستاذ عظيم يتحدث عن علم وسيادة وأستاذية وإنسانية ، وهو دون شك من معلمى الإنسانية وهو من أعلام الإنسانيين أى من يعرفون في المصطلح الغربى باسم Human Ists .

* * *

ومن المسعودى الجليل ننتقل إلى المقدسى العجيب . والمقدسى - ولك أن تقرأ بفتح الميم وسكون القاف وكسر الدال - أو بضم الميم وتشديد الدال وفتحها . فالأثنان هنا سواء ؛ لأن الرجل فلسطينى من أبناء القدس وهو علامة طلعة جغرافى رحالة مغامر ذو شخصية فاتنة وكتابه الباقي بين أيدينا « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » .. يقف في قمة سلسلة من المؤلفات الجغرافية العربية تعرف في مجموعها بأطلس الإسلام ؛ لأنها مؤلفات قامت على خرائط ، أى أن أصحابها من الجغرافيين كانوا يبدأون برسم خريطة للأرض أو لعالم الإسلام ثم يضعون الخريطة ويبينون ما فيها في كتاب ، وهذه السلسلة البديعة بدأها أبو زيد أحمد بن سهل البلخى .

ثم تلاه أبو إسحاق الفارسي الاصطخرى ثم أبو القاسم بن حوقل النصيبى ثم توجّها المقدسى هذا الذى قال فيه المستشرق الويس شرنجر : إنه .. « أكبر جغرافى عرفته البشرية قاطبة » ، وقال فيه المستشرق كرامرز « إنه أكثر الجغرافيين العرب أصالة » ، والحق أن المقدسى جغرافى أصيل حقاً ولكنه يقف دون الشريف الإدريسى الذى سنتحدث عنه فيما بعد .

والفضيلة الكبرى للمقدسى واسمه الكامل شمس الدين أبو عبد الله محمد الشامى المقدسى البناء (٣٣٥ هـ - حوالى ٣٩٠ / ٩٤٦ - ١٠٠٠ م) ، وقد قدم إلينا المقدسى أدق وأشمل وصف لبلاد الإسلام التى يسميها مملكة الإسلام ، والوصف يقوم على خرائط صغيرة ما زال بعضها بين أيدينا .

وهو يبدأ وصفه ببلاد العرب .. لأن فيها مكة قاعدة الإسلام ، ثم يصف الجناح الشرقى لعالم الإسلام وصفاً دقيقاً يقوم على معاينة ومشاهدة فقد زار الرجل بلاد الإسلام كلها بادئاً من غربى الصين ، ولكنه لم يزر المغرب أو الأندلس فى الغالب ، وجغرافيته طبيعية بشرية متوازنة فهو جغرافى بطبيعته يعرف أصول عمله ، فهو يبدأ فى كلامه عن كل إقليم بجغرافيته الطبيعية ثم يتبعها بالجغرافية البشرية وينتهى بالكلام على النظام الإدارى ثم الناس وأحوالهم وملابسهم ومآكلهم ومشاربهم ويضمن كلامه ذك النوع من الطرائف وحديث العجائب الذى كان الناس يولعون به فى العصور الماضية ، وبعض حكايات تتضمن حقائق علمية على أكبر جانب من الأهمية .

ومدخل كتابه أحسن التقاسيم أصبح من زمن طويل قطعة من الأدب الجغرافى العالمى ، فقد ترجمها إلى الهولندية دى فويه (سنة ١٨٧٥) وإلى الإنجليزية كريمر (سنة ١٨٧٧) وإلى الإيطالية نالينو (١٨٩٥) وإلى الفرنسية جان سوفاجيه (١٩٤٦) ، وإليك طرفاً منها لتعرف أسلوب هذا الرجل العجيب ..

اعلم أن جماعة من أهل العلم ومن الوزراء صنعوا هذا الباب (يريد الجغرافية) وإن كانت مختلة ، غير أن أكثرها بل كلها سماع لهم ونحن : فلم يبق إقليم إلا قد دخلناه وأقل سبب إلا قد عرفناه وما تركنا مع ذلك البحث والسؤال والنظر فى الغيب (يريد : المجهول) فانظم كتابنا هذا بثلاثة أقسام : أحدها ما عايناه ، والثانى

ما سمعناه من الثقات ، والثالث ما وجدناه من الكتب المصنفة في هذا الباب وفي غيره ، وما بقيت خزانة (مكتبة) ملك إلا قد لزمتهما ، ولا تصانيف فرقة إلا قد قد تصفحتها ، ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفتھا ، ولا أهل زهد إلا وقد خالطتهم ، ولا مذكور بلد إلا قد شهرتهم (يريد الوعاظ وخطباء المساجد ودعاة الإسلام) حتى استقام لى ما ابتغيته في هذا الباب ، ولقد سميت بستة وثلاثين اسما دعيت وخطبت بها مثل مقدسى وفلسطينى ومصرى ومغربى وخرسانى وسلمى (عربى من بنى سليم بن منصور) ومقرئ وفقيه وصوفى وولى وعابد وزاهد وسياح (أى صوفى واعظ يجوب الأرض على باب الله) ووراق ومجلد وتاجر ومذكر وإمام ومؤذن وخطيب وغريب وعراقى وبغدادى وشامى وحنيفى ومؤدب وكير (أى عامل بالأجر) ومتفقه ومتعلم وفرائضى (أى متخصص فى قسمة الموارث) وأستاذ (أى حرفى صاحب صنعة يدوية) ودانشومند (أى شيخ علامة كبير) .

وشيخ ونشاسته (كواء ملابس ؟) وراكب (ملامح ؟) ورسول ، وذلك لاختلاف البلدان التى حلتها ، وكثرة المواضع التى دخلتها ، ثم إنه لم يبق شىء مما لحق المسافرين إلا قد أخذت منه نصيباً إلا الكدية (التسول) وركوب الكبيرة ، فقد تفقّهت وتأدبت وتزهدت وتعبدت وفقّهت وأدبت وخطبت على المنابر وأذنت على المنابر ..

والمقدسى يقدم لنا نفسه وكتابه تقديمًا ساذجًا فيه غرور بنفسه وعمله ولكنه يخف عن قلوبنا ؛ لأن الرجل نفسه فيه صدق وأصالة وهمة وعزم ، واسمع إليه يقول فى فاتحة كتابه : « اعلم أن جماعة من أهل العلم ومن الوزراء قد صدقوا فى هذا الباب وإن كانت مختلة ، غير أن أكثرها بل كلها سماع له ونحن فلم يبق إقليم إلا قد دخلناه ، ولا سبب إلا قد عرفناه وما تركنا مع ذلك البحث والسؤال والنظر فى الغيب فانتظم كتابنا هذا بثلاثة أقسام ، أحدها ما عايناه ، والثانى ما سمعناه من الثقات ، والثالث ما وجدناه فى الكتب المصنفة فى هذا الباب وفى غيره ، وأممت فى المساجد وذكرى فى الجوامع واختلفت إلى المدارس ودعوت فى المحافل ، وتكلمت فى المجالس ، وأكلت مع الصوفية الهرائس (وهى العصائد وكل ما يشبه البودينج) ومع الخانقائيين الثرائد (جمع ثريد) ومع النواتى الملاحين العصائد ، وطردت فى الليالى من المساجد ، وسحت فى البرارى وتهت فى الصحارى ، وصدقت فى الورع زمانًا ، وأكلت الحرام عياناً وصحبت عباد جبل

لبنان ، وخالطت حيناً السلطان ، وملكت العبيد وحملت على رأسى بالزنبيل ، وأشرفت مراراً على الغرق وقطع على قوافلنا الطرق ، وخدمت القضاة والكبراء ، وخاطبت السلاطين والوزراء ، وصاحبت في الطرق الفساق (كذا في الأصل المطبوع ويكون معناه في جزء الحالة المسافرين ليلاً هرباً من أعين الشرطة ، وقد تكون صحة قراءة اللفظ الفساق) ، وبعث البضائع في الأسواق ، وسجنت في الحبوس ، وأخذت على أنى جاسوس ، وركبت الكنايس (المحامل التى توضع على ظهور الجمال) والخيول وعاينت حرب الروم في الشوانى (السفن الحربية الكبيرة) وضرب النواقيس في الليالى .

وجلدت المصاحف بالكرى (الأجر) ومشيت في السمائم (جمع السموم وهى الرياح المعروفة والتلوج) ونزلت في عرصة (دار) الملوك بين الأجلة وسكنت بين الجهال في محلة الحاكة (دكاكين الخياطين) وكم نلت العز والرفعة ودبر في قتلى غير مرة وحجبت وجاورت وغزوت ورابطت وشريت بمكة من السقاية السويق (دقيق يذاب في الماء) وأكلت الخبز والجليان بالسبق (اسم مكان) ومن ضيافة إبراهيم الخليل (أى من الطعام الذى كان المحسنون يقدمونه لزوار مسجد الخليل) وجميز عسقلان السبيل (أى الذى يقدم لأبناء السبيل في عسقلان) وكسبت خلع الملوك وأمروا لى بالصلوات وعريت وافتقرت مرات وكاتبنى السادات ووبخنى الأشراف وعرضت على الأوقاف وخضعت للأخلاف (أى أن اسمه وضع ضمن المستحقين لخيرات الأوقاف وبحثوا عنه وعن حاله) ورميت بالبدع واتهمت بالطمع وأقامنى الأمراء والقضاة أميناً ودخلت في الوصايا وجعلت وكيلاً (أى ما يشبه المحامى في المحاكم) وامتحنت الطرارين ورأيت دول العيارين (اللصوص) واتبعنى الأرذلون وعاندنى الحاسدون وسعى بى إلى السلاطين ودخلت حمامات طبرية والقلاع الفارسية ورأيت يوم الفوارة وعيد بربرة وبئر بضاعة وقصر يعقوب وضياعه والمهرجان والسنة (عيد رأس السنة عند النصارى) والنيروز بعدن وعجبه ، وعيد المارسرجه (في مصر) ومثل هذا القدر ليعلم الناظر في كتابنا أننا لن نصنفه جزافاً ولا رتبناه مجازاً ..

فهذا إذن رجل عجيب قضى عمره كله يطوف بعالم الإسلام وخارجه ويلقى بنفسه في المهالك طلباً للعلم والمعرفة لكى يقدم لأمتة العربية بعد ذلك كتاباً هو في الحقيقة تقرير عن الدنيا ، تحمل هذا الرجل المشاق وخاض الأخطار ليكتبه خدمة لأمتة فأى إخلاص هذا للعلم والأمة ؟ مثل هذا الرجل دون شك جوهرة تزين تاريخ حضارة البشر .

ومن المسعودى العلامة المتبحر صاحب الذهن القلق المشوق أبداً إلى المعرفة والمقدسى المغامر الباحث عن العلم والمعرفة الذى قضى حياته فى رحلة واحدة متصلة غايتها طلب العلم وربط ماضى أمة الإسلام بحاضرها ، وشرقها بغربها تنتقل إلى شخصية أخرى فاتنة من شخوص التاريخ الفكرى العربى المجيد ، إنه أبو الريحان البيرونى الذى لا نعرف اسمه الكامل ، ولكنه علم يملأ الدنيا بعلمه ويبهرها بعقليته العلمية التى تضعه بحق فى نفس مستوى أعظم أعلام النهضة الأوروبية من أمثال ميكل أنجلو وجاليليو ، ولو كانت نظم الدول الإسلامية التى عاش فى ظلها قائمة على روح الإسلام حقاً لكان هذا الرجل دون شك قد قاد الإنسانية كلها فى معارج الحضارة خطوات واسعة .

وأبو الريحان البيرونى ليس عربى الجنس ولكنه عربى اللسان مسلم القلب ولد فى ضاحية من ضواحي بلدة خوارزم ، وخوارزم بين بحر قزوين الذى يسميه العرب بحر الخزر ونهر سرداريا أو سيحون ، ويرون أو برون بدون ياء ليس اسم مكان فى الغالب . بل معناه الضاحية أو الريف ، فهو على هذا ريفى ولد ونشأ فى إقليم جبلى يتميز بشتائه البارد الطويل .

وقد ولد فى ذى الحجة ٣٦٢ هـ ٤ سبتمبر ٩٧٣ م ، أى فى أواخر أيام المسعودى والمقدسى ، وفى أواخر أيامه عرف أبا على بن سينا وهو مفخرة من مفاخر الحضارة الإنسانية ، وهكذا ترى أن مسيرة الفكر العربى الإسلامى كانت فى الحقيقة مسيرة متتابعة ومشعل الحضارة ينتقل من جبل إلى جبل ، وقد توفى أبو الريحان فى غزنة فى أفغانستان الحالية فى الثالث من رجب سنة ٤٤٤ هـ / ١٣ ديسمبر ١٠٤٨ م ، ومن سن الرابعة والعشرين إلى وفاته فى الخامسة والسبعين من عمره عاش هذا الرجل للعلم ، وللعلم وحده وساق نفسه فى طلب العلم سَوْقاً غنياً ، وخلف للإنسانية وراءه علماً غزيراً رقيقاً جعل الروس المعاصرين يجتهدون فى إلحاقه بجنسهم واعتبروه مفخرة من مفاخرهم كما يفعل الأسبان بعلم آخر من أعلام الإسلام عاش فى نفس العصر تقريباً وهو أبو محمد على بن أحمد بن حزم الذى لم نؤلف نحن عنه إلا كتباً صغاراً فى حين أن عالماً أسبانياً جليلاً هو ميغيل أسين بلاتىوس ألف عنه كتاباً من خمس مجلدات ودخل بفضلها مجمع اللغة الإسبانية ، وفى تلك الأكاديمية الإسبانية

العريقة ، أعطوا ابن حزم الجنسية الإسبانية وسموه ابن حزم الكوردوبيس أى القرطبى .

وباكستان تطلب لنفسها شرف نسبة أبى الريحان إليها ، أما هو فقد كان يحس أنه فارسى ولكنه عربى اللسان والقلب ، وبالعربية كتب كل كتبه وكان يقول : وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أفكار العالم ، فازدانت وحلّت إلى الأفئدة وسرت محاسن اللغة منها فى الشرايين والأوردة وإن كانت كل أمة تستحلى لغتها التى ألفتها واعتادتها واستعملتها فى مآربها مع أشكالها ، وأقيس هذا بنفسى وهى مطبوعة على لغة لو خلد بها على لاستغرب مثل البعير الميزاب والزرافة فى العراب (يريد اللغة الفارسية) والعراب هى الخيل ، فأنا فى كل واحدة دخيل ولها متكلف أى أن الفارسية والعربية لم تكونا لغته ، فإن لسانه تركى والهجو بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية .

وقد عاش أبو الريحان فى ظل دولة تعتبر من أمجد دول الإسلام وهى الدولة الغزنوية وهى تركية قامت فى أفغانستان الحالية على يد فارس محارب يسمى البتكين ، ولكنها أنجبت سلاطين عظماء مثل محمد جلال الدولة ، وناصر الدولة مسعود ، وشهاب الدولة مودود ، وفى صراع القوة والسياسة فى شرقى إيران اندفع الغزنويون إلى الهند ففتحوها شمالها وبدأوا بذلك قصة مجد الإسلام فى شبه القارة الهندية ، ومع مسعود ثم مودود عاش البيرونى وكتب وألف ولم يكن من رجال الدولة أو من أهل ثققتها ، ولكنه كان زاهداً فى السلطان أو الجاه أو المال فعاش بالعلم وللعلم وأضاف بذلك إلى سجل الفكر العربى صفحات كلها نور ..

والبيرونى رياضى فى أساسه فهو رجل علوم ورياضيات وهو يكتب ويحسب ويرسم أشكالاً هندسية ويضبط قواعد رياضية بدقة لا نجد لها إلا عند كبار الرياضيين فى العصر الحديث وكتابه الأول الكبير اسمه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » كتاب رياضة وفلك وحساب للتواريخ والأزمان وأنت ترى وأنت تقرؤه أن الرجل يعرف العربية والفارسية والتركية والهندية والعبرانية والكثير من اليونانية واللاتينية فهو عقل عالمى يريد أن يضع قاعدة رياضية للتاريخ ، وقد نشر الكتاب علامة ألمانى يسمى إدوارد سخاو وقال فى مقدمته : إن البيرونى فخر للإنسانية كلها فهو رجل حضارة يحترم العلم وأهله ويطلبه فى كل لغة ، وكان السلطان مسعود الغزنوى لا يحب أبا

الرياحان ؛ لأن الرجل رفض أن يكون نديماً أو رجلاً من رجال الحاشية ، ولكن عندما كتب البيروني كتابه الخالد « القانون المسعودي » الذي صحح فيه كل حسابات الفلك والنجوم إلى أيامه اضطر السلطان إلى أن يحني هامته لرجل العلم العظيم .

وكان البيروني قد ذهب إلى الهند في صحبة السلطان محمود الغزنوي ، وخلال سنوات إقامته في الهند درس الهندية وتاريخ الهند وعقائد أهلها . وعلومهم وألف أعظم كتاب ألف في العصور الوسطى عن بلد واحد وهو تحقيق للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ، وهو كتاب يحير الالباب بسعة ما فيه من العلم والعمق وبعد النظر والصبر على الدرس حتى أنك لا تسأل : ماذا كان البيروني يعرف ؟ بل تسأل : ماذا كان لا يعرف ؟ لأن عقل الرجل معجز حقاً ، فكتاب الهند كتاب اجتماع وجغرافية وعلم أجناس ولغة وأديان ورياضة وحساب وموسيقى وأدب وإن كانت الجغرافية أغلب عليه ، وما رأيك في رجل يأخذ حفنة من تراب الأرض قرب مكة ويدرسها ويفحصها ثم يقول : هذه الأرض كانت بحراً في سالف الأزمان ! وهذا صحيح فإن في أرض الحجاز أصدافاً بحرية إلى يومنا هذا ، وهذا الرجل نفسه يقول : إن فصول السنة جنوب خط الاستواء مغايرة لفصولها شماله ، فعندما نكون نحن في الصيف يكون جنوب خط الاستواء شتاء ، وهو يتحدث عن دوران الأرض حول نفسها مرة في اليوم والليلة حديث أستاذ معاصر ويقف طويلاً متردداً أمام ما يقال من أن الأرض مركز للكون ويرصد النجوم في مرصد المراغة ويتساءل : هذه الشمس كلها تدور حول الأرض ؟ وكان الناس في عصره يقولون : إن بحار العالم ذات مستويات مختلفة ، أما البيروني فقد قال جازماً : إن بحار الدنيا كلها مستطربة ومنسوب الماء فيها واحد ، وهو يقف عند وادي نهر السند ويقول : إن ذلك الوادي في يوم من الأيام كان قاعاً بحرياً ثم غطته الرواسب الفيضية بالتدريج ، وهذه أول مرة يتحدث إنسان عن تكون الدلتاوات الفيضية .

* * *

حقاً إن تاريخ الفكر العربي سجل مفاخر زاخرة ، وأمة العرب والإسلام لم تكف أبداً عن اطلاع العباقرة ولولا ضيق المقام لقلنا أضعاف ما قلنا ، وعندما أحدثك في الفصول القادمة عن رجال مثل أبي العلاء والشريف الإدريسي وابن حزم وابن خلدون سترفع هامتك وتشعر أنك وارث أجمل حضارات البشر جميعاً .

* * *

الإدريسي وابن خلدون علّمان في تاريخ حضارة البشر

المسافة بين الشريف الإدريسي وعبد الرحمن بن خلدون طويلة جدًا في حكم الزمان والمكان جميعًا ، فالأول منهما جغرافي من أهل القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، والثاني مؤرخ تاريخي متفلسف من أهل القرنين السابع والثامن الهجريين / الرابع والخامس عشر الميلاديين . الأول شريف إدريسي وقور ساكن هاديء الطبع يجوب عالم الإسلام للدرس والمشاهدة وطلب المعرفة دون تطلع إلى وظيفة أو منصب ، والثاني مغامر طموح ، ولكن كليهما عاش للعلم وتعب في طلبه وعانى كذلك الأذى من الناس والحكام وصروف الأيام ، ولكنهما يلتقيان عند شيء واحد ، وهو أن كلاً منهما ذروة العلم العربي في ميدانه ، فالإدريسي وكل منهما فعلاً ذروة من ذرى العلم و

فأنت لا تستطيع أن تحكى قصة حد

وأغرب ما يجمع أحدهما إلى الآخر رغم الاختلاف في كل شيء تقريباً هو أنهما معا عرفا من حقوقنا الشيء الكثير ، وكان أهل الغرب هم الذين عرفوا مكانتهما بأكثر مما عرفنا ، والفضل الأول في اكتشاف عبقريتهما وفضلهما على العالم يرجع إلى الغربيين ، فهم الذين توفرنا فعلاً على دراستهما وبحث ما كتبنا . دراسة جادة متعمقة وانتهوا إلى أنهما مفخرتان من مفاخر الإنسانية ، ومن أفواههما أخذنا نحن ذلك ومضينا نزهى بالإدريسي تارة وبابن خلدون تارة أخرى ، ثم نصيح : ويل للمستشرقين ! ما أصابنا منهم إلا كل بلاء ، وآخر ما لدينا من أخبار الرجلين يأتيان من الغرب أيضاً ، فإننا - نحن - لم ننهض بنشر جغرافية الإدريسي نشرًا علمياً دقيقاً محققاً ، فنهضوا هم بذلك ، وقام نفر من العلماء الإيطاليين والأوربيين والغرب فنشروا جغرافية الإدريسي على أكمل صورة ، وقام اثنان من علماء الغرب بترجمة مقدمة ابن خلدون إلى الإنجليزية والفرنسية والترجمة الفرنسية في ذاتها تحفة أدبية ، لم يرض لها المترجم عنواناً هو أقل من أجلّ أسامي الكتب عند الغربيين ، فليس هناك غربي لا يفخر بكتاب القس الفرنسي الأب جاك بنيجنى بوسويه (١٦٢٧ - ١٧٠٤) المسمى : مقال في التاريخ العالمي ، فأخذ

المترجم الفرنسى وهو فنسان مونتائى نفس العنوان وجعله اسماً للترجمة الفرنسية التى صاغها فى أجمل أسلوب لمقدمة ابن خلدون Discours. Sur L'kistaira .

وختم هذا العمل الصالح برأس الصالحات ، فدخل الإسلام عن إيمان واقتناع وأصبح اسمه فنسان منصور مونتائى Vincent Mansour Montaie . أجل قاده إلى الإسلام إعجابه بابن خلدون ، ولكى يترجم المقدمة اضطر إلى أن يخوض فى علوم الإسلام خوفاً ، وخرج منها مؤمناً طاهراً كما ولدته أمه بإذن الله .

والعصور التى عاش فيها الرجلان يشيب لها قرن الزمان ، فأما الشريف الإدريسي فلم يظفر بالأمان إلا فى ظل ملك نورمانى مسيحي ، قضى فى بلاطه فى بلرم بصقلية خمس عشرة سنة كتب فيها بالاشتراك مع الملك النورمانى أدق وصف للأرض وإلى زمانه وسماه .. « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ، وأما ابن خلدون فقد تقاذفته عواصف الزمن من أقاصى الغرب إلى أقاصى الشرق ، وطارده الموت مرة بعد أخرى فلم يجد الراحة إلا فى سنواته الأخيرة فى مصر ، تولى فيها قضاء المالكية مرة بعد أخرى وختم حياته مخلقاً للبشرية مقدمته الجلية وتاريخه العظيم .

وأبدأ فأجمل لك حياة الرجلين حتى نفرغ من المعلومات الضرورية عن كل منهما ويتسع أماننا المجال للكلام عما خلفا للإنسانية من تراث جليل .

فالإدريسي شريف من بيت الحسن بن على بن أبى طالب فشب أشرف أرومة وهى أرومة الحسين من آل المصطفى ﷺ ، واسمه الكامل أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس ، وإدريس هذا ليس إدريس الكبير الذى أنشأ دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م ، ولكنه إدريس الحمودى وهم أسرة الحموديين من الأشراف الحسينيين ، شاركت مشاركة غير كريمة أو محمودة فى الفتنة الأندلسية الكبرى خلال القرن الحادى عشر الميلادى ، فقد طمع رجالها فى الخلافة بعد زوال خلافة الأمويين فى الأندلس ولم يكونوا أهلاً لهذه المسئولية أو المطلب ، فطحتهم أحداث الفتنة طحناً ثم لفظتهم لفظاً واستقرت بقاياهم فى سبتة ، ومن نسل إدريس العالى آخرهم انحدر شريفنا الإدريسي .

فخرج إلى الدنيا فى غمار الناس ومضى يطلب العلم وكان مولده فى مدينة سبتة سنة ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م ، ولا ندري من تفاصيل حياته شيئاً ؛ لأنه فيما يظهر قد

استخفى عن الناس خوفاً على حياته ، فقد كان كل أصحاب السلطان في عالمنا العربى يخافون الأشراف بقدر ما كانت جماهير الناس تحبهم .

وإلى المشرق ذهب الإدريسي لأداء الفريضة وطلب العلم وهو لم يتخطَّ العشرين من عمره بكثير ، ولا ندرى على الحقيقة ماذا درس ، ولكننا لا بد أن نفترض أنه تعلم في فاس من بلاد المغرب ثم على مراحل طريق الحج ما لا بد منه من أساسيات الدراسة في تلك العصور : القرآن الكريم والحديث الشريف واللغة وما تيسر من علوم الدين والفقه ، ولكن ميله الحقيقى كان إلى الأعشاب ، وهو النباتات الطبية ، فقد اهتم بها ودرسها وألَّم بخصائصها الطبية العلاجية ، ويبدو أنه مر خلال هذه الرحلة - بعد الحجاز - بأسيا الصغرى ، فإنه يذكر في جغرافيته أنه كان هناك سنة ٥١٠ / ١١١٦ وهو تاريخ غير معقول ؛ لأن سنة كانت إذ ذاك سبع عشرة سنة هجرية ومر كذلك بشمال مصر ، فإن وصف جغرافيته يدل على أنه عرف الفسطاط والقاهرة ، ورحل بالنيل شمالاً في فرع رشيد ، ثم إلى الإسكندرية ، ومنها إلى المغرب عائداً ونزل في طريقه بصقلية .

وهنا يقع الحادث الحاسم في تاريخه ، فقد كانت صقلية قد خرجت عن أيدي المسلمين ، ولكن ملكها النورمانى روجر الثانى الذى يسميه المسلمون رجار كان رجل علم ودراسة ، وكان شديد الإعجاب بعلوم الإسلام وكان من بين رجاله رئيس مسلم إدريسي حسنى يسمى القاسم بن حمود ، وبهذا الرجل التقى الشريف الإدريسي فوجد الرجل من علمه بالأعشاب ما جعله يفكر في تقديمه إلى رجار ، وعندما التقى الملك النورمانى بالعلامة الشاب المسلم وجد فيه الرجل الذى يطلب ، فقد كان رجار معنياً بالطب والأعشاب فأعجبه الإدريسي وطالت مجالسه معه ، وفي أثناء المجالسة تنبه رجار إلى موهبة الجغرافى الكامنة في نفس الإدريسي وراعه حديثه عن الأرض وعلمه بها ، فدعاه إلى الإقامة والعمل معه في صقلية وتوطدت الصلة بين الرجلين حتى قال الصفدي في الوافى بالوفيات : إنهما كانا يجلسان معاً على الوسائد ويقضيان الساعات في حديث العلم ، وعرض رجار على الإدريسي أن يترك هذا التجوال ويستقر معه في صقلية وقال عبارة لا بد أن تستوقف نظرنا : « أنت من بيت الخلافة ، ومتى كنت بين ملوك المسلمين عملوا على قتلك ، ومتى كنت عندى أمنت على نفسك » ، وهى عبارة جارحة لكرامة بلادنا وماسة بشرف نظم الحكم عندنا في العصور الماضية ، فهذا الملك النورمانى الفرنجى يعرف أن ملوكنا الماضين كان بعضهم أعداء بعض ومتى ظفر

الواحد منهم بملك مثله قتله حتى أبناء الأشراف العلويين كانوا مهديين بالموت أيضاً ، لأن قلوب الناس تهوى إليهم وكل منهم كان من الممكن أن يكون أميراً للناس حيثما كان ، ولهذا فقد كان أصحاب السلطان يتصيدونهم دون رحمة .

وأدرك الشريف الإدريسي أن ما قاله رجار حق ، فقرر أن يعود مسرعاً إلى المغرب ليصفى أعماله كما نقول ، ثم يعود بعد ذلك إلى صقلية ليعمل مع هذا الملك النصراني وهكذا كان : عاد الإدريسي إلى صقلية وبدأ عمله مع الملك رجار سنة ٥٣٣ / ٩٤٤ وفي سنة ٥٤٨ / ٩٥٩ كان قد فرغ من عمله ، وقام بما يشبه المعجزة ، فقد بدأ فصنع كرة من الفضة تشبه صورة الأرض كما تصورها ثم رسم عليها خريطة العالم وقد وصف لنا الإدريسي هنا عمله وما قام به في مقدمة كتابه ، وأنا أتيك به بنصه لتعلم حجم العمل العظيم الذي قام به عالمنا العربى الجليل خلال خمس عشرة سنة ، ولنلاحظ هنا أن الإدريسي يتحدث في مقدمته باسم الملك رجار تأديباً منه وكرم أخلاق حتى يحسب قارئه أن الذى صنع هذا كله هو رجار لا الإدريسي « .. فامر عند ذلك أن تفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم ، ضخمة الجسم ، في وزن ٤٠٠ رطل بالرومى في كل رطل منها ١١٢ درهماً .. فلما كملت أمر الفعلة (العمال الفنيين) بأن ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها وسيغها (سواحلها) وريفها وخلجانها وبحارها ومجارى مياهها ومواقع أنهارها وعامرها (بلادها المسكونة) وغامرها (غير المسكونة) ، وما بين كل بلد منها وبين غيره من الطرقات المطروقة ، والأميال المحدودة ، والمسافات المشهودة ، والمراسى المعروفة على نص ما يخرج إليهم على لوح الترسيم (لوحة الرسم) ، ولا يغادروا منها شيئاً ، ويأتوا به على هيئته وشكله كما يرسم فيه ، وأن يؤلفوا كتاباً مطابقاً لما في أشكالها وصورها غير أنه يزيد عليها بوصف أحوال البلاد والأرضين في خلقها وبقاعها وأماكنها وصورها وبحارها وجبالها ومسافاتها ومزروعاتها وغللاتها وأجناس نباتها وخواصها ، والاستعمالات التى تستعمل بها والصناعات التى تنفق بها والتجارات التى تجلب إليها وتحمل منها ، والعجائب التى تذكر عنها وتنسب إليها ، وحيث هى من الأقاليم السبعة مع ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم وخلقهم ومذاهبهم وزِيَّهم وملابسهم ولغاتهم ، وأن يسمى هذا الكتاب بكتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » وكان ذلك فى العشر الأوائل من يناير الموافق لشهر شوال الكائن فى سنة ٥٤٨ ، قامتثل فيه الأمر وارتسم الرسم » .

وذلك هو العمل الخارق - بمقياس تلك العصور - الذى قام به عالمنا الشريف الإدريسى ، وأجمل ما فيه أنه أتممه كما قال ، فأما الكرة الأرضية الفضية فقد ضاعت ونستطيع أن نحى هيئتها وننصبها فى ساحة جامعة من أكبر جامعاتنا ، وأما الكتاب - نزهة المشتاق - فما هو ذا اليوم بين أيدينا : وهى عجيبة إذا قيست بمقياس العصر الذى كتبت فيه ، فهى لم تكن أقل من صعود القوم إلى الفضاء أو نزولهم على سطح القمر ! فهذا عالم عربى منفرد يعمل آمناً فى جزيرة بعيدة وهو يقدم لنا بالفعل جغرافية طبيعية وبشرية مفصلة للأرض وما عليها من بحر الظلمات (المحيط الأطلسى) وجزائر الخالدات (الكنارياس) إلى شرقى آسيا فى بحر الصين واليابان .

والآن فقد بدأ الإدريسى برسم ما يمكن أن نسميه (كروكى) لخريطة الأرض رسمها على لوحة طويلة عريضة تسع صورة الأرض وما عليها ، ثم قام بعملية حسابية رياضية معقدة ، لكى يستطيع نقل خريطة الأرض هذه على كرة الفضة ، وعلى الكرة وضع المواقع ورسم القارات والبحار والأنهار بغاية الدقة ، وبعد أن أتم هذا العمل العجيب شرع فى القسم الثالث من مهمته وهو تحويل هذه الخريطة الكروية إلى خريطة مسطحة ، وهذه عملية غاية فى الصعوبة تحتاج إلى تفكير طويل وحساب كبير قام بمثلها عالم هولندى من رجال النهضة فبلغ بها الخلود ، وذلك هو جيراردوس ميركاتور (١٥١٢ - ١٥٩٤) الهولندى الذى ابتكر ما يسمى بالمساقط ورسم الخرائط على لوحات وما زلنا نحن إلى الآن نقول : « خريطة على طريقة ميركاتور » فهذا العمل الجليل صنعه الإدريسى فى صمت وهدوء .

وقام الإدريسى بعد ذلك فقسم هذه الخريطة المسطحة إلى سبعة أقسام مستعرضة فوق خط الاستواء وقسمين جنوبه ، وتلك هى الأقاليم السبعة المشهورة فى النصف الشمالى من كرة الأرض وأصلها عند بطليموس (وهو جغرافى يونانى مصرى فقد ولد فى أسيوط وعاش وعمل فى الإسكندرية) ثم قسم هذه الخريطة إلى عشرة أقسام طولية بخطوط رأسية متوازية هى خطوط الطول ، وبذلك حصل على سبعين قسماً مربعاً ، فأخذ كل قسم ورسمه رسماً مفصلاً مكبراً يصفه بكل ما فيه من معالم الجغرافية الطبيعية والبشرية ويدون الوصف فى ذلك الكتاب العظيم المسمى بنزهة المشتاق ، وهو يأخذ الأقاليم إقليمياً إقليمياً وفى كل إقليم يصف كل واحد من أجزائه على حدة .

ما الذى جعل الإدريسى يقوم بهذا العمل ؟ الشعور بالسيادة ؛ لأن العلم سيادة ، والشعور بأنه عربى ، والعرب فى أيامه كانوا فكراً وعلمياً فى طليعة الأمم ووصفه إليه كذلك ما سبق أن أشرنا إليه من شعور علماء العرب بأنهم مسئولون عن وطنهم العربى ، فهم يصفونه أفقياً فى المكان فيكونون جغرافيين ، ويصفونه فى الزمان رأسياً فيكونون مؤرخين ، فإذا كانت هنا قمة للعلم الجغرافى فى العصور الوسطى فقد تسنمها الإدريسى هذا كما سيتسنم ابن خلدون ذروة العلم التاريخى .

وقبل أن أغادر الشريف الإدريسى أتيك بالجانب المحزن من حياته ، وحياة المخلصين من أهل الفكر والعلم عندنا كلها أحزان . هذا الرجل يخفق عن أنظارنا فى ليل التاريخ فلا نعرف إلا أنه توفى سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م ، بل لا ندرى أين غاله الموت ؟ فى ثورة على المسلمين فى صقلية ؟ فى مفازة من مفازات بلادنا ؟ لا أحد يدري ! ولكن الذى ينبغى أن ندره جميعاً هو أن شجرة الفكر العربى تضم على واحد من أزهر غصونها هذا العلم العظيم الذى يعتبر - بحق - من بناء حياة البشر : الشريف الإدريسى !

* * *

ومن قمة الجغرافية ننتقل إلى قمة التاريخ من أبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس ننتقل إلى أبى زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ / ١٣٣٢ - ١٤٠٥) أصله البعيد حضرمى من قبيلة كندة أيام كانت تعيش فى اليمن قبل هجرتها إلى مشارف الشام ، ولكنه ولد فى تونس وتوفى فى القاهرة بعد أسفار ومغامرات ومخاطر وأحوال . إنه يشارك معظم أهل اليمن فى ذلك القلق الذى لا يكاد يخلو منه عظيم من عظمائهم ، لقد قال رسول الله ﷺ « إن العلم يمان » ، وينبغى أن نضيف إلى ذلك : والقلق يمان ، وهذا القلق اليمنى يتصور فى شكل مفزع فى حياة علامة يمنى آخر عبقرى دون شك هو الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمدانى صاحب الوصف المبدع لجزيرة العرب ويتصور فى شكل حزين فى حياة ابن خلدون ، ويتصور أخيراً فى هيئة مصير مجهول حافل بالمخاطر يميز تاريخ اليمن فى عصورها الإسلامية جميعاً ، وربما كان ذلك راجعاً إلى ما نعرفه من تميز أهل اليمن بذكاء بعيد وطموح أبعد ، فما عرفت فى

حياتي شعباً عربياً أبعد ذكاء في جملته ولا أقدر على مغالبة الأيام أو أشد تعذيباً لنفسه من اليمنيين .

آل خلدون الحضرميون أخذوا من القلق والذكاء اليمنيين نصيباً وافراً ، حملتهم أمواج الفتوح إلى أشبيلية في الأندلس ، وهنا أثروا وتمولوا وبلغوا مكانة عليا بين أهل البلد وهناك أيضاً تحور اسمهم من آل خالد إلى آل خلدون والواو والنون هنا زائدتان تضافان إلى الاسم للتفخيم فيقال : سعدون وحمدون وبدرون وخلدون ، وأصل هذه الزيادة لاتيني ، فكان الرومان يقولون للرجل الكبير الأنف : Norazan ويعظمون اسم سيبينو فيقولون : سيبيون ونيرو - أي الأسود - فيقولون : نieron . وشيسيرو فيقولون : شيسيون ، في أشبيلية بلغ آل خلدون من القوة والجلالة ما جعلهم في إقليم أشبيلية واحداً من البيوت الإقطاعية الإقليمية التي نافست على رئاسة إقليم أشبيلية وكان بينهم وبين منافسيهم - آل حجاج - نزاع طويل ثم ضربت الأيام ضرباتها وانتهت أيام أشبيلية المسلمة جملة ، وفي سنة ١٢٤٨ سقطت أشبيلية في يد فرناندو الثالث وخرج منها آل خلدون وفي جملتهم محمد بن خلدون - والد عبد الرحمن - وحط رحاله في تونس أيام الحفصيين ، وهنا ولد عبد الرحمن سنة ٧٣٢ / ١٣٣٢ وهناك نشأ ودرس ثم استقل بنفسه ودخل خدمة السلطان ، وجرب حظه في بلاط تونس فلم يبلغ ما أراد فشد رحاله إلى فاس - عاصمة بني مرين في المغرب الأقصى - ودخل في خدمة السلطان أبي عنان فارس المريني وهو نموذج من نماذج سلاطين المسلمين في العصور المتأخرة ، ومثال من فشل نظم الحكم التي قامت في بلاد الإسلام ، فهذا الرجل أبو عنان حارب أباه السلطان أبا الحسن المريني وطارده حتى أزهر روحه ، والوالد التعيس مات شقيلاً لاجئاً إلى قبيلة جبلية هي « هنتانة » مات وابنه يحاصره ويطلب رأسه وعندما مات الأب نشهد مشهداً من مشاهد التفاق المخجل ، فأبو عنان بعد ما فعل بأبيه ما لا يفعله الرجل مع ألد أعدائه وقف يبكي أباه وصلى عليه ووقف الابن القاتل يبكي الأب القاتل ثم يأمر والحزن الكاذب على وجهه الكالح بأن يسجى أبوه العزيز في مقبرة من أجمل مقابر سلاطين آل مرين في بلدة « شالة » أو « شلا » غير بعيد عن العاصمة فاس ..

إلى هذا السلطان فارس أبي عنان وفد ابن خلدون يرجو العز والرفعة فوجد نفسه في أجمة السباع المتقاتلين على باب السلطان ، ووفق أول الأمر بعض التوفيق فأرسله

أبو عنان سفيراً إلى الأندلس ليفاوض الملك القشتالي بدرو القاسى فى شئون أسرى المسلمين ، وفى غرناطة يلتقى ابن خلدون بابن الخطيب وزير سلطان غرناطة ، ولسان الدين ابن الخطيب كان أديباً شاعراً كاتباً مؤرخاً ذائع الصيت ، ولكنه كان قبل كل شىء إنساناً يعيش بلا قلب ، فكل ما كتب - وهو كثير جداً - يخرج من رأسه إلى قلمه دون أن يمر بقلبه ، فهو كاذب حيثما كتب ، جامد القلب حيثما قال ، كأنما هو ماكينة تكتب لا إنسان يحس ويشعر ، وبديهي أن ينفر ابن الخطيب من ابن خلدون هذا الطارئ على غرناطة فهو عالم ذكى كاتب أديب فخافه على مركزه وما زال به حتى أخرجه من غرناطة شبه طريد ، وعاد ابن خلدون إلى المغرب حيث ألفت به مؤامرات القصر بعيداً فى جبال القبائل شرقى مدينة الجزائر الحالية ، وكان ابن خلدون فى أثناء تلك المغامرات يكتب تاريخه ، وفى واحة بسكرة جنوب غربى مدينة الجزائر أجمل واحات الدنيا كتب ابن خلدون الصورة الأخيرة من مقدمته ، وما زالت هذه النسخة بخط ابن خلدون محفوظة فى إحدى مكتبات استانبول وتلك هى النسخة الجميلة التى اعتمد عليها فنان منصور مونتائى فى ترجمته الفرنسية التى أشرنا إليها .

ومن بسكرة والجزائر نهض ابن خلدون قاصداً مصر فدخلها أيام السلطان برقوق أول سلاطين المماليك الجراكسة ، وقد هيأناه نحن فى مصر وزوقناه وسميناه الظاهر سيف الدين برقوق بن أنس اليلبغاوى أى : مملوك اليلبغا (٧٨٤ - ٨٠١ / ١٣٨٢ - ١٣٩٨) وكان رجلاً عاقلاً رزيناً قام بتمثيل دور السلطان فى مهارة يشكر عليها ، وكانت القاهرة قد أصبحت مدينة العالم الإسلامى وملتقى أهل العلم فيها جميعاً ، والأزهر كان يضيء ويتألق ونشأت حوله مدارس كثيرة للحديث وحول مشيخات (أى عمادات) الأزهر ومدارس الحديث قامت حرب الأساتذة ، وكان على عبد الرحمن بن خلدون أن يخوض معركة تلك الحرب ، وقد خاضها وأدرك فيها بعض التوفيق فأحبه السلطان برقوق ثم ابنه السلطان فرج ، ووصل إلى منصب قاضى قضاة المالكية مرة بعد أخرى ، ولكن ابن خلدون مع ذلك لا يرضى ولا يحمد الله ويتهم مشايخ مصر وقضااتها بما لا يسر ، وينسى ، أنه هنا على الأقل اطمأن واستراح وجلس يقضى بين الناس ويتلقى الراتب والجراية .. ولكن القلق اليمنى لم يفارقه قط ، وفى عام ٧٩٧ / ١٣٩٤ نجده معتزلاً ، وفى هذه العزلة يكتب ويراجع وينقح تاريخه ، وفى سنة ٨٠٣ / ١٤٠٠ يخرج مع طائفة من العلماء إلى دمشق وكان يحاصرها تيمور لنگ ،

ويحكى ابن خلدون في مذكراته المطبوعة كيف تحيل على تيمور حتى أفلت بجلده عائداً إلى القاهرة وهو في مذكراته تلك (التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً) لا يصدقنا القول أحياناً ، فهو يطرى نفسه ويزوقها ، ولكنها على أى حال واحدة من تراجم الحياة الأصلية القليلة في أدبنا العربى ، وبعد عودته إلى مصر يفجعه القدر في أسرته فقد كان قد أرسلها بالبحر من الشام إلى مصر فغرق المركب بمن فيه ، وفي سنة ٨٠٨ / ١٤٠٥ يتوفى هذا الرجل العجيب مخلفاً وراءه تاريخه العالمى المسمى بكتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » ومقدمة ذلك التاريخ الذائعة الصيت .

فأما المقدمة فأنت تعرفها ، فهي محاولة جديرة بكل تقدير للوقوف على الدوافع المحركة لتاريخ البشر ، وفي أثناء هذه المحاولة يضع ابن خلدون قواعد أو تصورات حول ما يسمى بدورة العمران أى تطور الجماعات البشرية من البداوة إلى الحضارة ، والبداوة عنده هى الحياة البدائية البسيطة في البوادي والأرياف ، إنها حياة البدو والفلاحين ، وابن خلدون يرى أن قبائل البدو تتكاثر وتستقوى وتتجمع وتهاجم قواعد العمران وتتغلب عليها وتنشئ لأنفسها فيها دولاً ، فإذا هى أنشأت الدول فقد دخلت في طور الحضارة والاستقرار والملك وعرفت القصور ورفاهة العيش ورقة الحواشى والجند المرتزق ، وهنا تبدأ في التدهور والضعف ، وابن خلدون يذهب إلى أن ما يضعفها هو الترف وهو عنده التقلب في النعمة والبعد عن خشونة العيش وصراع الحياة ، وابن خلدون هنا يصيب أحياناً ويخطئ أحياناً ، ولكنه لا يختلف في ذلك عن جيامباتيستا فيكو أو بندتو كروتشى أو أوزفالد شينجر أو أرنولد توينبى ، فكل هؤلاء مؤرخون كبار يصيبون ويخطئون ولكنهم دون شك قمم علم التاريخ ، فإن الواحد منهم لا يصل إلى درجة الاطلاع الواسع وإصدار الأحكام العامة والبحث عن قوانين تحكم حياة البشر إلا بعد جهد وفكر وعناء ، وهذا هو الذى يجعل لابن خلدون هذه المكانة الكبرى في تاريخنا الفكرى : إنه رجل فكر وقد استعمل ذهنه خير استعمال وعرف كيف يخرج عن السرد التاريخى الممل إلى التفلسف والنظر والتخلص من استبعاد الذاكرة والحفظ إلى حرية التفكير ، ولكى يتكلم ابن خلدون في حرية كان لا بد أن يدير فلسفته كلها على أهل الماضى الذين ذهبوا ولو أنه فكر في استخدام ذهنه في أحوال عصره لطارت رقبتة قبل أن يكتب .

والذى يعينى هنا هو أن أقول : إن الناس عندما يحسبون أن ابن خلدون لا يتميز إلا بمقدمته فهم يقللون من شأن تاريخه المسمى بكتاب العبر ، ويحسبون أنه تاريخ عادى لا يتميز على غيره من التواريخ العامة التى كتبها غيره ، وهذا ظلم لابن خلدون ألحقه به جيل طه حسين وعبد الحميد العبادى وأحمد أمين ؛ لأنهم لم يقرأوا تاريخ ابن خلدون وهم معذورون ؛ لأن هذا التاريخ الطويل (ست مجلدات) لا يصبر على قراءته ليتعرف قدره إلا مؤرخ وهب حياته كلها لهذا العلم الجليل .

قد لا يتميز تاريخ ابن خلدون عن غيره فيما يحكى عن تواريخ العرب الجاهليين والفرس ، ولكن ابن خلدون هو الوحيد بين مؤرخينا الذى كتب ما يمكن أن نسميه تاريخاً علمياً للعصور القديمة ، فهو يعرف اليونانيين معرفة جيدة ويفرق بينهم وبين المقدونيين ، وهو يعرف أوليات تاريخ الرومان ويتتبع تطور دولتهم من عصر الملوك إلى الجمهورية إلى الامبراطورية ، وهو يسمى الرومان باسمهم الحقيقى وهو اللطينيون وهو يعرف الأثروسكيين ويسميهـم « الكيتم » وهو لفظ حيرنى وسألت أهل الشأن فيه فلم أخرج بطائل ويعرف القياصرة المنتصرة من أيام قسطنطين ، وهذا هو الاسم الذى يطلقه على الروم البيزنطيين ويحكى تواريخهم إلى الدولة الهرقلية ، ويؤرخ للشعوب الجرمانية ويقف عند القوط ويقدم لنا تاريخاً كاملاً لملوك القوط الغربيين فى إسبانيا ويسميهـم الجلاتقة المعاصرين للأندلس الإسلامى .

ولكن درة هذا التاريخ هى مجلداه الرابع والسادس ، ففى الرابع يتحدث عن العرب المستعجمة أى العرب الذين عرفوا خصائص العروبة ، وفى المجلد السادس يتحدث عن البربر وهم من أجل شعوب الإسلام فهم أهل الشمال الإفريقى ، وابن خلدون يقدم لنا أوفى تاريخ للعرب الهلالية وأصحابهم من بنى سليم بن منصور ، وهم أصحاب التغريبة أو الغزوة الهلالية ، وهم أصحاب الفضل فى وجود هذا المغرب العربى العظيم الذى يتألف منه الجناح الغربى المبارك لعالم العروبة والإسلام .

وابن خلدون هنا - فى التاريخ - جغرافى مؤرخ انتوغرافى اجتماعى على صورة هى أصفى مما نجدها فى المقدمة ، فهو هنا لا يضع نظريات أو يعتسف قوانين ، بل يؤرخ ويدرس ويحلل ويعطينا صورة أشبه بملوحة أشعة سينية لجسم قطاع كامل من قطاعات أمة الإسلام : قطاع المغرب الذى كان قبائل بربرية ثم أسلمت واستعربت

وأقامت دولاً وممالك بعد أن دخلت التاريخ تحت راية الإسلام ، هنا نجد القوة الحقيقية لابن خلدون وموضع فخره الذى لا ينازعه فيه أحد ، هنا نحن مع قمة رفيعة الذروة من قمم فكرنا العربى : قمة التاريخ التى تضاهى فى ارتفاعها وشموخها واعتراف الدنيا كلها بها ، تلك القمة السامية الذرى التى يقف عليها الشريف الإدريسى ، وكلاهما يؤكد وحدة الأمة الإسلامية أفقياً ورأسياً بكتابة جغرافية الوطن الإسلامى وتاريخه ، وكل منهما يتميز على غيره من المؤرخين والجغرافيين بأنه يضع أمة الإسلام فى الوضع الذى تستحقه : أمة العلم والمعرفة التى تدرس وتبحث وتستكشف طليعة الدنيا فى موكب العلم والعرفان .

* * *

الْفُقَهَاءُ وَبِنَاءُ الْقَاعِدَةِ الصَّلْبَةِ لِأُمَّةِ الْإِسْلَامِ

تحدثنا آنفاً عن بعض الأعلام من أهل الفكر والعلم في تاريخ الإسلام ، وبيننا دور أهل الفكر في بناء عالم الإسلام وإقامة صرح حضارته ، وشرحنا كيف كان رجال الدولة وأهل الصراع السياسى يحطمون وحدة عالم الإسلام ويقطعون أوصاله ويضعون السدود والقيود بين شعوبه بعضها وبعض ، بينما كان الصادقون المخلصون من رجال الفكر يعملون جاهدين على توثيق الصلة بين أجزاء أمة الإسلام وأجيالهم ، فالجغرافيون يؤكدون الوحدة الأفقية المكانية ، والمؤرخون يؤكدون الوحدة الزمنية ويربطون ماضى الأمة بحاضرها ، وأهل العلوم يشاركون في ذلك وينيرون بصائر الأمة إلى مستقبلها ويفتحون أعين الناس على حقائق الحياة ، وهؤلاء يتلاقون على بساط العلم حيناً وفي رحاب الكعبة أو في مدينة الرسول وعاصمة الإسلام الأولى حيناً آخر ، وهم في غدوهم ورواحهم وتلاقيهم في مجالس الشيوخ وحلقات الدرس في المساجد يصنعون ذلك النسيج العظيم الذى نعيش نحن في رحابه ، وهو نسيج العالم العربى يحيط به نسيج عالم الإسلام ، وفي سياق كلامنا تحدثنا عن أعلام تخطوا بعلمهم عالم الإسلام وأسهموا بعلمهم في بناء حضارة البشر ، وأصبحوا مفاخر للإنسانية جميعاً ، وضربنا مثالين من الإدريسى وابن خلدون ، وفيما يلى سنلتقى بأعلام آخرين من هذا الطراز أوسعوا للعروبة وأهلها مجالاً فسيحاً صدرًا في سجل بناء حضارة البشر أجمعين .

* * *

واليوم نبدأ الحديث عن جماعة من أهل العلم المسلمين الذين يعتبرون - بحق - بناء قاعدة المجتمع الإسلامى كله وأصحاب الفضل فيما تميز به بنيان العالم الإسلامى من صلابة بناء مكنت له من الاحتفاظ بسلامة كيانه دون تصدع يخشى خطره ، رغم ما كان أهل الدول يقتربونه من أخطاء كبرى في حق أمة الإسلام وسلامتها ، وكذلك رغم ما تعرض له عالم الإسلام في جملته من صدمات وتحديات بلغ عنفها أحياناً مبلغ

الخطورة على الكيان نفسه ، فقد كانت غارات الصليبيين - مثلاً - صدمات بالغة العنف وصلت إلى قلب العالم الإسلامي نفسه ، ولكن صلابة نواة المجتمع الإسلامي مكنت له من تحمل صدمات هذه الغارات ، فلم يخسر عالم الإسلام رغم الصراع الطويل إلا الأندلس وجزائر البحر المتوسط ، ولم يكن ضياع الأندلس وجزائر البحر نتيجة لإضعف البناء الاجتماعي للعالم الإسلامي ؛ بل لأن تخريب رجال الدول والرؤساء بلغ هناك مبلغ التدمير الإجرامى على سلامة الجماعة الإسلامية ، فإن الذى فعله أولئك الذين نسميهم بملوك الطوائف في الأندلس وصقلية لا يمكن أن يوصف إلا بأنه سلسلة من الجرائم دبرها أولئك الرؤساء بنية شريرة فعلاً ، وكفى أن نضرب مثلاً واحداً يبين للقارئ ما انطوت عليه نفوس بعض أولئك الرؤساء من طوية بالغة الشر والسوء ، فقد استقل بناحية بطليوس من بلاد الأندلس بعد ضياع الوحدة السياسية الأندلسية بسقوط الخلافة الأموية سنة ١٠٣١ م ، وكانت ولاية كبيرة تقع شمال غربى قرطبة على نهر لوادى أنه استقل بها رجل من زعماء البربر الأندلسيين ، يسمى عبد الله بن مسلمة ، ينسب نفسه إلى بعض العرب ويلقب بأبن الأفطس وجعل نفسه أميراً على تلك الناحية ، وصار يدفع الجزية للملك قشتالة فخاطبه أحد الشيوخ في إعادة وحدة الأندلس وإنشاء جبهة تقاوم الضغط الإسباني فكان جوابه : لو أن أبا بكر وعمر جاءانى يطلبان منى التنازل عن ملكى لحاربتهما بالسيف .

فتأمل والله وقاحة هذا الرجل وقصر نظره وغبائه ، فقد كان يدفع الجزية لرجل نصرانى ويسمى نفسه ملكاً ، وكان يذل نفسه أمام ألفونسو السادس ملك قشتالة ، ولكنه مستعد لمحاربة أبى بكر وعمر بالسيف دفاعاً عما سماه ملكه ، لقد توفى هذا الحقيير التعيس سنة ٤٣٧ هـ / ١١٤٢ م وخلفه ابنه أبو بكر الذى تلقب بالملك المظفر ثم جاء بعده حفيد له يسمى أبا حفص عمر وتلقب بالمتوكل على الله ، وهذا المتوكل على الله عندما سمع أن يوسف بن تاشفين البطل العظيم نزل الأندلس ودعا إلى وحدة الصف فضّل أن يتوكل على الملك ألفونسو السادس فجعل يستغيث به على الأمير المسلم المجاهد يوسف بن تاشفين ، فهل نتعجب من أن يوسف بن تاشفين أمر بقتل هذا الرجل عقاباً له على جرائمه وجرائم آل من بنى الأفطس في حق جماعة الإسلام ؟ ومع ذلك فإن شاعراً أندلسياً يقال : إنه عظيم هو عبد المجيد بن عبدون قال في رثاء بنى الأفطس قصيدة هى أبرد من الثلج ، ومع ذلك يصفها ابن بسام بأنها عصماء وفريدة بلا نظير

يحمل فيها على الدهر الخوآن الذى يغدر بعظماء الملوك ، ومنهم هؤلاء التعساء بنو الأفطس :

نعم هو الدهر ، ما أبقت غوائله على جديس ولا طسم ولا عاد
وأسلمت للمنايا آل مسلمة وعبدت للرزايا آل عباد
ومثال هذه القصائد هى التى تجعل قارئ الشعر العربى التقليدى لا يحس بأى
صدق أو إنسانية فى الكثير جداً مما يقرأ منه .

وإنما ضربت لك هذا المثل لترى أى نوع من أهل الدول كان يتولى أمور المسلمين فى
الأندلس وقت الخطر ، فهل نتعجب بعد ذلك من أن الأندلس ضاع من أيدينا ؟ وهل هو
ضاع إلا بأيدينا ؟

وهذا الأندلس الذى انفرط عقده السياسى سنة ١٠٣١م ظل قائماً يجاهد عن
نفسه فلم يطفىء الأعداء أنواره إلا بعد ٤٦١ سنة من سقوط الخلافة وضياع الوحدة
السياسية وتصدى أمثال بنى الأفطس وبنى عباد وبنى ذى النون للقيادة ، وما ذلك إلا
بفضل متانة البنيان الاجتماعى للشعوب العربية والإسلامية جملة .

والفضل الأول فى متانة ذلك البنيان الاجتماعى يرجع إلى الفقهاء أولئك العلماء
الصادقين الذين عرفوا كيف يبنون لأمة الإسلام قاعدة شرعية أى قانونية وتكويناً
اجتماعياً متيناً وشدوا ذلك بقواعد أخلاقية مكنت لهذه الأمة من مغالبة عواصف
القرون ، وقد أشرنا إلى صدمة الصليبيات ويندرج فى معناها هجوم التتار وفى عصورنا
الحالية موجة الاستعمار ، وقد كانت غزوة بالغة الخطورة قامت على أسس علمية
مدروسة وخطط خبيثة شريرة أريد من ورائها إبادة أمة الإسلام ، وقد ظن أصحابها
عندما استولوا على بلاد العربىة والإسلام جميعاً أنهم يزيلون الإسلام من أرضه
بأيسر مئونة فما راعهم إلا الإسلام وحده ! يزيلهم من أراضيه ويخرج بشعوبه مظفرًا
من تلك الغارة بل يغزوهم فى ديارهم ، وما نحن أولاء فى أيامنا هذه نسمع صرخات
بعض أهل الغرب من أن الإسلام عاد إليه اليوم شبابيه وأخذ يغزو بلاد الغرب نفسها
وينتشر بين أهلها ويدخل فيه نفر من أجلاء أهل الفكر والغرب من أمثال : ميشيل شود
كليفتيش رئيس دار نشر « سوى Sawie » فى فرنسا وفرنسان (منصور) مونتائى من
أكابر أساتذة جامعة باريس ، وروجيه (رجاء) جارودى وموريس بيجار من أكبر

فنانى فرنسا ، وبير بنوا ميشيل من كبار المؤرخين الفرنسيين ، واليكس هيلى الأديب الأمريكى مؤلف « الجذور » ، ومحمد على كلالى الملاك المشهور ، وغيرهم كثيرون جداً .

ولم تنتج أمم العروبة والإسلام من تلك الأخطار إلا بفضل القاعدة الشرعية والاجتماعية والأخلاقية التى بناها الفقهاء بجهد صادق وإخلاص عميق وحب لأمة الإسلام شامل ورغبة أكيدة فى خدمة أمة الإسلام ، وأكثر ما يروع النفس فى ذلك العمل هو إخلاص أجيال الفقهاء فى ذلك من القرن الهجرى الأول إلى أواخر الخامس ، ولم يصلهم من أصول الفقه ثابت النص دون شك إلا القرآن الكريم فكان عليهم بعد ذلك أن يضعوا القواعد ليستوثقوا من كل خبر وصل إليهم من سنة الرسول ﷺ ، وهنا بلغوا فى التحرى والضبط مبلغاً يفوق كل تصور الأجيال الأولى بالذات : تلك التى انتهت بالأئمة الأربعة ، أجيال تدين لهم أمة الإسلام كلها بسلامتها ، ومن مآثرهم الكبرى أنهم وضعوا بأنفسهم القواعد العلمية التى ساروا عليها فى جمع الحديث وضبطه ، ثم وضعوا أسس استخراج الأحكام من القرآن والسنة ومآثور عمل كبار الصحابة وما ينتهى إليه القياس السليم والاستنتاج الصحيح فهم على ذلك بناء منهج علمى يقوم أساساً على الإخلاص لله وأمة الله دون نظر إلى أى اعتبار من اعتبارات المصلحة وإغراء الدنيا .

وأقف هنا عند فقهاء المدينة السبعة وهم سبعة من التابعين وهبوا أنفسهم لخدمة الأمة بوضع قانون أخلاقى مستخرج من كتاب الله وسنة نبيه ، بل كان عليهم أن يجمعوا مادة هذه السنة وهى الأحاديث ووضع الأسس لجمعها جمعاً سليماً وكانت القاعدة عندهم أنهم يعاملون الخالق سبحانه لى تصح خدمتهم للمخلوق ، ولن أكثر عليك من الأسماء بل سأكتفى بواحد من أولئك السبعة اتفقت آراء الفقهاء على أنه نموذجهم الحى وصورتهم الباقية وهو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبى وهب المخزومى الذى يلقب بإمام التابعين ، هذا الرجل مدرسة كاملة فقد جعل همه وضع الأسس السليمة لاستخراج الأحكام ، وكانت مجموعات الأحاديث النبوية الصحيحة لم تظهر بعد ؛ لأننا نتحدث عن رجل توفى سنة ٩٤ هجرية فكان عليه أن يدقق فى كل حديث يصله لى يستوثق من صحة صدره عن رسول الله ﷺ ، فكان لا يكف عن السؤال وكان - كما قال هو - يرحل الأيام والليالى فى طلب الحديث الواحد والتأكد من

صحته ، ومنذ البداية قرر ألا يخدم الدولة أو الحكام فاعتمد على أربعمئة دينار ورثها عن أبيه واشتغل بتجارة الزيت ، وتجارة أولئك الناس لم تكن تجارة دكاكين إنما هي تجارة مخازن أى أن بضاعة الرجل تكون في بيته .

وكان كل منهم يكتفى بصنف واحد يتقنه ويشتهر به ويعامل الله في بيعه وشراؤه فلا تكون التجارة وسيلة للكسب والغنى أو سبيلاً للغش . إنما هي خدمة للناس ومعاش كريم لصاحبها ، وعندما نقراً أن رسول الله ﷺ كان يعمل في التجارة قبل البعثة فهذا كان أسلوبه فيها فتجارته في بيته ونوعها معروف وسعرها معروف وضمير صاحبها لا شك فيه ؛ فلا يضيع الوقت في المساومة والمماطلة إنما هي سبيل كريم للعيش وخدمة للناس ، وكان سعيد بن المسيب يستفتى ضميره في كل رأى يقوله فعندما طلب إليه هشام بن إسماعيل وإلى المدينة أن يبايع لولدى عبد الملك بن مروان توقف ؛ لأن البيعة لا تكون صفقة يفرضها ولى الأمر على الناس إنما تكون شورى بين المسلمين ، ومن أين يعلم سعيد بن المسيب أن الوليد بن عبد الملك وأخاه سليمان يصلحان لولاية أمور المسلمين وقد ضربه الوالى سبعين سوطاً لكى يبايع فلم يفعل ولم يكن يحفل للخليفة لأنه - أساساً - كان يرفض الخلافة الأموية ويرى أنها ولاية غصب ومال خلفائها حرام وأخذه حرام أيضاً ، وكان الخليفة الأموى يتصور أنه يشتري ضمائر الناس بما يعطيهم من العطاء أى الرواتب فاستغنى سعيد عن ذلك ، في نفس الوقت كان سعيد رجلاً حر الفكر واسع الأفق عميق النظرة لا يحكم إلا بالصالح وما فيه المنفعة أتاه عبد الرحمن بن حرمة وقال : وجدت رجلاً سكراناً أفترانى يسعنى ألا أرفعه إلى السلطان ؟ أى هل يجوز لى ألا أبلغ عنه رجال الدولة ؟ فقال له سعيد : إن استطعت أن تستره بثوبك فافعل ولم يكن ذلك من سعيد ترخصاً في جسامه خطيئة شرب الخمر ولكنه كان يرى أن السلطان ورجاله ليسوا أهلاً لعقاب الناس على شرب الخمر ؛ لأنهم هم أنفسهم يشربونها بل غارقون فيها ، فإذا جاءت الخلفاء وولاتهم شكوى في أمر رجل يشرب الخمر انتهزوها فرصة ليستروا مخازينهم ويتشددوا في عقاب الرجل حتى يقال : إنهم متشددون في أمور الدين أما الذى يجوز له أن يحقق أمر اتهام الناس بشرب الخمر فهم العلماء الصادقون الذين يتحرون الحق ويراعون الله ولا يراءون الناس .

وهذا الموقف من سعيد بن المسيب - وهو أيضاً موقف أهل جيله من بناء علم الفقه يضع يدنا على قاعدة سليمة جداً وضعها أولئك الناس وحافظوا عليها وأورثوها من بعدهم من أجيال الفقهاء وهو أن التشريع لا ينبغي أن تتولاه الدولة ورجالها ؛ لأنهم أهل سياسة وأهواء ومصالح فهم يبيحون ويحرمون بحسب مصالحهم ويحللون ويحرمون بحسب أهوائهم ، وقد رفض الفقهاء رفضاً باتاً أن يسمحوا للدولة بأن تشرع بل رفضوا أن يكون للدولة فضل في تعليم الفقهاء وتربية القضاة ، فلم يطلبوا من الدولة أبداً أن تنشئ معاهد يتعلم فيها الصبيان ثم يواصل الموهوبون منهم الدراسة على نفقة الدولة حتى يكونوا فقهاء وقضاة ؛ لأن الدولة إذا تولت هذا الأمر وضعت قواعد تكوين الفقهاء والعلماء والقضاة على هواها ، لهذا فضلت الأجيال الأولى من أهل العلم أن يكون المسجد هو المدرسة وهو المحكمة ؛ لأن المسجد هو بيت الله وبيت الأمة في نفس الوقت ، ورفضوا كذلك أن يكونوا موظفين في الدولة أو تكون لهم رواتب لأن الراتب يكون أول الأمر معاشاً ثم يصبح قيداً على ضمير صاحبه ، والأمة هي التي تعلم أبنائها وتقوم بأمر طلاب العلم في الكتاتيب أولاً ثم في حلقات الشيوخ في المساجد حتى إذا اكتمل تكوينهم وثبت علمهم أخذت الدولة منهم القضاة ، ومعظم كبار القضاة كانوا يرفضون القضاء ؛ لأنهم كانوا يأبون على أنفسهم أن تتكرم الدولة عليهم بالاختيار للوظيفة فإذا كان لا بد من أن يتولى بعضهم القضاء فليكن ذلك بلا راتب ، هؤلاء الناس لم تكن لقمة العيش تحيرهم ؛ لأن الأرزاق بيد الله لا بيد الحكام ولم يكونوا كذلك متبطلين يعيشون عالة على الناس إنما هم كانوا يأخذون أتعاباً متواضعة من التلاميذ وطلاب العلم ومن كتابة العقود وهي الوثائق وقسم المواريث وهي الفرائض .

ومالك بن أنس قال ذات مرة لواحد من تلاميذه : لا تطلب المال يطلبك المال ، وارفح همتك عن الخلق يرفعك خالق الخلق ، وإذا لم يكن لك من مالك الحلال ما يغنيك عما بأيدي الناس فلتكن لك حرفة تعيش منها ، واعلم أنك إذا أذلت نفسك للمال مرة أذلتها له عمرك كله وضاع علمك كله سدى .

وقد اقترح ابن المقفع في رسالة الصحابة على الخليفة أن يجمع جمعاً من العلماء يضعون شريعاً مقنناً يتبعه القضاة جميعاً فرفض الفقهاء ذلك ؛ لأنهم لم يوافقوا قط على أن يتركوا أمر التشريع للدولة . بل رفضوا كذلك أن يتركوا للدولة أمر تنفيذ الأحكام إلا أن يكون ذلك تحت رقابة الفقيه القاضى ، وإذا كان لا بد من أن يستعين القاضى في

تنفيذ أحكامه فليكن هو الذى يختار أعوانه وأعوان القاضى الذين يقومون بتنفيذ أحكامه يكونون فى هذه الحالة رجال القاضى وإن كانت الدولة هى التى تعطىهم رواتبهم ..

ومنذ البداية قال أهل العلم : إن أمور الدنيا والدين واحدة وإن الذى يقضى فى أمور الدين هو نفسه الذى يقضى فى شئون الدنيا ، فليس هناك نظام للعبادات ونظام للمعاملات لأن الصلاة مثلاً ليست مجرد عبادة بل هى أخلاق ومصدر أخلاق فهى تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، وأمور الدنيا والدين كلها يحكمها القرآن وسنة رسول الله لأن القرآن يقرر المبدأ ورسول الله يطبقه ، ولهذا فإن القرآن والسنة هما العلم وحفظهما والإحاطة بهما تخرج العالم أى الذى يعلم الأصول . أما استخراج الأحكام من القرآن والسنة معاً فيحتاج إلى قدرة على الاستنباط والاستخراج السليم وهذا هو الفقه أى الفهم الصحيح للقرآن والسنة والقدرة على استخراج الأحكام منهما معاً والحكم الذى يستخرجه الفقيه يسمى الرأى . ومن الممكن أن يكون الرأى خاطئاً ولكن الفقه وهو طريقة استخراج الرأى لا بد أن يكون سليماً ، وأسس السلامة هى خلوص النية وصحة الإيمان وسلامة النفس والعلم الكامل بالقرآن والسنة ، والذكاء الذى يمكن الإنسان من استخلاص الدقائق ثم البعد عن الهوى فلا يكون لميل الإنسان الشخصى أو لمصلحته أى دخل فى رأيه . فإذا اجتمعت للرجل صفات العلم والفقه مع الخلق السليم المتين وصدرت عنه الآراء الكثيرة السليمة القائمة على الفقه الصحيح أصبحت مجموعة آرائه وطريقته فى استخراج هذه الآراء مذهباً يمكنك أن تتبعه دون أن يكون ذلك ملزماً لك ، فأنت ملزم بما يطمئن إليه قلبك ويرضاه ضميرك وتحس أنه يتفق مع ما جاء فى القرآن والسنة ، والفقيه المحدث مجاهد قال : إن موهبة استخراج الآراء الفقهية السليمة هى الحكمة التى يؤتيها الله من يشاء ..

والطريق الذى سار فيه أولئك الرجال فى بناء صرح الفقه الإسلامى وما تجشموه من الصعاب فى وضعه وضعاً سليماً على قاعدة متينة من القرآن والسنة طريق شاقة كلفتهم الزهد فى الدنيا وما فيها ووضع حياتهم كلها فى خدمة الأمة فلا المال أغراهم ولا الوظائف اجتذبتهم ولا السلطان أخضعهم ، وفى النهاية أرغموا الدولة على الخضوع لسلطان العلم والفقه ، وإذا لم يستطع أولئك الفقهاء إرغام الدولة على اتباع منهج الإسلام فى اختيار الحكام فقد رفضوا النظام القائم للدولة وطريقة أصحاب السلطان فى

الوصول إليه ، وهنا وقع الانفصال الحاسم النهائي بين الدولة والأمة ، فمضى أصحاب الدول في سياستهم كيف شاءوا ، وسارت (أى الأمة) في طريقها ملتزمة القرآن والسنة وما وضعه وارتضاه أهل العلم والفقه في استخراج الأحكام ، من هنا نفهم كيف أن مالك ابن أنس كان يلقب بأمر المؤمنين في الحديث أى رئيس الأمة فيما يتصل بالقواعد الشرعية التى ينبغى أن تسير عليها أمور الأمة ، ولأصحاب الدول ورجال السياسة أن يسلكوا ما شاءوا من الطرق ، ولكن الأمة لا تلتزم حيالهم إلا بأمرين : الطاعة الظاهرة إذ لا معنى لأن تظل الأمة دائماً في فتنة بين الحاكم والمحكوم ، وما دام الحاكم لا يلزم الناس بأحكامه فهو حر في السلوك الذى يتبعه وحسابه على الله ، والأمر الثانى : هو أداء المال أى الضرائب ، وما دام الحكام قد استحلوا لأنفسهم أن يستخرجوا من الناس أموالاً لا يقرها الشرع ثم يتفقوها في غير صالح الأمة . فالأمة أيضاً لها الحق في التهرب من أداء المال الذى تعتقد أنه حرام ، فإذا قام في الأمة حاكم ظالم وفرض على النخلة الواحدة ضريبة سنوية قدرها درهمان بدل درهم واحد فإن دافع الضرائب له الحق في أن يقرر أن نصف نخلاته قد احترقت فلا يدفع إلا عن النصف : وعدوان الدولة على الناس علّم الناس أيضاً العدوان على أحكام الدولة الظالمة : لأن المواطن غير مسئول إلا عن التشريع الذى يقره حكامه الحقيقيون وهم الفقهاء .

وفي النهاية سلمت السلطة الحاكمة بأن القوة الحقيقية ينبغى أن تكون للعلم والفقه والخليفة المهدى - ثالث خلفاء بنى العباس - عندما أحس بأن الأمة لا تسلم بشرعية دولته أعلن أن دولته دولة السنة والجماعة وأنها خادمة السنة والجماعة وسواء أكان المهدى صادقاً في ذلك أم غير صادق . فإن إعلانه هذا كان نصراً حاسماً للإسلام وشرعه وفقهائه ، وقد حكم الخليفة المهدى (محمد بن عبد الله المنصور) ما يزيد على عشر سنوات (١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٥ - ٧٨٥ م) تعتبر حاسمة في تاريخ الدولة العباسية لا في تاريخ أمة الإسلام ، ففي العصر الأموى كانت السياسة توجه الدولة وكان معاوية لا يستحى أن يقتحم ما حرم الله كما فعل عندما فرض ابنه يزيد على الناس وهو يعلم أنه لا يصلح لولاية أمور المسلمين . بل كان الخليفة المنصور العباسى لا يتورع عن جرم إذا رأى أن صالح دولته يقتضى ذلك فجاء المهدى وأعلن أنه لا يعمل إلا بما فيه صالح الأمة ، فرضيت عنه الأمة وأصبحت الدولة العباسية - من الناحية النظرية على الأقل - دولة السنة والجماعة ، أى خادمة الأمة وعندما تولى هارون الرشيد

كتب إلى واليه هرثمة بن أعين بأن يستشير في كل أموره أولى الفقه في دين الله وأولى العلم في دين الله ومعنى هذا أن الشريعة أصبحت فوق الدولة ، وأن الدولة بكل ما فيها خادمة الشرع ، وهذا من أكبر الانتصارات التي حققتها الحضارة الإسلامية ، وقد وصل فقهاء المسلمين إلى هذا النصر بالإخلاص والصدق والتزام المنهج العلمي السليم مع الدقة والضبط واعتبار خلق العالم أساساً لكفايته العلمية أو شرطاً للثقة فيه ، فقد كان البخاري يرحل ألف ميل ليأخذ حديثاً عن رجل ، فإذا جالسه ورأى من تصرفه ما يريبه في علمه ترك حديثه جملة .

وقد قرر أولئك العلماء مبدأً ثانياً يعتبر من مفاخر الفكر التشريعي الإسلامي وهو أن كل رأى أو حكم يصدر على أساس من القرآن والسنة لا بد أن يكون فيه - تلقائياً - صالح الناس لأن الله سبحانه أعلم بعباده وأراف بهم من أن يشق عليهم ، ومن هنا فإن المشرع ينظر إلى صالح الناس ويرى ما فيه صالحهم ، وما فيه صالحهم لا بد أن يوافق ما في القرآن فإذا بدا للفقيه رأيان : واحد يسهل على الناس الأخذ به . والثاني يشق عليهم فليأخذ بما يسهل على الناس وهو واثق من أن ذلك يتفق مع ما يريد الله سبحانه ، ومن هنا جاء مبدأ الاستصلاح وهو أن الفقيه يقضى بما يستصلحه للناس أى ما يراه صالحاً لهم ما دام يعتمد أساساً على القرآن والسنة .

وقرر أولئك الفقهاء كذلك مبدأ علة الشرع أو منطقته ، فبينما يحفل القانون الرومانى بالأحكام التى لا يقيدها المنطق نجد أن كل أحكام الشريعة تتفق مع المنطق ، وما يغيب عن منطق اليوم يتجلى وجه المنطق فيه فيما بعد ، فقد كان ناس منا لا يرون منطقاً في تحريم لحم الخنزير فجاءت بينات العلم في أيامنا هذه فأثبتت حكمة الشارع في ذلك ، وأهل الغرب الذين كانوا يتعجبون بالأمس من تحريم الخمر أصبحوا اليوم يرون تحريمها ، وقد تبين من رذائلها فوق كل ما كان المسلمون يعرفونه فقد كنا نحن نقول إنها تذهب العقل ، فهاهم أولاء اليوم يقولون : إنها تذهب العقل والكبد والكلى وكل شىء في كيان الإنسان .

ومن زمان بعيد جداً قرر الفقهاء - على درجات متفاوتة بينهم - مبدأ الإجماع والمراد هنا إجماع الأمة على رأى من الآراء ؛ لأن رسول الله ﷺ قال : إن الأمة لا تجتمع

على ضلالة . وقد زعم بعض المستشرقين أن الشرع الإسلامى أخذ هنا أشياء من القانون الرومانى ، وليس هذا بصحيح فما عرف فقهاؤنا الأولون القانون الرومانى ولا سمعوا به ، إنما هم وجدوا أهل البلاد التى دخلت الإسلام تجرى بعض عاداتها بأشياء منطقية لا تتنافى مع أمر من أوامر الإسلام أو نهى من نواهيه فتركوها على حالها ما دامت لا تضر فرداً أو جماعة أو تجرح حشمة . نقول تركوها ولكنهم لم يقروها أو يجعلوا لها تبريراً ومع الزمن يقضى عليها الإسلام إذا لم تعد لها فائدة فى مجتمع إسلامى .

وقد تحرر فقهاء المسلمين أشد التحرز فى تطبيق مبدأ القياس حتى رفضه بعضهم رفضاً تاماً كما نرى عند ابن حزم . وهم محقون فى ذلك على مذهبهم فى التحرز ؛ لأن القياس يسهل اتخاذ ذريعة لتحقيق مآرب أصحاب المصالح ولكن الإمام مالكا عندما قبل مبدأ القياس وضع له من الضوابط ما يجعله أساساً مأموناً من أسس التشريع وقد تبعه بقية الفقهاء فى ذلك عدا أهل الظاهر .

وهنا - فى باب الفقه - نجد أن الفقهاء ساروا فى اتجاه يخالف كل المخالفة طريق المتكلمين ، وقد احترمو الناس ونزلوا إلى دنياهم ونظروا فى مصالحهم واحترموا اهتماماتهم .

* * *

الْإِسْلَامُ دِينٌ وَأُمَّةٌ

من أكبر العيوب التي تشوب كتابات الكثيرين ممن يتعرضون للتأليف في الفقه الإسلامي أن عملهم كله - رغم سعته - قائم على معرفتهم بالإسلام والمسلمين ، والتاريخ عندهم هو تاريخ أمة الإسلام وما عدا ذلك فهم يعرفون عنه القليل ، ومن ثم فهم لا يستطيعون تقدير مكان الفقه الإسلامي قدره الصحيح في الحضارة الإنسانية لأننا لو عرفنا تجارب الأمم غيرنا لزاد فهمنا لتجربتنا ، ولو درسنا الشرائع الأخرى غير الإسلامية لتبين لنا من فضائل شريعة الإسلام وفقهه أضعاف ما نتصور أننا نعرفه وسأضرب لك هنا مثلاً واحداً يغنى عن كثير ، فقد أهدانى الصديق العالم الدكتور عبد الصبور مرزوق كتاباً في الفقه الإسلامي من تأليف الدكتور عباس حسنى أحمد ، والكتاب جيد جداً ، وقد انتفعت به أكبر النفع ولكنى أقرأ فيه العبارة التالية : « هذا ، وما ينبغى التنبيه إليه أن الشريعة الإسلامية ليست كهنوتاً محصوراً في فئة قليلة من رجال الدين ، فلا يوجد في الإسلام رجل دين ، وإنما المسلمون جميعاً رجال دين ودنيا ، وطلب العلم فرض على كل مسلم ومسلمة بنص الحديث . فالناس ثلاثة : عالم ومتعلم وهمج رعاع » (ص ٤٨) ، ومعظم ما في هذه العبارة صحيح ولكنك تقف طويلاً عند قوله : إن الناس ثلاثة : عالم ومتعلم وهمج رعاع .. فمن أين أتى هذا العلامة بأن الناس ينقسمون إلى ثلاث طوائف متحاجة متميزة : علماء ومتعلمين وهمج رعاع ؟ ومن هم همج الرعاع ؟ ولماذا يصير بعض أهل العلم عندنا على أن هناك في المجتمع الإسلامي طائفة تسمى بالهمج الرعاع ؟ وهل وجدوا في القرآن الكريم ما يوحى بأن من عباده ناساً منبوذين لأنهم همج رعاع ؟ وهل اعتبر رسول الله ﷺ نفراً من معاصريه همجاً رعاعاً ؟ ثم ألم يكن كبار أعداء الإسلام يقولون : الذين دخلوا في دعوة رسول الله ﷺ همج رعاع ؟ ألم يقولوا إن بلال بن رباح ، وخباب بن الأرت ، وعمار بن ياسر همج رعاع وأنهم سادات قريش - لا يليق بهم أن يجالسوا هؤلاء الهمج الرعاع ؟ ألم تكن من بين الصحابييات اللاتي كان رسول الله ﷺ يكرمهن ويقربهن جارية تسمى زينة ، كان أبو جهل يرى أنها من أخط الهمج الرعاع وهى عند الله أفضل منه ؟ ثم ألم يعلم صديقنا العلامة أن من أكبر عيوب المجتمع الرومانى التي هدت كيانه آخر الأمر أن سادات الرومان كانوا يرون أنهم طبقة متميزة لها حق الحكم والسيادة هى طبقة الباتريسي

Patricii والفرسان Equesrri ولا يجوز لهم الاختلاط بمن كانوا يسمونهم الهمج الرعاع أو الـ Plebei . ثم ألا يذكر أنه كان من أكبر أسباب الثورة الفرنسية أن المجتمع الفرنسي في عصر الملوك قبل الثورة كان يقسم الناس إلى ثلاث طبقات : الملوك ومعهم الأشراف ثم كبار رجال الدين ثم أهل الطبقة الثالثة أو ما يسمى باسم Tiars Etak وأن بداية الثورة كانت عندما أصر رجال مجلس الأمة بأن تزال الفوارق فلا يكون هناك همج رعاع منبوذون يجلسون في قاعة وحدهم ولا يجوز أن يجالسوا رؤساء الناس من الأشراف ورجال الكنيسة ، وعندما سقط الحجاب الحاجز بين طبقات الشعب دخلت فرنسا وأوروبا بعدها في عصر النهضة العظيم .

ثم ألم يقرأ تواريخ علماء هذه الأمة من أيام الصحابة والتابعين وتابعيهم وقادة الفكر في هذه الأمة ليرى أن عددًا عظيمًا ممن شادوا مجد هذه الأمة خرجوا من أولئك الذين يسميهم الهمج الرعاع من أبناء الطحانين القفاصين الدباغين والضرابين الذين يصنعون الطوب من الطين وباعة الماء في المساجد والنجارين والخدم والموالي والرقيق والعتقاء .

فما معنى هذا الترفع والقول بأن من بين أبناء الأمة همجاً رعاعاً ، وإذا كان هناك همج رعاع أقليل من واجب الذين يرون أنفسهم علماء ومتعلمين أن يعملوا على ألا تكون هناك جماعات منبوذة مستبعدة توصف بأنها همج رعاع ؟ وهل كان لا بد أن ننتظر حتى يعلمنا أهل الغرب أنه لا ينبغي أن يحرم من العلم أحد يستحقه ويطلبه ، وأن من واجب الدولة - أي الجماعة - أن تفتح أبواب العلم للراغبين فيه المؤهلين لطلبه بل إن عليها أن توقع العقوبة على من يقصر في تعليم أولاده ؛ لأن هذا التقصير في ذاته مضر بالامة ؟

ومما يستوقف النظر في ذلك الكتاب القيم تفسيره لقول الله سبحانه وتعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ (النساء ٣٤ / ٤) . بأن الرجال عموماً أعلى درجة من النساء عموماً ، لأن الرجال يُحكّمون العقل أما النساء فتغلب عليهن العاطفة وأنا في هذه الدراسة لا أعتمد على النصوص بقدر ما أعتمد على الواقع التاريخي ، والواقع التاريخي يقول إنه لا فارق في العقل أو الذكاء أو الدين أو الانسياق مع العاطفة بين الرجال عامة والنساء عامة .

وأنا أنظر في سيرة رسول الله ﷺ فلا أجد من قوله وفعله أنه يرى الرجال عامة أعقل من النساء عامة ، ثم يقولون لك إن رسول الله ﷺ قال : إن النساء ناقصات عقل ودين ، ولا أجد من سيرة النبي ﷺ ما يدل على ذلك ، وكيف يقول الرسول إن النساء ناقصات عقل ودين ، وخديجة أم المؤمنين آمنت به وثبتت فؤاده حتى قبل أن يطمئن هو إلى حقيقة ما يسمع ويحس ؟ ولم يكن إيمانها به عاطفة بل عقلاً ، فهي لم تقل له إنني واثقة من أن الذي يأتيك خير لأنني زوجتك وأحبك ، بل قالت : كلا والله ، ما يخزيك الله أبداً . وإنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق .. وهذا كله كلام عقل ومنطق وحكمة ثم أشارت عليه بعد ذلك بالرأى السليم وهو أن تسأل في الأمر ابن عمها ورقة بن نوفل ؛ لأنه يقرأ الكتب المقدسة ويفهم في تلك الأمور ، ثم إنني أنظر فأرى أن رسول الله ﷺ كان يستشير زوجته أم المؤمنين أم سلمة فتشير عليه بالرأى فيأخذ به ، وأراه يثق في عقل عائشة أم المؤمنين ودينها ويأمرنا بأن نأخذ العلم بالدين من عائشة رضي الله عنها وأجده يثنى على أم عمارة الأنصارية ، ويثنى على أسماء بنت عميس الخثعمية وغيرهن كثير ، وأماكم الجزء الثامن من طبقات ابن سعد عن الصحابييات والتابعيات فتجد من إيمانهن وعقلهن وحسن صوابهن ما لا يقل عن الرجال ، وحتى لو ذهبنا مذهب من يقولون إن رسول الله قال : إن النساء ناقصات عقل ودين فهل قال الرسول ﷺ إن الرجال كوامل عقلاً وديناً ؟

إنما هي مذاهب ذهبوا إليها وتداولوها دون تدبر وثبتوا عليها وعطلوا بها الإفادة من ملكات النساء وهن نصف الأمة ، وهذا الذي أقوله لا يتنافى مع ضرورة التزام المرأة للسمت والحشمة وعدم إبداء الزينة فهذا أساسى وهو في ذاته دليل على حمق الرجل وعدم سيطرته على غرائزه . فالمرأة إذ تحتشم وتقتصر في الخروج والضرب في الطرقات إنما تحمي نفسها من الرجل فصيانه المرأة لنفسها تكريم لذاتها وليست بحال دليلاً على أنها ضعيفة العقل أو أكثر من الرجل تعرضاً للفتنة والخطيئة ، ولو أحصينا ما أصاب البشرية من أخطاء الرجال ورذائلهم لزادت أضعافاً على ما أصاب الدنيا من أخطاء النساء وإنما هبط مستوى المرأة عندنا ؛ لأننا فرضنا عليها تصورنا الرجال لنظام المجتمع وابتذلنا المرأة وعدونا عليها وغسلنا مخها حتى أصبحت المسكينة ترى نفسها فعلاً أدنى من الرجل .

ومن سخريّة القدر بالذين يستطردون مع الخط من شأن المرأة أن التي غلبت رجالنا وأتمت إخراج بقاينا من الأندلس كانت امرأة آمنت بدينها أكثر مما آمن رجالنا بدينهم ، وفي عالمنا الراهن نساء يحكمن شعوبهن بأعقل وأحزم مما يحكم الرجال .

وهذا الكلام أقوله لأننى أجد أن هناك في تفكيرنا قضايا مُسلّمت كان ينبغي أن نعيد النظر فيها لكي نسير في أمرنا دائماً على عقل وبصيرة لأن الشريعة سمحة واضحة الحكمة ، والذين استخرجوا لنا أحكام الشريعة من القرآن والسنة كانوا رجالاً عظماء حقاً ، عرفوا كيف يضعون كل شيء مكانه فهم لم يحقروا المرأة أو أساءوا الظن بها دون أن يخالفوا أمراً من أوامر الله ، وإذا كانوا قد أعطوا المرأة نصف الرجل في الميراث فذلك أمر من أوامر الله وأوامر الله لا تناقش ، ثم إنه قسم أموال ومواريث قررها الخالق سبحانه وتعالى لحكم اجتماعية واقتصادية هو أعلم بها سبحانه وهو أمر لا ينطوى على أى اتهام لعقل المرأة أو كفايتها ، وأنا في هذا كله أسير على هدى القرآن وسنة المصطفى صلوات الله عليه .

ونحن الآن نتحدث عن فقهاء الإسلام وما بذلوه من جهد في صياغة أحكام الشريعة صياغة عمل وتطبيق ، فأجد في أولئك الرجال البناة الحقيقيين لمجتمع الإسلام فقد اجتهدوا في صيانة الحقوق والنفوس وأظهروا ذكاء بعيداً في فهم آيات القرآن ، ووضعوا أسساً علمية باللغة الدقة في بناء صرح علم الحديث ، وانظر مثلاً إلى ما تميز به السفينانيان الثوري وابن عيينة من العقل والدقة والإخلاص والعمل الدءوب الصادق في بناء قاعدة الشريعة دون خوف من حاكم ، وتحضرني هنا الحكاية التي يرويها ابن خلكان عن مروج الذهب للمسعودي في كلامه عن سفيان الثوري وهو عربي أصيل من بنى عبد مناة بن كنانة : قال القعقاع بن حكيم : كنت عند المهدي (الخليفة العباسي الثالث) وأتى سفيان الثوري فلما دخل عليه سلم تسليم العامة ، ولم يسلم بالخلافة (أى أنه سلم السلام الذي يحيى به كل الناس) والربيع (بن يونس الوزير) قائم على رأسه متكئاً على سيفه يرقب أمره ، فأقبل عليه المهدي (الخليفة) بوجه طلق وقال له سفيان : تفر منا ها هنا وها هنا وتظن أننا لو أردناك بسوء لم نقدر عليك فقد قدرنا عليك الآن ، أفما تخشى أن نحكم فيك بهواناً ؟ قال سفيان : إن تحكمت في حكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل ، قال له الربيع : يا أمير المؤمنين : ألهذا الجاهل أن

يستقبلك بمثل هذا ؟ إئذن لى أن أضرب عنقه فقال المهدي : أسكت ويلك هل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى بسعادتهم اكتبوا عهده على قضاء الكوفة على ألا يعترض عليه فى حكم . فكتب عهده ودفع إليه فأخذه وخرج فرمى به فى دجلة ، هرب فطلب فى كل بلد فلم يوجد ولما امتنع عن قضاء الكوفة وتولاه شريك بن عبد الله النخعى قال الشاعر :

تحرز سفيان وفر بدينه وأمسى شريك مرصداً للدرهم

(ابن خلكان ٢ / ١٢٧ - ١٢٨)

فأنت ترى هنا أن الوزير الربيع بن يونس يصف سفيان الثورى بأنه جاهل ، وسفيان كان من أعلم أهل زمانه وهذه ملاحظة أهديها للذين يقسمون أمة الإسلام إلى علماء ومتعلمين وجهلة ورعاع وأقول : من أين أتيتم بهذا التقسيم ؟ وهل أضرب بأمتنا شيء مثل ترفعنا بعضنا على بعض ، واتهامنا بعضنا بالجهل وعدم ثقة بعضنا فى بعض ، وكل ذلك أضرب بوحدة الأمة وأوجد فروقا خطيرة بين طبقاتها وخرجنا فى هذه الناحية عن نهج الإسلام .

ثم تأمل نكاه الخليفة المهدي الذى أدرك أنه إذا أقدم على قتل رجل مثل سفيان الثورى ؛ لأصبح سفيان شهيدا سعيدا بشهادته ولهم مقتله عرش بنى العباس كما هز دولة بنى أمية من أساسها مقتل الحسين رضى الله عنه ، فكان الحسين الشهيد أقوى من الحسين طالب الخلافة ، وانظر إلى سفيان الثورى وهو لا يعترف بخلافة المهدي فهو يسلم عليه دون لقب الخلافة ، وعلى أكتاف رجال من أمثال فقهاء المدينة السبعة وسفيان الثورى وسفيان بن عيينة ومحمد بن سيرين والليث بن سعد وعبد الرحمن الأوزاعي والأئمة الأربعة وغيرهم كثيرون جدا قامت الدعائم الحقيقية لأمة الإسلام وقد كانوا يستطيعون أن يفعلوا أكثر مما فعلوا لولا الأثر السيئ الذى كان للسياسة وأهلها فى تطور هذه الأمة ، وأنا من أكثر الناس اعجابا بمالك بن أنس ولكنى أقول : أن مالكا أنكر شرعية الخلافة العباسية إنكارا ضمنيا أو مستورا فقال : ليس على مستكره طلاق . أى أن الذى يرغب على تطليق امرأته لا يصح طلاقه ، وهو يريد أن يقول : إنبيعة أبى العباس السفاح ، وأبى جعفر المنصور جاءت على طريق الإرغام والخوف فهىبيعة غير صحيحة وباطلة ، ولو أنه قال صراحة أنبيعة بنى العباس غير شرعية لقتلوه

ولكن مقتله كان سيزعزع بنيان دولة بنى العباس ويهدم بنيان الظلم ويحرك عواطف الأمة ويقيم الثورة على الطغيان ويعيد إلى الأمة حقوقها في أن تحكم نفسها حكماً شورياً عادلاً على النحو الذى ترضاه ، وهذا النحو يرضى عنه الله سبحانه وتعالى ؛ لأن الأمة لا تجمع على ضلالة ، ثم إن حكم الجماعة أيا كان أسلم من حكم الفرد وأقربه إلى العدل والأخلاق والصلاح وروح الإسلام ، ولكن مالكا لم يفعل ذلك وعاش ليتم بناء القاعدة القانونية لبناء الأمة على ما سنراه .

وقد كان أجكم أهل الفقه في النصف الثانى من القرن الهجرى الثانى - الثامن الميلادى ، هو الإمام جعفر الصادق فقد بلغ هذا الرجل من سعة العلم ودقة الفهم ما يجعله فعلاً من أعظم مفكرى الإسلام وفقهائهم ، فقد عاش في عصر اشتد تقاتل الناس فيه على الخلافة ، أما هو - وكان أولى أهل زمانه بخلافة المسلمين فقد رأى أن الخلافة الرشيدة لا يمكن أن تستقيم بغير أمة رشيدة ، لأن الصحيح هو أن ترشد الأمة أولاً فترشد الخلافة نتيجة لذلك ، والخلفاء الراشدون كانوا راشدين لأن الأمة في أيامهم كانت رشيدة ، أما وقد تقسمت الأمة في أواخر العصر الراشدى شيعاً وأحزاباً وحكم فيها دعى دخيل لا يعرف أحد من هو أو من أين أتى ؟ وهو أبو مسلم الخراسانى ، فلعب بالناس لعباً وتآمر مع صعلوك سياسى هو إبراهيم الإمام بن على بن عبد الله بن عباس وعبث بعقول العرب وضرب بعضهم ببعض وساق الإمامة إلى أبى العباس السفاح ، والسفاح خاض بحرًا من الدماء ليصل إلى الخلافة ، إذا كان هذا كله قد حدث فقد تلاشى الأمل في صلاح الدنيا ولم يبق إلا صلاح الدين ، وعلى الدين الصالح تقوم الأمة الصالحة والقيادة الرشيدة ، ولهذا فعندما وصلت الإمام جعفر الصادق رسالة من أبى سلمة الخلال مدبر أمر الثورة على بنى أمية (حتى كان يلقب بوزير آل محمد) قام فأحرق الرسالة علناً أمام الناس ليروا زهده في الخلافة وهو لم يزهد فيها ؛ لأنه كان يشعر أنه غير صالح لها ، بل لأنه كان واثقاً من أنه لا يستطيع أن يكون خليفة راشداً إذا كان وصوله إلى الخلافة يتم بمؤامرة دنيئة كتلك التى دبرها أبو مسلم بالكذب الخداع والدس بين الناس وإزهاق الأرواح . رفض الخلافة وفضل أن يظل عالماً ، وحسناً فعل وهو بموقفه هذا قرر حقيقة ستزداد مع الأيام تأكيداً ، وهى أن إمام الناس حقاً هو أعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله ، وأن الدولة التى يتبادلها الظلمة بعضهم مع بعض إنما هى عرض زائل .

ولكى أدلك على صلاح هذا الرجل وصدق فهمه للإسلام أشير إلى ما جرى من الحديث بينه وبين الفقيه عمرو بن عبيد ، وكان أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب متكلمًا زاهدًا فقيهاً (ت. حوالى ١٤٤ هـ) وكان صديقًا للإمام جعفر الصادق فسأله يومًا ما هى الكبائر ، واشترط عليه أن يكون حكمه على كل كبيرة قائمًا على بينة صريحة من القرآن الكريم ، فرد عليه الإمام جعفر ردًا بالغ الحكمة وحدد الكبائر كما يلي على الترتيب ، وقد أردف كل واحدة بالبينة القرآنية عليها مما لا يتسع المجال هنا لإيراده وهى : الشرك بالله ، والياس من رحمة الله وعقوق الوالدين وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وقذف المحصنات وأكل الربا والفرار يوم الزحف ، واليمين الغموس (أى التى يحلفها الرجل كاذبًا وهو يعرف أنه كاذب فيغمس نفسه فى النار) وشرب الخمر ، والغلول (إخفاء شئ من الغنيمة وانفراد الرجل به فلا يدخل فيما يقسم من الغنائم ، والمراد هنا سرقة مال الجماعة الإسلامية أى كان وهو خيانة للأمة .. يعدها جعفر الصادق كبيرة) وشهادة الزور ومنع الزكاة (لأنها حق المسلم غير القادر على أخيه القادر) وترك الصلاة ونقض العهد ، وقطيعة الرحم ، وإذا أنت تأملت هذه الجرائم التى يعدها الإسلام على مذهب جعفر الصادق كبائر وجدت فيها جماع قواعد صلاح أمر المسلمين كله ، فإذا صلح أمر المسلمين صلحت إمامتهم ، وإمامتهم لا تقوم إلا على الشورى ، أى تشاور بين الأمة التى أمرنا الله أن نختارها من بيننا لتدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فكان من نكد الدنيا أن الذى صنع للمسلمين خلافتهم العباسية هذا الأفاق المجهول الدخيل أبو مسلم الخراسانى الذى لا نعرف حتى حقيقة اسمه بالاشتراك مع وصولى سياسى مزور هو إبراهيم الملقب بالإمام بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، فكيف تصلح للناس هذه الإمامة وهذا حالها ؟ وكيف يقبل الإمامة جعفر الصادق من يد قوم من هذا الطراز ؟

وبمناسبة عمرو بن عبيد الذى ذكرناه نروى الخبر التالى الذى يذكره ابن خلكان فى ترجمته وهو خبر عظيم الدلالة على انفصال الأمة عن الدولة فى ذلك العصر ، فقد كان والد عمرو يخلف أصحاب الشرط بالبصرة (أى وكيلًا لصاحب الشرطة) فكان الناس إذا رأوا عمرًا مع أبيه قالوا : هذا خير الناس ابن شر الناس ، فيقول أبوه : صدقوا ! هذا إبراهيم وأنا « أزر » (وفيات ٣ / ١٣٠) فتأمل كيف كان الناس يرون رجال الشرطة - والمفروض أنهم رجال الأمن وحماة الأنفس والأموال شر الناس (لأنهم كانوا خدم

(الدولة) حتى والد عمرو أقرهم على ذلك ، وقال لهم إن عمراً ابنه هو إبراهيم عليه السلام نبي الله . وأما أبوه فهو آزر والد سيدنا إبراهيم وكان كافراً !

ومما يروع النفس في أمر التشريع الإسلامى الذى استخرجه الفقهاء الأول من الأصول الإسلامية الخالصة وهى القرآن والسنة ثم الإجماع والقياس أنها بنيت على أدق الأساليب العلمية التى عرفها أهل العلم فى الشرق والغرب على السواء إلى يومنا هذا وهى الدقة التامة والاعتماد فى العمل على المادة السليمة المصفاة أدق تصفية ومراعاة الضمير وصالح الناس وسلامة المجتمع والضمير فى القرآن الكريم يعبر عنه بالقلب فى كثير من الآيات فى مثل قوله تعالى فى سورة الشعراء فى دعاء إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَلَا تَخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿ (٢٦ / ٨٧ - ٨٩) وقال فى سورة البقرة : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ﴾ * ومن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثَمُ قَلْبُهُ ﴿ (٢ / ٢٨٣) وانظر إلى الدقة العلمية وخصوص النية والضمير التى اتباعها أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخارى (ت ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م) فى تأليف جامع الصحيح الذى يعتبره الفقهاء أصح كتاب بعد القرآن الكريم .

فقد تطوع هذا الرجل بجمع كل ما تيسر له من الحديث الصحيح المروى عن رسول الله ﷺ كل حديث بسنده حتى لا يدخل فى حديث رسول الله زيف ، فوضع لنفسه شروطاً بالغة الدقة والعسر ، منها أنه لا يأخذ الحديث إلا عن راوٍ أو رواه أنفسمهما بعدت بلادهم وإن كان للحديث الواحد أكثر من سلسلة إسناد أتى بسلاسل الإسناد كلها وإن اتفقت فى نص الحديث . أو اختلفت النصوص بعضها عن بعض فى كلمة أو حرف وكلف نفسه القيام برحلات طويلة فى بلاد الإسلام فإذا كان رواة الحديث الواحد عشرة متفرقين فى شتى الأمصار لم يتردد فى الذهاب إلى كل واحد منهم فى بلده لسماع الحديث منه والاستيثاق من سنده قبل أن يكتبه ولم يكن يثبت حديثاً إلا إذا استوثق من أمانة صاحبه وسلامة ضميره . وكثيراً ما رحل مئات الأميال ليسمع حديثاً من رجل ، ثم لم يطمئن إليه قلبه فتركه ، وفى هذا العمل المضنى أنفق ست عشرة سنة ، رحل فيها من بغداد إلى خراسان والجزيرة فى شمال العراق والشام ومصر والحجاز ، ثم جمع أحاديثه ورتبها أبواباً وراجعها مع العلماء حديثاً حديثاً ، وكان إلى جانب دقته وتقاه واسع الذكاء فقد اختبره العلماء ، بعد فراغه من صحيحه أعسر

الاختبار قبل أن يسلموا بسلامة ما أثبتته في كتابه ، وبلغ من تقدير الناس إياه أن الإمام مسلم صاحب الجامع الصحيح كان كلما دخل على البخارى قال : دعنى أقبل رجلك يا طيب الحديث ويا سيد المحدثين . وكان البخارى يحفظ في شبابه وقبل أن يقوم برحلاته سبعين ألف حديث ، فما زال يفحصها ويراجعها مع الرواة والعلماء حتى ترك معظمها ولم يثبت في صحيحه إلا نحو عشرين . وهذا مذهبه في التحرى والتدقيق وتكلف الضبط العلمى لم نسمع بمثله في أى ثقافة أخرى خارج نطاق الإسلام .

ولم يكن أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى صاحب الجامع الصحيح بأقل دقة أو أضعف منهجاً من البخارى ، فقد تجرد هو أيضاً لجمع الحديث وقضى عمره كله في جمعه على منهج علمى خاص به بيّنه في فاتحة صحيحة ، وكما فعل البخارى فقد جاب مسلم بلاد الشام في طلب الحديث وتدوينه وقد أفاد من عمل البخارى لأن زمانه تأخر عنه ، فقد عاش فيما بين سنتى ٢٠٦ و ٢٥٦ هـ (٨٢١ - ٨٧٠ م) وقد كان باراً بالبخارى وعندما تعرض البخارى لعداوة عدد كبير من الناس وقاطعوه كان مسلم من أوفى الناس لأستاذه وقد سمع مسلم عن أحمد بن حنبل ، ابن حنبل كان إماماً من أئمة الحديث إلى جانب ملكته الفقهية التشريعية العظيمة . وسمع أيضاً عن إسحاق بن راهوية ويحيى بن يحيى النيسابورى وهؤلاء جميعاً من أبناء مدرسة الحديث الكبرى التى لم تكتف بالجمع والتدوين . بل تطرقت إلى المقارنة والاهتمام بالمتن أبلغ اهتمام .

وهذان الشيخان الجليلان يعتبران على رأس قائمة واضعى المنهج العلمى في تاريخ الحضارة الإنسانية ، فلم يسبق أن وضع رجل من أهل العلم مثل هذا المعيار الدقيق للعمل العلمى .

ومن عجب أننا نحن المسلمين - نتعلم المنهج والدقة والضبط من علماء أهل الغرب وننسى أن مقاييس العلم الصحيحة كلها وضعها أسلافنا ، وكان علينا أن نسير على خطاهم لتظل لنا صدارة العلم في الدنيا ، ولكننا هنا - على عهدنا في كل أمورنا - نضيع الكنوز التى بين أيدينا تضييع السفية الذى ينفق ما تركه له أبوه ثم يمضى بقية عمره يتسول ويتكفف الناس .

وهذا مثل مما كان عليه أهل العلم من أجدادنا في الضبط والدقة والصبر وإليك

مثلاً آخر مما كانوا عليه في دقة العمل وضبطه فجمعوا بين الدقة والضبط والصبر في العلم والعمل ، والمثل آتيك به من سيرة عمر رضى الله عنه فقد كتب إلى سعد بن أبى وقاص وهو في طريقه إلى القادسية يقول : أما بعد ، فتعاهد قلبك ، وجادث جندك بالموعظة والنية الحسنة . ومن غفل فليحدثهما .. والصبر ! الصبر ! فإن المعونة تأتي من الله على قدر النية . والأجر على قدر الحسنة . والحذر الحذر على ما أنت عليه وما أنت بسبيله واسألوا الله العافية وأكثروا من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله : واكتب إلى أين بلغ جمعهم . ومن رأسهم الذى يلى مصادمتكم فقد منعنى من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمى بما هجمتم عليه ، والذى استقر عليه أمر عدوكم . فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفه كأتى أنظر إليه .

واجعلنى من أمركم على الجلية . وخف الله وارجعه ولا تدل بشيء (لا تفتر بشيء) واعلم أن الله وعدكم وتوكل بهذا الأمر ما لا خلف له . فاحذر أن تصرفه عنك فيستبدل بكم غيركم ..

فانظر إلى دقة عمر رضى الله عنه ، وحسن فهمه للأمور فهو يطالب قائده بأن يصف له موقعه ومواقع الأعداء وصفاً يجعله كأنه ينظر إليها .. وانظر إلى صدق معرفته بالإسلام ومنهجه فهو يقول لسعد : إن الله وعد هذه الأمة النصر وتكفل لها بذلك ما دامت تسير في الطريق السليم فإذا خرجت عنه انصرف عنها واستبدل بها غيرها.

والعلماء الذين ضربت لك مثلاً من التزامهم المنهج رسموا للأمة طريق العلم ، ورسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وضعوا لها أساس العمل . فأما أهل السياسة فقد انحرفوا عن المنهج انحرفاً بالغاً فانصرف الله عنهم وضاعوا ، وأما بقية الأمة فقد لزمّت المنهج وسارت في الطريق النبوى العمرى وعلى رأسها العلماء والفقهاء فحفظها الله ؛ لأن الإسلام دين وأمة ، لأن الدين باقى والأمة باقية ، وأما الدولة فقد دالت وذهبت بها رياح الزمان مرة بعد أخرى .

الطَّرِيقُ إِلَى الْمُوَطَّأِ

لا بد لي — بين يدي هذا الحديث — أن أقرر أنني لن أتطرق إلى الحديث في الفقه في هذه الفصول ، فلست من أهل الفقه ، ولن يبلغ بي الجهل أن أدخل فيما ليس من شأني وأقتحم على أهل الفقه ميدانهم ، فلكل رجل منا مكانه وحدوده ، ولا يجمل بالرجل الذي يصون نفسه عن الخطأ أن يتعدى حدوده ، ويتطاول إلى ما لا يحسنه . إنما أنا مؤرخ ألتزم حدود علمي في كل ما أكتب ، وكيف آذن لنفسي في ذلك وفي الأمة والحمد لله من أجلاء أهل الفقه والدين والعلم والتصاون من يزهو بهم عصرنا ، ويصان بهم ديننا ، وكيف يسوغ لي أن أتكلم في الفقه ومن حولي شيوخ أعظم من طبقة جاد الحق على جاد الحق ومحمد متولى الشعراوى وأحمد حسن الباقورى والسعدى فرهود ومحمد الطيب النجار وعبد العزيز عيسى وعبد الجليل عيسى وزكريا البرى وعبد المنعم النمر وأضرابهم وأهل طبقتهم ممن تخونني ذاكرتي الآن عن ذكرهم ، وهذا في مصر وحدها ، فما بالك بمن تضمه بقية بلاد الإسلام من جلة العلماء .

ولا يفوتني أبداً وأنا أكتب هنا أنني أعيش في عصر نهضة ثقافية كبرى ، دعا إليها وأقامها رجال من أمثال محمد عبده وجمال الدين الأفغانى ورشيد رضا وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد بن عبد الوهاب وعبد الحميد بن باديس وعلال الفاسى ومحمد بن على السنوسى وحسن البنا وسيد قطب وعبد الأعلى المودودى وسليمان الندوى ومالك بن نبي وعلى عبد الرازق ومصطفى عبد الرازق ومصطفى المراغى ومحمود شلتوت ومحمد أبو زهرة وعبد الحليم محمود وإبراهيم الوزير والشيخ الباز والشيخ المحمودى وغيرهم وغيرهم ، ومعدرة إذا كنت قد خلطت في الترتيب فالحق أننا لا نملك دليلاً بالتواريخ الخاصة بعصرنا ؛ لأننا قصرنا فيما حرص عليه أسلافنا من التأليف في الرجال مع أننا اليوم في أشد الحاجة إلى ذلك ؛ لأن عصرنا كما قلت عصر نهضة فكرية فقهية إسلامية كبرى جديدة بأن يؤرخ لها ، ولابد أن تؤلف في أهلها كتب طبقات .

وإنما عملي هنا هو عمل المؤرخ أى إضافة البعد الزمنى إلى عملية بناء الفقه الإسلامى الجلية لأننا — مثلاً — نؤلف الكثير عن مالك بن أنس ونعظم قدره ونمجد عمله العلمى العظيم ولكننا لا نتنبه إلى الطريق الطويل الذى قطعه مالك ليستطيع أن يبنى

مذهبه العظيم . فابن خلكان مثلاً عندما يتحدث عن مالك يصوره لنا وهو في قمة مجده عندما أصبح إمام دار الهجرة وأتم تأليف موطئه الذي بسط فيه مذهبه ، ولكنه لا يحدثنا عن الطريق الطويل الذي سار فيه بناء الفقه الإسلامى قبل مالك ، ولا يذكر لنا عظماء الرجال الذين مهدوا الطريق إلى مالك ثم إنه لا يتنبه إلى عبقرية هذا الرجل الذي عرف على طول سبعين سنة ونيف من الجهد المتصل كيف يضع تشريعاً كاملاً قائماً على الكتاب والسنة والإجماع والقياس يشمل كل فروع القانون من العبادات إلى النكاح (الأحوال الشخصية) والمعاملات (القانون التجارى) والحدود (قانون العقوبات) والجراحات (القانون الجنائى) وهو عمل ضخم لا يصدق ؛ لأن الرومان مثلاً احتاجوا إلى سبعة أو ثمانية قرون لوضع قوانينهم التى طالما يتحدث عنها مؤرخو الحضارة ، فقد بدأ تدوين القانون الرومانى فى عصر الملوك قبل الميلاد بأربعة قرون ، ولم يفرغوا منه إلى عصر جستنيان الذى كتبت فيه مدونة جستنيان فيما بين سنتى ٥٢٧ و ٥٦٥ ميلادية ، وأين القانون الرومانى من المجموعة القانونية التى يتضمنها موطأ مالك !

إن بعض أبواب الفقه الإسلامى على مذهب مالك (وغيره من الأئمة) لم تدخل الفقه الرومانى إلا فى عصر جستنيان مثل : حقوق اليتامى والصغار وحقوق المرأة وما ينبغى للشيوخ والمرضى من الرعاية .

وإذا أنت تأملت عمل مالك من هذه الزاوية ازداد تقديرك له وإعجابك بعمله وجهده وازداد فى نفس الوقت إيمانك بالإسلام الذى وضع للناس قاعدة ذلك الميزان الرائع للعدالة .

وأضرب لك مثلاً آخر يعينك على التعرف على الزاوية التى أنظر منها ، والبعد التاريخى الذى أضيفه إلى دراسات الفقه عندنا فإن رسول الله ﷺ قال : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً : كتاب الله وسنتى » وهو حديث ثابت متفق عليه وقوله حق لا شك فيه . وأنا هنا أحاول أن أؤرخ للسنة ، ثم دعنا نسال الآن : أين كان كتاب الله وسنة نبيه الكريم يوم انتقل إلى الرفيق الأعلى ؟ فأما القرآن فقد كان بعد مفرقاً فى صدور الرجال ومدوناً على العظام والجلود والأخشاب والفخار وكان لا بد من جمعه وتثبيت نصه حتى يستطيع الناس الرجوع إليه وهذا العمل تم والحمد لله خلال أيام أبى بكر وعمر وعثمان ، وهذا فى ذاته كان عملاً عظيماً يرتبط بذكر جماعة من

أعلام العلم في هذه الأمة على رأسهم زيد بن ثابت النجاري الأنصاري وهو أول عالم منهجى في تاريخ الإسلام ، فهو الذى نظم عمل الجماعة التى قامت بجمع القرآن وتدوينه فى صحف وأنشأ أول مصحف ، وكان زيد ذكياً دقيقاً دخل فى خدمة الرسول فى سن باكورة ولم يحضر بدرًا ولا أحدًا ؛ لأن سنة كانت تحت سن القتال ، ولكن الرسول ﷺ أحبه وقربه واتخذه كاتباً لأنه كان يجيد القراءة والكتابة وتعلم فيما بعد العبرانية والسريانية وصار يكتب ويقرأ فيهما وكان يحسن الحساب حتى قال فيه الرسول ﷺ : « وأفرضكم زيد » أى أنه كان أقدر الصحابة على قسم الغنائم وحساب أنصبة الموارث ، وقد عاونه فى جمع القرآن وإنشاء المصحف عبد الله بن مسعود وأبى ابن كعب والمقداد بن الأسود وأبو موسى الأشعري وبذل الخمسة جهداً عظيماً فى الجمع والمقابلة والترتيب والمراجعة ، وقدموا إلينا بذلك أجل خدمة قدمت للإسلام وقد تمت أيام عثمان ونسب إليه المصحف الثابت النص وهو العثماني وأعدم ما دون ذلك ولم يبق من القراءات المخالفة (فى ألفاظ أو شكل حروف) إلا شئ قليل نجده منسوباً إلى أبى بن كعب وعبد الله بن مسعود فى كتاب مثل الإتقان للسيوطي ، وتوفى زيد بن ثابت سنة ٥٦ هـ فى الغالب .

وهذا هو كتاب الله قد جُمع وحُفظ ، وصدق الله سبحانه وتعالى عندما قال فى سورة القيامة : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ (٧٥ / ١٦ ، ١٧) وقوله فى سورة الحجر ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٩ / ١٥) .

ثبت نص القرآن ودُوِّنَ بالكلمة والحرف ولم يعد هناك مجال للشك فيه ، وستجىء بعد ذلك مشاكل التفسير والتأويل ولكن هذه مسائل أخرى لم يجىء بعد أوانها وخاصة فى آيات الأحكام وهى لا تحتل الكثير من الاختلاف .

وبقيت مسألة الحديث ، فإن الحديث هو كل ما صدر عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو استحسان أو استهجان . حتى صمت رسول الله ﷺ عن الشئ يعد حديثاً ويمكن اتخاذه سنة ، فإذا شهد رسول الله ﷺ تصرفاً أو رأى شيئاً فسكت عنه اعتبر ذلك إقراراً .

فأين كان الحديث وأين كانت السنة عندما توفى رسول الله ؟

لقد عاش رسول الله ﷺ وتكلم وتصرف وسط الوف من الناس وكان في الذين حوله ناس حفظة ودعاة ، وناس لا يحفظون ما يسمعون بنصه أو بما يقرب من نصه ولا يعونه الوعي الكافي ، وكان هناك ناس متيقظون إلى أن كل حديث للرسول ﷺ سيصبح سنة للمسلمين فلا بد من حفظه بنصه ، وناس لم يفطنوا لذلك بل كان هناك ناس لا يظنون أن رسول الله ﷺ سيموت وأن الناس سيسترشدون بعد موته بسنته ولم يكذب الرسول ﷺ ينتقل إلى الرفيق الأعلى حتى تبينت أهمية السنة ، وفي اجتماع السقيفة مثلاً برزت مسألة الإمامة أو خلافة الرسول وقال أبو بكر : إن رسول الله ﷺ قال « الأئمة من قريش » وهو حديث لم تثبت فيما بعد صحته ، وكان مثار خلافات سياسية ومذهبية حادة بين المسلمين فيما بعد .

وفي الصراع السياسي والاجتماعي الذي أخذ يشتد بعد ذلك أخذت أهمية السنة تتجلى واحتاج الناس إليها في كل كبيرة وصغيرة ولكن أين هي ! إنها في صدور الرجال ، ألوف الرجال الذين عاشوا حول الرسول ﷺ وبعضهم كان أشد التصاقاً به أو قريباً منه من غيرهم فأتيحت له الفرصة لسمع ويرى من حديث الرسول ﷺ أكثر من غيره ، ومنهم من تنبه إلى أهمية السنة فهو يحفظ ما يرى .

وبعد وفاة الرسول ﷺ تنبه المسلمون جميعاً إلى خطورة السنة فبدأ كل منهم يتذكر ما رأى وسمع ، وبعضهم تذكر جيداً وبعضهم الآخر اختلط عليه الأمر فروى ما سمع على قدر ما استطاع ، والكثيرون أرادوا أن يكون لهم مركز ومقام فزعم أنه سمع أحاديث ورأى سنة وفجأة وجد المسلمون أنفسهم أمام أمواج بعد أمواج من الأحاديث التي سميت أيضاً بالآثار أو الأثر ، فما الصحيح في هذا كله وما هو غير الصحيح ، وما الدقيق وما غير الدقيق أو ما هو المكذوب ؟

هنا بدأ ما يمكن أن نسميه سباق الحديث ولا بد أن نفترض أنه كان هناك أهل الصدق ، وهناك أيضاً أهل الكذب ، وهناك أصحاب النية الحسنة ، وهناك أصحاب النية السيئة ، ثم إن الفتوح الإسلامية سارت بسرعة لم تكن تخطر ببال أحد وانتشر العرب واستقرت أعداد منهم في البلاد المفتوحة التي عرفت بالأمصار أو المهاجر ، وفي كل مصر استقر عدد من الصحابة ومن بين الصحابة والتابعين في كل مصر ظهر ناس يحفظون أحاديث أو زعموا أنهم من أهل الحديث والأثر ، وهؤلاء أصبحت لهم مكانة ظاهرة في الأمصار وبعضهم حدث بما عنده وبعضهم أفتى على قدر ما استطاع .

ومن مشاكل التاريخ الإسلامى وصعوباته أن كل الأشياء وقعت في نفس الوقت وبسرعة خاطفة : الفتوح ، والهجرات ، وقيام الدولة والحاجة إلى التشريع وظهور المحدثين وأهل الأثر وأهل الفتيا ، ثم إن أهل البلاد المفتوحة أخذوا يدخلون الإسلام جماعات ضخمة وصدورهم ملأى بالأمل في العدل والكرامة الإنسانية والرخاء والأمان والسلام وكل ما بشر به القرآن ورسوله الكريم ، وكل هؤلاء المسلمين الجدد كانوا معجلين يريدون أن تتحقق كل الآمال التي كانت حبيسة في صدورهم في عصور الظلم والفوضى والاستغلال التي عاشوها قبل الإسلام وتطلعوا جميعاً إلى العرب ، والعرب أنفسهم لم يكن لديهم ثابت موثوق فيه إلا نص القرآن ، أما السنة فلم تكن قد دونت بعد فكيف يحكمون في القضايا التي كانت تطرح عليهم وليست لديهم العدة الكاملة للحكم ، ثم إن المشاكل التي واجهتهم كانت من كل حجم ونوع ، فهناك قضايا التنظيم الكبرى وهناك القضايا اليومية من نزاعات مالية وقضايا أحوال شخصية ومواريث وديون وزروع وتجارات وأموال ، فكيف يحكم العرب في ذلك كله وليس لديهم الشرع المفصل أو القانون الذي يمكن تطبيقه .

ثم إن العرب كانت لهم مشاكلهم الكبرى في حركة الدولة وفي الأمصار ، هناك المشكلة السياسية الكبرى وهي مشكلة الإمامة أي الخلافة ، وهي لم تحل الحل السليم ونشأت عن ذلك فتن وحروب بلا نهاية ، وهناك مشاكل العصبية العربية القديمة أي التي ورثوها من العصر الجاهلي ، والجديدة التي ظهرت بعد الإسلام وقيام الدولة مثل الصراع المرير بين اليمنية الكلبية والشامية القيسية وكل هذه المشاكل الجسام كان لا بد لها من حلول والحلول تحتاج إلى وقت ولكن الناس متعجلون والصبر قليل .

وهذه القضايا والمشاكل كلها كانت سبباً في ظهور أحاديث منسوبة إلى الرسول لأن الأحاديث أصبحت سلاحاً في حروب السياسة وفتن العصبية ومنافسات الأقاليم ؛ فالمسلمون الجدد في العراق يروون أحاديث في فضل العراق ، وأهل الشام تظهر فيهم أحاديث في فضائل الشام ، وأهل مصر يتداولون أحاديث في فضائل مصر ، والوصاة بالقبط وفتن الخارجية والعرب والبربر في المغرب تلقى على الشاطئ أحاديث في ذم إفريقية والبربر .

وهذا كله بدأ يستخدم في الأحكام ؛ لأن القضاة كما قلنا لم تكن لديهم العدة الكاملة

لإصدار الأحكام المؤسسة على قاعدة الإسلام ، والسنة دخلها زيف كثير وتناقض وظهر القياس واستعمل دون ضابط ، وتحدث الناس في الإجماع وأعطوه أكثر من معنى ، فأهل المدينة يرون أن الإجماع هو إجماع أهل المدينة وهى دار الهجرة ، وأهل العراق كان لهم في الإجماع رأى آخر أما الرأى فقد توسع فيه الناس وربما كانوا معذورين فالقضايا كثيرة متوالية ، والناس يريدون أحكاماً وبعض القضاة بدأوا يصدرن أحكاماً صادرة عن الرأى والنظر الشخصى فلم يكن للكثيرين منهم علم تام بالقرآن ومعانيه ، والسنة لم تكن قد دونت بعد .

وسط هذه الظروف التى فرضت نفسها فرضاً ظهر مالك بن أنس وأصله البعيد من قبيلة ذى أصبح من الحميريين اليمنيين هاجر أبوه أو جده إلى الحجاز وصاهاروا بنى تيم بن مرة القرشيين أو حالقوهم ، ومالك نفسه ولد في المدينة حوالى سنة ٩٥ هـ ، ومن سنن باكرة بدأ يتعلم ثم مال إلى السماع من الشيوخ وكان السماع كله إذ ذاك قراءة للقرآن ورواية للحديث والآثار ونقدها ، وكان علم شيوخ مالك مرتجلاً كله وبعضهم كانوا ذوى ملكات علمية صحيحة فانتفع بهم وبعضهم لم يكونوا بشيء .

وضرب مالك بن أنس في مداخل الشباب وتفتحت ملكاته وظهر ذكاؤه وحسن استعدادده ، وبدأت شخصيته الوقورة الرزينة والجميلة أيضاً في الظهور وكان الله قد رزقه هيئة ووسامة وحسن مظهر وذوقاً جيداً في الثياب وحرصاً تاماً على النظافة وحسن المظهر ، ولم يكن ذلك عفواً ولا تكلفاً وإنما كان مالك يحرص عليه عن قصد . قال في ذلك أبو العباس أحمد بن خلكان في « وفيات الأعيان » وكان مالك إذا أراد أن يحدث « يحاضر في الحديث » توضاً وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة ثم حدث . فقليل له في ذلك فقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ ولا أحدث به إلا متمكناً على طهارة وكان يكره أن يحدث على الطريق أو قائماً أو مستعجلاً ، ويقول : أحب أن أتفهم ما أحدث به عن رسول الله ﷺ وكان لا يركب في المدينة مع ضعفه وكبر سنه ويقول : لا أركب في مدينة فيها جثة رسول الله ﷺ مدفونة (٢٨٤ / ٣) فهذا إذن عالم فقيه مسلم أستاذ يعرف لعلمه وفقهه وأستاذيته وإسلامه قدرها جميعاً ويقدر مسئولية إمام أمة الإسلام .

ومالك لم يبدأ من فراغ فإن طبيعة العلم على المستوى الذى كان فيه مالك لا تعرف

الفراغ وإنما هي أجيال من أهل العلم كل منها يرث علم السابقين عليها ، ويضيف إليها ما يتيسر له في بحر حياته ثم يسلم الراية إلى الذى يليه وهكذا ، وقبل مالك كانت المدينة المنورة ومكة مثلها في ذلك مثل بقية أمصار الإسلام حافلة بالعلم والعلماء ، ومالك ولد سنة ٩٥ هـ على ما قلناه وهو عندما فرغ من المرحلة الأولى من التعليم — ربما في العشرين من عمره — كنا في سنة ١١٥ هـ وكان جيل فقهاء المدينة السبعة قد انتهى فما بين سنتي ٩٤ هـ توفى فيها سعيد بن المسيب ، وسنة ١٠٦ هـ توفى فيها قاسم بن محمد سابع السبعة ، وليس من الضروري أن يكونوا سبعة وقد يكون التحديد بسبعة ناشئاً عن سحر هذا الرقم ، فالغالب أن كبار جيل أولئك الأعلام الأجلاء كان أكثر من سبعة ، فبعضهم يضيف إليهم قبضة بن ذؤيب ففى حلقة درسه في مسجد رسول الله ﷺ في المدينة درس عروة بن الزبير أحد السبعة وهو أخو عبد الله الذى طلب الخلافة وأخيه مصعب الذى أعانه في مطلبه وفي حلقة أيضاً جلس أبو بكر بن عبد الرحمن وعبد الملك بن مروان (الذى صار خليفة) ، وعبد الرحمن بن مسور وإبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، وهناك أيضاً عكرمة وعطاء بن أبى رباح وغيرهم وكان من بين فقهاء المدينة هؤلاء امرأة هي عمرة بنت عبد الرحمن .

هؤلاء جميعاً كانوا يتحسسون طريقهم إلى العلم ؛ لأن العلم كان لا يخرج عن القرآن والحديث ، فأما القرآن فكان موجوداً ثابتاً مستقراً ولا سبيل إلى البحث في أصالة نضه ، وإنما الكلام كان في تفسيره والتفسير كان في بداياته .

وأما المشكلة فكانت في الحديث فهو لم يجمع بعد ، بل كان هناك خلاف فيما إذا كان يجوز جمعه وكتابته مخافة أن يختلط بعضه بالقرآن وانتهى بهم الأمر إلى جواز كتابته ، بل ضرورة ذلك ، وهنا كانت المشكلة الحقيقية فأين الحديث الصحيح والمدينة تفيض بألوف وكل منهم يروى (أحاديث يقول : إنه سمعها) فلا بد من وضع قواعد لرواية الحديث والتأكد من صحته ومعظم الذين ذكرناهم وغيرهم كثيرون جداً كان طلب الحديث هو شغلهم الشاغل ، ومناقشاتهم كلها كانت تدور حول نقد ما يصل إليهم من حديث رسول الله ﷺ وتبين للناس أن بعضهم محل ثقة وأن منهم من ثبت عدم صحة روايته ومنهم من كان بين بين .

والعلم في ذلك العصر كان القرآن والحديث الصحيح ، وأما استخراج الأحكام من

هذين الأصلين الثابتين فهو الفقه أو الحكمة وكان الخلاف كبيراً في آراء الناس بعضهم في بعض وابن سعد صاحب الطبقات يقول : إن رواية الحديث علم ، وهو يفرق بين العلم والفقه ، وكذلك فعل النووي . والطبري في تفسيره يجعل القرآن علماً على حدة ، ويقول : القرآن والعلم والفقه ، والعلم هنا هو الحديث ، والفقه هو استخراج الأحكام من القرآن والسنة ، وثمره الفقه هي الرأي فكانوا يقولون : إن زيد بن ثابت فقيه في الدين وعالم بالسنة ، أما سعيد بن المسيب فكان فقيه الفقهاء وعالم العلماء ، والذهبي يقول في طبقات الحفاظ : إن أبا ثور كان أحد أئمة الدنيا علماً وفقهاً ، وعندما كان عطاء ابن أبي رباح يدلي برأيه كانوا يسألونه : أهذا علم أو رأي ؟ وكان يجيب : بل هذا علم .

والخلاصة أن هؤلاء الشيوخ الأجلاء - وفيهم صحابة ولكن معظمهم كانوا تابعين وتابعيهم - كانوا يبحثون عن الحقيقة أو قل عن القاعدة الصلبة التي يقيمون عليها الحقيقة الإسلامية ، وكانوا جادين الجد كله في هذا المطلب ، والجميل الذي يدعوا إلى الإعجاب أنهم وصلوا في النهاية إلى بناء قاعدة العلم بالإسلام بنوها بجهد بالغ وعمل متواصل ، فوصلوا إلى قواعد محكمة لتفسير القرآن وموازن دقيقة لنقد الحديث وأصول مقررة للفقه أي استخراج الأحكام والآراء ، والرأي عندهم كان لا بد أن يقوم على أساس من العلم وهذا الأساس يسمى علة الشرع ، وهذا ما يقابل في القانون الروماني Ratio Legis وفي الفرنسية Le Mobile Delebi وشيئاً فشيئاً وخلال النصف الأول من القرن الهجري الثاني تأخذ الصورة - صورة العلم والفقه - تتضح وإلى جانب سعيد بن المسيب الذي أجمع الكل على علمه وفقهه وجودة رأيه يظهر الزهري محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب (٥٠ أو ٥٦ هـ - ١٢٤ هـ) الذي أجمعت الآراء على أنه من أعلم أهل المدينة بحديث رسول الله ﷺ وأن الأحاديث التي تنسب إليه مرفوعة إلى نافع أحاديث صحيحة فيما عدا ما اختلق ودُس عليه بعد وفاته ، والزهري كان أستاذاً وصاحباً لمالك فقد تصاحباً وتدارساً زماناً ، والزهري مات قبل وفاة مالك بخمس وأربعين سنة أي ومالك في عنفوان نشاطه وعمله .

وظهر أمر ربيعة بن أبي عبد الرحمن وكان أصغر من الزهري وقد اشتهر بغزارة العلم وصدق الحديث وجودة الرأي حتى لقب بربيعة الرأي ، وإن كانت هذه الشهرة غير دقيقة ؛ لأن الرجل في الحقيقة لم يكن من أكابر الذين اشتهروا بالرأي ، وكان ربيعة آية في العلم والخلق والزهد في الدنيا مع كرم بالغ وتصاوم . دعاه أبو العباس السفاح

إلى العراق ليوليه القضاء فذهب وهو مزعم الرفض ولكنه كان رجلاً عاقلاً مهذباً يخدم الأمة بعلمه ولا يرى خيراً كثيراً في المواجهة الصريحة مع الجبابرة ، فذهب ورفض القضاء وأبى أن يقبل خمسة آلاف درهم عطية من أبى العباس وعاد ليقول عن العراقيين : « رأيت قوماً حلالنا حرامهم ، وحرامنا حلالهم ، وتركنا بها أربعين ألفاً يكيدون لهذا الدين » ثم يضيف : « كان النبي الذي بعث إلينا غير النبي الذي بعث إليهم » وهو يشير بذلك إلى المعتزلة وغلاة المرجئة وغلاة الشيعة والخوارج ، وهنا يقول الأستاذ عبد الحليم الجندى وهو من أحسن من كتب عن الأئمة الأربعة : وكان ثمة القياسون من فقهاء العراق الذين حاربتهم مدرسة أبى حنيفة ، وكان أبو حنيفة هناك يتوسط حلقة عظيمة تعمل عملها العظيم في الاجتهاد وإبداء الرأي ، وربيعة نفسه صاحب رأى منذ الصبا ، ناقش سعيد بن المسيب في مسألة مجادلاً بالقياس وجادله سعيد بالسنة (مالك بن أنس لعبد الحليم الجندى ص ٥٣) .

وظهر كذلك أمر نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم (ت ١٦٩ هـ) وكان قارئاً جليلاً للقرآن ، وراوياً صدوقاً لحديث رسول الله ﷺ ، وظهر كذلك أمر محمد بن المنكدر (ت ١٢٠ هـ) كبير العلماء والفقهاء قولاً وعملاً ، وكان شديد الشعور بمسئولية أهل العلم تجاه الأمة ، وكان عابداً زاهداً يعيش للعلم والعبادة ولا شيء غير ذلك وقد كسب مالك منه فضلاً عظيماً وظهر كذلك عبد العزيز بن الماجشون الفقيه الراوية الجليل الذي توفي سنة ١٦٤ هـ ، وهؤلاء كانوا كبار شيوخ مالك الذين تكون في مدرستهم وتخلق بأخلاقهم وسار في طريقهم إلى الذروة التي لم يكن منها بد في رأى مالك : ذروة جمع هذا العلم كله : القرآن وتفسيره والحديث والآثار وضبطها وتصفياتها وما يجمع عليه أهل المدينة من الرأى والعمل الصحيح المتواتر عن رسول الله ثم قياس ما يجد من القضايا على ما مر منها إذا لم يوجد في القضية قرآن صريح أو حديث صحيح .

ولكن ما الذى ميز مالكا وأظهره من بين هؤلاء جميعاً ، وكلهم كما رأيت من أجل الفقهاء وأصفى المسلمين سريرة وأكثرهم جلاله ؟

ميزه الفكر العملى الواضح المبتكر ، فهؤلاء جميعاً يروون الأحاديث ويفتون في المسألة بعد المسألة ، والناس يفيدون من ذلك كله ولكن الذى كان الناس في حاجة إليه حقاً مجموع قانونى كامل وعملى قابل للتنفيذ يحل للمسلم كل مشاكله العملية على

أساس سليم من العلم بالإسلام والفقہ على قاعدة الإسلام ، لقد كانت الأمة كما رأيت في كلام ربيعة الرأي عن أهل العراق أشبه بقارب في بحر متلاطم والدولة كانت قد ضيعت القواعد وأخضعت كل شيء لصالحها وأخافت الناس وخرجت عن نهج الله واجتاحت الناس تيارات أفكار المعتزلة وغلاة الخوارج والمرجئة والشيعة ، والقاضى يجلس في مجلس قضائه وتعرض عليه القضايا فيجد في المسألة الواحدة ألف رأى وقد لا يجد أصلاً فكيف يحكم مهما صحت نيته ، والناس هنا في حاجة إلى قانون واحد شامل قائم على علم صحيح وإسلام سليم وفقه دقيق يشمل كل التشريعات من العبادات إلى النكاح والمواريث والبيع أى المعاملات والحدود أى العقوبات والجراحات وهى ما نسميه الجنايات .

وهذا هو الذى تصدى له مالك وهذا عبقريته : وضع ذلك المجموع التشريعى الذى يهتدى به القضاة ويطمئن إليه الناس وتأليفه وتقسيمه على أبواب وفصول وفى كل مسألة يكون هناك رأى واضح يرتاح إليه القاضى وهذا الرأى هو الذى عرف برأى مالك وتبسيط ذلك كله و تقريبه إلى عقول الناس وتسهيل تطبيقه ، وهذا هو الموطأ أى المبسط المسهل المقرب للعقول .

هنا عبقرية مالك وخدمته الجليلة لأمة الإسلام . كان قد سبقه إلى ذلك علماء أجلاء ولكن الواحد منهم يؤلف في ناحية ويترك عشرات . أما مالك فقد كان الأول الذى جمع العلم والفقہ جميعاً وصاغه في منهج واحد شامل قائم على القاعدة الإسلامية السليمة في حدود منهج الله ورسوله ، والمنهج هو الطريق الذى اصطلاحنا على تسميته بالمذهب ، ومذهب مالك هو الأول وموطأه هو الحدث العظيم في تاريخ الفقہ والتشريع الإسلامى .

* * *

أَبُو حَنِيفَةَ وَالْمَشَى عَلَى حَدِّ الْمَوْسَى

أرجو أن يكون فيما كتبت عن مالك بن أنس والموطأ ما يوضح مقصدي من هذه الدراسة ، وما أرمى إليه من فتح نهج جديد في دراسة تاريخ أمة الإسلام والفكر الإسلامي ، فقد بيّنت الدراسة المتأنية لتاريخ الفقه كيف أن علماء الأمة وفقهاءها عرفوا كيف يبنون للأمة قاعدة صلبة إسلامية خالصة هي التي حفظت على العالم الإسلامي بعد ذلك وحدته ، ومكنت له من الصمود أمام الأخطار والصدمات وسوء الحكم فقد حسب بعض شيوخ الأجلاء وخاصة محمد الطيب النجار وعبد المنعم النمر أنني أتجه إلى بيان السلبيات وخافوا أن يؤدي ذلك إلى زعزعة ثقة الناس في أمتهم وتاريخهم فيها هم أولاء يرون الآن كيف قام البناء الأساسي لأمة الإسلام الواحدة على أكتاف أهل العلم المخلصين من علماء بالقرآن إلى شيوخ السنة وأئمة الفقه ، ومن هنا يتجلى لقارئى أنني في الحقيقة أحاول أن أؤرخ لهذه الأمة كما ينبغي التأريخ لها في رأيى . فأهل السياسة بعد العصر الراشدى كانت تعنيهم دولهم ومصالحهم في المكان الأول فإذا بقى فيهم فضل من قوة وجهدهم أنفقوه على الأمة ، والأمة ابتداء من شيوخ مالك ثم مالك وجدت نفسها في الاعتصام بحبل الله وهو الإسلام وأمنت على نفسها بالشرع الإسلامى الحنيف الذى عرف مالك كيف يوسع قاعدته ويربطه ربطاً متيناً بالأصل الإسلامى من ناحية ، وبالواقع من ناحية أخرى ، وأصبحت الشريعة - القائمة أصلاً على القرآن والسنة - جذع الشجرة الإسلامية الصلب المتجدد الحيوية ، ومن الجذع تفرعت فروع الشريعة التى أظلت أمة الإسلام ووقتتها عواصف الدهر وتصاريف الأيام .

ولم تعد الأمة تعتمد أساساً على حكامها ؛ لأن الأمة هي جذع الشجرة الثابت الدائم ، وأصبحت الدول هي لحاء الشجرة الذى يتبدل مع الزمن ، ووقع نتيجة لهذا الانفصال بين الدولة أى السلطة السياسية المتغيرة المتبدلة والأمة الدائمة أى السلطة الشرعية الحقيقية ، ولم يعد يعنى الأمة في كثير أن يتولاها سليمان بن عبد الملك أو أخوه هشام أو أبو العباس السفاح أو أخوه أبو جعفر فالأمة تمسكت بالإسلام وسارت على المنهج الذى قربه لها مالك ووطأه وأصبحت في مأمن ، أما الدول فقد سارت في طريقها

حريصة على ما تصورته أنه صالحها دون نظر إلى المنهج ، فإذا وافق المنهج صالحها سارت فيه ، وإذا تعارض مع هذا الصالح فلا منهج ولا شرع ولا حتى أخلاق ومن هنا وقع الانفصال القاطع بين الأمة والدولة في تاريخ الإسلام ، ورياسة الأمة وإمامتها الفعلية انتقلت إلى الشيوخ وأهل العلم والفقه والدين والورع أولئك هم حراس المنهج والقائمون عليه وهنا بالذات يكمن التاريخ الحقيقي للإسلام وأمته أما تواريخ الدول فهي ثياب تتبدل على الأمة أو قل توالى عليها ، والثياب ليست الرجل وهذه حقيقة عبر عنها توماس كارلايل في كتابه الجميل Sortus Resor Tus وهي عبارة لاتينية معناها - تقريباً - الخياط يخطط ويعيد الخياطة كيف يشاء ولكن الرجل لابس الثوب - هو كل شيء - وأظن أن هذا مذهب في فهم تاريخ الإسلام يريح قلوب كل حريص على الإسلام وأمته وعلى رأسهم الفقهاء وأهل العلم وهم أهل المنهج ، فقد تبين لي من دراسة تاريخ العلم عند المسلمين أن كل عالم صادق مخلص هو فقيه في ميدانه وشيخ في بابيه وهو من أهل المنهج ورائد من رواد الأمة في طريق الرشاد ، والرائد كما قال رسول الله ﷺ لا يكذب أهله .

وقبل أن أستطرد في الكلام على بقية الأئمة لأبين فضلهم في الحفاظ على هذه الأمة على المنهج أضرب هنا مثلاً واحداً يغنى عن كثير ، فعندما دخل رسول الله مكة فاتحاً قال فيما قال : « إن مكة حرام » أى لا يجوز فيها قتال ولا قتل وإليك كلام الواقدي بنصه ، وما يقوله الواقدي هنا وارد في كل كتب الحديث فهو حديث صحيح مجمع عليه ولا خلاف فيه ، قال الواقدي : فقام رسول الله ﷺ وهذه الخطبة الغد من يوم الفتح بعد الظهر فقال : « أيها الناس إن الله قد حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض ويوم خلق الشمس والقمر ، ووضع هذين الجبلين فهي حرام إلى يوم القيامة ، لا يحل لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمأ ، ولا يعضد (يقطع) فيها شجراً ، لم تحل لأحد كان قبلي ولا تحل لأحد بعدى ولم تحل لي إلا ساعة من نهار ثم رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلغ شاهدكم غائبكم فإن قال قائل : قد قاتل فيها رسول الله ﷺ فقولوا : إن الله قد أحلها لرسوله ، ولم يحلها لكم ، يا معشر خزاعة : ارفعوا أيديكم عن القتل فقد كثر القتل إن نفع وقد قتلتم هذا القليل لأدينه وإن شاءوا فعقلته » . (مغازي الواقدي ٢ / ٨٤٤) .

فهنا حديث نبوي لا نزاع في صحته بتحريم القتل والقتال داخل حرم مكة ، أما ما حدث يوم الفتح فقد أحله الله لرسوله ساعة واحدة ثم حرمة ، وخزاعة وكانت في حلف رسول الله ﷺ لم تستطع أن تضبط أعصابها عند دخول مكة فقد كانت موتورة من بنى بكر بن عبد مناة لما فعلوه بها غدرًا وعلى صورة دموية بشعة رغم صلح الحديبية فاندفعت يوم فتح مكة تريد أن تأخذ بثأرها من بنى عبد مناة وقتلت منهم رجالاً فأمرهم الرسول صلوات الله عليه بالكف عن القتل لأن القتل لا ينفع ، ولو أنه ينفع لكثير في الناس ، ومع ذلك كله فقد ودى الرسول قتيل خزاعة من ماله .

إذن فهذا هنا تبليغ صريح من رسول الله ﷺ بتحريم القتل والقتال في حرم مكة ، والفقهاء بتحريمهم السنة واجتهادهم في ضبطها وتحقيقها أكدوا حرمة مكة ليظلوا على المنهج ، فانظر ماذا فعل رجال السياسة وأقرأ معنى عند الواقدي .. والخبر وارد في كل مراجع التاريخ الأموي « فدخل شريح (القاضي) على عمرو بن سعيد بن العاص (القائد الأموي وهو من رجال السياسة) وهو يريد قتال ابن الزبير (داخل مكة وكانت دعوته فيها) فحدثه هذا الحديث وقال : إن النبي ﷺ أمرنا أن يبلغ الشاهد الغائب وكنت شاهداً وكنت غائباً وقد أديت إليك ما كان الرسول ﷺ قد أمر به فقال عمرو بن سعيد : انصرف أيها الشيخ فنحن أعلم بحرمتها منك : إنه (أى تحريم القتل والقتال في مكة) لا يمنع من ظالم ، ولا خالع طاعة ولا سافك دم ، فقال شريح : قد أديت إليك ما كان النبي ﷺ قد أمر به فأنت وشأنك .. (مغازي الواقدي ٢ / ٨٤٤) .

فهنا ولمصلحة سياسية خالف رجل السياسة السنة : لأنها لم توافقه فخرج على المنهج وأحل لنفسه قتال ابن الزبير داخل مكة ولو أنه احترم حرمتها وشدد الحصار عليها دون أن ينتهك حرمتها لأخذ ابن الزبير إمساكاً باليد فإن مكة لا تصبر على طويل حصار ، ولكن السياسة عمياء القلب والبصيرة وهنا نرى بصورة واضحة جداً تمسك الفقيه بالسنة والمنهج وخروج رجال السياسة عن السنة والمنهج ، هنا ترى بنفسك فراق ما بين الأمة والسياسة فإن رجل السياسة أحل لنفسه ما حرم الله ورسوله ، والفقيه أبلفه حديث رسول الله ﷺ فأبى أن يسمع فتركه وشأنه وما كان ليستطيع أن يفعل غير هذا وفي ذلك بلاغ واضح لما أريد أن أقول .

وقد كان حرص أهل العلم والفقه الأول على جمع الحديث والتدقيق في ذلك ،

والاعتماد على القرآن والسنة في استخراج الأحكام منهما حرصاً على أن يكون العدل في أمة الإسلام قائماً على قاعدة الإسلام وهى القرآن والسنة لا يجاوزها ، فإن العدل قد يتحقق بالمنطق والإحساس ولكنه يكون في هذه الحالة مصادفة أو هوى أو مزاجاً ، والشريعة الإسلامية لا ينبغي أن تترك للمصادفة والهوى والمزاج وقد يسكت صاحب الحق عن حقه راضياً طلباً للسلامة أو تهاوناً منه في حق نفسه وهذا لا ترضاه شريعة الله ؛ لأن الحق يظل حقاً دائماً وإن تهاون فيه البعض ، ويظل حقاً وإن تغاضى عنه صاحبه استصغاراً لشأنه فقد يكون لك عند رجل قرش فتتركه فيكون ذلك عدواناً منك على الحق المطلق ويظل حقك قائماً وإن تهاونت فيه ، وقد ضربنا مثل الرجل يعتدى على شرفه فيتغاضى فلا يكون معنى ذلك تجويز : العدوان على العرض ؛ لأن المتهاون لا يصون عرضه ولكن شرع الله يصونه ، وعرض أمة الإسلام واحد .

وخلال القرن الهجرى الأول أى قبل أن يظهر مالك ويتجه إلى إكمال القاعدة بجمع الحديث الشريف ثم الانتفاع به في وضع تشريع إسلامى كامل يحكم تصرفات الناس وينير الطريق أمام القضاة لكى تكون أحكامهم دائماً قائمة على قاعدة إسلامية سليمة ، كانت أحكام القضاة أحياناً تقوم على التقدير الشخصى والحس السليم فتكون مقبولة وربما عادلة ولكنها لا تكون عادلة عدلاً إسلامياً ؛ لأن العدل الإسلامى لا بد أن يكون مرتكزاً على قاعدة إسلامية : قرآناً وسنة أولاً ثم قياساً وإجماعاً بعد ذلك ، والعدل الإسلامى ينبغي أن يكون مرضياً للجماعة كلها لا لفرد منها فحسب ، وقد ضربت لك مثل الذى يتنازل عن حقه في الاعتداء على عرضه أو سرقة ماله ؛ فيكون تنازله عدواناً على حق الجماعة ولا يكون عدلاً ، وتلك هى أهمية الإجماع في رأى مالك ، ولهذا فقد انتهى به الفكر إلى أن يكون الإجماع هو إجماع أهل المدينة من التابعين ومعاصريهم وتابعيهم ممن توارثوا عمل الرسول ﷺ والصحابة وأصبح عملهم قرينة أو حجة ، ومالك كما قلنا عاش فيما بين سنتى ٩٦ - ١٧٩ هـ / ٧١٤ - ٧٩٥ م على أصح الأقوال فكيف كان يتم القضاء في المسائل التى تعرض على القضاة كل يوم في أنحاء عالم الإسلام ؟

هنا ننظر في كتاب « أخبار ولاية مصر وقضاتها » للكندى المتوفى سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م وهو من أحسن الكتب وأولاها بالثقة في معرفة أخبار القضاة وطرائقهم في الحكم في بلد كبير من بلاد الإسلام وهو مصر فنجد أن القاضى عبد الرحمن بن حجية

قاضي مصر فيما بين سنتي ٦٩ - ٨٢ هـ يصدر أحكامه بحسب ما يرى أنه العدل دون الاستناد إلى سند من قرآن أو سنة كأنه حكم من أحكام الجاهلية ويزعم أحياناً أنه يستند في قضائه إلى أقضية صدرت عن عمر بن الخطاب ، ونجد أن الخليفة عمر بن عبد العزيز يقر حكماً أصدره أحد القضاة بحسب ما تراءى له في موضوع يتصل بالصدّاق ويقول لم يبلغنا في ذلك شيء ، والقاضي توبة بن نمر قاضي الفسطاط فيما بين سنتي ١١٥ - ١٢٠ هـ (٧٣٣ - ٧٣٧ م) كان يخطئ في تطبيق قول الله سبحانه في سورة البقرة (٢ / ٢٣٦) ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ فكان يقضى للمطلقة بمال في كل حالة ، فإذا روجع في ذلك قال : إنه يستند في قضائه إلى الآية ٢٤١ من نفس السورة ﴿ وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ . بل يقرر الكندي : إن واحداً من قضاة مصر كان أمياً لا يحفظ من القرآن إلا ما يقيم به صلاته فكان يقضى بما يترأى له أنه العدل أو بما نسميه نحن بالمعقول ، وكل هذا كان يبلغ مالكا ويرى أنه خطأ ؛ لأن التشريع ينبغي أن يقوم على أساس إسلامي والقرآن الكريم والسنة فيهما غناء فإذا أضفنا إلى ذلك عمل أهل المدينة وقدراً معقولاً من القياس لم يجد القاضي أمامه قضية تستعصى على حل إسلامي سليم .

وهذا هو الذي صنعه مالك عندما وضع الموطأ أو قدم به للمسلمين جميعاً قاعدة سليمة للتشريع والقضاء وربط سد حاجات الناس جميعاً وحل مشاكلهم بالقاعدة الإسلامية ، فلم يعد هناك مجال للحكم بالهوى والقضايا كلها رتبت ونظمت في الموطأ وأقيم الحكم فيها كلها على أساس إسلامي واحد وربما كان دافع مالك إلى وضع الموطأ ما قاله ابن المقفع في رسالة إلى أصحابه من أن للسلطان أن يحكم برأيه في كل ما يتعلق بالمال والإدارة ، أما فيما يتعلق بالدين فلا بد من استشارة أهل العلم والفقه والأثر كما قال ، فإذا اعتسف الرأي دون ذلك فهو مسئول عما يصدر من أحكام أمام الله ، ثم إن ما أشار به ابن المقفع من أن يجمع السلطان أهل الفقه فيضعوا قضاء جامعاً يحمل الناس كلهم عليه لقي إنكاراً شاملاً من أهل الفقه ، بل إن مالكا رفض نفس الفكرة عندما عرض أبو جعفر المنصور على مالك أن يحمل الناس على رأيه ؛ لأن الفكرة الأساسية كانت أن الدولة وقد خرجت عن المنهج لم يعد من حقها أن تتدخل في التشريع وهذا هو

السّر في ذلك الترحيب الواسع المدى الذى لقيه الموطأ ، وقد تحمس له تلاميذ مالك وخاصة المدنيين والمصريين وأهل المغرب والأندلس حماساً لا نعرفها عند تلاميذ أى إمام آخر ، وقد بلغ من حماسة تلاميذ مالك (مثل أشهب بن عبد العزيز ، وعبد الرحمن ابن القاسم العتقى من المصريين ، والبهلول بن راشد ، وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم من أهل المغرب ، ويحيى بن يحيى الليثى ، والغازى بن قيس وعبد الرحمن بن زياد بن شبطون ، وعيسى بن دينار من الأندلسيين) لذهب مالك أن تلاشت أمامه كل المذاهب الأخرى وأصبح رأى مالك ومذهبه هما القول الفصل في كل الأقضية ولا مكان عندهم لمذهب أبى حنيفة مثلاً .

وقد ظهرت في أيام مالك وبعدها مذاهب أخرى ولكن مالكا يفضلها كلها بشيئين : الأول : هو أن موطأه شامل لكل أبواب الفقه والأحكام فلا يجد القاضى مهما كان مستواه عناء في العثور على حل فيه لما يعرض عليه من القضايا فهو ليس الموطأ فقط إنما هو المريح أيضاً . والثانى : هو أن لمالك فضل السبق إلى وضع تشريع كامل قائم على القاعدة الإسلامية وللسابق فضله الذى لا ينكر .

* * *

وكان أبو حنيفة النعمان بن ثابت رجلاً يختلف عن مالك بن أنس كل الاختلاف في الأساسيات ، ولكنه كان يتفق معه في النظرة إلى الحياة والموقف منها ، عاش أبو حنيفة فيما بين سنتي ٨٠ - ١٥٠ هـ / ٦٩٦ - ٧٦٧ م فهو معاصر لمالك ولد قبله بست عشرة سنة ، ومات قبله بخمس وعشرين سنة ، وعاصر بنى أمية وبنى العباس ووقف من الحكام نفس موقف مالك فلم يدخل في خدمتهم ولا هو استحل أن يأخذ لنفسه شيئاً من أموالهم ولكن مالكا كان رجلاً منهجياً في حياته وعمله فهو يبادر كل يوم إلى مجلس الدرس ويلقى دروسه بنظام تام فلا ينتقل من باب من أبواب الفقه إلى الآخر إلا إذا استوفاه وهو يراجع ما يدونه تلاميذه من كلامه يصححه حرفاً حرفاً وكلمة كلمة حتى يستوثق مما يروى عنه ، أما أبو حنيفة فكان رجل فكر وبديهة فهو غزير العلم وقاد الذكاء وهو يكتفى بالكلام دون أن يحرص على تأليف ، ولكنه - مثل مالك - يعيش للعلم والفقه ، ولكنه يكلّ أمر التدوين لتلاميذه ولم يختلف الناس في أحد كما اختلفوا في

أبى حنيفة فأنصاره يغالون في مديحه حتى يجعلوه فقيه الإسلام بلا منازع ، وخصومه يحملون عليه حتى يتهموه بالمروق ، والمالكية بالذات لا يحبون أباً حنيفة ولا يطبقون ذكر مذهبه ، وفي المغرب وهو معقل من معاقل المالكية يرون أن أباً حنيفة ومن درس عليه أو تبعه في مذهبه خرج من الدين ، وهم يسمون الحنفية وأهل مدرسة العراق عامة بالمشاركة ، ومن شرّق عندهم فهو زنديق .

ولكن الحق أن أباً حنيفة من أعظم المفكرين الإسلاميين وهو شخصية جميلة بل فاتنة ، فقد كان الرجل غنياً ذا مال من تجارة ناجحة في البز والثياب ، وكان جميل الطلعة حسن السميت شديد الحرص على مظهره دون تكلف وحياته كلها من أهل النعمة ومعظم ما يقال عن محنته وسجنه وموته في السجن يغلب أنه مجرد قصص ، والرجل أودى من جانب أهل السلطان ولا ريب ، وربما يكون قد ضرب أسواطاً حقاً وربما يكون قد دخل السجن ولكن لفترة قصيرة ولكنه لم يمّت في الحبس ولا مات تحت السياط .

ولا يمكن الكلام عن أبى حنيفة على أنه قمة من قمم الفقه طفرت من الأرض دفعة واحدة ، وإنما هو الدرجة العليا في سلم طويل من أهل الرأي من أعظم شيوخ العراقيين ما بين كوفيين وبصريين ، فأبو حنيفة يقف في آخر طريق يبدأ عند عبد الله بن مسعود وأصحابه ، ويمر بإبراهيم النخعي ، وشريح القاضي ، والحسن البصري ، والشعبي ، وهؤلاء جميعاً كانوا محدثين ملتزمين بالحديث وكانت عنايتهم بالإسناد لا تقل عن عناية المالكية ، ولكن نقطة الخلاف كانت في طريقة استخراج الأحكام من القرآن والسنة ثم في معنى الإجماع وفي طريقة استعمال القياس ، وفي الأهمية التي تعطي للرأي الذي يقوم عند الأحناف على الذكاء والفكر الشخصي والمنطق مرتبطاً بالقرآن والسنة في كل حالة ، وهنا ميزة أبى حنيفة الكبرى فهو رجل يدرس ويتقصى ويجمع الأصول ثم يقول رأيه ، وإذا كان الموالك يقفون خلف الإسناد فإن الأحناف يجعلون الإسناد وراء ظهورهم وإن التزموا به كل الالتزام .

والظاهرة الكبرى التي تميز أباً حنيفة هي ذكاؤه الخارق وجودة رأيه وسلامه فكره وسرعة بديهته دون اهتمام كبير بالتأليف ، فهو على الحقيقة لم يؤلف شيئاً فكتاب الفقه الأكبر المنسوب إليه ليس من تأليفه ، وإنما هو تدوين لبعض تلاميذه عنه ،

والنسخة التي لدينا منه كتبها الماتريدي المتوفى سنة ٣٢٣ هـ ، ومسند أبي حنيفة جمعه الخوارزمي ، وقد جمعه وحققه من خمس عشرة رواية فهو ليس من تأليف أبي حنيفة وذلك القعود عن التأليف يرجع في الغالب إلى تهيب أبي حنيفة أمر التأليف ، وتحزره من أن يسجل بقلمه شيئاً دون أن يكون واثقاً منه كل الوثوق .

ومن دلائل ذلك موقفه من الحديث ورواته وأسانيده فيقال : إنه لم يسلم إلا بصحة سبعة عشر حديثاً ويزيدها بعضهم إلى خمسين ، وليس ذلك بغريب لأن اعتماد الحجازيين على الحديث واهتمامهم بأسانيده فتح الباب على مصراعيه ففاضت السنة الناس بالأحاديث فيضاً ، وفي الصراع السياسي الذي اشتد أواره خلال القرن الأول الهجري والثاني استخدمت الأحاديث سلاحاً ، والسياسة لا تعرف الإيمان فكل من أراد أن يقول برأى اختلق حديثاً وابتكر له إسناداً ، ومالك في موطنه اعتمد على ما يزيد على الألف حديث ، وجاء نقاد الحديث وتناولوها شيوخ أجلاء بالدرس والنقد فلم يصح لهم منها إلا نيف وثلاثمائة ، وبعضهم جعلها سبعمائة أو ألفاً وسبعمائة ، ثم جاء البخاري فجمع كل ما كان يجرى على السنة الناس من الأحاديث بإسنادها ، واجتهد في الجمع والتحري حتى اجتمع في صحيحه سبعة آلاف حديث ، وقد جعل صحيحه أبواباً ، ومن هنا فقد تكررت الأحاديث بحسب الأبواب وقد أحصوا الأحاديث المتكررة في صحيح البخاري بثلاثة آلاف .

وأبو حنيفة بذكائه البعيد لم يستطع قبول هذا الحشد الهائل من الأحاديث فجعل يدقق وينظر ويعتمد أساساً على القرآن الكريم فهو عنده النص الوحيد الذي لا شك في حرف من حروفه ، وما دام الأمر كذلك فقد وسع أبو حنيفة نطاق العقل والرأى والقياس ولكنه لم يتجاوز القاعدة قط ، والذي يبهرك في فقهه هو ذكاؤه الخارق فعلاً وينبغي أن ننبه هنا إلى أن الفروق بين أئمة المذاهب في الأحكام وطرق استخراجها كانت قليلة جداً ، إنما الخلاف كان بين أتباع الأئمة وانظر مثلاً إلى ما يقوله ابن حزم عن طريقة أبي حنيفة أي مذهبه في كتابيه « الإحكام في أصول الأحكام » و « المحلى في الفقه الملعى » وهو كلام غير معقول من إمام جليل مثل ابن حزم وستفصل الحديث في ذلك عند كلامنا عن ابن حزم .

والحقيقة أن موقف أبي حنيفة كان أدق وأصعب من موقف مالك ، فمالك في الحجاز بعيد عن الدولة ورجالها وهو في المدينة يلقي دروسه ويؤلف بعيداً عن السلطان

أما أبو حنيفة فقد عاش وعمل في العراق متردداً بين البصرة والكوفة والهاشمية والأنبار ثم بغداد ، والدولة العباسية تريد أن تكسب هذا الرجل العظيم إلى جانبها ولكن غدر العباسيين بالعلويين وضع الرجل في مأزق فإن قلبه مع العلويين وتصرف أبي جعفر المنصور معهم لا يرضيه فهو رجل من الأئمة والأمة متعلقة بآل البيت والأمة بكت مصارعهم ، والذي فعله المنصور مع عبد الله بن الحسن وابنيه محمد وإبراهيم وبقية العلويين لا تقبله أو تسكت عليه نفس أبيه مؤمنة ، ولهذا كان أبو حنيفة بإيمانه العظيم يسير على حد موسى والأخبار عن مواقفه مع أبي جعفر المنصور أشبه بالأساطير ولا نستطيع قبول معظمها ولكننا نستطيع أن نقول دون حرج : إن محنة أبي حنيفة الحقيقية لم تكن السياط أو السجن وإنما الحياة نفسها إلى جانب طغاة جعلوا السياسة فوق الدين وهانت عليهم الدماء حتى صار دم الإنسان عندهم أهون من دم البرغوث .

ومن هنا فإننا لا يجوز أن نقسو في الحكم على نفر من أجلاء العراقيين ممن دخلوا في خدمة الدولة ، ونقول : إنهم باعوا دينهم بدنياهم فما كان ابن أبي ليلى بخادم للسلطان ولا كان شبرمة ، ولكن أبا حنيفة استطاع أن يرفض القضاء والوظائف ولكن لم يكن من الممكن كذلك إلا يكون إلى جانب السلطان أحد من أهل الفقه والدين وإلا ساءت العاقبة ، وابن أبي ليلى تلميذ إبراهيم النخعي من جانب وحماد بن إسماعيل من جانب آخر ، وكلاهما من شيوخ أبي حنيفة فهو عالم جليل يجتهد على قدر ما يستطيع وهو يختلف في آرائه وفقهه عن أبي حنيفة ولكن ذلك لا يجعله حقاً خادماً للسلطان أو رجلاً من الحواشي ، حقاً إن طريقتة في استخراج الأحكام لا يمكن أن تقارن بطريقة أبي حنيفة ، فأبو حنيفة ذهن متألق وابن أبي ليلى رجل تقليدي ينظر في الكتاب والسنة ويقيس قدر استطاعته ثم يفتي أو يقضى ، وفي المساجلات بين الرجلين يتفوق أبو حنيفة الذكي الدقيق الذهن على ابن أبي ليلى الذي لا يصاحبه التوفيق في استدلالاته وهو يخطئ كثيراً في أقيسته ، ولكنه على أى حال حمل المسؤولية وتعرض للاختبار وتعرض للنقد ، أما أبو حنيفة فقد كان بعيداً عن المسؤولية وهو يبدي اليوم رأياً في المسألة ثم يبدو له فيقول في اليوم التالي رأياً آخر دون حرج فهو صاحب رأى يفتي ، أما ابن أبي ليلى فكان قاضياً ينظر ويحكم فإذا أخطأ فله فضله على أى حال . والشافعي لا يعجبه رأى أبي حنيفة أو رأى ابن أبي ليلى وينقد الرجلين نقداً شديداً .

إننا دائماً ننسى فضل العامل الذى يتعرض للمسئولية وإصدار الأحكام واتخاذ القرارات وننسى أن أبا حنيفة والشافعى مثلاً كانا بعيدين عن المسئولية الفعلية فى حين حملها رجل مثل ابن أبى ليل وأبى يوسف القاضى وتعرضا بسبب ذلك للنقد ، وننسى أن أهل الفقه جميعاً لو فعلوا فعل أبى حنيفة والشافعى لما وجد الناس قاضياً يجلس للحكم بينهم ؛ لأن الرأى الذى يلقى فى مجالس العلم والمناظرة لا يحل مشاكل الناس السائرة ، وكبار الفقهاء والأئمة كانوا يتعرضون لما يعتقدون أنه الفقه العالى أو النظريات الكبرى مع أن معظم مشاكل الناس صغيرة والصبر على مشاكل الناس الصغيرة هذه هو الراحة للناس وبه تسير الأمور .

وقد سألت نفسى أكثر من مرة : هل يوجد فعلاً مذهب فقهى متكامل يسمى بمذهب أبى حنيفة أو أن الذى لدينا ذهن متألق وعقل قانونى فقهى حر خفف على الناس حرفية المالكية والتزام أصحابها برأى مالك وخاصة فى الفروع ؟ وكل الفقه الحنفى ليس من صنع أبى حنيفة بل من عمل تلاميذه فالمذهب الحنفى هو مذهب أبى حنيفة وتلاميذه ، أما المذهب المالكى فمذهب مالك ومنهجه وطريقته ورأيه وربما يكون المذهب المالكى هو المذهب الفقهى الإسلامى الوحيد المتكامل ، أما البقية فأراء واتجاهات تروغ النفس بما فيها من نفاذ وذكاء ولكنها فى الحقيقة لا تقدم قاعدة فقهية كاملة ، ولو كنت قاضياً فإننى أتصور أننى أفكر بطريقة أبى حنيفة وأكتب حيثيات الحكم بطريقة الشافعى أما الحكم فى القضية فأخذه من مالك .

الإمام الشافعي: العالم المُفكّر الإنسان في أرفع صورة

في بعض ما مضى من فصول هذه الدراسة قلت: إن دول الإسلام بعد العصر الراشدي انحرفت عن الخط الإسلامي وسارت في طريقها لا تعنيها إلا مصالحها ، فوقعت القطيعة بينها وبين الأمة التي تمسكت بالمنهج الإسلامي ، ورفضت باسم علمائها وفقهائها - أن يكون شرع الله في خدمة السياسة وأصحابها وأهوائها - ولم أقصد بهذا الكلام أن « كل » دول الإسلام بعد العصر الراشدي خرجت عن المنهج أو أن « كل » خلفاء الإسلام وملوكه وسلاطينه تخلوا عن الصراط المستقيم ، فلا شك في أن الإسلام عرف دولاً فاضلة اجتهدت في التزام المنهج الإسلامي .

ومن بين الخلفاء كثيرون راقبوا الله واتقوه في أعمالهم وقدموا لأممهم خدمات جليلة ولكن الذي أردت قوله هو أن القاعدة الأساسية عند تلك الدول كانت وضع مصلحة الدولة أو القائمين بالأمر فيها فوق صالح الجماعة والأمة بل فوق المنهج نفسه فإن الله سبحانه وتعالى حرم قتل النفس إلا بالحق ، واعتبر العدوان على الأنفس كبيرة الكبائر ، والخلفاء ورجال الدولة كانوا يقولون ذلك ولكنهم أحلوا لأنفسهم دم أي إنسان أو جماعة تهدد سلطانهم ودولهم ، كأن دولهم فوق الإسلام وفوق منهج الله ، وعبد الملك ابن مروان كان بلا شك من أعظم خلفاء الإسلام وقد قدم هو وابنه الوليد لهذه الأمة خيراً عظيماً .

وكلاهما كان حريصاً على الصلوات والعبادات ولهما في هذا المجال مآثر جليلة ولكن كليهما كان يرى في نفس الوقت أن من حقه أن يستحل دم أي إنسان يتخوف منه على ملكه ، والحجاج بن يوسف الثقفي كان دون شك رجل دولة من الطراز الأول بل كانت له عناية بالمساجد والصلوات وكان شديد الاهتمام بالقرآن والمصاحف وله في ذلك الميدان آثار جميلة لكنه يستحل - دون أن تطرف له عين - دم أي إنسان أو جماعة تهدد سلطان مولاه عبد الملك أو ابنه الوليد ، وبأمره وبأمر خليفته انتهك الجند حرمة البلد الحرام واقترفوا من الجرائم ما لم يقدم عليه الجاهليون في أسود أيامهم ، وغريب من

الأمر بعد ذلك أن الحجاج بعد أن أنزل بالبلد الحرام ما أنزل قام صلى الله ويسجد شاكرًا .

ومن بين خلفاء بنى أمية واحد هو عمر بن عبد العزيز وضع صالح الإسلام وأمته فوق صالح البيت الأموي ، فأصبح بهذا وحده خليفة راشدًا خامسًا ، وعندما كتب إلى واليه يقول : « فارفع - قبح الله رأيك - الجزية عن أسلم ، فإن الله بعث محمدًا هاديًا لا جانيًا » أنزل بمالية الدولة ضربة قاصمة وهبطت الجبايات إلى الثلث ولكن الإسلام كسب بهذا الأمر مكاسب لا تحصى فإن ملايين المسلمين من الموالي كانوا قد يشعروا من عدل الإسلام ودولته وظنوا أنه دولة جديدة من دول الظلم بسطت سلطانها عليهم لتمتص دماءهم باسم الدين ، وانحرفت بهم الظنون في طرق ومسالك كلها مهالك وانتهز أعداء الله الفرصة فصبوا سمومهم في أذهان أولئك المساكين وكادوا يخرجونهم عن الإسلام جملة ، فما راعهم إلا وعمر بن عبد العزيز يعود بهم إلى منهج الله وسنة العدل فتبددت الشكوك وارتد الأمل والإيمان إلى قلوب تلك الملايين ، وعمر بن عبد العزيز حكم من ١٠ صفر ٩٩ إلى ٢٠ رجب ١٠١ هـ / ٢٣ سبتمبر ٧١٧ - ٨ فبراير ٧٢٠ م ، فهي سنتان وخمسة أشهر قمرية ، وحوالي سنتين وأربعة أشهر ميلادية ولكنها تعدل في تاريخ الإسلام دهرًا كاملاً ، وعندما خلفه يزيد بن عبد الملك وارتد إلى السياسة الأولى وضع صالح الدولة فوق صالح الإسلام عادت المظالم الأولى وعاد الانتكاس ولكن أمة الإسلام عرفت أن المسئولية لا تقع على الإسلام بل على عواقب الذين يزعمون أنهم رعاة أمته من رجال الدولة فازداد تمسك المسلمين بالإسلام ونفضوا أيديهم من الدولة وأصحابها جملة . وهذا هو الذى نشط علماء الأمة وفقهائها إلى العمل ، فإن الدين لله وللناس ولا ولاية على الناس إلا الله رب العالمين ومالك الدين ويوم الدين ، ورجال الدولة لا يؤتمنون على الدين أو الشرع ، وإنما الأمة هي الوصية على دينها الحفيظة عليه ، وشيوخ الأمة هم المكلفون بهذا الواجب العظيم ، وكيف يؤتمن رجال الدولة على الدين وهم يتمسكون بأقوال ينسبونونها إلى رسول الله ﷺ وهى في ذاتها إهانة للحس الدينى السليم ، وكيف يمكن أن يقبل الناس حديثاً يقول : إن الله يعز هذا الدين بالرجل الفاجر؟ كيف يمكن أن يعز الدين وهو نور وهدى ورحمة برجل فاجر خارج على الدين بطبعه وتصرفه ؟ وكيف يقبل الناس حديثاً روجه أحلاس

السلطين يقول : إن الله يَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن ! وكيف تعقل نفس مؤمنة أن السلطان وهو من البشر يكون أقوى من القرآن وهو كلام الله وقانونه وإرادته وعزيمته ؟

وإليك الخبر التالى يرويه الإمام الشافعى وهو يؤيد ما نقوله من أن الفقهاء نقضوا أيديهم من ظلمة السلاطين : إن الخليفة هشام بن عبد الملك سأل عن تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فقال سليمان بن يسار : هو عبد الله بن أبى بن سلول . قال هشام (الخليفة) : كذبت إنما هو على بن أبى طالب ! قال سليمان : أمير المؤمنين أعلم بما يقول ! ثم دخل ابن شهاب الزهرى فسأله هشام ، فقال : هو عبد الله بن أبى بن سلول . قال هشام : كذبت إنما هو على بن أبى طالب ! قال الزهرى وقد ملأه الغضب : أنا كذبت ؟ فوالله لو نادانى مناد من السماء إن الله أحل الكذب ما كذبت .. قال الشافعى : فما زالوا يغرون به هشاماً حتى قال له : أرحل ! فوالله ما كان لنا أن نحمل (العلم) عن مثلك .

فقال الزهرى : ولم ذاك ؟ أنا اغتصبتك لنفسى أم أنت اغتصبتنى لنفسك ، فحلّ عنى .

قال الخليفة : لا ، ولكنك استدنت ألفى ألف (درهم) .

قال الزهرى : قد علمت وأبوك قبلك أنى ما استدنت هذا المال عليك ولا على أبيك ! وخرج مغاضباً .

قال الخليفة للجالسين حوله : إننا نهيج الشيخ ، ثم أمر فقضى عنه من دينه ألف ألف ، فلما أخبر بذلك ابن شهاب الزهرى قال : الحمد لله الذى هذا هو من عنده (رواه الأستاذ عبد الحليم الجندى فى كتابه الفذ عن الشافعى ص ٢١٢) .

وكان ابن شهاب الزهرى - بشهادة الليث بن سعد - يستدين ليعطى الفقراء والمساكين والعجائز والأرامل والأيتام ، ومن هنا ركبته هذا الدين العظيم .

فهؤلاء الشيوخ كانوا فعلاً رجال الأمة وقادتها وحمايتها وما كان أحد ليرغم ابن شهاب الزهرى على الاستدانة لقضاء مصالح الناس ، ولكنه ألزم نفسه ذلك بوحى من ضميره وإحساسه بمسئوليته .

ويستوقف النظر أن أولئك الأئمة جميعاً كانوا أهلاً للمسئولية الكبرى التي تصدوا لحملها فقد كانوا - والأئمة الأربعة الكبار خاصة مضافاً إليهم الإمامان جعفر الصادق وزيد بن علي - كانوا جميعاً على خلق متين وإيمان راسخ لا تشوبه شائبة وصدق كامل لا يتطرق إليه شك وإخلاص لله ودينه وأمته لا يمسه ريب ، بل كانت لهم جميعاً طلعات بهية وهيئات جميلة ومظاهر في التعرف والهيئة وحسن الشارة والإشارة ما يفوق كل ما كان للملوك ، مما يؤكد لك أنهم - خلقاً وخلقاً شكلاً وموضوعاً ظاهراً وباطناً - هم رؤساء الأمة من دون الملوك ، فقد كان معاوية بن أبي سفيان بطيئاً مترهلاً لا يحسن الجلوس ، وعبد الملك بن مروان كان إذا أكل غاص في الطعام بذراعيه حتى تتسخ كل ثيابه فينفضونه بعد الطعام إلى الحمام ليغسلوه ويغيروا ثيابه ، وكان سليمان بن عبد الملك أحول قميئاً تشيخ عنه الجوارى حتى امتلأت نفسه حقداً على كل رجل ذى هيئة ووسام ، فأين هذه الصور من تلك الهيئات الجميلة التي زان الله بها مالك بن أنس ، وأبا حنيفة النعمان بن ثابت ، ومحمد بن إدريس الشافعى ، وأحمد بن حنبل ؟ بل كان الإمام جعفر الصادق آية في حسن الهيئة وبهاء الطلعة وحسن الشارة حتى كانت العيون تتعلق به أول ما تراه . في حين كان أبو العباس السفاح شائه الهيئة أشعث اللحية لا يحسن أن يقيم عمامته حتى كانت أغلب الوقت ساقطة تحيط بعنقه .

وقد تعاصر أولئك الأئمة جميعاً وجاءوا في الوقت الذى اشتدت حاجة الأمة إليهم فيه ، ففيما بين سنتي ١٠٠ - ٢٥٠ هـ كان الانحراف العظيم الذى أخرج بنى أمية ثم بنى العباس عن الجادة والمنهج ، وبين هاتين السنتين أيضاً عاش الأئمة الستة الكبار الذين ذكرناهم وعملوا ، فكأنما ابتعثهم الله بالضبط في هذه الحقبة ليمسكوا بزمام الأمة على الجادة والمنهج ويحفظوها من الانحراف الخطير ، وإليك سنوات ميلادهم ووفاتهم لترى هذه الحقيقة بنفسك :

مالك بن أنس : ٩٤ - ١٧٩ هـ / ٧١٣ - ٧٩٥ م .

أبو حنيفة حوالى : ٨٠ - ١٥٠ هـ / ٦٩٦ - ٧٦٧ م .

الشافعى : ١٥٠ - ٢٠٤ هـ / ٧٦٧ - ٨١٩ م .

أحمد بن حنبل : ١٦٤ - ٢٤١ هـ / ٧٨١ - ٨٥٥ م .

جعفر الصادق حوالى : ٨٣ - ١٤٨ هـ / ٧٠٣ - ٧٦٥ م .

زيد بن علي زين العابدين : ٨٠ - ١٢٢ هـ / ٦٩٩ - ٧٣٩ م .

مصادفة ؟ لا والله وما يجرى شئ في الأرض إلا بحساب وقدر ، وقد رأينا كيف اجتهد مالك في بناء القاعدة العريضة لشرعية الإسلام على القرآن والسنة ثم شد القاعدة بما لا غنى عنه من الإجماع والقياس ، ووضع للناس تشريعاً شاملاً يعين أهل القضاء والفتوى والرأى في تعرف السبيل لحل مشاكل الناس فما كل إنسان بحافظ واعية للقرآن تعرض له النازلة فتوافيه القريحة بالآية أو الآيات التي تتضمن الحل ، وما كل الناس عارفين حديث رسول الله ﷺ كله ، وقد يكون الرجل حافظاً واعياً أى عالماً ولكنه يعجز عن استنباط الأحكام فلا يكون فقيهاً ، ولهذا فقد طار الناس بالموطأ طيراناً ووجد القضاة فيه سفينة النجاة وتعالى المالكية في ذلك حتى أصبح الرأى عندهم هو رأى مالك ، وأصحاب مالك يسمون مذهبهم مذهب الرأى ولكن الرأى هنا رأى مالك دون سواه ، فإذا لم يكن هناك رأى صريح لمالك فلا يمكن أن يخرج الرأى عما يقول به أحد تلاميذه : عبد الرحمن بن القاسم ، أو أشهب بن عبد العزيز ، أو عبد الله بن وهب ، أو عبد السلام بن سعيد المعروف بسحنون ، أو يحيى بن يحيى الليثي ، ومن في طبقتهم بل إن صغار القضاة انصرفوا عن الأصول وقصروا همهم على الفروع أى الأحكام الجزئية « الجاهزة » حتى ضج الكثيرون من هذا التمسك الحرفي الضيق برأى مالك وأصحابه .

وهذا هو ما جعل أبا حنيفة يسلك في تفكيره الفقهي مسلكاً آخر يقوم أساساً على القرآن والسنة ولكنه يدقق في السنة فلا يقبل من الأحاديث إلا ما ثبتت صحته متناً وسنداً وأوسع أبو حنيفة المجال للرأى ، ومالك بن أنس اعتمد على سوابق وشواهد من فقه عمر بن الخطاب وأجلاء الصحابة فأجاز الحكم بما فيه صالح المسلمين إذا لم يكن في ذلك تعارض مع أمر من أوامر الله أو نهى من نواهيه وسموا ذلك الاستصلاح أى الحكم بما فيه المصلحة العامة للمسلمين ، وتوسع أبو حنيفة وتلاميذه في الاستصلاح حتى خيف أن تطغى هذه المصالح العامة أو المرسلة على نصوص القرآن والسنة ، ودخل في الفقه مبدأ الاستحسان أى أن للقاضى أو ولى الأمر إذا لم يجد نصاً صريحاً أن يحكم بما يستحسنه أى بما يراه حسناً للناس ، وهذا بدوره فتح باباً من البلاء لا يسد فالاستحسان حكم بالهوى والمزاج . قال الشافعى : « أفرأيت إذا قال الحاكم والمفتى في النازلة ليس فيها خبر ولا قياس « استحسناً كذا » فلا بد أن يحكم أن جائزاً لغيره أن

يستحسن خلافه فيقول كل حاكم في بلد ومفت بما يستحسن فيقال في الشيء الواحد بضروب من الفتيا ، ثم يقول في الرسالة « لا يجوز لأحد أن يقول بالاستحسان جاز لأهل العقول من غير أهل العلم أن يقولوا بما ليس فيه خبر بما يحضرهم من الاستحسان ، والاستحسان تلذذ » فإذا تركت للناس حرية الحكم على أساس مراعاة المصلحة العامة والاستحسان أصبحت الأحكام تجرى على الهوى ، وأبو حنيفة أقر الحكم على قاعدة أن الضرورات تبيح المحظورات وأحسن هو تطبيق هذه القاعدة ، ف جاء بعض تلاميذه فأباحوا للحكام تخطي الحدود والعدوان على الأنفس والأموال والضرورات تبيح المحظورات ، والأترك العثمانيون مثلاً أخذوا بمذهب أبى حنيفة وقال لهم شيوخهم : إن في القرآن آية تقول إن الفتنة أشد من القتل فأباحوا لأنفسهم قتل إخوانهم وكل من يخشون منافستهم على العرش تحاشياً للفتنة وصار السلطان منهم إذا تولى قتل العشرات من إخوانه وبني عمومته تحاشياً للفتنة وزعموا أن آية الفتنة أشد من القتل تبيح لهم ذلك ، وغاب عنهم أن مقصد الآية ١٩١ من سورة البقرة بعيد جداً عما زعموا ولكي نفهمها ونحسن تطبيقها لا بد أن نقرأها كاملة ونعرف أسباب تنزيلها فهي تقول : ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة ٢ / ١٩١ - ١٩٣) فالآيات كلها تدور حول قتال الكفار فأين ذلك من قتل المسلمين ممن تخشى منافستهم وسفك دم الأبرياء دون جريمة ؟

لا بد إذن من ضوابط وروابط لكل شيء في التشريع ، لا بد من قواعد محكمة لتفسير القرآن الكريم ، والاستناد لآياته واستخراج الأحكام منها لا بد لذلك من علم واسع بالقرآن الكريم ومعاني ألفاظه وآياته وأسباب تنزيله ولا بد كذلك من قواعد وضوابط لقبول الأحاديث النبوية والاستدلال بها والاعتماد عليها في تفسير القرآن أو استخراج الأحكام ولا بد كذلك من تحديد معنى الإجماع .

وهل إجماع أهل المدينة يجزى عن إجماع غيرهم كما يقول مالك ؟ والقياس هل هو عملية قياس بسيطة نأخذ حكمنا على حالة سابقة ونطبقه على حالة لاحقة مشابهة أو نتصور أنها مشابهة ؟

كل هذا كان لا بد من ضبطه ووضع على أصول لا يتعداها أحد ، فإن التشريع السليم أساس العمران وتشريع الله سبحانه خير تشريع فهو سبحانه الذى خلق كل شىء فأحسن خلقه وأحكمه ، ولا يستطيع أى إنسان أن يطبق أحكام الله سبحانه جزافاً أو تأويلها على الهوى فلا بد من قواعد وضوابط لهذا التطبيق وإلا أصبحت الأحكام فوضى ، باختصار لا بد من وضع الأصول المحكمة لكل ما يتصل بالأحكام والقضاء ولا بد أن تكون هذه الأصول علماً محدد القواعد واضح الأركان .

وهذا هو الذى هيا الله له محمد بن إدريس الشافعى وعندما نقرأ تاريخ هذا الرجل نحس فعلاً أنه لم يكن منذ البداية مجرد طالب علم دخل الميدان وظهرت له فيه مواهب وملكات جعلته يسير سيراً عادياً ومنطقياً حتى يصل إلى القمة كما هى الحال مثلاً مع أئمة عظماء مثل محمد بن الحسن الشيبانى أو يوسف بن يحيى البويطى (ت ٢٣٢ هـ) أو أبى إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزنى (ت ٢٦٤ هـ) أو يونس بن عبد الأعلى المصرى (ت ٢٦٤ هـ) ممن طلبوا الفقه وساروا فى طريق العلم ووصلوا إلى الصدارة بالعلم والعمل ، ولكن حياة الشافعى تبدو لنا وكأنها تمهيد وإعداد للعمل العظيم الذى ندب له نفسه فنجد من بدايات سنوات درسه يكون نفسه تكويناً يخالف ما عرفناه فى تكوين الشيوخ فهو يدرس القرآن والحديث ثم يتجه إلى دراسة اللغة والبلاغة والشعر والفروسية والرماية ، ويدرس الرياضيات والعلوم كأنه يضبط فكره ومنطقه أو كأنه يعد نفسه لشيء آخر إلى جانب الفقه أو لطراز آخر جديد من الفكر الفقهي ، كل هذه الدراسات والتدريبات ستنتفعه فيما بعد عندما يشرع فى التأليف فى علم الأصول .

والشافعى قرشى يرجع نسبه إلى المطلب بن عبد مناف والمطلب أخو هاشم بن عبد مناف جد رسول الله ﷺ وكان بنو المطلب أقرب قرىش إلى بنى هاشم ، وكان رسول الله ﷺ يتحدث أحياناً باسم بنى هاشم وبنى المطلب ويقول : نحن وبنو المطلب هكذا ويشبك أصابع يده ، واسمه الكامل محمد بن إدريس بن العباس بن شافع بن السائب ابن عبيد بن عبد يزيد بن المطلب بن عبد مناف : وكان هو عظيم الإحساس بهذه النسبة وأهميتها ، وأنت تحس أنه كان بالغ التقدير لمستولية هذا النسب ، فما كان يتصرف أو يتكلم إلا عن إحساس بمستولية نسبه ، وذلك دون إدلال على الناس به ، ومع ذلك فما

عرفه الناس في تاريخ الفقه إلا بلقب عالم قريش وهو نفسه كان يقول : « لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح ، ولكن من طلبه بذلُّ النفس وضيق العيش وخدمة العلماء أفلح » ، ومع هذا التواضع فإنك إذا ذهبت إلى مدفن الشافعي ومسجده في الحي المعروف باسمه في القاهرة قرأت على الباب : « عالم قريش يملأ طباق الأرض علماً » ويقال : إن هذا اقتباس من حديث نبوي نذك في صحته : « اللهم اهد قريشاً ، فإن عالمها يملأ طباق الأرض علماً » ، والغالب أن هذا الحديث وضع بعد موت الشافعي .

وقد ولد محمد بن إدريس الشافعي في غزة وكان أبوه إدريس قد خرج إليها مع زوجته ، وكانت امرأة من الأزدي أي يمنية ويقال إنها قرشية مثل أبيه فهي - فيما يقال - حفيدة أخت السيدة فاطمة أم الإمام علي بن أبي طالب ، والقول الأول أصح . وقد توفي بعد مولده بقليل وكان مولده في نفس السنة التي توفي فيها أبو حنيفة وهي سنة ١٥٠ للهجرة ، وبعد موت الأب خرجت الأم بابنها إلى عسقلان وكانت تسكنها جماعات من الأزدي ، ثم خافت الأم إن هي بقيت في عسقلان أن يضيع نسب ابنها القرشي ويضيع حقه في بيت مال المسلمين من سهم ذوى القربى فرحلت به - ابن عامين إلى مكة - وفي مكة نشأ محمد بن إدريس ودرس وأفيع ، وكانت أمه امرأة ذكية على قدر من العلم ولها عليه فضل ظاهر سواء في التربية أو المعونة على الدرس ، وعلى كثرة ما قرأنا عن الأمهات فلا نذكر أن أمًا عملت في سبيل ابنها ما عملته تلك السيدة الجليلة ، فقد كانت قليلة ذات اليد ومع ذلك فقد يسرت لابنها كل ما احتاجه من مال ليدرس ، وعندما وجدت فيه نجابة ورغبة في الرحلة لطلب العلم باعت من متاع بيتها وشجعت على الذهاب وظلت ترقبه بعد ذلك في صبر وثبات في حين أن بقية الأمهات لا يزلن يتمسكن بالابن ويثبطنه عن الرحلة ليظل إلى جوارهن .

وكان محمد بن إدريس في الغاية من الذكاء وسعة الذهن فقد أتم حفظ القرآن في السابعة وظل في الكتاب بعد ذلك يعين المعلم في تحفيظ أترابه إذا غاب ، وفي الثالثة عشرة كان يقرأ القرآن في المسجد الحرام قراءة حسنة خاشعة يجتمع الناس لسماعها ، وكان يعيش مع أمه على راتب قليل هو حظه من سهم ذى القربى ومع ذلك فقد كان دائماً حسن الهيئة نظيف الثوب ، وقد افتتن الغلام بالقرآن فداوم على قراءته ودرسه والتفهم له وشغف بحلقات الدرس فصار يلزمها وضاعت يده عن ثمن القراطيس فصار يكتب

علي قطع الفخار والخزف والعظم وعظم أكتاف الإبل والخشب ، فإذا أتيحت له الفرصة مر بالديوان فاستوهب أهل « الظهور » وهى القراطيس التى كانوا يسودون فيها ما يكتبون ثم يستغنون عنها وظهورها خالية ليأخذها ليكتب فيها . قال : حتى كانت لأمى حباب (جمع حب وهو الزير) فملأتها أكتافاً وخزفاً وكرباً (أصول سعف النخل) مملوءة حديثاً . ثم إنى خرجت من مكة فلزمت هذيلاً فى البادية أتعلم كلامها وأخذ طبعها وكانت أفصح العرب فهذا إذن غلام نابغة يدرس فى السن الباكرة القرآن والحديث ثم يخرج إلى منازل بنى هذيل ليأخذ عنهم العربية فى أصفى صورها ، والهذليون معروفون فعلاً بالفصاحة وقول الشعر ، وديوان الهذليين يعد من أجمل نماذج الشعر العربى البدوى الصافى وأجمل طبعاته وأصحها عملت فى أوروبا وقام عليها مستشرق من أواخر القرن الماضى .

وكان كبير الشيوخ فى المسجد الحرام فى تلك السنين - أى ومحمد بن إدريس دون العشرين - عبد الملك بن عبد العزيز جُريج ، وكان عالماً ثبُتاً ومحدثاً صادقاً فلزمه محمد ابن إدريس وأخذ علمه كله فلما مات انتقل إلى حلقة شيخ لا يقل عنه ثقة هو مسلم بن خالد بن فروة الزنجى ، وكان يتنقل بين حلقاته وحلقة سعيد بن سالم القداح وشيوخ آخرين سيروى عنهم وينسب إليهم أحاديثه ، ولكن رجلاً لم يؤثر فيه أثر سفيان بن عيينة شيخ محدثى عصره وقد قال فيه فيما بعد : وما رأيت أحداً أحسن تفسيراً منه للحديث ، وما رأيت أحداً أكف منه عن الفتوى وما جاوز العشرين حتى أذن له الشيوخ أن يجلس للإقراء ولكنه وجد أن ذلك يقعد به عن الطلب ففضل أن يظل طالباً ، وفى أثناء ذلك تعلم الركوب والرماية ، وقبل الثانية والعشرين كان قد جمع من العلم ما لا يجمعه غيره حتى الأربعين مع فصاحة ونجابة وبلاغة وحسن مظهر وزهد فى الطعام وخوف من السمن والبدانة .

ورحل إلى المدينة المنورة ليسمع من مالك ولم يكن السماع من مالك سهلاً فإن حلقة الرجل كانت فى الغاية من الضبط والنظام ، ولكن محمد بن إدريس وصل إلى قلب مالك واستحق محبته وإعجابه وصار من أنجب تلاميذه ثم حفزته الهمة إلى السماع على شيوخ العراق فمضى إلى بغداد مع ضيق العيش والضعف وسمع من محمد بن الحسن وأبى يوسف تلميذى الشافعى ، وكان قد لقى فى المدينة نفراً من تلاميذ الإمام

جعفر الصادق وأخذ عنهم الكثير من علمه وحفظ كذلك الكثير من أقضية الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وأنت إذ تقرأ حياة الشافعى وتستبعد منها الأقاويص التى دست فيها فأتت أمام نفس عطشى إلى العلم أبداً فهو فى درس وسماع وحفظ ومراجعة وتقييد عمره كله ، وهو لا يقف عند الحفظ والتقييد بل هو مفكر يبهر الإنسان بذكائه وجسن فهمه ونفاذ بصيرته إلى لباب الأمور وهو مع ذلك هادئ النفس خفيض الصوت يناقش ويجادل دون أن يغضب أو يرفع صوته وقد درجنا على أن نقول : إن أرسطو أول من وضع للناس مذهباً فى المعرفة ، وأحق بنا نحن المسلمين أن نقول : إن محمد بن إدريس الشافعى أول من أرسطو بهذا اللقب فهو يقول : إن أول ما نحرص عليه من العلم هو الحق والله سبحانه هو الحق ، فهو سبحانه بداية العلم وإذا بدأ علمك من الحق وسار مع الحق فقد أمنت العثار ، والعلم لا يصح بغير العمل وكان يقول : « اعلّموا أنه إذا صح الحديث عندى ولم آخذ به فإن عقلى قد ذهب » ، وبلغ من إيمانه بالحق أن كان يقول لتلاميذه : « إذا ذكرت لكم أدلة فلم تقبلها عقولكم فلا تقبلوها ، فإن العقل مضطر إلى قبول الحق » .

ولهذا فقد كان يدعو إلى العقل وينهى عن التقليد دون فهم ؛ لأن العلم فى رأيه فهم ولقد طالما قيل لنا : إن أفلاطون علم الإنسانية فى المحاوراة وأدبها ، فاسمع إذن إلى الشافعى يقول وهو بعد شاب لم يشرع فى التأليف : لا يمتنع طالب العلم عن السماع لمن خالفه ؛ لأنه قد ينتبه بالاستماع لترك الغفلة ويزداد به - أى بالاستماع والإنصات - تثبيتاً فيما اعتقد من الصواب ، وعليه فى ذلك بلوغ غاية جهده والإنصاف من نفسه حتى يعرف من أين قال ما يقول وترك ما يترك ، ولا يكون بما يقول أغنى منه بما خالفه حتى يعرف فضل ما يصير إليه على ما يترك ، هذا مع حب للناس وبعد عن الكراهية والبغض ، فلم تؤثر عنه كلمة ذم واحدة فى إمام أو فقيه أو شيخ ، وقد قال مرة « ما كلمت أحداً مرة إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان » وهذه مرتبة فى الإنسانية ما أحسب أن أحداً بلغ شيئاً فوقها .

* * *

أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَصِرَاعُ الدِّينِ وَالِدُوتِهِ

في سنة ١٩٥ هـ / ٨١١ م دخل الإمام الشافعي بغداد دخلته الثانية وكان الإمام أبو حنيفة قد توفي سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م مخالفاً مدرسته ومذهبه في الفقه والنظر وحل مكانه في مشيخة الفقه في بغداد أحمد بن حنبل ، وكان أحمد يعرف الشافعي وعلمه وفقهه فاستقبله حفيّا به ، وجلس إليه يتذاكر في العلم ، وكان الرجلان على مستوى عال جدًا من كمال الخلق وعلو الهمة وسمو النفس ، فلم يقع بينهما إلا ما يقع بين الأصفياء من محبة وتقدير ، وكان كلا الرجلين زاهداً في الدنيا ومطامعها راغباً في العلم وما عند الله . وكان كلاهما يعتبر نفسه خادماً لأمة الإسلام وللبشر أجمعين فارتبطا من سنوات طويلة برابط المودة والعلم وصار ابن حنبل يعلم الشافعي ويتعلم منه ، ولا نعرف في تاريخ الفكر الإسلامي رجلين صفت نفسيهما للدين والعلم والناس كما نجد عند الشافعي وابن حنبل ، وكان كلاهما عفيف اللسان والقلب لا يصدر عنه ما يمس أحداً أو يجرح شعوره فازداد كلاهما بالآخر علماً وورعاً وجاهاً ، وذهبا في التاريخ مذهب الصفاء القلبي الخالص الذي ينبغي أن يكون عليه كبار الأئمة ليكونوا قدوة للناس ومثالاً .

وقد قضى الشافعي في بغداد سنتين ونيفاً (١٩٥ - ١٩٧ هـ) اكتمل خلالهما عمله وبلغ خلالهما ذروة فكره ، فخلال هاتين السنتين أعاد الشافعي كتاب (الرسالة) وهي مقالة طويلة في أصول العلم والفقه ، وأحس في نهاية مقامه في بغداد أنه بحاجة إلى بلد هادئ يجد فيه جواً علمياً بعيداً عن بغداد عاصمة الخلافة وتياراتها السياسية المتدافعة فاستقر رأيه على أن يذهب إلى مصر ، فله فيها أستاذ كبير توفاه الله هو الليث ابن سعد وتلاميذ أوفياء سبقوه إليها ومضوا يلحون عليه في القدوم إليهم ، وفي نهاية ١٩٧ هـ / ٨١٣ م حمل متاعه ورحل إلى مصر واستقر في الفسطاط ليعيد كتابة رسالته في الأصول وينشئ على أساسها كتاباً مفصلاً في الفقه وفروعه ، وقد تحقق له ما أراد ، وفيما بين سنتي ١٩٧ - ٢٠٤ هـ / ٨١٣ - ٨١٩ م وهي السنة التي توفي فيها الشافعي أتم عمله العظيم فكتب كتاب « الأم » في أصول الفقه وفروعه في نحو سبع مجلدات

ضخام خلال تلك السنوات السبع لم يكف الشافعي عن العمل والكتابة والقراءة والمراجعة والتحقيق ، وقد لازمه المرض خلال تلك المدة كلها حتى هد قواه ، وأطفاً جذوة حياته فتوفى عن أربع وخمسين سنة هجرية خلف بعدها للإسلام والفكر الإنساني تراثاً لا يقل عما خلفه سقراط وأرسطو وأفلاطون مجتمعين ، وفي رسالة الشافعي وحدها - ونصها أقل من مائة صفحة - من مبادئ حرية الفكر واحترامه وقواعده ومناهجه كل ما تحدث به بعد ديكارت ومن تلاه من قادة الفكر الغربي ، ولكننا نحن العرب لا نتدبر ولا نحسن القراءة ولا نفكر وطوال تاريخنا رزقنا الله نعم الدنيا كلها - مادية وروحية - فلم نحسن الإفادة منها ، ولقد أكرمنا الله بالإسلام وهو النور فلم نبصر من نوره شيئاً وعشنا في الظلام ، ورزقنا أئمة في مناهج العلم ومباهج الفكر فتركناهم ومضينا نطلب مناهج الآخرين وفكر الآخرين ثم أتانا الله في أيامنا هذه بثروة من وراء العقول فأبيناً إلا أن نحرقها ونحرق بلادنا بها حتى افتقرنا ومضينا نتكفف الناس وكان حالنا في البداية والنهاية والماضى والحاضر كما قال الشاعر :

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول



وأنا أتيك هنا بسطور عن « رسالة » الشافعي في الأصول أى أصول الفقه ، والفقه هو الفكر والفهم ، فهي رسالة في الفكر ومناهجه ، والشافعي يرتفع بها إلى أعلى مستويات واضعى المناهج الفكرية والعلمية في تاريخ البشر .

الرسالة مطبوعة في أول كتاب « الأم » الذى قام على نشره رجل من أجلاء القانونيين في تاريخنا هو الأستاذ أحمد بك الحسينى المحامى ، ويقول الأستاذ عبد الحليم الجندى في كتابه عن الشافعي : إن الحسينى بك كان واحداً من أول أربعة من المحاميين في مصر هم سعد زغلول ، وإبراهيم الهلباوى ، وإبراهيم اللقانى (انظر الهامش ص ١٩٦) وقد شرحها وعلق عليها إمام من أئمة الحديث في مصر المعاصرة هو المرحوم أحمد محمد شاكر - طيب الله ثراه - في نحو ٧٠٠ صفحة .

ولكى يستوثق القارئ من صحة ما أقول في قيمة الرسالة ومكانها أقدم هنا أهم ما تنص عليه من المبادئ والقواعد :

١ - لقد بدأ ديكارت - واضع أساس المنهج العلمى الحديث لأهل الغرب جميعاً بالشك فى كل شىء يسلم به الناس دون تفكير ، ومن الشك يصل إلى اليقين ، فهو يبدأ بالشك فى وجوده نفسه ثم يقول إنه تأكد من وجوده عندما تنبه إلى أنه يفكر ، وما دام يفكر فهو موجود ، وعندما يتأكد من وجوده ينتقل إلى البحث فى وجود حقائق الكون والفكر بادئاً دائماً بالشك ، ومنهجه هنا ذهنى فكرى منطقى رائع ، ولكن أروع منه منهج الشافعى ، فهو يبدأ من حقيقة لا سبيل إلى الشك فيها أبداً وهى وجود الله سبحانه وتعالى ، والله سبحانه هو الحق وهو اليقين ، فالشافعى هنا يبدأ من اليقين فى الله تعالى ليصل - عن طريق الفكر والمنطق - إلى اليقين فيما سواه .

٢ - ولهذا فهو يبدأ الرسالة بقوله : فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفى كتاب الله دليل على سبيل الهدى فيها ، أى أن كتاب الله يضم البدايات والعلامات المؤدية إلى كل الحقائق .

٣ - وبعد ذلك بقليل يذكر قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ ، فالنجوم هنا حقيقة لاننا نراها بالعين ، ونحن عندما نراها بالعين فنستدل برؤيتنا إياها على أننا نحن موجودون ، وهذا هو المعنى الذى أرادته ديكارت عندما قال : أنا أفكر فأنا موجود ، والشافعى يقول « أنا أرى وأعقل فأنا موجود » .

٤ - وما دامت النجوم تهديك إلى الطريق فى ظلمات البر والبحر فهى أيضاً تهديك إلى خالقها ، وما دامت هذه النجوم والكواكب جميعاً تتحرك فى نظام واحد محكم لا يتعارض شىء فيه مع شىء فلا بد أن يكون محركها واحداً ، وما دام هو يحركها فهو قادر على تحريكها بهذا النظام المحكم ، وما دام هو الذى يحركها كلها بهذا النظام المحكم فهو خالقها إذ لا يعقل أن تكون هناك قوة هى التى خلقتها هذا الخلق المحكم ، وقوة أخرى هى التى تحركها تلك الحركة المحكمة التى تتفق تماماً مع طبيعتها .

فانظر . والله إلى منطق الشافعى فى مطلع الرسالة وقل لى : هل يصدر هذا إلا عن فكر منير علمى منهجى يصل إلى الحقائق عن طريق الفكر المستقل ويرفض الوصول إليها عن طريق السماع أو التقليد ؟

٥ - وما دمتنا قد سلمنا بأن الله هو الخالق والمحرك والمدبر ، فمن الطبيعي أن يكون هو الهادي والمعلم والمرشد إلى الطريق المحكم ، فكما أنه يحرك النجوم - وهى جمادات - بإحكام فهو يحركنا أيضاً بإحكام ، وهو عندما يقول لنا : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (المائدة ٥ / ٣) . فلا بد أن يكون هذا حقاً .

٦ - وما دمت قد سلمت بأن الإسلام حق وأنه من الله فأنت تسلم بأن محمداً رسول الله ﷺ الصادق : لأنه هو الذى نقل إلينا كلام الله الموحى إليه ، وما دمت قد سلمت بهذا فأنت تسلم بالقرآن وبأن كل ما فيه حق وهدى ونور ، وإذن فيكون كل ما فى القرآن علماً ، وكل ما قاله رسول الله ﷺ علماً ، ويكون القرآن والسنة هما العلم وقاعدة العلم .

وهذا هو منهج الشافعى فى الاستدلال ، فقل لى : إن لم يكن هذا أفضل وأوضح من قول ديكارت : أنا أفكر فأنا موجود ، ومن قول سقراط : اعرف نفسك .

٧ - ويستطرد الشافعى بهذا المنطق الرياضى المحكم فى بيان أحكام الله فى القرآن وما هو عام منها يصدق على كل شىء ، وما هو خاص ينطبق على شىء بعينه دون غيره ، فمثال العام قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (الحجرات ١٣ / ٤٩) ، فهذا ينطبق على الخلق أجمعين أما قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ﴾ (المائدة ٥ / ٩٥) ، فهذا خاص ينطبق على الحرم والمحرمين دون سواهم .

٨ - ويمضى الشافعى فى شرح منهج القرآن فى التبيان والهدى خطوة خطوة ، فهو لا يهجم على قضية إلا إذا استقرت فى ذهنك سابقتها التى يبنى عليها .

ثم ينتقل إلى وظيفة السنة فيبين لك حكمتها ووظيفتها فيقول : قال الله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ ﴾ (المائدة ٣٨ / ٥٥) ، وسن رسول الله ﷺ لا قطع فى ثمر ولا كثر (شىء فى النخل) وألا يقطع إلا من بلغت سرقة ربع دينار فصاعداً ، فمن سرق ليأكل ومن سرق ليسد جوعه فلا قطع فيه ، وإنما القطع على من عدا على مال الناس طمعاً فيه ، وعلى هذا الأساس أوقف

عمر رضى الله عنه حد القطع في عام الرمادة ، وهو عام المجاعة ؛ لأن الدين رحمة وإنسانية وإصلاح ، وحدوده ليست انتقاماً .

وعلى هذا المنهج العقل المنطقي يسير الشافعى في بيانه للأصول ، أصول الدين وأصول الفقه والتشريع ، وكل الحجج عنده تقوم على قاعدة واحدة هي المنطق أى الفهم أى الوصول إلى الحقيقة عن طريق التفكير السليم الحر الذى ينتهى إلى الفهم وهو الاقتناع ، فإذا لم يقتنع عقلك بالدين ويسترح إليه قلبك ؛ فلا حاجة بالإسلام إليك ولا سبيل له عليك ؛ لأنك ضال لا ترى الحق ولن تراه حتى يأذن الله لك في ذلك .

وكل ما في الرسالة بعد ذلك متعلق بالشرعية والفقه ، ولهذا فإننى أدعه ؛ لأنه يعنى أهل الفقه خاصة ، ولكنه يريك كيف أن هذا الرجل العظيم محمد بن إدريس الشافعى يقف في طليعة أهل العلم والفكر والمنطق في تاريخ الفكر الإنسانى كله .

وفي مصر وجد الشافعى بلداً فيه تقاليد علم وتعليم وقضاء وقانون من آلاف السنين ، وقد سبقه إلى دراسة الفقه وتدريسه فيها إمام من أهل مصر هو الليث بن سعد (٩٣ — ١٧٥ هـ / ٧١١ — ٧٩١ م) ، وهو مصرى من قلقشندة من أعمال القليوبية ، وكان فقيهاً عاقلاً منطقياً وضع لأهل مصر مذهباً في الفقه ولكن أهل مصر فضلوا عليه مذهب مالك ، فجاء الشافعى فرد على الليث بن سعد حقه ودرس فقهه .

وكان قد عرفه من قبل في اليمن على يد يحيى بن حسان وقال فيه : العلم يدور على ثلاثة : مالك والليث بن سعد وسفيان بن عيينة ، وقد ألزم الشافعى نفسه في مصر بالعمل المستمر فكان يقضى الليل في العبادة والتأليف والنهار في الدرس والتدريس .

وقد تأثر الشافعى بتقاليد مصر في العلم فقد جرت تقاليد العلم في الحجاز والعراق بأن يجلس الشيخ ويلقى الدرس من بدايته إلى نهايته ، وهم يكتبون عنه وتكون الأسئلة والمناقشة بعد الدرس . أما المصريون فكانت طريقتهم أن يبدأ الأستاذ فيلقى مدخلاً للموضوع الذى سيدرسه ثم تبدأ المناقشة بين الشيخ والتلاميذ ويكون هذا هو الدرس ويكون العلم في هذه الحالة تبادل رأى بين الأستاذ والطلبة ، ويصبح الأستاذ طالباً والطالب أستاذاً حيناً بعد حين ، وقد استراح الشافعى إلى هذه الطريقة وسار عليها .

وفي مسجد عمرو - أو تاج الجوامع كما كان يسمى - كان الشافعى يجلس للدرس

فبدأ النهار ، يدرس القرآن ، ثم يكون الدرس الثانى فى الحديث ، ثم تكون بعد صلاة الظهر مناقشة عامة فى القرآن والسنة ، وبعد الظهر تكون دروس العربية من لغة ونثر ونظم وعروض ونحو إلى صلاة العصر ، ثم يعود الشيخ إلى داره ليستجمع ذهنه ويجمع آراءه ويجلس للتأليف قبل المغرب وبعدها إلى صلاة العشاء وما بعدها إلى الفجر ، وفى الصباح يعطى أوراقه لتلميذه الربيع بن سليمان المرادى ليراجعها ويضبطها قبل أن تقرأ على التلاميذ .

وهذا والله صميم التعليم الجامعى وهو عندنا من ألف سنة ومائتين ثم نقول اليوم إننا نتعلم العلم ومناهجه من أهل الغرب .

ومن هذا الجهد كله خرج الشافعى بكتاب « الأم » أى أم العلم والفقه وأصلهما وهو كتاب جامع مفصل يبدأ بالعبادات ثم يفصل أمر البيوع (القانون المدنى والتجارى) ثم يتكلم عن الزواج والطلاق والمواريث والوصايا (الاحوال الشخصية) ثم يتكلم عن الجنايات والديات والحدود والقصاص (قانون الجنائيات) إلى آخر فصوله الكثيرة التى تشمل القانون كله .

وبهذا يكون الشافعى قد جمع بين الأصول والفروع ، والشافعى فى كتاباته يناقش مالكا ومحمد بن الحسن ، ويعرض لما كان من الخلاف فى رأى بين على بن أبى طالب وابن مسعود ، وهو فى ذلك كله فى الغاية من الأدب وعفة اللسان وتوقير الأئمة واجتناب ما يجرح الشعور ، فهو لا يقول قط: كذب فلان أو أخطأ فلان ، بل يقول : جانبه الصدق أو فاته الصواب أو كان أولى به أن يقول وما إلى ذلك ، وكل ذلك يكتبه الشافعى فى أسلوب عربى رصين بليغ ، وهو يستشهد فى كلامه بالشعر ومأثور الحكمة فهو إذن إمام فى العربية وإمام فى الفقه وقدوة فى الخلق .

وكل ذلك والرجل مريض فقبل أن يفد على مصر أصابته علة اليواسير من طول الجلوس للدرس والتأليف ، واشتدت عليه بمصر حتى كان أحيانا يجلس القرفصاء ليتجنب الألم ، ثم اشتد به المرض فكان ينزف حتى ليسيل الدم من ملابسه وعلى راحلته ، وفى أخريات أيامه اشتدت به علة تصلب شرايين القدم حتى صعبت عليه

الحركة ، ومع ذلك فما كان يشكو بل يصبر ويتعاظم ويمضى في العمل فإذا زاد كربيه بما كان يعانيه قال :

فلما قسا قلبي وضائق مذهبى جعلت رجائي نحو عفوك سلماً
تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربى كان عفوك أعظماً
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منة وتكرماً

وصعدت روحه إلى بارئها عند صلاة العشاء ليلة الجمعة ٢٩ رجب ٢٠٤ هـ / ١٨ يناير ٨٢٠ م ودفن بالقرافة بسفح المقطم بمقبرة القرشيين بين قبور أسرة من أسر أهل العلم هم بنو عبد الحكم وستحدث عنهم ، وخلال عمره القصير - نحو ٥٤ سنة هجرية وضع الشافعى قواعد علم الأصول وخلف للأمة مذهبا كاملاً من مذاهب الفقه وقانوناً عاماً شاملاً .

وبمالك وأبى حنيفة والشافعى تمت أعظم الأعمال في ميدان الفقه القائم على العلم والعمل والفكر والنظر لما فيه صالح الناس في الدين والدنيا .

وبهؤلاء الثلاثة وآخرين كثيرين ذكرنا أقلهم وضاق المقام عن أكثرهم واستقامت القاعدة السليمة للأمة على يد رؤسائها الحقيقيين وهم الفقهاء وأهل العلم وبقي تثبيت هذه القاعدة وصيانتها من عبث الدولة وعدوانها ، وتلك هي المهمة التي ادخرها الله سبحانه لرابع الأئمة الكبار وهو أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى ، وهو عربى من بنى شيبان من بكر بن وائل من بنى معد بن عدنان .

عاش كبار الأئمة والفقهاء على ما ذكرنا بين سنتى ١٥٠ - ٢٥٠ هجرية ، خلال هذه الفترة بنت الأمة قاعدتها وأمنت حياتها ومستقبلها ، فماذا فعلت الدولة ؟!

ونحن في هذه الدراسة لا نجبن ولا نجامل ولا نتستر ولا نخدع فلا يصلح في النهاية إلا الحق ، والحقيقة المرة خير من النفاق الحلو ، فالحاكم الذى يقتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق حاكم مجرم لا يشفع له حب العلم أو منادمة العلماء أو الإغداق على الشعراء أو إنشاء ما يسمى بدار الحكمة أو بناء مسجد ، والحاكم الذى يعتدى على أموال الناس ظلماً وعدواناً لص أو قاطع طريق خارج على منهج الإسلام ، وإن كان -

مثل هارون الرشيد - يطلب إلى الواعظ أن يعظه ، فإذا سمع الوعظ بكى حتى تخضل أى تبتل لحيته ، فالذى يهمنى فى هذه الدراسة هو الحق والفكر واحترام حقوق الإنسان كما حددها الإسلام وبينها فقيه إنسان مثل أحمد بن حنبل وهى حفظ الدين والنفس والنسل (النوع ويراد به هنا الأمة) والمال والعرض (كرامة الإنسان) .

ولد أحمد بن حنبل سنة ١٦٤ هـ وتوفى سنة ٢٤١ هـ (٧٨١ - ٨٥٥ م) ، أى أنه عاصر من مولده إلى وفاته من خلفاء بنى العباس محمد المهدى وموسى الهادى وهارون الرشيد ومحمد الأمين وعبد الله المأمون ومحمد المعتصم وهارون الواثق وجعفر المتوكل فهؤلاء ثمانية خلفاء ، ليس منهم واحد لم يعتد على النفس والنسل والمال والعرض ولم تقتصر أعمال العدوان هذه على الأعداء السياسيين مما قد يشفع فى الجريمة أو يخفف من مسئولية مرتكبها على أنها جريمة صراع سياسى أو دفاع عن الدولة أو حماية النظام وما إلى ذلك ، بل إن جميع هؤلاء بلا استثناء أزهقوا أرواح الكثيرين من أبرياء الناس بلا جريمة ، وصادروا أموالهم دون حق وأهانوا الناس وعذبوا بهم واستهانوا بالأمة وعذبوا بكرامة الإنسان وكل هذه حقوق أقرها الإسلام هذا إلى جانب الإقدام على الخمر وارتكاب المعاصى وتضييع أموال المسلمين والقعود عن الجهاد وهو أول واجبات الإمام وليس منهم واحد لم يتتبع آل البيت بالأذى والعدوان الشنيع عليهم سواء أقاموا على الدولة أم انصرفوا عن السياسة وجرائمهم فى حق آل البيت من كل نوع : القتل بالسم أو بالسيف أو بالضرب مع الغدر واللؤم والحيلة والرشوة وإفساد الضمائر ، وآل بيت الرسول هم آل كل مسلم ورحم موصولة بنا واحداً واحداً إكراماً لرسول الله ﷺ .

ولا أبعد بك فسأقتصر هنا على جريمة الرشيد الكبرى فى حق البرامكة وهى جريمة قتل وعدوان صارخ على المال يبررها معظم مؤرخينا مع أن الإسلام لا يبيح العدوان على النفس والمال إلا على بينة وشهادة شهود واستبلاغ فى البحث والتحقيق ، إنما اخترت هذا الحادث لأدلك على أن غالبية مؤرخينا يصورونها لنا على أنها من مفاخر الرشيد ناسين أنها - أى كانت مبرراتها الشخصية والمالية - فهى جريمة وإجازتنا إياها جاءت نتيجة جريمة فكرية أخرى ، وهى تواطؤ المؤرخين والكتاب على « غسيل مخ » الإنسان المسلم حتى أصبح لا يحس بالجريمة إلا إذا وقعت عليه شخصياً ، وكان هو وآله ضحيتها ، أما إذا أصابت جاره أو أى مواطن آخر فهى شئ آخر .

ويكفى أن أنكر لك قبل حديث البرامكة أن الخليفة الهادي سلف الرشيد وأخاه الأكبر مات مقتولاً على يد أمه فيما قالتوا وزعموا أنه كان يدبر قتل أمه بالسهم فسبقته هي بالغدر ، ثم إن يحيى بن خالد البرمكى كان أكثر احتراماً للخليفة الهادي في غيبته من وزيره العربي الربيع بن يونس وكاد يوقع به لولا شفاعته البرمكى - ومع ذلك فقد كان الربيع بن يونس من أكثر الناس سعيًا في الإيقاع بالبرامكة .

وقد تعودنا أن ننظر إلى البرامكة على أنهم أعداء العرب وما كانوا على الحقيقة كذلك ، حقيقة إنهم كانوا من أصل فارسي ولكنهم استعربوا وخدموا بنى العباس وأظهروا كفاية نادرة ، وخالد البرمكى - جد الأسرة - كان له عظيم فضل على الدولة وجاء ابنه يحيى على مثاله والرشيد هو الذى خوله أمور الدولة وأطلق يده في الأمور فأحسن القيام بها على طريقة أهل العصر ، وهى التبذير في المال وقلة الضبط في الحساب ، والمال أصلاً مال الأمة ولكنه كان يجبى بالعسف والظلم وإرهاق الرعية ، فلم يكن مالاً مباركاً والرشيد كان رجلاً عاطفياً متقلباً لا يثبت على حال ، وكان في دواخل نفسه رجلاً صالحاً ولكنه كان صاحب هوى : يستمع للوعاظ فيبكي ويغريه الناس بالرجل فيأمر بقتله ويلاعبه مضحكه ابن مريم بحيل أطفال وكلام جهال فيضحك ، ويحيى بن خالد البرمكى كان يدير الدولة على هوى الرشيد ولكنه لم يكن لصاً ولا خائناً وأولاده الفضل وجعفر ومحمد وموسى كانوا من خيرة رجال الدولة وجعفر بن يحيى بن خالد بالذات كان أقدرهم وكان صاحب الرشيد وصفيه ولكن الحزب العربى برياسة الوزير الربيع بن يونس كان موغر الصدر على أولئك البرامكة بحجة أنهم فرس وكانت معهم زبيدة الهاشمية زوج الرشيد ، ودار الصراع بين الجانبين وانتهى في مرحلته الأولى بنصر الحزب العربى فنقل الرشيد ولاية العهد من ابنه الأكبر عبد الله المأمون بن الجارية الفارسية مراجل وأقام مكانه أخاه الأصغر محمد الأمين بن زبيدة العربية ، ولم يكن ذلك بالأمر الخطير فإن عبد الله كان يكبر أخاه بستة شهور فهما معاً من سن واحدة تقريباً والذى لا يعرفه الكثيرون أن الرشيد عندما مات وخلفه ابنه الأمين كانت سن الأمين والمأمون أيضاً إحدى وعشرين سنة هجرية أى في السن التى يكون فيها أولادنا في السنة الجامعية الأولى ، وهذا محمد الأمين المسكين توضع على أكتافه مسئولية أكبر دولة في الدنيا ، ثم نقول أنه أخطأ وهل كان يمكن أن لا يخطئ ومن حوله مؤامرات وتدبيرات وهو بعد شاب غر شديد الشوق لمتاع الشباب ووزيره الفضل

ابن الربيع بن يونس يوافيه بما تهفو إليه نفسه من الجوارى ويهيىء له مجالس الشراب .

والرشيد نفسه أحسَّ بالعاصفة ووجد دولته تغلس شيئاً فشيئاً ، وكان لا بد أن تغلس فهو وأهل بيته يغرقون من خزانة الدولة ويلقون من النوافذ ويهمس في أذنه . الفضل بن يونس أن الأموال عند البرامكة ، وأمر الرشيد بقتل جعفر بن يحيى البرمكى دون محاكمة وألقى البقية في السجون ، وصودرت الأموال فلم يوجد لجعفر غير قصره شيء ووجدوا ليحيى أبيه خمسة آلاف دينار ولأخيه الفضل أربعين ألف درهم ولحمداً ابن يحيى البرمكى ٧٠٠٠,٠٠٠ درهم أما الأخ الرابع موسى فلم يوجد له شيء وهذا كلام ابن عبدوس الجهشياري في تاريخ الكتاب والوزراء (ص ٢٤١) إذن فأين ذهبت الأموال ؟ أنفقها بنو العباس ورجالهم ووزرائهم وخدمهم إنفاق السفاهة ، والدولة كانت مفلسة وعلى صخرة الإفلاس المالى تحطمت دولة بنى العباس والله سبحانه أمرنا بتدبير شئون المال ، ولكن أين من يسمع ومن يطيع ، وهارون الرشيد أصبح يخاف دخول بغداد بعد أن نقل ولاية العهد من المأمون للمأمون فقضى معظم أيامه بعيداً عنها ولهذا نقول : إنه كان يحج سنة ويغزو أخرى ، ووضعت الحرب بين الأمين والمأمون وقتل الأمين على أسوأ صورة ، أما المأمون فأقام في خراسان تاركاً بغداد يدبر أمرها عبد الله ابن طاهر بن الحسين ، وهو قاتل الأمين وكان انتصار المأمون على أخيه سنة ١٩٨ هـ ، ولكنه لم يدخل بغداد إلا سنة ٢٠٤ هـ بعد أن حاصرها سنتين ثم دخلها دخول مدينة معادية وعند دخوله وجد الإدارة فوضى فقد كانت في الديوان ٤٠٠٠ كيس رسائل من رجال الدولة لم تفتح أو تقرأ (الجهشياري ص ٢٥٨) .

ومساكين الناس في بغداد جيعا ينقضون على المخابز ودكاكين بيع الطعام وينهبونها ورجال الشرطة لا يحرسون إلا قصر الخلافة وحى الشماسية وهو حى الأغنياء ، أما بقية بغداد فقد تسلط عليها اللصوص وقطاع الطرق .

وتلك هى حال دولة الخلافة وأحمد بن حنبل وإخوانه من أهل العلم يرون هذه الحال ولا يدرون ماذا يفعلون لأن الإسلام جاء بالذات لكى يقضى على مثل هذه الدول الظالمة ويقيم دولة العدل والناس ينفضون أيديهم من الدولة ويلتفون نحو أئمة الدين وهم أمهم الوحيد ، والمأمون يرى هذا فيفيض قلبه بالغضب على أئمة الأمة الحافظين

للقرآن والسنة ويحيط به رجال الاعتزال والمتكلمون وهم سفسطائيون فقدوا احترام الناس من أمثال بشر المريسي الثرثار القليل العلم بالدين وثمامة بن أشرس الذي أثار في بغداد فتنة القول بخلق القرآن ، وكان الشافعي ينفر من الاعتزال وأهله ويحذر تلاميذه من الخوض في قضايا التوحيد وخلق القرآن وكان يقول : ألا إن الكلام لا غاية له وهو مدعاة للخروج عن الإسلام وقال المأمون مرة : أريد أن أعلن القول بخلق القرآن لولا مكان يزيد بن هارون . فيقول له جلساؤه : ومن يزيد بن هارون حتى يتقيه أمير المؤمنين ؟ ويزيد بن هارون من كبار الفقهاء .

وتتراكم السحب وتبدأ نذر المعركة فالأمة كلها تقف مع أئمتها مالك والشافعي وأبى حنيفة ولواء الإمامة معقود اليوم بأحمد بن حنبل إذن فلا بد من إنزاله وعقابه ليعلم الناس لمن الأمر في هذه الدولة : رجال الإيمان والقرآن والسنة أم رجال السلطان ؟ ومسألة خلق القرآن ما هي إلا تعلقة ، والدولة تريد أن تذل العلم والفكر ويأبى الله ورسوله وأولو العلم ذلك ، وتلك هي حقيقة فتنة القول بخلق القرآن وامتحان الناس فيها ، وسيكون بطل أهل السنة فيه إمام السنة أحمد بن حنبل وسيسجن ويضرب ويعذب ولكنه يصبر للمحنة صبر المؤمن الصامد كأنه الجبل ، وعلى صخرة الإيمان ستتطم الدولة .

* * *

أحمد بن حنبل وَأَنْتِصَارُ الدِّينِ عَلَى الدَّوْلَةِ

ذكرنا كيف هانت الدماء على خلفاء بنى العباس . وكيف أهدرت الحقوق وصودرت الأموال وخرجت السياسة بالخلفاء ورجالهم عن الخط الإسلامي جملة وتفصيلاً ، والخط الإسلامي هو منهج الله في الناس والخلق ، إنه الإيمان والاعتصام بحبل الله - أي وحدة الأمة - والعدل في التصرف والحكم ومراعاة الله سبحانه واتباع سنة رسول الله ﷺ في العبادات والمعاملات .

وقد ضربنا مثلاً من امتهان الخلفاء لكل قواعد الحق في الإسلام بما فعله الرشيد بالبرامكة . ونحن لم نقل إن البرامكة كانوا أبرياء صلحاء في كل عملهم ، ولكننا قلنا : إنه مهما كان رأى الخليفة فيهم وشكهم في صدقهم وأمانتهم وتفكيرهم في محاسبتهم فقد وضع الإسلام لذلك كله قواعد وضوابط ، فهناك شرع وقضاء ، ورسول الله ﷺ وضع للناس السنن في صيانة النفس والمال ، وكان عبد الله بن أبي بن سلول والجد بن قيس من رءوس المنافقين ، وكانا يسيئان لرسول الله ﷺ والمسلمين ولكنهما لم يجاهرا بعصيان أو ارتداد ، فحفظهما رسول الله ﷺ ولم يمسهما بأذى في نفس أو مال . وأسامة بن زيد بن حارثة اشترك في سرية ، وقتل رجلاً بعد أن قال : لا إله إلا الله . ورسول الله يسأله في ذلك فيقول : تعوذ بها من القتل . ويقول له الرسول الأكرم : هلا شققت قلبه ؟ أى : ما أدراك إن كان صادقاً أم غير صادق ؟

ولكن الرشيد لا يحقق أو يدقق ، ولا يرجع إلى قاض أو فقيه بل هو يقتل ويسجن ويصادر الأموال ، وقاضيه أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم لا يعترض . ولا يبدي أدنى ملاحظة ، وأبو يوسف من أعظم الفقهاء ، وأوسعهم علماً ، ولكنه كان من فقهاء الدولة وفقهاء الدولة جزء من النظام وهو مشترك - ضمناً - مع خليفته في المسئولية عما كان .

ومضى هارون الرشيد إلى حال سبيله في الثامنة والأربعين من عمره ، توفي بعد علة طويلة فقد كان يعاني من الفتق أو الهرينا . وأغلب الظن أنه مات من اشتداد علة السكر . وجاء ابنه الأمين وكانت سيرته - مهما قلنا في مبالغات المؤرخين في تشويهاها -

خارجة عن سنن الإسلام وأخلاقه جملة ، وقد التمسنا له العذر لصغر السن ، فقد كان في الغالب في الحادية أو الثانية والعشرين من عمره ، وحمل على كتفيه مسئولية دولة عظمى ، وضاع أمر المسكين في صراع السلطان في بلاط بنى العباس بين الحزبين العربى والفرسى ، والحزب العربى كان ضعيفاً مفككاً يرأسه الفضل بن الربيع بن يونس - وهو مولى عربى - ولكن ممثله الحقيقى كان هرثمة بن أعين ، وكان من كبار القادة والحكام ، ولكن الفضل بن الربيع يهمله ويسىء إليه فينضم الرجل إلى الحزب الفارسى طمعاً في أن يستطيع إنقاذ الأمين من سيف طاهر بن الحسين الفارسى وهو قائد المأمون . ويدخل جند المأمون بغداد ويأخذ هرثمة بن أعين الأمين ، ويحميه ويرجو أن يشفع له عند أخيه ، ولكن طاهر بن الحسين يأمر رجاله فيخطفون الأمين ويقتلونه ويرسلون برأسه إلى أخيه المأمون ، وكل هذه أعمال خارجة عن الإسلام والإنسانية والكرامة ، وجمهور الناس يرى ذلك كله ويتأكد أن هذه الدولة لا يمكن أن تكون دولة الإسلام ، وماذا فعل فرعون وهامان أسوأ من ذلك ليستحقا لعنة الله ؟

والمأمون يدخل بغداد بعد ست سنوات من انتصاره ، يدخلها بعد حصار وهو يشعر أن أهلها يعادونه وتكون له هو الآخر في الظلم والعدوان على الدماء والأموال حكايات سود ، ولا يشفع له في هذا أنه كان عالماً ذكياً متفتح الذهن ، فهذا شيء آخر والأمة لا تريد من حاكمها إلا الإسلام والعدل والشرعية أى القانون .

وسأضرب لك مثالين - من كثير جداً - من خروج المأمون على أبسط قواعد العدالة والشرع في الإسلام ، فإن عبد الله المأمون فيما يقال وجد أن آل على أولى بالخلافة من بنى العباس . فقرر أن يجعل ولاية العهد في رجل من أئمة العلويين هو على بن موسى الرضا بن الإمام جعفر الصادق ، وعلى هذا كان رجلاً بعيداً عن السياسة قد يئس منها مثله في ذلك مثل أبيه موسى الرضا وجده جعفر الصادق فاستدناه المأمون وأكرمه وباعه بولاية العهد ، والرجل كاره لذلك خائف من بنى العباس يريد المأمون أن يزيده اطمئناناً فيزوجه من ابنته أم حبيبة ، ويزوج ابنة أخرى له وهى أم الفضل من محمد ابن على بن موسى الرضا (وكلتا البنيتين كانتا صبيتين في حوالى الثمانية من العمر) ! والزواج عقد ولكنه لم يتم ؛ لأن الأمر كله كان خداعاً ، ويأمر المأمون فيكتب اسم ولى العهد العلوى على الدراهم والدنانير ويأمر الخطباء أن يدعوا له على المنابر ، وبعد ذلك

كله يدس لعل بن موسى الرضا السم ويقتله ظلماً وعدواناً دون جريرة ويعصف ببقية العلويين الذين استأمنوا له ، ففي أية دولة نحن ؟ وبأى شريعة نحكم ؟

وبعد ذلك يتزوج المأمون من بوران ابنة الحسن أخى وزيره الفضل بن سهل ، والذي لا يعرفه الناس أن بوران هذه كانت طفلة فى الرابعة من عمرها ! وهذا الإغدار أو الزفاف البورانى المشهور كان كله خدعة ، وتغطية لجريمة كبيرة هى قتله وزيره الفضل بن سهل زعيم الحزب الفارسى أخى الحسن بن سهل والد بوران ، ثم انظر إلى الإسراف فى التصرف فى أموال المسلمين فى ذلك الإغدار أو الزفاف : لقد صنع الحسن بن سهل كرات صغيرة من العنبر وجعل داخل كل كرة ورقة فيها اسم ضيعة من الضياع ثم نثرها على الناس فمن وقعت بيده كرة كانت له الضيعة بما فيها ، ومن مال من أخذ الحسن بن سهل هذه الضياع ؟ من مال المسلمين ! ويقولون : إن المأمون لامه فى هذا ونسبه إلى الإسراف ولتسأل المأمون : وكيف تأذن بأن يعبث رجالك بأموال الناس على هذه الصورة فى حكمك ؟ والجواب : إن هذا كله كان يتم برضا المأمون ، لأن الدولة كانت بالفعل قد فقدت أهليتها للولاية على أمور المسلمين . فهذا الإسراف كله الذى يصل إلى أن يفرش الحسن للمأمون حصيراً منسوجاً من الذهب وينثر عليه ألف لؤلؤة من كبار اللؤلؤ فلما رآه المأمون قال : قاتل الله أبا نواس ! كأنه شاهد مجلسنا هذا حيث يقول :

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها حصباء در على أرض من الذهب

والبيت قاله أبو نواس فى الخمر (ابن خلكان ١ / ٧٢) وفى هذا العصر بالذات كان الفقراء يموتون من الجوع ، وأقرأ البخلاء والبيان والتبيين للجاحظ ، وتاريخ الطبرى لترى كيف كان الفقراء يطعمون أولادهم النوى ، ويرقد بعضهم على البيض ليفقس .. وفى عصر المأمون كانت ثورة الرُّط ، وهم مسلمون فقراء من الهنود كانوا يأتون بهم إلى جنوب العراق ليكسحوا الأوساخ ، وينظفوا الترع فإذا قاموا بعملهم طردوهم دون طعام أو مأوى ، فكانوا يتجمعون فى المستنقعات والأخوار ويسطون على أموال الناس وبدلاً من أن ينظر الحكام فى إصلاح حالهم أو يطلبوا من الأغنياء أن يعدلوا معهم كانوا يرسلون الجند ليقتلوهم ، ولنفس هذه الأسباب قامت ثورة الزنج أيام الخليفة المعتمد ، وبدلاً من أن يعطوهم حقوقهم ظلوا يحاربونهم أربعة عشر عاماً حتى أفنوهم .

هذا كله كان يراه أتقياء الفقهاء ويتعجبون . كانوا يقبلون على تدارس القرآن

والحديث ويجتهدون في التشريع للناس ويعملون على هدايتهم إلى سواء السبيل تاركين دولة الظلم تفعل بنفسها وبأهلها ما تشاء ، وفي مجالس الفقهاء ينتقد الناس الدولة ورجالها والأخبار تصل إلى المأمون ورجاله يحسون أنهم ليسوا سادة هذه الأمة ؛ لأن سيادة الأمة ينبغي أن تقوم على احترام الدين والشرع وكرامات الناس ، ويتبرأون من أفاعيل الخلفاء ، وهل هناك أوقح أو أقبح من أن المأمون دس رجالاً فقتلوا وزيره الفضل بن سهل في الحمام ؟! فلما قبض الناس عليهم قالوا للمأمون : أنت أمرتنا . فقال : أنا أقتلكم بإقراركم أما ما ادعيتموه على فليس لكم عليه بينة (رواه الأستاذ عبد الحليم الجندى في كتاب أحمد بن حنبل ص ٣٤٠) .

وأحس المأمون أن سادة الأمة الحقيقيين هم أهل الفقه والعلم والصلاح ، ويهمس في أذنه فقهاؤه وقضاته أمثال يحيى بن أكثم وبشر المريسى وثمامة بن أشرس بأنه لا بد أن يثبت أنه إمام هذه الأمة كلها ويقهر أولئك الذين يرفضون أن تتدخل الدولة في شئون العقيدة والتشريع ويعتزون بكراماتهم وإيمانهم ويتجاهلون أمر الدولة كأنها لا تملك عليهم سيادة ، وفقهاء السلطان هؤلاء كانوا يستعملون السلطان للانتقام من كبار الأئمة ومعظمهم كانوا من أولئك المعتزلة الذين ذكرناهم ، ومن الحق أن نقرر أن كبار المعتزلة من رجال مدرسة البصرة أمثال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وأبى الهذيل العلاف كانوا على جانب كبير من التقى والورع مع العلم والزهادة ، ولكن المتكلمين من مدرسة بغداد عاشوا في كنف الدولة وأقروا مظالمها وارتضوا الخضوع لها باستثناء إبراهيم بن سيار النظام فقد كان صاحب دين وعقل وعلم ، وإن كان من أصحاب المأمون ، وإن الإنسان ليعجب كيف أن رجلاً في مستوى النظام ينفق علمه في الكلام في مسائل دخيلة على طبيعة العقيدة الإسلامية مثل السؤال عما إذا كانت صفات الله جزءاً من ذاته أو أن القرآن قديم أو مخلوق ، ولكن لا شك في أن رجلاً مثل أبى موسى المردار وثمامة بن أشرس وبشر بن المعتز كانوا يشعرون أن الناس يزدرونهم ويشكون في إيمانهم ويوجهون احترامهم كله إلى العلماء الصادقين من أمثال أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأحمد بن زهير بن حرب .

فما زالوا يحرضون المأمون حتى أوقعوا في ذهنه أن أئمة السنة يتحدونه واتخذوا مسألة خلق القرآن سلاحاً للمعركة ، والمسألة في لبابها ليست بذات موضوع بالنسبة

للمسلم الذى يفهم دينه فإننا نقول : إن القرآن كلام الله ولا نسال بعد ذلك إن كان مخلوقاً أم غير مخلوق ؛ لأننا إذا دخلنا مناطق الخلق والقدرة وذات الله وصفاته أقحمنا أنفسنا فى موضوعات من الغيب الذى انفرد به سبحانه وتعالى ، لأن الكون والخلق أضخم من أن يحيط عقل الإنسان بحدوده ، والإسلام أنقذ الإنسان من الضلال عندما نهاه عن الخوض فيما لا يحيط به ذهنه ولا يضره عدم الإحاطة به فى شىء حقاً إن الاجتهاد فى العلم فريضة على كل مؤمن ولكن لا تتكلم قط إلا على قدر ما يصل إليه علمك ، فنحن نعرف اليوم كثيراً جداً من أسرار الأرض والمجموعة الشمسية ، ولكننا لا نعلم إلا القليل مما يقع خارج مجموعتنا ، فما معنى التساؤل والرجم بالغيب ؟ والقرآن أوحى إلى رسول الله ﷺ ليبلغه لنا لنعيش بما فيه من حكمة ونور ، ولا ينفعنا فى شىء ، ولا هو من شأننا أن نسال : ولكن ما هى ماهية نور الله ؟ وهل هو نور مثل هذا الذى نراه أو نور آخر ؟ وما معنى أن نسال : كيف يستوى الله على العرش ؟ وما شكل عرش الله ؟ وما صورة يد الله الواردة فى قوله تعالى : ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ ؟ وما دمنا نقول : إن الله سبحانه ليس كمثله شىء فتكون يد الله ليس كمثله يد وكرسى الله ليس كمثله كرسى مما نعرف وعين الله لا تشبهها عين نعرفها ، ويكفي أن نتبع هدى القرآن وأن نأخذ بما فى الآيات المحكمات وندع المتشابهات وهذا كان موقف أحمد بن حنبل ، فقد كان متباعداً عن هذه القضايا ويأمر أصحابه بتجنبها ، ويقول لمن يسأله فى هذا الموضوع : « اتق الله ولا ينبغي أن تنصب نفسك وتشتهر بالكلام . لو كان فى هذا خير لتقدمنا فيه الصحابة ، هذه كلها بدعة » وكان كثيراً ما يقول : « من أحب الكلام لم يفلح ولا يثول أمرهم إلى خير » أو « والكلام ردىء لا يدعو إلى خير تجنبوا أهل الكلام وعليكم بالسنن ، وما كان عليه أهل العلم قبلكم فإنهم كانوا يكرهون الكلام والخوض مع أهل البدع ، وإنما السلامة فى ترك هذا . لم نؤمر بالكلام والخصومات » .

وكان الخليفة المأمون يشعر منذ دخل بغداد سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م ، أن أهل البلد وعامتهم لا يوقرونه كما يجب ، وأن قلوبهم كلها مع أهل العلم ممن لا يفرقون بين كبير وصغير وينشرون علمهم فى الناس كافة ، وكان مجلس أحمد بن حنبل يحفل بالناس والكثير منهم من العوام أقبلوا ليستمعوا إليه ، وسواء فهموا عنه أو لم يفهموا فهم يتعظون بالقدوة ويتفكرون برؤية رجل كهذا لا نظير له فى الدنيا علماً وفقهاً وجاهاً ومع ذلك فإنه يجلس إلى غيره من العلماء ويسمع منهم ويبلغ من تواضعه أنه استحى مرة

أن يجلس على حصير وهو يسمع حديث رسول الله ﷺ فرفعه وجلس على الأرض ، وكان يجلس في بيته على لبد قديم رخيص ، ويلبس الثياب الغلاظ مما يشتري بدينار أو نحوه ، وكان مع ذلك في الغاية من النظافة وحسن السمات ، وكان إذا رأى اليتيم الفقير أخذه وجعل بعض أصحابه يغسله ويشتري له ثياباً جددًا ويعطيه دراهم وحلوى ويطلب إليه أن يأتيه إذا حاجه أمر ، ووقعت في بغداد مجاعة فامتنع أحمد عن الطعام إلا ما يقيم الأود ، وسئل في هذا فقال : نجوع إذا جاع الناس ونطعم إذا طعم الناس . وكان الرجل أسمر شديد السمرة أميل إلى الطول وكان حسن الوجه حسن الإشارة خفيض الصوت ، وفي الليالي الشاتية الباردة كان يحمل ما تيسر له من الأكسية إلى بيوت الفقراء ويبكى ويقول : أبكى على فقراء أمة محمد فأين هذا من قول ثمامة بن أشرس في مجلس المأمون : « وما العامة ؟ والله لو وجهت إنساناً على عاتقه سواد ومعه عصا لساق إليك بعضاه عشرة آلاف منها » وقد سواها الله بالأنعام فقال : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان ٤٤/٢٥) أحمد أمين (ضحى الإسلام ٣ / ١٥٢) وهو هنا مدلس ؛ لأن الله سبحانه قال هذا الكلام في كبار كفار قريش وكانوا سراة الناس !

ولكن هذا الكلام كان يعجب المأمون ، لأنه هو بدوره كان مورتوراً من عامة الناس الذين رفضوا أن يفتحوا له أبواب مدينتهم عندما أقبل من خراسان ، وإذا كان هذا الموقف من العامة يصدر عن سخافة الفكر عند رجل مثل ثمامة بن أشرس ، فقد كان يصدر عن موقف سياسى عند المأمون ، وعندما يتوفى القاضى يحيى بن أكثم ويتولى قضاء بغداد أحمد بن أبى دُوَاد وكان من كبار المعتزلة ، ويأنس منه المأمون استعداداً لمؤازرته على بسط سلطانه على جمهور الناس وأئمة المسلمين يكشف عن وجهه ، وتخرج المسألة عن نطاق الدين وتصبح سياسية خلاصتها : من صاحب الأمر في دولة الإسلام ؟ الأمة وقادة الأمة أم الخليفة ورجاله ؟ الكتاب أم السيف ؟

إذن فمسألة خلق القرآن في حقيقتها مسألة سياسية وهذا هو وجهها الذى خفى عن الكثيرين .

والخليفة المأمون عندما دخل في المسألة دخلها على أنها مسألة سياسة وسيادة ، فهو الخليفة وصاحب السيادة على هذه الدولة وكل ما فيها ومن فيها ، وهو الذى يهيمن

على شئون الدين والدنيا ، وهو الشرع وممثل الشرع ، وليس من حق أحد من الرعية أن يشرع أو يفتى إلا بإذنه .

وأحمد بن حنبل عندما قبل التحدى وخاض المعركة في مواجهة الخليفة كان يعرف أنها مسألة شريعة ، وخاضها على هذا الأساس وإن كان هو نفسه بعيداً عن السياسة ، ولكن المسألة هنا مسألة سيادة القانون أو الشرع ، والشرع هو سيد كل ما في هذه الدولة ابتداء من الخليفة ، والشرع أمانة عند أهل العلم والفقه ومسئوليتهم هنا كاملة ولا شك فيها ، والخليفة — في نظر الشرع — واحد من الرعية ، وسلطانه لا يجوز أن يتخطى الشريعة .

هذا الوضع الضخم للمسألة هو الذى يعطينا حجمها ، وأحمد بن حنبل هو الذى أعطاهما هذا الحجم ، وكل المشاكل تأخذ أحجامها من رجالها وابن حنبل كان رجلاً ضخماً كالجبل ، كان ممثل الشرع والحق ورجل الأمة وبهذا الوضع خاض المعركة . السيادة على هذه الدنيا لله وشريعة الله والحق والعدل وليست للمأمون أو الدولة ، هنا لا تراجع ولا تردد ولا مساومة ، والموت هو أهون ما يتعرض له صاحب الفكر والرأى فى هذه الحالة ، وهذا كان مبدأ أحمد بن حنبل ولو أنه أحنى رأسه لكان له ألف عذر ، ولا بأس على المؤمن إذا خاف على حياته أن يتقى سيف الجبار بكلمة أو بانحناء رأس ، وقد التمس رسول الله ﷺ العذر لبعض المستضعفين فى الأرض عندما تلفظوا بشيء يرحمهم من العذاب .

ولكن أحمد بن حنبل لم يكن مستضعفاً فى الأرض لكى يشتري سلامة نفسه بالتفريط فيما رأى أنه واجبه نحو الله والأمة ، فظل مكانه كالصخرة العاتية وأعز الدين والشرع والأمة بهذه الوقفة وبها أيضاً أصبح أحمد بن حنبل هو الإمام الأعظم ، وعظماء الرجال يحددون مكانهم بأنفسهم ولهذا فهم يصنعون التاريخ .

ولكى تلمس بيدك الوضع الحقيقى للمسألة - وهو سياسى كما قلت - أورد لك مقتطفات من البيان الذى أذاعه الخليفة المأمون معلناً فيه الحرب على أئمة السنة وداعياً إياهم إلى الخضوع لإرادته :

« أما بعد . فمن حق الله على خلفائه فى أرضه وأمنائه على عباده الذين ارتضاهم لإقامة دينه وحملهم رعاية خلقه وإمضاء حكمه وسنته والائتمام بعبده فى بريته ، أن

يجهدوا لله أنفسهم ويتصحوا له فيما استحفظهم وقلدهم ، ويدلوا عليه تبارك اسمه وتعالى ، بفضل العلم الذى أودعهم والمعرفة التى جعلها فيهم ، ويهدوا إليه من زاغ عنه ويردوا من أدبر عن أمره ، وينهجوا لرعاياهم سمت نجاتهم ويقفونهم على حدود إيمانهم (أحمد زكى صفوت ، جمهرة رسائل العرب ٣ / ٤٢ - ٤٧) وهكذا يجعل المأمون نفسه راعياً للدين ، وصياً على الإيمان ، مسئولاً عن الإسلام ، وهو بهذا يريد أن ينتزع لنفسه حقاً أباه عليه وعلى أسلافه أهل العلم والفقه ، فإن الخليفة عندهم سيد فى أمور الدنيا فهى فانية لا تساوى عند الله شيئاً ولكنه ليس إمام الأمة ولا راعى الدين ولا المؤتمن على العقيدة فقد خرج الخلفاء بتصرفاتهم على الدين والمنهج والحق والعدل من زمن بعيد .

ثم يدخل المأمون فى صميم الموضوع ويقول : « مما تبينه أمير المؤمنين برويته وطالعه بفكره ، فتبين عظيم خطره وجليل ما يرجع إليه الدين من وكفه (الوكف : العيب والإثم والضرر) ما ينال المسلمين من القول فى القرآن الذى جعله الله إماماً لهم ، وأثراً من رسول الله وصفيه محمد ﷺ باقياً لهم واشتباؤه على كثيرين منهم حتى حسن عندهم وتزين فى عقولهم ألا يكون مخلوقاً ، فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله الذى بان به عن خلقه » .

ثم يهتمهم بعد ذلك بالجهل والكفر لى يستحل بذلك دماءهم : « وقد عظم هؤلاء الجهالة — بقولهم فى القرآن — التلم (الانكسار) فى دينهم والجرح فى أمانتهم ، وسهلوا السبيل لعدو الإسلام واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم ، حتى عرفوا ووصفوا خلق الله بالصفة التى هى لله وحده وشبهوه به ، وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال هذه المقالة حظاً فى الدين ولا نصيباً من الإيمان واليقين ، ولا يرى أن يحل أحد منهم محل الثقة فى أمانة ولا عدالة ولا شهادة ولا صدق فى قولهم ولا حكاية ، ولا تولية لشيء فى أمور الرعية » ، ثم يجيء بعد ذلك قرار الخليفة بامتحان القضاة والفقهاء على أساس القول بخلق القرآن فمن أقر بذلك منهم ترك فى وظيفته وحاله ، ومن رفض أخرج من عمله وأنزل به العقاب (اقرأ بقية البيان فى جمهرة رسائل العرب ٣ / ٤٢ - ٤٧) .

هذا هو البيان الذى أذاعه المأمون وهو فى الغالب من تحرير أحمد بن أبى دؤاد كبير القضاة وصاحب الكلمة المسموعة عند المأمون وهو من كبار المعتزلة ، وكان رجلاً عظيم

المهابة واسع السلطان وهو عربى من أياد ، وقد ولد في قنسرين جنوبى حلب ، وكان عالما بليغاً واسع المروءة بعيد الهممة يتعصب للعرب ، ولكنه كان أولاً وقبل كل شيء يتعصب لنفسه فهو كبير القضاة وعالم الدولة وصاحب رأى السلطان فكيف يزعم أحمد بن حنبل وأمثاله أن لهم كلمة في الدين فوق كلمته ؟ (انظر ابن خلكان ١ / ٣ ، وأحمد أمين ، ضحى الإسلام ٣ / ١٥٥ وما بعدها ، وعبد الحليم الجندى ، أحمد بن حنبل ٢٧٩ وما بعدها) .

وبدأ رجال الدولة وفقهاؤها في امتحان الفقهاء وكان ذلك سنة ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م ، وكان المأمون في دمشق ثم مضى إلى طرسوس لأنه كان معسكراً على حدود دولة الروم وطلب أحمد بن أبى داود إلى نائبه في بغداد إسحاق بن إبراهيم (ت ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م) وهو فارسى الأصل عربى خزاعى بالولاء بأن يرسل إليه محمد بن سعد (كاتب الواقدي) ويزيد بن هارون ويحيى بن معين وأبا خيثمة زهير بن حرب (ت ٢٣٤ هـ / ٨٤٩ م) وكان من أكابر أئمة الحديث ومن أكابر أصحاب أحمد بن حنبل ونفراً آخر فامتحنوا وأجابوا جميعاً بخلق القرآن وأحنوا هامتهم للسلطان .

إلا أحمد بن حنبل لأن ، المسألة إذا كانت في نظر المأمون وقاضيه مسألة دولة (كما يقول الأستاذ الجندى) فهي في نظر أحمد بن حنبل مسألة دين وأمة ، وهنا لابد من الوقفة الصلبة والإرادة والعزيمة .

ومعظم الفقهاء سلموا خوفاً من السيف إلا أحمد بن حنبل وصديق له هو محمد ابن نوح فوضعت في أيديهما قيود حديدية وأرسلا إلى طرسوس ليلقيا العذاب والعقاب ، وعندما عبر الجند بهما الفرات عند الرقة لقيهما الفقيه أبو جعفر الأنبارى ، فقال له أحمد : يا أبا جعفر تعنيت (أتعبت نفسك) .

قال : ليس هذا عناء ، أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك فوالله لئن أحببت بخلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله . ومع ذلك فإن الرجل إن لم يقتلك فأنت تموت ولا بد من الموت فاتق الله ولا تجبهم بشيء فجعل أحمد يقول : ما شاء الله . ما شاء الله .

وفي ١٨ رجب ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م وقف الرجلان على أبواب طرسوس على حدود دولة الروم في تركيا الحالية وعندما دخلا أذنة (في تركيا) وكان المأمون معسكراً فيها ، مات المأمون ، مات في الثامنة والأربعين من عمره كما مات أبوه الرشيد في تلك السن

وعادوا بهما إلى الرقة (في العراق) وهناك مات محمد بن نوح لشدة ما لقي من الأغلال والحبس والركوب على الخيل دون سرج أو قتب ، وقبل موته قال لأحمد : يا أبا عبد الله : **أَللهُ الله ! إنك لست مثل أنت رجل يقتدى به وقد مد الخلق أعناقهم إليك لما يكون منك فاتق الله واثبت لأمر الله .**

وتولى بعد المأمون أخوه أبو إسحاق المعتصم ، وكان شاباً عسكرياً لا شأن له بالفكر ، ولكن المأمون أوصاه بأن يطيع أحمد بن أبي دؤاد ويستمر في امتحان الفقهاء فسار في طريق أخيه بصورة أعنف وأشد .

ويظل أحمد بن حنبل في الحبس والقيد إلى سنة ٢٢٠ هـ / ٨٣٥ م ، وبعض أحبائه يطلبون إليه أن يجيبهم إلى ما يطلبون تقية فكان يقول : « إذا سكت العالم تقية والجاهل يجهل فمتى يظهر الحق ؟ ثم يقول : ما أبالي بالحبس ما هو ومنزلى إلا واحد ولا قتلاً بالسيف ، إنما أخاف فتنة السوط وأخاف ألا أصبر » ، فهو هنا رجل لا يتشدد بالبطولة ولكنه مؤمن صريح واضح صابر .

وفي السجن يعيش الإمام العظيم مع غيره من السجناء ، ويتحول السجن إلى مصلى ومسجد والإمام أحمد - في انتظار الموت - يؤم الناس في الصلاة ويلقى عليهم الدروس ويقول له واحد منهم : لا عليك يا أبا عبد الله فما هما إلا سوطان ثم لا تدرى أين يقع الباقي ! ثم حولوه إلى سجن انفرادى وسجنوه في دار إسحاق بن إبراهيم والى بغداد وجعل هذا يرسل إليه ويخوفه ويقول : يا أحمد إنها والله نفسك إنه لا يقتلك إلا بالسيف إنه - الخليفة المعتصم - قد آل على نفسه إن لم تجبه أن يضربك ضرباً بعد ضرب وأن يلقيك في موضع لا ترى فيه الشمس .

وبعد أيام حملوه إلى مجلس المعتصم وكان شاباً في الأربعين وقد أصر على إذلال الإمام أو قتله وأحمد كان في السادسة والخمسين من عمره ، شيخاً عظيمًا شديد السمرة شاب معظم شعره وهو يقف في قيوده رافع الرأس عليه ثوب أبيض بالغ النظافة وكان أحمد حريصاً دائماً على نظافة ثوبه وجسده وشعره وكل هيئته .

وفي مجلس المحاكمة حاولوا أن يثنوه عن عزمه فأبى والخليفة كان يتجنب إيقاع العذاب بالفقيه العظيم ، ولكن أحمد بن أبي دؤاد يقول : يا أمير المؤمنين . ما هو والله إلا ضال مبتدع !

وتتابع الحاضرون يسبون الخليفة يهاب الإمام ويطلب إلى رجاله مناظرة الإمام والإمام يلزمهم الحجة بعد الحجة ولكنهم في ضلال ، ويقول الخليفة : « والله لئن أجابني لأطلقن القيد عنه بيدي ولأركبن إليه بجندى ولأطأن عقبه (أى أسير خلفه) ثم يقول : يا أحمد إني والله عليك لشفيق وإني لأشفق عليك شفقتي على هارون ابني ما تقول ؟ ويقول أحمد : أعطوني شيئاً من كتاب الله .

وعاد الخليفة يقول : يا أحمد ، أجبنى إلى شيء فيه أدنى فرج لك حتى أطلق عنك بيدي .

ويجيب أحمد : أعطوني شيئاً من كتاب الله .

وبلغت المحنة ذروتها في رمضان سنة ٢٢٠ هـ وأحمد صائم وقد هد السجن والحديد كيانه وعندما تأكد أن العذاب والقتل يكون غداً طلب خيطاً شد به قيده وأصلح سراويله حتى لا يتعري إذا أصابه أذى .

وفي الصبح أدخل على الخليفة في قيوده ولما يئس منه الخليفة قال : عليك اللعنة خذوه واسحبوه وخلعوه ! وعلقوه بذراعيه على خشبة وعروا ظهره وضربوه بالسياط فأغمر عليه ووقع وداسوه بأقدامهم ولما أفاق أتوه بسويق فأبى أن يقطر والوقت كان رمضان وقام فصلي فقال له بعضهم : صليت والدم يسيل في ثوبك فقال : قد صلى عمر وجرحه يثعب دماً .

وأمة الإسلام كلها كانت تتطلع إلى أحمد ، ذهب الفقيه الكبير أبو عبيد القاسم بن سلام يستطلع الخبر وجعل يقول : أ يضرب سيدنا ؟ وبشر الحافي الصوفي يقول : إن كان أجاب فأنا أدخل فأقوم مقامه فخرج رجل يقول لم يجيبهم فحمد الله وأخرجوه من العذاب وقيل له : ادع على ظالمك فقال : ليس على الصابر من دعاء على الظالم . وقبل أن يخرج جعل الخليفة في حل أي عفا عنه .

لقد طالما حدثوك عن موقف سقراط أمام المحنة والموت فهذا أعظم من سقراط !

ثبت للمحنة ونصر الدين وهزم الدولة ، لقد عفا عن الخليفة لأنه حاكم جبار ، ولكنه لم يغفر أبداً لأصحابه العلماء من أمثال يحيى بن معين وأحمد بن زهير بن حرب ، وفي سنة ٢٤٢ هـ / ٨٥٦ م مات الخليفة المعتصم وخلفه المتوكل فأبطل المحنة وتوفي أحمد في ربيع الأول ٢٤١ هـ / يوليو ٨٥٥ م عن ثمان وسبعين سنة .

الْبَدَايَةُ الْعَظِيمَةُ أَصْبَحَتْ نِهَايَةَ أَلِيْمَةٍ

كانت مسألة خلق القرآن ومحنة أهل السنة - وعلى رأسهم هنا أحمد بن حنبل - في صميمها مسألة سياسية ، والصراع فيها كان صراعًا سياسيًا خلاصته أو محوره : من صاحب الأمر في دولة الإسلام ؟ . الخليفة رأس النظام السياسي القائم ، قائد جيوش الأمة ومالك أموالها جميعًا : ما في خزائن الدولة وما في أيدي الناس ، وصاحب الحق المطلق في دماء الناس ؟ . فله الحق المسلم به - بصفته الخليفة ورأس الأمة . أم العلماء والفقهاء فهم الذين يعرفون الكتاب والسنة حق المعرفة ؟ . ومن هنا فهم أعلم الناس بشريعة الله ، وهى القانون الأعلى الذى ينبغى أن يحكم كل شىء . وكل تصرف للناس في بلاد الإسلام وهم القضاة الذين يفصلون في خصومات الناس ، وهم أصحاب الفتوى الذين يستفتيهم الناس فيما أهمهم من شئون الدنيا والدين ؟

والخليفة المأمون (المحرم ١٩٨ - ١٦ رجب ٢١٨ هـ ، سبتمبر ٨١٣ - مارس ٨٣٣ م) في بيانه الذى أتينا بأطراف منه في الفصل الماضى يريد أن ينتزع لنفسه إمامة الدين والدنيا ويريد تجريد أهل العلم والفقه من كل سلطة ومكانة ، فهو يقول : أما بعد فإن من حق الله على خلفائه فى أرضه ، وأمنائه على عبادته الذين ارتضاهم لإقامة دينه ، وحملهم رعاية خلقه ، وإمضاء حكمه وسنته ، والالتزام بعدله فى بريته ، أن يجهدوا الله أنفسهم ، وينصحووا له فيما استحفظهم وقلدهم ؛ ويدلوا عليه تبارك اسمه وتعالى بفضل العلم الذى أودعهم والمعرفة التى جعلها فيهم ويهدوا إليه من زاغ عنه ..

وهذا كلام واضح لا لبس فيه . وقد فهمه فقهاء السنة على وجهه وحقيقته فرفضوه ونهضوا يعارضون السلطان ، وعندما أمر المأمون فى نهاية بيانه كبير قضاته ونائبه فى بغداد أن يبدأ بامتحان العلماء والفقهاء فى مسألة القول بخلق القرآن . كان ذلك فى حقيقته إنذارًا لهم جميعًا بضرورة التسليم بأن الخليفة هو صاحب الأمر فى شئون الدين كما هو صاحبه فى شئون الدنيا ، أما القول بخلق القرآن أو رفض ذلك القول فمجرد ذريعة أو نقطة اختبار ، فالتسليم بأن القرآن مخلوق معناه - فى الحقيقة - التسليم بحق الخليفة فى التشريع والقضاء والتنفيذ بلا معقب .

وأحمد بن حنبل وأضرابه ممن رفضوا القول بخلق القرآن كانوا يفهمون ذلك تماماً ، ويعرفون أنهم إذا رفضوا دعوى الخليفة كانوا خارجين عليه وعلى سلطانه ، ومن حقه في هذه الحالة أن يعزل أو يسجن أو يعذب أو يقتل منهم من يريد ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من العصاة . وأحمد بن حنبل ومعاصروه من أئمة السنة يقفون بذلك على قمة مسيرة فكرية أساسية أشرنا إليها مرة أخرى في هذه الدراسة ، وهي إنكار أهل العلم لأى حق للدولة في التدخل في شئون العقيدة أو الشريعة ، وإذا كان ولى الأمر هو الذى يعين القضاة ، فإن تعيينه إياهم ممارسة لحق إدارى ، لأن أعوان السلطان هم الذين يتولون تنفيذ أحكام القضاة ، ولا يمكن للقاضى أن يأمر رجال التنفيذ بتنفيذ أحكامه إلا إذا سبق هذا أمر بتعيينه قاضياً من رئيس السلطة التنفيذية ، إن أمر التعيين هنا ممارسة لحق إدارى تنفيذى ، ولكنه ليس ممارسة لحق سيادة ، فلا سيادة للخليفة أو السلطان على الدين والعلم والفقه والتشريع وأحكام القضاة . فهنا مجال سيادة أخرى هى سيادة الشرع والقانون ، والأمة — لا الخليفة — هى الوصية على الشرع الحفيظة على دين الله منذ قيام خلافة بنى أمية سنة ٤٠ هـ / ٦٦١ م . فهى فى نظر الأمة إمامة باطلة قامت على رغم الأمة وعلى خلاف شرع الله ، واقترب خلفاء بنى أمية كل الموبقات التى نهى عنها الإسلام ، فلم يعودوا بذلك أمناء على شرع الله ولا على أمة الإسلام ، وانفصلت الأمة والدين عن الدولة وأصحابها ، وسار كل منهما فى طريق .

وعندما قامت دولة العباسيين زعم داود بن علي عم عبد الله السفاح فى خطابه الأول فى الكوفة أن دولتهم أتت بشريعة الله ! : « لكم ذمة الله تبارك وتعالى ، وذمة رسول الله ، وذمة العباس رحمه الله أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير فى الخاصة والعامة منكم بسيرة رسول الله ﷺ » ثم لم يلبث هو وآله أن أغرقوا الدنيا فى المقاتل والدماء ، وتعدوا حدود الله على ما بينا فى أكثر من موضع من هذه الدراسة ، واستمرت القطيعة بين الأمة والدولة بل اتسعت ، وزاد التفاف الناس حول الأئمة ، وشعر خلفاء بنى العباس بأن أمر الأمة يخرج من أيديهم ؛ فمضوا يتحينون الفرص لانتزاع السيادة الشرعية من أيدي الفقهاء ، حتى إذا جاءت قضية خلق القرآن اتخذوها ذريعة لانتزاع هذه السيادة ، فلم يوقفوا ؛ لأن أحمد بن حنبل وأضرابه وقفوا لهم هذا

الموقف الصلب ، وثبتوا للمحنة ، ولم يسلموا للخلفاء بذلك الحق ، والفقهاء في هذا الصراع كانوا أقوى من الدولة ؛ لأن الأمة وقفت معهم وماتت في المحنة من مات ، وضرب أحمد بن حنبل بالسياط ، فلم يستسلم ، وأصبح بثباته رمزاً على تمسك الأمة بالحق وشرعية الله في وجه الطغيان ، وقد رأينا تقدير العلماء لهذا النفر من علمائهم لثباتهم في الدفاع عن شرع الله وحق الأمة فيه ، وتصديهم للخلفاء ورجالهم وإزرائهم بالمعتزلة والمتكلمين الذين احتقروا الأمة ، ونظروا إليها نظراتهم إلى البهائم كما رأيت في بعض ما أوردنا من كلامهم ، وخاصة الجاحظ وبشر المريسي وأضرابهما .

وقد رأينا حماسة الناس لأحمد بن حنبل ووقوفهم إلى جانبه أيام المحنة ، لأنهم أحسوا أن القضية قضيتهم ، وأن هذا الرجل إذا لم يحن هامته لهم فقد انتصر وانتصروا معه ، فإن جمهور الناس كانوا موتورين من ظلم بنى العباس وعبثهم بالأموال والدماء والحقوق والكرامات ، تواقين إلى من ينصرهم عليهم ؛ فجعلوا عندما سيق أحمد بن حنبل للعذاب يتنسمون الأخبار ويسألون : هل أجابهم ؟ فإذا قيل لهم : لا لم يجبه طربوا وحمدوا الله ، حتى إذا انتهت محنة الرجل أحسوا أنهم انتصروا على السلطان بانتصار أحمد بن حنبل عليه ، وأصبح هذا الانتصار رمزاً عندهم على سيادة الأمة وسيادة شرع الله .

ورفعوا أحمد بن حنبل إلى مكان لم يرفعوا إلى مثله فقيهاً على كثرة ما عرفوا من أجلاء الفقهاء من أمثال سعيد بن المسيب وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة وأبي حنيفة النعمان بن ثابت ، ومالك بن أنس ومحمد بن إدريس الشافعي .

وأنت تفهم من موقف الأمة هذا أنها ليست بالجهل الذي تصور المترفعون عليها من أهل الفكر والعلم الذين ذكرناهم ، فها هي ذى تعرف من حقائق الصراع الدائر أكثر مما عرف محمد بن سعد كاتب الواقدي ، ويحيى بن معين ، وأحمد بن زهير بن حرب ابن أبي خيثمة ، فقد سلم هؤلاء للمأمون بما أراد حاسبين أنها قضية فقهية عادية يجوز للعالم أن يخلص نفسه من عذابها بالتسليم الظاهر لصاحب السلطان .

وفي القلب ما فيه ، والله سبحانه أعلم بما في القلوب ، فأنجوا أنفسهم من العقاب وفاتهم المعنى البعيد الذي فهمته الأمة عندما وقفت مع أحمد بن حنبل ، فهي قضية حق وعدالة وشرعية وأمة ، ولهذا أصبح أحمد بن حنبل هو الإمام عندهم ولا إمام غيره ، ولا

يحسبن القارىء أن محمد بن سعد أو أحمد بن زهير بن حرب ويحيى بن معين لم يكونوا من أجلاء الفقهاء ، فقد كانوا فعلاً ممن تفخر بهم هذه الأمة علماً وديناً وصدقاً وفضلاً ، ولكن هناك مواقف تتطلب من الناس فوق العلم والفضل : الفهم لمعنى الموقف ومغزاه ، وأحمد بن حنبل كان على مستوى الموقف ، والأمة كانت على مستوى الموقف ، ويخطئ كل الخطأ من يستصغر الأمة أو ينظر إليها نظرتة إلى الجاهل الذى لا يفهم . فالأمة بطبعها تحس بالحق وتعرف الحق وتميز بالإحساس الفطرى بين من يحبونها ويخلصون لها ومن لا يؤمنون بها ، ففى ١٣ نوفمبر ١٩١٨ ذهب سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى وقابلوا المندوب السامى البريطانى فى مصر وهو السير ريجنالد وينجت وحدثوه فى أمر حق مصر فى الاستقلال فاستصغر الرجل شأنهم وشأن مصر ورد عليهم رداً يفهم منه ذلك ، فأما عبد العزيز فهمى وعلى شعراوى فقد اكتفيا بذلك ، وأما سعد زغلول فقد أثبت بعد قليل أنه رجل الموقف والمؤهل للمطالبة بحق الشعب المصرى . ففى ٧ فبراير ١٩١٩ حضر سعد زغلول باشا مع نفر من كبار مصر من أمثال عبد الخالق ثروت باشا محاضرة فى دار جمعية الاقتصاد والتشريع ألقاها قاض بريطانى يسمى برسيغال وقدم بها مشروع قانون للعقوبات وضعت لجنة كانت تسمى لجنة الامتيازات الأجنبية ، فوقف سعد زغلول بعد المحاضرة وقال كلمة تعليق عليها ختمها بقوله : « فى سنة ١٩١٤ أعلنت انجلترا حمايتها (على مصر) من تلقاء نفسها بدون أن نطلبها أو تقبلها الأمة المصرية فهى حماية باطلة لا وجود لها قانوناً ، بل هى ضرورة من ضرورات الحرب تنتهى بنهايتها ولا يمكن أن تعيش بعد الحرب دقيقة واحدة » . فدوت هذه الكلمة فى أرجاء مصر كلها ، وكانت الشرارة التى أشعلت ثورة ١٩١٩ ، وبها وبما تلاها من أعمال الإقدام والشجاعة والحكمة تقدم سعد زغلول الصفوف وأصبح زعيم هذه الأمة ، وفهمت الأمة مغزى العبارة فهبت مستجيبة لسعد على بكرة أبيها ، فكأن هذه الأمة التى كان الباشوات والأمراء ينظرون لها على أنها أمة جاهلة كانت - رغم جهلها المزعوم هذا - أذكى وأصدق فهماً وتقديراً للموقف من بقية الباشوات والمتنفذين ، ثم سارت بعد ذلك بثورتها يتقدمها سعد ومن انضم إليه فى مسيرتها الخالدة فى سبيل الحرية والاستقلال .

مثل هذا الشعور كانت أمة الإسلام تتبادل مع أحمد بن حنبل ، وكانت تلك الأمة تنتظر من ابن حنبل أن يواصل مسيرته معها ، وسنرى فيما بعد إن كان قد سار أم لم

يسر ، وإذا كان أحمد بن حنبل لم يقل إذ ذاك كلمة تعبر عن إدراكه الكامل لحقيقة الموقف ، مكتفياً بالعمل دون القول وهذا أبلغ . فإن عالماً مصرياً من تلاميذ الشافعى هو يوسف بن يحيى البويطى (ت سنة ٢٣٢ هـ / ٨٤٦ م) عبّر بأجلى بيان عن حقيقة الصراع قبل أن يموت فى سجنه ، فقد رفض أن يجيب بخلق القرآن فأخذته المحنة ، وألقى فى السجن مكبلاً بأغلال زنتها أربعون رطلاً من الحديد ، فيكتب من سجنه إلى الربيع بن سليمان المرادى زميله فى مشيخة الشافعية فى مصر يوصيه بالاستمرار فى التدريس مكانه ويقول : « إنه لتأتى على أوقات ما أحس بالحديد أنه على بدننى حتى تمسه يدى إنى لأرجو أن يجزى الله عز وجل أجر كل ممتنع فى هذه المسألة لسيدنا الذى فى بغداد . » . رواه عبد الحليم الجندى فى كتابه عن أحمد بن حنبل ص ٣٩٨ عن سيرة البويطى فى طبقات الشافعية لتاج الدين السبكى . وقد توفى البويطى فى سجنه مؤكداً الحقيقة الخالدة من أن مصر موطن الشهداء .

لقد أثبت أحمد بن حنبل بموقفه من السلطان أنه أهل للموقف ، ولكن هل أثبت بعد ذلك أنه أهل للمسئولية التاريخية التى كان هذا الموقف يتطلبها منه ؟

لقد رأينا سعد زغلول يثبت بخطابه فى جمعية الاقتصاد والتشريع أنه أهل للموقف ، ولو أنه وقف عند هذا الخطاب لكان أهلاً للموقف غير أهل للمسئولية ، ولكن سعد زغلول عندما رأى الأمة تستجيب لصوته ألقى بنفسه فى المعركة وسار فى مقدمة الصفوف غير هياب فائتت بذلك أنه أهل للموقف وأهل للمسئولية كذلك ، ودخل التاريخ على أنه رجل سياسة وحق وبلاغة وبسالة وقائد حركة تحرير كبرى ، وكان بهذا كله جديراً بأمرته كما كانت هى جديرة به .

فماذا فعل أحمد بن حنبل للأمة التى علقت عليه الآمال ، ووقفت إلى جانبه واجفة ساهرة الليل أيام المحنة ؟

لقد انتهت المحنة فى ذى الحجة ٢٣٣ هـ / يوليو ٨٤٧ وخرج أحمد بن حنبل من سجنه وعاد إلى بيته ، وكانت سنه إذ ذاك ٦٩ سنة هجرية ، وبقيت له من سنوات العمر ثمانى سنوات فماذا فعل خلالها ؟ .

لزم داره وواصل حياة الزهد والتقشف والتباعد عن السلطان مع أن الأمة كانت تطلب منه إذ ذاك الكثير ، فقد كانت أحوال الناس تسير من سىء إلى أسوأ ، والخليفة

المثوكل الذى أبطل المحنة لم يفعل ذلك تقى أو ورعاً ، بل حسب أنه يكسب الرجل إلى جانبه ، وكان فى ذلك غافلاً أشد الغفلة عن حقيقة الإمام العظيم كما كان فى غاية الغفلة عن كل ما حوله وكل ما كانت الخلافة تتطلب منه . لقد تولاهما واسمه أبو الفضل جعفر ابن أبى جعفر هارون الواثق بن إسحاق محمد المعتصم فى ٢٢ ذى الحجة سنة ٢٣٢ هـ ومكث فى الخلافة خمس عشرة سنة تقريباً - إذ إنه توفى فى شوال ٢٤٧ هـ / يناير ٨٦٢ م . وخلال هذه الفترة ارتكب من الموبقات والمظالم ما فاق به سابقيه . وهذه المساءات كلها كانت تقع على كواهل الناس ، والناس كانوا فى أشد الحاجة إلى رجل يقودهم للخلاص مما كانوا يعانون منه . لقد كانت وقفة أحمد بن حنبل من السلطان فى مسألة خلق القرآن بداية لحركة كان ينبغى أن تستمر حتى تؤتى ثمارها . وإذا كان هو قد كبرت سنه فإن أفكاره كانت شابة ولا بد أنه كان فى تلاميذه من يستطيع مواصلة النضال لو أنه طلب إليهم ذلك ، وقد كان من بين تلاميذه كثيرون جداً مستعدين للسير فى الطريق ، وما كان على الرجل بعد أن وقف هذه الوقفة ووضع بها حداً لتدهور شرعى وإنسانى طويل ألا يخطو الخطوة الأولى فى الطريق الصحيح فتستمر المسيرة ويتغير وجه التاريخ ؛ لأن أمة العرب والإسلام التى وقفت إلى جانب أحمد بن حنبل وأيدته ضد السلطان كانت أمة قوية شابة وما زالت بخير بفضل حيوية العقيدة الإسلامية وقوة الجيش العربى ، ولكن أحمد بن حنبل بعد هذه الوقفة استمر واقفاً مكانه مكتفياً بما تحمله من عذاب السجن والسيئات قانعاً بما جنى فى مقابل ذلك من المجد . فكانت النتيجة أن وقفته ظلت مجرد وقفة رجل شجاع وانتهت عند هذا الحد ، بل إن التدهور الخطير بدأ بعد ذلك ؛ لأن موقف الجمود بعد الشروع فى المسير خذل الأمة وخيب آمالها فبدأ اليأس يثقل عليها حتى شل فكرها . وبعد الشلل جاء الجهل فأكمل المأساة ، والحنبلية التى بدأت تلك البداية العظيمة أصبحت شرّاً مستطيراً على الأمة وعاملاً من أكبر عوامل إسراع الضعف إلى كيانها ، وسأفصل لك ذلك على قدر ما يسمح به المجال وسأتيك بمقارنات من تجارب أمم أخرى تفتح أمامك مجالات للتفكير والتدبر فى أسباب تخلف هذه الأمة ، لأن تخلفنا نسبى ، أى أننا أصبحنا متخلفين بالنسبة لغيرنا ممن سلكوا غير مسلكنا ، والحقائق تتكشف بالمقارنة بالنظائر والأشباه وتتضح أكثر بالمقابلة مع الأضداد والنقائص .

وقبل أن أدخل في هذا التوجيه الجديد لموضوع أحمد بن حنبل أحب أن أعطيك فكرة عن حيوية أمة العروبة والإسلام في نفس ذلك الوقت الذي وقف فيه أحمد بن حنبل بها في بداية الطريق . وكما هي العادة آتيك بهذه الفكرة في صورة شاهد حي من التاريخ ، فإننا لم نعرف أبدًا كيف نفيد من مواهب أمتنا التي جعلنا تاريخها سردًا مملًا لتواريخ الدول ووقفات عند أعلام صورناهم على أنهم مصابيح مضيئة وسط ظلام ، وما كان الذي حول هذه المصابيح بظلام قط ، وأمتنا كانت وما زالت عامرة بالخير والمواهب والقدرة على العطاء . وقد رأيت أن رجلاً مثل يحيى بن يوسف البويطي لم يقل ثباتًا ولا بسالة عن أحمد بن حنبل ، بل هو احتمل من التعذيب أضعاف ما احتمل أحمد بن حنبل ثم وهب ثواب ذلك كله له ، ثم مات في سجنه عزيزاً راضياً ، فوصل بالشهادة في سبيل الرأي إلى منتهاها ، ومثل يحيى البويطي كثيرون ولكننا ننسأهم لكي نقصر المجد كله على رجل واحد . والخبر التالي يدل على أن عامة أمة الإسلام كانت من ناحية البسالة والإدراك والإحساس بالشخصية على مستوى لا يقل عن أحمد بن حنبل ، كما كانت الأمة المصرية على مستوى سعد زغلول . والفرق هنا أن سعد زغلول وقف الوقفة التي وضعت حدًا للاحتلال ثم سار في مقدمة الركب في طريق الاستقلال فتحوّلت كلمة ألقيت في قاعة محاضرات إلى حركة قومية كبرى . أصبحت الوقفة بداية طريق في حين أن وقفة أحمد بن حنبل تحولت إلى بداية ونهاية في نفس الوقت ، بل أصبحت بداية لتدهور أشد كما سنرى .

وإليك الخبر الذي أريد سياقه لك وهو وارد عند الطبري (ح ٦ / ٥٠٢ وما بعدها) والأغانى (٥٤ / ١٧) والنويرى في نهاية الإرب (١٥٥ / ٢٢ وما بعدها) في حوادث سنة ١٩٠ هـ / ٨٠٥ م أيام هارون الرشيد أى في نفس العصر الذي نتحدث عنه على وجه التقريب : أن الرشيد لما حصر هرقله Heraclaa (وهى من بلاد الروم في أسية الصغرى بعد مناطق الثغور الإسلامية في الطريق إلى قونية) وألح عليهم بالمجانيق والسهام والعرادات ، فتح الباب ذات يوم ، فاستشرف المسلمون لذلك ، فإذا رجل من أهلها كأكمل الرجال قد خرج في أكمل السلاح فنادى : قد طال موافقتكم إيانا ، فليبرز إئى منكم رجلان ، ثم لم يزل يزيد حتى بلغ عشرين فلم يجبه أحد فدخل وأغلق الباب ، وكان الرشيد نائمًا فلم يعلم بخبره إلا عند انصرافه ، فغضب ولام جنده وغلمانة

على تركهم إنباهه وتأسف لغوته فقيل له : إن الامتناع منه سيغريه ويطغيه ، وأحرى به أن يخرج في غد ويطلب ما طلب .

فطالت على الرشيد ليلته ، وأصبح كالمنتظر له ، فإذا بالباب قد فتح ، وخرج الرجل طالباً للبراز ، وذلك في يوم شديد الحر ، فجعل يدعو أنه يثبت لعشرين منهم ، فقال الرشيد : من له ؟ فابتدرة جلة القواد كهرثمة (بن أعين) ويزيد بن مزيد (الشيباني) وعبد الله بن مالك وخزيمة بن خازم وأخيه عبد الله وداوود بن يزيد وأخيه ، فعزم على إخراج بعضهم فضج المطوعة حتى سمع ضجيجهم ، فأذن لعشرين منهم فقال قائلهم : يا أمير المؤمنين قوادك مشهورون بالنجدة والبأس وعلو الصوت ومدارسة الحرب ، ومتى خرج واحد منهم وقتل ذلك العليج (الرومي) لم يكبر ذلك ، وإن قتله العليج كان وصمة على العسكر قبيحة وثلمة لا تسد ، ونحن عامة ولم يرتفع لأحد منا صوت (صيت) إلا كما يصلح للعامة ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يخلينا نختار رجلاً فنخرجه إليه ، فإن ظهر علم أهل الحصن أن أمير المؤمنين قد ظفر بأعزهم على يد رجل من العامة من أخفاء الناس (مجهول من بين عامة الناس) وإن قتل الرجل فإنما استشهد ، ولم يؤثر نهبه في العسكر ، ولم يثلمه (موت) رجل ، وخرج إليه بعده مثله حتى يقضى الله ما شاء . فقال الرشيد : قد استصوبت رأيكم هذا ، فاختاروا رجلاً يعرف بابن الجزري ، وكان معروفاً في الثغر بالبأس والنجدة فقال له الرشيد : أخرج ؟ قال : نعم ! وأستعين بالله تعالى . فقال : أعطوه فرساً ورمحاً وسيفاً وترساً ! فقال : يا أمير المؤمنين أنا بفرسى أوثق ، ورمحي بيدي أشد ولكني قد قبلت السيف والترس . فلبس سلاحه . واستدعاه الرشيد فودعه وأتبعه الدعاء وخرج معه عشرون من المطوعة ، فلما انقضى (نزل) في الوادي قال لهم العليج - وهو يعدم واحداً واحداً - إنما كان الشرط عشرين وقد زدتكم رجلاً ولكن لا بأس فنادوه : ليس يخرج إليك إلا رجل واحد ، فلما فصل منهم ابن الجزري وقد أشرف (أطل) أكثر الناس من الحصن يتأملون صاحبهم والقرن (خصمه) وقرينه الذي سيارزه من المسلمين فقال له الرومي : أتصدقني عما أستخبرك ؟ قال : نعم . قال : أنت بالله ابن الجزري ؟ قال : اللهم نعم ! فكر له (خرج له) ثم أخذوا في شأنهما فتطاعنا حتى طال الأمر بينهما ، وكاد الفرسان يقومان وليس يחדش واحد منهما صاحبه ، ثم تحاجزا بشيء (أى استتر كل منهما عن صاحبه

بشيء) فزج كل منهما رمحه واحتضن سيفه فتجالدا ملياً واشتد عليهما الحر وتبلد
الفرسان وجعل ابن الجزرى يضرب الضربة التى يرى أنه بلغ بها فيتقيها الرومى وكان
ترسه من حديد ، ويضربه الرومى ضربة معزر (أى بكل ما عنده من قوة) فلما يؤس
كل واحد منهما من الوصول إلى صاحبه انهزم ابن الجزرى ، فدخلت المسلمين كآبة لم
يكتنبوا مثلها قط ، إنما كانت هزيمته حيلة وعطط المشركون اختيالاً وتطاولاً وإنما
كانت هزيمته حيلة منه فاتبعه العلاج وتمكن منه ابن الجزرى فرماه بوهق (ضربة
سيف) فوقع فى عنقه فما أخطأه وركض فاستلبه عن فرسه فما وصل إلى الأرض حتى
فارقه رأسه فكبر المسلمون أعلى تكبير وانخذل المشركون ، وبادروا الباب يغلغونه
واتصل الخبر بالرشيد فصاح بالقواد : اجعلوا النار فى المجانيق . ففعلوا وجعلوا الكتان
والنفط على الحجارة وأضرموا نارا ورموا بها السور فكانت النار تلتصق به وتأخذه
الحجارة وقد تصدع وتهافت فلما أحاطت بهم النيران فتحوا الحصن مستأمنين ..

وصبَّ الرشيد الأموال على ابن الجزرى وقوده (أى رفعه إلى مرتبة القيادة) فلم
يقبل التقويد وسأل أن يعفى ويترك مكانه من الثغر فلم يزل به طول عمره .. وقد أتيت
بهذا الخبر على تواليه حتى ترى بنفسك أن أمة العرب كانت لا تزال بخير ، فهذا رجل
من العامة التى احتقرها أصحابنا أشد الاحتقار يثبت أنه أقدر وأثبت من كبار القواد ،
وأصحاب ذلك الرجل أثبتوا أنهم أصحاب رأى حكيم ونظر سديد وحرص على صالح
المسلمين شديد ، والمطوعة هم المتطوعون الذين يخرجون للجهاد فى سبيل الله ويقيمون
فى الثغور درعاً لأمة الإسلام وهم لا يطلبون الأجر إلا من الله سبحانه ، فهم أصحاب
إيمان حق وقد رأيت ابن الجزرى يرفض القيادة ويفضل أن يظل مجاهداً فى سبيل الله ،
ونحن إلى يومنا هذا نعرف أمتنا ونعرف أنها لم تخل ولا يمكن أن تخلو من الرجال ذوى
الرأى والشهامة والنجدة والاحتساب وفى جيرتنا فى المدينة والقرية وفى أعمالنا فى
الديوان أو المصنع أو الحقل أو الجامعة والمدرسة وبقية مناكب الحياة رجال كثيرون
من أهل النجدة والشهامة وطيب الخلق والعفة والدين ، وهؤلاء هم الذين وقفوا إلى جانب
ابن حنبل ونصروه ، وهؤلاء هم الذين رفعوه إلى مقام الإمامة العظمى وجعلوه بطلاً ،
ولو ترك الأمر لأنداده من الفقهاء لخذله معظمهم وأسلموه ، وهؤلاء الرجال الصالحون
من غمار الناس بالذات كانوا ينتظرون من ابن حنبل أكثر مما أعطى فإن الرجل كان

إيجابياً متقدماً الصفوف حتى انتهت المحنة فلما انتهت وقف مكانه وأصبح سلبياً وقضى بقية عمره زاهداً متقشفاً ورعاً اضطره المتوكل إلى المجيء إلى « سر من رأى » ليكون في معيته فذهب ولكنه رفض أن يكون في المعية وكان يقول : وماذا يريد هؤلاء مني ؟ (يريد الخليفة ورجاله) .

والجواب : أنهم كانوا يريدون أن يعتزوا به ويستروا بوجوده معهم عيوبهم ، ولكن الذين كانوا بحاجة إليه فعلاً كانوا جماهير أمة العروبة ، هؤلاء فعلاً كانوا في حاجة إلى بطل يسير بهم لا إلى رمز يقف معهم ، ولو كان مصير أمة الإسلام متوقفاً على زاهد متقشف يقوم الليل ويصوم النهار لكان هذا المصير ظلاماً ويأساً كله ، وقد رأينا في معابد رهبان البوذية في هضاب التبت رجالاً على الكفر ولكن إيمانهم وتقشفهم وزهدهم في الدنيا وحفظهم لكتب ديانتهم يروع القلوب ، ولكن الألوف منهم لم تخرج ببلاد التبت عن أن تكون صحراء جرداء ..

هل تذكر قصة مارتن لوثر الذي حدثتك عنه ؟ فهذا أيضاً رجل دين وقد خرج في شجاعة وكتب احتجاجه على صكوك الغفران وعلى البابوية فآثار اهتمام الدنيا ولو أنه وقف عند هذا الاحتجاج وعاد إلى كنيسته وأقام يصلى ويتعبد لما تحرك في الدنيا شيء ، ولما كانت هناك تلك الثورة الفكرية الاجتماعية السياسية التي خرجت بأوروبا من ركود العصور الوسطى ووضعتها على أول طريق سيادة الدنيا ، ذلك أن مارتن لوثر بعد أن كتب احتجاجه هذا تطلعت إليه نفوس أهل الهمة والبسالة من أمته الألمانية ، كما تطلعت أمة الإسلام إلى أحمد بن حنبل وهنا أثبت لوثر أنه رجل الموقف ورجل المسؤولية فتقدم وأهاب برجال الفضل والنجدة من الأمة فهبوا إليه سراعاً وحركته التي بدأت بتعليق احتجاجه الشهير على باب كنيسة وتنبرج سنة ١٥١٧ م استثارت الهمم وأيقظت القلوب وعندما استدعوه للمناقشة أو قل للمحاكمة في كنيسة أوجزبورج ١٥١٨ تحرك الناس لنصره وعندما خاف أنصاره عليه من رجال البابا والإمبراطور في مجمع « ورمز » خطفوه إلى قلعة أمير من المتحمسين لآرائه ، وبدأ لوثر طريقه العظيم وأقبل في حصنه على العمل إقبالاً يروع النفس ، فإلى جانب ما ذكرنا من ترجمته الإنجيل والعهد القديم خرج إلى الميدان وأثبت أنه رجل الموقف والمسئولية وابن بجدهتها كما نقول : وكتب خطابه المشهور إلى أشراف الشعب الألماني An Een Christlischen

A Del Deutscher Nation وبينما خذل ابن حنبل أهل النجدة من رجال الأمة الذين تناولت أعناقهم إليه تقدم لوثر غير هياب وقاد حركة إيقاظ الفكر الأوروبي كله ونبه الشعب الألماني إلى كيانه ودوره ، وسجل لوثر اسمه أول رجال النهضة في أوروبا . وأوروبا - أيها الأعزة لم تبلغ إلى ما هي فيه اليوم مصادفة ولا في سواد ليلة - إنما هي بناء ضخّم بنته حفنة من البواسل وأصحاب المواهب حجرًا حجرًا وأعلوه دورًا دورًا ، وأوروبا ولدت أمريكا وأستراليا وسادت الدنيا .. أتدري ماذا كانت نتيجة موقف أحمد ابن حنبل عندما وقف في أول الطريق ؟ لقد ازداد تدهور الخليفة المتوكل وحواشيه حتى أصبح من أسوأ وأفسد من عرف التاريخ من الخلفاء ، والجماهير التي كان يستطيع أن يقودها في طريق البناء تحولت إلى جماهير تخريب ، وحجر على الفكر ومطاردة لكل صاحب رأى ، لقد حسبت الجماهير أن الحنبلية معناها الجمود ؛ لأن أحمد بن حنبل وقف وجمد وتجمعوا عصابات في بغداد عرفت بالحشوية أصبحت تهاجم كل من قيل إنه يخالف ابن حنبل وتقتله وتنهب داره .

لقد نجا أحمد بن حنبل وحده ، أما نحن فغرقنا ؛ لأن الأمة التي كانت تعاني بدايات المرض أصيبت بنكسة ، والمريض إذا انتكس ولم يجد من يعالجه تدهور وسار إلى طريق الموت والبداية الطيبة أصبحت نهاية سيئة وأنت عندما تسأل : ماذا دهي أمة العرب ؟ فهذه بداية الجواب وسأتيك في الفصل التالي بما يزيدك بصيرة .

الطَّرِيقُ إِلَى التَّامُضِ

كان أحمد بن حنبل عمره كله رجلاً متقللاً من الدنيا ، وكان قبل المحنة يجلس مع أصحابه ويقرأ على تلاميذه ، أو يذاكر أهل الحديث فيما جمعوا منه ، ويناقشهم مع الصبر الطويل ، وكان العصر كله (١٥٠ - ٢٥٠ هـ / ٧٦٧ - ٨٦٤ م) أزهى عصور جمع الحديث وكتابته ، وكان أحمد بن حنبل رابع أربعة اجتهدوا في جمع الحديث في ذلك العصر ، والثلاثة الآخرون هم : محمد بن إسماعيل البخاري ، وإسحاق بن راهويه ، وأبو عيسى الترمذي ، ولكنه بعد المحنة تنسك واعتزل وتجهم للدنيا وواصل الصيام ، فكان يسرد الصيام الأيام العشرة لا يأكل فيها شيئاً حتى هزل وضعف واعتل ، وما أمر الله ورسوله بالزهد أو سرد الصيام ولكنها رهبانية فرضها أولئك الرجال على أنفسهم فأضروا بها وبالناس أيضاً . وأحمد بن حنبل الذي كان قبل المحنة من أسير الناس في فتاواه ، أصبح بعدها لا يطيق سماع أحد وإذا كان هذا نتيجة المحنة التي مر بها وأثراً من آثار صيامه وزهده في الطعام فإن الله لا يرضى أن يطول صيام الرجل حتى يعتل بدنه .

وإذا كان الناس في حاجة إلى فقه أحمد فقد كانوا أحوج إلى وجوده بينهم ورؤيته يروح ويغدو ويلقى درسه ويأكل ويشرب ، فإن الزمان كان قد مال ميلاً شديداً واحتاج الناس إلى من يعلمهم كيف يشقون طريقهم وسط المتاعب ، ومهما حدث فقد كان ولا بد أن تعيش أمة الإسلام ليعيش بها الإسلام ، وقد رأينا في حديثنا الماضي كيف أن الأمة كانت في عافية ما تزال ، فهي تقبل على الجهاد عن عزيمة واستعداد للشهادة عظيم ، فما بالك برغبتها في الحياة الآمنة الرخية ، وقد خلق الله الناس ليعيشوا لا ليموتوا ، والدين لهذا ينبغي أن يكون طريقاً إلى الحياة الفاضلة ودليلاً لها ولا يصح قط أن يتخذ الناس طريقاً إلى الموت ، والفقه ينبغي أن يكون منهاج حياة لا سبيلاً إلى الموت ، وكتب الفقه لا بد أن تكون كتب حياة لا كتب موتى ، جاء في سيرة أحمد بن حنبل : جاء « الوزير يحيى بن خاقان يزور أحمد بن حنبل — فجعل يخوض في الطين في زقاق أحمد حتى بيته ، وعلى البيت ستر هو قطعة خيش ، أما صاحب البيت فعليه كساء مرقوع فأقرأه سلام أمير المؤمنين (المتوكل) وأنبأه أن يسأل الله الدعاء له وأنه بعث إليه ألف دينار

يفرقها على ذوى الحاجات فلم يقبلها (رواه عبد الحليم الجندى ، أحمد بن حنبل ص ٤٤٦) . فأما رفض مال السلطان فقد فهمناه ، فما معنى هذا التعذيب كله للنفس والبدن ، ألم ينه رسول الله ﷺ عن مثل ذلك صاحبيه سعيد بن زيد بن نفيل ، وعثمان ابن مظعون ، وأقرأ هذا الخبر من سيرة ابن حنبل يرويه الحافظ الذهبي : وعن المروزي قال : أنبهني أبو عبد الله (أحمد بن حنبل) ذات ليلة وكان قد واصل (الصيام) فإذا هو قاعد فقال : هو ذا يدار بى من الجوع (أى إنه كان يشعر بدوار) فأطعمنى شيئاً ، فجئت به بأقل من رغيف فأكله قال : لولا أنى أخاف العون على نفسى ما أكلت ، وكان يقوم من فراشه إلى (المخرج) الباب فيقعد يستريح من الضعف والجوع ، وحتى إنى كنت لأبل الخرقه فيلفها على وجهه لترجع إليه نفسه حتى أوصى (كتب وصيته) من غير مرض (بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ص ٧٠) .

فقيم والله كان عذاب النفس هذا ؟ والدين يسر لا عسر ، وكيف يأتى الناس برجل يموت تحت أعينهم وهم أحوج إلى رجل يعيش فيهم ليتعلموا منه كيف يعيشون حياة فاضلة ، واسمع إلى أحمد بن حنبل يقول في سيرته التى رواها الحافظ الذهبي بعد السند ، سمعت أحمد بن حنبل يقول (ص ٣٠) : أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه الصحابة وترك البدع وترك الخصومات والجلوس مع أصحاب الأهواء وترك المراء والجدال ، وليس فى السنة قياس ولا يضرب لها الأمثال ولا تدرك بالعقول ، والقرآن كلام الله غير مخلوق ، وإنه من الله ليس ببائن منه ، وإياك ومناظرة من أحدث فيه .. فكأن السنة هنا هى الجمود فإن الزمان لم يتوقف بعد عصر الصحابة ولا بد أن ظروفاً جديدة تجيء ولا بد للمسلمين من أن يعيشوا زمانهم فى حدود ما أمر الله به ، وما نهى الله عنه ، والبدعة فى عرف فقهاء تلك العصور هى رفض الاعتراف بأى شىء ظهر بعد العصر النبوى فكيف لا يستخرج الناس من الأحكام ما يحلون مشاكلهم على ضوء من القرآن والسنة وكيف يقال : ليس فى السنة قياس إذا كان علينا أن نلتمس لأنفسنا سبيلاً فى ظروف تتجدد كل يوم فى ضوء القرآن والسنة ؟ وكيف لا تضرب للسنة الأمثال إذا كانت الأمثال من فعل الرسول ﷺ وأصحابه نماذج يحتذىها الناس فى حل مشاكلهم التى تظهر كل يوم وتفرض نفسها مع ظروف الزمان المتغيرة ، قلنا لا معنى أو فائدة ترجى من الجدل فى أشياء لا طائل وراءها كالتساؤل عما إذا كان القرآن قديماً أو مخلوقاً ، فإن القرآن هو كلام الله وهو بين أيدينا نؤمن بكل كلمة فيه ونأخذ بما يأمرنا

به ونقف عند ما ينهانا عنه ، ونستضيء بهداه في حل كل ما يلقانا من مشاكل كل يوم ، وهذا حسبنا وأى خير يتأتى من السؤال عما إذا كانت صفات الله هي ذات الله أو هي شئ ينفصل عنها فإن الله سبحانه هو الحى الخالق ولا إله غيره وهو ربنا حسبنا وهو القوى العزيز العليم الخبير الرحمن الرحيم إلى آخر أسمائه الحسنى التى وصف نفسه بها ، فما حاجتنا إلى التساؤل عما وراء ذلك ، وما عدا ذلك فهباء وسفسطة ، وفي حدود هذا كله لا بد أن نعيش ، وأئمة الإسلام ينبغي أن يسيروا بنا في طريق الحياة لا في طريق الموت ، وأحمد بن حنبل قبل المحنة كان رجلاً مستبشراً يقعد للطلاب ويصبر على الدرس فإذا آنس من أحد من إخوانه أو تلاميذه علماً صحيحاً وفطنة وأمانة أخذ عنه ، وأنت تقرأ مسنده فتجد في اختياراته من الأحاديث ذكاء وحسن تقدير واستقامة ميزان لا تجدها عند غيره ، وأنا ألتمس في مسنده الأحاديث ذات المعنى الحضارى فأجد منها عنده أكثر مما أجد عند غيره ، هذا إلى عناية تامة بالنظافة وحسن المظهر ، قال ابن أبى حاتم : ذكر عبد الله بن أبى عمر البكرى قال : سمعت إسماعيل الميمونى قال : ما أعلم أنى رأيت أحداً أنظف ثوباً ولا أشد تعاهداً لنفسه في شاربته وشعر رأسه وشعر بدنه ولا أنقى ثوباً وشدة بياض من أحمد بن حنبل (سيرة أحمد بن حنبل للحافظ الذهبي ص ٢٥) فتغير ذلك كله من بداية المحنة إلى نهاية حياته ، ولم تبق في ذاكرة الناس منه إلا الرجل الجهم الصارم الزاهد في الدنيا والناس والمتفرد بنفسه ، وكان الناس في حاجة إلى عكس ذلك منه ، فإن الزمان كان في تدهور والأحوال تسوء والأمة كانت بحاجة إلى من يقودها في طريق الحياة والقوة والخلاص ، وأيام الواثق والمتوكل بالذات (من ٢٢٧ - ٢٣٢ هـ ومن ٢٣٢ هـ - ٢٤٧ هـ / ومن ٨٤٢ - ٨٤٦ م ومن ٨٤٦ إلى ٨٦١ م) كانت أيام محنة أى محنة للأمة كلها ، لقد كان بناء أمة لا تزال بخير ، والقلوب عامرة بالخير والاستبشار والقوة والاستعداد للوقوف في وجه الظلم والتدهور والفساد وكان الشعب العربى القوى في حاجة إلى زعيم يقودهم في طريق الإصلاح فلم يجدوه وظهر أن أحمد لم يكن رجل الموقف ، وليس هذا عتباً منا عليه فهذا هو طبعه واستعداده والتاريخ علم حقائق لا تمنيات ، فقد كان رجل آخر لا دنيا وآخره ، ومن مآثور كلماته ، « أما بعد فإن الدنيا داء والسلطان داء والعالم طبيب فإذا رأيت الطبيب يجر الداء إلى نفسه فاحذره والسلام » في مثل هذا الموقف قال مارتن لوثر ما معناه : البابا داء والامبراطور داء والعالم طبيب ولهذا فأتصدى للعلاج وسأخوض المعركة لكى يعيش الناس ، وكانت

الظروف فعلاً محتاجة إلى زعيم يقود الناس ، فقد كان المعتصم قد أسقط العرب من الديوان أى أخرجهم من جيوش الدولة ، وهذا أمر عجيب لم يسمع بمثله ، وهل تتصور مثلاً أن يصدر قرار بحرمان المصريين من الخدمة العسكرية في جيش بلادهم ، وتقتصر على غير المصريين وكان هذا القرار شرّاً من بدايته ؛ لأن العرب عصب الدولة وبناة مجدها ، وإذا كانوا قد تغيروا على الخلفاء ، فإن ذلك كان بسبب مظالم هؤلاء وسوء تدبيرهم للأمور ، ولم يكن العلاج إخراج العرب من الجيش وشراء الألوّف من الأتراك واستخدامهم في الجيش وشئون الدولة ؛ لأن هؤلاء مرتزقة أجلاف لا تصلح بهم دولة عربية فكانت النتيجة أن العرب المحاربين الذين طردوا من الجيش تحولوا إلى ثوار على الدولة ، وقام في شمال الجزيرة والحجاز بنو هلال بن عامر بن صعصعة وبنو سليم ابن منصور ، وتولى رجل يسمى أحمد بن نصر الخزاعي ثورة عرب بغداد على الخلافة وجندها ولم يكن هذا الرجل جاهلاً ولا جلفاً إنما كان عربياً ثائراً ذا رأى وعزة وكرامة ، وكان على صلة بنفر من أكابر رجال العلم والحديث من أمثال يحيى بن معين ، وابن أبي خيثمة أحمد بن زهير بن حرب ومن في طبقتهم ، وكان هذا الرجل يقول في الخليفة الواثق الذي خلف المعتصم هذا الخنزير أو هذا الكافر ، وكان والده هذا الرجل ممن قاموا ضد المأمون عندما قتل أخاه وأقاموا شبه حكومة ببغداد عندما كثر اللصوص بها وعندما دخل المأمون بغداد سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م سكنوا ورجوا أن يكون منه خير ، واجتهد هذا الرجل وأحمد بن نصر بن مالك الخزاعي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنكر القول بخلق القرآن (سنة ٢٣١ هـ) ولكن جند الخليفة الواثق قبضوا عليه وعقد الخليفة مجلساً للنظر في أمره ورأس المجلس أحمد بن أبي دؤاد القاضي وأنصاره فقال واحد منهم : هو حلال الدم . وقال آخر : اسقنى دمه يا أمير المؤمنين ، وانتهى الأمر بأن نهض الخليفة الواثق وقتل الرجل حسبة لله تعالى (الطبري ٩ / ١٣٥ وما يليها) .

واتسع نطاق ثورة العرب وشملت ديار كندة وربيعة وبنى كلب بن وبرة في الشام ، ولكنهم كانوا محتاجين إلى زعيم يقودهم فلم يجدوا ، وانكسرت شوكة الثائرين وانتهى أمرهم على يد رجال الخليفة وتلك هي الظروف التي كان الناس فيها محتاجين إلى زعامة رجل من طراز رجال العصر الراشدى ، وكان أصحابنا رؤساء الأمة وهم الفقهاء

والعلماء يرون هذا كله ولا يشعرون أنه يفرض عليهم واجباً حيال أولئك الناس إنما حسبهم أن يقرأوا على الناس أخبار الصحابة وصلابتهم في الحق وجهادهم في سبيل الحق والإسلام ، ولو وقف واحد منهم محتجاً على هذا الفساد كما وقف مارتن لوتر لوجد ألوف الرجال مستعدين لنصرته وإقامة ميزان العدل وتصحيح مسار الدولة كله ، وكما قام أنصار لوتر باختطافه وحمايته فتشجع وسار في طريقه ووقعت الثورة الحاسمة على ركنى الفساد إذ ذاك وهما البابوية والامبراطورية ، فقد كان من الممكن جداً لواحد من هؤلاء الفقهاء الذين كانوا لا يكفون عن القول بأن الإيمان قول وعمل لم يشعروا أن هنا واجباً يناديهم وتركوا الفساد يستشري وضاع الأمل . فهل تتعجب أن ينضم بنو هلال بن عامر بن صعصعة وبنو سليم بن منصور إلى حركة القرامطة وهي حركة شيعية مخربة قامت واشتد بلاؤها في شمال جزيرة العرب خلال القرن الهجري الرابع وارتكب أصحابها من الأفاعيل ما لا يصدق حتى إنهم هاجموا مكة واقتحموا الحرم الشريف وسرقوا الحجر الأسود ومضوا به إلى البحرين حيث ظل في حوزتهم قرابة العشرين عاماً حتى استرده منهم الخليفة الفاطمي العزيز الذي خلف المعز لدين الله في مصر ، وجماع القول في أحمد بن حنبل ما قاله فيه أبو داود صاحب كتاب السنن : كانت مجالس أحمد مجالس الآخرة لا يُذكرُ فيها شيء من أمر الدنيا ، ما رأيته ذكر الدنيا قط .

وإذا كان أهل السياسة قد خرجوا عن المنهج خروجاً تاماً وانصرف الصالحون من أهل العلم إلى الآخرة فمن أين يمكن أن ننتظر الإصلاح ، وهل الإسلام دين آخرة فحسب ؟ وهل سنة رسول الله ﷺ هي مباحة الدنيا وإهمال شئونها وتوجيه الجهود جميعاً إلى الآخرة ؟ إذن ففيم كان جهاده ﷺ وصبره وشجاعته وإقباله على الناس يعلمهم ويؤدبهم ويدلهم على طريق الصلاح في الدنيا إذ لا صلاح لآخرة الناس إلا بصلاح دنياهم ؟ وكيف ننتظر من الناس الصلاح والتقوى إذا كانوا جياغاً عريانين مهددين بالأخطار والمظالم ليل نهار ، بل من يدلهم على طريق الخير إذا كان أعاصم الفقهاء قد تحولوا إلى أهل عبادة منقطعين عن الناس وكأنهم رهبان بوذيون في معابد ؟ وماذا ينفع الناس أن يقول رجل يسمى الخلال : سمعت رجلاً من خراسان يقول : عندنا أحمد بن حنبل يرون أنه لا يشبه البشر ، يظنون أنه من الملائكة .

كان أحمد بن حنبل رجلاً عظيماً ومذهبه جليلاً ، ولكن التطبيق لم يكن سليماً فلم يستطع المذهب القيام بحركة نافعة للناس إلا بعد زمن طويل عندما تنبه محمد بن عبد الوهاب في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي إلى أن العلم لا تتم فائدته إلا بالعمل ، ولا صلاح لآخرة الناس إلا بصلاح دنياهم ، فانضم إلى الشيخ الإمام محمد بن سعود والاثنتان معاً قاما بالحركة الوهابية التي كانت خيرًا عظيمًا للعرب والإسلام جميعاً ، وكل ما نراه اليوم من معالم الرخاء والنهوض والعمران وإصلاح أحوال الدنيا في جزيرة العرب إنما هو نتيجة للتطبيق العملي لمبادئ عظيمة وضعها الفقهاء وانتهت ذروتها عند أحمد بن حنبل ، ولكن أحمد وأصحابه لم ينفعوا الناس في أيامهم ، وصارت الحنبلية عند العلماء خشونة وجموداً ، يقول في وصفهم أبو الوفا بن عقيل : هم قوم خشن تقلصت أخلاقهم عن المخالفة ، وغلظت طباعهم عن المداخلة وغلّب عليهم الجد وقُلّ عندهم الهزل ، وعريت نفوسهم من ذل المراءة وفزعوا من الآراء إلى الروايات ، وتمسكوا بالظاهر تحرجاً من التأويل وغلّبت عليهم الأعمال الصالحة فلم يوفقوا في العلوم الغامضة ، بل وفقوا وأخذوا ما ظهر من العلوم وما وراء ذلك قالوا : الله أعلم بما فيها من خشية بارئها ولم أحفظ عليهم تشبيهاً (رواه عبد الحليم الجندی ، أحمد بن حنبل ص ٣١٢) .

وهذه الصورة انعكست بصورة سيئة عند جماهير الناس ممن لم يجدوا من يقودهم ويهديهم فتحولوا إلى قوة مخربة تهاجم دون رحمة أى إنسان يقال عنه إنه يفكر أو يبدي رأياً يخالف ما ظنوا أنه رأى أحمد وما كان لأحمد رأى ، إنما هو فيما يتصل بالتطبيق والتصرف - رجل نقل وتقليد - ومن أوائل القرن الرابع الهجري أصبحت بغداد ضحية لشراذم من جهال الناس زعموا أنهم حنابلة وسماهم الناس الحشوية ، جعلوا دأبهم إرهاب الناس والعديوان على كل صاحب فكرة وقد حدث مثل هذا في تفاصيل الحركة اللوثرية ، فقد حدث أن تحمس الجمهور لآراء لوثر وأحسوا أن ثورته تفتح لهم باب الانتقام من ظالمهم من رجال الدين والدولة وظنوه يدعو إلى الثورة على النظام واستعمال العنف وقادهم في ذلك نفر من المتحمسين للدعوة اللوثرية وانفجرت ثورة الفلاحين وقاموا بنهب قصور الأغنياء وتخريب المزارع فما كان من لوثر إلا أن تصدى لهذه الحركة فمضى يطوف بالولايات الألمانية يدعو الفلاحين إلى

الهدوء والسلام ونشر في مايو ١٥٢٥ رسالته المسماة : دعوة إلى السلام Ermahnung Zum Frieden ثم لم يلبث أن أعلن الحرب على العنف ودعا إلى إيقاف النهب ونشر رسالته المسماة : Wider die Rqrherischen und morderlischen Rotten Der Bauern (رسالة ضد الجماهير من القتلة اللصوص من الفلاحين) مما يعطينا مثلاً عن التصرف السليم الحازم للفقير العالم المصلح الذى يعلم أن الدين للدنيا والآخرة وأن الإيمان علم وعمل فعلاً لا مجرد كلام فى كتب تستظهر جموع الحنابلة الحشوية الجاهلة التى أصبحت حرباً على الفكر بل على الأمن نفسه ، لأن العلماء تخلوا عن قيادتها وقصروا فى واجبهم نحوها ؛ ولهذا هاجمت الجماهير بيت أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى المؤرخ المفسر ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م ؛ لأنهم اتهموه بالزندقة ، وفى هذه الظروف لم يعد هناك مكان لفكر أو أى شىء يشبه الفكر بل نصبوا أنفسهم حماة للدين على طريقتهم وهواهم وتعدوا على الناس وضربوهم ونهبوهم (انظر : ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٢٢ هـ) .

ولا ينبغى هنا أن نقصر اللوم على الجماهير ، بل يتحمل العلماء جانباً كبيراً من المسئولية ؛ لأنهم لم يقوموا بواجبهم من التعليم والتوجيه وتركوا السلاطين فى فسادهم من ناحية وعامة الناس فى جهلهم من ناحية أخرى فازداد السلاطين فساداً وازداد العامة جهلاً .

فى هذا الجو الخانق ظهر الأشعرى وهو أبو الحسن على بن إسماعيل بن إسحاق الذى ينتهى نسبه إلى أبى موسى الأشعرى صاحب رسول الله ﷺ وهو رجل واسع الذكاء عظيم العلم ، ولكن حظه أراد له أن يشب ويدرس ويتصدى للتعليم فى عصر غلب عليه الجمود فقد ولد سنة ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م ، أى بعد وفاة أحمد بن حنبل بتسعة عشرة سنة ، وقد اتجه الفكر الإسلامى كله إلى الماضى وعاد أدراجه إلى الوراء كأنما هو قد وصل إلى آخر طريق الفكر البشرى ثم انكفاً عائداً إلى الماضى والحاضر كله لم يعد له وجود عند ابن حنبل بعد المحنة وزال

عنده كل مفهوم للمستقبل ، وأصبح همُّ المفكرين هو العودة إلى الوراء بحثاً عن العصر الراشدى وهيئات .

ولد أبو الحسن الأشعري ونشأ في البصرة ، وكانت البصرة ما زالت موطن الاعتزال والمعتزلين وكان شيخهم أيام شباب الأشعري هو أبو علي الجبائي وخلفه في الرياسة ابنه أبو هاشم الجبائي ، وعلى هذين درس الأشعري وكان شاباً ذكياً قوى الذاكرة فلم يلبث أن ظهر أمره بين المعتزلة وأصبح من خيرة شبابهم ، ثم من كبار شيوخهم ، وكان المعتزلة بعد زوال عصر سلطانهم في عصر الخليفة المتوكل قد انطوا على أنفسهم وتدهورت آراؤهم ومناحي تفكيرهم وتمادوا في السفسطة والجدل حتى سألوا أسئلة بالغة السخف وردوا عليها بأجوبة أسخف مثل سؤالهم : هل يظل رسول الله رسولاً بعد موته أو تنقطع عنه صفة الرسول بموته ؟ ووقف بعضهم عند قوله تعالى ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن ٢٧/٥) فقال : إذن فعندما تقوم القيامة ويفنى الكون لا يبقى إلا وجه الله لا غير ، أما بقية الله فلا تبقى إلى غير ذلك من المسائل التي تدل على تدهور شديد في التخريف ، فما هذا بفكر على الإطلاق .

وبين هؤلاء المعتزلة عاش أبو الحسن الأشعري أربعين سنة كان فيها من أئمتهم وكبار رجالهم ، ولكنه عندما تغير الزمان وانكشفت حقائق الاعتزال وأقوال أصحابه وانصرف معظم المسلمين عنهم وانحصرت آراؤهم في دوائر مغلقة معظمها في البصرة أعاد الأشعري النظر في أمر نفسه فبدأ له أن الاستمرار في القول بآراء المعتزلة هباء لا يتحصل منه شيء ، وأن الخير في أن يعود إلى السنة وأهلها ليخرج من الحفرة التي حكم على نفسه بالعيش فيها ، وقرر أن يعلن الانفصال عن الاعتزال والعودة إلى السنة ولكنه فعل ذلك بطريقة لا تبعث على الثقة ، فانقطع عن الناس خمسة عشر يوماً خرج بعدها واتجه إلى المسجد وصعد المنبر وقال : معاشر الناس إني إنما تغيبت عنكم في هذه المدة لأنني نظرت فتكافأت عندي الأدلة ولم يترجح عندي حق على باطل ولا باطل على حق فاستهديت الله تبارك وتعالى فهداني إلى اعتقاد ما أودعته في كتيبى هذه ، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقد كما انخلعت من ثوبى هذا ، وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به ودفع الكتب إلى الناس والخبر على هذه الصورة يدعو إلى الشك ؛ لأنه يفهم منه أن أبا الحسن على بن إسماعيل الأشعري عندما اعتزل الناس أسبوعين ألف خلالهما كتباً

جديدة في الفقه على مذهب أهل السنة ، وكم كتاب والله يؤلف الإنسان في خمسة عشر يوماً ؟ ثم إن خلعه ثوبه القديم المعتزلي لا يخلو من ظرف فإن هذا الثوب كان معتزلياً ، ولم يقل لنا صاحب الخبر إن كان أبو الحسن قد لبس أمام الناس ثوباً سنياً .

وهناك أخبار تقول : إن الأشعري رأى رسول الله ﷺ في منامه فشكا إليه شكوكه في مسائل الاعتزال فقال له رسول الله ﷺ : عليك بسنتي . قال : فانتبهت وعارضت مسائل الكلام بما وجدت في القرآن والأخبار (أحاديث الرسول وأخبار الصحابة والسلف الصالح) فأثبته ونبذ ما سواه وراء ظهره وإذا كان الأشعري قد ولد سنة ٢٦٠ أو ٢٧٠ هـ فيكون هذا التحول الحاسم قد تم سنة ٣٠٠ أو ٣١٠ هـ / ٩١٢ م أو ٩٢٢ ، أى قبل وفاة الرجل بأربع وعشرين أو أربع عشرة سنة ، لأنه توفي سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٦ م ، ويقول ابن خلكان في المادة التي اختصه بها - وهي ناقصة جداً - وكان أبو الحسن يجلس أيام الجمع في حلقة ابن إسحاق المروزي الفقيه الشافعي في جامع المنصور ببغداد (٢ : ٤٤٦) .

وأراد الأشعري أن يؤكد للناس صدق توبته فأعلن أنه يعود إلى السنة على مذهب الإمام أحمد بن حنبل فقال : « ديانتنا التي ندين بها هي التمسك بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان عليه أحمد بن حنبل - نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته - قائلون ، ولن خالف قوله مجانبون ، لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق عند ظهور الضلال » .

وذلك كان خطأ الأشعري الأول فإن الناس لا تصدق هذا التحول الكامل - ١٨٠ درجة كما يقولون - دفعة واحدة ، والحنابلة بالذات كانوا من أشد الناس شكاً وريبة في غيرهم فرفضوا توبته ولم يقبلوه ورموه عن قوس واحدة ، والخطأ الثاني أن الرجل عاد إلى السنة على طريقة المعتزلة أى أنه بعد أن كان متكلماً معتزلياً أصبح متكلماً سنياً أى أنه أراد أن يدفع عن السنة ويؤيدها بالمنطق والحجة والجدل مع خصومها ، والحنابلة لا يحبون الجدل ولا يرضون أن يكون مذهبهم موضع جدل ، إنما هو التسليم المطلق بلا سؤال أو مناقشة كما رأينا ، ولهذا فقد قال فيه أبو الفرج ابن الجوزي وهو من أئمة

الحنابلة : إن الأشعري ظل على مذهب المعتزلة زماناً طويلاً ثم تركه وأتى الناس بمقالة (رأى) خبط بها عقائد الناس .

وقد أخطأ الحنابلة في موقفهم هذا من الأشعري فقد كان الرجل بعد تحوله صحيح الاعتقاد في السنة وكلامه كما يتجلى في كتابه الأشهر « مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين » يدل على ذكاء واسع وفهم دقيق وإلمام بالإسلام ومذهب أهله عظيم ، ومذهبه في التدليل على حقيقة الإسلام وصحة عقائده يعجب الرجل الذكي الذي يريد أن يسند إيمانه إلى فكر ومنطق ، ولهذا فإن الناس مع الزمن الطويل تبينوا فضل الأشعري وما يمتاز به بين رجال الفكر الإسلامى من صفاء ذهن واستقامة منطق وصحة اعتقاد ، ولكن ليس من الصواب أن يقال : إن الأشعري إمام من أئمة السنة لأنه لا يرقى قط إلى مستوى الأوزاعي أو مالك بن أنس أو أبى حنيفة أو أحمد بن حنبل إنما هو مفكر صاحب طريقة في المنطق والاستدلال ، ومن سوء حظه أنه جاء بعد انحدار شمس الفكر الإسلامى إلى المغيب ، وقد استدار الناس للشمس وكروا عائدين باحثين عن الغد في الأمس ، فلم يكن لدعوته صدى يذكر وإن كنا نحن نجد في كلامه متعة وفائدة لأننا على طريقته نحب أن نستند إلى العقل إلى جانب العاطفة ، وهذا المذهب أشبه بالإسلام وأليق بالمسلم ، لأن القرآن - كلام الله - كتاب عقل وفكر ودعوة إلى الإيمان بالنظر والتأمل والاستدلال .

ومن أكابر تلاميذ الأشعري الباقلانى وهو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر ، ولم يذكر أحد لنا سنة مولده أو سنة وفاته ولكنه على أى حال ظهر وعرفه الناس وأخذوا عنه خلال القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى وقد اشتهر بأرائه في مجلس عضد الدولة البويهى أمير الأمراء وصاحب الأمر في دولة الخلافة فيما بين شوال ٣٧٢ هـ / أبريل سنة ٩٨٣ حتى رمضان سنة ٣٧٦ هـ / يناير ٩٨٧ م ، وكانت عاصمته شيراز لأنه كان رجلاً فارسياً ديلمياً شديد العصبية لجنسه واسمه فناخسرو ويلقب بأبى شجاع ، وكان حاكماً ظالماً متطاولاً على أموال الناس ودمائهم ، وسيرته تدل على أنه كان لصاً بل قاطع طريق ، ولكن ذلك لم يمنع شاعرنا العظيم أبو الطيب المتنبى من أن يمدحه بقصيدة يقول فيها :

وقد رأيت الملووك قاطبة وسرت حتى رأيت مولاهها
ومن مناياهم براحتيه يامرهما فيهم وينهاها
أبا الشجاع بفارس عضد الـ دولة فناخسرو شهانشاها
أساميا لم تزده معرفة وإنما لئذ ذكرناهاها

وبالباقلانى مشهور عندنا بكتاب « إعجاز القرآن » وهو كتاب جيد يدل على علم واسع وفكر رائق ولكنه لا يكفى لتبرير المكانة الكبيرة التى يحتلها الرجل فى تاريخنا الفكرى ولكنه دون شك كتاب عظيم ، بمعيار عصره وفى حدود مستوى العلم فى بدايات عصر الركود والجمود ، وإليك دليلاً على عقلية الفقهاء فى بدايات عصر الجمود هذا فقد كان من شيوخ الباقلانى رجل يسمى أبا الحسن الباهلى البصرى وهو من أصحاب الأشعرى أى أنه معدود فى جملة المتفتحين فاقراً عنه هذه الحكاية التى يحكيها تلميذه أبو بكر الباقلانى الذى نحن بصدد « كنت أنا وأبو إسحاق الأسفرايينى وابن فورك معاً فى درس الشيخ الباهلى وكان يدرس لنا فى كل جمعة مرة واحدة ، وكان منا فى حجاب يرخى الستر بيننا وبينه كى لانراه وكان من شدة اشتغاله بالله مثل واله أو مجنون لم يكن يعرف مبلغ درسنا حتى نذكره ذلك » ، ويعلق الأستاذ الجليل الشيخ السيد أحمد صقر محقق (إعجاز القرآن الطبعة الرابعة القاهرة ١٩٧٧ ص ١٨) ، ولم يكن الباهلى يحتجب عن هؤلاء الثلاثة فقط ، بل كان يحتجب عن كل الناس حتى عن الجارية التى كانت تخدمه .

وقد سأل تلاميذه فى أول عهدهم به عن سبب إرساله الحجاب بينه وبينهم فقال :
إنكم ترون السوقه وهم أهل الغفلة فترونى بالعين التى ترون أولئك بها ، فتأمل والله هذا الشيخ الذى بلغ به الغرور أن يرفض أن يراه تلاميذه بعيونهم التى يرون بها السوقه وهم عامة الناس مثلى ومثلك فيندس بهاء خلقته الجميلة ثم يقولون لك إنهم أهل سنة وعلم ودين ، ترى ماذا كان الرسول ﷺ يقول فى هذا الرجل الذى فاق بغياؤه وغفلته أئمة الكفر فى مكة الذين رفضوا الجلوس إلى جانب المستضعفين ممن كانوا يرون أنهم سوقه منحطون عنهم من أمثال خباب بن الأرت الحداد وبلال الحبشى .

إلى أين وصلنا ؟!

أَبُو حَامِدِ الْغَزَالِيِّ يَفْتَحُ لِلنَّاسِ أَبْوَابَ عَالَمِ الْقُلُوبِ

في الطريق إلى الغزالي نلقى علماً من أعلام الفكر الإسلامي جدير منا بوقفة طويلة - لولا ضيق المقام - فقد كان آية في صدق الإيمان وسعة العلم ودقة الفهم ، وهو الجويني عبد الملك بن عبد الله بن يوسف المكنى بأبي المعالي والملقب بإمام الحرمين (١٨ محرم ٤١٩ - ٢٥ ربيع الآخر ٤٧٨ هـ / ١٧ فبراير ١٠٢٩ - ٢٤ أغسطس ١٠٨٥ م) الذي كان بحق أعظم من ظهر من فقهاء الشافعية قبل أبي حامد الغزالي ، وهو بالفعل أنجب أبناء المذهب وأكثر من أفاد من الإمام الشافعي في علم الأصول ، وهو صاحب تأليف كثيرة أهمها « كتاب البرهان في أصول الفقه » وهو الكتاب الثاني في تاريخنا الفكري الذي يحاول أن يضع للمسلمين منهجاً في التفكير العلمي في نفس الخط الذي سار عليه الشافعي في « الرسالة » ، وعندما نقرأ كتاب « البرهان » نعجب بأبي المعالي إمام الحرمين الجويني ، ولكننا نعجب أكثر بمحمد بن إدريس الشافعي الذي قال في الرسالة وتقع في أقل من مائة صفحة - أكثر مما قال الجويني في ستة أضعاف هذا القدر أو سبعة ، وهنا - عندما نضع الكتابين أحدهما إلى جانب الآخر - نلمس بيدنا معنى الإمامة في العلم ومن يستحقها عن جدارة بها ، ويتجلى لنا الشافعي في مكانه الصحيح وقدره العظيم .

ولد الجويني في نيسابور وشبَّ ونشأ أيام السلطان السلجوقي طغرل بك ، وقد انقضت أيام البويهيين وما عرفه أهل العراق وفارس في أيامهم من بشاعات وشناعات ، وجاء السلاجقة أهل السنة فعز الشيوخ في أيامهم واستعادت الخلافة العباسية بعض مكانتها الزاهية ، وظهر جيل جديد من شيوخ السنة منهم : أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد الأسفراييني ، وأبو نعيم الأصفهاني ، وأنشأ الوزير نظام الملك المدرسة النظامية في نيسابور ، وأنشأ أخرى على مثالها في بغداد ، وطاف الجويني بمراكز العلم يتعلم ويدرس حتى ألم بكل علوم أهل السنة في عصره وظهرت منه نجابة وامتياز وأصبح في طبقة الشيوخ وهو بعد في بداية كهولته ، وجلس للتدريس في المدينة ومكة ، ومن هناك اشتهر أمره وحمل لقب إمام الحرمين وأقبل على

التأليف وكان أحسن ما ألف هو كتاب « البرهان » وقد أراد أن يضاهي به الشافعي في « الرسالة » وقد أجاد فيه وتناول كل مسائل أصول الفقه بتفصيل وإسهاب ولكنه لم يأت فيه بجديد ، والميزة الكبرى له أنه يأتى في الموضوع الذى يتحدث عنه بتعريف له ثم رأى أهل السنة ورأى المعتزلة ثم رد المتكلمين من أهل السنة على المعتزلة ، ويهتم اهتماماً خاصاً برأى الأشعرى إذ هو أكبر المتكلمين على مذهب أهل السنة ثم يأتى برأيه هو فى النهاية .

ومما يستوقف نظرك عندما تقرأ هذا الكتاب الجيد هو أنه — من حيث صميم المسائل — لا يزيد شيئاً على ما عند الشافعى ، والشافعى توفى على ما نعلم سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م ، ونحن الآن حوالى ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ، فكان ثلاثة قرون مرت دون أن يخطو العلم خطوة واحدة إلى الأمام ، وأمر آخر يسترعى انتباهك وهو أن الواقع أو الحاضر لا وجود له عنده فهو ينظر دائماً إلى الماضى ويستلهم الأفكار منه ، والأمثلة التى يضربها كلها من الماضى ومن العصر النبوى وعصر الصحابة فحسب كأن الزمان توقف هناك ، فلا تظفر هنا بمسألة واحدة من عصر الجوينى ولا كلمة تدلك على عصره وظروفه ، فالماضى وحده هو الحاضر ومسائل الماضى وحدها هى المسائل الجديرة بالاعتبار أما المستقبل فلا وجود له أصلاً ، والغاية الكبرى هى أن تتجمد الحياة كلها على الصورة التى كانت عليها فى أوائل العصر الراشدى حتى تقوم الساعة وينتهى الزمان ويوضع الميزان ويقوم الحساب ، وهذا هو الذى يجعل هذا الفكر كله قليل الفائدة لنا فى مسائل الحياة : إنه فكر عظيم بمفهوم عصره وفى إطار الماضى والذين يدرسونه يفعلون ذلك لقيمتهم الفقهية دون أى حساب للزمان أو حياة الناس .

ومن أمثلة المسائل التى يتعرض الجوينى لها ويناقشها : الصحابى إذا روى خبراً وعمل بخلافه فهل يؤخذ بقوله أو بفعله ؟ ويقول إمام الحرمين : إن الشافعى يرى هنا أن العبرة بروايته لا بعمله ، أى بقوله دون عمله ، والشافعى هنا يريد أن يمحى من الوجود أى أثر لما وقع بين الصحابة من اختلافات ومنازعات بل حروب وهو لهذا ينصح بأن نأخذ بكلام الصحابة دون عملهم ؛ لأن كلامهم كله حسن ، أما أبو حنيفة فيتمشى مع طريقته فى التفكير الواسع ويقول : إنه مادام العمل مخالفاً للقول فلا يؤخذ بالقول ولا عبرة بالعمل طبعاً ، أما رأى الجوينى هنا فهو أننا مهما رأينا من عمل

الصحابى فلا بد أن نحمله على الورع والتعلق بالأفضل وإن ناقض عمله روايته مع ذكره لها ، ولم يحتمل محملاً في الجمع (أى إذا لم نستطع التوفيق بين القول والعمل) فالذى أراه التعلق بروايته فإنه لا يظن بمن هو من أهل الرواية أن يعتمد مخالفة ما رواه إلا عن ثبت يوجب المخالفة (انظر : البرهان في أصول الفقه بتحقيق د / عبد العظيم الديب ١ / ٤٤٢ وما بعدها) .

وعندما يتعرض الجوينى لمسألة تحتاج إلى حل مبتكر ينير للناس الطريق تجده يسترسل في استعراض آراء الماضين ، ومثال ذلك مناقشته لموضوع الإجماع (١ / ٦٧٠ وما بعدها) فبدلاً من أن يقترح اقتراحاً نافعاً مثل إنشاء مجمع لعلماء السنة من أهل الاقطار الإسلامية يجتمع مرة في السنة في موسم الحج مثلاً ويشترك فيه من يتيسر له الحضور من شيوخ العلم حيث يتبادل الناس الرأى وهو ما قال به الأشعرى ، تجده يستعرض آراء الماضين في الموضوع بادئاً بنقض رأى الأشعرى وننتهى آخر الأمر كما بدأنا والمسألة تبقى على حالها .

وجدير بالملاحظة هنا أن مفهوم العلم عند عامة علماء المسلمين حتى العصر الحديث هو العلم الدينى أى القرآن والسنة وما قاله الأئمة في مسائل الفقه ، أما علوم المعاش فقل أن يعنى بها أحد منهم ، وإذا هو عنى بشيء منها مثل الطب كان ذلك مقللاً من قدره بين أهل العلم والفقه ، وسنرى عند كلامنا عن الفلاسفة أن اشتغال الكندى بالرياضيات كان عيباً أخذ عليه وبسببه أودى ونهبت داره وأخذت كتبه ، وابن سينا وهو من مفاخر الفكر العالمى لا مكان له عند أهل الفقه والعلم ، أما ابن رشد فإن الذين مدحوه من أسلافنا استحسنا أن يسقطوا من الذكر اشتغاله بالفلسفة وشرحه أرسطو ؛ لأن ذلك يحط من قدره وقد عوقب الرجل على ذلك فعلاً وأمر أبو يعقوب يوسف المنصور الخليفة الموحدى الناس بأن يبصقوا في وجهه عقاباً له على اشتغاله بالفلسفة .

وفي مدرسة أبى المعالى إمام الحرمين الجوينى تكوّن أبو حامد محمد بن محمد الطوسى الغزالى ، فقد ولد في طوس (٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) وفيها نشأ وتعلم ثم رحل إلى نيسابور حيث درس على الجوينى وأعجب به وأخذ عنه طريقته في التفكير والنظر إلى الحياة واستقلال الفكر ورفض التقليد - أى اتباع شيخ من الشيوخ السابقين ومحاكاته

دون تفكير - وعندما توفي الجويني سنة (٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م) كان الغزالي قد أتم تعليمه ودرس الأصول ، وجدير بالذكر هنا أن أصول العلم في تلك العصور كانت قليلة يحيط بها الطالب الذكي في سنوات قليلة ، فهي القرآن وتفسيره وكتب الحديث المعتمدة وأهمها الصحيحان للبخاري ومسلم ، ثم جامع الترمذي ، ومسند أحمد بن حنبل ، وسنن أبي داود مع شيء من العربية والنحو ، وهذا حسبك إلا إذا أردت التخصص في أحد علوم الدين كالتفسير والقراءات أو الحديث ، فهنا عليك أن تقرأ كل ما كتب في ناحية تخصصك ، والغزالي لم يشأ أن يتخصص في شيء ؛ لأنه لم يرد أن يكون محدثاً أو فقيهاً أو قاضياً أو صاحب وظيفة ، فهو نفس حرة مطلقة يدرس العلم للعلم ويريد أن يكون أستاذاً فكان أستاذاً ، وقعد يقرأ العلم على الناس مكان شيخه الجويني وهنا تجلى للناس عن عقل ذكي وقلب بالغ الحساسية وروح شفافه وخلق مستقيم كالسيف وتسامع به الناس فدعاه الوزير نظام الملك للتدريس في المدرسة النظامية في بغداد .

ونظام الملك هذا شخصية عجيبة من شخوص عالمي الفكر والسياسة في ذلك العصر المضطرب ، وهو عصر السلاجقة الأتراك الذين حلوا في سيادة دولة الخلافة محل البويهيين وهؤلاء الآخرون من صعاليك الفرس ، من فرع من فروع أهل الجبال منهم هم الديلم ، ومواطنهم جنوبى بحر قزوين وقاعدتهم الرى كانت تقوم مقام طهران الحالية ، وكانوا شيعة يسترون عقائدهم ليسودوا دولة الخلافة وكانت فترة سيادتهم من (٣٣٣ - ٤٤٤ هـ / ٩٤٤ - ١٠٥٢ م) من أسود فترات تاريخ الشرق الإسلامى فهم عتاة ظلمة جهلاء يتظاهرون بالعلم ، فلما ذهبت دولتهم وحل محلهم السلاجقة - وهم سنيون - اجتهدوا في إعادة السُّنة إلى مكانها وأنشأوا مدارس لشيوخ السُّنة ليزيلوا آثار العبث البويهى ، وأكبر هذه المدارس كانت النظامية التى أنشأها نظام الملك هذا ، وهو أبو على الحسن بن على بن إسحاق الطوسى وهو معاصر للغزالي فقد ولد في قرية مجاورة لطوس سنة (٤١٠ هـ / ١٠١٩ - ١٠٢٠ م) ودخل في خدمة السلاجقة من أول أمرهم وأصبح وزيراً لأعظم ملوكهم وهو ألب أرسلان الذى كسب للإسلام نصراً من أعظم انتصاراته على الروم البيزنطيين في موقعة مانزيكارت التى تعرف في تاريخنا باسم ملاذكرد ، وأفتتح بذلك عصر النهوض العسكرى الإسلامى في الشرق الذى بلغ ذروته أيام الأتراك العثمانيين ، وألب أرسلان قتل سنة (٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م) وخلفه ابنه طغرل بك واستمر نظام الملك وزيراً له وأصبح السيد المطلق في

دولة الخلافة لأن طغرل بك عندما تولى كانت سنة ١٨ هجرية وأصبح نظام الملك يلقب بأنا - بك والأتاك أي خال الأمير أو الوصى عليه ومدير شئون الدولة باسمه ، وقد نجح نظام الملك في إقرار مذهب السنة ودخل لهذا السبب في منازعات وعداوات مع غلاة الشيعة مما انتهى باغتياله على أيدي جماعة سرية تسمى بالإسماعيلية الحشاشين في العاشر من (رمضان ٤٨٥ هـ / ١٤ أكتوبر ١٠٩٢ م) وخلف لنا كتاباً متوسط القيمة في الإدارة يسمى سياسة نامه أي كتاب السياسة .

ورغم جهود نظام الملك فقد ظل الجو السياسي مضطرباً مكفهرًا ، وفي كل يوم يقتل وزير أو أمير وتصور معارك ويهلك الناس والحقيقة أن الخلافة العباسية لم تقم لها قائمة تذكر بعد كارثة العصر البويهي الذي هبط بالخلافة إلى درك سحيق وفتح الباب لكل المذاهب الضالة والمعادية للإسلام لتنتشر دون قيد ، وكان دعاة غلاة الشيعة الإسماعيلية قد زرعوا قوائم المجتمع بما نشره في الناس من الأمل الكاذب فيما سموه المهدي المنتظر ، وكان عوام الناس في درك سحيق من الفقر والتعاسة والجهل فقد استبد بهم الملوك من ناحية وتخلّى عنهم أهل العلم من ناحية ، فلم يبق قريباً منهم إلا الداعية الإسماعيلية الذي كان يمنيهم بالخلاص من الفقر والذل بقيام دولة المهدي من آل البيت التي تملأ الدنيا عدلاً ، وما زالت المؤامرة الكبرى تتسع حتى بلغت ذروتها بقيام دولة الفاطميين في بلاد إفريقية وهي تونس الحالية سنة (٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م) ثم انتقلت إلى مصر سنة (٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م) وأخذت تنازع الخلافة العباسية على السلطان في بلاد الشام ، ومن صحراء جزيرة العرب أقبل القرامطة وهم شركاء الفاطميين يطالبون بنصيبهم من الغنيمة وانضم إليهم بنو هلال ، وبنو سليم بن منصور وهاجموا العراق ودمشق ودخلوا مكة وسرقوا الحجر الأسود على ما قلناه ، وقد تصدى السلاجقة للفاطميين واستمرت الحروب قائمة بين الجانبين حتى زمن الغزالي واقتربنا من كارثة الغزو الصليبي سنة ١٠٩٧ م ، وهي عدوان خطير طويل على بلاد الإسلام ما زلنا نستنكره ونحمل على الذين قاموا به من ملوك النصرانية الغربية وأمرائها ونحن أحق باللوم والتنديد ، فإن البلاد لا تغزى من الخارج بل من الداخل كما قال المؤرخ الروماني تآكيتوس ، بمعنى أن الأمة إذا كانت قوية البناء سليمة التكوين صحيحة الاعتقاد قائمة على العدل ، لم يجسر على العدوان عليها أحد ، والصليبيون عندما هاجمونا كنا في الحضيض من التفرقة والضعف فعلاً ، والضعف لم يكن

سياسيًا فحسب بل كان عقائديًا أخلاقيًا فكانت قلوبنا ونفوسنا واعتقاداتنا شتى ،
وهنا في حالات الضعف والتفرق يظهر الأعداء ، ولو لم يهاجمنا الصليبيون لهاجمنا
غيرهم ونحن أولاً وآخرًا السبب ، نحن البلاء وأسباب البلاء ، هكذا كنا أيام الغزالي
وهكذا نحن اليوم ونحن قوم لا نتعلم شيئاً : لا من التاريخ ولا من الحياة ولا من الدين ،
أشقياء بأنفسنا قبل أن نشقى بغيرنا ، ولا يهون قوم على الناس حتى يهونوا على
أنفسهم .

في هذا الجو المضطرب الحافل بالمخاوف والأخطار على أمة الإسلام نشأ الغزالي
ودخل ميدان الحياة وكان بطبعه شاملاً واسع الذكاء بعيد الغور .

أقبل على التدريس في النظامية ، وبلغ مكانة كبرى وهو بعد دون الثلاثين وأقبلت
عليه الدنيا فخاف إقبالها عليه وأحس أنه مسئول عن هذه الأمة ومصيرها ، وأحس أنها
ليست بحاجة إلى زعيم سياسي قوى يسوق الناس بعصاه فإذا مات انفض كل شيء
وعاد إلى ما كان عليه ، بل هي بحاجة إلى معلم يعود بها إلى الأصول ويبدأ معها
الطريق ، هنا تتجلى لنا أستاذية الغزالي فهو لم يكن أستاذ مدرسة أو جامعة إنما أستاذ
أمة ، ولأنه أستاذ أمة فقد بدأ بنفسه يعلمها ويهذبها وقال لنفسه : لقد ضللنا الطريق
فلنعد إلى نقطة البداية ، والبداية هنا هي الله سبحانه .. من هنا نبدأ ونسير خطوة خطوة
لنرى أين ننتهي ، وهو عندما بدأ من جديد لم يعد إلى قراءة الكتب لأنه كان يحفظها ،
ولكنه عاد إليها ليعيشها ، فهو إذا عاد يتدبر القرآن اجتهد في أن يعيش القرآن وهو لا
يكتفى بقراءة الأحاديث إنما هو يعيش السنة لأن العلم لا ينبغي أن يكون دراسة
فحسب بل معاشة أو قل تجربة شخصية قلبية يعيشها الإنسان . لكي يعيش الغزالي
التجربة الجديدة هانت عليه الدنيا ؛ لأن الدنيا الرخيصة التي يتهافت الناس عليها لا
تساوى عنه عيشها ، وها هو ذا أستاذ عظيم في النظامية يتمتع بجاه عظيم وصيت
كالطبل ولكنه هو نفسه لا يشعر في داخل نفسه أنه شيء ، إنه ضائع محير فقير .
ولكى يجد نفسه لا بد أن يتخلى عن الحوائل التي تحول بينه وبين نفسه وهي الوظيفة
والمال والجاه وغرور الدنيا ، والإنسان إذا انتصر على متاع الدنيا وأحس أنه لا يحتاج
إليه لأنه أقوى منه أصبح في أصفى حالاته ، وعندما يصبح الإنسان في أصفى حالاته
يصبح أقوى من الجبال ، وترك الغزالي ما هو فيه وتخل عن الوظيفة والجاه والمال فلم

يتمسك منه إلا بما يقيم أمر العيال - أى الأسرة - ولم يكن ذلك سهلاً فإن الجاه محبوب والمال مطلوب والصيت غلاب ، والقصة كلها يحكيها أبو حامد فى أروع كتبه على الإطلاق وهو « المنقذ من الضلال » .. وهى قصة نفس حيرى هائمة بالحق تطلبه لنفسها قبل أن تطلبه للناس وقد كتبه الغزالي بمداد قلبه ؛ لأن الخصلة الكبرى التى تميز الغزالي عن غيره هى الصدق : الصدق مع نفسه ومع الله سبحانه أولاً . واستمع إليه يقول فى ذلك الكتاب العظيم :

« وهذه الحركة قدرها الله تعالى وهى من عجائب تقديراته التى لم يكن لها انقذاح فى القلب فى هذه العزلة كما لم يكن الخروج من بغداد والنزوع عن تلك الأحوال مما خطر إمكانه أصلاً بالبال ، والله تعالى مقلب القلوب والأحوال وقلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن وأنا أعلم أنى - وإن رجعت إلى نشر العلم - فما رجعت فإن الرجوع عود إلى ما كان ، وكنت فى ذلك الزمان أنشر العلم الذى يكسب به الجاه وأدعو إليه بقولى وعملى وكان ذلك قصدى ونيتى ، وأما الآن فادعو إلى العلم الذى به يترك الجاه ويعرف به سقوط رتبة الجاه » .

« وهذا هو الآن نيتى وقصدى وأمنيته بعلم الله ذلك منى ، وأنا أبغى أن أصلح نفسى وغيرى ، ولست أدرى أصل إلى مرادى أم أخترم (أموت) دون غرضى ؟ ولكنى أومن إيمان يقين ومشاهدة أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وأنى لم أتحرك ولكنه حركنى ، وأنى لم أعمل ولكنه استعملنى ، فأسأله أن يصلحنى أولاً ثم يصلح بى ويهدينى ثم يهدى بى ، وأن يرينى الحق حقاً ويرزقنى اتباعه ويرينى الباطل باطلاً ويرزقنى اجتنابه » .

إذن فالغزالي يريد إصلاح زمانه ولكنه يرى أنه لا يستطيع إصلاح غيره إذا لم يكن هو صالحاً ، ولهذا فهو يريد أن يعتزل ليتأمل ويفكر لا بحثاً عن الحق فهو يعرف الحق وهو الله سبحانه ولكن الذى كان يبحث عنه هو الطريق إلى الحق ونقطة البداية هى ترك الجاه والمركز ، لا احتقاراً لهما بل لكى يستطيع أن يرى بوضوح ، وكان الناس فى أيامه قد ذهبوا مذاهب شتى بعيداً عن الحق ، والبعد عن الحق فى رأى الغزالي هو سبب الضلال والبلاء والضعف وتفرق أمور المسلمين ، وطالت عزلة الغزالي إحدى عشرة سنة كما قال (من ذى قعدة ٤٨٨ - ذى قعدة ٤٩٩ هـ / ١٠٩٥ - ١١٠٥ م) .

وفي عزلته عرض في نفسه ما قرأ من آراء المتكلمين والمعتزلة والباطنية والفلاسفة ورأى أنها كلها لا تؤدي إلى إيمان أو استقرار النفس بل إلى الحيرة والشك وضعف اليقين ، وقال في كلامه عن الفلاسفة « حتى إن ابن سينا في وصية له كتب فيها أنه عاهد الله تعالى على كذا وكذا ، وأن يعظم الأوضاع الشرعية ولا يقصر في العبادات الدينية ولا يشرب تلهياً بل تداوياً وتشافياً ، فكان منتهى حالته في صفاء الإيمان والتزام العبادات أن استثنى شرب الخمر لغرض التشافي فهذا إيمان من يدعى الإيمان منهم وقد انخدع بهم جماعة وزادهم ضعف المعترضين عليهم إذا اعترضوا بمجاحدة علم الهندسة والمنطق وغير ذلك مما هو ضروري لهم على ما بينا علته قبل .

وبينما كان المعتزلة ومعظم أهل العلم عندنا يحتقرون العوام ويرون أنفسهم أرفع درجة منهم حتى أن واحداً منهم هو أبو بكر الباهلي الذي ذكرناه كان يستر وجهه عن طلابه لأن طلابه يرون بعيونهم السوق فتصبح بهذا غير جديرة بأن ترى وجهه ، فاستمع إلى الغزالي يقول في المنقذ من الضلال : « ومن نظر في أقوال رسول الله عليه الصلاة والسلام وما ورد من الأخبار في اهتمامه بإرشاد الخلق وتلطفه في جر الناس بأنواع الرفق واللفظ إلى تحسين الأخلاق وإصلاح ذات البين ، وبالجمل إلى ما لا يصلح إلا به دينهم ودنياهم . حصل به على علم ضروري بأن شفقتة على أمته أعظم من شفقة الوالد على ولده » .

ويختم الغزالي كتابه المنقذ باليأس من العلم الدنيوي الذي يزيد الإنسان غفلة عن الحق وغروراً بنفسه ، ويقول « أما العلم الحقيقي فيزيد صاحبه خشية وخوفاً ورجاء وذلك يحول بينه وبين المعاصي إلا الهفوات التي لا ينفك عنها البشر إلا في الفترات وذلك لا يدل على ضعف الإيمان ، فالؤمن مُفْتَنٌ تَوَابٌ وهو بعيد عن الإصرار والإكباب » .



ويخرج الإنسان من قراءة « المنقذ من الضلال » بأن الغزالي لم ينته إلى نهاية بل إلى بداية ، بداية طريق الإنسان نحو الصلاح ، ولا بد أن نقول هنا : إن الغزالي كان مكثراً من الكتابة وكلما أحس أنه وصل إلى شيء سارع فكتب به رسالة ، وهذا يدل على تفاؤله وحسن رجائه في الله والناس ، فهو يسعى إلى ما فيه خيرهم أبداً وهو يشركهم في كل ما

يدور في ذهنه ، وقد أحصى الدكتور / عبد الرحمن بدوي في كتاب (مؤلفات الغزالي ، عشرات من هذه الكتب التي يعتبر كل منها قطعة من الإيمان والحق والصدق ، وإذا كان المنقذ يعرض علينا كيف درس الغزالي كل صنف من أصناف العلوم والاتجاهات وانتهى إلى رزفها جميعاً ، فإنه أَلَّفَ في كل علم واتجاه فكري رسالة صغيرة تدل على علم حقيقي وعمق في النظرة وطلب صادق للحق . فكتب كتاب (تهاافت الفلاسفة) ردّاً على أهل الفلسفة (وأسرار الباطنية) دحض فيه حججهم ورد على التعليمية الذين كانوا يقولون : إن كل زمان يحتاج إلى معلم ، ورسول الله ﷺ معلم زمانه ، ويحتاج الأمر بعده إلى معلمين يرشدون الناس وهؤلاء المعلمون هم دعاة المهدية من الشيعة ، وهم يقولون إنهم يعدلون الرسول ﷺ ، بل إن له كتاباً جميلاً في مناقشة النصاري عنوانه (الرد الجميل على أتباع عيسى بنص الإنجيل) وهو فيه رجل هادئ منطقي إنساني بعيد عن التعصب والغرور لا يقول شيئاً من جارح الكلام ؛ لأن الغزالي كان إنساناً رقيق القلب مرهف العاطفة على خلق عظيم .

* * *

وانتهى الفكر بالغزالي إلى التصوف أى الانقطاع للفكر والتأمل والعبادة وهو في تصوفه إيجابى أى أنه يبحث عن طريق الهداية ، وفي تصوفه وعزلته كتب أشهر كتبه وهو (إحياء علوم الدين) وهو كتاب جميل ولكنه حزين ، لأن الغزالي لا يحيى فيه علوم الدين لكى يعيش بها حياة محترمة ، بل لكى يموت ميتة شريفة ، فهو طريق إلى الموت لا إلى الحياة ، وكان الغزالي يقول فيه : « لقد ضاعت الدنيا ولم يبق لنا إلا الدين فلننتشبت به لأنه طريق النجاة » ، وقد يكون الغزالي أراد بإحياء علوم الدين إحياء الأمل في نهوض المسلمين ولكن هذا غير واضح على أى حال ، وكل ما أستطيع قوله بإخلاص أنك تسقرأ « المنقذ » في بداية حياتك لتجد الطريق الأمثل للإيمان والحياة الصالحة ، وتقرأ « الإحياء » إذا أحسست بقرب النهاية لتصل إلى السلام بسلام .

والكتاب ضخيم ولكنه رغم ضخامته ممتع ؛ لأنك تحس أنك فيه مع رجل مخلص صادق أمين ، وأقسام الكتاب الكبيرة أربعة : قسم العبادات ، وقسم العادات ، وهو يريك فيه طريق المعاملات الشريفة على أساس الورع والتقوى والدين الصحيح ، ثم قسم

المهلكات : توفيه يحذر من مهالك النفوس ومعاطب الأرواح ، وقسم المنجيات : وهو طريقك إلى النهاية التى يرتجىها كل مؤمن .

وأجمل فصول الكتاب ذلك الذى يتحدث فيه الغزالي عن القلب وهو مركز الإحساس المؤمن الصادق ، إنه الضمير إنه صلتك بالله سبحانه ويقول « إن القلب هو العالم بالله وهو المتقرب إلى الله وهو العامل لله وهو الساعى إلى الله وهو الكاشف بما عند الله ولديه » ، لهذا القلب الصادق المؤمن الذى نسميه نحن الضمير الحى .

والتصوف عند أبى حامد تصوف إيجابى أى أنه انصراف عن دنيا الناس للبحث عن الطريق إلى الخلاص ، ولهذا فإن تصوف الغزالي لم يكن انقطاعاً عن الدنيا بل الخروج من متاعب حياة الناس إلى راحة القرب من الله ، ولهذا فهو لم ينقطع عن الدنيا أبداً حتى وهو بعيد عنها فقلبه مشغول دائماً بالناس ، وخلص الناس ، ولهذا فقد كان الغزالي لا يطول اعتزاله بل يعود إلى الدنيا يهدى الناس كتاباً جديداً .

والحق أن العالم الذى عاش فيه الغزالي كان عالماً حزيناً حقاً ، وعالم الإسلام الذى عرفه وجاهد فى سبيل خلاصه كان عالماً بشعاً لا يصدق من يراه أن هذه هى الأمة التى وعدها الله بأن تكون خير أمة أخرجت للناس إذا هى دعت إلى الخير وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر ، فلا هى دعت إلى الخير ولا أمرت بالمعروف ولا نهت عن المنكر ، فكانت أضعف أمة عرفها الناس ، ففى منتصف صيف ١٠٩٧ م نزل الصليبيون أرض الشام ليجدوا المسلمين فى أسوأ حالة يمكن تصورها ، فالحروب دائرة بين بقايا السلاجقة والفاطميين ، وإنطاكية بيد حاكم أرمنى مسلم يسمى ياغيسيان ودمشق بيد أمير صغير وحلب بيد آخر والخليفة العباسى تحول إلى سيد إقطاعى له إقطاع صغير يعيش منه والفاطيون يملكون جنوب الشام ، وقبل نزول الصليبيين يحققون نصراً (عظيماً) فيستولون على بيت المقدس ، وعندما يسمعون بأن الصليبيين نزلوا بلاد الشام رحبوا بهم وظنوا أنهم يستعينون بهم على إخوانهم المسلمين ، ولكن الحقيقة تتكشف لهم عندما يرون أن الصليبيين سائرون نحو بيت المقدس فيسرعون بالانسحاب منها - وفى سنة ١٠٩٨ م يدخلون القدس ويقتلون فى يوم واحد ٧٠,٠٠٠ من المسلمين ، فماذا يفعل الغزالي المرهف الحس وهو يرى عالمه الإسلامى يتدهور إلى

هذا الحضيض ؟ هنا يشتد حزنه ولكنه لا يقنط قط من رحمة الله ، ودين الله لا بد أن ينتصر في النهاية ، هكذا قال القرآن وكل ما في القرآن صدق وحق .

وإلى طوس يعود الغزالي ليتدبر أمر المسلمين ، وفي ١٤ جمادى الثانية ٥٠٥ هـ / ١٩ ديسمبر ١١١٢ م يغادر هذه الدنيا إلى عالم البقاء ووصيته الأخيرة للناس : « لقد ضاعت الدنيا فلم يبق إلا الدين فتشبهوا به . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ليعود لكم العز من جديد ، أيقظوا القلوب فإن القلب الصالح هو طريق الخلاص » .

وبهذا القلب الحى أصبح أبو حامد الغزالي حجة الإسلام ومحيى الدين وأصبح في نفس الوقت أعظم مفكر إسلامى تعرفه - وتعترف به - الدنيا ، فالمؤلفات عنه وعن فكره وآرائه مئات في كل لغات البشر وهى تفوق كل ما كتبه الغربيون عن غيره من مفكرينا ، إنه عند أهل الغرب يقف في أعلى مستويات البشرية ، وهو أجمل صورة بشرية للإسلام تعرفها الدنيا !

ابن حزم القرطبي صرخة في سُكُونِ اللَّيْلِ

ما زلنا بعيدين جداً عن فهم حقيقة الأندلس : كيف قام ؟ وكيف عاش ؟ وكيف مات ؟ .. الغالبية العظمى منا لا تزال تنظر إليه على أنه حلم ليل شتاء قارس البرد طويل ، هذا الحلم يسميه الكثيرون بالفردوس المفقود ، الفردوس الذي أنشأه جيل الأبطال بطولتنا هناك على الأرض الأوروبية فيما وراء البحار ، وبعد أن أنشأه جيل الأبطال جاءت أجيال غير الأبطال تصرفت في الكنز الموروث تصرف السفهاء ، والهواية العربية المفضلة على طول التاريخ هي قتل بعضنا بعضاً هواية غريبة مارسناها من شباب تاريخنا إلى شيخوخة هذا التاريخ ، ولا زلنا نمارسها بإتقان عجيب إلى اليوم ، وانظر حولك وقل لي إن كنت أبالغ أن العالم كله يتعجب من مهارتنا في هذه الرياضة العجيبة التي لا ينافسنا فيها غيرنا ، فقانون الدنيا خارج نطاقنا : أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب ، أما نحن فقانوننا الفريد فهو : أنا والغريب على ابن عمي ، وأنا وابن عمي على أخي ، ثم تجيء بعد ذلك رائعة فلسفة الفناء العربية : أنا والدنيا كلها على نفسي ، والأوطان عندنا ضياع موروثة ننادي عليها ونتغنى بحبها ثم يمسك بعضنا بخناق بعض فلا تنتهي المعركة إلا وقد ضاعت الأرض وما عليها ، وهنا نبدأ في البكاء عليها إلى آخر الزمن ، والبكاء على الأوطان الضائعة هو الإضافة العبقريّة الوحيدة التي أضفناها إلى « ربرتورا » الموسيقى العالمية .

والأندلس هنا نموذج مثالي فتحناه في أربع سنوات وضيعناه في ثمانمائة ، وبكيناها إلى الآن أربعة قرون ، وفي نيتنا - بمشيئة الله - أن نظل نبكيه ملايين القرون المقبلة وعندما تقوم الساعة سنسبح إلى الجحيم الذي نستحقه في بحر الدموع .

أنشأناه في أربع سنوات (٧١١ - ٧١٥ م) ، ثم عدنا إلى رياضتنا المحببة : صيد بعضنا بعضاً ، القدماء منا في الأندلس أخذوا يقاتلون الجدد ، والعرب يقاتلون البربر ، والعرب الشاميون يقاتلون العرب اليمنيين ، وكنا أيامها - أولاً عن آخر - مائة ألف مسلم في الأندلس كله ، ومساحة الأندلس ٦٠٠,٠٠٠ كيلو متر ، ومع ذلك كان بعضنا يقول لبعض : اخرجوا عنا فإن بلدنا يضيق بنا ولا يحملنا وإياكم .

ومرت أربع وأربعون سنة ونحن نقاتل بعضنا بعضاً حتى إذا كنا على وشك القضاء تداركتنا رحمة الله بعبقري حقيقى من بناء الدول هو عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك بن مروان الملقب بالداخل إلى الأندلس ، جمعنا بعصاه وأقام لنا ومنا دولة ولدت في (الخامس عشر من رمضان ١٣٨ هـ / ٢٢ فبراير ٧٥٦ م) ، وكانها فرصة العمر أتاحتها الله لنا بفضلها ، وفي رعاية تلك الإمارة الأموية عشنا في رغد وقوة وازدهار حتى أكرمنا الله بأعظم أمراء هذه الدولة وتاسعهم وهو عبد الرحمن بن محمد ابن عبد الله المعروف بالثالث أو الناصر في (صفر سنة ٣٠٠ هـ / سبتمبر ٩١٢ م) ، فمضى بنا سعداً في القوة وجمع ما انتقص من شملنا ، وجعل الإمارة خلافة في أواخر (٣١٦ هـ / أوائل ٩٢٩ م) ، فأصبحت في عالم الإسلام بذلك ثلاث دول خلافة : العباسية والفاطمية والأموية الأندلسية ، ومضى عبد الرحمن يحكم وقد جمع شبه الجزيرة إلى لوائه حتى استتمت سنوات حكمه ٥٠ سنة هجرية وتوفي في (٣ رمضان ٣٥٠ هـ / ١٧ أكتوبر ٩٦١ م) ، بعد أن نقش اسمه بحروف من نار ونور على أنه أعظم وأقوى وأحكم وأقدر من تولى أمورنا من الخلفاء وأطولهم حكماً ، فأما النار فلأن عبد الرحمن الناصر استخدم لتوجيه دولته من القوة والعنف ما لم يعرفه خليفة قبله وربما قام له في ذلك عذر ؛ لأن داء التفريق فينا عويص مزمن ، وحكامنا الأقوياء في الماضي كانوا أشبه برجال مطافئ كلما أطفأوا النار في ناحية اشتعلت في ناحية أخرى ، وأما النار فلأن الأندلس في أيامه أضاء بنور حضارى باهر وصلت أشعته إلى قلب ألمانيا ، فأقبل ملوك الأرض إلى بلاد الناصر يتأملون وراء هذا الملك الزاهر والحضارة الوارفة التي لم تعرف لها الدنيا في ذلك الحين مثيلاً ، وفي قاعة السفراء ذلك البهو الزاهر من قصر الزهراء الذى بناه في مدينة الزهراء على سطح جبل العروس المطل على قرطبة جلس الناصر يستقبل السفراء في أبهة ملوكية قامت على العدل والجهد البالغ ، وكان الناصر عجيبة بين حكام الإسلام ما وعد إلا وفى ، وما قال إلا صدق ، وما عاهد إلا كان عند عهده ، إنما كانت شدته وعنفه على الخارج على سلطان دولة الجماعة الساعى في تفريق عصا المسلمين .

وبعد الناصر جاء ابنه الحكم المستنصر أعلم ملوك الإسلام وأعدلهم جميعاً بعد عمر بن عبد العزيز (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ / ٩٦١ — ٩٧٦ م) الذى جعل الأندلس دار علم وفضل ، وتراخت يده بعض الشئ فبدأت الفتنة تعود ، وتطلع حكام النواحي

للاستبداد بنواحيهم وتجلى ذلك بعد وفاة الحكم المستنصر في (٢ صفر ٣٦٦ هـ / ١٦ أكتوبر ٩٧٦ م) ، فقام طاغية سياسى يسمى محمد بن أبى عامر ونهض من صفوف الكتاب إلى صفوف العسكريين وقبض على زمام الملك من (٢٧٠ هـ : ٩١٧ م تقريباً) ، واستبد بالامر استبداداً تاماً من دون الخليفة الرسمى الصبى هشام المؤيد ابن الحكم المستنصر ، وفى طريقه إلى السلطان المطلق ارتكب هذا الطارئ الطاغية كل جريمة وموبقة ، وإذا كان عبد الرحمن الناصر لم يغدر فى حياته بإنسان محسن مستقيم فإن محمد بن أبى عامر الذى تلقب بالمنصور لم يدع إنساناً محسناً مستقيماً طموحاً إلا أطاح به ، واستغنى عن كبار رجال الدولة الذين كانوا سند الدولة الأموية ابناً عن أب عن جد ، وأنشأ لنفسه بطانة سوء من النهازين الغادرين ليعينوه على ظلمه وكسر وحدة جيش الأمة فأنشأ لنفسه جيشاً خاصاً به من مرتزقة البربر الذين جلبهم من المغرب وجمع حوله نفرأ من الوزراء بعضهم من أصول طيبة وبعضهم من أصول خسيصة ، ومازال هذا الرجل يحكم حتى واقاه الأجل المحتوم فى (رمضان ٣٩٢ هـ / أغسطس ١٠٠٣ م) والبلد يضج من ظلمه وغدره وخلفه ابنه عبد الملك المظفر فى رئاسة الحزب العامرى ورئاسة الدولة حتى (صفر ٣٩٩ هـ / أكتوبر ١٠٠٨ م) وبعد سنتين فى (١٦ جمادى الأولى ٣٩٩ هـ / ١٥ فبراير ١٠٠٩ م) انفجرت الثورة على العامريين وعادت الخلافة الأموية القرطبية عودة هزيلة ، وثارت الفتنة الأهلية بين جيش الدولة الأصيل القديم وجيش المنصور المرتزق ، واستشرت الفتنة وقامت ولم تقعد حتى نهاية الأندلس ، وغرق الأندلس فى بحار الفتنة واختفى فى ليل التاريخ الطويل .

مدخل لم يكن منه بد لكى نعرف أين وفى أى ظروف عاش وعمل أبو محمد على بن حزم .

فى أيام الطاغية محمد بن أبى عامر المنصور ظهر أمر بنى حزم ، وأصلهم من قرية صغيرة تسمى الزاوية من كورة (مقاطعة) لبلة Liebla على المحيط الأطلسى عند الحدود بين إسبانيا والبرتغال ، وهاجر أبوه بأسرته إلى قرطبة ودخل فى خدمة المنصور محمد بن أبى عامر وصار فى جملة وزرائه واكتسب من الوزارة مالاً كثيراً اشترى منه

قصرًا في شرقى قرطبة في حى يسمى منية المغيرة ، وقصرًا آخر في غربها عند باب الوراقين واشترى كذلك ضياعًا في كورة لبلة واحدة منها في قرية صغيرة تسمى مُنْتَلِيشم ، وإلى هذه الضيعة سيلجأ ابن حزم بعد يأسه من السياسة ويتفرغ للتأليف .

وفي أيام وزارة أبيه أحمد بن سعيد بن حزم ولد على بن أحمد بن سعيد بن حزم مدار حديثنا هذا في فجر الأربعاء (٣٨٤ هـ / ٧ نوفمبر ٩٩٤) في قصر أبيه في منية المغيرة وتربى كما يقول في بيت نعمة ومال كثير وخدم وحشم وأصل أسرته في الغالب من عجم أهل الأندلس ولكنه يزعم أن بيته أموى بالولاء ويرجع نسبه إلى رجل يسمى سفيان بن يزيد كان مولى ليزيد بن أبى سفيان ، وهذه النسبة الأموية كانت بالنسبة لابن حزم مرضًا نفسيًا فقد ظل طول عمره يفخر ببني أمية الأندلسيين ، ويتعصب لهم وهذا معقول فإن الأندلس الإسلامى لم ير العز إلا في أيام البيت الأموى وبنهايتها سنة (٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م) ، بدأت نهاية الأندلس ولكن الذى لا نقبله من رجل في عقلية ابن حزم هو تعصبه البالغ لبني أمية عمومًا وهو تعصب يجعله في إحدى صفحات « جمهرة أنساب العرب » من تأليفه يأنف أنفاً شديداً من أن يقال إن واحداً من أبناء عبد شمس - خصوم بني هاشم - كان فقيراً ، وفي كتاب آخر من كتبه هو « المفاضلة بين الصحابة » نجده يحاول الحط من مكان على بن أبى طالب وإن تبرا من ذلك (ص ٢٣٦ وما يليها) .

ومن حسن الحظ أن أبا محمد على بن سعيد بن حزم كان كثير الكتابة عن نفسه ، فقد خلف لنا كتاباً جميلاً - سنتحدث عنه - يسمى طوق الحمامة في الألفة والإلاف « أى في الحب والمحبين » ، جاءنا فيه بكثير من تفاصيل حياته الأولى في قصور أبيه ونشأته بين جوارى القصور قال : « ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيرى لأنى رببت في حجورهن ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الشباب إلا وأنا في حد الشباب وحين تبلغ وجهى (ظهر شعره) وهن علمننى القرآن ورويننى كثيراً من الأشعار ودربنننى في الخط ولم يكن وكدى (همى) وإعمال ذهنى منذ أول فهمى وأنا في سنن الطفولة جداً إلا تعرف أسبابهن والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك وأنا لا أنسى شيئاً مما أراد منهن » (الطوق ص ٤٦) .

ومات أبوه سنة (٤٠٢ هـ / ١٠١١ م) والفتنة الأندلسية في بدايتها واضطر إلى

مغادرة قرطبة عندما دخلها البربر أعداء بنى أمية وتتبعوا أنصار بنى أمية فذهب إلى بلدة في شرق الأندلس هي المرية ليحتفى بمولى من موالى العامريين يسمى خيران ، ولكن خيران لم يطمئن إليه فأخرجه منها ، فلجأ إلى بلنسية حيث نادى الناس برجل من الأمويين هو عبد الرحمن بن محمد المهدي ويابغوه خليفة ولقبوه بالمرتضى ، فاتخذ ابن حزم وزيراً ، وهي وزارة كما ترى جد هزيلة لأن المرتضى لم يلبث أن قتل ، وعاد ابن حزم إلى قرطبة حزينا في صحبة صديق له ، وفي رمضان (٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م) بويج لرجل آخر من بنى أمية يسمى عبد الرحمن المستظهر ، وكان شاباً نجيباً يرجى منه خير ولكنه تولى في غمار فتنة لا ترحم فعمل ابن حزم وزيراً له شهوراً قليلة ثم أصبح وزيراً لهشام المؤيد ، وزارة هزيلة أخرى ، وعندما نفى هشام المعتد آخر خلفاء بنى أمية وألغيت الخلافة الأموية الأندلسية نهائياً في (ديسمبر ١٠٣١ م) طلق ابن حزم السياسة وانصرف إلى العلم ، وكان هذا من حسن حظه وحظنا .

وكان ابن حزم قد دخل ميدان الطلب قبل ذلك بسنوات ، وكانت سنه عند دخول ميدان العلم بعد الثالثة والعشرين ، وقد دخل ميدان العلم في ظروف هي أشبه بالمصادفة ولكنه عندما بدأ يقبل على العلم اكتشف نفسه وعرف أن العلم هو ميدان حياته وسبب وجوده ؛ فأقبل يلتهم الكتب التهاماً فقرأ كل ما تيسر له من تفاسير القرآن الكريم ، ودرس كل كتب الحديث من صحاح ومسانيد وكتب سنن وأربعينات ومستدركات وزوائد ، ثم درس اللغة والشعر والأدب واستبحر اطلاعه على تاريخ الإسلام ، وقد رزقه الله عقلاً راجحاً وذهناً صافياً وذاكرة لا أظن أننى عرفت لها شبيهاً فقد كان يقرأ الشيء مرة واحدة فينطبع في ذهنه ولا ينساه ، وكان ذا عقل ناقد : يقرأ الشيء ويزنه بميزان منطقته أو يرفضه أو يستصفى منه ما يرى أنه ينفعه ، وقد درس على عدد كبير من الشيوخ أهمهم أبو عمر بن الجسور ، وأبو الخيار مسعود بن مقلت ، وهذا الثانى كان من أجلّ الفقهاء وأوسعهم علماً ، وفي أثناء الدراسة تنقل ابن حزم من المذهب المالكي إلى الشافعى واستقر في النهاية عند رأى أهل الظاهر وشيخهم داود ابن علي الظاهري وهذه الجماعة كانت أبعد أصحاب المذاهب عن التفكير ، فهم يأخذون كل شىء على ظاهره فلديهم مثلاً حديث يقول : إن الكلب إذا ولغ في إناء أحلكم فقد أصابه نجس ولا بد من تطهيره ، فإذا قيل لهم : فإذا ولغ في الإناء خنزير فماذا يكون

الحكم ؟ قالوا : لم يرد فيه نص فلا تجب فيه طهارة ، وإذا قرأ أحدهم قول الله سبحانه في أول سورة التكوير : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ .. ﴾ إلى آخر الآيات وسئل في تفسير ذلك قال : هي كما ترى ومعاني الألفاظ عندك في معاجم اللغة ونحن لا نذهب إلى ما وراء ذلك ، وقد بيّن هو في كتبه الأسباب التي جعلته يطمئن إلى قول أهل الظاهر فقال : إن الفقهاء فرقوا أذهان الناس وخرجوا بهم عن القرآن والسنة عندما توسعوا في استعمال القياس ، فأصبحنا نجد في المسألة الواحدة عشرة آراء فما فوق فبأيها يأخذ المؤمن ؟ والتفسير الحقيقي لوقوف ابن حزم عند مذهب السنة هو أنه رفض كل الفكر الفقهي قبله واكتفى بالقرآن والسنة ، وهذا ظاهر من سأمه الدائم من المذاهب جميعاً .

ولم يقف اطلاع ابن حزم عند هذا الحد بل نظر في كتب اليهود والنصارى واليونان وأحاط بكل ما فيها إحاطة نادرة ، وجعل في أثناء ذلك يناقش العلماء وينظرهم ولكن طريقتة في المناقشة كانت بعيدة جداً عما أمر الله به في كتابه العزيز في أمر الدعوة والجدل ، فقد أمرنا الله بأن ندعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة وأمرنا إذا تجادلنا أن نجادل بالتي هي أحسن ، ولكن ابن حزم لفرط ذكائه وسعة علمه وضيق صدره بما كان يسمع ويقرأ من سخف ، كان قد أصبح ذا صبر قليل على الناس فكان إذا جادل أو ناظر لم يكن له هم إلا تحطيم خصمه ، وفي ذلك يقول معاصره مؤرخ الأندلس الكبير أبو مروان حيان بن خلف بن حيان : « ثم عدل إلى الظاهر فنقحه وجادل عنه ولم يكن يلطف صدعه بما عنده بتعريض ، ولا يرقد بتدريج بل يصك به معارضه صك الجندل ، وينشقه انشقاق الخردل ، فينفّر عنه القلوب ويقع به المغلوب ، حتى استهدف إلى فقهاء عصره فمالوا عليه وأجمعوا على تضليله وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته ، ونهوا عوامهم عن الدنو منه فطفق الملوك يقصونه عن بلادهم إلى أن انتهوا به إلى منقطع أثره من بادية بلدة لبلة ، وهو في ذلك غير مرتدع ولا راجع : يبت علمه لمن ينتابه من بادية بلده من أصاغر الطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة ، يسمعهم ويفقههم ويدارسهم ، وأكمل مصنفاً لم يجاوز عتبة باديته لزهد الفقهاء فيها حتى لأحرق بعضها بأشبيلية ومزق علناً » .

وابن حيان يبالغ هنا ولا شك ، وكان هو الآخر طويل اللسان عنيف النقد لا يكاد

يرحم من لسانه الميرير أحدًا ويبدو أن العصر كله كان عصر مرارة وآلام وضيق نفس وخوف وصراع ، ولا عجب فنحن في أيام فتنة وابن حزم لم يكن هادئ النفس زاهدًا في الدنيا يائسًا من الناس ولم يكن ينظر إلى الوراء بل إلى الأمام كغيره من كبار فقهاء عصره ، بل خلق بطبعه إنسانًا حساسًا شديد الاهتمام بمصير الجماعة الإسلامية ، وفي كتاباته إشارات كثيرة جدًا إلى سوء الحال ووقوع رؤساء الأندلس في الفتن والحروب حتى أضاعوا الأندلس ، وإذا كنا نأخذ عليه عنفه وحدة لسانه فلا بد أن نحمد له حماسته واهتمامه ونزوله الميدان يجادل عما كان يراه حقًا ، ولو أنه وجد أمراء الطوائف في عصره من يستمع له ويعي مقالته فربما كان له أثر مباشر في إنقاذ الأندلس ، ولكن ملوك الطوائف جميعًا كانوا من ناحية المستوى الإنساني في درجة من الهبوط لا تصدق ، وفي تلك الظروف التي ضاعت فيها الوحدة واشتد ضغط الخصوم من النصارى على البلاد واستولوا على بعض العواصم الكبرى مثل طليطلة والاشبونة ومجريط وقورية ، وانحدر حدود الأندلس الإسلامى إلى مجرى الوادى ، نجد هؤلاء السخفاء ملوك الطوائف يتهاككون على الدنيا ويسرفون في اللهو إسراف الخلى الذى لا يخشى غائلة والمأمون بن ذى النون صاحب طليطلة قبل سقوطها في يد ألفونسو السادس ١٠٨٥ م ينفق مئآت الألوف على قصر يبنيه في طليطلة ويتألق فيه تألق كبار الملوك ، والمعتضد بن عباد صاحب إشبيلية ينشئ في قصره حديقة يسميها حديقة الرءوس يجعل فيها من جماجم من يقتلهم من خصومه المسلمين أصصًا يزرع فيها الزهور وابنه المعتمد الشاعر المشهور يتخذ لجاريته اعتماد الرميكية — وأصلها بائعة لبن — حديقة أرضها من المسك والعنبر المعجونين بالعطور لتسير فيها حافية كما كانت تفعل أيام الفقر وبيع اللبن والسير حافية في الطرقات ، وأبو عبد الله الحائك وزير آخر بنى جهور يتخذ لنفسه دارًا خاصة بالغلمان يسميها بيت اللذة لكى ينعم فيها بشذوذه الحقيق ، وباديس بن حبوس منشىء دولة بنى زيرى في غرناطة سكير لا يكاد يفيق من الخمر ليل نهار ، وهذه مذكرات حفيده المعروفة باسم « التبيان » المشهورة عندنا باسم مذكرات الأمير عبد الله الزيرى فتحدث عن ذلك الانحطاط كله بأجلى بيان ، وأمامك كتاب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » لابن بسام الشنترينى تجد فيه العجب من أمر أولئك الناس .

في هذا المناخ الفاسد من يسمع لابن حزم أو يفكر فيما يقول ؟ ! لقد كان الرجل آية في الخلق والعلم والإيمان ، وكان قلبه يحترق على مصير وطنه الذي أحبه فأبغضوه وخافوه وصاروا يطردونه من بلادهم واحداً بعد الآخر ، وآخر من فتح له أبوابه رجل من الطارئين على الإمارة يسمى أحمد بن رشيق ، استقل بجزيرة ميورقة وهي كبرى الجزائر الإسبانية التي تعرف باسم البليار ، فذهب إلى هناك سنة (٤٣٠ هـ / ١٠٢٩ م) ومضى يجادل الفقهاء على مذهبه في العنف حتى قضى على فقيه البلد وكان رجلاً بسيطاً محدود العلم يسمى أبا الوليد بن اليارية الميورقي وكان مالكيًا ، وقد أراد هذا الرجل مجادلة ابن حزم مدافعاً عن المالكية فهوئى عليه ابن حزم بكل ما أوتى من عنف وسفّه رأيّه وأظهر ضعف علمه بالحديث فغلط في بعض ما روى ، فسجنه ابن رشيق حتى يتوب عن خطئه ثم أخرجه وقد هلك ومضى الرجل للحج فمات في الطريق من شدة ما ناله من القهر .

ويبدو أن ابن رشيق أسف على ما فعل فأبغض ابن حزم وسجنه أياماً ثم أخرجه من بلده فاتجه بعد ذلك إلى أشبيلية فلم يجد هناك من يسمع له فقرر الانسحاب من الدنيا ومضى إلى ضيعته في منتليشم قرب لبلّة قرب الحدود الجنوبية للبرتغال ، وهناك انقطع للتأليف ولم يعد يزوره إلا نفر من أصاغر الطلبة كما يقول ابن حيان ، وفي عزلة تلك قضى نحو عشرين سنة يكتب في حماسة غريبة حتى بلغت مؤلفاته المعروفة لنا قرابة ٥٣ كتاباً ورسالة ، بعضها في مجلدات كبيرة تصل إلى ثمانية مجلدات وبعضها في أربعة ، ومنها ما لا يزيد على بضعة ورقات وهي تغطي كل مجالات الفكر الإنساني فيها فهو فقيه مؤرخ نسابة أديب وشاعر وناقد أدبي ، وصاحب تأليف مبتكر تفرد به بين أهل الأدب والفكر في العصور الوسطى وهو كتاب « طوق الحمامة » وهو من أمتع ما تقرؤه عن الحب لولا صعوبة أسلوبه تجعل الوصول إلى ما يريد قوله عسيراً بعض الشيء ، وبهذا الكتاب الصغير وصل ابن حزم إلى درجة جديرة في الآداب العالمية ولا أظن أن كاتباً عربياً ذاع أمره هذا الذبوع في العالم كله إلا ألف ليلة فهو مترجم إلى لغات العالم جميعاً وطبعاته ذائعة تجدها في كل مكان في طبعات شعبية (بيار - باك) وأجمل ترجماته الإسبانية ، وقد قام بها الأديب المستشرق الأسباني اميليو غرسيه غومس ، وقدم للترجمة فيلسوف أسباني معاصر كبير هو اورتيجا إي جاست (١٨٨٣ -

(١٩٥٥) فقال في مقدمته : إن هذا الكتاب وحده يدل على أن الأدب العربي جدير بالاحترام كله ، وإن قراءته إياه غيرت من نظرته إلى الفكر الإسلامي وهي شهادة لها قدرها من واحد من أعظم مفكرى عصرنا .

وتوفي ابن حزم في منفاه الذي ارتضاه لنفسه في (٢٨ شعبان ٤٥٦ هـ / ١٧ يوليو ١٠٦٤ م) توفي صابراً محتسباً صافي النفس ويبدو أن علته التي مات منها كانت السرطان ؛ لأنه عانى من أوصاب المرض شيئاً كثيراً وقد تحمل آلامه في صبر وقال : « لا جعلنا الله من الشاكين إلا إليه وأعادنا إلى أفضل ما عودنا ، إن الذي أبقي لأكثر من الذي أخذ ، والذي ترك أعظم من الذي تحيف ومواهبه المحيطة بنا ونعمه التي غمرتنا لا تحد ولا يؤدي شكرها والكل منحه وعطاياه ولا حكم لنا في أنفسنا ونحن منه وإليه منقلبون وكل عارية فراجعة إلى معيها وله الحمد أولاً وأخيراً عوداً وبدءاً وأنا أقول : إذا ما صح لي ديني وعرضي .. فلست لما تولى ذا اهتمام جعلنا الله وإياك من الصابرين الشاكين » (طوق الحمامة ص ١٥٣) .

وهذه العبارة وحدها من ابن حزم تدل على أن ما نقرأه من نقده في كتبنا مبالغ فيه ، ومن المعروف أن فقهاء السنة من أعنف الناس على من خاصمهم وخالف رأيهم أو نقد مذاهبهم ، وفي دراستي هذه تبينت من قسوتهم البالغة على خصومهم ما جعلني أشك كثيراً في تقديراتهم ، وأنا أتمس لهم العذر في هذا العنف لأن خصوم السنة وأهلها كثيرون جداً وكانوا في الغاية من العنف والبعد عن الضمير ، ومعظمهم بعيدون عن الإيمان الصحيح ولم يكن هناك مفر لأهل السنة من اتخاذ هذا العنف كله ولولا تلك الصلابة لأصاب السنة والجماعة بلاء شديد ، ومذاهب السنة والجماعة هي الصخرة العاتية التي حفظت الإسلام خلال العصور السود التي مرت به وبأهله ، ولهذا فإنني أرجو القارئ أن يعيد النظر فيما يقول بعض العلماء من أمثال الحافظ الذهبي الذي قال فيه : « وقد امتحن هذا الرجل وشدد عليه وشرد من وطنه وجرت عليه أمور لطول لسانه واستخفافه بالكبار ووقوعه في أئمة الاجتهاد بأقبح عبارة وأحط محاورة وأبشع تمرد » حقاً إن ابن حزم عنيف جداً في مناقشته وعنفه هذا يتجل في مجادلاته مع أهل المذاهب في كتابه « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، ولكننا إذا أمعنا القراءة وجدنا للرجل عذره فإن لهم وقفات طوالة ومحاورات لا معنى لها عند نقط من الفقه لا تستحق

هذا العناد كله مثل جدلهم في المسح على الخف وكلامهم عن الرأى فيمن يتبول واقفاً ، ولكن ابن حزم لم يهاجم قط واحداً من كبار الأئمة ولا هو وقع بلسانه في مالك أو أبى حنيفة أو الشافعى ، فهو لا يذكرهم إلا بإكبار أما مناقشته فللرأى في ذاته ، وهنا لا نغيب عليه حدته في دحض حجج مخالفيه فهذه هى طريقته وهذا مزاجه ويكفى ابن حزم أنه لم يفر من الميدان ولا هو لجأ إلى العزلة إلا مضطراً ، وقد عرض نفسه ببسالته للكثير من الأذى وكان من الممكن جداً أن يلقي حتفه ؛ فَلأَقَلَّ من ذلك بكثير قتل غيره فهو فقيه مناضل ومفكر باسل وهذه هى الفضيلة الكبرى التى تجعل ابن حزم علماً فريداً من أعلام الفكر في تاريخنا .

* * *

ويعتبر ابن حزم من المفكرين المسلمين القلائل الذين يحتلون مكاناً صدرًا في تاريخ الفكر العالمى ، ومكانه هذا لا يدانيه إلا قلائل آخرون أهمهم : أبو بكر الرازى الطبيب ، وأبو على بن سينا الفيلسوف ، والإدريسى الجغرافى ، وابن خلدون المؤرخ ، وابن رشد الفيلسوف ؛ وأبو القاسم الزهراوى الجراح .

والعمل الأكبر لابن حزم كتاب « الفصل فى الأهواء والملل والنحل » وهو أول تاريخ للأديان فى تاريخ الفكر العالمى ، وابن حزم فيه مؤرخ ومفكر من مستوى عالمى فعلاً ، فهو يبدأ بدراسة فكرة التدين ذاتها وكيف أن الإنسان بطبعه محتاج إلى عقيدة يطمئن إليها قلبه ويستعين بإيمانه فيها إلى مصيره فى هذه الحياة ، وهو لا يركز كلامه فيما يتردد عند عامة فقهاءنا من أن الإسلام هو دين الفطرة بل يقول : إن الوثنية هى ديانة الفطرة الأولى وإن الوصول إلى التوحيد مرحلة فكرية عالية لم يصل إليها الإنسان إلا بهدى من الله ، وقد حاول كارل بارك Karl Barth أعظم اللاهوتيين فى عصرنا أن ينقض رأى ابن حزم ليقول : إن الوصول إلى التوحيد كان نتيجة للفكر الإنسانى فلم يستطع ، وتكلم ليفى شتراوس عن فكرة التوحيد وحاول أن يجد لها طريقاً عقلياً يمر بإخاناتون فلم يوفق ، والمستشرق الأسبانى ميجل آسين بلاتىوس Mijuel Asin Palacias يقف هنا إلى جانب ابن حزم ، وفى ندوة كبرى عقدت فى السوربون سنة ١٩٤٦ قدم آسين رأى ابن حزم وحججه المنطقية ولم يستطع الصمود له كبار المفكرين الماديين الذين ينكرون النبوات والوحى جميعاً ، وآسين دون شك هو الرجل الوحيد الذى أعرف أنه قرأ ابن حزم كاملاً حتى كتبه الفقهية الخالصة مثل « الإحكام فى أصول الأحكام »

و « المُحلِّ في الفقه المُعلَى » وهى كتب فقهية لا يصبر على مطالعتها إلا أهل التخصص في الفقه وكل هذه قرأها آسين بلاتيوس ، وكتابه عن ابن حزم ضخم يقع في خمسة مجلدات وقد دخل به آسين عضواً في مجمع اللغة الإسباني ، وقال يومها دوق إلبا رئيس المجمع : إننا نستقبل اليوم عضوين في مجمع الخالدين ابن حزم القرطبي وآسين بلاتيوس . ومن ذلك الحين أصبح ابن حزم جزءاً من تاريخ الفكر الأسباني وهذا شيء مستغرب لأن ابن حزم في دراسته كلها يقف على أرض صلبة جداً من الإيمان بالإسلام وكتاب الله وسُنّة نبيه ، والمفكرون من أهل الغرب لا يقبلون هذا الموقف أصلاً ولكنهم قبلوه من ابن حزم لأن الرجل علامة متبحر فعلاً ، فهو يتحدث عن اليهودية حديث الدارس المتمكن ، وكلامه عن النصرانية كلام لاهوتي متخصص في مذاهب النصرانية وهو يتدرج في الكلام حتى ينتهي بك في كتاب « الفصل » إلى الإسلام ، وهنا فقط يقول : إن الإسلام دين الفطرة ويورد الأدلة على أن الإسلام منحة الله الكبرى لأهل العقول .

وكنيت أود أن أحدثك عن كتاب « طوق الحمامة » وهو رائعة ابن حزم في الأدب الجميل المبتكر ولكنك لا بد قد قرأته أو عرفت عنه ما يعينك ، وابن حزم فيه رجل صريح لا يخفى شيئاً فهو يقص عليك تجاربه في الحب وعلاقاته مع النساء حديث المسلم العفيف ، فهو يؤكد لك أنه لم يرتكب معصية قط ولا قارف ما يغضب الله ، إنما هو رجل صادق قوى يتحدث دون خوف من الناس وحسبه خوفه من الله سبحانه .

ولكن صوت ابن حزم تردد في ظلام ليل الأندلس ، فقد كانت الأندلس كلها قد اشتعلت نارا واستسلم الناس فيها إلى اليأس وانقطاع الأمل وتركوا الأمور تجري في أعنتها إلا هذا القلب اليقظ والعالم المناضل الذي يبدو لنا بحياته ونشاطه وحماسه كرجل وجد الناس نياماً فأطلق شكاته تشق سكون الليل فتقلب الناس في مضاجعهم وتلملوا من هذا الذي حاول إيقاظهم من السبات فلعنوه وشتموه ثم انقلبوا على الجانب الآخر واسترسلوا في نوم القرون .

أَبُو الْعَلَاءِ الْمَعْرِي : نُورُ الظَّلَامِ أَبُو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي : ظِلَامُ النُّورِ

عندما نصل إلى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي تنتابنا حيرة كبرى . فهذا هو عصر التدهور السياسي المحزن . إنه عصر البويهيين والقرامطة والفاطميين ، الذين زلزلوا قواعد الحكم في عالم الإسلام ، الحاكم البويهى الديلمى المهيمن بسلطانه على خليفة المسلمين في بغداد يصبح عملياً رئيس عصاة لصوص ، وأموال الناس تجمع بالقهر وتنفق فيما يضر أمة الإسلام ، والقرامطة يغيرون على العراق والشام ومصر والحجاز ويسرقون الحجر الأسود ، والخليفة الفاطمى في مصر والشام يضع أبشع نظام لاستخراج الأموال من الناس ، ومصر قبل الفاطميين كانت أكبر بلد صناعى في عالم الإسلام . كنا نصدر للعالم كله - شرقاً وغرباً - ورق الكتابة من البردى ، ومصانع النسيج في تنيس وشطا ودبيق كانت تصنع نصف النسيج المستعمل في العالم العربى كله ، فأفنى الفاطميون ذلك كله ، والأعراب أحرقوا أشجار مصر والمقريزى يقرر ذلك عندما نقطع الأشجار تحترق الزروع .

هذه هى أسباب ما يسمى بالشدة أو المجاعة المستنصرية ، ومصر التى كانت تطعم العالم جاعت ، والخليفة الفاطمى جلس في قصره على حصير وفي رجله قبقاب . جلس ينتظر رغيفين ترسلهما إليه إحدى الحسنات ، وبغداد مدينة النور أصبحت مدينة الظلام ، والخليفة العباسى أصبح موظفاً بويهياً ، وفقه لا يخاف الله يسمى أبا الحسن على الماوردى يكتب في السياسة كتاباً يسميه « الأحكام السلطانية » ، يحلل فيه ولاية اللص والسارق والفاسق والمجنون ، وأهل العلم في عالم الإسلام لا يعرفون إن كانوا سيكون أو يضحكون ، وفي شرق إيران تقوم دولة بويهية أخرى على رأسها ركن الدولة ، وتدخل فيها الرى وهمذان وأصفهان ، بعد قليل تقع الحرب بين ركن الدولة وديلمى آخر يسمى وشمكير بن زيار الديلمى ، كل البويهيين ينتسبون إلى الدولة إلا وشمكير هذا ، أخيراً ينتصر ركن الدولة وأولاده يرثونه ، كل بلاد العراق وفارس تصبح قسمة بين فخر الدولة وعماد الدولة ويمين الدولة وزفت الدولة .

في بلاد الموصل وحلب تقوم دولة عربية ذات صيت بعيد عندنا هي الدولة الحمدانية (٣١٧ - ٣٩٤ هـ / ٩٢٩ - ١٠٠٣ م) نحن نخدع أنفسنا في أمر بني حمدان هؤلاء ، وخاصة الفرع الحلبي الذي يتولاه سيف الدولة أبو المحاسن على (٣٣٣ - ٣٥٦ هـ / ٩٤٤ - ٩٧٧ م) ، هذا هو صاحب المتنبي الذي يزعمون لنا أنه كان يحارب الروم وينتصر عليهم ، ويقولون : إنه أنزل بالروم هزائم قاصمة واستولى على زبطرة وعرقه وملقية ، وهزم قسطنطين بن فردس الدمستق عند مرعش وأسره ، والحكاية كلها أقل من ذلك بكثير ، لأن قسطنطين هذا كان شابًا صغيرًا في الجيش البيزنطي كان يخدم في جيش الامبراطور « قسطنطين ليكابينوس » (٩٢٤ - ٩٤٥ م) في فترة من أضعف فترات تاريخ الدولة البيزنطية ، والقائد فردس هو Pordas Damasticus ولم يكن من كبار رجال الدولة ، وستنهض الدولة البيزنطية بعد ذلك في أيام قسطنطين السابع الملقب بلباس الأرجوان (٩٤٤ - ٩٥٥ م) Porghyrs Genitus وتتمكن جيوشها من غزو بلاد المسلمين وعبور نهر الفرات والاستيلاء على أنطاكية في الفترة الثانية من تاريخ الأسرة المقدونية ، وقد تمكن خلالها بعض أباطرة الدولة من أمثال نقفور فوكاس (٩٦٣ - ٩٦٩ م) ويوحنا تسيصكيس الذي يسميه العرب يوحنا الشميشق (٩٦٩ - ٩٧٦ م) من غزو شمال الشام والتمهيد للحروب الصليبية وغزو الفرنجة لبلاد الشام .

كان هذا القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي عصرًا عسيرًا على أهل الإسلام ، فقد وهنت فيه قواهم واشتدت الخصومات بين حكامهم حتى خيف على مصير الإسلام ، وزاد الخطر عليهم عندما انتقلت الدولة الفاطمية من إفريقية إلى مصر سنة (٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م) واشتد الصراع بينها وبين الدولة العباسية ولا تسئل عن سوء حال الناس في ذلك العصر ، وسنرى أن تشاؤم أبي العلاء المعري كان يرجع إلى حد كبير إلى سوء أحوال المسلمين .

* * *

ومن عجب أن هذا العصر بالذات حفل بعدد من فحول الشعراء الذين يعدهم النقاد قممًا للشعر العربي علي مر العصور وإليك بعض الأسماء — وأنت تعرفها كلها — مع تواريخ حياتها :

أبو الطيب المتنبي (٣٠٣-٣٥٤ هـ / ٩١٥-٩٦٥ م) .

أبو فراس الحمداني (٣٢٠-٣٥٧ هـ / ٩٢٢-٩٦٨ م) .

الشريف الرضوي (٣٥٩-٤٠٦ هـ / ٩٧٠-١٠١٦ م) .

أبو العلاء المعري (٣٦٣-٤٤٩ هـ / ٩٧٣-١٠٥٨ م) .

أبو بكر أحمد بن محمد الصنوبري المتوفي (٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م) .

وهؤلاء وغيرهم كثيرون يعدون من أعظم شعراء العربية على مر العصور ، ولكن واحداً من هؤلاء الكثيرين لم يشعر بالواقع الأليم الذي كانت تعيشه أمة الإسلام والعروبة في ذلك العصر ، كما شعر به أبو العلاء المعري ، بينما كان كل من ذكرنا من أهل المواهب الشعرية الباهرة قد انفصلوا تماماً عن واقع أمتهم العربية ولم يهتمهم في شيء تعاسة الناس وانعدام الأمان على النفس والمال والأهل والولد وضياع الإنسان العربي وشيوع شكوك الناس وانتشار الآراء الضالة المضلة ، وانصرفوا عن ذلك كله كأنهم كانوا يعيشون في كوكب آخر ، فانفقوا ملكاتهم وأشعارهم في غزليات كاذبة ومدائح شائنة استجداء للمال ، بل إن بعضهم مثل مهيار الديلمي - وهو عبقرية شعرية لا شك فيها - كان يقول القصيدة العصماء في استجداء فرو خروف أو ثوب أو أكلة ثريد .

هنا نعرف قيمة أبي العلاء المعري ، وهو بصدقه وإخلاصه وإحساسه المرهف بآلام البشر وإنسانيته التي تروع النفس ، يعتبر دون شك من أعظم شعراء الإنسانية على الإطلاق ، فهذا الرجل الذي حرم نور البصر من سن الثالثة ، وشوه الجدرى وجهه حتى أصبح يخجل من أن يطلع بوجهه على الناس ، رزقه الله بصيرة منيرة يرى على ضوئها كل حقائق الحياة ، وفي حالته وحالة غيره من الشعراء يصدق قول الله سبحانه في آية تروع النفس من سورة الحج ، وسأتى هنا بها وبآيات قبلها ليكتمل فهم القارئ لها وإحساسه بها ، فإنه لا يفسر القرآن إلا القرآن (٢٢ / ٤٥ - ٤٦) ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبُئِرَ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا * أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ فأما

القرية التى أهلكها الله وهى ظالمة فهى إشارة إلى بلاد الإسلام التى ظلمت نفسها فسلط الله عليها الهلاك ، وبلاد الإسلام كانت بالفعل خاوية على عروشها ، والمسلمون هم الذين خربوها بأيديهم ، والبئر المعطلة إشارة إلى منابع الخير التى تعطلت بفعل الحكام الظالمين الذين يسكنون القصر المشيد ، وهو معطل أيضاً بسبب الدسائس والمؤامرات التى كانت تملأ الحجرات والأبهاء والدهاليز .

وأما الذين لم يسيروا فى الأرض ليزوا الحقائق ويسمعوها ويتحدثوا بها فهم أولئك الشعراء والكتاب الذين عاشوا وماتوا فلم يروا إلا قصور الخلفاء والأغنياء التى وقفوا على أبوابها يتسولون ويعيونهم مفتوحة ولكنها لا ترى من الحق شيئاً لأن قلوبهم فى الصدور عمياء ، إلا قلب أبى العلاء فهذا الرجل كان يرى ببصيرته المنيرة كل شىء ويحس كل شىء حتى آلام الحشرة الصغيرة كان يحس بها ، واسمع إليه يقول :

تسريح كفك برغوثاً ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجاً
كلاهما يتقى ، والحياة له عزيزة ، ويمنى النفس مهتاجاً

وهذا فى إحساسى .. أعظم شعر قاله إنسان . تصور أن أبا العلاء يدعوك إلى تسريح البرغوث الذى تظفر به يدك رحمة به ، وهو يرى ذلك من أعمال البر وهو أفضل عنده من الإحسان إلى محتاج بدرهم ، لأن البرغوث مسكين لا حيلة له فى إيذاء الناس بخرطومه الذى يدسه فى جسدك ليشرّب دمك ، فهذه طبيعته وهكذا خلقه الله وهو إذ يفعل ذلك لا يشعر أنه يؤذيك وإنما هو يتقى الموت ويمنى النفس بالحياة مهتاجاً أى سعيداً بها مقبلاً عليها ، مثله فى ذلك مثل المحتاج الذى ينتظر منك الدرهم ليأكل ويتقى الموت ، وأبو العلاء بمثل هذا الإحساس الإنسانى المرفه يرتقى عندنا إلى مستوى من الإحساس رفيع ، وهذا الإحساس هو الذى جعله وهو الكفيف البصر يرى حقائق الحياة حوله ويحس تعاسة الناس وظلم الحكام ويقول :

يارب أخرجنى إلى دار الرضا عجلاً فهذا عالم منكوس
ظلموا كدائرة تحول بعضها من بعضها فجميعها معكوس
وأرى ملوكاً لا تحوط رعية فعلام تؤخذ جزية ومكوس

واستمع معى إلى الدكتورة عائشة عبد الرحمن - بنت الشاطىء - تقول فى كتابها

البديع عن أبي العلاء المعرى (ص ٢٢٢) : فهو وحده - ولا أحد سواه - من يجرؤ على أن يصدع جبروت الحكام وطغيان الولاة بمثل قوله :

مل المقام . فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها
وتأمل معى قوله إن هؤلاء الأمراء هم أجراء الأمة التي يظلمونها ، فهذه مقالة رجل يفهم من شئون الحكم والحكام قدرًا لا يقل عما فهمه جان جاك روسو ، وفولتير ، وسان سيمون وكل مفكرى الثورة الفرنسية وعصر الأنوار .
واقرا معى قول أبي العلاء :

يسود الناس زيد ثم عمرو كذاك تقلب الدولات دولة
ورب شهادة وردت بزور أقام لنصها القاضى عدوله
ومن شر البريئة رب ملك يريد رعية أن يسجدوا له
أجل ، فالقاضى يقبل شهادة الزور ويستعين فى ذلك بشهود يعرف أنهم مزورون ، ولكنه يعتبرهم عدولاً أى أهل عدالة ، والحاكم يريد من الناس أن يسجدوا له .

لأمر ما أحس أن أبا العلاء يشير هنا إلى ملك مثل عضد الدولة البويهى وإلى قاضٍ مثل أبى الحسن الماوردى .

· وهل نفذت بصيرة رجل إلى مثل ما وصلت إليه بصيرة أبى العلاء ، عندما قال ساخرًا من حكام العصر وفقهائه :

لم أرض رأى ولا لقبوا ملكاً بمقتدر وآخر قاهرًا
هذى صفات الله جل جلاله فالحق بمن هجر الغواة مظاهرا
كم قائم بعظاته متفقه فى الدين يوجد - حين يكشف - عاهرا
وعلمت قلب المرء يغرق فى هوى دنياه . خاب مكاتماً ومجاهرا

أتعرف سر قوة أبى العلاء وشجاعته ؟

لقد استغنى عن الدنيا والناس ، وزهد الراحة والنعيم ، أصيب بالعمى والدمامة وهو بعد في الثالثة من عمره ، فانكب على العلم يدرس ويحفظ وقد رزقه الله عقلاً كله نور وذاكرة واعية لا نظن أن إنساناً وهب مثلها ، كان يقرأ الكتاب الكبير مرة واحدة فيحفظ كل ما فيه : هكذا يقول المؤرخون ، وهذه مبالغة لا شك والحكايات هنا كثيرة جداً وليس من الضروري - لكى نعرف قوة ذاكرة أبى العلاء - أن نصدق أنه سمع مرة رجلين أعجميين يتشاجران بلغة تركية أو فارسية لا يفهمها ، فلما دعى للشهادة قص كل ما سمعه من كلام أعجمى كأن ذاكرته شريط تسجيل .

وبهذه الذاكرة وعى أبو العلاء كل علوم عصره وكل ما وصلت إليه البشرية من علم قبله ، ولكن الذى وهبه أبو العلاء من الإحساس الإنسانى كان أعظم لقد كان إحساسه الإنسانى مرهفاً يحس بكل شىء ، لقد أحس بدمامة وجهه بعد الجدى فقرّر ألا يتزوج ، لم يشأ أن يضايق أى امرأة أو جارية لا يعجبها وجهه وبعد فترة قصيرة من الشباب حاول فيها أبو العلاء أن يقهر سجن الظلام الذى فرضه القدر عليه ، اقتنع أن الحياة لا تساوى العناء فذهب إلى حلب - قرب قريته معرة النعمان - ليستصفى ما فى خزائن كتبها من علم ، وعاد إلى قريته ثم نهض مرة أخرى إلى بغداد حيث رأى علماءها فيه عقلاً عجباً وعلماً أعجب ، لقد اعترف الناس هناك بفضل علمه وتأكدوا أنه أعلم أهل زمانه وأشعرهم ، بهذه الشهادة وصل أبو العلاء إلى ذروة ما يطمح إليه رجل العلم ، فكّر راجعاً إلى قريته حيث حكم على نفسه بالسجن فى بيته بقية العمر ، وقد طال عمره حتى نيف على الثمانين لهذا سموه رهين المحبسين ، كان الناس يزورون بيته من أقطار العالم الإسلامى ليروا عجيبة عصره علماً وشعراً ، كما كان أهل أوربا يزورون فايما ليروا جيته عجيبة أهل الشعر فى عصره ، كان يقرئ الدروس على من يلم به من طلاب العلم - La Poesie Andalovse Enarabe Elassique au xo Siécle La Ecat- ologia Musulmana en La Comedia Divina ويملى على كاتب له ما يشاء ، كان ذهنه خصباً جداً ومؤلّفاته تعد بالعشرات منها هذا الكتاب العجيب الذى يسمى برسالة الغفران ، وهى عمل أدبى ممتع فريد فى بابه صاغه أبو العلاء فى صورة رد على رسالة بعث بها إليه رجل يسمى على بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح ، وابن القارح وجه إلى أبى العلاء بضعة أسئلة فى الأدب والفلسفة والدين والزندقة والتصوف وشئون

أخرى ، فصاغ أبو العلاء الرد في صورة أدبية رائعة لم يسبق إليها ، فقد تصور أن ابن القارح قام برحلة في دار البقاء ليستجلى بنفسه حقائق ماسأل عنه فركب جملاً كريماً من جمال الجنة خلق من ياقوت ودر ، وسار في الجنة على هواه أو على هوى الجمل يلقي أهل الجنة ، ورأى يوم الموقف وشهد ما فيه من هول وشناعة ، وقد أقام في الموقف ستة أشهر ينتظر الإذن في دخول الجنة حتى أعياء الحر والتعب ، ثم تمكن من العودة إلى الجنة ولقى فيها ناساً وشعراء ، ثم قصد إلى النار فركب دابة من دواب الجنة ومضى فمر في طريقه بجنة العفاريث (وهم جن مسلمون) ثم وصل إلى الجحيم فرأى إبليس مضطرباً في السلاسل والأغلال ، ويمر في رحلته تلك بعدد كبير من الشعراء ورجال الأدب ، فرأى في الجنة جماعة ممن كان يحسب أنهم في النار ، ورأى في النار ناساً كان يرى أنهم لا بد أن يكونوا في الجنة ، فيسأل الأولين عن سبب الغفران لهم ويسأل الآخرين عن سبب حرمانهم من الغفران ، فيقال له : إن هذا دخل الجنة ببيت من الشعر وأذاك دخل النار ببيت من الشعر ، ولهذا سميت الرسالة برسالة الغفران .

والرسالة ذات طابع قصصى جميل ، وأبو العلاء يكشف فيها عن عالمه الداخلي الغنى ، وهو عالم مرح فياض بالدعابة وخفة الظل والذكاء والفهم العميق لشئون الدنيا والناس وأسرار الوجود ، والكتاب مبتكر كله في طريقته وأسلوبه وفكرته ، ولكنه عسير على الفهم ولهذا فإننى أنصحك ألا تقرأه إلا في صحبة ناشرته ومحققته الدكتور العلامة عائشة عبد الرحمن ، التى أنفقت من عمرها المديد - بإذن الله - سنوات طوالاً أهدتنا بعدها النص الكامل المحقق لذلك العمل الفريد مع دراسات وشروح هى الغاية فى العمق والشمول .

ويحسب الكثيرون أن دانتى الليجيرى اقتبس فكرة الكوميديا الإلهية من رسالة أبى العلاء ، ولكن اثنين من أكابر الباحثين فى الغرب هما هنرى بيريس فى كتابه La Pa sie Andagause en Arabe Ellassijue aux, Siecle La Ssealelag, a Nusulmone en الكوميديا الإلهية La Canedie Dioine أثبتا أن دانتى لم يقرأ رسالة الغفران ولا سمع بأبى العلاء ، ولكن الذى حدث هو أن بعض صور الجنة والنار فى رسالة الغفران دخلت فى تفاصيل قصة المعراج التى بدأت قصيرة فى حديث معروف رواه ابن عباس عن عائشة أم

المؤمنين ، ثم تطورت مع الزمن وأنصبت فيها صور كثيرة جداً من الأدب الشعبي العربي ، منها بعض الصور مقتبسة من رسالة أبي العلاء وبعضها مقتبس من رسالة « التوابع والزوابع » لابن شهيد الأندلسي وواحدة من تلك الصور الشعبية لقصة المعراج هي التي وصلت إلى دانتى فسطا عليها ونال بها المجد ، كما أثبت ذلك أسين بلاتيوس وأنريكو شيرولي ، وقد فصلنا أمر ذلك في كتابنا عن تاريخ الأدب الأندلسي .

* * *

ولا أدري لماذا أشعر كلما قرأت شيئاً من شعر أبي العلاء قفزت إلى ذهني القصيدة الذائعة الصيت لتوماس فيرنز اليوت T . S . Eliat وهي الأرض اليباب أو الويست لاند والفرق بين حياة أبي العلاء وحياة ذلك الشاعر الإنجليزي الأمريكي المولد جسيم ، فقد كان أبو العلاء شقياً بنفسه وبال دنیا والناس في حين أن اليوت عاش ناعماً رخي الحال ، وإذا كان شعر الموت والضيق بالحياة طبيعياً من أبي العلاء ، ويكفيها فخراً بأبي العلاء أنه عبقرية عربية من أهل القرن العاشر فاقت بمراحل أعظم عبقرية شعرية غربية من أهل القرن العشرين فإن الأرض اليباب غير طبيعية من ت . س . اليوت ، ولكن العبقرية تتلاقى وقد لقي اليوت من الكرامة بقصيدته تلك أضعاف ما لقي أبو العلاء بشعره العظيم ، مع أنه دون شك أشعر وأعمق ، واليوت في قصيدته متكلف مسرف في الإغراب ، وفي قصيدته أبيات إغريقية وأخرى لاتينية أو المانية أو إيطالية وهو يعرض في كلامه علمه الواسع بالأدب واللغات ، وقد شقيت أنا بها زماناً حتى أسعفني الحظ بترجمتها مع شروح فياضة قام بها الأستاذ الأديب العراقي مولداً المصري روحاً وخفة ظل الدكتور عبد الواحد لؤلؤة .

رحم الله أبا العلاء ، لقد عاش في ظلام ومن الظلام عم الدنيا بأنوار قلبه وبصيرته ولم يكتف بحبس نفسه في بيته بل حرم نفسه الزواج وحرم على نفسه أكل اللحم والبيض وشرب اللبن وأكل العسل ، لأن الحيوانات والأسماك في رأيه خلقت لتعيش وتسعد لا لكي تذبح وتخرج من الماء فتختنق وتؤكل ، والدجاجة تبيض لنفسها لا للناس ، واللبن تصنعه الحيوانات لأولادها ، والعسل يخرج النحل لنفسه ، فبأى حق نسطو على ذلك كله ؟ فاسمع لهذا الإنسان الصافي الرفيع يقول :

فلا تاكلن ما أخرج الماء ظالمًا ولا تبغ قوتاً من غريض الذبائح
ولا تفجعن الطير وهى غوافل بما وضعت فالظلم شر القبايح
ودع ضرب النحل الذى بكرت له كواسب من أزهار نبت فوائح
فما أحرزته كى يكون لغيرها ولا جمعته للندى والمنائح
سحبت يدي من كل هذا وليتنى أبهت لشانى قبل شيب المسائح

وأبو العلاء فى البيت الأخير يأسف لأنه لم ينتبه إلى ذلك كله قبل أن يشيب شعره ،
وأبو العلاء عربى صميم من فرع من قبيلة تنوخ ، نزل جنوبي حلب فى شمالى الشام
وسكن قرية معرة النعمان ، واسمه أحمد بن عبد الله بن سليمان ، ولد ونشأ فى بيت
كريم موسر وعاش خمساً وثمانين سنة كلها نور وخير وبركة للناس ، وكلها شقاء
وتعب وحرمان له ، وقد عبر عن رأيه فى الحياة ببيت من الشعر أمر بأن يكتب على قبره :

هـذا جنـاه أبى على ومـا جنيت على أحد

ومن أبى العلاء أنتقل بك إلى أبى الطيب أحمد بن الحسين الجعفى المعروف
بالمـتنبى (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ / ٩١٥ - ٩٦٥ م) ، وهو أشهر شعراء العربية على الإطلاق ،
وكنـت أحب أن أختصه بحديث وحده ولكنى - صدقنى - لم أجد عند المتنبى ما أملأ به
حديثاً كاملاً ، وهذا ليس تاريخاً للأدب العربى ، وإنما هو تاريخ للفكر . ونحن هنا
نبحث عن الأفكار الأصيلة النابعة من الإسلام أولاً ، ثم من العروبة ثانياً ، والآراء التى
تعطى الفكر العربى قيمته الحقيقية وهذا هو ديوان أبى الطيب بين يدي أقرؤه ربما
للمرة العاشرة وهو حافل بالشعر العظيم البليغ الرنان ، فإن الرجل قد وهب ملكة فريدة
جداً فى صناعة الشعر وكان مثله فى ذلك مثل أبى العلاء غاية فى الاطلاع والعلم والذكاء ،
وكان إلى جانب ذلك رجلاً فخماً عظيم الهيئة جميل الصورة وفارساً نجداً يبهـر العيون ،
ولكن شعره العظيم كله يدور حول موضوع واحد هو أبو الطيب المتنبى ، فقد عاش
الرجل فى الدنيا وكأنه ينظر فى مرآة ليس فيها إلا رسمه ، والدنيا كلها عنده حاشية على

حياته ، ومهما قرأ من شعره فأنت لا تجد فيه إلا المتنبي ، وهو يفخر بنفسه من مطلع الديوان إلى آخره وليس في قلبه مكان لغيره من البشر وأبو العلاء كان يقول :
فـلا هـطـلت عـلى وـلا بـارـضـى سـحـائب لـيس تـنـتـظـم البـلـاد
 أما أبو الطيب فيقول :

مـلـث الغـيـث أـعـطـشـهـا رـبـوعـا وـإـلا فـاسـقـهـا السـم النـقـيعـا
 رجل يقول : إذا لم تمطر السماء على البشر أجمعين فأنا لا أريد المطر ، ورجل يقول اللهم أحرق الأرض وأعطش أهلها أو اسقهم السم ، رجل أخرج النور من الظلام ، ورجل أخرج الظلام من النور .

وقد وهب الله أبا الطيب المتنبي ملكة شاعرية لا أظن أن أحداً من العرب قد وهب مثلها ، فهو يأتي في شعره بما يشبه المستحيلات ، وقد سبق أن أوردت من شعره في سياق كلامي عن أبي بكر الباقلاني كيف استطاع أن يصنع من اسم عضد الدولة البويهى والقباه كلها شعراً صحيحاً حيث قال :

أيا شجاع بفارس عضد الدولة فـنـاخـسـرو شـهـنـشـاهـا
أساميا لم تزده معرفة وـإنـما لـذة ذـكـرناها

والبيت الأول هنا لا يتصور أحد كيف صاغه هذا الرجل ، والبيت الثاني يريك أن المتنبي أعجبه من نفسه أنه استطاع صياغة هذا البيت فقال : إنما لذة ذكرناها ، وكأنه يريد أن يقول هنا : إنما صغت هذا البيت لذة أو تلذذاً ، وهذا بدوره يكشف عن ناحية أساسية في فهم المتنبي وهى أن شعره لا يصدر عن القلب إلا في النادر ، فهذا الرجل الذى يعتبره الكثيرون رمز العروبة أو لسان قوميتها ، قال هذا الشعر في مدح عدو من كبار أعداء العروبة والإسلام وهو عضد الدولة بن بويه ، فقد كان فارسياً لحماً ودماً ، وكان مسرفاً في دعوة الشيعة الفارسية ، والإسلام محارم كسرى شاهنشاه فجاء

هذا الشقى وأراد وضع شاهنشاه على رقاب أهل الإسلام ، ومع ذلك فقد كان يخدم الخليفة العباسى رمز السنة والجماعة وكانت دولة البويهيين كلها دولة « كفرة فسقة روافض » وليس هذا كلامى وإنما هو كلام فقهاء السنة المعاصرين لعصا الدولة ، ولا أدرى كيف رضى شاعر العروبة أن يهين نفسه بمدح هذا الرجل وأمثاله ، بل إنه مدح بشعره رجلاً تركياً أو فارسياً لا يكاد يفهم العربية واسمه تلّير بن تشكروز ، وقد كنا نستنكر منه مدحه لكافور الإخشيدى طلباً للمال ، ولكن ما ذنب أهل مصر حتى يهوى عليهم بلسانه ويقول فيهم ما لم يقله أحد فيهم ؟

تركنا أرض مصر لكل قدم له باع يقصر عن ذراع
نفوس لا تليق بها المعالى وأخلاق تضيق عن المساعى
أقمت بها ومن محن الليلالى مقام الأسد فى كهف الضباع
أقول - وقد ناوا - بعداً وسحقاً لشر الخلق فى شر البقاع

فإذا قلنا - على مذهب الكثيرين - إنه لم يذم بهذا الشعر أهل مصر بل حكامها إذ ذاك من الكافورية والإخشيدية ، فماذا نقول فى قوله إن مصر شر البقاع ، وقد كانت فى ذلك العصر أوفر بلاد الإسلام أمناً وخيراً ؟ ولكنه المتنبى الفياض القلب بالكرهية للناس أجمعين ، وأنا أعرف أننى أفجع بمثل هذا الكلام ناساً كثيرين ممن ما زالوا يقولون : إن المتنبى شاعر القومية العربية وقد غضب على شيخنا محمود محمد شاكر لأقل من ذاك بكثير ، ولكنى أجد أن مؤرخ الأدب العربى فى عصرنا وهو شوقى ضيف يخرج الجزء الخامس من تاريخه العظيم للأدب العربى فى قرابة ٨٠٠ صفحة ، فلا يمنح المتنبى منها إلا تسع صفحات ، وهو يذكره ضمن شعراء المديح ولو استطاع شوقى ضيف أن يقول أكثر من ذلك لقال ولكنه لم يجد ، والحقيقة التى تخرج بها من ديوان المتنبى أن شعره كله مدح فى نفسه ، وأياً كان موضوع قصيدته فلا بد أن يدور فى نهاية الأمر على شخصه ، وهو يزعم لنفسه أن الله لم يخلق شاعراً سواه .

فَلَا سِفَةُ الْعَرَبِ :

وَضَعُوا الْفِكْرَ الْعَرَبِيَّ فِي صَمِيمِ الْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ !

هنا في عالم الفلاسفة لا بد لنا من الحذر البالغ ، لا بد أن تعرف أين تضع رجلك قبل أن تخطو لأنك هنا في معبد جليل له طقوسه ولغته ومصطلحه وكهنته أيضاً ، وبعض كهنة معبد الفلسفة يطلبون إليك أن تخلع نعليك وتتوقر وتتأدب وتتهذب وأولى قواعد هذا التأدب هي أن تترك خارج المعبد لغتك التي تعودت أن تستعملها وتستبدل بها لغة الفلاسفة ، وليس من الضروري أن تفهمها المهم أن تستعملها ولن تكون أول من يفعل هذا فقد سبقك إليه الدكتور فاوست عندما أغواه مفيستو قيليس اللعين ورد عليه شبابه ووضع في كفه يد هيلين لتمضى به في عالم المتعة واللذات والضياع في النهاية ، فقد قال له : لا بد أن تتكلم اللاتينية لا تقل الأرض ، بل قل تيرا ساكرا ولا تقل السماء بل قل كويليو لازولى ، لأننا في عالم الفلاسفة هذا إذا جهلنا شيئاً وضعنا له مصطلحاً لاتينياً عجبياً يخفى جهلنا ، وهذا هو يا عزيزي هو الهوكوس بوكوس وهو مفتاح السعادة ورأس الحكمة .

ومعبد الفلسفة ولد إغريقياً وسيظل إلى الأبد إغريقياً في روحه ومصطلحه وموضوعاته ، والأربعة الكبار في تاريخ الفلسفة الإغريقية الذين عرفهم العرب وترجموا لهم وتأثروا بهم كانوا إغريقياً وثنيين ولم يعرفوا إلا الإغريقية والوثنية ، وكان جهد فلاسفة العرب منصباً على إدخالهم الإسلام وتعليمهم العربية فلم يوفقوا في ذلك وظلت الفلسفة في جملتها شجرة غريبة في تربة الفكر العربي ، ولهذا فلم يكن لها فيه أثر يذكر والذي حدث هو العكس : فلاسفة العرب هاجروا بفكرهم إلى عالم الغرب وأصبحوا مفكرين عالميين ، أولئك هم : سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، ثم أفلوطين وهو بلوتينوس الإسكندري وهو مصري إسكندراني عاش بعد الميلاد فيما بين سنتي (٢٠٥ م) وإليه تنسب الأفلاطونية الجديدة أو التيوبلاتونيزم وقد عاش وثنياً ومات وثنياً ولكن أثره في الفكر المسيحي الوسيط عظيم وقد عرفه الناس عن طريق تلميذه

فورفير يوس الصورى وقد تأثر به اللاهوتيون المسيحيون تأثراً عظيماً ، وكذلك كان له الأثر البعيد عند فلاسفة الإسلام ونحن مدينون في معرفة ذلك للدكتور عبد الرحمن بدوى وكتابه الجليل « أفلوطين عند العرب » هؤلاء الأربعة الكبار هم شيوخ فلاسفة المسلمين ، وأنت لا تفهم الفيلسوف المسلم إلا إذا عرفت أستاذه اليونانى ، فابن سينا مثلاً أخذ أفكاره الفلسفية من كتب أفلاطون ، ولكى تفهم ابن سينا لا بد أن تعرف أفلاطون وكتبه ولغته ، وابن رشد كان مفتوناً بأرسطو ولا سبيل لك إلى فهم ابن رشد إلا إذا عرفت أرسطو وآراءه ولغته ومصطلحه ، ونتيجة هذا أن فلاسفة العرب اجتهدوا في إنشاء لغة عربية فلسفية خاصة بهم وهى لغة عسيرة لم يبتكروها هم بل ابتكرها لهم المترجمون السريان أو نصارى الحيرة الذين تولوا نقل عيون كتب الفلسفة اليونانية إلى العربية مثل : يوحنا بن ماسويه ، وحنين بن إسحاق ، وقسطا بن لوقا ، وإسحاق بن حنين ، وهؤلاء كانت لغتهم العربية ركيكة جداً بل هى أحياناً ليست عربية أصلاً فهى لغة خاصة تستطيع أن تسميها جريكو - آراب أو جريكو - سيريافكو آراب ، وقد تأثرت كتابات فلاسفة العرب بهذه اللغة فجاءت عربيتهم عسيرة على الفهم وهذا كان في جملة الأسباب التى زهدت جمهور المسلمين في الفلسفة .

والفلسفة كلها كانت ضرورية وناقعة قبل الأديان السماوية ؛ لأنها كانت السبيل العقلى الوحيد لمعرفة أسرار الكون والوجود ، أما بعد الأديان وبالنسبة للمسلمين خاصة فلم تعد لها وظيفة فإن الإسلام في ذاته نظام عقلى كامل وسبيل واضح لفهم أسرار الكون والحياة والموت ، ومن هنا فقد أصبحت الفلسفة كلها بالنسبة للمسلمين العارفين بأمور دينهم ترفاً عقلياً لا لزوم له ، ومن سوء حظ الفلسفة أنها دخلت عالم الفكر الإسلامى في عصر تكاثرت فيه الزندقات والآراء الضالة وانحرافات غلاة الشيعة ودسائس المجوس ومن إليهم فاندرجت في نظر أهل السنة والجماعة ضمن الأخطار الكبيرة على الإسلام وأهله ونفروا منها نفوراً شديداً حتى قال بعضهم : إن الفلسفة مشتقة من السفه وهذا بدوره جعل طريق الفيلسوف شاقاً وعسيراً وخطراً في عالم الإسلام ..

ولكن المسلمين في عصر النهوض الفكرى العظيم لم يستطيعوا تجاهل الفلسفة فإن الإسلام أدخل في نطاقه بلاداً كثيرة كانت أسماء سقراط وأفلاطون وأرسطو تدوى

فيها كالطبل ، والدنيا كلها كانت تقول : إن أرسطو هو المعلم الأول ، والفكر الإسلامي في عصر السيادة كان متعطشاً إلى المعرفة ، فاقتحم عالم الفكر اليوناني وعرف كبار الفلاسفة ، وبعد أن أنشأ المأمون دار الحكمة تدفقت المعرفة الفلسفية في ميدان الفكر الإسلامي تدفقاً وأقبل عليها الناس يدرسونها ويستكشفون ميادينها فوجدوا بالفعل أن مفكرين من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو جديرون بكل احترام ولهم نظريات وآراء وسبل إلى المعرفة تؤيد الفكر الإسلامي وتزيده غنى وثراء ، فقد كان أولئك الفلاسفة الكبار رجالاً أفاضل آتاهم الله عقولاً نيرة وأخلاقاً فاضلة ومذاهب في الحياة جميلة وخاصة في نواحي التأمل وطلب المعرفة عن طريق الفكر والمنطق والخلوة والزهد في مطالب الجسد ، لأن الإنسان إذا طوع شهوات جسده لمطالب عقله وروحه ازدادت بصيرته نفاذاً ، ومن هنا فقد اندفع نفر من طلاب المعرفة المسلمين نحو الفلسفة الإغريقية اندفاعاً شديداً فقد رأوا في تساميتها على المادة عوناً لهم على صفاء النفس وسلامة الاعتقاد ، والفارابي عشق أفلاطون لأنه كان بطبعه ميالاً إلى الزهد في الدنيا والخلوة بنفسه والتأمل ، ومن هنا فإن الباب الواسع الذي دخلت منه الفلسفة اليونانية ميدان الفكر الإسلامي هو باب الزهد في الدنيا وطلب السمو النفسى عن طريق التأمل .

ثم إن الفلسفة اليونانية لم تدخل ميدان الفكر الإسلامي وحدها ، بل دخل معها من الفكر اليوناني الرياضيات والطب والهندسة وكل ما كان يطلق عليه اسم علوم الأوائل .

وإذا كان القليلون من الناس يحتاجون إلى الرياضيات فإن البشر جميعاً في حاجة إلى الطب والدواء والعلاج ، ومن هنا فقد كان معظم فلاسفة المسلمين رياضيين وأطباء وبفضل الطب عاشوا ونجوا من الهلاك ، فالفارابي وابن سينا وابن طفيل وابن باجة وابن رشد كانوا أطباء ، وبسبب الطب رعاهم الملوك ولم يسمعوا إلى كلام الوشاة فيهم إلا فيما ندر .

ومن أسعد المصادفات التي أعانت الفلسفة على تثبيت أقدامها في عالم الإسلام قيام دولتين من عظيمات دول الإسلام في المشرق هما الدولة السامانية والدولة الغزنوية ، وقد قامت في ظل الدولة العباسية على مذهب أهل السنة والجماعة في إيران وما يليها شرقاً من بلاد أفغانستان وشمالاً من بلاد ما وراء النهر ، فأما الدولة السامانية

فتدخل في عداد الدول الفارسية (٢٦١ - ٣٨٩ هـ / ٨٧٤ - ٩٩٩ م) وقد مدت نفوذها على إيران وما وراء النهر ، وهى فارسية الاسم ولكنها عربية الروح سُنية المذهب ، وكان للكثيرين من سلاطينها ميول أدبية فكرية واشتهر الكثيرون منهم بسلامة الاعتقاد والإخلاص للإسلام على خلاف البويهيين ، وفي ظلهم عاش الفردوسى وكتب الشاهنامة بالفارسية ، وابن سينا الذى نال عندهم المنزلة الرفيعة ، وفي رعايتهم كتب مؤلفاته العظيمة ، ومثله فى ذلك أبو بكر الرازى الطبيب وهذان بالإضافة إلى أبى القاسم الزهراوى الأندلسى هم أعظم أطباء الدنيا خلال العصور الوسطى كلها ، وفي أيام هذه الدولة أيضًا عاش وأزهر وألف أبو نصر الفارابى .

وأما الدولة الثانية فهى دولة الغزنويين وهم ترك خلفوا السامانيين فى شرقى إيران وما وراء النهر ثم دفعهم الصراع مع السامانيين إلى دخول الهند فهم أصحاب الفتوح العظيمة هناك وهم الذين وضعوا الأساس المتين للهند الإسلامية وهم منسوبون إلى غزنة من بلاد أفغانستان وقد دامت دولتهم فى أفغانستان والهند طويلاً (٣٥١ - ٥٨٢ هـ / ٩٦٢ - ١١٣٦ م) وهم أتراك من أهل السنة والجماعة أيضًا ، وفي ظلال هؤلاء عاش وعمل علماء وفلاسفة كثيرون ذكرنا من بينهم أبا الريحان البيرونى .

ولن ندخل هنا فى تفاصيل فلسفات الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد فهذا مطلب عسير عنيّ ولا أنا أستطيعه وله أساتذته ورجاله ، ولكنى أقول بصفتى طالباً من طلاب المعرفة وخادماً لها : إن الذى خرجت به بعد القراءات الطويلة هو أن أهمية الفلسفة فى تاريخ الفكر العربى والإسلامى ترجع فى المكانة الأولى إلى أشخاص الفلاسفة فربما لم يكن للفارابى وابن سينا مثلاً أثر يذكر فى صلب الفكر الإسلامى ولكنهما يعتبران رغم ذلك قمتين من قمم المجد فى تاريخ الفكر الإسلامى ، فقد كان الرجلان كما سنرى على خلق عظيم وإيمان بالإسلام ثابت ولهما صورة إنسانية مشرقة يزهى بها تاريخ الفكر الإسلامى وإذا كانا لم يوفقا إلى زرع شجرة الفلسفة فى التربة الإسلامية فقد نجحا إلى حد كبير فى إضفاء ثوب إسلامى على أفكار أفلاطون وأرسطو وتم لهما ذلك نتيجة للجهد العظيم الذى بذلاه فى التوفيق بين مذاهب الفلاسفة وعقيدة الإسلام ، وعلى الرغم من سوء ظن عامة أهل السنة فى الفلاسفة عامة فإن الفكر الفلسفى الإغريقى دخل الفكر الإسلامى وكان له الأثر الطيب فيه ، وإن كان هذا الأثر

محدودًا ، وأهل السُّنة وإن نفروا من أسماء سقراط وأفلاطون وأرسطو فإنهم أخذوا عنهم الكثير من المنطق ومنهج الفكر وقوة الحجة وصحة القياس وإذا أنت قرأت شيئاً من كتابات الفارابي وابن سينا عن أفلاطون وأرسطو خيل إليك أن هذين كانا مسلمين بالخلق والشخصية وأسلوب الفكر واحترام الرأي ونزاهة النفس ومثل هذا يقال عن ابن طفيل وابن باجة وابن رشد في الأندلس .

وليس أدل على عظيم تأثير الفكر الفلسفي على الفكر العربي من أن المدرسة الفلسفية أخرجت في عصرنا هذا من أعلام الفكر أضعاف ما أخرجت المدارس الأدبية أو التاريخية ، ولطفى السيد ومصطفى عبد الرازق ومنصور فهمي وإبراهيم مذكور ونجيب محفوظ وزكي نجيب محمود والشيخ عبد الحليم محمود وقواد زكريا وجورج شحاتة قنواشي وعبد الرحمن بدوي ومحمد عبد الهادي أبو ريدة وأنيس منصور وتوفيق الطويل وحسن الساعاتي وعلى عبد الواحد وافي ، كل هؤلاء وغيرهم كثيرون من مؤسسي الفكر العربي الحديث تكونوا في مدرسة الفلسفة فلا بد أن دراسة الفلسفة فيها شيء لا يوجد في غيرها من الدراسات .

والحق أن المسلم الحق لا يحتاج إلى الفلسفة ليفهم شئون دينه ولكنه يحتاج إليها في ضبط منطقته وصقل ذهنه وتوسيع أفقه وتصويب تفكيره وهذا هو الذي غاب عن أهل السُّنة والجماعة عندما نفروا من الفلسفة وحاربوها ، فقد حسبوها في مجموعها محاولة للتشكيك في حقيقة الدين والوحي والرسالات أو حيلة للقضاء على الدين نفسه بمحاولة الوصول إلى حقائق الوجود عن طريق آخر غير طريق القرآن فرفضوها واعتبروها خطرًا على الدين ، وهم على حق في هذا الموقف إذا ذكرنا ما تعرض له الإسلام من تدبيرات وأخطار جاء بعضها من داخل أمة الإسلام وبعضها الآخر من خارجها مما ملأ قلوب أهل السُّنة والجماعة بالفزع ولم يعد لديهم من هدوء النفس أو حسن الظن بالدنيا والناس ما يأنز لهم في أن يستمعوا إلى كلام فيلسوف يتحدث في لغة هي أقرب إلى الألغاز أو شطحات غلاة الشيعة .

ومن هنا فإن الفلسفة لم يكن لها من وجهة النظر الإسلامية وجود حقيقي في تاريخ الفكر الإسلامي ، ولكن فلاسفة المسلمين بما تميزوا به من فكر سوى وخلق متين وزهد في الدنيا وإقبال على كل ما يرتفع بالروح عرفوا كيف يوسعون لفلسفاتهم مكاناً رحباً في تاريخ الفكر الإنساني .

وهذا هو الذى يعيننا فى هذه الدراسة ولهذا فإننا سندبر الكلام هنا على خمسة من فلاسفة المسلمين بهروا الدنيا بمناهجهم فى الحياة والتفكير وما ألفوا من كتب جليلة وكذلك النتائج الباهرة التى وصلوا إليها على رغم ما زعمه إيرنست رينان وأمثلة من أن الفكر الإسلامى والشرقى عامة غير خلاق أو مبدع بطبعه وتلك دعوى واهية فندها وأحسن الرد عليها إبراهيم بيومى مذكور بمنطقة الرفيع وأسلوبه السهل الممتع .

ونبدأ بالكلام على الكندى أبى يوسف يعقوب بن إسحاق المتوفى (٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م) فيلسوف العرب الأول وهو رجل فاضل ونفس متعطشة أبدًا إلى العلم والمعرفة ، ولد فى الكوفة فى بيت عربى كريم فأبوه كان فيما يقال عامل الكوفة ومعظم المؤرخين ينسبونه إلى شجرة ملوك كندة ، وفى الكوفة درس ونضج ذهنه وظهر أمره ثم مضى إلى بغداد واتصل بالخليفة المأمون وحظى برعايته واستهوته علوم الأوائل فدرس الرياضيات والهندسة والموسيقى والطب وأقبل على ما وجدته فى دار الحكمة من كتب فلاسفة اليونان يلتمها التهامًا ، ودار الحكمة معبد علمى أنشأه الخليفة المأمون للقيام بنقل علوم الأوائل إلى العربية على أيدي مترجمين ذكرنا بعضهم ، وكانت مذاهب الاعتزال فى أوجها فدخل فيها ولكن أمره لم يشتهر بين كبار المعتزلة ، وأقبل على التأليف فكتب رسائل كثيرة جدًا فى الرياضيات والهندسة والطب والنجوم والموسيقى ، ويقال إن عدد مؤلفاته بلغ حوالى ٢٨٠ مؤلفًا لم يبق لنا منها إلا رسائل قليلة منها رسالته إلى الخليفة المعتصم ورسالة أصغر كتبها لولى عهده أحمد وقد نشر الرسالتين مع دراسة طيبة الدكتوران أبو ريدة والخضيرى ، وهو يتكشف فى هاتين الرسالتين عن افتتان بالأوائل وعلومهم وبالفلسفة بصورة خاصة ، فهى عنده صناعة الصناعات وحكمة الحكم وهى علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان ، وغرض الفيلسوف هو الوصول إلى الحق عن طريق الفكر والتأمل والعمل ، ولكنه أغضب أهل السنة عندما قال : إن الفلسفة هى الجهد الذى يبذله الإنسان حتى تماثل أفعاله قدر استطاعته أفعال الله .

وقد جعل الكندى حياته عملاً كلها فهو لم يقتصر على الفلسفة بل درس الموسيقى وأتقن العزف وألف فى العلم الموسيقى ودرس الطب ومارسه وبرع فيه واشتغل بصناعة الأدوية وعالج صناعة السيوف وتكلم فى البصريات ، وهذا الجهد العظيم هو الذى طار باسم الكندى إلى أهل الغرب فى العصور الوسطى وبعض كتاباته التى ضاعت أصولها العربية نجدها اليوم فى ترجماتها اللاتينية .

والكندى مسلم صادق الاعتقاد في كل مناحى تفكيره فهو على خلاف ما يتهمه به خصومه ، مؤمن بالله ورسله وكتبه وهو لا يسلم بكل آراء أرسطو كما فعل غيره من فلاسفة المسلمين ، وله كلام كثير جميل في الدفاع عن النبوة والوحى وينسب إليه ابن النديم في الرد على الملاحدة رسائل كثيرة .

وبلغ الكندى ذروة مجده أيام الخليفة المعتصم (٨٣٢ - ٨٤٢ م) ولكن نجمه أفل أيام المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١ م) الذى أبطل بدعة الاعتزال فأصاب الكندى محنة ونهبت داره وأعطيت كتبه لآل شاکر المنجمين فظلت في حوزتهم حتى نالتهم المحنة بدورهم فنهب دورهم وضاع ما فيها من الكتب بما في ذلك كتب الكندى ، وقد مات الكندى بعد موت المتوكل بخمس سنوات سنة (٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م) بعد أن سجل اسمه في سجل الفكر العربى بصفته أول فلاسفة المسلمين ورائدهم في ذلك الميدان .

وإذا كان أول فلاسفة العرب عربياً صريحاً فكذلك كان آخر كبارهم وهو ابن رشد ، وكلاهما كان آية في الذكاء والاطلاع والإقبال على العمل ، وهذه الحقيقة تنهض دليلاً ينقض ما ذهب إليه ابن خلدون من أن أعلام العلم في الإسلام كانوا من غير العرب في غالبيتهم .

وإذا كان الكندى رجلاً واسع المعرفة يضرب في كل علم ، فإن أول فيلسوف حق في تاريخ الفكر الإسلامى هو أبو نصر الفارابى (٢٥٩ - ٣٣٩ هـ / ٨٧٣ - ٩٥٠ م) وهو تركى الأصل والمولد عربى الفكر واللغة والثقافة ، واسمه أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان ولد في فاراب في جمهورية قازاق السوفيتية اليوم في شمال شرق نهر جيحون في قلب آسيا ، ونشأ بطبعه زاهداً متصوفاً عاشقاً للعلم والفكر محباً للعزلة وقد دفعه حبه للعلم إلى الذهاب إلى العراق فدخل بغداد وقرأ الكثير من كتب الأوائل على يد أبى بشر متى بن يونس وكان من أقطاب المترجمين في دار الحكمة ، وعلى يده درس كتاب المنطق لأرسططاليس ثم مضى إلى هران في شمال العراق وكانت داخلة في إدارة سيف الدولة الحمدانى واتصل به الفارابى ودخل في خدمته زمناً قصيراً ثم عاد إلى بغداد ليواصل دراسة فلسفة أرسطو ثم زار مصر سنة (٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م) وعاد إلى حلب وعاش في بلاد الحمدانيين حتى توفي سنة (٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م) في دمشق عن ثمانين عاماً .

وكان الفارابى من أهل الإخلاص للعلم والزهد فى الدنيا وخيرها فقد كان يستطيع أن يشغل أرفع المناصب ولكنه زهد فى ذلك كله وعرض عليه سيف الدولة الأموال فاكتفى منها بأربعة دراهم فى اليوم يقيم بها أوده ، وكان مع زهده بهى الطلعة حسن الصورة ميالاً إلى العزلة والخلة بين أحضان الطبيعة ، قال ابن خلكان : إنه كان مدة مقامه فى دمشق لا يرى غالباً إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض يؤلف كتبه هناك ، وقيل : إنه كان يسهر الليل فى مطالعة الكتب على مصابيح الحراس فما كان لديه مال لمصابيح توقد طول الليل .

وكان الرجل واسع العلم بالتركية والفارسية إلى جانب العربية ومع ذلك فإنه لم يدرس اليونانية أو اللاتينية وهذا أمر يدعو إلى العجب فما دام مفتوناً بكتابات أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان فلماذا لم ينفق بعض وقته فى دراسة اليونانية واللاتينية ليقرا الكتب فى أصولها بدل الاعتماد على المترجمين ؟ يقول جميل صليب فى كلامه عن الفارابى : وترجع مكانة الفارابى إلى أنه أنشأ مذهباً فلسفياً كاملاً ، وقام فى الفلسفة العربية بالدور الذى قام به أفلوطين فى الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، وكما لقب أرسطو بالمعلم الأول فكذلك لقب الفارابى بالمعلم الثانى . وقد خلف الفارابى كتباً كثيرة جداً معظمها اقتباسات من أرسطو . أما آرائه الفلسفية ففيها شكوك كثيرة لا يرضى عنها أهل الإيمان ولكنها أعجبت أهل الغرب فترجموا الكثير من كتبه إلى اللاتينية ، وهذه يد كريمة نحملها له ، إنه واحد من أولئك الذين وضعوا الفكر العربى فى صميم الفكر الإنسانى ، والفارابى فى تاريخ الفكر الإنسانى شىء عظيم واسمه عندهم لاتينى الصورة الفارابيوس .

ولكننا نحن معاصر العرب والمسلمين نقرأ الفارابى ونشعر أنه بعيد عنا جداً ، فهو عقل عظيم فعلاً ولكن قلبه خال مما نسميه نحن ببشاشة الإسلام وعندما أقرأ كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » أحس أن هذا الرجل لم يقرأ القرآن قراءة تدبر مرة واحدة ولكنه قرأ كتب أفلاطون مرات ، وهو لا يعرف أمة الإسلام التى تقوم أساساً على القلوب ، وإذا كان الغزالي قد قال : القلب خارج عن ولاية الفقيه ، فإننى أسمح لنفسى بأن أقول : الإسلام خارج عن ولاية الفارابى وإن عقله لم يكن مسلماً لا ولا كان قلبه ، ونظريته فى النبوة ليست إسلامية ولا وجود للقرآن أو السنة فى فكره .

* * *

وندخل إلى عالم ابن سينا فنجد أنفسنا أمام رجل آخر كل ما فيه يحبه إليك ، فهو صورة إنسانية جميلة ظاهراً وباطناً وهو في داخل نفسه مسلم صادق يعرف القرآن معرفة جيدة حتى إن له في تفسيره مشاركة ، وهو فيلسوف بمعنى الكلمة يفكر تفكير الفلاسفة ويعيش حياة فيلسوف أبيقوري ، وهو يحب الحياة ويقبل عليها ويعيشها بكيانه كله وهو يؤدي صلواته ولكنه يجد متعة في شيء من الخمر وهو لا يخفى ذلك ولا يناقق ولا يتظاهر ولا يخدع نفسه أو الناس .

وابن سينا أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي قضى عمره كله ينتقل في نواحي إيران فلم يدخل بلاد العرب قط ولم يحج إلى بيت الله على قدر علمي إلا أنه أجمل مثال للفارسي المتعرب روحاً ومنطقاً ، ولد في قرية أخشنة قرب بخارى سنة (٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م) وتوفي في همذان سنة (٤٢٨ هـ) بعد حياة قصيرة لم تزد على ٥٧ سنة ولكنها كانت حياة رحة عميقة شاملة فقد نال الوزارة وتمتع بالسلطان والجاه ، ولكن هواه الحقيقي كان العلم ، وقد أعطانا السمرقندي في كتاب « جهار مقالة » أي المقالات الأربع صورة بديعة لفيلسوف عالم وزير يبدأ نهاره قبل الفجر فيكتب ما تيسر له حتى يرفع أذان الفجر فيصلي مع تلاميذه ويجلس إليهم بعد ذلك يعلمهم ثم يخرج إلى دار الوزارة في موكب يحيط به ألف فارس ويعود إلى بيته بعد ذلك فيتناول غداءه ثم يستريح بعض الوقت ويصحو فيصلي العصر ثم يمضي إلى أميره فيجالسه ويناديه حتى صلاة المغرب ويعود إلى بيته ليجتمع بتلاميذه حتى إذا فرغوا من القراءة حضر المغنون وتهيأ مجلس الشراب بآلاته .

وقد وهب الله هذا الإنسان الرفيع عقلاً من نور ونفساً من صفاء ، فأحاط بكل علوم عصره وألف شيئاً عظيماً جداً في كل فن ، وهو فيلسوف عظيم وطبيب أعظم وقد طبقت شهرته الآفاق في الطب ، وكتابه المعروف باسم القانون في الطب طبع في روما سنة ١٥٩٣ ، وكان قد ترجم إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر وطبعت هذه الترجمة في أوروبا أكثر من عشرين مرة وظل الكتاب يدرس في جامعات الغرب إلى القرن الثامن عشر وقد أحصى الأب جورج شحاته قنواتي من مؤلفاته ٢٧٦ رسالة وكتاباً تشمل كل فرع من فروع المعرفة ، وكتبه الرئيسية الثلاثة : الشفاء ، ومختصره المسمى بالنجاة ، والإشارات والتنبيهات موسوعات رفيعة المستوى . أما كتبه الإسلامية فمنها رسالة

التوحيد وإثبات النبوة ورسالة القضاء والقدر وقصيدة الجمانة الإلهية في التوحيد ، وكتاب الشفاء يتناول قضايا الفلسفة الكبرى : المنطق والرياضيات والطبيعات وإذا كان قد سار على نمط أرسطو في مبادئه وابتعد عنه في غاياته ومقاصده فمرد ذلك إلى نزعتة الأفلاطونية ورغبته في بناء فلسفة جديدة تجمع بين مبادئ الفلسفة اليونانية وأصول العقيدة الإسلامية (جميل صليبي : تاريخ الفلسفة العربية ص ٢١٤) .

وقد ساهم ابن سينا — أو أفيسينا كما عرفه أهل الغرب — في بناء الفكر العالمي بأوفر نصيب وهو من مفاخر الفكر الإسلامي وما زال مشهد موته يؤثر في نفوسنا إلى اليوم ، فقد كان الرجل شيخ الأطباء وشيخ المرضى في آن معاً لأن حب الحياة وإقباله عليها أصابه بداء القولنج وهو الالتهاب المزمن المتقترح للمصران الغليظ وقد عجز عن مداواته ، فلما أيقن باقتراب المنية اغتسل وتاب إلى الله وتصدق بماله على الفقراء وأعتق ممالিকে ثم أصابه نزيف حاد سقطت معه قوته وأسلم روحه لبارئها .

وننتقل إلى أقصى غرب مملكة الإسلام فنلقى حشدًا من أهل الفلسفة نقف منهم عند اثنين : ابن طفيل وابن رشد وهما أندلسيان .

فأما ابن طفيل فهو أبو بكر محمد بن عبد الملك القيسي (٤٩٤ - ٥٨١ هـ / ١١٠٠ - ١١٨٥ م) وأصله من وادي آش وهي مدينة جميلة في مداخل جبال البشارات شمالي غرناطة ويسمونها هناك جواد يتس ، ودرس الطب والفلسفة وله في الطب أرجوزة لم تطبع بعد ، أما شهرته فترجع إلى قصته الفلسفية المسماة بـ « حى بن يقظان » وهي حكاية طفل ولدته أميرة وأرادت التخلص منه فألقت به في جزيرة مهجورة من جزائر الهند وهناك تبنته غزالة فأرضعته حتى نما وأدرك وأخذ يفكر في أمر نفسه ثم التقى برجل فيلسوف زاهد يسمى أسال ، علمه الكلام والتفكير وما زال حى بن يقظان يتدرج في التفكير مرحلة بعد مرحلة في رعاية صاحبه أسال حتى وصل إلى العلم بالله ثم مضى مع أسال إلى عالم الناس فراعهم ما وجد من شقاء الناس لغلبة الشهوات الجسدية عليهم فتركهم على حالهم وعاد إلى جزيرته مع صاحبه فعاشا ينعمان بلذة العقل والإيمان والتحرر من الشهوات حتى أدركهما الموت .

قصة جميلة نابغة من قلب مسلم مؤمن يجد المتعة الكبرى في الوصول إلى الله عن طريق الفكر والاستنباط ولهذا فهي تسمى أسرار الفلسفة الإشراقية ، أى إشراق النفس

بنور الله ، وقد ترجمت إلى لغات العالم أجمع ، وقد قال فيها غرسيه خومس : إنها من أعظم المؤلفات التي أهداها الفكر العربى إلى الفكر العالمى ، أما أورتيجا أى جاست فيلسوف إسبانيا الأوحى فقال إنه بعد أن قرأ قصة حى بن يقظان فى ترجمتها الإسبانية ارتفع الفكر الإسلامى فى نظره درجات .

وننتقل إلى أبى الوليد محمد بن رشد الأشبيل (٥٢٦-٥٩٥ هـ / ١١٢٦-١١٩٨ م) الذى عاش فى ظل الموحدين مثله فى ذلك مثل أستاذه ابن طفيل ، ونحن مع ابن رشد نعيش مع فقيه مسلم متفلسف ألف فى الفقه الإسلامى كتاباً فريداً هو « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » ودافع عن الإسلام والعقيدة السمحة فى كتابه البديع « الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة وتعريف ما وقع فيها بحسب التأويل من الشبه المزيفة والبدع المضلة » ، وأشهر كتبه عندنا « فصل المقال وتقدير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » وهو أحسن ما ألف المسلمون فى التوفيق بين مذاهب الفلاسفة ومذاهب أهل الاعتقاد .

أما فى الفكر العالمى فابن رشد يسمى أفرويش وهو اسم عرف به عند أهل بلده من الأندلس فى حياته وسموه أفرويش وهو أعظم من درس فلسفة أرسطو ، وعكف على شرحها فى العصور الوسطى ، وهو شيخ أهل الغرب فيها ولم يقتصر جهده فى ميدان الفلسفة على شرح أرسطو ، بل هو فيلسوف أصيل وقد ترجمت كل مؤلفاته وشروحه الفلسفية إلى اللاتينية وعكف عليها أهل العلم والفكر يدرسونها هناك وكانت من أصول الدراسة فى جامعات باريس وكيمبردج وسالرنو ، فهو أستاذ من أساتذة الدنيا وشيخ من شيوخ الدنيا ، وفيه ألف إيرنست رينان كتاب « ابن رشد والرشدية » .

وقد شقى ابن رشد بالفلسفة فقد عاش فى عصر الموحدين (٥٢٦ - ٥٩٥ هـ / ١٢٢٦ - ١١٩٨ م) ورضى عنه الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن على ثانى خلفاء الموحدين وغضب عليه خليفته أبو يوسف يعقوب المنصور وتقرب بإيذائه إلى الفقهاء والجماهير فأمر به أن يوقف فى مجلس فسيح وأمر الناس أن يمروا به ويصقوا فى وجهه وهذا كان عندنا جزاء شيخ مؤمن غامر بنفسه حباً فى العلم وأوسع للفكر الإسلامى مكاناً رحباً فى تاريخ الفكر الإنسانى .

وحياة ابن رشد على هذه الصورة توجز مصائر أهل الفكر الحر فى عالمنا العربى غير السعيد ، وهو مصداق لما بدأت به هذه الفصول من أن القاعدة الجارية عندنا هى أنا أفكر فأننا غير موجود !!!

الصُوفيَّةُ : وَضْفَةُ شَغْبِيَّةٍ لِعِلَاجِ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ مِنْ حَالَةِ اكْتِنَابِ نَفْسٍ جَمَاعِيٍّ

التصوف داخل عالم الإسلام وخارجه ظاهرة نفسية وجدانية ، ومن ثم فما كان ينبغي أن يكون له مكان في بحثنا هذا عن تاريخ الفكر العربى ، ونحن مهما نقرأ من كتابات أعلام الصوفية في الإسلام من الحارث بن أسد المحاسبى إلى أبى حامد الغزالى ومحيى الدين بن عربى ، فإننا لن نجد فيها فكرًا بل عاطفة ووجدانًا ، وحتى إذا وجدنا فيها فكرًا فإنه فكر خاص لا يفهمه أو يستسيغه إلا الذين أوتوا بطبعهم ميلاً وجدانياً وتذوقاً روحياً يمكنهم من الاستمتاع بكتابات الصوفية ، وإدراك مغازيها ومضامينها وهذا يفسر لنا كيف أن أكبر من أحب الفكر الصوفى الإسلامى ودرسه وكتب عنه هو رجل إنجليزى من أهل اليسار رينولد ألن نيكلسون Renolad Allen Nickalson وكان أستاذًا للغات الشرقية وحضارة الإسلام في جامعة كيمبريدج ، وقد وهب معظم جهده لدراسة التصوف الإسلامى ، ومقدمته لكتاب « اللُّمَع » لأبى نصر السراج تدل على تذوق حقيقى لكلام صوفية المسلمين .

وقد نشر وترجم إلى الإنجليزية من كتب الصوفية المسلمين ما بين عربية وفارسية ما لم يدانه فيه أحد من المتخصصين في التصوف والفلسفة عندنا ، هذا والرجل إنجليزى مسيحى ولا يعلل شغفه بالتصوف الإسلامى إلا بأنه هو نفسه كان صاحب مزاج تصوفى ، وهذا المزاج هو الذى أعانه على تذوق كتابات السراج والعطاء وابن الفارض ومحمد إقبال وكانت في إقبال - فيلسوف الشعر الإسلامى المعاصر - نزعة صوفية ظاهرة ولكنى عندما رددت النظر في ظاهرة التصوف في عالم الإسلام تبينت أنها في مجموعها صورة من صور ردود الفعل التى نجمت عن الظروف السياسية والاجتماعية السيئة التى عاشت فيها شعوب أمة الإسلام من منتصف العصر الراشدى ، وهى ظروف جعلت تسوء عامًّا بعد عام فإذا كان المسلمون أنصاف تعساء في العصر الأموى فقد أصبحوا تعساء في العصر العباسى الأول ، وتعساء بؤساء في

العصر العباسى الثانى ، ثم تعساء بؤساء فقراء إلى بداية العصر العثمانى ، ثم تعساء بؤساء فقراء أشقياء بلا أمل فى النجاة إلى مطالع العصر الحديث .

وهذه الظروف السياسية والاجتماعية الاليمة التى عاشتها أمم الإسلام هى التى جعلتها كلها تدخل فى حالة نفسية عامة يمكن أن نسميها بالاكتئاب الجماعى - Eallac-tine de Jessian فلم يسلم من هذا الاكتئاب خليفة أو أمير أو خفير أو فقير ، فاما أهل القوة والغنى واليسار فقد التمسوا الخروج أو الهروب من حالة الاكتئاب هذه بإغراق أنفسهم فى بحار الخمر والقيان والنسوان ، وقد روينا فيما روينا حالة الخليفة المتوكل الذى أراد التخلص من القادة الأتراك الذين فرضوا سلطانهم عليه فدبر مؤامرة للفتك بهم ، وفى انتظار ساعة الصفر جلس مع ندمائه يشرب ويأكل حتى شرب أربعة عشر رطلاً أى كوباً من الخمر ، وفى سكرة الخمر قتله ابنه وتولى مكانه ، وإليك هنا حالة الخليفة القاهر العباسى (شوال ٣٢٠ — جمادى الأولى ٣٢٢ هـ / أكتوبر ٩٣٢ — مايو ٩٣٤ م) ، الذى خلع وخلفه المستكفى فأراد القاهر أن يغيظ خلفه فخرج يوماً ووقف بجامع المنصور يطلب الصدقة من الناس وقصد بذلك التشنيع على المستكفى ، فرآه بعض الهاشميين فمنعه من ذلك وأعطاه خمسمائة درهم ، ولما علم المستكفى بذلك منعه من الخروج وظل محبوساً إلى أن مات وذلك فى عهد الخليفة الطائع لله (٣٢٤ - ٣٦٣ هـ) (الفخرى لابن طباطبا ص ٢٤٩) فإن لم تكن هذه أحوال ناس مرضى نفسانيين فقل لى كيف يكون مرض النفس ؟

وإذا كان هذا هو حال الخلفاء فتصور أنت كيف كانت حال غير الخلفاء من عامة الناس ! حالة الاكتئاب الجماعى هذه هى التى أتاحت الفرصة للطامحين إلى السلطان وأذكياء المغامرين ليزعموا للجماهير المريضة بالبائسة أن الخلاص من مشاكلها لن يكون إلا على يد المهدي المنتظر ، وهو رجل من عترة المصطفى ﷺ يختاره الله سبحانه ويخرجه إلى الدنيا وقتما يشاء ليملا الدنيا عدلاً ، وهو الآن مستتر وهم وحدهم يعلمون أين يكون لأنهم دعائه ، وهم درجات وطبقات ، ولكى يكون الإنسان من السعداء الذين تشملهم نعمة المهدي لا بد أن يؤدى الزكاة إلى الدعاة ، والداعى يأخذ الزكاة ويدس فى جيبه ما يشاء ويعطى الباقي للذى فوقه ، فالذى فوقه وهكذا حتى لا يضل إلا عُشر المجموع إلى المهدي المنتظر المستتر بقرية تسمى سلمية من بلاد الشام .

فتصور أن مجموع ما كان يصل إلى المهدي المستتر هذا بعد كل تلك السرقات أصبح مع الزمن أكادسًا تملأ سراديب حفرها تحت الأرض يبلغ طول بعضها كيلو مترات وعمقها فوق العشرين متراً ، وشيئاً فشيئاً اتسعت شبكة الدعاة هؤلاء حتى شملت كل بلاد الدولة الإسلامية ؛ لأن عملية الدعوة أصبحت أكبر بزنس Business خلال القرن الهجري الثالث ، وفي نهايته سنة (٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م) ظهر المهدي المنتظر في القيروان في تونس بعد تمهيد طويل ، وسمى نفسه عبيد الله المهدي فإذا به لا هو بمهدي ولا هو بمنتظر ، وربما لم يكن من نسل الرسول قط ، وأول ما فعله هو أن قتل داعي دعائه أبا عبد الله الشيعي وأخاه أبا العباس المحظوم وبموتها ماتت أسرار الدعوة ومخازن أموالها وتلك هي الدولة الفاطمية التي أغرقت بلاد المغرب في الدماء قبل أن تنتقل إلى مصر سنة (٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م) أيام خليفتها الرابع وهو المعز لدين الله ، والمعز انتقل إلى مصر بخلافته وأهله وجنده حتى عظام أجداده ، فقد أبى له كرمه إلا أن يقدمها هدية لأهل مصر الذين حلت بهم السعادة بحلوله في أرضها ، ولكن أهم شيء حمله المعز إلى مصر هي أمواله وهذه لم يهبها إلى أهل مصر ؛ لأنها كانت قطاراً طويلاً من الجمال وكل جمل يحمل حجرى طاحون من الذهب الخالص وزنهما قنطار ، وهذه هي الطريقة العجيبة التي حمل بها هذا المعز قناطير الذهب التي تجمعت من أموال الزكاة والذي جمعه المعز وسلالته من أموال المصريين لم يسمع بمثله حتى أفلست مصر إفلاساً وعرفت المجاعة الكبرى أيام المستنصر وتلك هي نعمة المهدي المنتظر الذي قال فيه شاعر عظيم هو ابن هانيء :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وهو بيت من الشعر يدخل به ابن هانيء هذا جهنم من كل باب .

أما أهل السنة الذين اعتصموا بالقرآن والسنة فلم يجدوا لأنفسهم علاجاً هو أنجع من التجمع والجمود والعودة إلى الماضي على ما وصفناه .

وبقيت هنا وهناك نماذج قليلة من البشر لم يعجبها الحل الشيعي ولا أقنعها الحل السنّي ، وهذه اتجهت بنفوسها إلى الله مباشرة فهو سبحانه الشافي المعافي ، والطريق

الذى سلّكه إلى الله هو طريق الزهد والتخلّى عن الدنيا والاعتصام بالفقر ؛ لأن الفقير
المفلس لا يطمع فيه أحد فلا هو يخشى أن يعتدى عليه لص أو يقتله سلطان ، وهكذا
أصبح المفاليس سعاداء الدنيا وأكثرهم أماناً وأماناً ، وقد حكى التنوخى فى « نشور
المحاضرة » (مائدة الحديث) حكاية رجل ضاقت به الدنيا فركب حماره ووقف على
باب أحد الأغنياء وقال له : أبيعك نفسى فأكون عبداً رقيقاً لك وتطعمنى . فنظر الرجل
إليه وقال : لا ، ولكن آخذ الحمار فهو أنفع . فقال الرجل : وتأخذنى معه أخدمه .

فى أمان الفقر ووراء درع الزهد مضى أولئك الناس يلتمسون الطريق إلى الله ،
ولا بد أن نسلم أن هناك ناساً يفطّروهم الله على الشوق إلى المجهول والاتجاه إلى البحث
عن راحة النفس فى الزهد وتعذيب النفس ، فكما يوجد فى الهند والصين ناس يجدون
السعادة فى الخلوة والزهد وتعذيب النفس ، فقد عرفت المسيحية رجالاً مثل سمعان
العمودى الذى قضى معظم عمره قاعداً على رأس عمود رخامى يصلى لله ويتعبد من
فوقه وكأنه لم يكفه هذا فصار يطلى نفسه بالعسل حتى تزحف عليه جيوش النمل
والهوام ، وعندنا فى الإسلام وفى نفس القرن الثالث الذى ذكرناه رجل يسمى أبا سعيد
ابن أبى الخير علق نفسه من رجله بحبل وتدلّى فى بئر عامر بالهوام ووجد فى ذلك طريقاً
للسعادة والخلّاص . وهذا الطراز الفريد من الناس عرفوا عندنا بالصوفية قضوا
أعمارهم باحثين عن الطريق إلى الله ، وبعضهم وصل إلى الاتصال بالله فى زعمه دفعة
واحدة كأنما دعاهم الله سبحانه إلى نفسه ؛ وهؤلاء هم أصحاب الحالات أو الأحوال ،
وهم درجات لأنهم انتقلوا من حالة الجهل والحيرة إلى حالة العلم والرضا الإلهى ، والله
سبحانه ألقى فى قلوبهم العلم كله إلقاء نعمة منه وفضلاً ، ومثالهم المشهور لدينا هى
رابعة العدوية البصرية وهى أم الخير رابعة بنت إسماعيل مولاة آل عتيك التى كانت
حية ترزق سنة (١٨٥ هـ / ٨٠١ م) ، وكانت تهيم فى وديان الضلال حتى هبطت
عليها رحمة الله فزهدت فى الدنيا واعتزلت الناس ، ثم أصبحت من أصحاب الأحوال
ورزقها الله العلم كله وأجرى على لسانها الشعر الجميل فى العشق الإلهى ، وروى
الناس عنها شعراً جميلاً لانعرف إن كانت قد قالت حقاً أم هو نسب إليها مثل قولها
تخاطب الله سبحانه وتعالى :

أحبك حبين : حب الهوى وحبك ، لأنك أهل لـذاكـا
فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عن سواك

وأما الذى أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراكـ

فلا الحمـد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمـد فى ذا وذاكـ

والوصول إلى هذه « الحالة » مفاجأة تعتبر عندهم نعمة الله الكبرى ، فيدخلون فى حالة « الوجد » التى تجعلهم لا يجدون لذة إلا فى الزهد والبعد عن الناس والنشوة بالوجد أى الحب الإلهى ، ومن الأمثلة الدرامية لذلك حكاية رجل يسمى جعفر بن حرب المتوفى سنة (٣٤٨ هـ / ٩٥٩ م) وكان فى نعمة كبيرة ، فإذا هو ذات يوم يجتاز الشارع فى موكبه إذ سمع قارئاً يقرأ قول الله سبحانه ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ . فصاح : بلى والله قد آن ! ونزل عن دابته وفرق جميع أمواله ولزم العبادة حتى مات ، وفى نفس السنة توفى عالم زاهد كان يصوم الدهر ويفطر كل ليلة على رغيف ويترك منه لقمة ، فإذا كانت ليلة الجمعة تصدق بذلك الرغيف وأكل كل تلك اللقم التى استفضلها (شوقى ضيف ، تاريخ الأدب العربى ٢٦٩ / ٥) ، ومثل ذلك كثير جداً فى كتب الصوفية وطبقاتهم .

وهناك نفر آخر من أهل الزهد والتصوف ، أى لبس الصوف لا تنزل بهم نعمة الوجد نزولاً مفاجئاً دون تعب ، ولا بد أن يشقوا طريقهم إليها ، وينتقلوا وهم فى الطريق وحياة الزهد من درجة إلى درجة حتى يصل إلى الوجد أو الإشراق أى إشراق النفس بنور الله ، وهو عندهم الوصول إلى الله وصاحبه يسمى الواصل ، وتلك الدرجات عندهم تسمى المقامات ولهذا فهم أصحاب المقامات وأولها عندهم مقام الورع ثم مقام الزهد ثم الفقر ثم الصبر ثم المراقبة ثم الرضا ثم القرب ، ومن القرب ينتقل السعيد منهم إلى حال المحبة أى محبة الله ، وكل هذه مصطلحات أخذوها من ألفاظ القرآن الكريم وبينهم خلاف فى ترتيبها .

وأول من نعرفه من أصحاب المقامات هؤلاء هو ذو النون المصرى ، وهو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم المتوفى سنة (٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م) ، وهو من أهل أخميم من صعيد مصر ، وهو أول من نسمع أن اسمه ذو النون من المسلمين ، والأغلب أن جداً من أجداده الأقباط هو الذى أسلم وكان اسمه زنون Zenon وهو اسم علم إغريقى معروف ، فإذا صدق هذا الحدس فيكون ذو النون المصرى سلباً متأخراً من قوم أنطونيوس المصرى الذى تقرر كتب التاريخ أنه ابتكر الرهبنة وأدخلها المسيحية ،

والرهينة كانت عندهم الانخلاع عن الدنيا والخروج إلى البرية لمحاربة الشيطان عدو الله ومسكنه البرية أى الصحراء ، وأنطونيوس انتصر على الخوف من الشيطان وخرج إلى الصحراء ليغزوه في عقر داره ، والقصة كلها مروية في كتاب لاتينى يسمى حياة أنطونيوس Vite Antamii ، وأنطونيوس المصرى هذا لقى في إحدى جولاته في الصحراء الأنبا بولا السواح أى الجوال في الأرض في مواجهة عدو الله إبليس .

وعلى هذا فلا يكون ذو النون المصرى قد طفر من فراغ بل هو مواصل لتقليد مصرى قديم له قواعد وتقاليده ، لأن رجلاً آخر من أقباط مصر هو الأنبا باخوميوس ابتكر فكرة الأديرة ، أى الانقطاع في الصحراء لمحاربة الشيطان جماعة فنشأت الأديرة التى أصبحت تقليداً مسيحياً عظيماً ، وباخوميوس وضع للديارين أو سكان الدير نظاماً في الحياة والعبادة ، وذو النون المصرى يبدو لنا كأنه صدى بعيد لذلك كله .

وإذا كان الزهد والتصوف - تاريخياً - رد فعل لحالة اليأس والكآبة التى كانت أمة الإسلام تعيشها خلال العصر العباسى خاصة ، فإن ذا النون كان أول من تكلم عن المعرفة الصوفية التى تأتى إلى الإنسان من الله قذفاً في القلب دون دراسة أو عناء ، فهى معرفة تتأتى لصاحبها نتيجة للخلوة الطويلة والزهد في الدنيا والرياضات الصوفية ، فهى إذن معرفة يلقىها الله في قلب المؤمن ، فالله سبحانه يكشف عن قلبه الحجاب ويطلعه على العلوم كلها فهى معرفة باطنة ولها أحوال ومقامات ، وقد سئل ذو النون : كيف عرفت ربك ؟ فقال : عرفت ربى بربى ، ولولا ربى ما عرفت ربى ، وكان ذو النون يرى أن الوصول إلى الوجد والمعرفة الإلهية فضل يؤتيه الله لمن يشاء بعد أن يتأهل لذلك بالصبر والعبادة وانكسار النفس ، وهى لهذا امتياز مقصور على الذين يستحقونه ، ومن ثم فلا يجوز أن تتكشف أسرار الصوفية لكل الزهاد .

ويجىء أبو يزيد البسطامى (ت ٢٦١ هـ / ٨٧٥ م) وهو أبو يزيد طيفور بن عيسى بن آدم ، وهو فارسى من أهل بسطام في خراسان ، فيمضى بالفكر الصوفى خطوة أخرى في طريق الرياضات الدينية فيقول : إن الإنسان إذا استمر في المجاهدة وكان صادقاً في زهده وحبه لله فנית ذاته في ذات الله وأصبح هو والله شيئاً واحداً ، وانتشر مذهبه هذا بين متصوفة الفرس حتى أصبح بطلاً قومياً ونسبوا إليه معراجاً روحياً إلى السماء فاقترب من العرش واستضاء بأنواره وذاع صيته بين الأتراك

العثمانيين في العصر الأول من عصور تاريخهم ، وهو عصر الغزاة ، فتبرك باسمه رابع سلاطينهم وهو بايزيد وهو في التركية بايازيت ، وأخذ نفس الاسم سلطانهم الثامن وهو بايازيت الثاني ، وعلى يديه أصبح للصوفية لغتهم الخاصة التي ينفردون بها مثل قوله : للخلق أحوال ولا حال للعارف لأنه محيت رسومه وفنيت هويته بهوية غيره ، وغيب آثاره بآثار غيره و « غيره » هذا هو الله سبحانه ، وفي مثل هذا الكلام نرى كيف أن التصوف شفى نفسه من حالة الكآبة بنسيان نفسه وفقدان شخصيته واتخاذ شخصية أخرى تعيش في عالم آخر بعيد عن عالم الناس وهو عالم الوجد الصوفي ، ومصداق ذلك قوله : منذ ثلاثين سنة كان الحق مرأتى ، فصرت اليوم مرآة نفسى لأننى لست الآن من كنت ، ومثل هذا الكلام كان يصدر عن أبى يزيد في حالة من حالات غيبوبته عن الدنيا والواقع .

وفي نفس طريق المجاهدة الصوفية سار الجنيد (ت ٢٩٧ هـ / ٩١٢ م) وهو أبو القاسم الجنيد بن محمد ، وهو فارسي سنى من أهل نهاوند ، وكان يرى أن الصوفى لا ينبغي أن ينقطع عن الدرس والعلم انتظاراً للعلم اللدنى ، الذى يأتى من لدنه أى من عند الله قذفاً في القلب ، وليس هذا بغريب ؛ لأن الجنيد كان فقيهاً واسع العلم وقد ذهب إلى أن الصوفى يصل إلى الفناء في ذات الله عن طريق الرياضات والمجاهدات والزهد في الدنيا مع الإقبال على العلم .

وفي حلقة الجنيد ظهر الحلاج ، وهو أبو مغيث الحسين بن منصور (٢٤٤ - ٣١١ هـ / ٨٥٨ - ٩٢٢ م) ، وهو فارسي من أهل البيضاء قرب اصطخى وقد ذهب مع مذهب الاتحاد بالله عن طريق المجاهدات والخلوات والسياسة في الأرض إلى درجة لم يسبقه إليها غيره فقد كان فيما يبدو يعانى من اضطراب شديد نفسى جعله يهيم في وديان بعيدة من التخيل المريض ، وصار يقول عبارات مثل : أنا الحق أى أنا الله ، وقد قضى عمره يتجول في الأرض وحج مرتين ، وأمثال هؤلاء الناس من أهل التخريف الذى نسميه بالشطح يفتنون الجماهير بما يقولون من عبارات تجمع بين الجنون والحكمة ، وهو الصورة الخالدة في تاريخ الفكر العربى للمجذوب الشعبى الذى يستولى على ألباب العوام فينسبون إليه الكرامات والخوارق ، وقد تبرأ منه شيخه الجنيد ، وقد وصل في بعض سياحاته إلى الهند وأخذ عن مجازيبيها أعمالاً عجيبية تشبه السحر فافتتنت به

الجماهير فأسرف في شطحاته ليستزيد من إعجاب الجماهير وقد بلغ به ذلك مبلغاً جعله يقول أشياء تخرجه عن الإسلام جملة ، وهذا هو الذى أخاف الدولة وأهل السنة منه خاصة وقد كانت له قدرة على صياغة أشعار غريبة تطير في الناس طيراناً مثل قوله يخاطب الله سبحانه :

مزجت روحك في روحي كما تمزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسك شيء مسني فإذا أنت أنا في كل حال

ولا ندرى إن كان الحلاج قد وصل به الهياج النفسى إلى الدرجة التى أخرجته عن الإسلام فجعل يقول : إن روح الله سبحانه حلت فيه ، ولكن الذى لا شك فيه هو أن الرجل وصل به الوجد إلى درجة جعلته أشبه بصورة السيد المسيح في أخريات أيامه ، وهنا أفتى الفقهاء بكفره وقبض عليه رجال الدولة وحاكموه وحكموا بموته ونفذوا الحكم فيه على ملا من الناس .

وفي موقف الموت كان الحلاج لا يخشى الصلب حيًا ، فنظر إلى خشبة الصلب والمسامير التى ستدق في جسده وقال : هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلى توصيًا لدينك وتقربًا إليك فاغفر لهم ، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لى لما فعلوا ما فعلوا ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت ، وهى عبارة جعلت المستشرق الفرنسى لوى ماسينيون يرى أن أبا منصور الحلاج قد تسامى به الوجد حتى وصل به إلى لباب المسيحية بل المسيح نفسه ، فأمضى سنوات طويلة من عمره يجمع أخبار الحلاج وأشعاره وكتب كتابه المشهور « محنة الحلاج » Lapassiomdap Happay وهو كتاب جليل الظاهر خبيث الباطن .

ومن حسن الحظ أن غالبية أهل التصوف لم يصل بهم الهرب من الواقع الكئيب إلى هذا الحد ، فظلوا في موقف وسط بين العلم والوجد الصوفي الذى هو في الحقيقة هروب من الواقع ، وعلى هذا المذهب سار القشيري أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن وهو عربى (٣٧٦ — ٤٦٥ هـ / ١٠٦٨ م) ورسالته المنسوبة إليه (القشيرية) مزاج مقبول من العلم والتصوف وهى تعود بنا إلى الخط المأمون : خط المحاسبى ومن سار في طريقه حتى نصل في النهاية إلى أبى حامد الغزالي وهو أجمل صورة وصل إليها التصوف الإسلامى ، فهو تصوف عاقل يقوم تصوفه على العلم الواسع والفقہ الحسن

مع الزهد في الدنيا والتماس الصفاء النفسى عن طريق التعبد والرياضات ودره أعماله وهو « إحياء علوم الدين » كتاب علم وتصوف في آن واحد .

ولكن مفكرًا مسلمًا آخر هو ابن عربى لم يستطع الوقوف عند هذا الحد المأمون الذى وقف عنده الغزالي ، وهو أبو بكر محمد بن على بن عربى (٥٦٠ - ٦٣٦ هـ / ١١٦٤ - ١٢٤٠ م) وهو أندلسى من أهل مرسية نشأ في بيت عربى قديم ودرس القرآن والسنة والفقه على يد أعلام بلده ، ولكن مزاجه العصبى الشديد الحساسية مال به إلى طريق التصوف ، وجدير بالذكر أن العصر الذى عاش فيه ابن عربى كان عصر المحنة الأندلسية الكبرى التى وصلت إلى ذروتها في أواخر العصر الموحدى وهو العصر الذى عاش فيه ابن عربى ، لقد وصل ابن عربى في مجال العلوم الدينية إلى أرفع الدرجات ولكن مزاجه الخاص مال به إلى الزهد والتقشف والسياسة في الأرض فخرج عن الواقع تمامًا ، وأصبح يعيش في عالم روحى وجدانى منفصل عن الدنيا ، وفي سياحاته اكتسب علمًا كثيرًا ومر بأحوال صوفية متوالية ، فتصور أنه لقي الخضر وهو نبي خيالي خالد لا يموت لا نزال نراه في أخبار الفقهاء ، والصوفية يقولون : إنه عبد الله الذى لقيه موسى عليه السلام ، وفي ليلة من الليالي تصور محيى الدين بن عربى أنه تزوج زوجًا صوفيًا بكل نجوم السماء ، وفي سياحاته مر بمصر وآسيا الصغرى وبلاد الروم ، وقد حج ابن عربى أكثر من مرة وخلف وراءه تراثًا من الأدب الصوفى جليلاً ، وكتابه الأشهر « الفتوحات المكية » كتاب فقه وتصوف في نفس الوقت لأن ابن عربى لم يفقد أبدًا الاتصال بالحقائق الإسلامية الكبرى ولكن اللغة التى كان يستعملها في نشره وشعره جعلته يقول أحيانًا كلامًا يتصور معه قارئه أنه مسلم مسيحي ، وهذا هو الذى فتن فيه عالمًا إسبانيًا جليلاً من أهل الاستشراق وهو ميجيل آسين بلاتيس Mi-guil Asin Papadis الذى ذكرناه في حديثنا عن الغزالي فأطال دراسة حياته وكتبه وكتب فيه كتبًا أجملها « الإسلام في ثوب نصرانى » .

وابن عربى يعتبر من المفكرين العرب الذين دخلوا ميدان الفكر العالمى ، فإن أهل الغرب أعجبوا به بفضل ما كتب عنه آسين بلاتيس .

وفي ظروف الفوضى وانعدام الأمان التى عمت بلاد الإسلام جميعًا خلال القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى وما بعده ساد جماهير المسلمين شعور

شامل بالخوف وانعدام الأمان على النفس والمال ، وانتشر الفقر نتيجة لجشع الحكام في أموال الناس ، واشتدت على الناس وطأة الكآبة وخاصة عندما ترامت إليهم أخبار تغلب النصارى على معظم الأندلس الإسلامى وجرو الروم البيزنطيون على بلاد الإسلام فاجتاحوا شمال الشام والجزيرة العراقية ، واستبد الخوف بجماهير الناس فلم يعد الهروب من الحياة والانخلاع عن الدنيا كافياً لعلاج حالة الضياع التى كانت تتزايد مع السنين ، وهنا برز من صفوف الصوفية رجل فريد في بابه هو أحمد الرفاعى (٥١٢ - ٥٧٨ هـ / ١٦١٨ - ١٦٨٢ م) وحياته تبدو لنا وكأنها رمز على اتجاه جديد في تاريخ الحركة الصوفية في بلاد الإسلام ، فقد ولد بقرية تسمى أم عبيدة من أعمال واسط في العراق الأوسط ، وهو منسوب إلى جده السابع رفاعه وهو ينتسب إلى جماعة من أشراف الحجاز ، وقد هاجر جده رفاعه من الحجاز إلى المغرب ثم الأندلس وهناك شهد محنة الإسلام الأندلسى ثم عاد إلى مكة وفيها ولد أبو الحسن والد أحمد الرفاعى ومنها هاجر إلى البصرة ثم إلى أم عبيدة حيث والد أحمد بن أبى الحسن الرفاعى ، ونشأ أحمد في كنف خاله شيخ الطريقة البطائحية فدخل الطريق وأخذ العهد ولبس الخرقة على يد خاله ، والعهد كان عقدًا شفويًا بين الشيخ والمريد يتعهد فيه المريد بأن يدخل في طاعة الشيخ ويتبع طريقته في العبادات والمجاهدات حتى إذا رأى الشيخ منه جدًا في العبادة واستعدادًا للسير في طريق الصوفية ألبسه الخرقة ، وهى ثوب من قماش غليظ لا يخلعها المريد بعد ذلك ويترقى في مراتب الصوفية من درجة إلى درجة حتى يصل إلى مشيخة زاوية ، وقد يصل بعد ذلك في مقامات الصوفية إلى الإمامة ثم القطبية ، وكانوا يقولون: إن عمار الدنيا يقوم على أقطاب يكرمهم الله بالولاية والقدرة على الإتيان بالكرامات أى خوارق الأعمال ويكونون أوتاد الأرض ، وللاقطاب أبدال أى رجال مرشحون لوراثة القطبية إذا مات أحد الأقطاب ، ونشأ أحمد الرفاعى فقيهاً عالماً فلم يقنع بالانتظار حتى يلقى الله في قلبه العلم كرمًا منه وفضلاً فدرس وتفقه وصار يأمر أصحابه بتوقير العلم والعلماء ، ونهى الصوفية عن التبطل والعيش على إحسان الناس ولم يقبل بين مريديه إلا صاحب حرفة يعيش منها ومن لم يكن صاحب حرفة استحثه على تعلم حرفة يعيش منها ، وحفز مريديه على العمل في خدمة الناس ، والتجمع في الليل في زواياهم حيث يقومون بأورادهم وأذكارهم جماعة فانتشرت زوايا الرفاعية وكثر

مريدوها وأصبحت كل زاوية مركزاً لنشاط اجتماعي واسع في خدمة الناس ، واشتهر
عنه قوله : طريقى دين بلا بدعة ، وهمة بلا كسل ، وعمل بلا رياء ، وقلب بلا رياء ،
ونفس بلا شهوة ، وكان ينفق وقته في خدمة الناس ويقول : « إن تجارتي خدمة النساء
والأرامل واليتامى ، وأحب أن أشهد نفسى في خدمتهم دائماً ، وإذا رأيت يتيمًا يبكى
تهتز مفاصلى وترتعد أعضائى حناناً له ، وشفقة عليه وأخاف من بكائه » .

* * *

الفكر العربى يذخل العصر الحجرى

من أوائل القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ينتاب أهل العلم فى العالم الإسلامى فزع شامل مصدره إحساس عام بأن الدنيا فى انتظار قارعة تكون إنذاراً بقيام الساعة . فالاندلس - درع عالم الإسلام من ناحية الغرب - قد تهدم والطوفان وصل حدود مملكة غرناطة ، وهى فى طريقها إلى الزوال والمد الصليبي الإسبانى البرتغالى وصل إلى بلاد المغرب ودولة المرينيين هناك تصدعت ، وانتقلت مسئولية الدفاع عن الغرب الإسلامى إلى جماعات الصوفية المجاهدة التى أشرنا إليها فى الفصل السابق والزوايا المغربية أصبحت حصون الإسلام ، وجماعات الصوفية أصبحوا جنده والطريق يتمهد لقيام أولى دول الشرفاء فى المغرب الأقصى ، وهى دولة السعديين الأشراف الحسينيين وأولهم أبو عبد الله محمد المهدي بن القاسم (٩٥٥ - ٩٦٤ هـ / ١٥٤٨ - ١٥٥٧ م) .

أما على أطراف العالم الإسلامى الشرقية فالصورة أشد قتامة ، والسحب تتجمع والنذر تتوالى فهناك فى غربى إيران وخراسان وما وراء النهر وطخارستان وخرجستان وهى بلاد الأفغان الحالية كانت الأمور استقرت على وضع قلق ولكنه معقول ، فالبلاد تقاسمها أمراء إقطاعيون يتميزون بصلاح وحرص على الإسلام ، وكانوا جميعاً أتراكاً من جماعات الأوزبك الذين سينتسب إليهم مماليك مصر والشام ، وكانوا أهل سنة فيهم حب للعلم والخير ، وحبهم للعلم حفزهم على الإكثار من إنشاء الرباطات للصوفية المجاهدين ، وكانوا مجاهدين حقاً ، ثم المدارس لتعليم آلهم وأولادهم العربية والقرآن والسنة وكانت تقع بينهم الحروب .

ولكنهم كانوا يتحدثون معاً ساعة الخطر وإلى شمالهم - شمالى نهر جيحون - كانت تنزل قبائل الأتراك الخطا ، وكانوا مسلمين وبلادهم كانت غطاء يحمى بلاد الإسلام ، ومن إحدى مدنها وهى فاراب ظهر أبو نصر الفارابى الذى تحدثنا عنه آنفاً .

ولدينا عن أحوال ذلك الطرف الشرقى لبلاد الإسلام معلومات قيمة أتانا بها عالم مسلم من أهل النصف الثانى من القرن السادس وأوائل النصف الأول من القرن

السابع الهجرى هو ياقوت الحموى (٥٧٥ — ٦٢٦ هـ / ١١٧٩ — ١٢٤٩ م) وهو بشخصيته ونشاطه واهتماماته يعتبر رمزاً على أهل العلم في ذلك العصر ، فهو رومى من بلاد الدولة البيزنطية في آسية الصغرى ، أسره المسلمون صغيراً وصار إلى ملكية تاجر من حلب فسماه ياقوتاً وأصبح اسمه ياقوت الرومى الحلبى ، وظهرت منه نجابة فأقبل يدرس العربية والدين والحساب ؛ فأعجب به سيده وأعتقه وجعله شريكاً له في متجره ، ولكن ياقوتاً كان ذا ميل إلى العلم عظيم فمضى يدرس ويقرأ ويلتهم الكتب التهاماً واستعرب الرجل روحاً وإحساساً فسمى نفسه شهاب الدين أبا عبد الله يعقوب ابن عبد الله الحموى ، وانتابه خوف داخل على مصير أمة الإسلام فمضى يجوب بلادها من حدود الهند إلى مصر ، وفي سنة (٦١٥ هـ / ١٢١٨ م) كان في مرو يقرأ في مكباتها الكثيرة وكان قد شرع في تأليف كتابه الأشهر « معجم البلدان » ، وهناك بلغته أخبار اجتياح جموع المغول شرق الدولة الإسلامية واستيلائهم على سمرقند وبخارى وبلاد ما وراء النهر ، فحمل المسكين كتبه وأوراقه وفر أمام الزحف المغولى حتى وصل إلى حلب ، وهناك لقي كرامة من الوزير ابن القفطى ؛ فاستقر في كنفه ومضى يكمل معجمه ثم نهض مرة أخرى فجاب بلاد الإسلام وعاد إلى حلب فاتم كتابه معجم البلدان ثم أتبعه بمعجم الأدباء وتوفى في (٢٠ رمضان ٦٢٦ هـ / ٢٠ أغسطس ١٢٤٩ م) مخلفاً لنا ذخيرين من أجل ما تفخر به مكتبة الحضارة العالمية ، واحد هو معجم أبجدى لكل بلاد الدنيا مع مقدمات ودراسات غاية في القيمة العلمية ، والثانى قاموس أبجدى بأعلام العلم في تاريخ الإسلام ، وقد افتتح الرجل بذلك عصر الموسوعات في تاريخ الفكر العربى ، وما الذى جعل ياقوت الحموى يجتهد هذا الاجتهاد في عمل هذين السجلين العظيمين عن بلاد الإسلام وتاريخها العلمى ؟

السبب فيما أرى كان شعوراً خفياً بأن العاصفة المغولية التى فر أمامها هى القارعة المنذرة بالويلات لأمة الإسلام ، وكانت كارثة الأندلس في ذهن هذا الرجل وهو يكتب ففى كتاباته عن بلاد ما وراء النهر وما كان فيها من عمران إسلامى ثم ما أصابها من التخريب بعد ذلك ، وأسباب ذلك البلاء في ذلك ما يؤكد لنا إحساس هذا الرجل بذلك البلاء القادم وحرصه على أن يترك لنا صورة جغرافية وحضارية لعالم الإسلام قبل قيام الساعة .

فقد كان الرجل كما قلنا في مرو على نهر سيجون عندما أُنْباء اقتحام المغول بلاد الإسلام فاستمع إليه يصف الناس أى أفراد الأمة ، في بلاد خراسان وما وراء النهر « في أهل هذه البلاد عدل حقيقى وبقية من عدل العمرين وأهلها صالحون وعلى الخير مجبولون » وهو يقول إن « اسبيجاب (شمالى ما وراء النهر) والطالقان ومرو وساوة ، كانت إذ ذاك من أعمار بلاد الله وأنزها وأوسعها خصباً وشجراً ومياهها ورياضاً مزدهرة » (معجم البلدان : ١ / ١٧٩ ، ٤ / ٧ ، ٥ / ١١٤) .

أما حكام البلاد فلا يعجبونه فهم على العادة أهل ظلم وشر ، وهو يقول : إن خراب بلاد كرمان مثلاً (جنوب خراسان) خربت باختلاف الأيدى عليها ، أما بلاد العراق فقد تخربت بسبب مداومة العساكر السلجوقية ومرورهم عليها ونزولهم فيها .. وخلاف السلاطين وقتال بعضهم بعضاً إذ كان كل من ملك لا يحتفل بالعمارة إذ كان غرضه أن يحوصل (يملاً حوصلته) ويطير فجلاً عنه أهله واستمر خرابه (ياقوت ١ / ٤٩٦ ، ٤ / ٤٥٤ ، ٥ / ٣٢٥) .

وقد ذكرت لك أن خبر دخول التتار في بلاد الإسلام وصل ياقوت وهو في مرو سنة (٦١٦ هـ / ١٢٢٠ م) وقد أقام فيها ثلاثة أعوام كانت من أجمل فترات عمره لما في أهلها من طيب الخلق وحسن العشرة وهو يقول : إنه فارقها وفيها عشر خزائن للوقف (خزائن كتب أى مكتبات) لم أر مثلاً جودة وكثرة وهو يعد فيها أربع مدارس وعدداً عظيماً من الخانقاوات « التكايا » ويضيف أن كتب هذه المكتبات والمدارس والتكايا كانت تعار لمن أراد بدون رهن .

وهذه المدارس والتكايا انتشرت انتشاراً واسعاً في عالم الإسلام كله حتى عد المقيزى من مدارس القاهرة ما يزيد على أربعين كلها تدرس نفس العلوم : الحديث والفقه واللغة ولكل منها أوقاف واسعة وشيخ المدرسة يكون في نفس الوقت ناظر الوقف وهو صاحب التصرف في أمواله ، فكانت مشيخات المدارس موضع تنافس الشيوخ وتقاتلهم ، ومن هنا فإن كثرة المدارس والمشيخات ونظارات الأوقاف أصبحت ميادين قتال بين العلماء والسلاطين استخدموا تلك الوظائف للسيطرة على العلماء .

وهاتان حقيقتان أحب أن ننتبه إليهما : الأولى أن العلم تجمد وأصبح كتباً مكررة في نفس الموضوعات تحت عناوانات مختلفة ، والعلماء تحول جهدهم من الطلب الحقيقى

إلى طلب الوظائف ومشیخات الأوقاف ، فقلَّت الكتب الجديدة حتى أصبحت نادرة ، وقل العلماء الصالحون الذين عصمهم الله من فتنه الوظائف وأموال الأوقاف ؛ حتى أصبحوا نواذر ، والسبب في ذلك واضح وهو أن العلم في كل زمان ومكان لا يتقدم إلا في عصور الرخاء والعدل والحرية ، أما مع الظلم والاستبداد فلا يكون علم أو خير أبدًا ، وما دامت حركة الحياة قد بطأت كما يبطؤ نبض الحيوان نائم الشتاء فقد تجمد العلم أيضًا ولم يصبح العلم فكرًا بل حفظًا ، وكبار علماء العصر السابع الهجري وما بعده أصبحوا يسمون الحفاظ ، وبعضهم كان يحفظ مكتبة كاملة وأنت تذكر بالطبع ما كانوا يحكونه عن أهل الصين القدماء من أنهم كانوا يضعون رجل البنث في قالب من حديد فيتوقف نمو الرجلين ، فأذكر هنا أن نظم الحكم الجامدة الظالمة كانت قوالب من حديد وضع فيها الفكر العربي فوقف نموه ، وتستطيع أن تقول : إن الفكر العربي كله وضع في فريزر ضخم محافظة عليه من الضياع فجمد حيث وضع وما دام العلم قد أصبح حفظًا واستظهارًا فقد فقد روحه وطلاوته وأصبح الشيوخ - إلا من عصم ربك - نسخًا بعضهم من بعض ، وكل منهم أصبح خزانة كتب متنقلة وكل منهم وقف يرقب الآخر ويحصى عليه خطأ في كلمة أو حديث أو رواية ، فبدأت ظاهرة تستطيع أن تسميها الحرب الأهلية بين العلماء ، واجتهد كل منهم في تجريح غيره وتركيزه نفسه لكي يفوز بالمشیخات ووظائف التدريس وأموال الأوقاف ، ومن هنا فإننا نشهد للعلم وأهله من القرن السابع فما بعده منظرًا لا يروق ولا يسعد أبدًا ، وهذا حكم عام وله استثناءات كثيرة مسعدة وأحب أن أبدأ بها هنا حتى لا تضيق نفس القارئ بما ترى من مظاهر حرب العلماء مع بعضهم وتدهورهم في النهاية .

* * *

أقول : إن عصور الحفاظ أو خزائن الكتب الحية هذه لم تخل من نماذج جلييلة جديرة بكل تقدير ، وأبدأ هنا بذكر الشيخ محيى الدين النووى المتوفى سنة (٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م) وهو أحفظ أهل زمانه بلا ريب فقد حفظ القرآن الكريم وتفسير الطبرى وحفظ كتب الحديث الستة الرئيسية البخارى ومسلم ومسنند أحمد وسنن أبى داود

وسنن ابن ماجة وسنن النسائي بشروحها هذا إلى عدد كبير من كتب الفقه والأدب حتى أصبح هذا الشيخ الجليل خزانة كتب متنقلة ، ولكن الذى ميزه عن غيره هو التزامه بواجب العلماء في توجيه أهل الحكم إلى الطريق السوى وشجاعته الباهرة في ذلك الميدان ، وقد عاش الرجل في عصر الظاهر بيبرس ثانى سلاطين المماليك البحرية وهو عصر العلماء الكبار ومشاهير أولياء الله ، وأشهر من نذكره منهم عز الدين بن عبد السلام ، والسيد أحمد البدوي الولي المشهور بمصر ، فكان النووي أشجع العلماء في مواجهة السلطان بيبرس وأجراهم عليه وهو في هذا المجال يفوق عز الدين بن عبد السلام بمراحل ، فقد نطق بالحق عندما سكت عنه عز الدين بن عبد السلام رغم دعواه العريضة في ذلك ، فقد كان ابن عبد السلام شيخاً كثير الدعوة لنفسه يتظاهر بالجرأة في الحق وله في ذلك مواقف كثيرة ولكنه في الحقيقة كان من فقهاء السلطنة ، وقد غطى بدعواه العريضة على شيوخ أجلاء ربما كانوا أعلم منه وأتقى وأشجع ، وأكبر الأمثلة على ذلك الفقيه المصرى تقى الدين بن دقيق العيد فقد ضايقه عز الدين بن عبد السلام وزاحمه في بلده مصر ، ووجد ابن دقيق العيد الفقيه الجليل أن يترك الميدان لابن عبد السلام ويلزم بلده قوص .

وقد كان الظاهر بيبرس رغم اتساع ملكه في حاجة دائمة إلى المال ؛ لأنه كان يكثر من شراء غلمان الأتراك لكى يستعين بهم في حروبه ضد بقايا الصليبيين ، ولكى ينشئ لنفسه عزوة وقوة عسكرية خاصة به ، وكان لهذا يشد على الناس في جمع الأموال ، وكان عز الدين بن عبد السلام يقر الظاهر بيبرس على الكثير من ذلك ، أما النووي فكان لا يتردد في الكتابة إلى السلطان دفاعاً عن الناس ، وقد احتفظ لنا السيوطى في كتاب « حسن المحاضرة » بالكثير من نصوص تلك الخطابات ، وتقرأ في أحدها أن السلطان بيبرس عندما اشتت في فرض الجبايات على أهل الشام كتب إليه الإمام النووي يقول : « إن أهل الشام من هذه السنة في ضيق وضعف حال بسبب قلة الأمطار وغلاء الأسعار وقلة الغلات والنبات وهلاك المواشى وأنتم تعلمون أنه تجب الشفقة على الرعية ، ونصيحتي (أى نصيحة السلطان) في مصلحته ومصلحتهم (مصلحة الرعية) » .

وقد غضب الظاهر بيبرس من كلام النووي واستنكره ، فهاجم العلماء وغيرهم بسكوتهم عن نصيحة طغاة التتار عندما كانوا سادة شمال الشام ، وأخذ يهدد العلماء

بالعقاب إذا هم لم يكفوا عن الاعتراض عليه ، فيكتب إليه النووى يقول : وأما ما ذكر في الجواب (جواب السلطان) أننا لم ننكر على الكفار كيف كانوا في البلاد ، فكيف يقاس ملوك الإسلام وأهل الإيمان وأهل القرآن بطغاة الكفار ، وبأى شيء كنا نذكر طغاة الكفار وهم لا يعتقدون شيئاً من ديننا ؟ .. وأما أنا في نفسي فلا يضرني التهديد ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان ، فإننى أعتقد أن هذا واجب على وعلى غيرى وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول الحق حيثما كنا وألا نخاف في الله لومة لائم ونحن نحب السلطان في كل حال وما ينفعه في آخرته ودنياه .

وقد أراد السلطان بيبرس أن يجرح النووى ويضطره إلى الموافقة على الضرائب المجحفة فجمع العلماء جميعاً وجعلهم يوقعون بالموافقة بما فيهم عز الدين بن عبد السلام ، ثم استدعى محبى الدين النووى ليوقع فرفض وقال له : أنا أعرف أنك كنت فى الرق للأمر بندقار وليس لك مال وقد من الله عليك وجعلك ملكاً وسمعت أن عندك ألف مملوك كل مملوك له حياصة (ثوب موشى بالذهب) من ذهب وعندك مائة جارية لكل جارية حق (بضم القاف) من الحل فإن أنفقت ذلك كله وبقيت ممالك بالبنود والصوف بدلاً من الحوائص وبقيت الجوارى بثيابهن دون الحل أفنتيك بأخذ المال من الرعية فغضب الظاهر وقال : أخرج من بلدى (دمشق) فقال : السمع والطاعة وخرج إلى قريته نوى . فقال الفقهاء : إن هذا من كبار فقهاءنا وصلحائنا وممن يقتدى به فأعده إلى دمشق فرسم برجوعه ، فامتنع الشيخ وقال : لا أدخلها والظاهر بها ، فمات الظاهر بعد شهر .

وهذه الحكاية تدحض القصة التى لا يصدقها العقل والتى يرويها السيوطى فى حسن المحاضرة عن أن عز الدين بن عبد السلام أفتى بضرورة بيع الممالك بما فيهم السلطان ؛ لأنهم ملك الأمة والحقيقة أن عز الدين بن عبد السلام كان مع فقهه وعلمه من فقهاء السلطان وكان فى أكثر أمره يوافق السلاطين على ما يريدون ، ولكنه كان يستبسل مع رجال السلطان وكان السلطان لا ينكر أن يهان بعض رجاله أمام الناس حتى تنكسر نفوسهم ، بل إن عز الدين بن عبد السلام كان قبل ذلك يوافق سيف الدين قطز على ما يريد من فرض الضرائب على الناس للاستعانة بالمال على حرب التتار والفرنج ، وكان السلطان سيف الدين قطز أول سلاطين الممالك بعد الأيوبيين محبباً

إلى الشيوخ والناس لإخلاصه في جهاد التتار في حين أن المماليك البحريةية ورأسهم بيبرس البندقدارى كانوا يدبرون للقضاء عليه للاستيلاء على السلطنة ، وعندما خرج قطز لحرب التتار عند عين جالوت كان رأى بيبرس وأصحابه أن ينسحبوا إلى مصر أمام التتار ، ولكن متطوعة المصريين وأهل الشام كانوا قد دخلوا المعركة وبدأ التتار يجتاحونهم بالخيول والسيوف ، فنادى قطز المماليك ودعاهم إلى دخول المعركة فلم يسمعو له فغضب وخلع عمامته ورمى بها إلى الأرض وهدد المماليك بالعقاب ، ودخل المعركة فأخرج المماليك البحريةية واضطروا إلى دخول المعركة وانتصر المسلمون مع سلطانهم قطز ، وخاف بيبرس والمماليك البحريةية من انتقام السلطان فقتلوه في بلبيس وأعلن بيبرس نفسه سلطاناً ولهذا نفر منه أهل مصر وصانعه الشيوخ ومنهم عز الدين ابن عبد السلام ، أما الشيخ النووى فلم يهرب بيبرس وظل على موقفه منه ، وأراد بيبرس أن ينتقم من الناس فأسرف في فرض الضرائب فكان الشيخ النووى هو الذى وقف له ، وأراد بيبرس أن ينزع ملكية أراضي الزراعة من الناس بحجة أنها ملك لبيت المال ، فأقره على ذلك عز الدين بن عبد السلام الذى يقول السيوطى إنه أفتى ببيع السلطان نفسه ، ولكن النووى اعترض على ذلك وقال : إن ذلك أمر لا يحله أحد من علماء المسلمين . وظل ثابتاً في موقفه حتى تراجع السلطان عن رأيه .

وليس معنى ذلك أن عز الدين بن عبد السلام لم يكن من أعلام شيوخ القرن الثامن الهجرى ، فقد كان فعلاً شيخاً جليلاً ولكنه كان ذا دعوى عريضة وجمع كبير مثله في ذلك مثل الشيخ رشيد رضا في العصر الحديث ، فقد كان الشيخ رشيد رضا من تلاميذ الشيخ محمد عبده ، وكان يقول برأى شيخه في ضرورة العناية بالارتقاء بالناس وتعليمهم وتحاشى الدخول في خدمة أهل السلطان ، ويرى أن تلك هى الخطوة الأولى للنهوض بأمم الإسلام ، ومحمد عبده الذى كان فلاحاً مصرياً مثله في ذلك مثل الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد ظل على مذهبه إلى آخر حياته ، أما رشيد رضا فلم تكد تلوح له فرصة الوزارة حتى ينسى مبدأه ويسرع إلى دمشق ليكون وزيراً في الوزارة التى ألفها فيصل بن الحسين بن على عندما توج نفسه ملكاً في دمشق ، وعندما عصف الفرنسيون بمملكة فيصل الشامية وتبناه الإنجليز وجعلوه ملكاً على العراق أسرع الشيخ رشيد ودخل في خدمة الملك عبد العزيز آل سعود في نجد وصار من جملة وزرائه .

وفيما عدا النوى وابن تيمية فيما بعد فإننا نجد أنفسنا أمام علماء هم مكتبات متنقلة كلهم يحفظ الواحد منهم حمل مكتبة في رأسه ، ولكنه عاجز عن أن يأتي بفكرة ذات بال ؛ لأن الفكر العربى والإسلامى كله كان قد دخل في العصر الثلجى وجفَّت شجرته وأصبح من ذلك الحين إلى مطالع العصر الحديث تراثاً ماضياً لا نبض فيه ولا حياة ، وإن كان ذا قيمة عظيمة .

وحالة الكوما هذه التى دخل فيها الفكر العربى هى التى جعلت شيوخه يهتمون بالماضى وحده ، كان أمة الإسلام قد جمدت مكانها ولم يعد لها مستقبل ، والحق أن أهل العلم في ذلك العصر من القرن السابع الهجرى - الثالث عشر الميلادى أجادوا وأبدعوا في خدمة الماضى ، وقد اتجهت همهم نحو أربعة أنواع من النشاط الفكرى :

- الشروح والتعليقات والإضافات إلى كتب ماضية .

- التاريخ : فهذا عصر كبار المؤرخين وأصحاب الحوليات .

- الموسوعات : فهذا عصر الموسوعيين وأولهم ياقوت الذى بدأنا به هذا الفصل ثم القلقشندى صاحب « صبح الأعشى » وابن فضل الله العمري صاحب « مسالك الأبصار » والنويرى صاحب « نهاية الأرب » .

- التراجم : فهذا عصر ابن حجر العسقلانى والسخاوى وابن عساكر ، فأما عن الشروح والتعليقات فهى تنفعنا فيما نلتمس من العلم بأصحاب التفاسير والمحدثين ولكننا لن نفيد منها شيئاً ينفعنا في حاضر أو مستقبل ؛ لأن شروح البخارى مثلاً مثل عمدة القارى وفتح البارى عبارة عن نقول من كُتِبَ الماضين وآراء لبعض المعاصرين وكل ما تقرأ فيها عبارة عن نقول يأخذها شيوخ عن شيوخ وحتى في حل المشاكل الراهنة لهم التى كانوا يستفتون فيها كانوا لا يحاولون قط إدخال الحاضر في حسابهم ، كان الزمان قد حجر عند السلف ووقف ، وفتاوى الحسن البصرى وابن سيرين تؤخذ كما هى وتطبق على مشاكل القرن الثامن الهجرى وما بعده وعندنا كتاب ضخيم يقع في أحد عشر جزءاً من القطع الكبير يسمى نوازل الونشريسي وهو عالم من أهل المغرب من أهل القرن التاسع الهجرى والنوازل يراد بها القضايا ، وهو يعرضها ويقدم لنا آراء العلماء فيها فتتعجب كيف أن هذا الرجل يعيش في الماضى بكل كيانه فهو لا يعرف إلا آراء الماضين ، بل هو نفسه يلغى نفسه فلا يذكر رأياً خاصاً به .

وهذه المؤلفات المتأخرة في الفقه والتفسير والحديث وشروحه تزيد في ضخامة المكتبة العربية ولكنها لا تقدم لنا شعاعاً جديداً من نور ، وأمثال هذه الكتب سهلة التأليف فإنها نقول يوضع بعضها إلى جوار بعض ، وربما وجدنا فيها فقرات من كتب قيمة ضاعت الآن كما هو الحال في تاريخ ابن كثير المسمى بالبداية والنهاية وهو كتاب جليل ولكن صاحبه كان يرى أن التاريخ قد انتهى وتوقف عند السلف الصالح ، فالبداية عنده هي العصر النبوي والنهاية هي القرن الخامس الهجري مثلاً ، وفي هذا التيار تسقط من الحساب كل المؤلفات في علوم المعاش كالطب والهندسة والصيدلة والجغرافية ، فلا نجد منها شيئاً جديداً ، بل ينحط مستوى العلم ومكان كتاب الشفا لابن سينا نجد « تذكرة داود » ، ومحل الإدريسي نجد ابن الوردى ، ومحل كتاب « الحيوان » للجاحظ نجد كتاب « حياة الحيوان » للدميري ، وكل هذه مؤلفات تفيض بأحاديث الخرافة والأوهام ، بل يعود الناس إلى القول بأن الأرض مسطحة وأنها محمولة على قرن ثور وينسى الناس جميعاً ما أجهد الإدريسي والبيروني وأمثالهم أنفسهم فيه من البرهنة على كروية الأرض .

وأما الموسوعات فربما كانت خير ما خلفه لنا عصر الجليل هذا وهي في مجموعها كتب ألفها رجال ممن كانوا يعملون في دواوين الإنشاء أى سكرتاريات الدول ، وهم يؤلفونها لأمثالهم فيقدمون فيها خلاصة للمعلومات التي ينبغي أن يحوزها الإنسان ليكون كاتباً محترماً في دواوين السلاطين ، وهذا النوع من التأليف بدأ في تونس على يد رجل ممن كانوا يخدمون في ديوان الإنشاء عند الحفصيين وهو أبو الفضل أحمد بن يوسف التيفاشي المتوفى سنة (٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م) ، وقد ألف موسوعة لاستخدام رجال ديوان الإنشاء جعل عنوانها « فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولى الألباب » ولم نعتز على الكتاب كاملاً ولكننا عثرنا على فصول منه اعتبرت كتباً قائمة بذواتها مثل أزهار الأفكار في منافع الأحجار وموضوعه المعادن ، ونزهة الألباب مما لا يوجد في كتاب وموضوعه الأدب ، وقد اطلع على هذه الموسوعة أبو الحسن على بن سعيد المغربي (٦٠٥ - ٦٨٥ هـ / ١٢٠٨ - ١٢٨٦ م) وهو موسوعي أندلسي غادر بلاده الأندلس سنة (٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ - ١٢٤١ م) ومضى يزرع بلاد الإسلام حاملاً علماً غزيراً عن الأندلس حمله معه إلى المشرق ومضى يطوف به على عواصم الإسلام ، يعيش منه ويزهى به ، وقد خلف لنا ذخيرة ضخمة من الكتب تعتبر من أهم

ما نعتمد عليه في التاريخ الفكرى للأندلس ، وفي مروره بتونس أراد أن يستقر فيها ولكن قريباً له خاف منه فلم يزل حتى أخرجه إلى المشرق ، ولكن على بن سعيد اطلع هناك على موسوعة التيفاشى وربما يكون قد نقل منها كتاباً كاملاً من كتبه في الجغرافيا وهو بسط الأرض في طولها والعرض .

ولكن الموسوعيين المشرقيين لم يظهروا في مصر والشام إلا بعد قرن من الزمان فإن النويرى صاحب نهاية الأرب توفى سنة (٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) ، وابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الأبصار توفى سنة (٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) ، والقلقشندي توفى سنة (٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) ، وهذه الموسوعات بين أيدي الناس فلا حاجة لى إلى الكلام عنها في هذا الموجز فليس فيها فكر جديد حى ، إنما هى صناديق من المعلومات المجمدة ، وعندما نقوم نحن اليوم بتحقيقها ونشرها فإننا نسمى هذا العمل إحياء التراث أى إخراجها من الثلاجة وإدخاله غرفة الإنعاش .

وهذا العصر هو عصر مشاهير المؤرخين المتأخرين ، ابن خلدون والمقرئزى وابن تغري بردى وابن حجر العسقلانى والسخاوى .

فأما ابن خلدون فقد تحدثنا عنه فيما مضى ، وأما مؤرخو العصور المتأخرة وعلى رأسهم تقى الدين المقرئزى فجماعون يأخذ بعضهم من بعض ويضيف إلى سجل التاريخ ذكر الحوادث إلى أيامه ، وأعظم أولئك المؤرخين مكاناً تقى الدين المقرئزى المتوفى (٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) ، وهو مؤرخ موسوعى فعلاً خَلَفَ لنا ثروة عظيمة القيمة من المؤلفات في التاريخ مثل « السلوك لمعرفة دول الملوك » ، وهو تاريخ عالمى مرتب على السنين وأهميته ترجع إلى ما كتب عن عصره وهو عصر المماليك وهو تلميذ ابن خلدون ، ولكن أثر ابن خلدون عنده لا يظهر إلا في كتاب صغير من كتبه يسمى « إغاثة الأمة بكشف الغمة » وهو تاريخ اقتصادى اجتماعى لمصر والشام ، وهو من هذه الناحية فريد في بابيه ، وللمقرئزى كتاب « الخطط » وهو وصف دقيق موسع لبلاد مصر وخاصة القاهرة مع تاريخ عام لمصر ووصف قيم للمجتمع المصرى في عصره .

ويلى المقرئزى في سجل المؤرخين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى وهو تلميذه وهو أمير المؤرخين المصريين أدباً وذوقاً ، وإن لم يكن أوسعهم علماً ، وهو من بيت كبير إذ إنه ينحدر من بيت مملوكى ، ولهذا فإن معاصره ابن حجر العسقلانى يعيره دائماً

بأنه تركي ويقول : وماذا يجيء من تركي ؟ ولكن أبا المحاسن وهب نفسه للتاريخ وأصبح مؤرخ عصره يسجل الحوادث يوماً بعد يوم حتى إنه كان إذا بارح مصر كلف رجلاً آخر بأن يسجل الحوادث مكانه .

ثم نأتى بعد ذلك إلى كبار أصحاب كتب التراجم وعلى رأسهم محمد بن عبد الرحمن السخاوى (٨٣١ - ٩٠٢ هـ / ١٤٢٨ - ١٤٩٦ م) ، وهو واسطة عقد أصحاب كتب التراجم وكان رجلاً واسع العلم بصورة لا تصدق فقد حوى صدره من العلم ما لم يحويه صدر عالم آخر ربما في التاريخ ، وهو تلميذ ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة (٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م) ، وبدر الدين محمود بن أحمد العيني (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) ، وأستاذ جلال الدين السيوطى المتوفى (٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) .

والقيمة العلمية التاريخية لهؤلاء المؤرخين وأصحاب التراجم لا تحتاج إلى بيان ولكن الذى يحتاج منا إلى وقفة هنا هو موقف معظم أولئك الأعلام بعضهم من بعض واتجاههم إلى التجريح والشتم وتتبع معائب بعضهم بعضاً مما يضيف على صورة العلماء في ذلك العصر ظلالاً قاتمة ، فهم لم يغادروا أحداً إلا جرحوه ، والمثال المعروف لهذا العدوان كان ابن حجر فهو لم يدع عالماً إلا ناله بلسانه وورث عنه هذه الخصلة الذميمة تلميذه شمس الدين السخاوى ، ويكفى أن أذكر لك هنا ما قاله في ابن خلدون من أنه يتبسط بالسكنى على البحر وأكثر من سماع المطربات ومعاشر الأحدث ، وتزوج بامرأة لها أخ أمرد ينسب إلى التخليط فكثرت الشناعة عليه (الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ٤ / ١٤٥ ترجمة رقم ٣٨٧) ، فإذا كان هذا قوله في ابن خلدون فتصور ما قاله في غيره وهو كثير جداً ومعيب جداً ، وهو قطعاً يشين السخاوى ؛ لأن معظم هذا العدوان كان ناشئاً عن التنافس على مشيخات المدارس وأوقافها .

ولكن الطامة الكبرى في عدوان العلماء بعضهم على بعض تتجلى لنا في كتاب شائن ألفه جلال الدين السيوطى في ذم شيخه السخاوى وسماه « الكاوى في تاريخ السخاوى » ، وقد صاغه السيوطى في صورة مقامة بذئثة اللفظ اعتدى فيها على شيخه فأخرجه من جملة العلماء أصلاً ، بل لم يستح من أن يعتدى على شرف الرجل ، والسبب الحقيقى في ذلك العدوان هو التنافس على وظائف التدريس وما فيها من الأوقاف ، ولعن

الله الحرص فقد أذل أعناق الرجال ، وما رأيك في رجل يقول في شيخه وأستاذه وهو على ذلك حقير نقير لا يباع في سوق العلم بقطمير ، ولا نسبه في الأنساب عال ، ولا حسبه إذا قومت الأحساب غال ، ولا يزداد إلا جهلاً على كر الأيام والليالي .
فهل فهمت الآن لماذا جعلت عنوان هذا الفصل الفكر العربي في العصر الحجري ؟

* * *

الأدب الشعبي العربي أجمل هداياه للفكر العالمي

في سنة ١٧٠٤ ظهر في باريس الجزء الأول من الترجمة الفرنسية التي صنعها أنطوان جالان Antoine Galland (١٦٤٦ - ١٧١٥ م) لقصص ألف ليلة فأنارت في الناس عاصفة من الإعجاب والتشوق ، ومع أن الحكايات التي يتضمنها المجلد الأول من ألف ليلة وليلة ليست أحسن ما في تلك المجموعة الفريدة من الأدب الشعبي العربي . إلا أن إعجاب الناس بذلك المجلد الأول كان عظيماً ربما لأنه يتضمن في بدايته الوعاء العام الذي يربط الحكايات كلها بعضها إلى بعض ، وهو موضوع الملك شهريار وأخيه الملك شاه زمان ، وهو الموضوع الذي اشتهر عندنا باسم شهر زاد بعد أن أعاد توفيق الحكيم صياغته في قالب فكرى مسرحى رفيع يدور حول طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة .

هذا الوعاء العام في صورته كما وردت في أصل ألف ليلة بالغ الجمال والفتنة ، فهو ليس مجرد حكاية الملك شهريار مع شهر زاد ابنة الوزير التي ابتكرت حكاية تسلية الملك كل ليلة بحكاية تتوقف بها عند كل فجر عند نقطة تشويق أو « ساسبنس » ، لكى يبقى عليها الملك ولا يقتلها كما فعل بسابقاتها ، بل إنها تضم قصصاً أخرى لا تقل عن هذه طرافة ، فهناك قصة الملك شاه زمان مع زوجته والعبد الذي فاجأهما معاً فقتلها ، وهناك قصة شهريار وامراته وجواربها العشرين وما كن يفعلنه كل يوم من خيانة شهريار ، وهناك حكاية الجنى الذي اختطف فتاة فانتة ليلة عرسها وحبسها في صندوق وضعه في قاع البحر حتى إذا اشتاق إليها مضى فأخرجه وفتحها وأخرج البنت واستمتع بها ثم استلقى واضعاً رأسه على حجرها ساعة ، ثم أعادها إلى الصندوق ووضعها في قاع البحر ومع هذا كله فقد استطاعت هذه الماكرة أن تنتقم منه ؛ فقد خانتها مع سبعمئة وخمسين رجلاً أضافت إليهم شهريار وأخاه ، وحكاية هذه البنت مع الجنى هي التي جعلت الأخوين يتعزيان عما فعلت نساؤهما معهما ، لأن المرأة منا - كما قالت هذه الماكرة للملكين الأخوين - إذا أرادت أمراً لا يغلبها شيء ، كما قال بعضهم :

لا تأمنن إلى النساء ولا تثق بهن ————— ودهن
 فرضن أو هن وسخطهن والفذر حشو وثيابهن
 بحديث يوسف فاعتبر متحذراً من كيدهن
 أو ما ترى إبليس (م) انسرج آدم ————— من أجلهن

هذا الوعاء القصصى الطريف الذى يخرج من القصة ومن هذه الأخيرة قصة الثالثة ورابعة وخامسة وكلها قصص طريف جذاب شائق ، والقصص كلها ساذجة فى ظاهرها ولكنها عميقة فى باطنها ، هذا كله إلى جانب ما أطلع به الرجال منذ الأزل من الخوف من غدر النساء وما تناولته الأخبار من ذكاء النساء وسعة حيلهن ، هذا هو الذى أعجب الفرنسيين وجعلهم يقبلون على مطالعة هذا النوع الطريف من القصص والحكايات ؛ لأن القرن الثامن عشر كله كان فى معظم بلاد أوروبا عصر تدهور خلقى ، فلكل رجل مهما كان مركزه من الملك إلى الوزير إلى القس إلى المحترف الصغير له عشيقته أو عشيقاته والسيدات المستهترات Les Jemes Go Lantes كن طرائف ذلك المجتمع ، فوجد الناس فى حكايات ألف ليلة وليلة ما هو أطرف والطف مما كانوا يحكونه عن عشيقات الملوك والفرسان والقساوسة ، وفى ذلك العصر وقعت حادثة الدوقة الغنية صاحبة الأملاك الواسعة فى جنوبى فرنسا ؛ فبنت ديرًا جعلت فيه أربعين راهبًا يختزنون فى ديرهم براميل النبيذ التى تملكها الدوقة فكانت تخرج لهم كل ليلة برميلاً فيتهاقون عليه يشربون كأسًا بعد كأس بدلاً من الصلاة ، فإذا استولت الخمر على رؤوسهم أقبلت وقضت ليلتها معهم ، وعندما اعترض على ذلك واحد منهم وجرى إخوانه على رفض الشراب للانصراف للعبادة والصلاة ؛ أمرت بإخراج أربعين برميلاً أغرقت فى كل واحد منها راهبًا ، وقالت : هذا جزاؤكم رفضتم أن تشربوا الخمر ففيتها وبها تموتون !

طبيعى إذن أن يقبل الناس فى فرنسا على تلك القصص العربية التى قدمها لهم انطوان جالان فمضى يقدم لهم جزءًا بعد جزء حتى بلغت أجزاءها تسعًا عام وفاته سنة ١٧١٥ ، وبعد عامين من وفاته نشر المجلد الحادى عشر سنة ١٧١٧ م .

وتوالى طبعات هذا المجموع الفريد من القصص الشعبى الذى أصبح عنوانه علمًا

من أعلام الفكر العالمى : Lesmilleetuna Nuits Cantes / Arabes Tsactuits en :
Jancai وترجم إلى الإنجليزية بجزء من عنوانه فسمى Arabian Nights .

وكما هى عادة الأوروبيين فى كل ما يرون فيه نفعا لهم أو متعة وطرافة مضوا يبحثون ويدرسون ، فتدافع العلماء يبحثون عن مخطوطات ألف ليلة وتاريخها ويترجمونها إلى لغاتهم ، وعندما طبعت مطبعة بولاق نص ألف ليلة الكامل سنة ١٨٣٥ م ، أقبل عليها وترجمها إلى الإنجليزية ذلك المستشرق الأيرلندى العجيب إدوارد وليام لين الذى ترجم ضمن ما ترجم قاموس لسان العرب لابن منظور كاملاً ، ترجم هذا الرجل ألف ليلة كاملة وأخرجها للناس فى عشرة مجلدات (١٨٢٨ - ١٨٤٨ م) وأسرع المستشرق الألمانى مكسميليان هاينست Macmilian Hapnsht إلى تونس حيث أتى بنسخة مخطوطة من ألف ليلة وترجمها إلى الألمانية ونشرها فى بريزلاد (١٨٢٥ - ١٨٤٣ م) واستمرت الترجمات تتوالى والأبحاث تتوارد حتى فرغ لألف ليلة واحد من أكابر المستشرقين الألمان وهو أنيوليتمان Enuu Littmamn ونحن نعرفه جيداً فقد كان من أساتذة الجامعة المصرية الأهلية التى أنشئت سنة ١٩٠٨ م ، وأخرج للناس فيما بين سنتى (١٩٢١ - ١٩٢٨ م) ترجمة ألمانية للنص الكامل المحقق دون تهذيب أو تعديل لألف ليلة فى خمس مجلدات ، ثم أتبعها بمجلد سادس وضمه أوسع وأعمق دراسة لذلك الأثر الأدبى العظيم الذى أصبح معتمد الباحثين جميعاً عن أصل هذه الحكايات وتاريخها وتحليل مادتها ، وتتبعها منذ كانت أسطورة هندية لا قيمة لها نقلت إلى الفارسية فأخذت بعض المادة القصصية من هناك ، لأن المفكر الإيرانى تميز بالميل إلى القصص وابتكار الصور القصصية ، ولكن الإضافة الفارسية قليلة والذى زاد فى أهميتها فى الظاهر هم العرب الذين انتهت إليهم صياغة ألف ليلة فقد أحبوا أن يضيفوا إلى قصصهم طابع الغرابة فبحثوا لحكاياتهم عن مواطن بعيدة عجيبة حتى يستطيعوا أن يطلقوا لخيالهم العنان ، وهنا نجدهم يمعنون فى البحث عن المواطن العجيبة فيقولون مثلاً : حكى والله أعلم أنه كان فيما مضى من قديم الزمان وسالف العصر والأوان ملك من ملوك ساسان بجزائر الهند والصين صاحب جند وأعوان وخدم وحشم وله ولدان ، فكيف يكون من آل ساسان ثم يكون بجزائر الهند والصين ؟

وهذا يدل على أن هذه القصة قصة الملك شهريار وأخيه شاه زمان ، دخلت بلاد

العرب بدائية جدًا آتية من أصل بعيد وراء إيران لم يتبين القصاص الشعبي استحالة وجود ساسان في جزائر الهند والصين ؛ لأنه في الحقيقة كان يطلب الغريب البعيد في ذاته دون تدقيق .

وقد أخذت قصص ألف ليلة صورتها الأولى في بغداد ربما في القرن الهجري الثالث التاسع الميلادي ، لأن المسعودي وهو من أهل القرن الرابع الهجري يذكرها باسمها الفارسي : هزار إنسانه (أى ألف خرافة) وقال : والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة ، وهو خبر الملك والوزير وابنته وجارياتها « كذا في طبعة بولاق » ، أما في الطبعة المصرية الجارية وهى طبعة محمد على صبيح فتقول ودايتها والأصح أختها ، وهما شيرا زاد ، ودينا زاد ، ومثل كتاب فرزه وسيماس وما فيها من أخبار ملوك الهند والوزراء ، ومثل كتاب السندباد ، ومثلها من الكتب في هذا المعنى .. (مروج الذهب طبعة باريس ١٩١٤ ج ٤ / ٨٩ - ٩٠) وهذا الخبر يدل على أن ألف ليلة في دورها البغدادي كانت تقتصر على حكاية شهر زاد .

وفي القاهرة ربما ابتداء من العصر الفاطمي - أخذت مجموعة القصص تتجمع وتأخذ صيغة وأسلوبًا واحدًا - وأضيف إليها حكايات جديدة ذات طابع مصرى خالص ، وبعض هذه الحكايات المصرية جميل محكم الصياغة مثل حكاية مسرور التاجر مع معشوقته زين الموصف ، وبعضها ضعيف مبتذل مثل حكاية أبى صير وأبى قير ، ولكن القصص كلها أعيدت صياغتها في القاهرة والغالب أن إعادة الصياغة تمت على ألسنة القصاصين الشعبيين في المقاهى ، ولم تكتب القصص إلا في منتصف العصر المملوكى ، فإن الأسلوب ركيك جدًا بل عامى وجهل الكاتب واضح فهو لا يكاد يقيم عبارة صحيحة ، ومن عجيب الأمر أن هذه الركاكة نفسها تضى على القصص حلاوة خاصة ؛ لأنها تؤكد لنا أن هذا القصاص صادق ، وأنه صانع وواضع مباشرة دون تزويق ، وهذا هو الجميل ؛ لأن ألف ليلة في هذه الصياغة تعتبر تصويرًا للأحوال الاجتماعية التى صدرت عنها والعقلية التى كتبتها حتى الشعر هنا عامى الروح وإن كان صاحبه - الكاتب - قد حاول أن يجعله شعرًا فصيحًا ، خذ مثلاً هذه الأبيات الطريفة التى تقرأها في قصة الصياد مع العفاريت :

يا حارقة الدهر كفى إن لم تكفى فَعَفَى
فلا بحظى أعطى ولا بصنع كفى
خرجت أطلب رزقى وجدت رزقى تسوفى
كم جاهل في ظهـور وعالم متخفى

ونحن عندما نقرأ ألف ليلة ينبغي أن نذكر دائماً أنها تصور أحلام الفقراء المتاعيس ، فإن المواطن المسلم أو العربى المقهور وضع أمله في العفريت الذى يعصف بالسلطين ، وانتظر الخلاص من تعاسته في كرم الخالق سبحانه القادر على العطاء من غير حساب ، فكثرت الكلام عن الكنوز والسحرة والساحرات .. والفقير المعدم الذى سئم امرأته التى يراها أمامه ليل نهار في أسماها البالية ووجهها البائس جلس في مقهى في الليل يستمع إلى أوصاف بدر البدور وست الحسن والجمال وتصورها بين يديه ، وخلق به الحلم فتصور أمه قمر الزمان ، وهنا تبدو لنا أوصاف النساء الجميلة - والخارجة عن الحشمة أحياناً - تصويراً لأحلام أهل تلك العصور وشوقهم إلى المرأة الجميلة البيضاء السمينة التى لا يتمتع بها إلا المماليك والسلطين ، واستمع مثلاً إلى صورة الجمال الأنثوى كما تصوره الحَمَّال في قصة الحَمَّال والبَنات : « فنظر الحمال إلى من فتح له الباب فوجدها صبية رشيقة القد ، قاعدة النهدي ، ذات حسن وجمال وقد واعتدل ، وجبين كُفْرَةِ الهلال ، وعيون كعيون الغزلان ، وحواجب كهلال رمضان ، وخدود مثل شقائق النعمان ، وفم كخاتم سليمان ، ووجه كالبدن في الإشراق ، ونهدين كرمانتين باتفاق ، وبطن مطوى تحت الثياب كطى السجل للكتاب » . فهذه فتاة الأحلام إذن كما تصورها الحَمَّال الشقى وهو طول اليوم يحمل الأثقال ، وقد تعود أن يحمل البضائع وحوائج الناس حتى الباب فقط ، وهنا يعطى أجره الزهيد ويصرف ، ولكنه في عالم الأحلام ينفتح أمامه الباب على يد هذه الجارية الحسنة ويدخل القصر فيجد بنات أخريات يداعبهن ويطعمهن الذ الطعام ويسقيهن أحسن الشراب » .

ولكن أكثر ما فتن الناس في الغرب في ألف ليلة هو ذلك الخيال الخصب في رحلات السندباد مثلاً ، فهناك خيال طلق يخلق بحاراً ومحيطات وسفنًا وأسماكاً في حجم الجزائر وطيورًا تفوق في ضخامتها أحجام أضخم الطائرات في أيامنا ، وطائر الرخ

يبدو لنا كأنه طائفة جامبو هائلة والسندباد مربوط في رجل الرخ ، وكأنه معلق في صندوق عجالات الطائرة ، وهنا عفاريت وجنيات ومردة ضخام لكل منها عين واحدة وسط وجهه ، وهنا أخطار تتوالى ومغامرات بلا نهاية ، وفي كل مرة يعود التاجر سليماً معافى إلى البصرة ليحمد الله الرحمن الرحيم ويسجد له سجود الشاكرين ، ومثل هذا يقال عن مصباح علاء الدين والمارد الذي يخرج من القمقم وحكايات على بابا والأربعين حرامى ، إلى آخر هذا القصص الجميل الذى كان سمار المقاهى يهربون من عالم حياتهم الكثير ، والقصص يحكى وشاعر الربابة ينشد ثم ينقضى ذلك كله وينفض الشاعر ويعود التعيس إلى بيت الشقاء .

وحكايات ألف ليلة وليلة تسمى الظن بالنساء ، وهذه هى صورة المرأة في عقل الرجل في العصور الوسطى ، وإذا كان العربى المسلم قد وكل المرأة إلى دينها وأمانتها وحسن تربيتها ، فإن الأوروبي لم يطمئن حتى إلى ذلك وابتكر حزام العفة تلبسه المرأة طوال غياب زوجها ، ولكن مؤلفى القصص لم يحرّموا المرأة نصيبها من الأحلام فهى تحلم بالشباب الجميل والرجل الذى يملأ العين ، ولهذا ابتكروا للنساء صورة التاجر الشاب الوسيم الحسن البصرى والأمير قمر الزمان ، وهنا أيضاً نجد المرأة ترسم صورة محبوبها الذى تحلم به وتُمنى نفسها بالحصول عليه والهرب إليه من زوجها الشقى الفقير .

وبعض حكايات ألف ليلة أصبحت موضوعات قصصية ترددت بعد ذلك في الأدب العالمى كله ، ولم تلق حكاية من النجاح في هذا المجال ما لقيته قصة « النائم الذى صحا » وهى تحكى لنا قصة رجل فقير تعيس أدركه النوم إلى جوار حائط في الطريق فمر به رجل غنى أو ملك في موكب فزاد التندر به فأمر غلمانه بأخذه إلى القصر وهناك سقوه حتى غاب عن الوعي ، ثم ألبسوه فاخر الثياب بعد أن أدخلوه الحمام فلما أفاق وجد نفسه في ثياب الأمراء في قصر كأنه في جنة الخلد ، ووضعوا أمامه الذ الأاطعمة والأشربة ، وجعلوا يتسلون بما يصدر عنه وهو يتصور أن الله رحمه وأدخله عالم السعداء إلى آخر أيامه ، فلما فرغوا من التندر به انتظروا حتى غلبه الشراب ونام ، فلما صحا وجد نفسه في نفس أسماله التى كان فيها عندما وجدوه ناعساً إلى جوار الجدار في الطريق .

هذا هو القالب الذى أخذه الأديب الأسباني الأشهر كالديرون دى لباركا ، وصبه فى مسرحيته الخالدة « إنما الحياة حلم » La Nida es Suena وحكى فيه حكاية الملك سجيمنوندى الذى فقد ملكه فى عالم الواقع ووجده فى عالم الأحلام ، وفى مونولوجاتها الطويلة عرض كالديرون فلسفته فى الحياة وذلك أيضًا هو القالب الذى صب فيه شكسبير مسرحيته « النوء » The Tangelst واستعار الخيال العربى ليحكى فيه قصة الملك الذى نفاه أعداؤه فى جزيرة ، وهناك التقى بالصبي الملائكى اللطيف اربيل .

وفى نهاية مجموعة ألف ليلة تجد قصة جميلة سأحكيها لك فى مقام قائم بذاته بعد الفراغ من هذه الدراسة هى قصة الجارية تودد ، وهى حكاية جارية معلمة فاقت العلماء بعلمها وأحاطتها بكل العلوم الإسلامية فى العصر الذهبى ، وتمتعت إلى جانب ذلك بوفاء عظيم ، هذه القصة التى وصلت إلى الأندلس قبل أن يترجم جالان ألف ليلة إلى الفرنسية وقد أخذها أديب أسباني آخر كبير هو لاب دى فيجا Lap De Vega وأنشأ على مثالها قصة الفتاة تيودور La Dancelle Teadar حتى الاسم مأخوذ عن العربية ، فإن الذين ترجموا قصة الجارية تودد ، فأخذها لاب دى فيجا وجعلها الأنسة تيودور ، وألف ليلة حافلة بالقصص القصيرة التى ترد فى تضاعيف الحكايات الطويلة ، وهذه القصص القصيرة دائماً حكايات حلوة قصيرة ، وقد أشرت فيما سبق إلى قصة الفتاة التى خطفها المارد وحبسها فى صندوق وضعه فى قاع البحر ليخرجه ويستمتع بها وقتما يشاء ، فانتقمت منه وخانته سبعمئة واثنتين وخمسين مرة ، فهذه الحكاية أخذها أناطول فرانس وحكاها بأسلوبه الجميل المشرق فلقيت من الناس إعجاباً عظيماً ، أما حكاية قمر الزمان وبدر الدور فقد أخذها الموسيقى النمساوى فرانز ليهار وأنشأ عليها أوبريت من ألطف ما عمل وسمها « أبو الحسن » .

ويطول بنا الكلام إذا أردنا أن نتتبع الأثر البعيد الذى كان لألف ليلة فى الفكر الغربى كله ، فإن تلك المجموعة من القصص الشعبى أصبحت من زمن طويل جزءاً من الفكر الغربى بل الحضارة الغربية ، وما أكثر الروايات والمجلات والعمود التى تحمل أسماء ألف ليلة وشهر زاد وعلاء الدين والسندباد وعلى بابا ، والسبب فى ذلك أن هذه الحكايات الشعبية التى تبدو فى مجموعها ساذجة بل بدائية تنطوى على حكمة إنسانية كبرى هى قصص صادق ، خرج من قلوب ناس طيبين فلقى القبول من كل القلوب

الطبيبة ، ودون تكلف أو حتى تحمل وجدت الإنسانية في تلك الأحلام حكمة الحياة الكبرى فالحياة كلها في نهاية الأمر حلم ، وهنا في ألف ليلة أحلام الحب والنعيم والغنى والجاه والمغامرات والعجائب والإيمان بالله وقدرته ، وهذه كلها موضوعات إنسانية عامة ، ومن هنا جاءت عالمية ألف ليلة وهي رغم ما يبدو فيها من سوء الظن بالدنيا لا تفقد الأمل في فرج الله أبداً ، وحكاية معروف الإسكافي أكبر مثال لذلك ، فذلك الإسكافي المسكين الذى يعانى غصص الحياة من امرأته سليطة اللسان .. « فاطمة العرة » ينتهى به الأمر إلى الهرب من وطنه نجاة بنفسه من تعقب امرأته له وشكواها إياه إلى القاضى مرة بعد أخرى ، فيهرب إلى عوالم بعيدة قاصية حيث يصيب المال الكثير ثم يدركه الفقر مرة بعد أخرى ، وفي النهاية يرزق المال الوفير ثم يصبح ملكاً عظيماً ، ويتزوج امرأة جميلة فينجب ابناً وسيماً وفاطمة العرة تلاحق معروفًا حتى تكاد تطفر به وتراه نائماً وفي أصبعه خاتم سليمان فتسللت إلى القصر ومدت يدها لتسرق الخاتم وهنا هوى عليها سيف الأمير ابن الملك معروف وهنا تقرأ : « ثم إن الملك معروفًا زعق على أتباعه فأتوه مسرعين فأخبرهم بما فعلته زوجته فاطمة العرة ، وأمرهم أن يأخذوها ويحطوها في مكان إلى الصباح ففعلوا كما أمرهم ، ثم وكل بها جماعة من الخدام فغسلوها وكفنوها وعملوا لها مشهداً ودفنوها ، وما كان مجيئها من مصر إلا لترايها والله در من قال :

مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها
ومن كانت منيته بأرض فليس يموت في أرض سواها

وهناك نوع آخر من الأدب الشعبى العربى نجده دائماً على هامش الحياة الأدبية لأن أصحابه كانوا ثواراً على مجتمعهم منكبين لما فيه ، وهم في الأدب الجاهلى يسمون الشعراء الصعاليك لأنهم كانوا أعزاء النفوس ، لا يدخلون في قوالب الحياة الراتبة ومثالهم المشهور في الجاهلية الشنفرى وهو عمرو بن مالك الأزدي المتوفى في الجاهلية سنة ٥٢٥ م ، ولم يعجبه قومه لأنه اتهمهم بالجبن ، فانخلع عنهم وانضم إلى الشعراء الصعاليك وقال :

وفي الأرض منى للكريم من الأذى وفيها لمن شاء القلى متعزل

وخاصم قومه وأنشأ فيهم لاميته المشهورة بلامية العرب ومطلعها :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فأبنى إلى قوم سواكم لأميل
ولى دونكم أهلون سيد عملس وأرقط زهلـول وعرفاء جيل

وخرج إلى البرية وصار يعيش من الغارة على القبائل التى يجبن رجالها عن الدفاع عن أنفسهم وحماية الضعفاء ، مثله فى ذلك مثل عروة بن الورد وأهله الذين لجأ إليهم وهم الصعاليك الجوالون أمثاله الذين يألفون القفر والوحوش أكثر مما يألفون الناس ، ولامية العرب لم يضعها نقاد الأدب العربى بين عيون الشعر الجاهلى بل إن محمد بن سلام الجمحى صاحب « طبقات فحول الشعراء » لم يذكر فى كفاية الشنفرى أو عروة ابن الورد ، مع أن لامية العرب هى أجمل ما قيل فى العرب وأصدق وأكثره إخلاصاً ، وأقرأ عن أولئك الصعاليك كتاب الدكتور يوسف خليفى ل ترى أن الصعاليك كانوا فى أرفع مستويات الشاعرية والصدق الأدبى ، بل إن البروسيين الألمان عندما وضعوا نشيدهم القومى أخذوا من لامية الشنفرى بعض معانيها ، بعد أن ترجموها إلى الألمانية المستشرق النمساوى هامر بوجشتال Hammer Burgtell .

وعلى طول تاريخ الأدب العربى يسير تيار أدب الصعاليك ، وهو يدخل ضمن ما نسميه اليوم بالأدب الشعبى ويتجلى هذا التيار الشعبى فى أدب المقامات : قطعة أدبية مصوغة فى قالب من السجع تقص حكاية صعلوك ذكى مثقف يعيش من التسول والكدية وسعة الحيلة ، فأدب المقامات صعلوك بموضوعه مسجوع متكلف بقالبه ، وهذا التكلف أفقده قيمته ، وفى القرن الرابع الهجرى يظهر بديع الزمان الهمذانى وهو أبو الفضل أحمد بن الحسين المتوفى سنة (٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م) ويصوغ إحدى وخمسين مقامة كل منها مشروع قصة لا تكمل أبداً ، إنما هى معرض ألفاظ وسجعات وحيل وطرائف يرويها أديب وهمى يسمى عيسى بن هشام ، وبطلها صعلوك متنكر فى صورة تاجر متجول يدعى أبا الفتح الإسكندرى وهو صعلوك واسع الحيلة لطيف المدخل بليغ العبارة خفيف الظل يقول : إنه أسعد أهل زمانه لأنه يعيش بالتسول فهو على بريد الدنيا ومساحة الأرض وخليفة ذى القرنين الذى بلغ المشرق والمغرب حيثما حل لا يخاف البؤس يسير حيث شاء يأخذ أطايب كل بلدة .

وبعد ذلك بنحو القرن تظهر مقامات الحريري ، وهو أبو القاسم محمد بن علي الذي ولد في البصرة وعاش سواحا يتسول بمقاماته (٤٤٦ - ٥١٦ هـ / ١٠٥٤ - ١٢٢٢ م) وينشئ خمسين مقامة على غرار مقامات البديع ، ولكنها أقل قيمة لإسراف الرجل في السجع والإغراب ، وراوى مقامات الحريري رجل وهمى هو الحارث بن همام وبطلها أبو زيد السروجي وهو صعلوك متسول صاحب حيل ، حياته كلها احتيال للحصول على المال والطعام ولكنه واسع الثقافة حاد الذكاء بليغ العبارة ، وقد بلغ الحريري بمقاماته من الشهرة ما لا يستحق ، بل إن سلفستردى ساس المستشرق الكبير نشر المقامات في أدق صورة وعمل لها فهرساً للألفاظ لأن الناس كانوا يقولون في القرن الماضي : إن مقامات الحريري أبلغ ما أنشأه العرب مع أنها أسوأ وأثقل وأكذب مقال للنثر العربى .

ولكن الصعلوك الحقيقى الذى تستطيع أن تقول إنه أديب موهوب صادق ومتسول متكسب هو الوهرانى التلمسانى الذى اكتشفنا مقاماته أخيراً ، وقام على نشرها الأستاذان إبراهيم شعلان ومحمد نغشى (القاهرة ١٩٦٨) ونحن لا نعرف عن الوهرانى إلا أنه ركن الدين محمد بن محرز بن محمد ، وأنه توفى سنة (٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م) ، ولم يؤرخ له أحد لأنه كان صعلوكاً يعيش على هامش الحياة الفكرية التقليدية ولكن كتاباته تكشف عن نفسه وظروف حياته لأنه كأى صعلوك في تاريخ الفكر الإنسانى يعيش الحياة الواقعة دون تزويق ، وهو نفسه جزء من ذلك الواقع وهو رجل مثقف جداً ، ففى المقامة الأولى من كتاب مقاماته وصناماته يتحدث ساخرًا عن كل دول زمانه من أقصى الغرب إلى إيران ويختمها بقوله متحدثاً عن عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين في المغرب ، فصنعت له ذوو التيجان وخدمة الإنس والجان ولو أن للقلم لساناً وللورقة إنساناً لتأملت وتظلمت ولأنشدتك في الملا قول الشيخ أبى العلاء :

جلوا صارماً وتلوا باطلاً وقالوا : صدقنا فقلنا نعم

ولكن السكوت عن هذا أنجح ومسألة الأفاعى أصلح ، وهذه مقالة مفكر حر يشعر أنه مخنوق ولا يستطيع أن يفصح عما في صدره ، والمقام الأول في الكتاب (ص ١٧ وما بعدها) تحفة أدبية فكرية يصف الرجل فيها رحلة تخيلها في عالم الإسلام لا تقل طرافة عن « رسالة الغفران » ، بل هى أشد لذعاً وأقسى نقداً ، والمقام مصوغ في قالب

مقامة بديعة ذات خيال واسع وعلم عظيم ، وفيها يلم بالجنة والنار ويستعرض رجال التاريخ الإسلامى من أيام معاوية بن أبى سفيان ويجعلهم كلهم فى النار .

وإذا كان بديع الزمان قد تستر خلف شخصية الصعلوك عيسى بن هشام ، والحريرى اخترع شخصية الصعلوك أبى زيد السروجى ، فإن الوهرانى فى مقاماته هو الصعلوك نفسه ، ومن هنا فهو يصور لنا شخصية الصعلوك أصدق تصوير . والطريف أن شخصية الصعلوك انتقلت إلى الأدب الإشباني ربما عن طريق مقامات الحريرى ، فقد اشتهر أمرها فى الأندلس وأكبر شراح مقامات الحريرى هو الشريشى الأندلسى . وقد فتن أدباء الإشبان خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر بشخصية الصعلوك العربى ، ونشأ عندهم نوع من القصص الجميل يسمى بـقصص الصعاليك Lanaveliareaco والبيكارو Picora الإشباني هو بالضبط الصعلوك العربى . وقصص الصعاليك خلف لنا آثاراً قصصية بديعة فى الأدب الإشباني أشهرها وأجملها هى قصة لاتاريو دى تورميس La tari llede tormes التى تنسب أحياناً إلى رجل يسمى قزمان الفاراتشى Cuzmande Alfarache ربما كان عربياً موريسكياً منتصراً اسمه قزمان بن الفرّج ، وتنسب أحياناً إلى ماتيو اليمان Mates Alemak ولاتاريو بطل القصة غلام مسكين لطيف يعمل قائداً لقس أعمى غاية فى التجل ، ومغامرات لاتاريو أو عصا الأعمى من هذا القس البغيض ، وغيره ذات طابع عربى خالص مقتبس من المقامات العربية ، وواحد من أكبر الأدباء والمؤلفين الإشبان وهو منندز يلايو Marcaline Mauomler يفخر بالفوفيل بيكاريسكا ويقرر أنها من أجمل هدايا الفكر العربى للفكر الإشباني .

وكننت أحب أن أحدثك بإفاضة عن أعظم صعلوك فى تاريخ الأدب الشعبى العربى ، وهو الزجال الشاعر الأندلسى أبو بكر محمد بن قزمان المتوفى ٢ أكتوبر ١١٦٢م خلال العصر الموحدى ، وهو الزجال القديم الوحيد الذى عثرنا على ديوانه كاملاً وهو مكتوب بلغة أندلسية : عربية أسبانية مغربية ، ولكى تفهم ابن قزمان لا بد أن تعرف هذه اللغات ولا بد أن تكون عالماً بفقهِ اللغات أى فيلولوجيا ، ولهذا فإن أحداً من العرب لم يقرأ أزجال ابن قزمان إلا الدكتور عبد العزيز الأهوانى وكاتب هذه السطور ، أما بقية من درسوه وفهموه فمن الأوربيين : خوليان ريبيرا ونيكل وليفى بروفستال وخاصة

غرسية غومس ، وقد نُشِرَ الديوان وطُبِعَ بحروف لاتينية بعنوان El lanciones de lamguromon وألف فيه غرسية كتابًا ضخماً في ١٥٠٠ صفحة عنوانه To de Jlr Gyman أى ابن قزمان كاملاً ، وهو يؤكد أن هذا الرجل أعظم عبقرية شاعرية أندلسية وهو على حق ، وابن قزمان صعلوك يسكن حجرة يصفها هو بأنها قاحلة مع أن أباه أو عمه كان وزيراً ، وأزجاله كلها تصوير واقعي رائع للمجتمع الأندلسي في عصر التدهور وهو سكير وزير نساء ومتسول ، ولكنه موهوب طريف ساحر في أسلوبه وآية في الذكاء ..

* * *

عَصْرُ التَّكْوِينِ وَمَدَاهُ

الشائع الذي يجرى عليه التاريخ عندنا أن يقسم التاريخ العباسي إلى عصرين الأول والثاني : فالأول هو عصر القوة . والثاني هو عصر الضعف والتدهور . وقد آن أن نعيد النظر في هذا التقسيم ، فإن العصر العباسي الثاني وهو عصر التدهور طويل جدًا يمتد من (٢٢٢ تقريبًا إلى ٦٥٦ هـ) ، وهي سنة استيلاء المغول على بغداد وقضائهم على الخلافة العباسية فيها ، ثم إن الدولة العباسية والمجتمع الإسلامي من حولها دخل في تطورات كثيرة غيرت شكل الخلافة وطبيعتها وصورة المجتمع الإسلامي وخصائصه خلال تلك الحقبة الطويلة جدًا من السنين ، ولهذا فإنني أقترح هنا - وهذه وجهة نظر - أن نقسم العصر العباسي إلى خمسة عصور لكل منها طابعه وخصائصه .

ومن هنا فقد أصبحت تسمية « العباسية » زائفة وتحتاج إلى استبدال ، وما دام هذا التاريخ الذي أكتبه يمثل في جملته وجهة نظر جديدة ودعوة إلى إعادة النظر في التاريخ الإسلامي العام وحضارته وتاريخ الفكر العربي ، فإنني أطرح رأيًا جديدًا وتقسيمًا جديدًا فيما يلي :

١ - العصر العباسي الأول : وهو عصر قوة الدولة وصعودها وازدهارها السياسي .

ويمتد من بداية خلافة أبي العباس السفاح وينتهي بنهاية خلافة أبي جعفر هارون الواثق بالله ابن المعتصم (٧٥٠ - ١ ديسمبر ٨٤٧ م / ١٣ ربيع الأول ١٣٢ - ٢٣ ذي الحجة ٢٣٢ هـ / ١٣ نوفمبر) .

٢ - العصر العباسي الثاني : وهو عصر تدهور الخلافة وسيطرة الجند التركي عليها من بداية خلافة المتوكل أبي الفضل جعفر بن المعتصم إلى بداية عصر أمراء الأمراء ، أي القادة المفوضين في الحكم باسم الخليفة المستضعف ، ويدخل فيها عصر سيادة البويهيين وإليه تنتهي ذروة عصر أمراء الأمراء (٢٣ ذو الحجة ٢٣٢ إلى سنة ٤٧٤ هـ / ديسمبر ٨٤٧) إلى أن تبدأ سيطرة البويهيين على الخلافة في (جمادى الأول ٣٣٤ / ديسمبر ٩٤٥) على يد معز الدولة أحمد بن بويه وتنتهي بطغرل بك أول سلاطين السلاجقة سنة ٤٤٧ هـ .

٣ - العصر العباسي الثالث : ويبدأ من نهاية العصر البويهي وبداية العصر السلجوقي أثناء خلافة أبي جعفر عبد الله القائم بأمر الله ابن القادر وهو السادس والعشرون من خلفاء بني العباس باستيلاء طغرل بك على بغداد وتفويض الخليفة القائم بالله السلطة له ، وهذا العصر هو عصر سيادة الأتراك على شرق الدولة الإسلامية سيادة كاملة ، فلم يبق للخليفة ورجاله أو للعرب إلا سلطان ثانوي ، وينتهي باستيلاء المغول على بغداد (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) ونهاية الخلافة العباسية في بغداد .

٤ - العصر الرابع : وهو ليس عباسياً ، إنما هو مغولي ؛ لأن الخلافة العباسية زالت من بغداد وسيطر المغول على شرق الدولة الإسلامية كله ، ودخلوا الإسلام وأقاموا دولة الأيلخات في إيران والعراق ويمتد من سنة ٦٥٦ هـ وهي سنة سقوط بغداد ويستمر إلى سنة (٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) وهو تاريخ بداية استيلاء الأتراك العثمانيين على شرق الدولة الإسلامية أيام السلطان سليم الأول ياووز ، ويتميز هذا العصر بسيادة المغول في العراق وإيران ، والأيوبيين ، ثم المماليك البحرية في مصر والشام والحجاز وينتهي بها ببداية العصر التركي العثماني .

٥ - العصر الخامس : وهو العصر العثماني الصفوي ، وفيه قامت الدولة الصفوية في إيران وبسطت سلطانها على العراق حتى نهض الأتراك العثمانيون وأخرجوا الصفويين من العراق وأعادوه إلى سيادة السُّنة على يد السلطان سليم الأول ، أما بلاد الشام ومصر ثم بلاد ليبيا وتونس والجزائر فقد دخلت في الدولة العثمانية ، ويستمر العصر العثماني إلى دخول الحملة الفرنسية مصر (١٢١٥ هـ / ١٧٩٨ م) وبه يبدأ عصر النهوض الذي سنتحدث عنه لاحقاً .

* * *

وهذا التقسيم جديد ، وقد خالفت فيه التقسيمات التقليدية التي أصبحت عندنا قوالب جامدة لا تتغير ، وقد أقمت هذا التقسيم على أساس التحولات الاجتماعية والحضارية الحاسمة التي مرت على الجناح الشرقي من بلاد العربوية والإسلام ، لأن العصور هنا ليست سياسية فحسب بل هي اجتماعية ثقافية ، بل ديمغرافية أي

سكانية أيضًا ، فخلال العصرين الأخيرين (الرابع والخامس) ساد المغول أولاً ثم الأتراك ثم العثمانيون بعد ذلك ، والمغول بعد أن قضوا على خلافة بنى العباس أسلموا ، وحملوا لواء دولة الإسلام في إيران والعراق وبعض الشام ، وأنشأوا دولاً تسمى دول الإيلخانات التى أدخل أمراؤها عناصر ثقافية مغولية في إيران والعراق ، وبعض هذه الدول شيعية وبعضها سنية ، وبلاد إيران والعراق وبعض نواحي الشام ما زالت تحمل آثار عصر الإيلخانات ، وعصر الصفويين والأتراك العثمانيين ، فالتركيب السياسى الاجتماعى في إيران والعراق الذى أدخل هذه الخلافات المذهبية الحادة التى لا تزال هذه البلاد تعانيها إلى اليوم ، فقد كانت بلاد إيران مثلاً سنية قبل الشاه إسماعيل الصفوى والشيخ صفى الدين الأردبيلي الذى تنسب إليه الدولة الصفوية كان سُنِّيًّا ، ولكن إيران بدأت في التحول إلى دولة شيعية أيام الشيخ حيدر الأردبيلي الذى تولى رئاسة جماعة الصفويين سنة (٨٥٩ هـ / ١٤٥٥ م) ، ولم يكن اعتماده على الإيرانيين بل على التركمان ، ومعظم الإيرانيين الأصلاء أهل سُنَّة إلى يومنا هذا ، ولكن الشيعة حمل لواءها التركمان وهم أتراك مسلمون من وسط آسيا ، ومازالوا موجودين إلى اليوم في جمهورية تركمانستان الداخلة في الاتحاد السوفيتى سابقاً ، وجدير بالذكر أن الشيخ حيدر الأردبيلي تزوج من سيدة مسيحية روسية هى دسبينا ايكاترينا De-spina Ecatrine ابنة ملك مملكة طريزون المسيحية وقد أسلمت هذه السيدة على المذهب الشيعى ، وعندما قامت دولة الأتراك العثمانيين وأخذت تبسط سلطانها على كل الجناح الشرقى لبلاد الإسلام نهض لمقاومته إسماعيل الصفوى ابن الشيخ حيدر ، وقد كان الأتراك العثمانيون يرفضون لواء السُّنَّة ، وكان لا بد أن يقع الصراع بين الصفويين والعثمانيين فرفع إسماعيل الصفوى لواء الشيعة وتزعمه وعمل على نشره في إيران بالقوة ، ولكنه انهزم أمام العثمانيين في معركة نبالديران الحاسمة في (رجب ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م) ، واحتل السلطان سليم تبريز ثم أخلاها ولكنه أخرج وسط العراق وشماله من الشيعة ورد العراق إلى السُّنَّة ويخطيء من يظن أن أهل إيران كلهم شيعة ، بل إن غالبية الإيرانيين أهل سُنَّة ، والشيعة الإثنى عشرية هناك — وهم الذين يسمون بالجعفرية — أقلية ، وكانوا مغلوبين على أمرهم بسبب استبداد التركمان الأتراك ، وكان إسماعيل الصفوي شيئاً يشبه آية الله روح الله الخمينى ، فقد كان شديد العصبية للشيعة وقد حول الشيعة إلى عصبية قومية ، الإثنى عشرية في مواجهة الأتراك

العثمانيين السُّنَّين وحتى محمد بهلوى وأخوه رضا بهلوى شاه إيران الأخير كان سُنَّياً ، ثم تحول إلى الشيعة الإثني عشرية ، وخلفه في ذلك الشاه محمد رضا بهلوى آخر شاهات إيران وكان أشدَّ عصبية في شيعيته من الخميني ، وكان يضرر للعرب والسُّنة كل شر ، وقد قصمه الله وقضى عليه بعد أن كان قد أعدَّ قوة عسكرية رهيبة وبدأ العدوان على العرب باحتلال جزر أم موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى ، وهو المسئول عن عصبية الخميني وآيات الله ، وهم أئمة الشيعة الإسماعيلية الإثني عشرية الذين يحكمون إيران اليوم لأنه بجبروته الدموي سفح دماء الألوف ومن بينهم ابن آية الله روح الله الخميني ونفاه من إيران إلى العراق ، والعراقيون لم يأذنوا له في المقام في بلادهم مراعاة لمشاعر الشاه فأخرجوه من بلادهم فلجأ إلى فرنسا واستقر في باريس .

وأخذ يعد العدة للانتقام من الشاه دفاعاً عن مصير بقايا التُركمان الذين أصبحوا إيرانيين مع الزمن ، وهؤلاء هم عصب الحركة الخمينية اليوم ولولا أن ثورتهم عليه نجحت لأبادهم الشاه ، وهذا يفسر لك استبسال الثائرين مع الخميني على الشاه ، حتى أنهم كانوا يواجهون المدافع بأجسامهم ويستولون عليها ، وهذا يفسر لك أيضاً عداة الخميني للنظام العراقي الحال الذي طرده أيام كان منفياً في العراق ، فهو عداة انتقام لا من العرب في جملتهم بل من رجال النظام العراقي البعثي الذين طردوه مجاملة للشاه ، ولهذا فإن أول مطالبهم اليوم هي إسقاط حزب البعث العراقي ونظامه . حقائق لا بد أن تعرفها لكي تفهم ما يدور هناك من صراع دموي اليوم وهو صراع غير قابل للحل إلا على أساس سقوط أحد النظامين : الخميني أو البعثي العراقي . ونحن العرب قليلاً ما نفهم حقائق تاريخنا فنتحمس ضد الإيرانيين ونحسب ذلك دفاعاً عن العروبة ، وننسى أن العراق كان في حربه مع إيران يصر على أن يسمى الإيرانيين بالمجوس ، وهم ليسوا مجوساً ولا غالبيتهم شيعة إنما الأغلبية سُنَّية ، وكيف لا يغضب السُّنَّي الإيراني عندما يقال إنه مجوسى ؟ وإن وحدة إيران لا بد أن تتفكك وتنشأ مكانها دويلات إيرانية تركمانية وخوارزمية وإيرانية وتركية وعربية .

وهذا الوصف الموجز لتطور الأوضاع السياسية في العراق وشمال الشام وما يليها شرقاً إلى حدود الهند يشرح لك سبب وجود الأقليات الدينية الغريبة في العراق والشام حتى لبنان ، فهناك عرب وأكراد وترك وتركمان وشراكسة ، وهناك شيعة من كل لون :

شيعة وإثنى عشرية وزيدية ، وهناك سنة وهناك إسماعيلية حشاشون من الذين كانوا يريدون إبادة أهل السنة وعلى يدهم قُتِلَ نفر من أعلام السنة مثل عماد الدين زنكى أول أبطال الإسلام في حربهم مع الصليبيين ، وهناك دروز وهم بقايا مذهب شيعى ابتكره رجل يسمى حمزة الدرزي أثناء سيادة الفاطميين على بلاد الشام أيام الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، وهم مسلمون لفظاً لا معنى ، وهناك نصيرية علوية وهم شيعة شواز في عقيدتهم أوشاب نصرانية يسمون أنفسهم مسلمين ، وهناك مساحرة يعبدون الشمس ، وهناك نحو عشر طوائف مسيحية منها واحدة هى من بقايا الصليبيين هم الموارنة الكاثوليك ، هنا نفهم لماذا قال ابن قيم الجوزية في إحدى رسائله : « إن شر ما في زمانه هو أنك لا تعرف من هو جارك فكل رجل من جيرائك من جنس ودين ، فلا أدري وربك أين ذهب العرب ؟ وأين ذهب الإسلام ؟ » وهذا السؤال صادر عن ابن قيم الجوزية لا منى .

هذا الخليط الغريب من الأجناس والأشكال والأديان يضع أصبعك على السبب الأكبر فيما يسمى بالركود ، يجوب العالم الإسلامى سياسياً وفكرياً وحضارياً ، فقد انحلت عقدة الأمة واختفى العرب من ميدان السياسة والسيادة ، أو صاروا قلة لا تذكر أو تؤثر والسيادة أصبحت لأجناس المغول والترك والتركماني والأكراد والشركس القوقازيين بل الأرمن والكرج بضم الكاف ، وهؤلاء جميعاً كانوا حديثي عهد بالإسلام والذين أقبلوا على العربية منهم قليلون ، فانحط مستوى الفكر والمفكرين وكثرت المدارس وتكاثر فيها الطلاب وكلهم يدرسون المبادئ الصغيرة ، ولم تعد هناك بلاطات ملوك عظماء يجيزون أو يهبون الألوف ثم إن البلاد في مجموعها قد افتقرت : الصليبيون نهبوا وخربوا من ناحية ، والمغول والتتار خربوا من ناحية أخرى ، بعد الحرب الصليبية الأولى جاءت الثانية والثالثة إلى التاسعة سوى القليل من الصليبيات التى لا تحسب ضمن كبار الصليبيات ، ومغامر فارس فرنسى يسمى جود فروا صاحب بوايون خرج من بلده لا يطمع في أكثر من ضربة أو نهبه يجد نفسه ملكاً على مملكة تسمى بيت المقدس (١٠٩٩ — ١١٠٠ م) ، ويخلفه على العرش في قلب بلاد الإسلام ثمانية عشر ملكاً ولا تنتهى إلا سنة ١٢٤٣ م ، وفارس آخر يسمى يوهيموند يجد نفسه أميراً على إمارة واسعة قاعدتها أنطاكية (١٠٩٨ — ١١١٠ م) ويعقبه على

إمارتها خمسة عشر أميرًا ولا تنتهى هذه الإمارة إلا سنة ١٢٦٨ م ، وكذلك الأمر مع إمارة الرها شمالى العراق التى استمرت من ١١١٨ إلى سنة ١١٤٤ م .

وقل شيئاً شبيهاً بذلك فى إمارة طرابلس وأحس الأوربيون ضعف ديار الإسلام فتقاطر الألوف من الفرسان والمهاجرين واللصوص على بلاد الشام وكل واحد من هؤلاء يقتل ويسرق وينهب ويستولى على الأراضى والأموال .

وأسوأ من ذلك ما فعله المغول والتتار أيام جنكيز خان الذى خرب بلاد ما وراء النهر ودمر سمرقند وبخارى ووسط إيران ، وهولاكو الذى خرب بغداد وجعلها قاعاً صفصفاً وهدم من المدارس والمساجد ألوفاً ، وأحرق وأغرق من الكتب مقادير تفوق كل تصور ، كل هذا أفقر عالم الإسلام ، وأكمل ما ارتكبه طغاة الملوك ووزراؤهم ولهذا كان شرق عالم الإسلام فى إيران والعراق قد تحول إلى خراب شامل ، وبغداد التى كانت زهرة مدن الدنيا أصبحت قرية مهجورة مخربة والعراق كله غرق فى الفقر والخراب ، وكيف يرتقى فكر فى هذه الأرض اليباب كلها ، وأقرأ عن ابن واصل والمقرئزى تفاصيل الأحوال التى نزلت بأمة الإسلام فى تلك العصور السوداء .

* * *

من هذا الخراب كله استثنى الله سبحانه بلاد مصر ومعظم الشام فإن جهاد عماد الدين زنكى ونور الدين محمود ، ثم صلاح الدين الأيوبي انتهى بإعادة الوحدة الإسلامية وقضى على اثنتين من إمارات النصارى وكسر ظهر المعتدين الصليبيين ، وأقام دولة الأيوبيين (٥٦٤ - ٦٤٨ هـ / ١١٦٩ - ١٢٥٠ م) ، والمماليك البحرية (٦٤٨ - ٧٨٢ هـ / ١٢٥٠ - ١٣٨١ م) ثم البرجية (٦٨٤ - ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) هذه الدول صانت مصر والشام من الخراب ، بل كسرت ظهر المغول والتتار ثم استخلصت بقايا الشام من الصليبيين ، فظلت سلطنة مصر والشام حصن الإسلام والعروبة والفكر الإسلامى العربى ، فتقاطر العلماء عليها وأصبحت بلادها فى مصر والشام مثابة الفكر العربى وموئله ، ومن غرائب خصائص مصر أن الفاطميين حكموها من (٣٥٨ - ٥٥٥ هـ / ٩٦٨ - ١١٦٠ م) وأنشأوا الجامع الأزهر ليكون

حصن الدعوة الشيعية وأقاموا الدعاة ومراكز الدعوة وأنفقوا الأموال ليكسبوا مصر إلى الشيعية ، ثم انتهى أمرهم فيها بعد قرنين من الزمان دون أن يخلفوا فيها شيعياً واحداً وبقيت مصر كتلة إسلامية سُنية واحدة يعيش معها أقباط مصر « وهم الطريق المستقيم بين المسيحيين في هدوء وأمانة » ، والجامع الأزهر تحول إلى أكبر مركز للإسلام والسُّنة من أيام صلاح الدين ، وما فعله هذا الجامع الجليل الذي يعتبر بحق أعظم جامعة في الدنيا منذ تحويله إلى مسجد وجامعة للسُّنة ، والجامعة أيام صلاح الدين (٥٦٤ - ٥٨٩ هـ) لا يفي بتفصيله هذا الموجز ، فمن أقاصى المغرب ومن الأندلس الذهاب ونواحي المغرب ومن قلب إفريقيا إلى أقصى بلاد الملايو وأندونيسيا تقاطر طلاب العلم يدرسون ويحفظون ويعلمون والطلاب يدرسون ، بل أنشئ في ما يمكن أن يسمى بمدينة جامعية ، فقام فيه رواق المغاربة ورواق الملايو ورواق الأتراك ورواق السودان ورواق شنقيط (مالى) ، وغيرها وألوف بعد ألوف من الطلاب درست فيه وعاشت على جرياته وأوقافه ، وهذا الجامع وحده تكفل بإحياء علوم السُّنة جميعاً إلى يومنا هذا فوق الألف عام ، والأزهر ولد مئات المدارس ومعاهد العلم حتى إننا لنجد اليوم أزهرًا في أندونيسيا وآخر في ماليزيا وأزهرًا في السودان وإن شاء الله سينشأ أزهر في قلب أوروبا وآخر في قلب أمريكا .

في حدود سلطنة مصر والشام هذه التى أخذ الفقر يشتد عليها بسبب سوء سياسات الأيوبيين والمماليك وحيلهم إلى سرقة الرعية حتى بلغت السرقات والنهب ذروتها بعد دخول مصر والشام في دولة الأتراك العثمانيين ابتداء من سنة (٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م) لأن الأتراك العثمانيين بعد أن بلغت دولتهم ذروة قوتها أيام سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦ م) تحولت إلى دولة سرقة ونهب لأموال الرعية لأن الأتراك بطبعهم يأخذون ولا يعطون وكانت إدارتهم إدارة جمع أموال ، وفي كل ناحية أقاموا جماعة من أهل القوة يقولون الضبط (ضبط الأمن) والربط (ربط الأموال) فلم يضبطوا الأمن ولكنهم ربطوا الأموال وجعلوا عليها في مصر والشام جماعة من بقايا المماليك وهم البكوات فاشتد الفقر والخراب وهبط العلم والفكر نتيجة لذلك أكثر فأكثر ، لأن بكوات المماليك في العصر التركي كانوا - حرقياً - لصوصاً بل قطاع طرق .

هذا هو الإطار السياسى والاجتماعى الذى نشأ فيه وتزايد ركود الفكر والعلم ،

والركود هنا معناه أن الفكر توقفت مسيرته لقلة طالبه وندرة القادر عليه ، وقد تحدثت سابقاً عن بعض مظاهره وأضيف الآن تفاصيل أخرى ، فكل مذهب من مذاهب الفكر توقف بل تراجع وهبط مستوى الفكر هبوطاً تاماً ، ولم يعد يظهر من العلماء إلا قلة ذكرنا فيما مضى بعضهم ابن خلدون الذى يعد سراجاً توهج في الظلام ، وابن بطوطة محمد بن محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى (٧٠٣ - ٧٩٩ هـ / ١٣٠٣ - ١٣٩٦ م) وهو أعظم رحالة في التاريخ حتى العصور الحديثة ، فهذا الرجل النابغة ولد طلبة رحالة ندب نفسه للطواف في بلاد الإسلام ووصفها وصفاً دقيقاً وقدم تقريراً عنها إلى أمة الإسلام يطمئنها فيه على أنها ما زالت بخير بعد نكبات المغول والصليبيين ، وهذا التقرير البديع العظيم يسمى « تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ، وهذا الرجل الكريم يهتم جداً بذكر مراكز العلم والدراسة والزوايا والخانقاوات وزوايا الصوفية التى كان أصحابها لا يعرفون في دولة الإسلام العريضة حدوداً أو قيوداً ، والعالم المترحل والتاجر المكتسب وطالب العلم الطموح والحاج التقى يحل حيث شاء من عالم الإسلام سهلاً ويلقى أهلاً ؛ لأن دار الإسلام واحدة وأمة الإسلام واحدة وقلوب الناس ظلت دائماً عامرة بالخير ، أما الحكام فكانوا في مجموعهم أوشاباً ضارة لا يحسب لهم في حساب الحضارة حساب .

* * *

وسنخصص بقية هذا الحديث لمن حملوا لواء العلم والفكر والأدب في عالم الإسلام في عصور الركود ، وسنختار منهم خيار الخيار وسنتحدث كذلك عن استمرار ظاهرة الموسوعية والحرص على تسجيل التراث محافظة على أمجاد أمة العروبة والإسلام من الضياع .

في طريقنا إلى قلب عصر الركود يلقانا شاعر زهدى يبدع حقاً هو ابن الفارض أبو حفص عمر بن علي السعدى ، وهو مصرى ولد في القاهرة سنة (٥٧٦ هـ / ١١٨١ م) في بدايات العصر الأيوبي وظهوره هنا إرهاباً بانتقال مركز الفكر إلى مصر ، وقد خلقه الله روحاً صافية زاهدة في هذه الدنيا فدرس علوم الدين وتزهد وسكن موضعاً من جبل المقطم كان يسمى وادى المستضعفين لتجمع الزهاد فيه ، وتاقت نفسه إلى الحرمين

فخرج إلى الحجاز بعد وفاة والده وأقام هناك خمس عشرة سنة تفتحت خلالها عليه فيوض الحب الإلهي وتجلى عن شاعر زهدي لم يصل إليه في تاريخ الفكر الإسلامي نظير ، وطار شعره الزهدي كل مطار ، وعندما وصل مصر عائداً من الحجاز لقي أهلها مرحبين به ، واتخذ لنفسه مجلساً في قاعة الخطابة بالأزهر الشريف ، وظل يلزم مكانه يتعبد ويقول شعر الحب الإلهي حتى توفى في القاهرة سنة (٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م) ودفن في سفح جبل المقطم .

كان ابن الفارض زاهداً صادق الزهد ، وشاعراً رائع الشاعرية ، وكان يرسل معانيه الزهدية في أبيات في رقة النسيم وديوانه حافل بأبيات مثل قوله :

صفاء ولا ماء ولطف ولا هواء ونور ولا نار وروح ولا جسم
وتأنيته الكبرى ديوان الحب الإلهي ، وتقع في ٧٦٠ بيتاً ليس فيها بيت ركيك أو معنى متكلف أو مبتذل ومطلعها :

سقتني حميا الحب راحة مقلتي وكأس محيا من عنا الحسن جلتي
ومن أقواله في الحب الإلهي :

فإن شئت أن تحيا سعيداً فعش به شهيداً وإلا فالغرام له أهل
وهو يتحدث في ديوانه عن الحب الإلهي الصافي ، ومن أجمل أبياته قوله :

خفف السير واتئديا حادي إنما أنت سائق بفؤادي
وقد شبهه مؤرخ التصوف الإسلامي رينولد نيكلسون بأعظم المتصوفات الكاتبات في الغرب المسيحي ، وهي تيريزا دي جنوس أو تيريزا دي سيجوفيا (شقوبية بأسبانيا) وكتابها الصوفي المسمى بالمنازل أو المقامات Les Morodas قطعة من الأدب الزهدي المسيحي البديع ، وتيريزا هذه هي التي أنشأت جماعة الراهبات الحافيات Les Des-Colzas وقد أنشأت تلك الجماعة أديرة للراهبات ومراكز لعلاج الفقراء في نواحي الدنيا كلها ، واحد منها مشهور عندنا في شبرا في مصر وهي كنيسة ست تيريزا التي يتبرك بها المسيحيون .

وإذا كان ابن الفارض شاعراً رفيع الشعر ظهر في بداية عصر الركود كأنه شهاب

سنة (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) ، وهى سنة سقوط بغداد وخرابها على أيدي المغول .
وأكتفى من شعراء العصر بهذين المثالين فلا معنى لأن أثقل عليك بأمثال صفى
الدين الحلبي عبد العزيز بن سرايا من أبناء الحلة في العراق (٦٧٧ - ٧٥٠ هـ / ١١٧٨ -
١٣٤٩ م) وابن نباتة (٦٨٦ - ٧٦٨ هـ / ١٢٨٧ - ١٣٦٦ م) وأمثالهم ، فهؤلاء
ليسوا شعراء أو مفكرين ، ولكنهم نظامون مولعون بالمحسنات البديعية التى تتنافى مع
أى جمال شعري .

وعلى ذكر المحسنات اللفظية أقف بك عند أشهر ناثرى ذلك العصر وهو القاضى
الفاضل عبد الرحمن البيسانى (٥٢٩ - ٥٩٦ هـ / ١١٣٤ - ١١٩٩ م) الذى لم يكن
قاضياً ولا فاضلاً ، وهو من كُتَّاب الدولة الفاطمية ولكن أمره اشتهر أيام صلاح الدين
الأيوبي فقد كان رئيس ديوان الإنشاء عنده ، ونثره كله سجع وزينة وجناس وتورية
دون معنى يذكر وهو فى كتاباته أثقل من أبى القاسم الحريري ، ومن أسف أن هذا
الرجل أثقل على النثر الفنى بسجعاته وتورياته وتكلفاته حتى قضى على عنصر الإلهام
والإبداع فيه وظل النثر على ذلك الشكل الجامد البارد حتى العصر الحديث .

وقد حدثتك سابقاً عن الحُفاظ - أى العلماء الذين حولوا أنفسهم إلى خزائن كتب
وأثقلوا رءوسهم بالمحفوظ حتى لم يعد فيها مكان للتفكير - ولكننا لا بد أن نستثنى ابن
تيمية وهو تقي الدين أحمد بن عبد السلام الحرانى (٦١١ - ٨٢٧ هـ / ١٢٦٢ -
١٣٢٨ م) وهو شامى من أهل فلسطين وكان حافظاً وفقياً جليلاً ذا رأى وفكر ، وقد
عاش فى عصر خطر تعرضت فيه الأمة للغزوات فكان يخرج للجهاد ويخوض المعارك ،
وكان رجلاً جريئاً يقول رأيه دون نفاق وكان شديداً على معاصريه من فقهاء
السلطنة لا يزال يختلف معهم فيشكوه إلى السلطان فيدخله السجن ثم يخرج منه
ليعود إليه حتى دخل السجن ثلاث مرات توفى فى آخرها ، وكان الرجل حنبلياً متشدداً
تصدر منه بين الحين والحين آراء ينكرها أهل عصره مثل قوله : إن زيارة قبر الرسول
ﷺ غير واجبة فأذى بذلك مشاعر المسلمين ؛ لأن زيارة الحرم النبوى إن لم تكن واجبة
شفاعاً فهى واجبة عاطفة وحباً .

بَدَايَةُ النُّهُوضِ

بهذا الفصل والفصل القادم والذي يليه أقف بهذه الدراسة التي أجهدت نفسي فيها - والقارئ معي - وأعتذر له عن ذلك ! فقد كانت غايتي منذ البداية أن أعيد النظر في تاريخ الفكر العربي وأعيد تقييمه ووزن رجاله وثمراته بالميزان الصحيح الذي ينبغي أن يوزن به كل عمل فكري ، وهو ميزان الصدق والجدوى العائدة منه على الإنسان ، والاحترام لحقوقه وحياته وكيانه وكرامته .. ونحن ما زلنا مع الأسف ندرس تاريخنا الفكري ونقومه ونزنه بمقاييس وضعها رجال من أهل القرن الرابع الهجري وما حوله - أي قبل ألف سنة - مقاييس هندسة الألفاظ وافتعال المعاني وتوازن العبارات وعذوبة الكلمات ، وما إلى ذلك مما ابتكره أئمة الأدب والنقد الأدبي في تاريخنا من أمثال أبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ (ت ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م) ، والصاحب ابن عباد أبو القاسم إسماعيل بن عباد (ت ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م) وبديع الزمان الهمذاني أحمد بن الحسين بن يحيى (ت ٣٩٨ هـ / ١٠٠٨ م) ، والثعالبي أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل صاحب « يتيمة الدهر » (ت ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م) ، وأبي الفرج الأصفهاني صاحب كتاب « الأغاني » (ت ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م) ، وأبي هلال العسكري الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد صاحب كتاب « الصناعتين » (ت ٢٩٥ هـ / ١٠٠٤ م) ، وابن رشيق القيرواني أبي على الحسن (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م) ، صاحب كتاب « العمدة » ، وأخيراً شيخ نقاد الفكر والحضارة في تاريخ الفكر العربي وهو عبد الرحمن بن خلدون الذي تحدثنا عنه ، وخلاصة رأيه في الفكر والأدب والإنشاء الأدبي أن الأفكار ليست بذات قيمة لأنها متوارثة وملقاة على الطريق في متناول أي إنسان ، ولكن الإبداع الأدبي كله يتوقف على الأسلوب والألفاظ وهذا - مع تقديرنا البالغ لابن خلدون - أسوأ مقياس يقاس به الفكر ويقدر على أساسه المفكرون وخاصة إذا صدر عن رجل ميزته الكبرى أنه مفكر ، ولكنه كان ابن عصره لم يتجاوزه إلا في النادر .

ومن كل أسف أن دراساتنا الأدبية والفكرية ما زالت تقوم على هذه المقاييس والقواعد التي وضعها رجال عاشوا في عصور كان الفكر العربي كله فيها في حالة إغماء

اعقبتها غيبوبة أو « كوما » ثم تحجر وقام الجماعون بتحنيطه ووضعوه في توابيت استمر فيها حتى العصر الحديث ، وما زال مؤرخو الفكر والأدب عندنا يقولون : قال الثعالبي في اليتيمة والصفدى في الخريدة ، وأبو هلال العسكري في الصناعتين ، أو ابن رشيق في العمدة ، مع أن هذه كلها آراء وأحكام ولدت ميتة وتعفنت مع الزمن ، بل الأعجب من ذلك ما تراه من بعض أساتذة الأدب في جامعاتنا اليوم من كلام في نظريات أبي هلال العسكري أو أبي بكر الصولي وابن رشيق في النقد الأدبي ، وهذا في ذاته يدل على تجمد الدراسات الجامعية عندنا اليوم ووقوفها عند الماضي وتحولها إلى مدارس وخنقاوات وتكايا ، كتلك التي كثرت في العصور المملوكية وقد تحدثنا عنها وعن أثرها في تدهور العلم والعلماء .

وهذا الكلام عن ميلاد عصر النهوض الذي نعيشه لابد أن يكون موجزًا جدًا ؛ لأن ذلك العصر بدأ من أقل من قرنين من الزمان ، فقد بدأ بالضبط في ظهر أول يوليو ١٧٩٨ عندما هبطت قوات الجيش الفرنسي وعددها ٣٢,٠٠٠ مقاتل على رأسها الضابط الشاب نابليون بونابرت شاطئ العجمي في الإسكندرية معلنة بذلك بدء نهاية عصر المماليك وبداية النهاية العصور الوسطى لعالم العرب ، أما النهاية نفسها فكانت ضحى ١٣ يوليو ١٧٩٨ عندما تمزق جيش المماليك إربًا وفر الباقون من بكواتهم وجنودهم إلى القاهرة بعد معركة امبابية التي يسميها الأوروبيون معركة الأهرام ، نحن نسميها باسم المكان الثابت ، وهم يسمونها باسم الزمان المتحرك ، وفر بكوات المماليك إلى القاهرة وحمل كل منهم ما استطاع من ماله وجواهره وسلاحه وانطلق هاربًا على وجهه إما إلى الصالحية في محافظة الشرقية في أثر إبراهيم بك الهارب إلى الشام ، وإما في أثر مراد بك الذي هرب إلى الصعيد ، وقد كان معظمهم على أى حال قد حملوا معهم أغلى ما يملكون من ثروة ؛ لأنه كما يقول جـ كريستوفر هيرولد في كتابه الممتع عن نابليون في مصر : إن الفارس المملوكى لم يكن يعرف الخوف أو الحب وهو لا يؤسر أبدًا في الأغلب الأعم ، فهو إما منتصر في المعركة وإما مقتول وإما هارب بسرعة البرق التي هاجم بها عدوه ، وقد حمل هذا على أن يأخذ معه أينما سار ثروة لا يستهان بها من الثياب والجواهر والنقود فهو يرتدى فوق قميص من المسلمين عدة صدارات وقفطين حريرية زاهية ويضعها كلها في سراويله الحريرية الضخمة التي يتسع السروال منها

لرجل كبير ضخمة ، وكان الماليك على العموم ضخماً طوالاً فهم يختارون وهم صبيان بمعرفة خبراء وكانت ملامحهم وسيمة ، وإذا استثنينا نفرًا قليلاً من الزوج بينهم فإنهم كانوا على حد قول ديفرنا « رجالاً مليحى الوجوه لبشرتهم لون الزنبق » (ص ٢٧ من ترجمة فؤاد اندراوس) ، وإنما حرصت على إيراد صورة واحدة من هؤلاء الماليك ؛ لأنها تعطينا فكرة عن العسكريين المرتزقين الذين أذلوا أمم العرب والإسلام وحرّموا أهلها من الحرية والفكر والرخاء (انظر هنا : جلال كشك : ودخلت الخيل الأزهر ص ١٧٠ وما بعدها) .

وقد قتل في هذه المعركة أكثر من نصف قوة الماليك ، أما الباقيون فقد هربوا بعد أن أشعلوا النار في المراكب التي انتقلوا فيها من بولاق إلى امبابة وبات أهل القاهرة الذين ملأهم الرعب على ضوء اللهب المتصاعد من السفن المحترقة ، باتوا في قلق بالغ .

فقد دھيت بلادهم بشيء لم يكونوا ينتظرون أسوأ منه ، فقد هلك سادة البلد والمدافعون عنه وأولياء أموره من الماليك ومن كان معهم من الألبان والآتراك وعليهم أن يبادروا من الغد لمواجهة العدو النصراني المنتصر الغازي والتفاهم معه على ما يمكن أن يصيب بلادهم على يد هؤلاء الصليبيين الجدد القادمين بأسلحة رهيبة من المدافع والبنادق ، وبعد أيام قابل وفد من مشايخهم رجال نابليون ثم نابليون نفسه ، وتم الاتفاق بصورة مبدئية على تعهد من جانب الفرنسيين باحترام الإسلام وأهل البلد وحرّمهم وتقاليدهم ، وأنشئ ديوان أو مجلس حكم مصرى فرنسى للتفاهم على النظام الجديد للبلاد ، وعاد المشايخ ومن معهم من الأعيان إلى بيوتهم والقلق يملأ نفوسهم وهم لا يعلمون أن هذا كان أعظم حادث في تاريخهم منذ قرون ، فللمرة الأولى يتولون أمور بلادهم بأنفسهم ويتفاوضون على حاضرها ومستقبلها دون وصاية مستبدين غاشمين جبناء من الحكام الأجانب والجند المرتزقة ، حقاً إنهم كانوا يواجهون عدواً أجنبياً محتلاً نصرانياً ، ولكن المصريين الآن يتحدثون باسم بلادهم ، وواحد منهم وهو محمد كريم أقامه الجنرال كليبر حاكماً للإسكندرية وأراد منه أن يخدم المحتل الغاصب على حساب بلاده وضميره ، فرفض فحكم عليه كليبر بالإعدام وأعدم في ٦ سبتمبر ١٧٩٨ م ، فكان أول شهيد مصرى في سبيل حرية وطنه منذ أيام الصليبيات ، وخلفه الشيخ المسيرى وكان ألين عريكة ، وأنشئ الديوان وكان رئيسه

نابليون ، ومثل الفرنسيين فيه العالمان مونج ، وبرتوليه ، وانتخب الأعضاء الشيخ الشرقاوى رئيساً فرفض أن يلبس الجوكار رمز الثورة الفرنسية وغضب ، وعين الجنرال ديغا ثم خلفه دوبوا حاكماً على القاهرة ، وأظهر الفرنسيون أقصى ما استطاعوا من نفاق في الأسابيع الأولى ليخدعوا المصريين عن حقيقة الاحتلال وبلغ الأمر أن أعلن نابليون أنه هو وجنوده قد اعتنقوا الإسلام ، ونابليون لبس العمامة والجبّة والقفطان ولكن أحداً من المصريين لم يصدق ذلك .

وهذا الحادث الفاصل - غزو الفرنسيين لمصر واحتلالهم إياها وقيامهم بحكمها - هو الذى عبر عنه مؤرخ العصر عبد الرحمن الجبرتي بالعبارات التالية الحافلة بالمعاني والتي استهل بها حوادث سنة (١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م) في مطلع الجزء الثالث من تاريخه : وهى أولى سننى الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة ، وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالى المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأحوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب ، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ، واستشهاد الجبرتي في آخر هذه العبارة بالآية القرآنية (رقم ١١٧ من سورة هود) يؤيد ما سبق أن قلناه أكثر من مرة في هذا البحث ، وهو أن الله لا يهلك الناس إذا كانوا مصلحين لأنفسهم وللاأرض بعمارتها فقد رأينا مرة بعد أخرى كيف أن المسلمين انحرفوا عن المنهج الإلهي الذى رسمه لهم ليسعدوا في الدارين ، فحق عليهم العذاب لأنهم مفسدون ، أما نتيجة الظلم والانحراف في بلادنا فيصورها أحد ضباط الحملة الفرنسية بقوله : ماذا تجد عند دخولك القاهرة ؟ شوارع ضيقة قدرة غير مرصوفة ، وبيوتاً مظلمة متداعية ، وأبنية عامة تبدو وكأنها السجون ، وحوانيت أشبه بمرباط الخيل ، وجوّاً عبثاً برائحة التراب والقمامة ، وعمياناً وعوراً ، ورجالاً ملتحين وأشخاصاً يرتدون أسماً محشورين في الشوارع أو قاعدين يدخنون قصباتهم كالقردة أمام مدخل كهفهم ، ونساء قليلات منكرات الصورة مقززات يخفين وجوههن العجفاء وراء خرق نتننة ويبدن صدورهن المتهدلة من أرديتهن الممزقة ،

وأطفالاً صفر الوجوه رفاق الأجساد ينتشر الصديد على جلدهم وينهشهم الذباب ،
ورائحة كريهة منبعثة من الأوساخ داخل البيوت ، ومن التراب في الهواء ومن قلى الطعام
بزيت ردىء في الأسواق العديمة التهوية ، فإذا فرغت من التفرج على معالم المدينة عدت
إلى منزلك فوجدته خلواً من كل أسباب الراحة ، ووجدت الذباب والبعوض وضروباً لا
تحصى من الحشرات فى انتظارك لتتسلط عليك أثناء الليل فتتنفق ساعات الراحة وأنت
تسبح فى عرقك وقد نال منك الإعياء ، تهersh وتنتشر البثور فى جلدك وتنهض فى الصباح
وقد أخذ منك السقم كل مأخذ وعشى بصرك وجاشت نفسك وفسد طعم فمك وغطت
جسدك الدمامل أو القروح على الأصح ، ويبدأ يوم جديد هو صورة الأمس (نابليون فى
مصر الترجمة العربية ص ١٨٨) .

ولا يظن ظان أن فى هذه العبارات مبالغة فهى حقيقية ، وهى صورة مجتمع أهلكه
الظلم والجهل مدى اثنى عشر قرناً حتى بيوت الأغنياء فى نابليون دهش عندما نزل فى
دار محمد الألفى بك فى الأزبكية ليتخذها مقراً له ، وكان الألفى أغنى المالك فلم يجد
فيها نعمة ولا أشياء لها قيمة ، لا أوانى فاخرة ولا رياضاً غالية سوى بعض السجاجيد
البالية وأرائك مغطاة بحرير هالك ، ومهما يكن الألفى قد هرب به فهذا الذى وجده
نابليون ليس بيت سيد عظيم غنى ، وهذه أيضاً نتيجة للظلم ، فإن الظلم ينتهى بفقر
الحاكم والمحكوم وتعاستهما معاً ، وأين والله ذهبت ثروة مصر التى كانت مضرب المثل
فى العصور القديمة ؟ لقد جبى خراجها دون مشقة - عمرو بن العاص فكان اثنى عشر
مليون دينار فى العام ، فما زالت تتناقص حتى غرق البلد فى الفقر والتعاسة . وقبل
الغزو التركى لمصر زار مصر سائحاً سفير إيطالى أسباني يسمى ماريتردى انجلاريا ،
فاندesh من فقر البلاد حتى أن قنصوة الغورى سلطان مصر كان يستقبل ضيوفه فى
رحبة قصره فى القلعة جالساً على دكة من الخشب وعليه ملابس كثيرة باهتة الألوان ،
وهذا هو سلطان الممالك ، ولكنه كان سلطاناً لصاً وليس هذا كلامى ، بل كلام ابن
إياس ؛ لأن الغورى عندما أراد أن يبنى مسجده المعروف بمسجد الغورى لم يجد مالاً
يبنى به ، فصار يأمر العمال بسرقة الأعمدة والأحجار من المساجد الأخرى ، فأطلق
ظرفاء المصريين على جامع الغورى اسم المسجد الحرام لأنه بنى كله من الحرام .

* * *

تلك هى بداية العصر الحديث أو عصر النهوض كما نسميه ، عرضتها عليك لكي تكون لديك فكرة عن المشوار الطويل الذى قطعناه فى أقل من قرنين من الزمان ، وما قرنان فى حساب عصورنا الوسطى ؟ ولو لم يدخل الفرنسيون مصر ويحطموا جدران السجن الرهيب الذى كنا نعيش فيه لكننا إلى يومنا هذا نعيش فى حكم ممالك من أمثال مراد وإبراهيم والبرديسى والألفى ولكننا إلى يومنا هذا نرسف فى أغلال الظلم التركى الذى عم كل أهل الدولة العثمانية وأولهم الأتراك ، فقد كانوا وهم السادة آتس من الرعايا ؛ لأن العقلية التركية بعد عصر سليمان القانونى دخلت فى ركود رهيب ، وسليمان هذا الذى يلقبه الأوروبيون بالفخم هو الذى منح الأجانب الأوروبيين جميعاً تلك الامتيازات الغربية التى جعلت الأجنبى يعيش فى بلاد الدولة العثمانية السعيدة أسعد من أهل البلد ، ونحن المصريين لم نتخلص من ذلك الوضع المهيمن إلا سنة ١٩٣٨ فى معاهدات مونتريه بعد معاهدة ١٩٣٦ ، ولا عجب فى هذه الحالة أن نسمع مثلاً يقول : إن الصياد العثماني إذا أراد أن يطارد أرنباً ركب عربة يجرها ثور ، وهذه هى طريقته فى العمل والتصرف .

وتاريخ الفكر العربى خلال عصر النهوض يبدأ من هذه الصورة المخيفة ، فبعد مظالم الأتراك والمماليك والاحتلال الفرنسى القصير المدى الذى تحول بعد هدنة قصيرة إلى استبداد غاشم نهاب وخاصة بعد ثورة القاهرة على الفرنسيين وقتلهم دوبوا حاكم القاهرة الفرنسى فى أكتوبر ١٧٩٨ ، والفرنسيون مضوا على أى حال سنة ١٨٠١ بمقتضى معاهدة إميان مع الإنجليز الذين وضعوا أعينهم من ذلك الحين على مصر ، فرسموا سياساتهم على أساس الاستيلاء عليها وتحويلها إلى مستعمرة إنجليزية ومحطة فى طريق مستعمراتهم فى الهند وبقية آسيا وإفريقية ، وبعد خروج الفرنسيين عادت مصر إلى حكم الأتراك ، والشيخ عبد الرحمن الجبرتى وهو آخر أهل الفكر المصريين فى العصور الوسطى وأولهم فى العصر الحديث يضطر إلى النفاق خوفاً على حياته بعد خروج الفرنسيين شأن معظم رجال الفكر العربى فى عصور الظلم فقد خشى مغبة بعض عبارات أوردها فى تاريخه مدحاً فى بعض مظاهر الحضارة الفرنسية

مثل الديوان ونظم المحاكمة وصدق المعاملات التجارية فألف كتاباً جديداً إلى جانب تاريخه كله نفاق وكذب وسماه « مظهر التقديس في خروج الفرنسيين » كال فيه الذم للفرنسيين والمديح للأتراك كيلاً منفراً وأعلن استبشاره بعودة الأتراك لحكم مصر إعلاناً كاذباً سمجاً ، ولكننا لا نقسو في الحكم على عبد الرحمن الجبرتي لهذا السبب فما كان الرجل إلا مفكراً مصرياً مستضعفاً لا يأمن سيف الجبار التركي ، ولكنه لم ينج من سيف جبار مصر الجديد محمد علي الذي أضمر له سوء عبارات سمع أنه قالها في تاريخه في نقد نظامه فدبر اغتياله ، والمسكين سقط تحت سكاكين القتلة وهو عائد إلى بيته من شبرا في ليلة ظلماء هي ليلة (٢٧ رمضان ١٢٣٧ هـ / ٢٢ يونيو ١٨٢٢ م) .

ومحمد علي ذلك الجندي الأرنؤوطى الذكى المرتزق الذى دخل مصر فى جملة جنود الأتراك الذين عادوا إلى مصر استطاع استعمال المصريين الطيبين فى الانتقال من قائد فرقة من الجند الألبان الذين كانوا يبدون كالمسولين إلى مرشح المصريين لولاية مصر على رغم السلطان ، ثم تولى أمور مصر بإرادة شعبها وزعامة شيخها عمر مكرم ، وما كاد يستقر فى الولاية سنة ١٨٠٥ حتى عاد القهقرى بالفكر السياسى ، واتجه إلى استجلاب جند مرتزق من السودانيين ليحكم بهم مصر حتى نبهه إلى خطئه الكولونيل سيف الفرنسى ، الذى قال له : إن خير ما يعتمد عليه هم رجال بلده وإنهم فى فرنسا ينشئون جيوشهم من فلاحى فرنسا الذين يأتون بهم من لافانديه وعسفوينا ونورمانديا وغيرها ، ويدربونهم فيصبحون من أحسن الجنود ، وفعل محمد على ذلك ، وأنشأ الجيش المصرى الذى ثبت عرشه ، وقام بالفتوح العظيمة فى كل اتجاه ، والكولونيل سيف هذا الذى يعتبر بحق من منشئى جيش مصر أثبت أنه من أكثر الناس إخلاصاً لها فأسلم وتسمى بسليمان الفرنساوى ، وهذا الرجل العظيم عدا على ذكره حاكم جبار هو جمال عبد الناصر الذى أزال اسمه وتمثاله من أحد شوارع العاصمة وقد جرى فى ذلك على تقليد نكران الجميل والعدوان على المخلصين .

وهو تقليد دائم جرى عليه الطغاة المستبدون الذين أشرنا إليهم فيما سلف من هذا الكلام .

وقد جرينا على القول بأن محمد على هو منشئ مصر الحديثة ، وهذا حق وصدق ، ولكنه لم يكن رجلاً عظيماً لولا شعب مصر الموهوب الذى استجاب بطبعه الحضارى لنداء الحضارة ، وأكبر دليل على ذلك هو أن مصر هو البلد العربى الوحيد

الذى اتصل فيه تقليد أهل الفكر رغم سوء الأحوال وسلسلة المؤرخين العظام التى انتهت بابن إياس الحنفى واستمرت بعبد الرحمن الجبرتى الذى لم يكن مؤرخاً فحسب ، بل كان مفكراً متطلعاً إلى المعرفة بصورة تستوقف النظر ، فقد كان إذا علم أن الفرنسيين علقوا على الحوائط منشوراً خرج رغم حظر التجول لينقل نص المنشور وفى يده شمعة ، لأن الناس كانوا يمزقون المنشورات الفرنسية إذا طلع النهار ، وخلفه فى سلسلة تواريخ مصر على باشا مبارك ثم عبد الرحمن الرافعى . وهو صاحب آخر المدونات الكبرى فى تاريخ مصر .

وفى سنة ١٨٢٦ بدأ محمد على — بتوجيه من الفرنسيين — فى إنشاء المدارس النظامية بادئاً بمدرسة أركان الحرب فى أبى زعبل ، ولم يكن من طلابها مصرى واحد ، بل كانوا من أبناء الترك والمماليك الشركس الذين ورثهم محمد على من المماليك الذين قضى عليهم ، وكان فيهم أرمن ويونان وكل جنس إلا المصريين ! وعندما شرع فى إرسال البعثات فى نفس العام كان معظم المرسلين إلى فرنسا من غير المصريين ، والخوف من أهل البلد تقليد غبى سار عليه حكام المسلمين بكل احترام ، ولكن نصحاء محمد على من الفرنسيين نصحوه بأن يبعث معهم أئمة للصلاة حماية لهم من الانحراف ووقع الاختيار على ثلاثة أئمة كان منهم رفاة رافع الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣) وقد عاد معظم المبعوثين إلى مصر وخدموا بصدق وإخلاص وصاروا مصريين مخلصين ، ولكن أنبغهم جميعاً كان الشاب الأزهرى الذى أرسلوه معهم إماماً ، فقد تفتح ذكاؤه وذهنه المصرى المتحضر فأتقن الفرنسية وتنبه إلى نواحي القوة فى حضارة الغرب ، وأصبح من أعلام الفكر ، بل أول المفكرين العرب المحدثين ، وهذا المصرى الأزهرى الذى ولد فى طهطا بمحافظة جرجا تعلم ووصل إلى العالمية الأزهرية ، ثم التحق بخدمة الجيش واعظاً وإماماً سنة ١٨٢٤ ، ثم أرسل إلى باريس إماماً للبعثة المصرية ، وأثبت أنه مفكر أصيل : أتقن الفرنسية ونبغ فى النقل منها إلى العربية ، وهو وتلاميذه نقلوا إلى العربية عشرات كتب العلم الأوروبية فى كل علم وفن ، وأنشأ مدرسة الألسن سنة ١٨٣٦ وبفضل رفاة وتلاميذه أصبحت اللغة العربية لغة مصر الرسمية ، وحلت محل التركية ، وأنشئت مطبعة بولاق وأخذت تخرج للناس ذخائر العلم الحديث ، وبدأت حركة إحياء التراث أى نقل الماضى إلى الحاضر ونقل العلم الغربى أيضاً .

وكل هذا عظيم ، ولكن الذى يستوقف النظر هو رفاة رافع الفكر ، فهذا الأزهرى

النايغ يؤلف كتابًا عظيمًا يسمى « مباحج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية » يتحدث فيه عن الحضارة الغربية حديث الفاهم العارف ، فهو يمتدح الحرية والديمقراطية ويعجب بالبرلمان والصحافة ، وحريتها ، وتعجبه عناية الناس بشئون المدن والبلديات ، وتستوقف نظره نظافة المدن وجمال تنسيق شوارعها وأشجارها ورشها بالماء وهى أشياء نسيناها نحن في مدننا اليوم ، ونرتد بها اليوم إلى الوراء ، فتصبح قرى ضخمة أو تجمعات سكانية بلا نظام ولا هيئة ولا قانون بلديات ؛ لأن الذين يشرفون على شئون المدن عندنا اليوم يقفون عشرات السنين وراء رفاعة الطهطاوى ، وهذا الشيخ الأزهرى يمتدح التمثيل والمسارح والمسرحيات والأوبرات بينما شيوخننا اليوم لا يكادون يحفلون لذلك ، وجامعة الأزهر الجديدة التى استحدثوها أيام عبد الناصر ليس فيها إلا القليل جدًا من الأساتذة من مستوى رفاعة ، لأن هذا الرجل قرأ كتب مفكرى عصر الأنوار ، وتحمس لمونتسكيو ، وقال إنه ابن خلدون الغرب ، ورفاعة رافع الطهطاوى ذلك النابغة الذى كتب هذه المعانى الجليلة عاد فأكدها فى كتاب آخر يعتبر وسام شرف على صدر الفكر المصرى هو « تخلص الإبريز فى تلخيص باريز » وهو بلا شك علامة واضحة جدًا فى طريق نهوض الفكر العربى كله ، فهذا الأزهرى يرى أن أهل باريس أكثر حضارة من غيرهم ؛ لأنهم يعرفون معنى العلم والنظام والفن والجمال ، ويجعلون بلدهم عاصمة النور ، وهو لا ينكر سفور المرأة الفرنسية مع الحشمة والوقار والأدب واحترام الأسرة ، ويدعو إلى خروج المرأة إلى ميدان العمل ، ويرى أن ذلك يشعرها بكرامتها ويخرجها من ظلام حياة الحريم ومؤامراته ، بل هو يؤمن بالحرية والدستور ، ويقف بفكره مع الشعب الفرنسى الذى ثار على الملك شارل العاشر وأسقطه وأتى بملكية لوى فيليب الدستورية ، وتشاء مصادفة سعيدة أن يذهب إلى السودان بعد إغلاق سعيد بن محمد على للمدارس فى مصر ، ويعمل فى المدرسة الابتدائية التى أنشئت فى الخرطوم ، وهذه المصادفة رمز على وحدة وادى النيل ، ثم يعود إلى مصر سنة ١٨٥٤ ويوليه محمد سعيد وكالة مدرسة الجهادية ، وكان ناظرها ذلك الرجل العظيم سليمان الفرنساوى الكولونيل سيف ، وهكذا يلتقى هذان العلمان على بساط العلم وخدمة الوطن المصرى ، بل إن هذا الرجل ينشئ سنة ١٨٧٠ مجلة « روضة المدارس » أول صحيفة ثقافية فى مصر ، وفيها يكتب نفر من أعلام النهضة الفكرية : عبد الله فكرى باشا الشاعر والمسيو بروكش باشا ناظر

مدرسة اللغة المصرية القديمة وطلبة الأجيولوجيين ومحمد على البقل باشا طليعة الأطباء في نهضة مصر الحديثة ، وهو من تلاميذ رفاعة ، ومحمود باشا الفلكي من طلائع أهل العلوم في مصر ، وصالح مجدى الأديب الذى خلف لنا كتاباً جميلاً عن حياة أستاذه رفاعة اسمه « حلية الزمن بمناقب خادم الوطن » ، وأحمد ندا عالم النبات ، وأبو السعود أفندى محرر جريدة « وادى النيل » والشيخ حمزة فتح الله رائد اللغويين والنحويين العرب في العصر الحديث ، والخلاصة أن رفاعة رافع بنشاطه المتجدد وذكائه المتوقد وإيمانه العميق ببلاده والعروبة والإسلام كان مدرسة ورائد نهضة وباعث فكر ، وقبل رفاعة لم يكن هناك فكر عربى حى ، وبعده تستطيع أن تتحدث بحق عن ذلك الفكر العربى الذى نهض به رفاعة رافع الطهطاوى وزملاؤه وتلاميذه ، فأكمل بذلك ما كان يحلم به شيخه حسن العطار شيخ الأزهر في أيامه ، وهو كذلك كان شيخاً عالمًا شاعرًا مجددًا واسع الذهن ، وهو في تاريخ نهوض الأزهر شعاع الفجر الذى سيصبح على يد محمد عبده وجيله نورًا باهرًا .

ويل رفاعة الطهطاوى في قيادة النهضة الفكرية في مصر على باشا مبارك (١٨٢٤ م) وهو مثله مصرى صميم من الريف ، مثله في ذلك مثل أحمد عرابى ومحمد عبده وسعد زغلول وغالبية من قام على أيديهم بناء مصر الحديثة ، فإن على مبارك من أبناء قرية برنبال الجديدة مركز دكرنس (محافظة الدقهلية) وهو من أسرة طيبة ، ولكنه لقي في حياته شقاء بالغًا يرجع معظمه إلى سوء أحوال مصر خلال ذلك العصر ، فهو عصر إسماعيل بما فيه من تطورات وأزمات وتغيرات وشدائد حاسمة ، وقد شق على مبارك طريقه بجهد بالغ وإصرار يدعو إلى الإعجاب ولكن سيرته تقص كذلك جانبًا من شقاء الفلاحين المصريين أيام سعيد باشا وإسماعيل باشا وقد نجح في النهاية في دخول كُتَّاب قرية أبى العز ثم انتقل إلى المدرسة الابتدائية بقصر العيني ، ثم مدرسة أبى زعبل ثم مدرسة الهندسة (المهندسخانة) ثم أرسل في بعثة إلى فرنسا ليدرس الهندسة (١٨٤٤) ثم عاد إلى مصر مهندسًا ، وتعرف بذلك الرجل العظيم سليمان باشا الفرنساوى القائد العام للجيش المصرى إذ ذاك ، ثم أصبح ناظرًا للمهندسخانة وأرسل للاشتراك في حرب القرم ثم عاد واشترك في مشروعات هندسية كبرى ، وعندما أنشئت الوزارة المصرية الأولى سنة ١٨٦٨ تولى وزارة الأشغال والمعارف ، وهو أول مصرى يصل إلى الوزارة من أيام الفراغة ، وهنا في وزارة المعارف قام على مبارك بدور حاسم

في نهضة مصر العلمية فهو الذى وضع لائحة قانون التعليم وأنشأ المدارس الابتدائية مايو ١٨٦٨ وأنشأ مدرسة دار العلوم ١٨٧٢ ، ودار الكتب ١٨٧٠ ، ومجلة « روضة المدارس » وألف كتاب « الخطط التوفيقية » على غرار « خطط المقرضى » وهو كتاب جليل في عشرين مجلداً ، وإذا كان دور على مبارك في النهضة العلمية عظيماً فإن دوره في الكفاح الوطنى كان قليلاً لأن على مبارك كان من رجال السلطان يؤثر الطاعة للحاكم ولهذا كان موقفه من الحركة العربية غير مشكور ولكنه على أى حال قام بدور عظيم في الحركة العلمية والفكرية ، وعندما توفى في (١٤ نوفمبر ١٨٩٢ م) انتهى دور رجال الدولة في النهضة الفكرية وانتقلت قيادتها إلى الشعب فقد كانت الثورة العربية قد قامت ونامت ودخلت البلاد تحت الاحتلال الإنجليزى وانتقل النشاط كله إلى رجال الشعب الذين كانوا يكافحون الاستعمار ، وكانت المدارس بكل أنواعها قد كثرت وتحطمت جدران عصور الظلام ودخلنا في عصور الكفاح للحرية .

* * *

خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ساءت الأمور في مصر نتيجة لسوء سياسة ولاية مصر بعد محمد على وتزايد أطماع دول الغرب في ذلك البلد الذى كان حاكمه من أسرة محمد على على رأس المتآمرين عليه ، وتبين للمصريين أن لا سبيل لهم إلى الخلاص إلا بالاعتماد على أنفسهم ومن هنا كانت الثورة العربية التى اشتركت أوروبا كلها مع تركيا والخيوى توفيق في إجهاضها ، وانتهى الأمر بالاحتلال البريطانى لمصر في سبتمبر ١٨٨٢ .

هنا تدخل الوطنية المصرية في صراع الاستقلال الذى بلغ ذروته مع ثورة ١٩١٩ التى بدأت في تاريخ مصر والشرق عصرًا جديدًا ، الثورة لم تكن مجرد ثورة سياسية عسكرية بل كانت بداية نهضة شعب سبقتها مهادت سياسية وثقافية طويلة المدى ألمنا ببعض أطرافها فيما قلنا عن رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك .

* * *

النَّهْوُزُ وَمَغْنَاهُ

لا يستطيع أى إنسان مفرد - مهما بلغت ملكاته وقدراته - أن يصنع شيئاً كثيراً ، والأعمال والحركات الكبيرة كلها جماعية ، فالنهضة لم تكن من صنع رجل واحد ، والذين يقولون : إن أرازموس هو باعثها مخطئون ؛ لأنه واحد من جماعة ، والأفكار العظيمة التى تحدث حركات كبرى تولد فى الغالب فى أذهان جيل أو أجيال من الرجال ، والجيل كله بل الأجيال المتوالية تصنع التغيير العظيم الحاسم ، وأرازموس Desiderius Erasmus Raterdem Us (١٤٦٩ - ١٥٣٦ م) لم يكن إلا صاحب الدعوة الأولى .

وهذه الدعوة كانت فى قلوب الكثيرين ، فلم يكد أرازموس يفتح فمه داعياً إلى التخلص من قيود الفكر التى فرضتها الكنيسة على أهل الغرب حتى تجاوبت الأصداء بل قام اثنان من الباباوات بتبنى الدعوة هما : يوليوس الثانى وليو العاشر ، وتدفق السيل فكتب أريوسطو وميكافلى ودى بيميو وكاركوتوتاسو ، وظهر كبار الرسامين والنحاتين يحاكون أعمال الإغريق والرومان : دونالديللو وفرا انجيلو ورافاييلو وميكل أنجلو ، ثم يظهر فى فرنسا رايليه وروفسار ودويابى وجماعة المجرة (لابلبياد Le Pleiade) ، ويظهر من بين هؤلاء ميكل انجلو رساماً ومثالاً يفوق كل ما عمل اليونان والرومان ثم يكون ليوناردو دافنشى العجيب ، فهو رسام ومثال ومخترع ورياضى وصاحب خيال علمى بعيد يصل به إلى تصميم الطائرات ، وجاليليو جاليلى المفكر الكاتب المجدد ، ويخرج الفكر الأوروبى من ظلمات العصور الوسطى ويرتد إلى علوم الإغريق والرومان باحثاً عن الطريق ويجد طريقه فى النهاية ويكون النهوض الشامل .

وكذلك كانت حركة تجديد الفكر الغربى المعروفة بعصر الأنوار فى الفرنسية وعصر الاستنارة أو التنور فى الإنجليزية The Age Of Englkghtemment ابتداء من القرن السابع عشر ، وكانت عمل سلسلة ضخمة من الرجال أظهروهم مونتيسكو وفولتير ، وجان جاك روسو ، وسان سيمون ، وبيكون ، وهيوم ، وهوبز ، وبدون هذا العمل الجماعى ويتعاون فيه الرجال من أبناء الجيل الواحد والأجيال المتعاقبة لا تكون حركة فكرية واجتماعية أو سياسية ، وتلك ناحية من أكبر نواحي الضعف فى تاريخنا الفكرى والاجتماعى والسياسى ، فإن الفردية هى السمة الغالبة والعمل الجماعى منعدم ،

ولهذا فقد لاحظت معنى فيما حكينا من تاريخ الفكر العربى أنه كله أعمال فردية لا حركات متصلة ، وهذا من أكبر أسباب الركود والتدهور مع أن روح الإسلام تؤيد الجماعة للفرد ، والله سبحانه عندما يخاطب الناس داعياً لهم إلى الإيمان والخير والعبادة والصالح يخاطبهم جماعة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ (النساء ٤ / ١٣٥) فإذا أراد أن يلفت الإنسان إلى نقائصه أو يلومه خاطبه مفرداً : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ (الانفطار ٨٢ / ٧) و ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ (التين ٩٥ / ٤ ، ٥) و ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم ١٤ / ٤) وغير ذلك كثير جداً .

والذين يؤرخون لنهضة الفكر العربى على أنها من صنع الإمام محمد عبده أو من صنعه مع جمال الدين الأفغانى مخطئون ، فما كان هذان الرجلان — مهما بلغت ملكاتهما — ليستطيعا شيئاً كثيراً فإذا كانا قد صنعا فلا بد أنه كانت معهما وقبلهما وبعدهما جماعات على مستواهما عملت وتجاوبت وتعاونت فكانت النهضة الفكرية والسياسية والاجتماعية ، فمحمد عبده سبقه وشارك فى تكوينه الشيخ درويش والشيخ محمد ظافر الطرابلسى ، وهما أول من فتح ذهنه على نور العلم ، والشيخ حسن العطار عالم الأزهر الجليل وشيخه (١٧٧٦ - ١٨٣٥ م) وهو الذى اختار رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣ م) ليكون أحد أئمة البعثة المصرية إلى باريس ، وهو الذى أوصاه بدراسة الفرنسية وعلوم الغرب ، وكان كذلك شيخ محمد عبده فقد كان رئيساً لتحرير الوقائع المصرية ثم خلفه فى ذلك محمد عبده ثم تولى مشيخة الأزهر وهو رائد من رواد النهضة الفكرية العربية ، لم يأخذ حقه من العناية والدراسة بل كان الشيخ محمد المهدي شيخ الأزهر سنة ١٧٩٨ م ، صاحب الفضل الأكبر فى حصول الشيخ محمد عبده على العالمية وكادت لجنة الامتحان ترفضه بسبب علاقته بالشيخ جمال الدين الأفغانى وبسبب مقالاته الحرة فى الوقائع المصرية ؛ وهنا حسم الشيخ المهدي القضية وكان رئيس مجلس الامتحان فقال : لو كنت أعرف درجة فوق العالمية من الدرجة الأولى لمنحتها له ... وانتهى الأمر بنجاح محمد عبده بالعالمية من الدرجة

الثانية . أقول ذلك للذين يصرون على الحصول على الدكتوراه بدرجة الامتياز ثم يكونون بعد ذلك كالبالون المنتفخ تمسه بدبوس فيصبح لا شئ ..

كان هناك جيل إذن من أهل الفكر المتيقظين وهو الذى استقبل آراء محمد عبده والأفغانى وسار بها إلى الامام وجعلها حركة نهوض فكرى اجتماعى سياسى عام لمصر والعالم العربى كله .

وتظهر روح الجماعة هذه فى إنشاء مجلة « العروة الوثقى » فى باريس ، كان جمال الدين الأفغانى عندما نفى إلى باريس قد استدعى محمد عبده من بيروت فى (١٢ سبتمبر ١٨٨٣ م) ليؤلفا جمعية العروة الوثقى من أعضاء من شتى أرجاء الوطن الإسلامى وليصدرا صحيفة باسمها (عبد الحليم الجندى : محمد عبده ٣٩) ، وصدر العدد الأول منها فى (١٣ مارس ١٨٨٤ م) ولقيت رواجًا واسعًا ، ولو لم يكن هناك جمهور يقبل عليها لما كان لها من رواج .

وإذا أردنا أن نلقى جماعة الرواد الذين صنعوا حقًا النهضة الفكرية العربية ونتبين روح الجماعة فى ذلك العمل ، فإننا نلقاهم بعد العروة الوثقى فى الجمعية الخيرية الإسلامية ثم فى صالون الأميرة نازلى فاضل .

ونحن لا نعرف الجمعية الخيرية الإسلامية إلا على أنها هيئة وطنية أنشئت لإقامة مدارس مصرية عربية إسلامية ، تقدم للطلاب المصريين ما كانت تحرمهم منه مدارس الحكومة التى كان يشرف عليها الإنجليز ويحرصون على ألا يتخرج فيها إلا كتاب فى الدواوين ، ولكن الحقيقة أن الجمعية كانت تجمعا فكريا عظيما ؛ فقد دعا إلى إنشائها محمد عبده فى « العروة الوثقى » فى باريس فلما أتحت له فرصة العودة إلى مصر أنشأها مع فريق كبير من دعاة النهضة الفكرية السياسية الاجتماعية وكان الشيخ محمد عبده أول رئيس لها سنة ١٩٠٠ م ، وقد استجابت الأمة لدعوتها فتبرع القادرون من أهل مصر بالمال الكثير بل اشترك فى العمل والتبرع نفر من أفراد الأسرة الحاكمة منهم الأمير حسين كامل بن الخديوى إسماعيل فقد رأس إدارتها بعد وفاة الإمام سنة ١٩٠٥ إلى جانب رياسته لمجلس شورى القوانين سنة ١٩٠٩ م ، وظل فيها حتى تولى العرش خلفا لعباس حلمى سنة ١٩١٤ م ، وكان يقول عن الإمام : (أستاذى الذى شرف علينا روحه الآن ، ولولاه لم أكن أنا مسلما) .

وظل يرفع الجمعية طوال حياته وقد أنشأت الجمعية مدارس كثيرة ابتدائية وثانوية ومنها مدرسة بنات ، ولكن الذى يهمنا هنا هو أن مجلس إدارة الجمعية كان يضم نخبة رواد الحركة الفكرية ومنهم سعد زغلول ، وإبراهيم الهلباوى ، وقاسم أمين وحسن عاصم وكان شخصية جليلة مثقفة عظيمة الأثر فى تاريخ النهوض الفكرى ، وقد كان مشرفاً على التعليم فى الجمعية وعين فى نفس الوقت رئيساً لديوان الخديوى حتى سنة ١٩٠٤ م ، وكان رجلاً مستقيماً كالسيف مؤمناً ثابت الإيمان بكل ما يعمل ، وهو الذى أشرف على برنامج التعليم العربى الإسلامى الصحيح فى الجمعية ، وخلفه فى هذه الوظيفة بعد وفاته عبد الخالق ثروت باشا وظل يشغلها بعد أن صار رئيساً للوزارة ثم خلفه الأستاذ محمد خلاف الذى كان من أقطاب منشئى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وفى هذه الجمعية تلقى على فخرى وكان مستشاراً بالمحكمة المختلطة وعلامة ومفكراً جليلاً ، وكان من أكبر أنصار مصطفى كامل الذى قال فى تأبينه : إن الفقيه كان مؤهلاً بفطرته وعلومه وأخلاقه وآرائه وهمته واقتداره لأن يكون من أكبر قادة الأمم وباعثى روح الحياة والنهوض فيها . (عبد الحليم الجندى : محمد عبده ٦٦) .

وفى الجمعية الخيرية الإسلامية كذلك تلقى محمد فريد وقاسم أمين ولطيف سليم وغيرهم كثيرون ، وكانت الجمعية تجتمع فى مبنى قبة الغورى ثم انتقلت فى سنة ١٩١٤ م إلى سراى وسط أرض مساحتها ١٦٩٤٩ مترًا مربعًا فى درب الجماميز أوقفها عليها السيدة خديجة برهان ، وحضر حفل افتتاح المقر الجديد السلطان حسين كامل . وتستوقف نظرنا الجدية التى كانت الجمعية تدير بها أعمالها ، فهى تعمل بجد فى تكوين شباب مثقف وطنى عربى اللسان يعرف كيف يخدم نفسه ووطنه ، وإقبال الأغنياء والأوساط على التبرع لها بالأموال والعقارات دليل على أنها كانت حركة قومية ، وقد كان الإنجليز فى ذلك الحين يعملون جاهدين فى إيذاء مصر وتمكين الاستعمار منها .

ومن أسوأ ما فعلوه فى ذلك هو أن إلدون جورست وهو المندوب السامى الذى خلف كرومر اجتهد فى الإيقاع بين الأقباط والمسلمين ، فأوعز إلى بعض السفهاء بمهاجمة الأقباط وأوعز إلى بعض الأقباط بإقامة المؤتمر القبطى فى مارس سنة ١٩١١ م ، وبدت

في البلاد طلائع انقسام طائفي تطرف فيه بعض الناس مثل الشيخ عبد العزيز جاويش وهو ليس مصرياً ، واندفع فيه بعض الأقباط مثل توفيق دوس ، ولكن محمد عبده وإخوانه جميعاً تصدوا لإيقاف هذا التفريق الخطر وأظهر زعماء الأقباط من الوطنية والتعقل ما قضى على تلك الفتنة ، وهذا برهان قاطع على ما يتمتع به أقباط مصر من الوطنية والحكمة وبُعد النظر ، وفي مؤتمر المصالحة الذي عقد في هليوبوليس نشهد مشهداً مجيداً من مشاهد وحدة مصر ووطنية أهلها وسنرى أكبر مظهر لذلك عندما تقوم ثورة ١٩١٩ م ، وينضم إليها إلى جانب سعد زغلول نفر من خيرة أبناء مصر من الأقباط من أمثال : مكرم عبيد ، وواصف غالي ، وسينوت حنا ، وفخرى عبد النور ، وجورج خياط ، وغيرهم ممن يرتفع بهم رأس مصر ، وفصلت الكلام في ذلك في كتاب سابق لي هو « دراسات في ثورة سنة ١٩١٩ » .

والمظهر الثاني الذي تتجلى فيه روح جيل النهضة هذا هو صالون الأميرة نازلي فاضل وهي أميرة من فرع الأمير مصطفى فاضل الذي أقصاه إسماعيل عن الحكم بالفرمان الذي حصل عليه بحصر الوراثة في أبنائه ، مثله في ذلك مثل فرع حليم ، ومصطفى فاضل خاف على نفسه فرحل إلى الأستانة ثم إلى باريس حيث أصبح يحتل جناحاً من أجنحة أمراء الأتراك المناوئين للسلطان ونشأت بناته نشأة تحرير ، وواحدة منهن هي نازلي أنشأت في قصرها منتدى أو صالوناً أدبياً كان يجمع معظم أقطاب الفكر في مصر من أمثال : سعد زغلول ، وقاسم أمين ، وإبراهيم الهلباوي ، وأحمد فتحى زغلول ، وأحمد حشمت ، وحسن عبد الرازق ، ولطفى السيد ، وحفنى ناصف ، ومحمد طلعت حرب وغيرهم كثيرون ، وكانت الأميرة نازلي قد تزوجت خليل شريف باشا سفير تركيا في باريس ثم طلقت منه وتزوجت رجلاً من سراوات تونس يسمى خليل بوحاجب الذي تولى فيما بعد رئاسة وزراء تونس ، وعليه نزل محمد عبده في زيارته القصيرة لتونس سنة ١٩٠٣ م ، أيام كان منفياً في باريس ، وقصر الأمير فاضل هو نواة مبنى دار الكتب المصرية في باب الخلق التي أصبحت اليوم متحفاً للفن الإسلامى ودار الكتب نفسها من آثار محمد عبده ذلك الرجل الفريد الذى خلف لنا تراثاً فكرياً باهراً وكان على يديه إصلاح الأزهر وإخراجه من ظلمات الركود والتدهور ، وبفضله صدر أول قانون لإصلاح الأزهر سنة ١٨٩٦ .

إذن فقد كانت النهضة الفكرية في مصر ثمرة عمل جماعى مشترك وحماسة قومية

عربية عامة ، وهذا هو الذى أعطاها تلك القوة العظيمة التى طفرت بها ، ويضاف إلى ذلك ميلاد المطابع فى مصر ، وأول مطبعة عرفت لها مصر كانت تلك التى أتى بها نابليون معه إلى مصر سنة ١٧٩٨ م ، ولكن هذه عادت مع الفرنسيين إلى فرنسا سنة ١٨٠١ م ، ولكن الحادث الحاسم فى تاريخ الطباعة العربية كان إنشاء مطبعة بولاق أيام محمد على سنة ١٨٠٩ م ، ولها تاريخ طويل جميل وفيها طبعت إلى جانب مطبوعات الحكومة أولى ذخائر التراث العربى ثم توالى المطابع إلى مصر وكثر تداول الكتب ما بين مؤلفة ومترجمة أو قديمة محققة ثم جاءت الصحافة ، وسلاح الثقافة الأمضى فى عصرنا والبداية عند الحملة الفرنسية بجريدتى « لا يكاد اجيبسيان » وهى مجلة علمية ثقافية كان ينشرها المجمع الفرنسى ، والثانية يومية هى « لوكورييه ديجيبيت » وكلتاهما بالفرنسية طبعاً ، لكن التاريخ الفاصل فى قصة الصحافة العربية كان سنة ١٨٢٨ م ، عندما أنشأ محمد على « الوقائع المصرية » التى حكى الدكتور إبراهيم عبده تاريخها وأعمالها فى كتابه القيم عن تطور الصحافة المصرية ، وفى ص ٣٣٥ وما يليها من ذلك الكتاب القيم ثبت بالصحف التى ظهرت فى مصر بعد المطبعة الأميرية ؛ فنجد فيها صحفاً ومجلات كان لها أبعد الأثر فى تطور الفكر العربى مثل وادى النيل (١٨٦٦ م) ، ونزهة الأفكار (١٨٦٩) ، وروضة المدارس (١٨٧٠) ، والأهرام (١٨٧٥) ، والمحروسة (١٨٨٠) ، والأهالى (١٨٩٤) ، وأبو نظارة معظمة (١٨٩٧) ، والمنار (١٨٩٨) ، واللواء (١٩٠٠) ، والأمة (١٩٠٥) ، والجريدة (١٩٠٧) ، والكشكول (١٩١٤) ، واللطائف المصورة (١٩١٥) ، إلى آخر تلك القائمة التى جعلت الصحافة جزءاً من حياة الناس وفكرهم فى العالم العربى .

فى هذه الصحف ظهرت المقالات ونشأ النثر العربى الجديد الحر ، وفى مجلة مثل « البيان » التى أنشأها عبد الرحمن البرقوقى سمع الناس أصوات عباس محمود العقاد ومصطفى لطفى المنفلوطى ومصطفى صادق الرافعى ، وفى جريدة « السياسة » ثم « السياسة الأسبوعية » عرف الناس محمد حسين هيكل وطه حسين ولطفى السيد ، وفيها وفى غيرها ظهرت أسماء : إبراهيم عبد القادر المازنى وسلامة موسى ومحمد عبد القادر حمزة وأحمد حافظ عوض وقرأوا أشعار أحمد شوقى وحافظ إبراهيم وولى الدين يكن وخليل مطران وغيرهم كثيرون جداً ، وهكذا تجدد الفكر المصرى العربى وخرج من الظلمات إلى النور .

قصة الفكر العربى الحديث طويلة يعرف معظم قرائى منها أكثر مما أعرف ، وسأحاول قدر المستطاع فى الصفحات التالية أن أعين المراحل الفاصلة فى تاريخ ذلك التطور العظيم ، ولكنى قبل أن أخطو هنا خطوة لا بد أن أنبه إلى أن الفرق عظيم بين النهضة العربية فى مصر والنهضة الفكرية فى لبنان : لأن إخواننا اللبنانيين وطائفة معينة منهم بالذات تصر على أن تنسب لنفسها فضل النهوض الفكرى العربى كله فالأمير فخر الدين المعنى (١٥٧٢ - ١٦٣٥ م) عندهم صنو محمد على مع أن فخر الدين كان زعيماً دينياً ذهب إلى الغرب ليستعين به على الدولة العثمانية ، والباباوات واليسوعيون (الجزويت) استجابوا له وأرسلوا البعثات وفتحوا أبواب معاهدهم للمسيحيين وذلك كله صحيح .

ولكنه لم يكن حركة نهوض فكرى عربى ونحن نعرف مكانة رجال من أمثال القس جبرائيل الصهيونى الأهدانى (١٥٧٧ - ١٦٤٨ م) الذى ترجم إلى اللاتينية مختصر جغرافية الإدريسى ، والمطران جرماطوس فرحات (١٦٧٠ - ١٧٣٢ م) ، ويوسف سمعان السمعانى (١٦٨٧ - ١٧٦٨ م) وأنا شخصياً مدين بالكثير لأعمال واحد من هؤلاء وهو الخورى ميخائيل الغزيرى (ت ١٧٩٤ م) أول من قام بفهرسة مخطوطات الاسكوريال فى إسبانيا وما أكثر الساعات التى قضيتها مع كتابه الفريد « المكتبة العربية الاسكوريالية » .

ولكن هذه كلها كانت فى الحقيقة خدمات للعرب فى المقام الأول ، أما النهضة الفكرية فى بلاد الشام ومنه لبنان فترجع حقاً إلى ما بين سنتى (١٨٣٠ - ١٨٤٠ م) وهى سنوات الحكم المصرى للشام أيام محمد على وابنه إبراهيم ؛ لأن بعثات البابوية والجهات الأوروبية كان جهدها مقصوراً على المسيحيين وحدهم ، فلما جاء الحكم المصرى ومعه التحرر الكامل من الأتراك العثمانيين فقد تفتحت أبواب العلم والنهوض لكل أهل الشام من غير تفرقة دينية وأنشئت المدارس والجمعيات العلمية الإسلامية إلى جانب المسيحية ، وهنا يمكن التحدث بحق عن نهضة فكرية فى بلاد الشام ، والشيخ ناصيف اليازجى (١٨٠٠ - ١٨٧١ م) ، معاصر رفاعة رافع هو أول عظماء المفكرين العرب من أهل الشام ويعاصر ناصيف الشيخ إبراهيم اليازجى وأحمد فارس الشدياق تحفة الفكر العربى المجدد الجرىء فى القرن الماضى وسليمان البستانى وبطرس

البستاني خاصة الذى قام بأضخم عمل تجديدي طليعى فى القرن الماضى بترجمته إلياذة هوميروس ، وهنا مكان فضيحة لإخواننا فى لبنان وهى أن هذه النزعة التى وضعها الفرنسيون والأمريكيون فى أذهان طائفة معينة من أهل لبنان خلاصتها أنهم أفضل أهل لبنان وأولى الناس بحكمه وإدارته ، هذه النزعة أساس نكبة لبنان التى يعيش مأساتها اليوم ، والأب هنرى لنانس اليسوعى الذى كان يتلذذ بمهاجمة الإسلام والمسلمين ومعاصره الأمريكى دانييل يليس الذى أنشأ المدرسة الأمريكية التى تطورت إلى الجامعة الأمريكية لم يكن يخطر ببالهما أن يخدما لبنان بل فرنسا والولايات المتحدة وإلى أن تدرك هذه الطائفة حقيقة أمرها وهى أنها جماعة من مواطنى لبنان مثلهم فى ذلك مثل غيرهم من أهل لبنان وأن ولاءهم الحقيقى ينبغى أن يكون للبنان والعروبة فى جملتها وأن الولاء لباريس أو روما أو واشنطن لن تنشأ عنه إلا الكوارث إلى أن يتبينوا ذلك ويؤمنوا به ويتعرفوا على مقتضاه ؛ فلا أمان ولا سلام لهم فى لبنان وبلاد الشام كلها ، ولا أمان للبنان معهم ، نصيحة أسوقها فى الطريق إلى طائفة لها فى نفوسنا أعمق المكانات ولكن الغرب الإنسانى مضلل وخطر ولا ضير عليه فى خدمة بلاده فالحياة معركة ولكن الضير كل الضير فى أن يضعف ولاء عربى لوطنه ولغته ويحسب أن الأجانب سوف يخدمونه أو يطورون وطنه على حساب أوطانهم وهذا وهم وضلال ، والدليل على ذلك أن أهل الفكر فى لبنان الذين تجردوا من هذه النزعة من أمثال ميخائيل نعيمة ، وجبران خليل جبران وأدباء المهجر أصبحوا عندنا من صناع الفكر العربى الحديث وأعلامه .

* * *

هذه التجمعات الفكرية التى أشرنا إليها فى مجالس الشيخ جمال الدين الأفغانى ومجالس الشيخ محمد عبده والعروة الوثقى والجمعية الخيرية الإسلامية وصالون الأميرة نازلى فاضل ، ولنصف هنا جمعية الاقتصاد والتشريع ونادى القضاة ودور صحف أواخر القرن الماضى وخاصة المؤيد (وصاحبها على يوسف) واللواء (جريدة الحزب الوطنى) وبقايا مجلس شورى القوانين ، كل هذه كانت الأوساط التى نشأت وتطورت فيها فكرة ثورة ١٩١٩ م ، حقاً إن تلك الثورة قامت على نحو يبدو كأنه

مفاجأة عقب ذهاب سعد زغلول وعلى شعراوي وعبد العزيز فهمى إلى دار المعتمد البريطاني ومطالبته بجلاء بريطانيا عن مصر (١٣ نوفمبر ١٩١٨) ولكنها لم تنشأ من فراغ ، الحكومة البريطانية رفضت الإذن لسعد وأصحابه في السفر إلى أوروبا لعرض قضية مصر على مؤتمرات الصلح في فرساي ، ثم رفضت كذلك الإذن لحسين رشدي رئيس الوزراء في السفر مع عدلي باشا لتفخس المهمة واستقال حسين رشدي في (٣ ديسمبر ١٩١٨) ، ثم رحل السيد ريجينالد وينجت عن مصر (٢١ يناير ١٩١٩) ، وبرحيله أصبحت مصائر مصر بيد قائد القوات البريطانية في مصر الميجور جنرال وأطسن ثم القى سعد زغلول خطابه في جمعية الاقتصاد والتشريع (٧ فبراير ١٩١٩) وفيها أعلن بصراحة بطلان الحماية البريطانية عن مصر وطالب بإلغائها وهذا هو الميلاد الفعلي للثورة ، ثم نشأ الوفد وجمعية التوكيلات ووجهت الزعامة الشعبية خطاباً إلى السلطان أحمد فؤاد ليوقف إلى جانب الشعب في المطالبة بالاستقلال ، وأندرت السلطة العسكرية الوفد وأمرت رجاله بالانصراف عن مطلبهم وهددتهم بالعقاب ثم اعتقلت سعد زغلول وثلاثة من صحبه (حمد الباسل ، وإسماعيل صدقي ، ومحمد محمود في ٨ مارس ١٩١٩) ، ثم قبضت عليهم وسجنتهم ثم نفقهم عن مصر ، كل ذلك أدى إلى انفجار الثورة في (٩ مارس ١٩١٩) كل هذه الحوادث المتلاحقة - وقد حرصت على ذكر تواريخها لتتضح للقارئ سرعة تلاحقها - ما كانت هذه الحوادث تتم على هذه السرعة إلا إذا كان هناك تمهيد فكري لها قامت به جماعة من أهل الفكر قادرين على تأييدها ودفعها إلى الأمام ، ولهذا بدأت هذا الفصل بالكلام على هذا التمهيد وكيف تكونت مجموعة الرجال الذين سيجملون عبء الثورة والسير بها ، وفي تطور أحداث الثورة بعد ذلك نلاحظ أن الأمر لم يقتصر على رؤوس الثورة وقادتها بل إن التمهيد الفكري الطويل الذي سبقها ودعوات جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وزملائهم في تحرير الوقائع المصرية ومقالاتهم في تلك الجريدة الرسمية ، كل ذلك كان قد مهد الجو في البلاد لتلقى الدعوة وتحويلها إلى ثورة شعبية ؛ لأن دعوات رجال الفكر وأفكارهم ومقالاتهم وخطبهم أو كتبهم لا يمكن أن تحرك الحوادث ؛ لأن الحوادث تحركها الجماهير التي تثور وتحطم وتهدم وتهدد النظام القائم وترغمه على رد الفعل - سلباً أو إيجاباً - فتتحرك العجلات ويكون الاندفاع الشعبي الذي يحدث التغيير .

ولا يمكن تصور اندلاع ثورة بصورة شاملة لكل طبقات الشعب إلا إذا كانت

العقول والعواطف مهيأة للاستقبال والعمل ، ومن هنا لا نتعجب من أن طلائع الجماهير الثائرة كانت من طلبة المدارس العالية وطبقات موظفى الحكومة وطلبة الأزهر وزعامات الأقباط ثم عمال السكك الحديدية ومن إليهم ، ثم بقية جماهير الشعب المستجيب الغاضب التى اندفعت إلى الشوارع تحركها أيديولوجية الحرية والخلاص من المستعمر والأمل فى إنشاء الوطن المصرى المستقل ، وهذه الجماهير ستصبح من الآن فصاعداً القوة الدافعة للثورة العاملة على إحداث التغيير وشيئاً فشيئاً ستصبح هى البطل الحقيقى للحركة كلها وستسير وراء الرجل الذى فهمها وعرف كيف يتجاوب معها وهو سعد زغلول ، وستُخْرِجُ الثورة من الميدان أولئك الذين لم يفهموها أو يعرفوا كيف يتجاوبون معها .

وما كان عبد العزيز فهمى ، وعدلى يكن ، وعبد الخالق ثروت ، وإسماعيل صدقى ، ومحمد محمود بأقل إيماناً بحق مصر فى الاستقلال من سعد زغلول ولكنهم عجزوا عن فهم الشعب والاتصال به فتركهم الشعب جانباً ومضى فى طريقه واضطروا إلى البحث عن تأييد لهم من جهات أخرى حتى لا يضيعوا تماماً فانضموا شيئاً فشيئاً إلى السراى وتكونت منهم حكومات القصر والإنجليز التى كانت تعتبر نفسها حكومات العقل والرزانة والطبقات الرشيدة وأصحاب المصالح الحقيقية وما إلى ذلك من الشعارات التى نادوا بها ، أما سعد والوفد وجماهير الشعب التى أيدتهم ، فهذه فى نظر جماعات القصر هى الديماغوجية والسوقية ، والذى غاب عنهم أن هذه الديماغوجية كانت هى المطلوبة ! فقد طالما ترفع أهل الفكر على السوق أى أهل الأسواق والرعاع والعوام كما بينا مرة وأخرى على طول هذا البحث ، فقد انتهى عصر طبقات أهل الحكم من الخلفاء أو السلاطين ووزرائهم وحواشيهم ومماليكهم (الذين أصبحوا ملوكاً !) وبدأ عصر الشعب أى جماهير الناس .

نَحْوُ أَدَبٍ عَرَبِيٍّ جَدِيدٍ

في الإنجليزية مثلاً يقول Who Pays The Fidler Aske For The Tunes (من يدفع لعازف الكمان أجره هو الذى يطلب الألحان) ، والذى كان يدفع إلى ذلك الحين كان أهل الجاه والسلطان والمال ، فكانت الألحان على هواهم : مديح وكذب ونفاق وذل أهل الفكر على عتبات الأقوياء وإهمال الجماهير أو « الرعايا » واعتبارهم إما بهائم وإما كالبهائم وإما غير موجودين أصلاً ، وقد ضربنا أمثلة كثيرة جداً على ذلك .

* * *

أما الآن فقد انتهى عصر السيد الذى يدفع وحلّت محله جماهير الشعب وهى لا تدفع إلا لمن تحس أنه ينفعها ، إنما هى تقرأ وتفهم وترضى أو لا ترضى وتقبل على المفكر الذى تحس فيه الأصالة والإخلاص والصدق وتشترى كتبه أو تقرأ الصحف التى يكتب فيها وترفض الزيف والقشور ، وهذه هى طريقة الدفع الجديدة وتلك عملتها وموازينها فى التقدير .

لهذا انصرف الناس عن مؤلفات « صهاريج اللؤلؤ » وظهر الفكر الأصيل الذى يعبر عن أفكار وعواطف ومعان إنسانية ولا عجب والحالة هذه أن نرى الثورة التى قاد صفوفها سعد زغلول فجرت فى نفس الوقت ينابيع الإلهام الفكرى والفنى فظهر العباقرة من كل نوع ومكان ، ظهر الجيل الذى نسميه جيل العمالقة : العقاد ، وطه حسين ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، وعبد الرحمن شكرى ، وسلامة موسى ، وأحمد حسن الزيات ، ومصطفى صادق الرافعى ومن إليهم ، حتى حافظ إبراهيم وكان قبل الثورة مداحاً يدور بشعره على أهل المال والجاه حتى قال شعراً فى مدح اللورد كرومر تحول إلى الشعب الآن وصار يقول شعراً وطنياً إنسانياً عظيماً يهز القلوب ؛ لأنه يخاطب الجماهير التى لا تعرف النفاق ، وهو الآن يطلب رضاها بالتعبير عن أحاسيسها ، وأحمد شوقى الذى كان شاعر القصر الذى أوسع لنفسه مكاناً محترماً فى الفكر العربى بما أدخله من أفكار جديدة اخترع لها لغة جديدة تجمع بين الرقة والجمال والصدق ، ثم أحمد بن القاضى المفكر الذى أصبح أديباً ومؤرخاً للفكر دون أن يتنازل

عن ميزان القاضى ومنطقه وحقه فى إصدار الأحكام ، ولعل أعظم أدواره فى تاريخ الفكر العربى هى إدارته الحكيمة للجنة التأليف والترجمة والنشر التى كانت لسنوات طويلة قائدة الفكر العربى الحديث .

يقف بباب ولي النعم والأمراء والأميرات ويقول شعر المناسبات فأصبح شاعر الشعب وشاعر العروبة وشاعر الإسلام وشاعر المدائح النبوية الرفيعة .

ومن حوارى الإسكندرية يطفر سيد درويش منشداً شعبياً يتطور مع التيار إلى ملحن عظيم ومؤلف أوبرات ، ومحمود بيرم التونسى شاعرنا نحن الرعاع يصبح الآن شاعراً جليلاً وأزجاله وكتاباته تهز أفئدة الجماهير وتغضب السلطان والإنجليز فينفى من مصر ومن منفاه فى مرسيليا - وهو يعيش عيش الكفاف - مثله فى ذلك مثل الوهرانى وابن قزمان يرسل إلى مصر أزجاله ومقاماته ومقالاته التى يتهامس بها الناس وتنتقل بينهم كما تنتقل المهربات ، ومن نواحي باب الشعرية يخطو إلى عالم الفن محمد عبد الوهاب حاملاً معه موسيقى جديدة يرحب بها الشعب وينسى معها موسيقى البشارف والأدوار التى تتحول بكل رجالها إلى تراث موسيقى قديم يحفظ فى المتحف ، ويرتقى محمد عبد الوهاب بالحناءة إلى مستويات شعر شوقى ومن فى طبقته ويصبح منشد العصر الصداح ، ومن كوم الزهايرة مركز السنبلاوين تأتى إلى القاهرة بنت فلاحه تلبس العقال - أم كلثوم - لتصبح أعظم مغنية فى تاريخ الموسيقى العربية كلها وإلى جانب إنشادها العظيم تصبح سيدة مجتمع ومفكرة ذات آراء رفيعة وحول أم كلثوم ينشأ جيل عظيم من الموسيقيين يتصدره محمد القصبجى ورياض السنباطى ومن هذا كله تتكون الموسيقى العربية الجديدة المضاهية للفكر الجديد .

ومحمد طلعت حرب الذى كان إلى ذلك الحين يتشاغل بالتاريخ فيؤلف فى تاريخ الدولة العثمانية يتحول إلى اقتصادى ينشئ البنوك والمصانع ؛ لأن الشعب الناهض فى حاجة إلى مصارف قومية ومصانع قومية ، ويظهر محمود مختار مثلاً عجيبياً يرتد إلى مصر القديمة ويستوحى منها لينشئ فناً مصرياً فى المثالة جديداً يبهز الدنيا ، فى الإسكندرية يظهر رسام عبقرى هو محمود سعيد ، ويوسف وهبى يضع قواعد المسرح العربى مع عزيز عيد وروز اليوسف وفاطمة رشدى ورجال فرقة رمسيس ، ونجيب الريحانى الذى بدأ حياته مهرجاً يكسب عيشه بالأعيب كشكش بك يتحول إلى فنان

أصيل وفيلسوف مفكر ، هذه الحركة كلها لم ينشئها سعد زغلول وحده إنما أنشأها الشعب المصرى العربى الذى أنشأ سعد زغلول نفسه واستجاب لندائه فتفجرت فيه جوانب العبقرية ، وهنا - فى ذلك الجو - تنشأ جماعة « الديوان » وهى أول حركة فكرية واعية فى تاريخ الفكر العربى وخلاصة رأيها : « إن عصر أدب القصور اللفظى المناقظ السطحي قد انتهى وجاء عصر أدب الصدق والواقعية والإبداع والمعانى قبل الألفاظ » وكل الذين ظهروا وكتبوا فى عصر النهضة هذا كانوا نقلة ، نقلوا الفكر العربى من ركود العصور الوسطى إلى حركة العصر الحديث ، ومن أبواب السلاطين إلى نوايا الناس ، ونقلوا التراث العربى القديم - وكان قد نسى تقريباً - إلى العصر الحديث نقضوا عنه التراب وجعلوا يبعثون فيه الحياة بما نسميه اليوم حركة إحياء التراث ، ونقلوا الفكر الغربى إلى عالم العرب وزرعوا أشجاره وغيروا بذلك شكل بستان الفكر العربى وأشجاره وألوانه وزهوره وثماره ، وبعد أن قاموا بهذا الدور الكبير وهو دور لم يقتصر على النقل بل تتجلى فيه الشخصيات والملكات ويتميز كل منهم بمواهب لا تتكرر فى الإبداع الفكرى المتعدد الألوان ، وكانوا على الجملة أصحاب أساليب أدبية جميلة وأفكار جديدة واطلاع واسع واحتاجوا إلى موضوعات يكتبون فيها فتجهلوا فى النهاية إلى كتاب إسلاميين يكتبون فى العبقريات الإسلامية أو السيرة أو على هامش السيرة ، حتى محمد حسين هيكل - الذى بدأ حياته الأدبية داعية مجددًا للفكر الغربى يكتب عن جان جاك روسو - اتجه فى النهاية إلى السيرة النبوية والخلفاء الراشدين ، وهنا فى ميدان الإسلاميات مائدة واسعة يجلس إليها كل أديب عربى معاصر فرغت أفكاره فمال إلى الماضى الإسلامى يغترف منه ويدبج ما يقرأه بأسلوب جديد ، « على هامش السيرة » لطفه حسين صياغة جديدة لبعض صفحات سيرة ابن هشام ، وعبقریات العقاد كلها كتب أسلوب ، واحد منها يغنيك عن الباقي ، وفى أسلوب العقاد الفكرى والأدبى القوي الرصين يتساوى أبو بكر وعمر وبلال بن رباح والحسين سيد الشهداء والإمام على ، بل توماس جيفرسون ، وجيته ؛ لأن عقل العقاد وقلمه كانا مثل البلدورز يطحن أى شيء على المائدة الإسلامية الغنية بكل ما يطرب القارئ المسلم ، جلس نفر من أدباء الجبل التالى : جودة السحار ، وعلى أحمد باكثير ، وخالد محمد خالد ، وطاهر أبو فاشا ، وبقيّة أولئك المبدعين وتضحمت بهذا النوع من المؤلفات أعداد الكتب دون أن تكون فيها إضافات حقيقية أو تجديد لتصميم الفكر العربى ، كلها ديكور جديد لنفس البيت

القديم ، وهنا لا بد من ذكر ثلاثة من مجددي الفكر العربي : جورجى زيدان المؤرخ
الأديب الذى كان أول من وضع تاريخاً جديداً للأدب العربى والحضارة العربية ،
وسلامة موسى .

ولكن أعظم الأشجار الجديدة فى حديقة الفكر العربى الحديث هى أشجار
القصص : القصة القصيرة والطويلة والرواية والمسرحية ، هذه كلها أشجار جديدة جداً
فى بستان الفكر العربى ، ومن الخطأ الفادح أن نقول : إن الفن القصصى الحديث تطور
للحواديت أو المقامات فهذه أنواع أدبية عقيم لا تتطور ، إنها كالأقزام تولد وتعيش
وتشيخ وتموت أقزاماً وهذا نوعها ، أما الأدب الروائى الحديث فشئ آخر تماماً ،
شجرة جديدة وإذا كانت الحكايات والمقامات أشجار جميز فإن فن الرواية الجديد
شجر تفاح والجميز لا يمكن أن يكون تفاحاً أبداً فإن القصص بكل أشكاله - هو وعاء
الإبداع الفكرى - لأنه صورة الحياة . حياة الناس بكل ما فيها من واقعية وصدق
والقصص الجيد بناء فنى لا مجرد إنشاء وهو لهذا أصعب الأنواع الأدبية وهنا يتجلى
لنا حجم الدور الذى يقوم به توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويحيى حقى ويوسف
إدريس ومحمد عبد الحليم عبد الله ومحمود تيمور ومن فى طبقتهم من بناء الفن
القصصى العربى بشتى أشكاله ، وإن الإنسان ليدعش لذلك التوفيق البالغ الذى وصل
إليه توفيق الحكيم فى المسرحية ونجيب محفوظ فى الرواية والقصة القصيرة ولكن
دهشتنا تزول عندما نذكر أن هذين العلمين يصدران فى أعمالهما عن إيمان صادق
بمسئولية الأديب وأمانة القلم ومعرفة تامة بأصول الفن الذى يكتبون فيه ، وهما إلى
جانب ذلك من أصحاب الاطلاع الواسع والمداومة على القراءة مع عمق الفكر والصدق فى
القول والحرص الشديد على المحافظة على المستوى والالتزام بالمسئولية أمام النفس
أولاً ثم أمام الآخرين .

على أن أهم ناحية فى إنشاء الفكر الجديد هى ناحية اللغة ؛ لأننا معاشر العرب لم
ننتبه أبداً إلى أهمية اللغة أو قيم الألفاظ ، فالألفاظ فى الأدب العربى القديم يرص بعضها
إلى جانب بعض كما تنظم اللآلىء فى حفظ ليصير منها عقد ، وهذا هو الأدب فى المفهوم
القديم فالألفاظ عندهم كاللآلىء تعطى العقد شكلاً ولكنها لا تعطيه معنى ، وقد بذل
زكى نجيب محمود جهداً شاقاً فى كتاب « تجديد الفكر العربى » لبيان أهمية الألفاظ

وانتهى إلى ما انتهى إليه المفكرون غداة الثورة الفرنسية من أن الألفاظ ليست مجرد حاملات للمعاني بل هي نفسها ينبغي أن تكون معابد حية متحركة فاعلة ، والألفاظ كما يقولون هي الأدوات التي تصنع الأفكار ، واللفظ الدقيق في موضعه المحسوب يقطع المعنى قطعاً كأنه السكين الحاد فإذا لم يكن حاداً مسنوناً فإن المعانى تظل غامضة والفكر كله يصبح خبايا ، ومن أسف أننا أسأنا استخدام ألفاظ لغتنا وضيعنا قيمها ، وانظر مثلاً كيف تستعمل أفعال التوقيت : أصبح وأضحى وظل وأمسى وبات فكلها تستعمل دون تدقيق ففقدت حدتها ولم تعد تقطع المعانى ونتيجة ذلك هو ذلك الضباب الفكرى الذى نعيشه نتيجة لضباب الألفاظ ، وهنا تأتى المهمة الحقيقية لمجمع اللغة العربية فإن وظيفته الأساسية ليست البحث عن معادلات عربية لمصطلحات علمية غير عربية ، بل ضبط معانى الألفاظ ومقاييس اللغة نفسها وضبط النحو ونحن نشكو اليوم من هبوط مستوى اللغة وجهل الناس بالقواعد ولا يرجع ذلك إلى هبوط مستوى تدريس اللغة فى المدارس والجامعات بل إلى أن الأفكار الجديدة تكتسح قواعد اللغة ونحن الذين نقوم بالكتابة نعانى هذه المشكلة ونشعر أن دقة التعبير أهم من فصاحة اللفظ ، فإن اللفظ العامى أو غير العربى إذا دخل اللغة وجرى فى الاستعمال أصبح عربياً ، ولفظ القلم نفسه ليس عربياً بل لاتينى الأصل Colamus ولكنه أصبح عربياً صرخاً ، وهو وارد فى الآيات الخمس الأولى التى أوحيت لرسول الله ﷺ ، وكما أن القرآن الكريم استعمل نفس ألفاظ لغة الجاهليين وصنع منها لغة جديدة ، واللغة الجديدة صنعت حضارة جديدة ، فنحن نستطيع أن نستشير بذلك المثل الرفيع فى إنشاء اللغة العربية الجديدة والفكر العربى الحديث .

وفى هذا الميدان لا بد أن نذكر ما يمتاز به يوسف إدريس من ملكة أصيلة فى الإبداع القصصى والفنى والفكرى ، وغرر رواياته ومسرحياته أصبحت بالفعل معالم واضحة فى تاريخ الفكر العربى ، وهنا أيضاً مكان على أحمد باكثير ويوسف السباعى وثروت أباطة وإحسان عبد القدوس « الذى يملك ملكة لا تضارع فى سياقه القصصى الجميل المحكم الذى يستهوى الجماهير » ويتميز ثروت أباطة فى رواياته بجدية وأصالة وطلاوة مع اطلاع واسع على الأدب العربى ، وهنا أيضاً مكان عبد الرحمن الشرقاوى الذى كتب واحدة على الأقل من أجمل الروايات فى الأدب العربى الحديث ، والطبيب صالح صاحب الطيور المهاجرة وهى من أحسن ما نقرأ فى أدبنا المعاصر ، ونعلمان

عاشور وسعد الدين وهبة وكل منهم شجرة جميلة متميزة بشخصيتها وهيئتها وثمرتها ، وهنا في ميدان القصص يكمن جانب كبير جداً من مستقبل الفكر العربى ، ومن أعظم أشجار ذلك الفكر الجديد أشجار المفكرين الخالصين الذين يضاءون بنفاد أفكارهم وعمق تفكيرهم أعظم كُتّاب الغرب ، وهنا مكان زكى نجيب محفوظ المفكر المجتهد الأمين مع نفسه ومع الآخرين ، الذى لا يتعلق الجماهير بل يحتفظ دائماً بدور المعلم القدير والاستاذ الموجه وكاشف الطريق .

وإلى جانب هذه الاتجاهات الجديدة نجد بستان الكتابة الصحفية التى لم تقف عند تجديد الأسلوب بل ابتكرت طرائق جديدة فى كتابة العربية حملت معانى جديدة وغيرت بذلك هيكل الفكر العربى وقالبه وأنشأت نوعاً جديداً من النثر الفنى الرفيع ، على رأس هذه الجماعة نجد محمد التابعى بأسلوبه الصحفى الممتع الذى كان يسحر القراء ونشأت منه مدرسة أدبية صحفية ، وفكرى أباطة وأمينة السعيد من كبريات رائدات النهضة النسائية والأدب الصحفى ، وعلى أمين ومصطفى أمين ومحمد حسنين هيكل وأحمد بهاء الدين ومحمد جلال كشك وأضرابهم من أعلام الكتابة الصحفية .

وبين هؤلاء يقف نزار قبانى وشعراء المقاومة الفلسطينية الذين اخترعوا شعراً عربياً جديداً وهم خطوة بعد إبراهيم ناجى وعلى محمود طه وزكى أبو شادى وجماعة أبولو الذين شقوا طريقاً جديداً لكنهم وقفوا فى منتصفه .

وهنا نجد مدرسة الأدباء الذين تعلموا فى المدرسة القديمة واستطاعوا أن يوسعوا لأنفسهم مكاناً فى النهضة الحديثة : مصطفى لطفى المنفلوطى الذى أدخل بنظراته وعبراته عناصر العاطفة الصادقة مع الأسلوب الرصين ، وأحمد حسن الزيات الجواهري فى صورة أديب ، ومصطفى صادق الرافعى حكيم الأدباء أو أديب الحكماء . هؤلاء انتهى دورهم فى صنع الأدب العربى الجديد ، وانتهى كذلك دور جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة ومدرستهما التى حاولت أن تكتب الإنجليزية أو الفرنسية بحروف عربية ، ولم يبق حياً من مدرسة الشام إلا سعيد عقل .

وهنا أيضاً نجد جماعة الأكاديميين الذين وجدوا أن صفحات المجلات والصحف أقدر على حمل أفكارهم المتدفقة من كراسى الجامعة ، هنا تلقى أنيس منصور وهو يكتب بقلم قوى سريع النبض وأفكاره تنهمر كالسيل صادرة عن فكر عميق واطلاع

واسع وإبداع أدبي متميز ، وهنا أيضًا مجال مجددى تاريخ الأدب العربى ويمثلهم شوقى ضيف بتأليفه الشاسعة فى كل مجالات الأدب العربى ، ومحمد عبد الغنى حسن الغزير الإنتاج الجيد إلى جانب ملكة فى الشعر جميلة ، ومهدى علام من أئمة مجددى اللغة ، وعبد القادر القط ، وطه الحاجرئ ، والمرحوم عبد العزيز الأهوانى من أعلام المجددين للغة والنقد الأدبى ، وفى رعييل أولئك المجددين نجد أهل العلوم ممن يربطون الإبداع الأدبى بالفكر العلمى ، هنا نجد : سلامة موسى ، والدكتور أحمد زكى ، وعبد الفتاح جوهر ، ومصطفى محمود الذى يقنعك كلامه عن الإعجاز القرآنى ببرهان العلم أكثر مما يرضيك كلام الباقلانى فى نفس الموضوع ببراهين الألفاظ .

وآخر ما أضيفه فى هذا التاريخ هو أن الإبداع الأدبى الجدير بذلك الاسم يقوم أساسًا على العلم الواسع والصدق وإجادة العربية ، والقصص بالذات من أوعر المطالب لأن القصة بناء متكامل ينبغى أن يكون محكمًا من البداية إلى النهاية فلا يكفى عنوان يبهز صاحبه فينشئ حوله حكاية يسميها قصة أو رواية ، أو يبدأ الحكاية ثم لا يعرف كيف يختمها ؛ لأن القصصى الجيد فعلاً يبدأ من النهاية ، أى أن انفراج الحكاية ينبغى أن يكون واضحًا فى ذهن القصاص قبل أن يكتب العنوان ، والحوادث ليست عماد القصة بل الفكرة هى الأساس ، وكل شخصية فى الرواية هى فى الحقيقة فكرة تتحرك مثال ذلك راستكولنيكوف فى الجريمة والعقاب فهو فكرة تتحرك وتتصرف لا مجرد شاب فقير قتل سيدتين عجوزين بغیضتين فإذا لم يكن للعمل القصصى موضوع وأفكار أو وحدة أو نهاية تحول إلى سلسلة مفاجآت أطفال كلها سطحية وبعيدة عن الواقعية أو إغراق مذموم فيها ، كما ترى فى مسلسلات التليفزيون التى تحول معظمها إلى حكايات أطفال يقوم بها رجال ونساء بلا شكل أو هيئة أو شخصية .

وأقول فى النهاية : إن تجديد الفكر العربى يقوم أساسًا على تجديد العلم أو توسيع قاعدة المعرفة والاطلاع ، وليس هناك - فى الحقيقة - كاتب كبير ، بل هناك قارئ كبير ، ومن القارئ الكبير ينشأ الكاتب الكبير ؛ لأن قدر الكاتب يتوقف على غنى الإناء الذى يغترف منه ، والإناء لا بد أن يملأ ويتجدد محتواه باستمرار حتى لا يخرج فى الدلو فى النهاية إلا الوشل والرمل والرواسب غير المرغوب فيها .

وبعد ، فهذا ليس تأريخاً للأدب العربى أو أدباء العربية ، إنما هو تأريخ للفكر العربى وقد عنيت هنا بتتبع الأفكار والحركات وتطوراتها واهتممت بالجوانب الإنسانية والصدق وأمانة الفكر ومسئوليته ، ورأيت أن أساس أى فكر نافع هو الحرية والعدل ؛ لأن النسور المحلقة لا تعيش فى الأقفاص ، أما التى تعيش فى الأقفاص فهى طيور الزينة ، وهذه ليست طيوراً إنما هى زينة فحسب .

وبعد فهذا تاريخ طويل بدأناه من العصر الجاهلى ، وهو فى النهاية بحث صغير بالنسبة لموضوعه ، وأسأل القارئ الصفح عن الهفوات والزلات والنسيانات ، فقد طلبت مطلباً عسيراً وأنا رجل مفرد ، وماذا يبلغ جهد الرجل المفرد ؟ فالتقصير هنا ضرورة وحتم وهذا بالضبط ما قاله لودفيج فان بيتهوفن وهو يتصفح السيمفونية التى لم تتم لفرانز شوبرت ، فقد وقف حيث وقف شوبرت وقال : أين الباقي ؟ لقد ترك الكثير ، ولكنه قال أيضاً الكثير وهذا يكفيه ويكفينى .

تمت الدراسة بحمد الله

* ■ *

الفهارس العامة

- * فهرس الآيات القرآنية
- * فهرس الأحاديث النبوية
- * فهرس الأشعار
- * فهرس الأعلام
- * فهرس البلدان والبحار والأنهار والجبال
- * فهرس القبائل والفرق والطوائف
والجماعات والشعوب
- * فهرس الكتب والمجلات والدوريات
- * فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية

آية ص	آية ص	آية ص
٩٥ : ١٢٥	سورة النحل (١٦) :	٦٧ : ٤٣ سورة البقرة (٢) :
٨٤ : ٦٠ ، ٥٩	سورة مريم (١٩) :	١٨٨ : ١٩٣ - ١٩١
٨٤ : ٤١	سورة الحج (٢٢) :	١٧٧ : ٢٣٦
٢٦٧ : ٤٦ ، ٤٥		١٧٧ : ٢٤١
١٨٥ : ١١	سورة النور (٢٤) :	٧٦ : ٢٨١
٢١٠ : ٤٤	سورة الفرقان (٢٥) :	١٦٠ : ٢٨٣
١٦٠ : ٨٩ - ٨٧	سورة الشعراء (٢٦) :	٧٦ : ٢٨٦
٨٢ : ٤	سورة القصص (٢٨) :	٧٦ : ٢٥ سورة آل عمران (٣) :
٨٣ ، ٨٢ : ٥		٦٦ : ١٠٣
٨٢ : ٦		٦٧ ، ٦٦ : ١٠٤
٨٣ : ٤٥	سورة العنكبوت (٢٩) :	٦٦ : ١٠٥
٦٧ : ٤٧ - ٤٥	سورة الأحزاب (٣٣) :	١٤ : ١٤٠
٩٠ : ٢٨	سورة سبأ (٣٤) :	١٥٤ : ٣٤ سورة النساء (٤) :
٢٠٩ : ١٠	سورة الفتح (٤٨) :	٣٥٠ ، ١٥ : ١٣٥
١٩٦ : ١٣	سورة الحجرات (٤٩) :	١٩٦ : ٣ سورة المائدة (٥) :
٢٣٦ : ٢٧	سورة الرحمن (٥٥) :	١٩٦ : ٣٨
٢٩٣ : ١٦	سورة الحديد (٥٧) :	٨٢ : ٨٣
٩٩ : ٧	سورة الحشر (٥٩) :	١٩٦ : ٩٥
٧٧ : ٣٨	سورة المدثر (٧٤) :	١٢ : ٧٨ سورة الأنعام (٦) :
١٦٥ : ١٧ ، ١٦	سورة القيامة (٧٥) :	١٢ : ٧٩
٢٥٨ : ٣ - ١	سورة التكويد (٨١) :	١٩٥ : ٩٧
٣٥٠ : ٧	سورة الانفطار (٨٢) :	٢٣ : ١٢٩
٨٠ : ٢٦ - ١٧	سورة الغاشية (٩٥) :	١٠٧ : ١١١ سورة التوبة (٩) :
٣٥٠ : ٥ ، ٤	سورة النين (٩٥) :	٣٥٠ : ٤ سورة إبراهيم (١٤) :
		١٦٥ : ٩ سورة الحجر (١٥) :
		١٢ : ٩٩ - ٩٧

فهرس الأحاديث النبوية

الصفحة	
١٦٦، ١٨	- الأئمة من قریش
٨٥	- أخرجوا لى اثنى عشر نقيباً
٢٥٧	- إذا ولغ الكلب فى إناء أحدكم
١٩٠	- اللهم اهد قریشاً
١٣٦	- إن العلم یمان
١٧٤	- إن الله قد حرم مكة
١٨٤	- إن الله يعز هذا الدين بالرجل الفاجر
١٦٤	- تركت فىكم ما إن تمسکتم به لن تضلوا
١٧٤	- الرائد لا یکذب أهله
١٥٣	- طلب العلم فرض على كل مسلم
٦٣	- القاتل والمقتول فى النار
١٧٥	- لیبلغ الشاهد الغائب
٣٩	- المسلم أخو المسلم
١٥٥	- النساء ناقصات عقل ودين
١٥١	- لا تجتمع الأمة على ضلالة
١٢٠	- یتاب الرجل رغم أنفه
١٠٦	- یرحمك الله

فهرس الأشعار

الصفحة	القائل	عددھا	آخر الأبيات	صدر الأبيات
			(ب)	
٣٧	الأخطل	١	شذب	فى هامة
٢٠٧	أبو نواس	١	الذهب	كأن صغرى
			(ت)	
٣٣٣	ابن الفارض	١	جلت	سقتنى حميا
			(جـ)	
٢٦٨	أبو العلاء المعرى	٢	مهتاجاً	نسرېج كنك
٣٧	الأخطل	١	خرجوا	فالله لم یرض
			(حـ)	
٢٧٣	أبو العلاء المعرى	٥	المسانع	فلا ناكلن

صدر الأبيات	آخر الأبيات	عددتها	القائل	الصفحة
(د)				
نعم هو الدهر	عباد	٢	عبد المجيد بن عبدون	١٤٥
فلا هطلت	البلاد	١	أبو العلاء المعري	٢٧٤
أيها المادح	الجواد	٣	عمران بن حطان	٤٢
هذا جناه	أحد	١	أبو العلاء المعري	٢٧٣
قوم إذا	ولا حسد	١	الأخطل	٣٧
نمت جدودهم	نشدوا	٤	الأخطل	٣٦
بنو أمية هبوا	والعمود	٢	بشار بن برد	٣٢
كتبت إليك	بيد	٣	عمر بن أبي ربيعة	٣٥
(ر)				
سور القرآن	الأشعار	١	أبو تمام	٥٦
ذهبت قريش	الأنصار	١	الأخطل	٣٦
ما شئت	التقهار	١	ابن هانيء	٢٩١
أسد على	الدابر	٣	عمران بن حطان	٤٢
إلى امرئ	المطر	٢	الأخطل	٣٦
دنيا معاش	منظر	١	أبو تمام	٥٦
لم أرض رأي	ومجاهرا	٤	أبو العلاء المعري	٢٦٩
مازلت آلف	التقصير	٢	مروان بن أبي حفصة	٤٩
(س)				
ودار ندامي	الثلاثس	٧	أبو نواس	٥٣
يارب أخرجنى	ومكوس	٣	أبو العلاء المعري	٢٦٨
(ع)				
تركنا أرض مصر	البقاع	٤	أبو الطيب المتنبي	٢٧٥
هبت تعاتبنى	ينخدع	٣	أبو دلالة	٣٠
ملث الغيث	التقبا	١	أبو الطيب المتنبي	٢٧٤
(ك)				
أحبك حين	وذاكا	٤	رابعة العدوية	٢٩٣، ٢٩٢
يا جمر إني	لا أزيك	٢	عمران بن حطان	٤٢
(ل)				
مزجت روحك	كل حال	٢	الحلاج	٢٩٦
تعالى الله ياسلم	الزوال	٢	أبو العتاهية	٤٩
وفى الأرض منأى	متعزل	١	الشنفرى	٣٢٠
نقل فؤادك	منزل	٢	أبو تمام	٥٦
فإن شئت	أهل	١	ابن الفارض	٣٣٣
بانئت سعاد	مكيول	١	كعب بن زهير	٣٣٤
كالعيس في	محمول	١	؟	١٩٤

صدر الأبيات	آخر الأبيات	عدد	القائل	الصفحة
أقيموا بنى أمي	جبل	٢	الشنفرى	٣٢١
أقيموا بنى قومي	لأميل	١	الشنفرى	٣٤
(م)				
ألا إنما كان	القوائم	٢	جرير	٣٨
جمع الخلافة	بالسلام	٧	سلم الخاسر	٤٧
أنى يكون	الأعمام	١	مروان بن أبي حفصة	٤٩
لتغلب أبكى	الدم	١١	جابر بن حني التغلبى	٣٥
وإن حراماً	ودارم	٣	الفرزدق	٣٨
أما الوليد	الحرم	٣	الفرزدق	٣٨
فلما قسا قلبي	وتكرما	٣	الشافعى	١٩٩
صفاء ولا ماء	ولا جسم	١	ابن الفارض	٣٣٣
أمن تذكر	أصم	٢	البوصيرى	٣٣٤
وكيف ندعو	ولا نعم	٣	البوصيرى	٣٣٤
جلوا صارماً	فقلنا نعم	١	أبو العلاء المعرى	٣٢٢
نحز سفيان	للدراهم	١	الربيع بن يونس	١٥٧
وقرا معلناً	اليتيما	٢	أبو نواس	٥٤
(ن)				
إذا بلغ الوليد	ساجدينا	١	عمرو بن كلثوم	٦٢
لا تأمن إلى النساء	أجلهن	٤		٣١٤
(هـ)				
أيا شجاع	ذكرناها	٢	أبو الطيب المتنبي	٢٧٤
وقد رأيت	ذكرناها	٤	أبو الطيب المتنبي	٢٣٩
مشينها خطى	سواها	٢	؟	٣٢٠
مل المقام	أجراؤها	٢	أبو العلاء المعرى	٢٦٩
واهج نزار	وراكبها	٨	أبو نواس	٥٢
يسود الناس	له	٣	أبو العلاء المعرى	٢٦٩
هو البحر	سائله	٣	أبو تمام	٥٥
لقد جعل الله	سوالها	٣	سلم الخاسر	٤٨
فقل لبنى مروان	هشائها	٤	الفرزدق	٣٧
(ي)				
خفف السير	بنفادى	١	ابن الفارض	٣٣٣
يا حرقة الدهر	متخنى	٤	؟	٣١٧
خليفة الخضر	إخوانى	٢	أبو تمام	١٢٣
فلو أرسلت	سلىنى	٢	جسيل بن معمر	٣٦

فهرس الأعلام

(١)	
إبراهيم (بن ناصيف)	آدم (عليه السلام) ٩٣ ، ١١٥ ، ١١٦
اليازجى	آدم سميث ٩١
٣٥٥ (ت : ١٩٠٦ م)	آزر ١٦٠
إبراهيم بن هلال الصابىء	إبراهيم (عليه السلام) ١١ ، ٦٨ ، ٩٥ ، ١٠٩ ،
٣٣٧ (ت : ٣٨٤ هـ)	١١٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠
٣٥٣ ، ٣٥٢ ، ١٩٤	إبراهيم بن أحمد الأغلبى
١٦٣	(ت : ٢٨٩ هـ) ٢٦
إبراهيم الوزير	إبراهيم بيومى مذكور ٢٨١ ، ٢٨٢
إسراهم (بن يزيد)	إبراهيم بن خالد أبو ثور
١٨١ ، ١٧٩ (ت : ٩٦ هـ)	(ت : ٢٤٠ هـ) ١٧٠
إبراهيم (ملوك) ٣٤٢	إبراهيم بن السندى ٨١
ابن الأثير = على بن محمد (ت : ٦٣٠ هـ)	إبراهيم بن سيار النظام ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٧ ،
ابن إسحاق = محمد بن إسحاق	(ت : ٢٣١ هـ) ٩٩ ، ٢٠٨
٢٣٧	إبراهيم شعلان ٣٢٢
ابن الأفتس = عبد الله بن مسلمة	إبراهيم بن عبد الرحمن
ابن أم مكتوم = عبد الله	ابن عوف ١٦٩
ابن إياس = محمد بن إياس	إبراهيم عبد القادر المازنى
أبى بن كعب	(ت : ١٩٤٩ م) ٩٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٩
١٦٥ (ت : ٢١ هـ)	إبراهيم عبده ٣٥٤
أثاتورك = مصطفى كمال	إبراهيم بن عبد الله بن الحسن (ت : ١٤٥ هـ) ١٨١
٣٦٣	إبراهيم اللقانى (محام) ١٩٤
أحمد بن أبى دؤاد (ت : ٥٦ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٢١٠	إبراهيم بن محمد بن على ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ١٥٨ ،
٢٣٢ ، ٢١٤ ، ٢١٢ (ت : ٢٤٠ هـ)	(ت : ١٣١ هـ) ١٥٩
أحمد بن أبى يعقوب بن واضح البعتوبى	إبراهيم باشا بن محمد
١١٥ ، ١١٠ ، ١٠٧	على (ت : ١٢٦٤ هـ) ٣٣٨ ، ٣٥٥
١١٧ (ت : ٢٧٨ هـ)	إبراهيم بن محمد
أحمد أمين ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٧ ، ٩٩ ،	الاصطخرى (ت : ٣٤٦ هـ) ١٢٥
٢١٠ ، ١٤٠ (ت : ١٩٥٤ م)	إبراهيم بن محمد
٣٦٤	الاسفراينى (ت : ٤١٨ هـ) ٢٣٩ ، ٢٤١
أحمد بهاء الدين	إبراهيم ناجى
	(ت : ١٩٥٣ م) ٣٦٤

أحمد بن بويه معز الدولة	أحمد بن سهل البلخي
(ت: ٣٥٦ هـ) ٣٢٥	(ت: ٣٢٢ هـ) ١٢٤
أحمد بن جعفر المعتمد	أحمد بن شعيب النسائي
(ت: ٢٧٩ هـ) ٢٠٧، ٥٩	(ت: ٣٠٣ هـ) ٣٠٥
أحمد حافظ عوض	أحمد شوقي
(ت: ١٩٥٠ م) ٣٥٤	(ت: ١٩٣٢ م) ٣٦٠، ٣٥٩، ٣٥٤
أحمد حسن الباقوري	أحمد الصالح (علي) ٤٣
أحمد حسن الزيات	أحمد بن طلحة المعتضد
(ت: ١٩٦٨ م) ٣٦٤، ٣٥٩	(ت: ٢٨٩ هـ) ١١٢، ٥٩
أحمد بن الحسين البيهقي	أحمد بن (أبي طاهر)
أبو بكر	طينفور (ت: ٢٨٠ هـ) ١١٠
(ت: ٤٥٨ هـ) ٢٤١	أحمد بن عبد السلام بن
أحمد بن الحسين الجعفي ٩، ١٢٠، ٢٣٨، ٢٦٥	تيمية (ت: ٨٢٧ هـ) ٣٣٥، ٣٠٨
المتبي ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٣،	أحمد بن عبد الله أبو نعيم
(ت: ٣٥٤ هـ) ٢٧٥، ٢٧٤	(ت: ٤٣٠ هـ) ٢٤١
أحمد بن الحسين بن يحيى	أحمد بن عبد الله بن
بديع الزمان	١٣٠، ٢٦٥، ٢٦٦،
(ت: ٣٩٨ هـ) ٣٣٧، ٣٢٣، ٣٢١	٢٦٩، ٢٦٨، ٢٦٧،
أحمد الحسيني ١٩٤	(ت: ٤٤٩ هـ) ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢،
أحمد حشمت	٢٧٣، ٢٧٤، ٣٢٢
(ت: ١٩٢٦ م) ٣٥٣	أحمد بن عبد الملك
أحمد بن خلكان أبو ١٥٦، ١٥٧، ١٥٩،	(ابن شهيد)
العباس ١٦٤، ١٦٨، ٢٠٧،	(ت: ٤٢٦ هـ) ٢٧٢
٢٨٤، ٢٣٧	أحمد بن عبد المؤمن
أحمد بن داود أبو حنيفة	الشرشي (ت: ٦١٩ هـ) ٣٢٣
الدينوري (ت: ٢٨٢ هـ) ١١٠	أحمد بن عبد الوهاب
أحمد بن رشيق الأندلسي	النوري (ت: ٧٣٣ هـ) ٣١٠، ٣٠٨، ٢٢٣
(ت: ٤٤٢ هـ) ٢٦٠	أحمد عرابي
أحمد زكي	(ت: ١٩١١ م) ٣٤٦، ٧٥
(ت: ١٩٣٤ هـ) ٣٦٥	أحمد بن (علي) البدوي
أحمد زكي صفوت ٢١٢	(ت: ٦٧٥ هـ) ٣٠٥
أحمد بن زهير بن حرب ١٠٤، ٢٠٨، ٢١٥،	أحمد بن علي بن حجر
(ت: ٢٧٩ هـ) ٢١٩، ٢٢٠، ٢٣٢	(ت: ٨٥٢ هـ) ٣١١، ٣١٠، ٣٠٨
أحمد بن سعيد بن حزم	أحمد بن علي الرفاعي
(ت: ٤٠٢ هـ) ٢٥٦	(ت: ٥٧٨ هـ) ٢٩٨

أحمد بن علي القلقشندی	أحمد بن محمد العطاء
(ت: ٨٢١ هـ)	(ت: ٧٠٩ هـ)
٣١٠، ٣٠٨	٢٨٩
أحمد بن علي المقریزی	أحمد بن محمد المستعين
(ت: ٨٤٥ هـ)	(ت: ٢٥٢ هـ)
٣٤٧، ٣٣٠	١١٢، ٥٩
أحمد بن علي الموصلي	أحمد بن محمد بن هارون
(ت: ٣٠٧ هـ)	الخلال (ت: ٣١١ هـ)
٧٥	٢٣٣
أحمد فارس الشدياق	أحمد ندا
(ت: ١٣٠٤ هـ)	(ت: ١٢٩٤ هـ)
٣٥٥	٣٤٦
أحمد فتحي زغلول	أحمد بن نصر بن مالك
(ت: ١٩١٤ م)	الخرزاعي (ت: ٢٣١ هـ)
٣٥٣	٢٣٢
أحمد فؤاد	أحمد بن يحيى بن جابر
(ت: ١٩٣٦ هـ)	البلاذري (ت: ٢٧٩ هـ)
٣٥٧	٦٠
أحمد بن القاضي	أحمد بن يحيى العمري
٣٥٩	(ت: ٧٤٩ هـ)
أحمد لطفي السيد	٣١٠، ٣٠٨
(ت: ١٩٦٣ م)	أحمد بن يحيى
٣٥٤، ٣٥٣، ٢٨١	الونشريسي (ت: ٩١٤ هـ)
أحمد بن محمد بن أحمد	٣٠٨
ابن الجصور	أحمد بن يوسف النيفاشي
(ت: ٤٠١ هـ)	(ت: ٦٥١ هـ)
٢٥٧	٣١٠، ٣٠٩
أحمد بن محمد أبو بكر	الأحوص = عبد الله بن محمد
الصنوبري (ت: ٣٣٤ هـ)	٢٦٧
أحمد بن محمد أبو بكر	المروذي (ت: ٢٧٥ هـ)
٢٣٠	٢٦٢
أحمد بن محمد بن حنبل	إدريس بن عبد الله المثنى
(ت: ٢٤١ هـ)	(ت: ١٧٧ هـ)
١٨٦، ١٦١، ١٠٤	١٣٢
٢٠٠، ١٩٩، ١٩٣	إدريس بن يحيى الحمودي
٢٠٥، ٢٠٣، ٢٠٢	(ت: ٤٤٧ هـ)
٢١٠، ٢٠٩، ٢٠٨	١٣٢
٢١٤، ٢١٣، ٢١١	الإدريسي = محمد بن محمد بن عبد الله
٢١٨، ٢١٧، ٢١٥	١٢٩
٢٢١، ٢٢٠، ٢١٩	ادوارد سخاو
٢٢٥، ٢٢٣، ٢٢٢	٣١٥
٢٢٩، ٢٢٧، ٢٢٦	ادوارد وليام لين
٢٣٣، ٢٣١، ٢٣٠	٣٤٩
٢٣٧، ٢٣٥، ٢٣٤	أرازموس
٣٠٤، ٢٤٤، ٢٣٨	٤٤
٢٣٠، ١٩٤	أربري
أحمد محمد شاكر	أردشير بن بابك
	١١٧، ١٠٠
	٢٨٣
	أرستطاليس

إسماعيل بن عمر بن كثير	٢٤٣ ، ١٩٤ ، ١٩٢ ، ٧٨	أرسطو
٣٠٩ ، ٧٤ (ت : ٧٧٤ هـ)	٢٧٩ ، ٢٧٨ ، ٢٧٧	
إسماعيل بن القاسم أبو	٢٨٣ ، ٢٨١ ، ٢٨٠	
٤٨ (ت : ٢١١ هـ)	٢٨٧ ، ٢٨٦ ، ٢٨٤	
إسماعيل الميموني	١٢	الأرقم بن عبد مناف
٢٣١		(ت : ٥٥ هـ)
إسماعيل بن يحيى المرني		أرمان بير
١٨٩ (ت : ٢٦٤ هـ)	٢٢٠	(ت : ١٢٨٨ هـ)
أسيد بن عبد الله	٥٤	أرنور رامبو
٢٨ (ت : ١٥١ هـ)	١٣٩ ، ١٠١	أرنولد تويني
الأشعري = علي بن	٣٤٩	أريوسطو
إسماعيل بن إسحاق		الأزرقى = محمد بن عبد
أشناس		الله بن الوليد
١١٢		أسامة بن زيد
أشهب بن عبد العزيز	٢٠٥	(ت : ٥٤ هـ)
١٨٧ ، ١٧٨ (ت : ٢٠٤ هـ)		اسحاق بن إبراهيم
الاصطخري = إبراهيم بن		المصبغي (ت : ٢٣٥ هـ)
محمد	٢١٤ ، ٢١٣ ، ١١٧	اسحاق بن إبراهيم بن
الأصنهاني = علي بن		راهويه (ت : ٢٣٨ هـ)
الحسين أبو الفرج	٢٢٩ ، ١٦١	اسحاق بن حنين
اعتماد الرميكية (جارية		(ت : ٢٩٨ هـ)
المعتمد : ٤٨٨ هـ)	٢٧٨	أسماء بنت عميس
٢٥٩		الختومية (ت : ٤٠ هـ)
أفلاطون	١٥٥	إسماعيل بن إبراهيم
٢٧٧ ، ١٩٤ ، ١٩٢		(عليه السلام)
٢٨٠ ، ٢٧٩ ، ٢٧٨	١١٧ ، ١٠٩	إسماعيل بن إبراهيم
٢٨٤ ، ٢٨١	٣٥٣ ، ٣٥١ ، ٣٤٦	(الخدوي ١٨٩٥ م)
أفلوطين = بلوتينوس		إسماعيل بن حيدر
الاسكندري	٣٢٧	الصفوي
١٦٣ (دوق)		إسماعيل صدقي
ألب أرسلان	٣٥٨ ، ٣٥٧	(ت : ١٩٥٠ م)
٢٤٤ (ت : ٤٦٥ هـ)		إسماعيل بن عباد
١٢٩ البكني	٣٣٧	(ت : ٣٨٥ هـ)
٨٨ البريخت		إسماعيل بن علي
٣٥٢ الدون جورست		الخصيري (ت : ٦٠٣ هـ)
١٠٥ الفريد جيوم		
٢٥٩ ، ١٤٤ الفونسو السادس		
الألفي = قلاوون الألفي		
= محمد الألفي		

الباز = عبد العزيز بن باز	١٢٥	الويس شيرنجير
الباقلاني = محمد بن الطيب	١٤٦	اليكس هيلي
الباهلي = أبو الحسن البصري	٩	امرو القيس (ت : ٨٠ ق. هـ)
= أبو بكر الباهلي	٣٤٢	اميان
٢٩٥ بايزيد (سلطان)	٣٢٤، ٢٨٧، ٢٦٠	اميليو غرسيه غومس
بشنة بنت حبا		الامين = محمد الامين
٣٦ (ت : ٨٢ هـ)	٣٦٤	أمية السعيد (ت : ١٩٩٥ م)
البحترى = الوليد بن عبيد	٣١٩، ٣١	أناطول فرانس
بن يحيى	٢٧٢	أنريكو شيروولى
البخارى = محمد بن إسماعيل	٣١٤، ٣١٣	أنطوان جالان
١٣٨ بدرو القاسى القشتالى	٣٢٢	أنطوان إيزاك (ت : ١٨٣٨ م)
بديع الزمان : أحمد بن الحسين أبو النضل	٥٠	أنطونيو
٣٤٠ برتو لليه	٢٩٤، ٢٩٣	أنطونيوس المصرى
٣٤٢ البرديسى (مملوك)	٣٦٤، ٢٨١، ١٠	أنيس منصور
برسيفال = أرمان بيير	٣١٥	أنوليتمان
برقوق بن أنس اليبغاوى		الأهوانى = عبيد العزيز الأهوانى
١٣٨ (ت : ٨٠١ هـ)	٢٨٧، ٢٦٠	أورتيجا إي جاست
٩ برنارد شو	٤٤	أوريشر
٣٤٥ بروكسن		الأوزاعى = عبد الرحمن ابن عمرو
بريدة بن الحصيب	٢٨٧، ٢٨٢	ايرنست رينان
٧٣ الأسلمى (ت : ٦٣ هـ)	٣١	ايفارست جاملان
ابن بسام الشترينى = على بن بسام		(ب)
البسطامى = طيفور بن عيسى		ابن باجه = محمد بن يحيى
٣٢، ٣١ بشار بن برد (ت : ١٦٧ هـ)	٢٩٤	باخوميوس (أنبا)
بشر بن الحارث الخافى		ابن باديس = عبد الحميد بن باديس
٢١٥ (ت : ٢٢٧ هـ)		باديس بن حبوس
بشر بن غياث المريسى	٢٥٩	(ت : ٤٦٥ هـ)
٢١٩، ٢٠٨، ٢٠٣ (ت : ٢١٨ هـ)		

١٠	بولس
٥٤	بول فرلين تاب
٥٤	بول ماري فرلين
	بونابرت = نابليون
	بونابرت
	بيبرس الظاهر
٣٠٧، ٣٠٦، ٣٠٥	(ت : ٦٧٦ هـ)
١٠	بيتهوفن
	بيرم التونسي = محمود
	بيرم التونسي
	البيروني = محمد بن
	أحمد (ت : ٤٤٠ هـ)
٣٤٩	بيكون
	البيهقي = أحمد بن
	الحسين أبو بكر
١٤٦	بيبر بنوا ميشيل
	(ت)
	ابن تاشفين = يوسف بن
	تاشفين
٢٤٥	تاكيتوس
	الترمذي = محمد بن
	عيسى
	ابن تغري بردي = يوسف
	بن تغري
	التلمساني = محمد بن
	محرز الوهراني
٢٧٥	تليد بن تشكروز
	أبو تمام = حبيب بن أوس
	الطائي
١١٢	تنكين
	التنوخى = المحسن بن
	على
١٧٧	توبة بن نمر
١١٤	تورين (قائد فرنسي)

	بشر بن المعتمر
٢٠٨، ٨٠، ٧٨	(ت : ٢١٠ هـ)
	بطرس بن بولس البستاني
٣٥٥	(ت : ١٣٠٠ هـ)
١٣٥	بطليموس
	ابن بطوطة = محمد بن
	محمد اللواتي الطنجي
١١٧	بعرام
١١٢	بغا
٦٠	بغا الصغير
	البقلي = محمد علي
	البقلي
٢٦	بكر بن ماهان
٩٧	أبو بكر الأصم
٢٤٨	أبو بكر الباهلي
٣١	أبو بكر الخالدي
	أبو بكر الرازي = محمد
	بن زكريا
	أبو بكر الصديق = عبد
	الله بن عثمان
	أبو بكر بن عبد الرحمن
١٦٩	(ت : ٩٤ هـ)
١٤٤	أبو بكر المظفر بن عبد الله
	بلال بن رباح
٣٦١، ٢٣٩، ١٥٣	(ت : ٢٠ هـ)
	بلوتينوس الاسكندري
٢٨٤، ٢٧٨، ٢٧٧	(أفلوطين)
٦٠	بنان
١٣٩	بندوكروثشي
٣٠٦	بندقدار (أمير مملوكي)
	البهلول بن راشد
١٧٨	(ت : ١٨٣ هـ)
	بوران بنت الحسن بن
٢٠٧	سهل (ت : ٢٧١ هـ)

جان سوفاجيه	٩٦	توفيق البكري
(ت : ١٩٥٠م) ١٢٥	٣٦٢ ، ٣١٣ ، ٩٦	توفيق الحكيم
الجبائي = محمد بن عبد		توفيق (الخدوي) =
الوهاب أبو علي		محمد توفيق
= عبد السلام بن محمد	٣٥٣	توفيق دوس
أبو هاشم	٢٨١ ، ٧٨	توفيق الطويل
جبرائيل الصهبوني	٣٦١	توماس جيفرسون
الأهداني (ت: ١٦٤٨م) ٣٥٥	٢٧٢	توماس فيرنز البوت
جبرائيل بن فرحات	١٧٤	توماس كارلايل
(ت : ١٧٣٢م) ٣٥٥	٣٣٣	تيريزا دي جنوس
جبران خليل جبران	١٣٩ ، ١٣٨	تيمورلنك
(ت : ١٩٣١م) ٣٦٤ ، ٣٥٦		ابن تيمية = أحمد بن عبد
الجبرتي = عبد الرحمن		السلام
الجد بن قيس		(ث)
ابن جرير الطبري = محمد	٣٦٣	ثروت أباطة
بن جرير		الثعالي = عبد الملك بن
جرير بن عطية الخطفي		محمد بن إسماعيل
التميمي (ت: ١١٠ هـ) ٤١ ، ٤٠	٢١٠ ، ٢٠٨ ، ٢٠٣ ، ٨١	ثماسة بن أشرس (ت : ٢١٠ ، ٢٠٨ ، ٢٠٣ ، ٨١)
جرمانوس فرحات =		(٢١٣ هـ)
جبرائيل بن فرحات	٢٩٤ ، ٢٩٣	ثوبان بن إبراهيم ذو النون
ابن الجزري		(ت : ٢٤٥ هـ)
ابن الجسور = أحمد بن		أبو ثور = إبراهيم بن
محمد بن أحمد		خالد
جعفر بن حرب		(جـ)
(ت : ٣٤٨ هـ) ٢٩٣	٣٤	جابر بن حنى التغلبي
جعفر بن محمد الصادق		(ت : ٥٦٤ هـ)
(ت : ١٤٨ هـ) ٢٠٦ ، ١٩٢ ، ١٨٦		الجاحظ = عمرو بن بحر
جعفر المتوكل بن محمد		أبو عثمان
المتصم بن هارون الرشيد	١٦٣	جاد الحق على جاد الحق
(ت : ٢٤٧ هـ) ٢٢٩ ، ٢٢٧ ، ٢٢٦		جاك بنيجنى بوسويه
٢٨٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣١	١٣١	(ت : ١٧٠٤م)
٣٢٥ ، ٢٩٠	٣١	جاك لوى دافيد
جعفر بن يحيى بن خالد	٣١٩	جالان
البرمكي (ت: ١٨٧ هـ) ٢٠٢ ، ٢٠١	٣٤٩ ، ١٢٨	جاليليو
أبو جعفر الأنباري	٣٦١ ، ٣٤٩ ، ٢٦٩ ، ٩١	جان جاك روسو

الجويني = عبد الملك بن عبد الله	١٧٣	أبو جعفر السفاح
١٣٩		أبو جعفر المنصور = عبد الله بن محمد
جيتيه = وولفجانج جيتيه		جمال الدين الأففاني =
جيراردوس ميركاتور		محمد بن صفدر
١٣٥ (ت : ١٥٩٤ م)		جمال عبد الناصر
(حـ)	٣٤٥ ، ٣٤٣	(ت : ١٩٧٠ م)
٢٥٩		الجمحي = محمد بن سلام (ت : ٢٣٢ هـ)
ابن أبي حاتم = عبد الرحمن بن محمد	٤٢	جمهر (امرأة الفرزدق)
(ت : ٣٢٧ هـ)	٢٨٦ ، ٢٨٤	جميل صليب
حاجب بن زرارة		جميل بن عبد الله بن معمر (ت : ٨٢ هـ)
٥٢ (ت : ٣ هـ)	٣٦ ، ٣٤	جندب بن جنادة أبو ذر
الحارث بن أسد المحاسبي	٧٣	(ت : ٣٢ هـ)
٢٩٦ ، ٢٨٩ (ت : ٢٤٣ هـ)	١٦٤	جنتيان
الحارث بن سعيد أبو فراس الحمداني	٣٣٠	جنگيز خان
(ت : ٣٥٧ هـ)		الجنيد بن محمد أبو القاسم (ت : ٢٩٧ هـ)
٢٦٧		٢٩٥
ابن الحارثية = أبو العباس السفاح		الجهشياري = محمد بن عبدوس
حافظ إبراهيم = محمد حافظ إبراهيم		أبو جهل = عمرو بن هشام
٥٣		جودة السحار
حافظ الشيرازي	٣٦١	جودفروا
الحاكم بأمر الله = منصور بن نزار		(ت : ١٩٥٧ م)
٣٢٩		جورج خياط
أبو حامد الغزالي = محمد بن محمد الطوسي	٣٥٣	جورج شحاته قنواتي
حبيب بن أوس الطائي	٢٨٥ ، ٢٨١	جورجي زيدان
(ت : ٢٣١ هـ)		(ت : ١٩١٤ م)
٥٩ ، ٥٦ ، ٥٥ ، ٣٣	٣٦٢ ، ٦	ابن الجوزي = عبد الرحمن بن علي
١٢٣		جوستاف فان فلوتن
٢٠٦		٤٤
الحجاج بن يوسف الثقفي		جولييت
(ت : ٩٥ هـ)		٥٠
١٨٤ ، ١٨٣		
حجر بن عدى		
(ت : ٥١ هـ)		
١٧ ، ١٦ ، ١٥		

حسن بن محمد العطار
(ت: ١٢٥٠ هـ) ٣٥٠، ٣٤٦، ٩
الحسن بن هاني أبو نواس ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢،
(ت: ١٩٨ هـ) ١٠٠، ٥٥، ٥٤، ٥٣
٢٠٧
أبو الحسن البساهلي
٢٣٩ البصري
أبو الحسن الرفاعي
(والد أحمد الرفاعي) ٢٩٨
أبو الحسن المرنئي ١٣٧
حسين رشدي
(ت: ١٩٢٨ م) ٣٥٧
الحسين بن عبد الله أبو ٩، ١٢٨، ٢٤٣، ٢٤٨
علي بن سينا ٢٦٢، ٢٧٨، ٢٧٩،
(ت: ٤٢٨ هـ) ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٥،
٢٨٦، ٢٠٩
الحسين بن علي بن أبي
طالب (ت: ٦١ هـ) ١٥٧، ٣٦١
حسين كامل (بن
الخدوي إسماعيل) ٣٥١، ٣٥٢
(ت: ١٩١٧ م)
الحسين بن منصور أبو
مغيث الخلاج ٢٩٥، ٢٩٦
(ت: ٣١١ هـ)
حفص بن سليمان أبو
سلمة الخلال ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩
(ت: ١٣٢ هـ) ١٥٨
أبو حفص عمر المتوكل
علي الله ١٤٤
حنفي ناصف
(ت: ١٩١٩ م) ٣٥٣
الحكم بن عبد الرحمن
المستصر
(ت: ٣٦٦ هـ) ٢٥٤، ٢٥٥

ابن حجر العسقلاني =
أحمد بن علي
ابن حجيرة = عبد الرحمن
بن حجيرة
الحريري = محمد بن علي
بن أحمد
ابن حزم = علي بن أحمد
بن حزم
الحسن بن أحمد بن
يعقوب الهمداني
(ت: ٣٤٤ هـ) ١٣٦
الحسن البصري = الحسن
بن يسار
حسن البنا
(ت: ١٩٤٩ م) ١٦٣
الحسن بن رشيق أبو علي
القيرواني (ت: ٤٥٦ هـ) ٣٣٨، ٣٣٧، ٥٥، ٤٩
حسن الزيات ٩٦
حسن الساعاتي ٢٨١
حسن السندوي ٤٤
الحسن بن سهل
(ت: ٢٣٦ هـ) ٢٠٧
الحسن بن عاصم ٣٥٢
حسن عبد الرازق ٣٥٣
الحسن بن عبد الله بن
سهل أبو هلال العسكري
(ت: ٣٩٥ هـ) ٣٣٨، ٣٣٧
الحسن بن علي بن أبي
طالب (ت: ٥٠ هـ) ١٣٢، ٧٣
الحسن بن علي بن اسحاق
الطوسي أبو علي ٢٤٤
الحسن بن علي (نظام
الملك، ت: ٤٨٥ هـ) ٢٤١، ٢٤٤، ٢٤٥
الحسن بن قحطبة
(ت: ١٨١ هـ) ٢٧

خزيمة بن خازم التميمي	الحسلاج = الحسين بن منصور
٢٢٤ (ت: ٢٠٣ هـ)	٣٥٣ حليم
الخضر (عليه السلام) ١٢٣، ١٢٤، ٢٩٧	١٨١ حماد بن إسماعيل
الخضيري = إسماعيل بن علي	٣٥٧ حمد الباسل
ابن الخطيب لسان الدين = محمد بن عبد الله	حمدون بن أحمد القصار
الخلال = حفص بن سليمان أبو سلمة	٥١ (ت: ٢٧١ هـ)
الخلال = أحمد بن محمد بن هارون	٣٢٩ حمزة الدرزي
ابن خلدون = عبيد الرحمن بن خلدون	حمزة فتح الله
خلف بن حيان الأحمر	٣٤٦ (ت: ١٩١٨ م)
٥٢ (ت: ١٨٠ هـ)	الحموي = ياقوت بن عبد الله
ابن خلكان = أحمد بن خلكان	حميد بن قحطبة
الخليل بن أحمد	٢٧ (ت: ١٥٩ هـ)
الفرايدي	حنين بن إسحاق
٩٩ (ت: ١٧٠ هـ)	٢٧٨ (ت: ٢٦٠ هـ)
خليل بن أبيك الصفدي	أبو حنيفة = النعمان بن ثابت
٣٣٨، ١٣٣ (ت: ٧٦٤ هـ)	ابن حوقل = محمد بن حوقل
٣٥٣ خليل بو حجاب	حيان بن خلف أبو مروان
٣٥٣ خليل شريف	٢٦٠، ٢٥٨ (ت: ٤٦٩ هـ)
خليل بن عبده مطران	(خ)
٣٥٤ (ت: ١٩٤٩ م)	خالد البرمكي
١٨٠ الخوارزمي	٢٠١ (ت: ١٦٣ هـ)
الخوري ميخائيل الغزي	خالد بن العاص بن هشام
٣٥٥ (ت: ١٧٩٤ م)	٥١ المخزومي
٣٢٣ خوليان ريرا	٣٦١ خالد محمد خالد
٣٢٨، ٣٢٧ الخوميني	خباب بن الارت
الخطاط أبو الحسين بن أبي عمرو	٢٣٩، ١٥٣ (ت: ٣٧ هـ)
٨١، ٧٩ (ت: ٣٠٠ هـ)	٣٥٢ خديجة برهان
	خديجة بنت خويلد
	١٥٥ (ت: ٣ ق. هـ)
	١١٤ خديجة (أم الخليفة المعتز)

الدميمري = محمد بن	خيثمة بن الحارث بن
موسى أبو البقاء	مالك الأوسى الأنصارى ١٠٦
٣٤٢، ٣٤٠	ابن أبى خيثمة = أحمد بن
دوبوا	زهير
٣٤٩	خيران العامرى الصقلبي
٣٤٩	(ت : ٤١٩ هـ)
٣٤٩	٢٥٧
دي بمبو	(٥)
٣٤٠	دافنشى = ليوناردو
ديچا	٩١
٣٣٩	دالامير
دي فويه	٢٧٢، ٢٧١، ٩٧، ٥٠
ديكارت = رينيه ديكارت	دانتي الليجيرى
الدينورى = أحمد بن داود	دانييل بلس
= ابن قتيبة	(ت : ١٩١٦ م)
(ذ)	٣٥٦
أبو ذر الغفارى = جندب	داود بن على بن عبد الله
بن جنادة	(ت : ١٣٣ هـ)
الذهبي = محمد بن أحمد	داود بن على بن خلف
ذو النون المصرى = ثويان	الظاهرى
بن إبراهيم	(ت : ٢٧٠ هـ)
(ر)	٢٥٧
رابعة بنت إسماعيل	داود بن عمر الأنطاكى
العدوية أم الخير	(ت : ١٠٠٨ هـ)
٢٩٢	٣٠٩
(ت : ١٣٥ هـ)	داود بن يزيد المهلبى
الرازى = محمد بن زكريا	(ت : ٢٠٥ هـ)
٣٦٥	أبو داود السجستانى =
راستكونيكوف	سليمان بن الأشعث
الراعى = عبيد بن حصين	أبو داود الطيالسى =
٣٤٩	سليمان بن داود
رافايلى	درويش (شيخ محمد
الرافعى = عبد الرحمن	عبده)
الرافعى	٣٥٠
رايليه	٣٢٧
٣٤٩	دسينا ايكاترينا
الربيع بن سليمان المرادى	دعبل بن على بن رزين
٢٢١، ١٩٨	الخرزاعى (ت : ٢٤٦ هـ)
(ت : ٢٧٠ هـ)	٣٣
الربيع بن يونس بن أبى	ابن دقيق العيد تقى الدين
٢٠٢، ٢٠١، ١٥٦، ٤٨	= محمد بن على أبو
(ت : ١٦٩ هـ)	الفتح
ربيعه بن أبى عبد الرحمن	أبو دلالة = زند بن الجون
ربيعه الراى (ت : ١٣٦ هـ)	

الزبير بن العوام	ابن رشد = محمد بن
(ت : ٣٦ هـ)	أحمد بن رشد
١٠٤	الرشيد = هارون الرشيد
الزبير بن أبي الماحوز	رشيد رضا = محمد رشيد
(ت : ٦٨ هـ)	رضا
٢١	ابن الرشيد = أحمد بن
ابن الزبير = عبد الله بن	رشيد الأندلسي
الزبير	= الحسن بن رشيد
١٦٣	القبرواني
٣٦٤	رضا بهلولي
زكريا البري	رفاعة (جد لأحمد
زكي أبو شادي	الرفاعي)
٣٦٤، ٣٦٢، ٢٨١	٢٩٨
زند بن الجون أبو دلامة	رفاعة رافع الطهطاري
(ت : ١٦١ هـ)	٣٤٦، ٣٤٥، ٣٤٤
٣٠	(ت : ١٨٧٣ م)
١٥٣	٣٥٥، ٣٥٠، ٣٤٧
زنية	ركن الدولة = الحسن بن
الزهرابي = خلف بن	بويه
عباس أبو القاسم	رمسيس
الزهري = محمد بن مسلم	٣٦٠
بن شهاب	روجر (رجار) الثاني
زهير بن حرب أبو خيثمة	١٣٤، ١٣٣
(ت : ٢٣٤ هـ)	١٤٥
٢١٣	زوجيه (رجا) جارودي
الزيات = أحمد حسن	روز اليوسف
الزيات	٣٦٠
زياد بن أبيه (ت : ٥٣ هـ)	ابن الرومي = علي بن
١٦	العباس
٤١	رومي
زيد بن ثابت النجاري	٥٠
الأنصاري (ت : ٤٥ هـ)	٣٦٠
١٧٠، ١٦٥	رياض السنباطي
زيد بن علي بن الحسين	٣٥٧، ٢٢٠
(ت : ١٢٢ هـ)	ريجنالد وينجت
١٨٦	أبو ريدة = محمد عبد
الزيري = عبد الله الزيري	الهادي
زين العابدين = علي بن	رينولد آلن نيكلسون
الحسين	(ت : ١٩٤٥ م)
(س)	٣٣٣، ٢٨٩
سابور	١٠، ١١، ٧٨،
١١٧	١٩٥، ١٩٤
٣٤٩، ٢٦٩	(ز)
سان سيمون	زبيدة (بنت جعفر زوجة
السبكي = عبد الوهاب بن	الرشيد ت : ٢١٦ هـ)
علي تاج الدين	٢٠١
٩١، ٩	ستيوارت مل

سفيان بن الأبرد	٢١	سحنون = عبد السلام بن سعيد	
سفيان (بن سعيد)		السخاوي = محمد بن عبد الرحمن	
الثوري (ت : ١٦١ هـ)	٢١٩ ، ١٥٧ ، ١٥٦	السراج أبو نصر = عبد الله بن علي	
سفيان بن عينة	١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٩١ ،	سعد (بن إبراهيم)	٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ،
(ت : ١٩٨ هـ)	٢١٩ ، ١٩٧	زغلول (ت : ١٩٢٧ م)	٣٤٦ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ،
سفيان بن معاوية بن يزيد			٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ،
بن المهلب	٢٩ ، ٣٠		٣٦١
سفيان بن يزيد	٢٥٦	سعد بن خيثمة بن الحارث	
أبو سفيان = صخر بن حرب		الأوسي (ت : ٢ هـ)	١٠٦
سقراط	٣١ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ٢١٥	سعد بن أبي وقاص	
	٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ،	(ت : ٥٥ هـ)	١٦٢
	٢٨١	ابن سعد = محمد بن سعد أبو عبد الله	
ابن سلام = محمد بن سلام الجمحي		سعد الدين وهبة	٣٦٤
سلامة موسى	٣٥٤ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢ ،	السعدى فرهود	١٦٣
(ت : ١٩٥٨ م)	٣٦٥	أبو السعود = عبد الله بن عبد الله	
سلفستر دى ساسى = أنطوان إيزاك		سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل (ت : ٥١ هـ)	١٢ ، ٢٣٠
سلم بن عمرو الخاسر		سعيد بن سالم القداح	١٩١
(ت : ١٨٦ هـ)	٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩	سعيد عقل (بن فاضل . ت : ١٩١٦ م)	٣٦٤
أبو سلمة = حفص بن سليمان الخلال		سعيد بن محمد علي = محمد سعيد بن محمد علي	
أم سلمة (أم المؤمنين) = هند بنت سهيل		سعيد بن المسيب المخزومي	١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،
سليم الأول ياووز	٣٢٦	(ت : ٩٤ هـ)	٢١٩
سليم تبريز	٣٢٧		٢٩٢
سليم بن منصور	١٢٦ ، ١٤٠	أبو سعيد بن أبي الخير	
سليمان بن الأشعث		السفاح = أبو جعفر السفاح	
السجستاني		= أبو العباس السفاح	
(ت : ٢٧٥ هـ)	٢٣٣ ، ٢٤٤ ، ٣٠٤		
سليمان (بن خطار)			
البستاني (ت : ١٩٢٥ م)	٣٥٥		
سليمان بن داود (عليه السلام)	٣٢٠		

٣٤٥	شارل العاشر	سليمان بن داود الطيالى	
١١٣	شارلمان	(ت: ٢٠٤ هـ)	١٠٤
	الشافعى = محمد بن	سليمان بن عبد الملك	١٩، ٣٧، ١٤٧، ١٧٣،
	إدريس	(ت: ٩٩ هـ)	١٨٦
٣١٥، ٣١٣	شاه زمان	سليمان الفرنسى	٣٤٣، ٣٤٥، ٣٤٦
١٨١	شبرمة	سليمان القانونى	٣٣١، ٣٤٢
	الشرقاوى = عبد الله بن	سليمان الندوى	١٦٣
	حجازى	سليمان بن يسار	
٩٣	شرلكان	(ت: ١٠٧ هـ)	١٨٥
	شريح (بن الحارث)	السمرقندى	٢٨٥
١٧٩، ١٧٥	القاضى (ت: ٧٨ هـ)	سمعان العمودى	٢٩٢
	الشريشى الأندلسى =	السنباطى = رياض	
	أحمد بن عبد المؤمن	السنباطى	
	الشريف الإدريسى =	السوسى = محمد بن	
	محمد بن محمد بن عبد	على السوسى	
	الله	السيد أحمد صقر	٢٣٩
	الشريف الرضى = محمد	سيد درويش	
	بن الحسين	(ت: ١٩٢٣ م)	٣٦٠
	شريك بن عبد الله النخعى	سيد قطب	١٦٣
١٥٧	(ت: ١٧٧ هـ)	ابن سيرين = محمد بن	
	الشعبى = عامر بن	سيرين	
	شراحيل	سيف = سليمان الفرنسى	
٣١٩، ٩	شكشير	سيف الدولة الحمدانى =	
	الشتيرنى = على بن بسام	على بن عبد الله	
	الشنفرى = عمرو بن	ابن سينا = الحسين بن عبد	
	مالك الأزدي	الله	
	الشهرستانى = محمد بن	سينوت حنا	٣٥٣
	عبد الكريم	السيوطى = عبد الرحمن	
	ابن شهيد الأندلسى =	بن أبى بكر	
	أحمد بن عبد الملك	(ش)	
١١٤	ابن أبى الشوارب	شارل بودليير	٥٤
	شوبرت = فرانز شوبرت	شارل بيللا	٤٣
٣٦٥، ٢٩٣، ٢٧٥، ٦	شوقى ضيف	شارل الخامس	٨٧
٩٧	شيللر		

(ص)

الصاحب بن عباد =
إسماعيل بن عباد
صالح مجدي = محمد بن
صالح
صالح بن وصيف ١١٤
صخر بن حرب بن أمية
(ت: ٣١ هـ) ١٠٤، ٢٥، ١٥
صريع الغواني = مسلم بن
الوليد
الصفدي = خليل بن أيبك
صفي الدين الأردبيلي ٣٢٧
صلاح الدين الأيوبي =
يوسف بن أيوب
الصنوبري = أحمد بن
محمد أبو بكر
الصولي = محمد بن
يحيى أبو بكر

(ط)

الطائع لله = عبد الكريم
بن الفضل
طارق بن زياد
(ت: ١٠٢ هـ) ١٩
طاهر بن الحسين الفارسي
(ت: ٢٠٧ هـ) ٢٠٦
طاهر أبو فاشا ٣٦١
ابن طباطبا ٢٩٠
الطبري = محمد بن جرير
الطرماح بن حكيم
(ت: ١٢٥ هـ) ٤٠، ٣٤
طغرل بك (السلجوقي) ٢٤١، ٢٤٤، ٢٤٥
٣٢٦، ٣٢٥

ابن طفيل = محمد بن عبد
الملك

طلعت حرب = محمد
طلعت حرب
طليحة بن خويلد الأسدي
(ت: ٢١ هـ) ٦٣
طه الحاجري ٣٦٥، ٤٤
طه حسين

(ت: ١٩٧٣ م) ٩٦، ١٤٠، ٣٥٤،
٣٦١، ٣٥٩

الطهطاوي = رفاعة رافع
الطيالسي = سليمان بن
داود

الطيب صالح ٣٦٣
طيفور بن عيسى أبو يزيد
البسطامي (ت: ٢٦١ هـ) ٢٩٥، ٢٩٤

(ع)

عائشة بنت أبي بكر
(ت: ٥٨ هـ) ٢٧١، ١٥٥، ١٦
عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطئ) ٢٧١، ٢٦٨
عافية بن يزيد (القاضي) ٥٧، ٤٨
عامر بن شراحيل الشعبي
(ت: ١٠٣ هـ) ١٧٩
عامر بن لؤي ٢٣
عباد بن محمد المعتضد
(ت: ٤٩١ هـ) ٢٥٩
العباس بن الأحنف
(ت: ١٩٢ هـ) ٤٩
عباس حسني أحمد ١٥٣
عباس حلمي
(ت: ١٩٤٤ م) ٣٥١
عباس بن عبد المطلب
(ت: ٣٢ هـ) ١٠٤، ٢٨، ٢٥

عبد الرحمن بن أبي بكر	عباس محمود العقاد	٣٥٩ ، ٣٥٤ ، ٩٦ ، ٤٤
السيوطي (ت: ٩١١ هـ) ، ٣٠٦ ، ٣٠٥ ، ١٦٥	(ت: ١٩٦٤ هـ)	٣٦١
٣١١ ، ٣٠٧	أبو العباس السفاح (ابن	٢٨ ، ٢٧ ، ٢٦ ، ٢٤
عبد الرحمن بن حبيسة	الحارثية عبد الله بن محمد	٥٩ ، ٥٦ ، ٤١ ، ٢٩
١٧٦ (ت: ٨٣ هـ)	(ت: ١٣٦ هـ)	١٧٠ ، ١٥٨ ، ١٥٧
عبد الرحمن بن حرملة	١٧١ ، ١٧٣ ، ١٨٦ ،	٣٢٥
عبد الرحمن (بن حسن) ، ٩ ، ٧٥ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢	أبو العباس المظوم	٢٩١
الجبرتي (ت: ١٢٣٧ هـ) ، ٣٤٤ ، ٣٤٣	عبد الأعلى المودودي	١٦٣
عبد الرحمن الرافعي	عبد الجبار بن عبد الرحمن	(ت: ١٤٢ هـ)
عبد الرحمن بن زياد بن	عبد الجبار أبو الحسين	٢٦
أنعم (ت: ١٦١ هـ) ، ١٧٨	الأسد آبادي القاضي	(ت: ٤١٥ هـ)
عبد الرحمن بن زياد بن	عبد الجليل عيسى	١٦٣
شبطون	عبد الحلیم الجندی	١٧١ ، ١٨٥ ، ٢٠٨ ،
عبد الرحمن الشرقاوي	(ت: ٢٣٠ ، ٢٢١ ، ٢١٣	٣٥٢ ، ٣٥١ ، ٢٣٤
عبد الرحمن شكري	عبد الحلیم محمود	٢٨١ ، ١٦٣
عبد الرحمن بن عبد الله	عبد الحميد العبادي	١٤٠
بن عبد الحكم	عبد الحميد (بن محمد)	بن باديس
(ت: ٢٥٧ هـ) ، ١١٠	(ت: ١٣٥٩ هـ)	١٦٣
عبد الرحمن بن علي بن	عبد الحميد بن يحيى	الكاتب (ت: ١٣٢ هـ)
الجوزي (ت: ٥٩٧ هـ) ، ٢٣٧	عبد الخالق ثروت	(ت: ١٩٢٨ هـ)
عبد الرحمن بن عمرو	عبد ربه الكبير	٢١
الأوزعي (ت: ١٥٧ هـ) ، ٢٣٨ ، ١٥٧	عبد الرحمن بن أحمد	١٦٣
عبد الرحمن بن عوف	الكواكبي (ت: ١٣٢٠ هـ)	٢٨١ ، ٢٧٨ ، ٢٤٩
(ت: ٣٢ هـ) ، ٦٥	عبد الرحمن بدوي	(ت: ١٩٤٤ م)
عبد الرحمن بن القاسم	عبد الرحمن البرقوقي	٣٥٤
العتقي (ت: ١٩١ هـ) ، ١٨٧ ، ١٧٨	(ت: ٥٩٦ هـ)	٣٣٥
عبد الرحمن بن محمد بن	عبد الرحمن البيساني	
خلدون (ت: ٨٠٨ هـ) ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،		
١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ،		
١٤١ ، ١٤٣ ، ٢٦٢ ،		
٢٨٣ ، ٣١٠ ، ٣١١ ،		
٣٣٢ ، ٣٣٧ ، ٣٤٥		
عبد الرحمن بن محمد بن		
أبي حاتم (ت: ٣٢٧ هـ) ، ٧٥ ، ٢٣١		

عبد الرحمن بن محمد بن	عبد العزيز عيسى	١٦٣
عبد الله الناصر	عبد العزيز فهمي	
(ت: ٣٥٠ هـ)	(ت: ١٩٥١ م)	٣٥٨، ٣٥٧، ٢٢٠
عبد الرحمن بن محمد	عبد العزيز بن مسلم	
المرتضى (ت: ٤٠٨ هـ)	المعتلي	٥٧
عبد الرحمن المستظهر	عبد العزيز بن موسى بن	
عبد الرحمن بن مسلم	نصير (ت: ٩٧ هـ)	١٩
الخراساني (ت: ١٣٧ هـ)	عبد العظيم الديب	٢٤٣
عبد الرحمن بن مسور	عبد الفتاح جوهر	٣٦٥
عبد الرحمن بن معاوية بن	عبد القادر القط	٣٦٥
هشام الداخلى	عبد الكريم بن الفضل	
(ت: ١٧٢ هـ)	الطائع لله (ت: ٣٩٣ هـ)	٢٩٠
عبد السلام بن سعيد	عبد الكريم بن هوازن أبو	
سحنون (ت: ٢٤٠ هـ)	القاسم القشيري	
عبد السلام بن محمد بن	(ت: ٤٦٥ هـ)	٢٩٦
عبد الواحد	عبد الله بن إياض المري	
(ت: ٣٢١ هـ)	التميمي (ت: ٨٦ هـ)	٤١
عبد السلام بن محمد بن	عبد الله بن أبي بن سلول	
عبد الوهاب أبو هاشم	(ت: ٩ هـ)	٢٠٥، ١٨٥
الجبائي (ت: ٣٢١ هـ)	عبد الله بن أم مكتوم	٨٧
عبد السلام هارون	عبد الله بن جحش	
عبد الصبور مرزوق	(ت: ٣ هـ)	٦٨
عبد العزيز الأهواني	عبد الله بن حجازي	
عبد العزيز بن باز	الشرقاوي (ت: ١٨١٢ م)	٣٤٠
عبد العزيز بن خليل	عبد الله بن الحسن	١٨١
جاويز (ت: ١٩٢٩ م)	عبد الله بن خازم	٢٢٤
عبد العزيز بن سرايا صفى	عبد الله بن الزبير	١٦٩، ٦٢، ٣٨، ٣٧
الدين الحلى	(ت: ٧٣ هـ)	١٧٥
(ت: ٧٥٠ هـ)	عبد الله الزبيري	٢٥٩
عبد العزيز بن عبيد	عبد الله بن طاهر بن	
الرحمن آل سعود	الحسين (ت: ٢٣٠ هـ)	٢٠٢، ١١٣
(ت: ١٩٥٣ م)	عبد الله بن عباس	
عبد العزيز بن عبد الله	(ت: ٦٨ هـ)	٢٧١، ٧٣
الماجشون (ت: ١٦٤ هـ)	عبد الله بن عبد الله أبو	
	السعود (ت: ١٨٧٨ م)	٣٤٦

عبد الله بن عثمان أبو بكر	١١٢ ، ٥٧ ، ٥٦ ، ٤٥
الصادق	(ت : ٢١٨ هـ) ١١٣ ، ١١٤ ، ٢٠٠ ،
	٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ،
	٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ،
	٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ،
	٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،
	٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٣٢ ،
	٢٧٩ ، ٢٨١
عبد الله بن وهب (أبو	
محمد . ت : ١٩٧ هـ)	١٨٧
عبد الله القاسم بأمر الله	
أبو جعفر بن القادر	٣٢٦
أبو عبد الله السفاح	٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧
أبو عبد الله الشيعي	٢٩١
عبد المؤمن بن علي	
(خليفة الموحدين .	
ت : ٥٥٨ هـ)	٣٢٢
عبد المجيد بن عبدون	
(ت : ٥٢٩ هـ)	١٤٤
عبد المطلب (ت : ٤٥	
ق . هـ)	١٠٤
عبد الملك بن عبد العزيز	
بن جريج (ت : ١٥٠ هـ)	١٩١
عبد الملك بن عبد الله بن	
يوسف أبو المعالي الجويني	٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ،
(ت : ٤٧٨ هـ)	٢٤٤
عبد الملك بن محمد بن	
إسماعيل أبو منصور	
الثعالبي (ت : ٤٢٩ هـ)	٣٣٧ ، ٣٣٨
عبد الملك المظفر بن	
محمد بن أبي عامر	
(ت : ٣٩٩ هـ)	٢٥٥
عبد الملك بن مروان	٢٢ ، ٢٣ ، ٣٨ ، ١٤٧
(ت : ٨٦ هـ)	١٦٩ ، ١٨٣ ، ١٨٦
عبد الله بن عثمان أبو بكر	١٣ ، ١٨ ، ٢٧ ، ٦٣ ،
الصادق	٦٤ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ،
	٧٤ ، ٨٧ ، ٩٧ ، ١٠٦ ،
	١١٥ ، ١٤٤ ، ١٦٢ ،
	١٦٦ ، ٣٦١
عبد الله بن علي المستكني	
(ت : ٣٣٨ هـ)	٢٩٠
عبد الله بن علي (عم	
المنصور : ت : ١٤٧ هـ)	٢٩
عبد الله بن عمر بن	
الخطاب (ت : ٧٣ هـ)	٧٣
عبد الله بن أبي عمر	
البكري	٢٣١
عبد الله فكري	
(ت : ١٨٨٩ م)	٣٤٥
عبد الله بن قيس الأشعري	
(ت : ٤٤ هـ)	١٦٥ ، ٢٣٥
عبد الله بن مالك	٢٢٤
عبد الله بن محمد (ابن	٣٩ ، ٤١ ، ٤٩ ، ٥١ ،
المعتز . ت : ٢٩٦ هـ)	٥٢ ، ٦١
عبد الله بن محمد أبو	٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩ ،
جعفر المنصور	٣٠ ، ٤٨ ، ٥٦ ، ١٠٤ ،
(ت : ١٥٨ هـ)	١٥٠ ، ١٥٧ ، ١٧٧ ،
	١٨١ ، ٢٣٧
عبد الله بن مروان بن	
محمد (ت : ١٧٠ هـ)	٥٧
عبد الله بن مسعود	
(ت : ٣٢ هـ)	١٢٢ ، ١٦٥ ، ١٧٩ ،
	١٩٨
عبد الله بن مسلم بن قتيبة	
(ت : ٢٧٦ هـ)	٧٣ ، ١١٢
عبد الله بن مسلمة بن	
الأنطس (ت : ٤٣٧ هـ)	١١٨ ، ١٤٤
عبد الله بن المتنع	
(ت : ١٤٢ هـ)	٢٩ ، ٣٠ ، ١٤٨ ، ١٧٧

عبد الملك بن هشام	(ت : ٢١٣ هـ)	٣٦١	العزير الفاطمي = نزار بن معد
عبد المنعم النمر	١٧٣ ، ١٦٣		ابن عساكر = علي بن الحسن
عبد الواحد لؤلؤة	٢٧٢		العسقلاني = أحمد بن علي
عبد الوهاب بن علي تاج الدين السبكي	(ت : ١٧١ هـ)	٢٢١	عضد الدولة بن بويه = فناخسرو
عبيد بن حصين الراعي	(ت : ٩٠ هـ)	٣٩	عطاء بن أبي رباح
عبيد الله بن قيس الرقيات	(ت : ٨٥ هـ)	٤٠ ، ٣٤	(عطاء بن أسلم ت : ١١٤ هـ)
عبيد الله بن محمد المهدي	(ت : ١٩٤ هـ)	٢٩١	المطاء السكندري = أحمد بن محمد
أبو عبيد الله (وزير المهدي)	٤٨		العقاد = عباس محمود
أبو العتاهية = إسماعيل بن القاسم			ابن عقيل أبو الوفا
عتبة بن أبي سفيان	(ت : ٤٤ هـ)	١٥	(ت : ٥١٣ هـ)
عثمان بن عفان	١٣ ، ١٥ ، ٣٦ ، ٦٤ ،		عكرمة بن عبد الله
(ت : ٣٥ هـ)	١٦٢ ، ١١١ ، ١٠٦ ، ٨٧		(ت : ١٠٥ هـ)
عثمان بن مظعون	١٦٥		العلاء بن وهب العاسري
(ت : ٢ هـ)			(ت : ٣٥ هـ)
أبو عثمان = عمرو بن بحر الجاحظ	٢٣٠		أبو العلاء المعري = أحمد بن عبد الله بن سليمان
عدلي باشا يكن			علال القاسي (بن عبد الواحد ت : ١٩٧٤ م)
(ت : ١٩٣٣ م)	٣٥٨ ، ٣٥٧		علي أحمد باكثير
عروة بن الزبير			٣٦٣ ، ٣٦١
(ت : ٩٣ هـ)	١٦٩		علي بن أحمد بن سعيد ٩ ، ٤٤ ، ٧٤ ، ٧٦ ،
عروة بن الورد	(ت : ٣٠ ق. هـ)	٣٢١	بن حزم (ت : ٤٥٦ هـ) ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ،
عز الدين بن عبد السلام			١٥٢ ، ١٨٠ ، ٢٥٥ ،
(ت : ٦٦٠ هـ)	٣٠٧ ، ٣٠٦ ، ٣٠٥		٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ،
عزيز عيد	٣٦٠		٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ،
			٢٦٣ ، ٢٦٢
			علي بن إسماعيل بن إسحاق أبو الحسن ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،
			الاشعري (ت : ٣٢٤ هـ) ٢٣٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ،

علي بن محمد بن الأثير ١١٦، ١١٥، ١١٤، ٥٩
(ت: ٦٣٠ هـ) ١١٧، ١١٨، ١١٩،
٢٣٥، ١٢١

علي بن محمد أبو الحسن
الماوردي (ت: ٤٥٠ هـ) ٢٦٩، ٢٦٥

علي محمود طه
(ت: ١٩٤٩ م) ٣٦٤

علي بن منصور الحلبي بن
القارح (ت: ٤٢٤ هـ) ٢٧١، ٢٧٠

علي بن موسى الرضا
(ت: ٢٠٣ هـ) ٢٠٧، ٢٠٦

علي بن يوسف بن القفطي
(ت: ٦٤٦ هـ) ٣٠٢

علي يوسف الشيخ
(ت: ١٩١٣ م) ٣٥٦

أبو علي الجبائي = محمد
ابن عبد الوهاب
عماد الدين زنكي
(ت: ٥٤١ هـ) ٣٣٠، ٣٢٩

عمار بن ياسر
(ت: ٣٧ هـ) ١٥٣

أم عمارة الأنصارية =

نسبية بنت كعب
عمران بن حطان
(ت: ٨٤ هـ) ٤٢

عمر بن بزيع
٤٨

عمر بن الخطاب
(ت: ٢٣ هـ) ٢٧، ١٨، ١٣، ١٢،
٦٨، ٦٥، ٦٤، ٦٣

٧٣، ٧٢، ٧١، ٦٩
١٠٦، ٩٧، ٨٧، ٧٤

١٤٤، ١١٧، ١١٥
١٨٧، ١٧٧، ١٦٢

٣٦١، ٢١٥، ١٩٧

عمر بن شبة أبو زيد
(ت: ٢٦٢ هـ) ١١٠

١٢٠، ١٢١،

١٢٤، ١٢٣،

٣١٦، ١٥٦

٣٧

٣٣١

٣٢

و.

الحسن (ت: ٦٨٥ هـ) ٣١٠، ٣٠٩

علي شعراوي ٣٥٧، ٢٢٠

علي بن أبي طالب
(ت: ٤٠ هـ) ٢٥، ١٧، ١٦، ١٥،
٤٩، ٤٥، ٣٦، ٢٨

١٦٢، ١٠٤، ٨٧، ٧٤

١٩٢، ١٩٠، ١٨٥

٣٦١، ٢٥٦، ١٩٨

علي بن العباس

(ت: ٢٨٣ هـ) ٣٣

علي بن عبد الرازق ١٦٣

علي بن عبد الله (سيف)

الدولة الحمداني

ت: ٣٥٦ هـ) ٢٨٤، ٢٨٣، ٢٦٦، ٣١

علي بن عبد الله بن

العباس (ت: ١١٨ هـ) ٢٥

علي عبد الواحد وافي ٢٨١

علي بن عثمان المريني

(ت: ٧٥٢ هـ) ١٣٧

علي فخرى ٣٥٢

علي مبارك

(ت: ١٨٩٣ م) ٣٤٧، ٣٤٦، ٣٤٤

٢٩	عيسى بن على	عمر بن عبد العزيز	(ت : ١٠٢ هـ)
٢٩٦ ، ٩٤ ، ٩٣	عيسى بن مريم	٢٥٤ ، ١٨٤ ، ١٧٧	
	عيسى بن موسى	عمر بن عبد الله بن أبى	
٤٨	(ت : ١٦٧ هـ)	ربيعة (ت : ٩٣ هـ)	٤٠ ، ٣٦ ، ٣٥ ، ٣٤
	(غ)	عمر بن على السعدى أبو	
	الغازى بن قيس (ت :	حفص بن الفارض	
١٧٨	(١٩٩ هـ)	(ت : ٦٣٢ هـ)	٣٣٣ ، ٣٣٢ ، ٢٨٩
	غريه غومس : اميليو	عمر بن مظفر	
	غزالة الحرورية	(ت : ٧٤٩ هـ)	٣٠٩
٤٢	(ت : ٧٧ هـ)	عمر مكرم	
	الغزالي = محمد بن	(ت : ١٢٣٧ هـ)	٣٤٣
	محمد الطوسى أبو حامد	أبو عمر الخالدي	٣١
	الغورى = قانصوه بن	عمر بن بحر الجاحظ	٤٥ ، ٤٤ ، ٤٣ ، ٩ ، ٦
	عبد الله	(ت : ٢٥٥ هـ)	٩٨ ، ٩٧ ، ٩٦ ، ٨٧
	غياث بن غوث بن	٢١٩ ، ٢٠٧ ، ١٠٠	
٣٩ ، ٣٨ ، ٣٦ ، ٣٤	الصلت أبو مالك الأخطل	٣٠٩	
٤١	(ت : ٩٠ هـ)	عمر بن سعيد بن العاص	
	(ف)	(ت : ٧٠ هـ)	٧٥
	الفارابى = محمد بن	عمر بن سهلة الأشعري	٥٧
	محمد بن أوزلغ	عمر بن العاص	
	فارس بن على الميمنى أبو	(ت : ٤٣ هـ)	٣٤١ ، ١٩٧
١٣٨ ، ١٣٧	عنان (ت : ٧٥٩ هـ)	عمر بن عبيد بن باب	
	ابن الفارض = عمر بن	(ت : ١٤٤ هـ)	٢٠٨ ، ١٦٠ ، ١٥٩
	على السعدى	عمر بن كلثوم	
	أبو فاشا = طاهر أبو فاشا	(ت : ٤٠ ق. هـ)	٦٢
	فاطمة بنت أسد	عمر بن مالك الأزدي	
١٩٠	(ت : ٥ هـ)	الشفري (ت : ٥٢٥ هـ)	٣٢١ ، ٣٢٠ ، ٣٤
٣٦٠	فاطمة رشدي	عمر بن هشام أبو جهل	
	فاطمة بنت محمد ﷺ	(ت : ٢ هـ)	١٥٣ ، ٢٣ ، ١٥
٤٩ ، ٢٨ ، ٢٥	(ت : ١١ هـ)	عمرة بنت عبد الرحمن	
١١٩	فانيان	(ت : ٩٨ هـ)	١٦٩
٢٧٧	فاوست	عيسى بن دينار أبو عبد	
٣٣٩	فؤاد أندراوس	الله (ت : ٢١٢ هـ)	١٧٨
		عيسى بن صبيح المردار	
		أبو موسى	٢٠٨ ، ٨٠

أبو الفضل (صاحب	٢٨١	فؤاد زكريا
٦١ (البحري)		الفتح بن خاقان
٢٠٦ أم الفضل (ابنة المأمون)	٦١، ٦٠	(ت : ٢٤٧ هـ)
٣٦٤ فكري أباطة		فخر الدين بن قرقاس
الفلكي = محمود الفلكي	٣٥٥	المعنى (ت : ١٦٣٥ م)
فناخسرو أبو شجاع عضد	٣٥٣	فخري عبد النور
الدولة بن بويه	٣٤٩	فراخييلو
(ت : ٣٧٢ هـ) ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٦٩ ،	٣٦٦	فرائز شوبرت
٢٧٥ ، ٢٧٤	٣١٩	فرائز ليهار
فئسان (منصور) مونتاي ١٤٥ ، ١٣٨ ، ١٣٢	٤٤	فرانيسكو جابرييلي
٤٤ فنكل . جـ		أبو فراس الحمداني =
١١٤ فويان (قائد فرنسي)		الحارث بن سعيد
٢٧٨ فورفيروس الصوري		فرج بن برقوق بن أنس
ابن فورك = محمد بن	١٣٨	(ت : ٨١٥ هـ)
الحسن	٩٣	فردريك العاقل
٣٤٩ ، ٢٦٩ ، ٩١ فولتير	٢٦٦	فردس
فيصل بن الحسين بن علي	٢٨٠ ، ٥٣	الفردوسي
٣٠٧ (ت : ١٩٣٣ م)		الفرزدق = همام بن غالب
(ق)	٨٦ ، ٨٤ ، ٨٢	فروعون
ابن القسارح = علي بن	١٣٧	فرناندو الثالث
منصور الحلبي		الفضل بن الربيع بن يونس
قاسم أمين	٢٠٥ ، ٢٠١	(ت : ٢٠٨ هـ)
(ت : ١٩٠٨ م) ٣٥٣ ، ٣٥٢		الفضل بن سهل
القاسم بن حمود	٢٠٨ ، ٢٠٧	(ت : ٢٠٢ هـ)
(ت : ٤٣١ هـ) ١٣٣		الفضل بن قدامة العجلي
القاسم بن سلام أبو عبيد	٣٩	أبو النجم الراجز
(ت : ٢٢٤ هـ) ٢١٥		(ت : ١٣٠ هـ)
قاسم بن محمد		الفضل المطيع لله ابن
(ت : ١٠٧ هـ) ١٦٩		المقتدر أبو القاسم العباسي
قانسوه (بن عبد الله)	١٢٣	(ت : ٣٦٣ هـ)
الغوري (ت : ٩٢٢ هـ) ٣٤١		الفضل بن يحيى بن خالد
القاهر بالله (العباسي) =	٢٠٢ ، ٢٠١	البرمكي (ت : ١٩٣ هـ)
محمد بن أحمد		ابن فضل الله العمري =
		أحمد بن يحيى

(ك)

٣٤٩	كاركوتوتاسو
٢٦٢	كارل بارك
	كارل بروكلمان
٦	(ت : ١٩٥٦ م)
	كافور بن عبد الله
	الإخشيدي
٢٧٥	(ت : ٣٥٧ هـ)
٣١٩	كالديرون دي لباركا
	ابن كثير = إسماعيل بن
	عمر
١٢٥	كرامرز
٣٥٩، ٣٥٢	كرومر (اللورد)
٣٣٨	كريستوفر هيرولد
١٢٥	كريم
٢٧٤، ١١٧، ٥٤، ١٨	كسرى أنوشروان
	كعب بن زهير
٣٣٤	(ت : ٢٦ هـ)
٣٦٠	أم كلثوم
٣٣٩	كليبر
٥٠	كليوباترا
	الكعب بن زيد الأسدي
٤٠، ٣٤	(ت : ١٢٦ هـ)
	الكندي = محمد بن
	يوسف (ت : ٣٥٠ هـ)
	= يعقوب بن إسحاق
	(ت : ٢٦٠ هـ)
	الكواكبي = عبد الرحمن
	بن أحمد
١١٤	كولبير
١١٤	كونديه (قائد فرنسي)

(ل)

٣١٩	لاب دي فيجا
-----	-------------

	قيصة بن ذؤيب (ت :
١٦٩	(هـ : ٨٦)
	قتادة (بن دعامة
٧٥	السدوسي، ت : ١١٨ هـ)
	قتيبة بن مسلم الباهلي
١٩	(ت : ٩٦ هـ)
	ابن قتيبة = عبد الله بن
	مسلم
٣٢٣	قزمان الفاراشي بن الفرج
	ابن قزمان = محمد بن
	قزمان
	قسا بن لوقا
٢٧٨	(ت : ٣٠٠ هـ)
١٤٠	قسطنطين
	قسطنطين بن فردس
٢٦٦	الدمستق
٢٦٦	قسطنطين ليكاينوس
	قسطنطين السابع لابس
٢٦٦	الأرجوان
	القشيري = عبد الكريم بن
	هوازن
	القصبجي = محمد
	القصبجي
	قطري بن الفجاءة
٤١، ٢٢، ٢١، ١٧	(ت : ٧٨ هـ)
	قطز سيف الدين بن عبد
٣٠٧، ٣٠٦	الله (ت : ٦٥٨ هـ)
١٥٦	القعمق بن حكيم
	ابن القسطنطي = علي بن
	يوسف
	قلاوون الألفي
٣٤٢	(ت : ٦٨٩ هـ)
	القلقشندي = أحمد بن
	علي

٢٢٧ ، ٢٢٦ ، ٩٧ ، ٩٦

٢٣٤ ، ٢٣٣ ، ٢٣١

٣٤١

مارتيردى انجلاريا

المازنى = إبراهيم بن عبد

القادر

ماسينيون = لوى

ماسينيون

٥٠

ماكث

١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٤٨ ،

١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٧ ،

١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٨ ،

١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،

١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ،

١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ،

١٨٢ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،

١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٧ ،

١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ،

٢١٩ ، ٢٣٨ ، ٢٦٢

مالك بن نبي

(ت : ١٩٧٣ م) ١٦٣

أبو مالك الأخطل =

غياث بن غوث

الماوردي = على بن محمد

أبو الحسن

٩٤ متى (حوارى المسيح)

٢٨٣ متى بن يونس أبو بشر

المتنبى = أحمد بن الحسين

الجعفى

مجاهد (بن جبر .

(ت : ١٠٤ هـ) ١٤٩

المحامسى = الحارث بن

أسد

المحسن بن على التنوخى

(ت : ٣٨٤ هـ) ٢٩٢

لطفى السيد = أحمد

لطفى السيد

٣٥٢

لطيف سليم

الليث بن سعد

(ت : ١٧٥ هـ) ١٩٧ ، ١٩٣ ، ١٨٥ ، ١٥٧

لوثر = مارتن لوثر

١١٤

لوفوا

٩٤

لوقا

١١٣

لويس الأول الكبير

١١٣

لويس الثالث عشر

١١٤ ، ١١٣

لويس الرابع عشر

٣٤٥

لوى فيليب

٢٩٦

لوى ماسينيون

٥٠

ليز (الملك)

٣٢٣

ليفى بروفستال

٢٦٢

ليفى شتراوس

ابن أبى ليلى = محمد بن

١٤٨

عبد الرحمن

٣٤٩ ، ٨٨

ليو العاشر (البابا)

٣٤٩

ليوناردو دافنشى

(م)

المأمون = عبد الله بن

هارون الرشيد

٢٥٩

المأمون بن ذى النون

الماتريدى = محمد بن

محمد (ت : ٣٣٣ هـ)

٣٢٣

ماتيو اليمان

ابن المايجشون = عبد

المزير

ابن ماجة = محمد بن يزيد

القزوينى

٩٠ ، ٨٩ ، ٨٨ ، ٨٧

مارتن لوثر

٩٥ ، ٩٣ ، ٩٢ ، ٩١

محمد بن جرير أبو جعفر	١٥ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٥٧ ،	محمد بن أحمد البيروني	١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٨ ،
الطبري (ت: ٣١٠ هـ)	٥٩ ، ٦٠ ، ٧٥ ، ١٠٧ ،	(ت: ٤٤٠ هـ)	١٢٩ ، ١٣٠ ، ٢٨٠ ،
	١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٢ ،		٣٠٩
	١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ،	محمد بن أحمد الذهبي	١٧٠ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،
	١١٨ ، ١٧٠ ، ٢٠٧ ،	(ت: ٧٤٨ هـ)	٢٦١
	٢٢٢ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ،	محمد بن أحمد بن رشد	٢٤٣ ، ٢٦٢ ، ٢٧٨ ،
٣٠٤		أبو الوليد (ت: ٥٩٥ هـ)	٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ،
محمد بن جعفر المعتز			٢٨٣ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧
(ت: ٢٥٥ هـ)	٥٩ ، ٦٠ ، ١١٤ ،	محمد بن أحمد القاهر	
محمد جلال كشك	٣٦٤ ، ٣٣٩	(ت: ٣٣٩ هـ)	٢٩٠
محمد جلال الدولة	١٢٩	محمد بن إدريس الشافعي	١٠٤ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،
محمد حافظ إبراهيم		(ت: ٢٠٤ هـ)	١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ،
(ت: ١٩٣٢ م)	٣٥٩ ، ٣٥٤		١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ،
محمد بن حبيب			١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ،
(ت: ٢٤٥ هـ)	١١٠		١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،
محمد بن الحسن الشيباني			١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ،
(ت: ١٨٩ هـ)	١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٨ ،		٢٠٣ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ،
محمد بن الحسن بن فورك			٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٦٢
(ت: ٤٠٦ هـ)	٢٣٩	محمد بن إسحاق بن	١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ،
محمد حسنين هيكل	٣٦٤	يسار	١١٦
محمد بن الحسين الشريف		محمد بن إسماعيل بن	
(ت: ٤٠٦ هـ)	٢٦٧	إبراهيم البخاري	١٥١ ، ١٦٠ ، ١٦١ ،
محمد حسين هيكل	٣٦١ ، ٣٥٤	(ت: ٢٥٦ هـ)	١٨٠ ، ٢٢٩ ، ٢٤٤ ، ٣٠٤ ،
محمد بن حوقل أبو		محمد إقبال	٢٨٩
القاسم (ت: ٣٦٧ هـ)	١٢٥	محمد الألفي	٣٤١
محمد خلاف	٣٥٢	محمد الأمين	٥٧ ، ١١٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،
محمد بن خلدون	١٣٧		٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦
محمد رضا بهلوي	٣٢٨	محمد بن إياس الحنفي	٣٤٤ ، ٣٤١
محمد بن زكريا أبو بكر		محمد بن أبي بكر بن	
الرازي (ت: ٣١١ هـ)	٢٨٠ ، ٢٦٢	القيم (ت: ٧٥١ هـ)	٣٢٩
محمد أبو زهرة	١٦٣	محمد بهلوي	٣٢٨
محمد بن سالم بن واصل		محمد التابعي	٣٦٤
(ت: ٦٩٧ هـ)	٣٣٠	محمد توفيق (الخدوي)	
		(ت: ١٣٠٩ هـ)	٣٤٧

محمد بن عبد الرحمن	محمد بن سعد أبو عبد
السخاوي (ت: ٩٠٢ هـ) ٣١١، ٣١٠، ٣٠٨	الله كاتب الواقدي ١٠٣، ١٥٥، ١٧٠
محمد بن عبد الرحمن بن	(ت: ٢٣٠ هـ) ٢٢٠، ٢١٩، ٢١٣
أبي ليلى (ت: ١٤٨ هـ) ١٨٢، ١٨١	محمد بن سعود
محمد عبد الفتى حسن	(ت: ١١٧٩ هـ) ٢٣٤
(ت: ١٩١٠ م) ٣٦٥	محمد بن سعيد أبو عبد
محمد عبد القادر حمزة ٣٥٤	الله شرف الدين
محمد بن عبد الكريم	البوصيري
الشهرستاني (ت: ٥٤٨ هـ) ٨١، ٧٦	(ت: ٦٥٦ هـ) ٣٣٤
محمد بن عبد الله بن	محمد سعيد بن محمد
الحسن (ت: ١٤٥ هـ) ١٨١	جلي (ت: ١٨٦٣ م) ٣٤٦، ٣٤٥
محمد بن عبد الله المنصور ٥٧، ٤٨، ٤٧، ٣٢	محمد بن سلام الجمحي
(ت: ١٦٩ هـ) ١٥٧، ١٥٦، ١٥٠	(ت: ٢٣٢ هـ) ٢٢١، ٤١، ٣١
محمد بن عبد الله المهدي	محمد بن سيرين
(ت: ١٦٩ هـ) ٢٠٠، ٤٧	(ت: ١١٠ هـ) ٣٠٨، ١٥٧، ١٦
محمد بن عبد الله بن	محمد الشامي المقدسي
الوليد الأزرقى أبو الوليد ١١٠	البناء شمس الدين أبو عبد ١٠٩، ١٢٠، ١٢٤
محمد بن عبد الملك أبو	الله (ت: حوالي ٣٩٠ هـ) ١٢٨، ١٢٦، ١٢٥
بكر القيسي بن طفيل	محمد بن صالح
(ت: ٥٨١ هـ) ٢٨٧، ٢٨٦، ٢٨١، ٢٧٩	(ت: ١٢٩٨ هـ) ٣٤٦
محمد عبد الهادي أبو	محمد بن صفدر (جمال
ريدة ٢٨٢، ٢٨١	الدين الألفاني . ت: ١٦٣، ٣٥٠، ٣٥١
محمد عبده ٣٤٦، ٣٠٧، ١٦٣، ٧٥	(١٨٩٧ م) ٣٥٧، ٣٥٦
(ت: ١٩٠٥ م) ٣٥٢، ٣٥١، ٣٥٠	محمد طلعت حرب
٣٥٧، ٣٥٦، ٣٥٣	(ت: ١٩٤١ م) ٣٦٠، ٣٥٣
محمد عبده عزام ٣٣	محمد بن الطيب بن
محمد بن عبد الوهاب أبو	محمد بن جعفر أبو بكر ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٧٤
على الجبائي	الباقلاني (ت: ٤٠٣ هـ) ٣٦٥
(ت: ٣٠٣ هـ) ٢٣٦	محمد الطيب النجار ١٧٣، ١٦٣
محمد بن عبد الوهاب	محمد ظافر الطرابلسي ٣٥٠
(ت: ١٢٠٦ هـ) ٢٣٤، ١٦٣	محمد بن أبي عامر
محمد عبد الوهاب ٣٦٠	المنصور ٢٥٥
محمد بن عبدوس	محمد عبد الحليم عبد الله
الجهشياري	(ت: ١٩٧٠ م) ٣٦٢
(ت: ٣٣١ هـ) ٢٠٢، ٤٨، ٣٠، ٢٨	

محمد بن محمد الطوسي ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ،	محمد علي باشا ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ،
أبو حامد الغزالي ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ،	٣٥٥ ، ٣٥٤
(ت : ٥٠٥ هـ) ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ،	محمد علي البقلي
٢٨٩ ، ٢٨٤ ، ٢٥١	(ت : ١٢٩٣ هـ) ٣٤٦
٢٩٧ ، ٢٩٦	محمد بن علي الحريري
محمد بن محمد بن عبد ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،	أبو القاسم (ت : ٥١٦ هـ) ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٣٥ ،
الله بن إدريس الشريف ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ،	محمد بن علي بن دقيق
الإدرسي ١٣٦ ، ١٤١ ، ١٤٣ ،	العبد (ت : ٧٠٢ هـ) ٣٠٧ ، ٣٠٥
٣٥٥ ، ٣٠٩ ، ٢٦٢	محمد بن علي السنوسي
محمد بن محمد بن عبد	(ت : ١٢٧٦ هـ) ١٦٣
الله اللواتي الطنجي ابن	محمد علي صبيح ٣١٦
بطوطة (ت : ٧٧٩ هـ) ٣٣٢	محمد بن علي بن عربي
محمد بن محمد بن نباتة	محي الدين أبو بكر
(ت : ٧٦٨ هـ) ٣٣٥	(ت : ٦٣٦ هـ) ٢٩٧ ، ٢٨٩
محمد محمود	محمد علي كلاي ١٤٦
(ت : ١٩٤١ م) ٣٥٨ ، ٣٥٧	محمد بن علي بن موسى
محمد بن مسلم بن عبيد	الرضا ٢٠٦
الله بن عبد الله بن شهاب	محمد عمارة ٩٨
الزهري (ت : ١٢٤ هـ) ١٨٥ ، ١٧٠	محمد بن عمر بن واقد ١٧٤ ، ١٠٥ ، ١٠٣ ، ٤٠
محمد بن مكرم بن منظور	الواقدي (ت : ٢٠٧ هـ) ١٧٥
(ت : ٧١١ هـ) ٣١٥	محمد بن عيسى الترمذي
محمد بن المنكدر	(ت : ٢٧٩ هـ) ٢٤٤ ، ٢٢٩ ، ٧٥
(ت : ١٣٠ هـ) ١٧١	محمد فريد
محمد المهدي بن القائم	(ت : ١٩١٩ م) ٣٥٢
أبو عبد الله	محمد بن قزمان أبو بكر
(ت : ٩٦٤ هـ) ٣٠١	الأندلسي (ت : ١١٦٢ هـ) ٣٦٠ ، ٣٢٤ ، ٣٢٣
محمد المهدي (شيخ	محمد القصبجي ٣٦٠
الأزهر ت : ١٧٩٨ هـ) ٣٥٠	محمد كريم
محمد بن موسى الهميري	(ت : ١٢١٣ هـ) ٣٣٩
(ت : ٨٠٨ هـ) ٣٠٩	محمد متولي الشعراوي ١٦٣
محمد نقشي ٣٢٢	محمد بن محرز الوهراني
محمد بن نوح ٢١٤ ، ٢١٣	التلمساني (ت : ٥٧٥ هـ) ٣٦٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٢
محمد بن هارون العباسي	محمد بن محمد بن أوزلغ
المهتدي (ت : ٢٥٦ هـ) ٥٩	أبو نصر الفارابي (ت : ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ،
	٣٣٩ هـ) ٣٠١ ، ٢٨٤ ، ٢٨٣

٩٤	مرقص	محمد بن هاني	(ت: ٣٦٢ هـ)
	مروان بن الحكم	٢٩١	
٢٢، ١٥	(ت: ٦٥ هـ)	محمد بن الهذيل العلاف	
	مروان بن سليمان بن أبي	٨٠، ٧٩، ٧٨، ٧٥	أبو الهذيل
٤٩	حفصة (ت: ١٨٢ هـ)	٢٠٨	(ت: ٢٣٥ هـ)
	مروان بن محمد الجعدي	محمد بن يحيى بن باجة	
٢٦، ٢٥، ٢٣	(ت: ١٣٢ هـ)	٢٨١، ٢٧٩	(ت: ٥٣٣ هـ)
	المروزي = أحمد بن	محمد بن يحيى أبو بكر	
	محمد أبو بكر	الصولي (ت: ٣٣٥ هـ)	٣٣٨، ٣٣
٩٤	مريم العذراء	محمد بن يحيى بن خالد	
	ابن مريم (مضحك)	البرمكي	٢٠٢، ٢٠١
٢٠١	الرشيدي	محمد بن يزيد القزويني	
	المستعين = أحمد بن	ابن ماجه (ت: ٢٧٣ هـ)	٣٠٥
	محمد العباسي	محمد بن يوسف الكندي	
	المستكفي = عبد الله بن	المؤرخ (ت: ٣٥٠ هـ)	١٧٦
	علي العباسي	محمود بن أحمد تيمور	
	المستنصر = معد بن علي	(ت: ١٩٧٣ م)	٣٦٢
	الفاطمي	محمود أحمد حمدي	
	مسعود بن محمود ناصر	الفلكي (ت: ١٣٠٢ هـ)	٣٤٦
	الدولة الغزنوي	محمود بن أحمد العيني	
١٢٩	(ت: ٣٤٢ هـ)	بدر الدين (ت: ٨٥٥ هـ)	٣١١
	مسعود بن مفلت أبو	محمود بيرم التونسي	٣٦٠
٢٥٧	الخيار	محمود (بن زكي) نور	
	مسلم بن الحجاج بن	الدين (ت: ٥٦٩ هـ)	٣٣٠
	مسلم النيسابوري	محمود بن سبكتكين	
٣٠٤، ٢٤٤، ١٦١	(ت: ٢٥٦ هـ)	الغزنوي (ت: ٤٢١ هـ)	١٣٠
	مسلم بن خالد بن فروة	محمود سعيد	٣٦٠
١٩١	الزنجي (ت: ١٧٩ هـ)	محمود شلتوت	
	مسلم بن الوليد صريع	(ت: ١٩٦٣ م)	١٦٣
٤٩	الفواني (ت: ٢٠٨ هـ)	محمود محمد شاكر	٢٧٥
	أبو مسلم الخراساني	محمود مختار	
	= عبد الرحمن بن مسلم	(ت: ١٩٣٤ م)	٣٦٠
	(ت: ١٣٧ هـ)	المحمودي	١٦٣
	المسيح = عيسى بن مريم	مراد بك	٣٤٢، ٣٣٨
٣٣٩	المسيري	المرار بن أنس	٢٨

معد بن إسماعيل	٣٦٤	مصطفى أمين
(ت : ٣٦٥ هـ) ٢٩١ ، ٢٣٣		مصطفى صادق الرافعي
المعري = أحمد بن عبد	٣٦٤ ، ٣٥٩ ، ٣٥٤ ، ٩٦	(ت : ١٩٣٧ م)
الله بن سليمان		مصطفى عبد الرازق
المعز لدين الله الفاطمي =	٢٨١ ، ١٦٣	(ت : ١٩٤٦ م)
معد بن إسماعيل	٣٥٣	مصطفى فاضل
المعلي (مولى المهدي) ٤٨		مصطفى كامل
معن بن زائدة	٣٥٢	(ت : ١٩٠٨ م)
(ت : ١٥١ هـ) ٤٩	٧٤	مصطفى كمال أتاتورك
المغيرة بن شعبة		مصطفى لطفي
(ت : ٥٠ هـ) ١٦ ، ١٥	٣٦٤ ، ٣٥٤	المنفلوطي (ت : ١٩٢٤ م)
مغيثو قليس ٢٧٧	٣٦٥	مصطفى محمود
المقداد بن عمرو بن	١٦٣	مصطفى المراغي
الأسود (ت : ٣٣ هـ) ١٦٥		مصعب بن عبد الله
المقريزي = أحمد بن علي	١٦٩ ، ٧٤	الزبيرى (ت : ٢٣٦ هـ)
مكرم عيد ٣٥٣	١٨٩	المطلب بن عبد مناف
مكسميليان هابنت ٣١٥	١٨ ، ١٧ ، ١٦ ، ١٥	معاوية بن أبي سفيان
ميكايفللي ٣٤٩	١٠٦ ، ٥٩ ، ٣٦ ، ٢٢	(ت : ٦٠ هـ)
المنتصر = محمد بن جعفر	٣٢٣ ، ١٨٦ ، ١٥٠	
العباسي (ت : ٢٤٨ هـ)		ابن المعتز = عبد الله بن
المنصور = عبد الله بن		محمد
محمد (ت : ١٥٨ هـ)		المعتز = محمد بن جعفر
منصور فهمي ٢٨١	١١١ ، ٥٩ ، ٥٦ ، ٥٥	المعتصم
منصور بن نزار أبو علي	٢١٥ ، ٢١٤ ، ٢٠٠	
الحاكم بأمر الله	٢٨٣ ، ٢٨٢ ، ٢٣٢	
(ت : ٤١١ هـ) ٣٢٩	٣٢٥	
ابن منظور = محمد بن		المعتضد = أحمد بن طلحة
مكرم		العباسي
منندزيلايو ٣٢٣		المعتضد بن عباد = عباد بن
منويل ١١٩		محمد
المهتدي = محمد بن		المعتد العباسي = أحمد
هارون		بن جعفر
المهدي (لقب لسليمان بن		المعتد بن المعتضد بن عباد
عبد الملك) ٣٧		= محمد بن عباد
مهدى علام ٣٦٥		

٩٥	هربرت وولف	مهيار (بن مرزويه)	
	هرثمة بن أعين	الدليمي (ت: ٤٢٨ هـ)	٢٦٧
٢٢٤ ، ٢٠٦ ، ١٥١	(ت : ٢٠٠ هـ)	المهلب بن أبي صفرة	
١١٧	هرمز	(ت : ٨٣ هـ)	٢١
	هشام بن إسماعيل	مودود (بن مسعود)	
١٤٧	(ت : بعد ٨٧ هـ)	شهاب الدولة الغزنوي	
	هشام بن عبد الملك	(ت : ٤٤١ هـ)	١٢٩
١٨٥ ، ١٧٣ ، ٣٧	(ت : ١٢٥ هـ)	موريس بيجار	١٤٥
	هشام بن عروة بن الزبير	موسى (عليه السلام)	٢٩٧ ، ١٢٤ ، ١١٦ ، ٩٤
١٠٤	(ت : ١٤٦ هـ)	موسى بن بنا	٦٠
	هشام المؤيد بن الحكم	(هـ)	
٢٥٧ ، ٢٥٥	المستصر (ت : ٤٠٣ هـ)	الهادي = موسى بن محمد	
	هشام بن محمد أبو بكر	هارون الرشيد	١١٤ ، ١١٣ ، ٨٧ ، ٥٧
٢٥٧	المعتد (ت : ٤٢٨ هـ)	(ت : ١٩٣ هـ)	١١٧ ، ١٥٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠١
	إبن هشام = عبد الملك بن هشام		٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢١٣
	أبو هلال المسكري = الحسن بن عبد الله		٢٢٣ ، ٢١٥ ، ٢٢٤
٩١	هلفيسوس	٢٢٥ ، ٢٢٤	
	هسام بن غالب بن صمصمة الفرزدق	هارون بن صوراتكين	٦٠
٣٩ ، ٣٨ ، ٣٧ ، ٣٤	(ت : ١١٠ هـ)	هارون بن محمد الوائس	٢٣١ ، ٢٠٠ ، ١١٢ ، ٥٩
٤٢ ، ٤١ ، ٤٠	الهيمذاني = أحمد بن الحسين أبو الفضل	(ت : ٢٣٢ هـ)	٣٢٥ ، ٢٣٢
	هند بنت سهيل	هاشم بن عبد مناف	
١٥٥	(ت : ٦٢ هـ) أم سلمة	(ت : نحو ١٠٢ هـ)	١٨٩
٢٧١	هنرى بيريس	أبو هاشم الجبائي = عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب	
١١٣	هنرى الرابع	هانان	٨٦ ، ٨٤ ، ٨٢
٣٥٦	هنرى لانانس اليسوعى	هامر بورجشتال	٣٢١
٣٤٩	هوبز	ابن هاني = محمد بن هاني	
٣٣٠	هولاكو	ابن هبيرة = يزيد بن عمر	
٣٥٦	هوميروس	أبو الهذيل العلاف = محمد بن الهذيل	
٢٧٧	هيلين		
٣٤٩	هيرم		

(و)

الوائق = هارون بن محمد

۳۵۳ واصف غالى

واصل بن عطاء

(ت : ۱۳۱ هـ) ۲۰۸ . ۸۷ . ۷۵

ابن واصل = محمد بن

سالم

۳۵۷ واطسن

الواقدى = محمد بن عمر

بن واقد

والبة بن الحباب

(ت : ۱۷۰ هـ) ۵۲

ابن الوردى = عسر بن

مظفر

ورقة بن نوفل

(۱۲ ق . هـ) ۱۰۵

۲۰۶ موسى الرضا

موسى بن محمد الهادى

(ت : ۱۷۰ هـ) ۲۰۱ . ۲۰۰ ، ۴۸

موسى بن نصير

(ت : ۹۷ هـ) ۱۱۱ . ۱۹

موسى بن يحيى بن خالد

البرمكى (ت : ۲۲۱ هـ) ۲۰۲ . ۲۰۱

أبو موسى الأشعري =

عبد الله بن قيس

أبو موسى المردار = عيسى

بن صبيح

۳۴۰ مونج

۳۴۹ . ۳۴۵ . ۹۱ مونسكيو

۲۶۳ . ۲۶۲ . ۱۲۸ ميجيل أسين بلاتيرس

۲۹۷ . ۲۷۲ . ۲۷۱

۹۷ ميجيل ترفانس

۳۶۴ . ۳۵۶ ميخائيل نعيمة

۱۴۵ ميشيل شود كلينيتش

ميكل أنجلو

۳۴۹ ، ۱۲۹

۹۳ ميلانكتون

(ن)

، ۳۴۰ ، ۳۳۹ ، ۳۳۸ نابليون بوناپرت

۳۵۴ ، ۳۴۱

۳۵۶ ، ۳۵۳ ، ۳۵۱ نازلى فاضل

ناصر الدولة = مسعود بن

محمود

ناصرى البازجى

(ت : ۱۸۷۱ م) ۳۵۵

نافع بن عبد الرحمن بن

أبى نعيم (ت : ۱۶۹ هـ) ۱۷۱

نافع (المدنى أبو عبد الله

(ت : ۱۱۷ هـ) ۱۷۰

۱۲۵ نالليو

ابن نباسة = محمد بن

محمد (ت : ۷۶۸ هـ)

أبو النجم الراجز =

الفضل بن قدامة

نجيب بن إلياس الريحانى

(ت : ۱۹۱۱ م) ۳۶۰

۳۶۲ ، ۲۸۱ ، ۹۶ نجيب محفوظ

النخعى = إبراهيم بن يزيد

۲۸۳ ابن النديم

۳۶۴ نزار قباني

نزار بن معد العزير

(ت : ۳۸۶ هـ) ۲۳۳

النسائى = أحمد بن

شعب

نسبنة بنت كعب

الأنصارية (ت : ۱۳ هـ) ۱۵۵

۶۱ نسيم (غلام البحرى)

النظام = إبراهيم النظام

نظام الملك = الحسن بن

على

الوهراني = محمد بن	١٧٨ ، ١٧٣ ، ١٧١	النعمان بن ثابت أبو خنيفة
محرز	١٨١ ، ١٨٠ ، ١٧٩	(ت : ١٥٠ هـ)
وولفجانج جينه	١٨٧ ، ١٨٦ ، ١٨٢	
٩٧ ، ٩٦ ، ٥١ ، ٥٠ ، ١٠	١٩٣ ، ١٩٠ ، ١٨٨	
٣٦١ ، ٢٧٠	٢١٩ ، ٢٠٣ ، ١٩٩	
	٢٦٢ ، ٢٤٢ ، ٢٣٨	
(ي)		
البازجي = إبراهيم بن	٣٦٣	نعمان عاشور
ناصيف		أبو نعيم الأصفهاني =
= ناصيف البازجي		أحمد بن عبد الله
٢٥٠	٢٦٦	نقفور فوكاس
ياغيسان		أبو نواس = الحسن بن
ياقوت الحموي بن		هانئ
عبد الله		النووي = يحيى بن شرف
يحيى بن أكنم		(ت : ٦٧٦ هـ)
٢١٠ ، ٢٠٨		التويري = أحمد بن عبد
(ت : ٢٤٢ هـ)		الوهاب
يحيى بن حسان التنيسي		نيكل
١١٧	٣٢٣	وشمكير بن زيار الديلمي
(ت : ٢٠٨ هـ)	٢٦٥	وصيف
يحيى حقي	١١٢	وليام شكسبير
٢٢٩	٥٠	الوليد بن عبد الملك بن
يحيى بن خالد البرمكي		مروان (ت : ٩٦ هـ)
(ت : ١٩٠ هـ)	١٨٣ ، ١٤٧	الوليد بن عبيد بن يحيى
يحيى بن سعيد القطان		أبو عبادة البحتري
(ت : ١٩٨ هـ)	٦١ ، ٥٩	(ت : ٢٨٤ هـ)
١٠٤		الوليد بن المغيرة
يحيى بن شرف النووي	٨٧	(ت : ١ هـ)
٣٠٥ ، ٣٠٤ ، ١٧٠		الوليد بن يزيد أبو العباس
(ت : ٦٧٦ هـ)	٣٨ ، ٣٧	(ت : ١٢٦ هـ)
٣٠٨ ، ٣٠٧ ، ٣٠٦		أبو الوليد بن اليسارية
٢١٣ ، ٢٠١ ، ١٠٤	٢٦٠	الميورقي
(ت : ٢٣٣ هـ)		ولي الدين يكن
٢٢٠ ، ٢١٩ ، ٢١٥	٣٥٤	(ت : ١٩٢١ م)
٢٣٢		الونشريسي = أحمد بن
١٨٧ ، ١٧٨		يحيى
يحيى بن يحيى الليثي		
(ت : ٢٣٤ هـ)		
يحيى بن يحيى		
النيسابوري		
(ت : ٢٢٦ هـ)		
١٦١		
يزيد بن صخر (أبي		
سفيان ت : ١٨ هـ)		
٢٥٦		

يوسف بن إبراهيم بن	يزيد بن عبد الملك
الدابة (ت: ٢٦٥ هـ) ٥١	(ت: ١٠٥ هـ) ١٨٤
يوسف إدريس ٣٦٣، ٣٦٢	يزيد بن عمر بن هيرة
يوسف بن أيوب	(ت: ١٣٢ هـ) ٢٧
(صلاح الدين الأيوبي .	يزيد بن مزيد الشيباني
ت: ٥٨٩ هـ) ٣٣٥، ٣٣١، ٣٣٠	(ت: ١٨٥ هـ) ٢٢٤
يوسف بن تاشفين	يزيد بن معاوية بن أبي
(ت: ٥٠٠ هـ) ١٤٤، ١١٩	سفيان (ت: ٦٤ هـ) ١٥٠
يوسف بن تغري بردى	يزيد بن هارون
أبو المحاسن	(ت: ٢٠٦ هـ) ٢١٣، ٢٠٣
(ت: ٨٧٤ هـ) ٣١٠	يعقوب بن إبراهيم أبو
يوسف خليفي ٣٢١	يوسف (ت: ١٨٢ هـ) ٢٠٥
يوسف السباعي ٣٦٣	يعقوب بن إسحاق أبو
يوسف سمعان السمعاني	يوسف الكندي
(ت: ١٧٦٨ م) ٣٥٥	(ت: ٢٦٠ هـ) ٢٨٣، ٢٨٢، ٢٨٠
يوسف بن عبد الأعلى	يعقوب بن داود أبو عبد
المصري (ت: ٢٦٤ هـ) ١٨٩	الله الكاتب (ت: ١٨٧ هـ) ٣٢
يوسف بن عبد المؤمن بن	يعقوب بن عبد الحق
علي المنصور أبو يعقوب	الريني أبو يوسف المنصور
(ت: ٥٨٠ هـ) ٢٨٧، ٢٤٣	(ت: ٦٨٥ هـ) ٢٨٧
يوسف وهبي ٣٦٠	اليعقوبي = أحمد بن
أبو يوسف ١٩١، ١٨٢	واضح
يوسف بن يحيى البويطي	أبو يعلى الموصلي = أحمد
(ت: ٢٣١ هـ) ٢٢٣، ٢٢١، ١٨٩	بن علي
بوليوس الثاني ٣٤٩	يغلون ٦٠
بوليوس قيصر ٥٠	يوحنا تسببصكيس
يوهان إيك ٩٣	الشميثق ٢٦٦
يوهيموند ٣٢٩	يوحنا بن ماسويه
	(ت: ٢٤٣ هـ) ٢٧٨
	يوحنا ٩٤

فهرس البلدان والبحار والأنهار والجبال

٣٣٩، ٣٣٨	امبابة		(١)
٣٣١، ٢٢٧	أمريكا		
١١٤	أمريكا الشمالية	٣٤٢، ٣٢٧، ٢٨٣	آسيا
٢٩٨	أم عبيدة (قرية)	٢٩٧، ٢٢٣، ١٣٣	آسيا الصغرى
١٨١	أنبار	٣٠٢	
١١١، ١١٠، ١٠٨، ١٩	أندلس	١٤٤	آنة (وادي بالاندلس)
١٢١، ١١٩، ١١٨		٣٢٧	اتحاد سوفيتى
١٣٧، ١٣٢، ١٢٥		١٦٥، ١٠٦، ١٤	أحد (جبل)
١٤٤، ١٤٠، ١٣٨		٢٨٥	أخشنة
٢٥٣، ١٥٦، ١٤٥		٢٩٣	أخميم
٢٥٦، ٢٥٥، ٢٥٤		٢١٣	أذنة
٢٥٩، ٢٥٨، ٢٥٧		٣٤١	أزبكية
٣٠١، ٢٩٨، ٢٨٧		٣٣٣، ٢٥٥، ١٤٠	إسبانيا
٣٢٣، ٣١٩، ٣٠٢		٣٥٥	
٣٣١		٣٠٣	اسبيجاب
٣٣١	اندونيسيا	١٣٨	استانبول
٣٢٩، ٢٦٦، ٢٥٠	انطاكية	٣٥٣	أستانة
٢٢٦	أوجزبورج	٢٢٧	استراليا
٢٢٦، ١٩١، ١١٤	أوربا	٣٣٨، ١٣٥، ١٣٣	اسكندرية
٢٨٥، ٢٧٠، ٢٢٧		٣٦٠، ٣٣٩	
٣٤٧، ٣٣١، ٣١٤		١٣٥	أسيوط
٣٥٧		٢٥٩، ٢٥٨، ١٣٧	أشبيلية
٢٦٥، ١٢٩، ١١٩	إيران	٢٦٠	
٢٨٥، ٢٨٠، ٢٧٩		٢٥٩	أشبونة
٣٢٢، ٣١٦، ٣٠١		٢٩٥	اصطخى
٣٢٨، ٣٢٧، ٣٢٦		٢٦٥، ٢١	أصفهان
٣٣٠		٢٥٥، ١٣٥	أطلسى (محيط)
٩٣	ايزنباخ	٣٤٢، ٣٣١، ١١٩	افريقيا (قارة)
٨٧	ايسليني	٢٧٩، ١٢٩، ١٢٨	أفغانستان
	(ب)	٢٨٠	
٣٥٣	باب الخلق	١١٩، ١١٨	أفريطش
٣٦٠	باب الشعرية	٩٥، ٨٧	ألمانيا
		٢٥٧	المرية

٣٠٧	بليس	٣١٣ ، ٢٨٧ ، ١٤٥	باريس
١٣٢	بلرم	٣٤٤ ، ٣٢٨ ، ٣١٦	
٢٥٧	بلنسية	٣٥٣ ، ٣٥١ ، ٣٤٥	
٢٦٠	بليار (جزر إسبانية)	٣٥٦	
٣٣٤	بنى سويف	١٢٩	باكستان
٣٣٤	بوصير قوريدس	٢٣٣	بحرين
٣٣٩ ، ٣١٦ ، ٣١٥	بولاق	٣٣٠ ، ٣٠٢ ، ٢٨٥	بخارى
٣٥٤ ، ٣٤٤		١٦٥ ، ١٠٦ ، ١٠٤ ، ١٤	بدر
٣٢٩ ، ٢٥٠	بيت المقدس	٨٨	براندنبورج
٣٥١	بيروت	٢٦٠ ، ٢٥٥	برتغال
٢٩٥	بيضاء	٣٤٦	برنبال الجديدة
(ت)		١١٣	برغنديا (مملكة)
		٣١٥	برينرلاد
٣٢٧	تبريز	٢٩٤	بسطام
٣٢٧	تركمانيستان	١٣٨	بسكرة
٣٥٣ ، ٣٤٧ ، ٢١٣	تركيا	٢٨٦	بشارت (جبال)
٢٦٥	تنيس	٤٤٠ ، ٤٣٠ ، ٤٢٠ ، ١٦	بصرة
٢٤٥ ، ١٣٧ ، ١٣٦	تونس	٢٠٨ ، ١٨١ ، ١٥٩ ، ٥١	
٣١٠ ، ٣٠٩ ، ٢٩١		٣١٨ ، ٢٩٨ ، ٢٣٦	
٣٥٣ ، ٣٢٦ ، ٣١٥		٣٢٢	
(ث)		١٤٤	بطلبوس
		٨١ ، ٨٠ ، ٥٨ ، ٥٧	بغداد
	ثورينجيا (مقاطعة)	١١٣ ، ١١٠ ، ١٠٣	
٨٧	بألمانيا	١٢٣ ، ١٢٢ ، ١١٩	
(جـ)		١٩١ ، ١٨١ ، ١٦٠	
		٢٠٣ ، ٢٠٢ ، ١٩٣	
	جاليا (الاسم القديم)	٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٦	
١١٣	لفرنسا	٢١٤ ، ٢١٣ ، ٢١٠	
٣٤٤	جرجا	٢٢٧ ، ٢٢١ ، ٢١٧	
٣٢٦ ، ١٣٨	الجزائر	٢٣٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٢	
٣٥٢	جماميز (درب)	٢٤٧ ، ٢٤٤ ، ٢٤١	
٢٨٦	جواديتس	٢٨٢ ، ٢٧٠ ، ٢٦٥	
٣٠١ ، ٢٨٣	جيحون (نهر)	٣٢٥ ، ٣١٦ ، ٢٨٣	
		٣٣٥ ، ٣٣٠ ، ٣٢٦	

(حـ)		(ر)	
حجاز	١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٦٠	رشيد	١٣٣
	١٦٨ ، ١٨٠ ، ١٩٧	رقة	٢١٤ ، ٢١٣
	٢٣٢ ، ٢٦٥ ، ٢٩٨	رها (إمارة)	٣٣٠
	٣٣٣ ، ٣٢٦	روما	٣٥٦ ، ٢٨٥
حديبة	١٢ ، ١٧٥	رون (نهر)	١١٣
حرية (حي بيفداد)	٥٨	رى (طهران)	٢٦٥ ، ٢٤٤ ، ٢١
حلب	٢١٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٠		
	٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٨٣	(ز)	
	٣٠٢	الزباب الأعلى	٤٨
حلة	٣٣٥	الزاوية	٢٥٥
حمام أعين	٢٨	زبطرة	٢٦٦
حيرة	٢٧٨	أبو زعبل	٣٤٦ ، ٣٤٤
		الزهرء	٢٥٤
(خـ)		(س)	
خراسان	١١١ ، ١١٣ ، ١٦٠	سالرنو (جامعة)	٢٨٧
	٢٠٢ ، ٢١٠ ، ٢٣٣	ساوة	٣٠٣
	٢٩٤ ، ٣٠١ ، ٣٠٣	سبنة	١٣٢
خرطوم	٣٤٥	سردويا (نهر)	١٢٨
خزر (بحر)	١٢٨	سرمن رأى	٢٢٦
خوارزم	١٢٨	سكسونيا	٨٧
		سلمية	٢٩٠
(د)		سمرقند	٣٣٠ ، ٣٠٢
دبيق	١٦٥	سنبلوين	٣٦٠
دجلة (نهر)	١٥٧	سند (نهر)	١٣٠
دقهلية	٣٤٦	سودان	٣٤٥ ، ٣٣١ ، ١١٩
دكرنس	٣٤٦	سيحون (نهر)	٣٠٣ ، ١٢٨
دلاص	٣٣٤		
دمشق	١٥ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٥	(ش)	
	١٣٨ ، ٢١٣ ، ٢٤٥	شالة (شلا)	١٣٧
	٢٥٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤	الشام	١٢٣ ، ١١٥ ، ٥٥ ، ٢١
	٣٠٧ ، ٣٠٦		١٦٠ ، ١٣٩ ، ١٣٦
			١٦١ ، ١٦٧ ، ٢٣٢

٣٤٤	طهطا	٢٦٥ ، ٢٥٠ ، ٢٤٥	
٢٥١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٣	طوس	٢٩٠ ، ٢٧٣ ، ٢٦٦	
		٣٠٥ ، ٣٠١ ، ٢٩٨	
	(ع)	٣٢٦ ، ٣١٠ ، ٣٠٧	
٣٣٨	عجمي (شاطئ بمصر)	٣٢٩ ، ٣٢٨ ، ٣٢٧	
١٢٧	عدن	٣٣٨ ، ٣٣١ ، ٣٣٠	
١١١ ، ٣٥ ، ١٦ ، ١٥	عراق	٣٥٦ ، ٣٥٥	
١٦٧ ، ١٦٠ ، ١١٥		٣٤٣ ، ٣٣٣	شبرا
١٧٢ ، ١٧١ ، ١٦٨		٣٣٨	شرقية (محافظة بمصر)
١٩١ ، ١٨١ ، ١٧٩		٢٦٥	شطا
٢٤٥ ، ٢١٤ ، ٢٠٧		٢٠٢	شمامية (حي)
٢٩٨ ، ٢٨٣ ، ٢٦٥		٣٣١	شنقيط (مالي)
٣٢٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٣		٢٣٨	شيراز
٣٣٠ ، ٣٢٨ ، ٣٢٧			
٣٣٥			(ص)
٢٦٦	عرة	٣٣٨	صالحية
٢٥٤	عروس (جبل)	٣٦	صفين
٣٤٦	أبو العز (قرية بمصر)	١٣٣ ، ١٣٢ ، ١١٩	صقلية
٣٤٣	عسفونيا	١٤٤ ، ١٣٦ ، ١٣٤	
١٩٠ ، ١٢٧	عسقلان	١٢٥ ، ١١٦ ، ١٠٨	صين
٨٥	عقبة	٣٠٤ ، ٢٩٢ ، ١٣٥	
٤١	عمان	٣١٦ ، ٣١٥	
٣٠٧	عين جالوت		(ط)
	(غ)	٣٠٣	طالقان
٣٠١	غربستان	٢٢ ، ٢١	طبرستان
٢٨٦ ، ٢٥٩ ، ١٣٨	غرناطة	١٢٧ ، ٩٤	طبرية (بحيرة)
٣٠١		٣٠١ ، ١١٨	طخارستان
٢٨٠ ، ١٢٨	غزنة	٣٣٠	طرابلس
١٩٠	غزة	٢١٣	طرسوس
	(ف)	٢٥٩	طليطلة
٣٠١ ، ٢٨٣	فاراب	٣٢٨	طنب الصغرى (جزيرة)
٢٦٥	فارس	٣٢٨	طنب الكبرى (جزيرة)
		٢٤٤ ، ٢١	طهران

٣٠٥	قوص	١٣٧، ١٣٣	فاس
٢٢٣	قونية	٢٦٦، ٢١٣	فرات (نهر)
٢٩١	قيروان	٣٥٧	فرساي
(ك)		١٤٥، ١١٤، ١١٣، ٥٤	فرنسا
٥٨	كرخ	٣٢٨، ٣١٤، ١٤٦	
٤٨	كسكر	٣٤٦، ٣٤٤، ٣٤٣	
١٣٥	كتارياس (جزر)	٣٥٦، ٣٥٤، ٣٤٩	
١١٤	كندا	١٣٣، ١٢٣، ١٢٢، ٥٥	فسطاط
٣٦٠	كوم الزهايرة	١٩٣، ١٧٧	
٢٨، ٢٧، ١٦، ١٥	كوفة	٢٢	أبو فطرس (نهر)
٢١٨، ١٨١، ١٥٧، ٢٩		٣٣٥	فلسطين
٢٨٢		٣٣٤	الفيوم
٣٠٣، ٢١	كيرمان	(ق)	
٢٨٩، ٢٨٧	كيمبريدج (جامعة)	١٦٢	قادية
(ل)		٢٨٣	قازاق
٣٤٣	لافانديه	١٣٨، ١٣٦، ١٣٣، ٧٥	القاهرة
٢٥٨، ٢٥٦، ٢٥٥	لبلة	٣٠٣، ١٩٠، ١٣٩	
٢٦٠		٣٣٢، ٣١٦، ٣١٠	
٣٥٥، ٣٢٨، ١٢٧	لبنان	٣٣٩، ٣٣٨، ٣٣٣	
٣٥٦		٣٦٠، ٣٤٢، ٣٤٠	
٣٢٦	لييا	٨٥	قبا
(م)		١١٩	قبرص
٩٥	ماربورج (جامعة)	١٢٤، ٩٤	القدس
٣٣١	مالي (شنقيط)	٢٥٥، ٢٥٤، ١٤٤	قرطبة
٣٣١	ماليزيا	٢٥٧، ٢٥٦	
٢٤٤	مانزيكارت (ملاذكرد)	٢٤٤، ١٢٨، ٢١	قزوين (بحر)
٨٨	مانيس	١٤٤	قشتالة
٢٥٩	مجرى	٢٧	قصر مقاتل
١٤٧، ١٠٤، ١٥، ١٣	المدينة	٥٨	قطرل
١٧٠، ١٦٩، ١٦٨		١٩٧	قلتشندة
١٨٠، ١٧٧، ١٧١		١٩٧	قليوبية
٢٤١، ١٩١		٢١٣	قنسرين
		٢٥٩	قورية

١١٠ ، ١٠٤ ، ١٦ ، ١٥	مكة	١٣٠	مراغة
، ١٧٤ ، ١٦٩ ، ١٣٠		١١١ ، ٦٢	مرج راهط
، ١٩١ ، ١٩٠ ، ١٧٥		٣٦٠	مرسيليا
، ٢٤٥ ، ٢٤١ ، ٢٣٣		٢٩٧	مرسية
٢٩٨		٢٦٦	مرز عش
٣٣١	ملابو	٣٠٣ ، ٣٠٢	مرو
٢٦٦	ملقية	، ١١٩ ، ١١٠ ، ٨٢ ، ٥٥	مصر
٦١	منبج (شرقي حلب)	، ١٣٢ ، ١٢٧ ، ١٢٢	
٢٦٠ ، ٢٥٦	متليشم	، ١٣٩ ، ١٣٨ ، ١٣٣	
٢٥٦	منية المغيرة (حي بقرطبة)	، ١٦٧ ، ١٦٣ ، ١٦٠	
٣٢٨	أم موسى (جزيرة)	، ١٩٣ ، ١٧٧ ، ١٧٦	
٢٦٦ ، ١١٥	موصل	، ١٩٨ ، ١٩٧ ، ١٩٤	
٢٦٠	ميورقة	، ٢٣٣ ، ٢٢١ ، ٢٢٠	
	(ن)	، ٢٦٦ ، ٢٦٥ ، ٢٤٥	
		، ٢٩١ ، ٢٨٣ ، ٢٧٥	
٣٠٧	نجد	، ٣٠١ ، ٢٩٧ ، ٢٩٣	
٣٢٧	نشالدير اق	، ٣٠٧ ، ٣٠٥ ، ٣٠٢	
٢٩٥	نهاوند	، ٣٢٦ ، ٣١١ ، ٣١٠	
٣٤٣	نورمانديا	، ٣٣٢ ، ٣٣١ ، ٣٣٠	
٢٤٣ ، ٢٤١	نيسابور	، ٣٤١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٣	
	(هـ)	، ٣٤٤ ، ٣٤٣ ، ٣٤٢	
		، ٣٤٧ ، ٣٤٦ ، ٣٤٥	
١٨١	الهاشمية	، ٣٥٣ ، ٣٥٢ ، ٣٥١	
٢٨٣	هران	، ٣٥٧ ، ٣٥٥ ، ٣٥٤	
٢٢٣	هرقله	٣٦٠ ، ٣٥٨	
٣٥٣	هليوبوليس	٢٧٣ ، ٢٧٠	معرة النعمان
٢٨٥ ، ٢٦٥	همدان	١١١ ، ١١٠ ، ١٠٨ ، ٤١	المغرب
، ١٣٠ ، ١٢٩ ، ١٠٨	الهند	، ١٢٥ ، ١٢٤ ، ١١٩	
، ٢٩٢ ، ٢٨٦ ، ٢٨٠		، ١٣٤ ، ١٣٣ ، ١٣٢	
، ٣١٦ ، ٣١٥ ، ٣٠٢		، ١٤٠ ، ١٣٨ ، ١٣٧	
٣٤٢ ، ٣٢٨		، ٢٥٥ ، ١٧٩ ، ١٦٧	
	(و)	، ٣٠١ ، ٢٩٨ ، ٢٩١	
		٣٣١ ، ٣٢٢ ، ٣٠٨	
٢٨٦	وادي آشي	٣٣٣ ، ٣٣٢ ، ١٩٩	مقطم (جبل)

٣٥٦	الولايات المتحدة	٩٣	وارتبورج (قلعة)
	(ي)	٢٩٨ ، ٢٧	واسط
١٣٥	يابان	٣٥٦	واشنطن
١٩٧ ، ١٣٦ ، ٣٧	يمن	٢٢٦ ، ٩٠	وتنبرج
		٩٣	ورمز

فهرس القبائل والفرق والطوائف والجماعات والشعوب

٢٧٥	الإخشيديّة (دولة)	(١)	الآشوريون
١٣٢	الأدارة (دولة)		آل حجاج
٣٥٦	أدباء المهجر	١٢٢	آل خلدون
٣٤٤ ، ٣٢٩	الأرمن	١٣٧	آل الزبير
٤١ ، ٢١ ، ١٧	الأزارقة	١٣٧	آل ساسان
٦٤	الأزد	٣٧	آل شاكر
٩٢ ، ٩٠	الأساقفة	٣١٥	آل عباد
٣٢٣ ، ١١٩	الأسبان	٢٨٣	آل العباس
٦٤ ، ٦٣	أسد	١٤٥	آل على
٣٢٩ ، ٣٢٨ ، ٢٤٥	الاسماعيلية	٢٧	آل محمد
٣٠١ ، ١٣٢	الأشراف الحسينيون	٤٥ ، ٢٧	آل مخزوم
١٣٤	الأشراف العلويون	١٥٨ ، ٢٧	آل مرين
٣٤٩	الإغريق	٣٥	آل مسلمة
٣٥٣ ، ٣٥٢ ، ٣٣١	الأقباط (وانظر القبط)	١٣٧	آل المهلب
٣٥٨		١٤٥	الإباضية
٣٢٩ ، ٣٢٨	الأكراد	٣٧	الأتراك (وانظر الترك)
٣٤٣ ، ٣٣٩	الألبان	٤١	
٣٢١ ، ٣١٥ ، ٩٧	الألمان	١٨٨ ، ٢٣٢ ، ٢٤٤ ،	
٣٥٦ ، ١١	الأمريكيون	٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٣٠١ ،	
٢٥٥ ، ١١١	الأموية (دولة)	٣٠٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ،	
٢٥٤	الأموية الأندلسية (دولة)	٣٣١ ، ٣٣٩ ، ٣٤٢ ،	
٦٣ ، ٦٢ ، ٤٩ ، ٢٥	الأمويون	٣٤٣ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥	
١٣٢ ، ١١١ ، ١٠٨		١٤٠	الأثروسيكين
٢٥٧		٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩	الائثى عشرية
		١٧٩	الأحناف

١٧ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ،	بنو أمية	٣٤٢ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ،	الإنجليز
٣٢ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ،		٣٦٠ ، ٣٥٨	
٣٩ ، ٤١ ، ٥٧ ، ١٠٤ ،		١٧٨	الأندلسيون
١٠٨ ، ١١١ ، ١١٨ ،		١٨	الأنصار
١٢١ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،		٢٧٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤١ ، ٧٤	أهل السنة والجماعة
١٧٨ ، ١٨٦ ، ٢١٨ ،		٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ،	
٢٥٦ ، ٢٥٧ ،		٢٩١ ، ٢٩٦ ، ٣٠١ ،	
١٧٥	بنو بكر بن عبد مناة	٣٢٧ ، ٣٢٩	
٣٨	بنو نعيم	١٣١ ، ٣١٥ ، ٣٢٣ ،	الأوربيون
١٦٨	بنو نعيم بن مرة	٣٣٠ ، ٣٣٨ ، ٣٤٢ ،	
١٤٥	بنو ذى النون	٣٠١	الأوزبك
١٠٤	بنو الزبير	٣١٢	إياد
٩٧	بنو ساعدة	١١٧ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ،	الإيرانيون
١٤٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ،	بنو سليم بن منصور	١١٩	الإيرانية (دولة)
٢٤٥		١٣١	الإيطاليون
١٩٩	بنو شيبان	٣٢٦ ، ٣٢٧ ،	الإيلخانات (دولة)
٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ،	بنو العباس	٣٠٦ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ،	الأيوبيون
٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٤١ ،			(ب)
٤٥ ، ٤٧ ، ٥٧ ، ٥٩ ،			
١٠٤ ، ١١١ ، ١١٢ ،		١٢٢	البابليون
١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٧٨ ،		١٥٣	الباتريسي
١٨٦ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ،		٢٤٨ ، ٢٤٩ ،	الباطنية
٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٨ ،		٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ،	البرامكة
٢١٩ ، ٢٢٧ ،		٢٠٥	
١٤٥	بنو عباد	١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٦٧ ،	البربر
٣٨	بنو عبد شمس	٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ،	
١٠٤	بنو عبد المطلب	٣٢١	البروسيون الألمان
١٨٩	بنو عبد مناف	١٧٩	البصريون
١٥٦ ، ١٧٥ ،	بنو عبد مناة بن كنانة	٢٩٨	البطائحية (طريقة صوفية)
١٠٤	بنو علي	٣٩ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ١٩٩ ،	بكر بن وائل
٥٣	بنو محارب	٥٢	بنو أسد
٣٧	بنو مروان	١٠ ، ١١٧ ،	بنو إسرائيل
١٣٧	بنو مرين	١١٧	بنو إسماعيل
١٨٩	بنو المطلب	١٤٥	بنو الأقطس
١٩٩	بنو معد بن عدنان		

		١٨٩، ١٠٣، ٢٧، ٢٥	بنو هاشم
	(ح)		بنو هلال بن عامر بن
١٨٠	الحجازيون	٢٤٥، ٢٣٣، ٢٣٢	صعصعة
٤١	الحرورية	٣٥	بهراء (قبيلة)
٢٣٥، ٢٣٤، ٢٢٧	الحشوية	٢٣٣	بوذيون
١٣٧	الحضرميون	٢٤٤، ٢٤١، ١٢١	البويهيون
٣٠٩، ١٣٧	الخنصيون	٢٨٠، ٢٧٥، ٢٦٥	
٢٨٣	الحمدانيون	٣٢٥	
١٣٢	الحموديون	٢٤٤	البيزنطيون
١٦٨	الخميريون	٣٠٢	البيزنطية (دولة)
٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٧	حنابلة		(ت)
٢٣٨			
١٧٩	الحنفية	٣٠٦، ٣٠٥، ١٤٥	التار (وانظر المغول)
		٣٣٠، ٣٠٧	
	(خ)		الترك (وانظر الأتراك)
١٧٥، ١٧٤	خزاعة	٦١، ٦٠، ٥٩، ٤٥	
٧٣	الخزاعيون	٣٢٨، ١١٨، ١١٤	
٢٨، ٢١، ١٨، ١٧	الخوارج	٣٤٤، ٣٢٩	التركمانيون
١٧٢، ١٧١، ٤١		٣٢٩، ٣٢٨، ٣٢٧	التعليمية
		٢٤٩	التغليبيون
	(د)	٣٥	تميم
٣٨	دارم	٦٤، ٥٢	
٣٢٩	دروز		(ث)
٢٤٤	الديلم	٧٩	الثنوية
	(ذ)		(ج)
١٦٨	ذو أصبح (قبيلة)	٦٢، ٣٩، ٢١	الجاهليون
		١٤٥	جديس
	(ر)	١٤٠	الجرمان
	الراهبات الحافيات	٣٥٥	الجزويت
٣٣٣	(جماعة)	٣٢٧	الجعفرية
٢٣٢	ربيعة	١٤٠	الجلالقة
٢٩٨	الرفاعية	٣٥٧	جمعية الاقتصاد والتشريع
٣٥١	الرواد (جماعة)	٣٥٦، ٣٥٢	الجمعية الخيرية الإسلامية
		٦٨	جهينة (قبيلة)

٥٨	الشاطر (جماعة)	٢١٣، ١١٩، ١١٨، ٣٥	الروم
٣٢٠	الشعراء الصعاليك	٢٤٤	
٥٤	الشعراء الملاعين	١١٨، ١٢٢، ١٤٠،	الروم البيزنطيون
٢٤٥، ١٧٢، ١٧١، ٧٤	الشيعة	٢٩٨	
٢٨١، ٢٧٨، ٢٤٩		١١٦، ١٠٥، ٧٣، ٦٥	الرومان
٣٢٨، ٣٢٧		١١٨، ١٢٢، ١٣٧،	
	(ص)	١٤٠، ١٥٣، ١٦٤،	
		٣٤٩	
٣٢٣، ٣٢١، ٣٢٠	الصعاليك	١٠٢، ٩٤، ٨٩، ٦٦	الرومانية (دولة)
٤١	الصفوية		
٣٢٧، ٣٢٦	الصفوية (دولة)		(ز)
٣٢٧، ٣٢٦	الصفويون	٦٢	الزبيريون
٢٤٦، ٢٤٥، ١٤٤	الصلبيون	٧٩	الزنادقة
٣٢٩، ٣٠٥، ٢٥٠		٣٣٩	الزنج
٣٣٩، ٣٣٢، ٣٣٠		٣٢٩	زيدية
٢٩٣، ٢٩٢، ٢٨٩	الصفوية		
٢٩٧، ٢٩٥، ٢٩٤			(س)
٣٣٢، ٣٠١، ٢٩٨		١١٨، ١١٧	الساسانيون
	(ط)	٢٨٠	السامانيون
١٤٥	طسم	٢٧٩	السامانية (دولة)
٦٤، ٦٣	طى	٨٩	السان سيمونيون
	(ع)	٢٧٨	السريان
١٤٥	عاد	٣٠١	السعديون
٢٣	عامر بن لؤى	١٧	السفانيون
٢٥٧، ٢٥٥	العامريون	٢٤٤، ٢٤٥، ٢٥٠،	السلجقة
١٥٠، ١٢١، ١١٢، ٤٥	العباسية (دولة)	٣٢٥	
٢٥٤، ٢٤٥، ١٨١		٣٣١، ٤٥	السودان
٣٢٥، ٢٧٩، ٢٦٦		٣٤٣	السودانيون
٣٢٦			(ش)
١٠٨، ٣٢، ٢٧، ٢٢	العباسيون	٢٤١	الشافعية
٢١٨، ١٨١		٢٥٣	الشاميون
١٢٢	العبرانيون	٣٢٨	شراكسة
		٣٢٩	الشركس

١٨٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ،
٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ،
٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢٣٢ ،
٢٣٣ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ،
٢٩٧ ، ٣٠٦ ،
٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ،
٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ،
٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ،
٢٨٤ ، ٢٨٥

الفلاسفة

(ق)

١٦٧ القبط (وانظر الأقباط)
٢٣٣ ، ٢٤٥ ، ٢٦٥
٣٧ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ٧٤ ،
١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢١٠ ،
١٩٩ ، ٧٣
٩٠
١٤٨ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ،
١٨٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ ،
٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ،
١٤٠ القوط
٣٢٩ القوقازيون
٣٧ ، ٥٢ ، ٥٣
٦٢ ، ١٦٧

القرامطة

قريش

القرشيون

القساوسة

القضاة

القوط

القوقازيون

قبس عيلان

القيسيون

(ك)

٣٢٩ الكاثوليك
٢٧٥ الكافورية
٥٢ ، ٢٣٢ (قبيلة)
٩٠ ، ٩٢ ، ٩٧
٣٨
٢٣٢
١٧٩
١٤٠

الكاثوليك

الكافورية

كلب بن وبرة (قبيلة)

الكرادلة

كليب

كندة

الكوفيون

الكيتيم

٣٢٦ ، ٣٤٢ ، ٣٥٥ ،
٣٦٠
١٨٨ ، ٢٤٤ ، ٢٩٥ ،
٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ،
٣٣١ ، ٣٥٥
٥٢
٣٤٧
١٧٩ ، ١٨١ ، ٣٢٨
٢٧ ، ٤٥ ، ٧٤ ، ١٨١ ،
٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٣٠٩

العثمانية (دولة)

العثمانيون

العديانيون

العربية (حركة)

العراقيون

العلويون

(غ)

الغزنوية (دولة)

الغزنويون

(ف)

الفاطمية (دولة)

الفاطميون

الفراعة

الفرس

الفرسان المقاتلون

(جماعة)

الفرنجية

الفرنسيون

الفتهاء

٣٣١ ، ٩٤ ، ٨٨ ، ٨٢	المسيحيون	(ل)	
٣٥٥ ، ٣٣٣			
١٧٩	المشاركة	لجنة التأليف والترجمة والنشر	٣٦٠ ، ٣٥٢
١٩٧ ، ١٧٨ ، ١٢٢	المصريون	اللاهوتيون المسيحيون	٢٧٨
٣١٠ ، ٣٠٧ ، ٢٣٢		اللبنانيون	٣٥٥
٣٤١ ، ٣٤٠ ، ٣٣٩		اللطيونيون	١٤٠
٣٤٤ ، ٣٤٣ ، ٣٤٢		اللوثرية	٢٣٤
٣٥١ ، ٣٤٧ ، ٣٤٦			
٣٧	مضر	(م)	
٧٦ ، ٧٥ ، ٥٦ ، ٤٤	المعتزة	المالكية	١٨٧ ، ١٨٢ ، ١٧٩
٨٢ ، ٨١ ، ٨٠ ، ٧٩			٢٦٠
٩٨ ، ٨٧ ، ٨٦ ، ٨٥		المتكلمون	٨٨ ، ٨٧ ، ٧٨ ، ٧٧
٢٠٣ ، ١٧٢ ، ١٧١ ، ٩٩			١٥٢ ، ٩٧ ، ٩٠ ، ٨٩
٢١٢ ، ٢١٠ ، ٢٠٨			٢١٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٣
٢٣٧ ، ٢٣٦ ، ٢١٩			٢٤٨ ، ٢٤٢
٢٤٨ ، ٢٤٢ ، ٢٣٨		المجرة (جماعة)	٣٤٩
٢٨٢		المجوس	٣٢٨ ، ٢٧٨ ، ٧٩
٣٣١	المغاربة	المدنيون	١٧٨
٣٠٣ ، ٣٠٢ ، ١١٩	المغول	المرابطون	١١٩
٣٢٧ ، ٣٢٦ ، ٣٢٥		المرجئة	١٧٢ ، ١٧١
٣٣٢ ، ٣٣٠ ، ٣٢٩		المروانيون	١٧
٣٣٥		المريونيون	٣٠١
١٤٠	المقدونيون	المساجديون	٤٤
٣٣١ ، ٣٠٦ ، ٣٠١	المماليك	المساحرة	٣٢٩
٣٤١ ، ٣٣٩ ، ٣٣٨		المستشرقون	١٣١ ، ١١٩ ، ٤٤ ، ٤٣
٣٤٤ ، ٣٤٢			٣١٥ ، ١٥٢
٣٢٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٥	المماليك البحرية	المسلمون	٣٦ ، ٢٣ ، ٢٢ ، ١٨ ، ١٤
٣٣٠			١٠٣ ، ٧٧ ، ٧٦ ، ٤٧
٣٣٠	المماليك البرجية		١٠٨ ، ١٠٧ ، ١٠٤
٣٤٤ ، ١٣٨	المماليك الجراكسة		١١٨ ، ١١٦ ، ١١٢
٣٨	مناف		١٣٣ ، ١٢٠ ، ١١٩
٣٢٩	الموارنة الكاثوليك		١٤٧ ، ١٤٣ ، ١٣٨
٣٢٢	الموحدون		٣٣٥ ، ١٥٢ ، ١٥١
٣٢٣	المورسيكيون		٣٥٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٠

	(و)	٨٩	الموسعون
٢٣٤	الوهابية		(ن)
	(ي)	٥٢	نزار
٣٥٥	اليسوعيون	١١٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٨ ،	النصارى
١٣٧ ، ٦٤ ، ٦٢ ، ٥٢	اليمنيون	٢٥٩ ، ٢٧٨ ، ٢٩٨ ،	
٢٥٣ ، ١٦٨	يهود	٣٣٠	نصيرية
٢٥٨ ، ١١٨ ، ١١٠	اليهودى	٣٢٩	(هـ)
٧٦	اليهودية	٣٨	هاشم
٢٦٣	اليونان	٢٩٠	الهاشميون
١٢٢ ، ١١٦ ، ١٠٥		١٩١	هذيل
٢٨٢ ، ٢٥٨ ، ١٤٠		١٤٠	الهلالية
٣٤٩ ، ٣٤٤ ، ٢٨٤		١٣٧	هتانة (قبيلة)
		١١٨	الهنود

فهرس الكتب والمجلات والدوريات واللوحات

(١)	
٢٨٥	الإشارات والتنبيهات
٢٣٩	إعجاز القرآن
٣١٠	إغاثة الأمة بكشف الغمة
٢٢٣ ، ٤٧ ، ٣٩ ، ٣١	الأغاني
٣٣٧	
٢٧٨	أفلوطين عند العرب
٦	أكتوبر (مجلة)
٣١٥ ، ٣١٣ ، ٢٦٠	ألف ليلة وليلة
٣١٨ ، ٣١٧ ، ٣١٦	
٣٢٠ ، ٣١٩	
	إلى أشرف الشعب
٩٢	الألماني
٣٥٦	الإلياذة
١٩٨ ، ١٩٤ ، ١٩٣	الأم
١١٢ ، ٧٣	الإمامة والسياسة
٣٥٤	الأمة
١٠	الأنجيل الأربعة
٨١	الانتصار
٢٢٦ ، ٩٤ ، ٩٣	الإنجيل
١٠٩	أنساب الأشراف
٣١٩	إنما الحياة حلم
٣٥٤	الآخالي
٣٥٤	الآهرام
(ب)	
٢٠٧	البخلاء
	بداية المجتهد ونهاية
٢٨٧	المقتصد
٣٠٩	البداية والنهاية
	البردة البوصيرية
٣٣٤	(قصيدة)
٣٣٤	بردة كعب بن زهير
	الأثار الباقية عن القرون
١٢٩	الحالية
٢٨٤	آراء أهل المدينة الفاضلة
٥١	آلام فرتر (قصة)
٣١	الآلهة عطشى (رواية)
٢٨٧	ابن رشد والرشدية
١٦٥	الإنشقاق
	أحسن التقاسيم في معرفة
١٢٥ ، ١٢٤	الأقاليم
٢٦٥	الأحكام السلطانية
	الإحكام في أصول
٢٦٢ ، ١٨٠	الأحكام
٢٢١ ، ٢١٣ ، ٢٠٨	أحمد بن حنبل
٢٣٤ ، ٢٣٠	
٢٩٧ ، ٢٤٩	إحياء علوم الدين
٦٠ ، ٥٩ ، ٥٧ ، ٤٨	أخبار الرسل والملوك
١١٧ ، ١٠٩ ، ١٠٧	(تاريخ الطبري)
٢٣٢ ، ٢٢٣ ، ٢٠٧	
١١٠	الأخبار الطوال
١١٠	أخبار مكة
١٧٦	أخبار ولاية مصر وقضاتها
٤٤	أرابيكا (مجلة)
٢٧٢	الأرض اليباب (قصيدة)
	أزهار الأفكار في منافع
٣٠٩	الأحجار
	أسد الغابة في معرفة
١١٥	الصحابه
٧٨	أسس الفلسفة
١٠	أسفار بني إسرائيل
٢٩٧	الإسلام في ثوب نصراني

تفسير الطبرى = جامع

البيان

التنبيه والإشراف ١٢٤

التنظيمات السياسية

والاجتماعية فى البصرة ٤٣

تهافت الفلاسفة ٢٤٩

التوايع والزوايع (رسالة) ٢٧٢

التوراة ٩٤

(ث)

ثروة الأمم ٩١

(جـ)

جامع البيان فى تفسير

القرآن ١٧٠، ٧٥

الجامع الصحيح ١٦٠، ١٨٠، ٢٤٤،

(البخارى) ٣٠٤

الجامع الصحيح (مسلم) ١٦١، ٢٤٤، ٣٠٤

الجزور (رواية) ١٤٦

الجريدة ٣٥٤

الجمانة الإلهية (قصيدة) ٢٨٦

جسرة أنساب العرب ٢٥٦، ٧٤

جسرة رسائل العرب ٢١٢

جنهار مقاله ٢٨٥

(حـ)

الحرية (ستيوارت مل) ٩١

حسن المحاضرة ٣٠٦، ٣٠٥

حلية الزمن بمناقب خدام

الوطن ٣٤٦

حى بن يثظان (قصة

فلسفية) ٢٨٧، ٢٨٦

حياة أنطونيوس ٢٩٤

حياة الحيوان ٣٠٩

الحيوان ٣٠٩، ٨٧

البرهان (فى أصول الفقه) ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣

البيان (مجلة) ٣٥٤

البيان والتبيين ٢٠٧، ٦

البيئة البصرية وتكوين

الجاحظ ٤٣

(ت)

تائية ابن الفارض

(قصيدة) ٣٣٣

تاريخ ابن الأثير = الكامل

فى التاريخ

تاريخ ابن خلدون = العبر

وديون المبتدأ

تاريخ الأدب الأندلسى ٢٧٢

تاريخ الأدب العربى

(جورجى) ٦

تاريخ الأدب العربى

(ضيف) ٢٩٣، ٢٧٥، ٦

تاريخ بغداد (ابن طيفور) ١١٠

تاريخ الجبرتى = عجائب

الآثار

تاريخ الطبرى = أخبار

الرسل والملوك

تاريخ الفلسفة العربية ٢٨٦

تاريخ الكتاب والوزراء ٣٠٢

التبيان (مذكرات) ٢٥٩

تحفة النظر فى غرائب

الأمصار ٣٣٢

تخليص الإبريز فى

تلخيص باريز ٣٤٥

تذكرة داود ٣٠٩

نراجم بلوتاركوس ١٠٥

تطور الصحافة المصرية ٣٥٤

التعريف بابن خلدون ١٣٩

(خ)

الخريدة	٣٣٨
الخطط التوفيقية	٣٤٧
الخطط المقرئية	٣٤٧، ٣١٠

(د)

دراسات في ثورة ١٩١٩	٣٥٣
دعوة إلى السلام	٢٣٥
دورينا (جيته)	٥١
ديوان أبي تمام	٣٣

(ذ)

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة	٢٥٩
---------------------------------	-----

(ر)

الرد الجميل على أتباع عيسى بنص الإنجيل	٢٤٩
الرد على الملاحدة	٢٨٣
رسائل بولس	١٠
رسالة إلى الخليفة المعتصم	٢٨٢
رسالة الصحابة	١٧٧، ١٤٨، ٢٩
رسالة ضد الجملامير	٢٣٥
رسالة الغفران	٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢
الرسالة التشبيرية	٣٢٢
الرسالة	٢٩٦
	١٨٨، ١٩٣، ١٩٤
	١٩٥، ١٩٧، ٢٤١
	٢٤٢
رسالة لأحمد بن المعتصم	٢٨٢
روح القوانين	٩١
روضة المدارس (مجلة)	٣٥٤، ٣٤٧، ٣٤٥

(س)

السور في وصف الخمور	٥٤
---------------------	----

سفر التكوين	١١٦
السلوك لمعرفة دول الملوك	٣١٠
السنن (الترمذي)	٢٤٤، ٧٥
السنن (أبو داود)	٣٠٤، ٢٤٤، ٢٣٣
السنن (ابن ماجه)	٣٠٥
السنن (النسائي)	٣٠٥
Sortus Resor Tus	١٧٤
السياسة (جريدة)	٣٥٤
السياسة الأسبوعية	
(جريدة)	٣٥٤
سياسة نامه	٢٤٥
سيرة أحمد بن حنبل	٢٣١، ٢٣٠، ٢٢٩
سيرة ابن اسحاق	١٠٤، ١٠٣
سيرة ابن هشام	٣٦١

(ش)

الشافعي (للجندي)	١٨٥
الشاهنامه	٢٨٠، ٥٣
الشفاء	٣٠٩، ٢٨٦، ٢٨٥

(ص)

صبح الاعشى	٣٠٨
صحيح الترمذي = السنن	
الصناعتين	٣٣٨، ٣٣٧
صهاريج اللؤلؤ	٣٥٩، ٩٦
صور قيام الساعة	٢٧١
(ض)	
ضحى الإسلام	٧٩، ٨٠، ٨٧، ٩٩
	٢١٣، ٢١٠
الضوء اللامع في أعيان	
القرن التاسع	٣١١

(ط)

طبقات الحفاظ (التذكرة

للذهبي)

١٧٠

طبقات الشافعية

٢٢١

طبقات الشعراء

٦١٠٥٢٠٤٩٠٣٩

طبقات فحول الشعراء

٣٢١٠٣٩

الطبقات الكبرى

١٧٠٠١٥٥٠١٠٣

طوق الحمامة

٢٦١٠٢٦٠٠٢٥٦

٢٦٣

الطيور المهاجرة

٣٦٣

(ع)

العبر وديوان المبتدأ والخبر

(تاريخ ابن خلدون) ١٤٠٠١٣٩٠١٣٨

العقريات

٣٦١

العثمانية (رسالة)

٩٨

عجائب الآثار في التراجم

٣٤٠

والأخبار (تاريخ الجبرتي)

٣٥١

العروة الوثقى (مجلة)

٩١

العقد الاجتماعي

أبو العلاء المعري (بنت

٢٦٩

الشاطبي)

على هامش السيرة

٣٦١

العمدة

٣٣٨٠٣٣٧٠٥٥٠٤٩

عمدة القارئ

٣٠٨

المعهد القديم

٢٢٦٠٩٣

(ف)

فاوست (جيته)

٥١

فتح الباري (بشرح

٣٠٨

صحيح البخاري)

١٠٩

فتوح البلدان

٢٩٧

الفتوحات المكية

٢٩٠

الفخرى (ابن طباطبا)

فصل الخطاب في مدارك

٣٠٩

الجواس الخمس

الفصل في الملل والأهواء

٢٦٣٠٢٦٢٠٢٦١

والنحل

٢٨٧

فصل المقال

١٧٩

الفقه الأكبر

٩٢

في حرية رجل مسيحي

(ق)

القانون في (الطب)

٢٨٥

القانون السعودي

١٣٠

القضاء والقدر (رسالة)

٢٨٦

(ك)

الكامل في التاريخ

١١٨٠١١٥٠١١٤٠٥٩

(تاريخ ابن الأثير)

٢٣٥٠١١٩

الكاوي في تاريخ

٣١١

السخاوي

٩٣٠١٠

الكتاب المقدس

الكشف عن سناجج الأدلة

٢٨٧

في عقائد الملة

٣٥٤

الكشكول

٢٧١٠٩٧

الكوميديا الإلهية

(ل)

لامية العرب

٣٢١٠٣٤

لايكاد اجيسيان

(جريدة)

٣٥٤

اللاهوت الجرمانى

٩٢

لسان العرب

٣١٥

اللطائف المصورة

٣٥٤

السمع

٢٨٩

الملاء (جريدة)

٣٥٦٠٣٥٤

لو كورييه دي جييت

٣٥٤

٢٥٦	الفاضلة بين الصحابة	(م)	
١٣١	مقال في التاريخ العالمى	١٧١	مالك بن أنس
	مقالات الإسلاميين	٧٨	مبادئ الفلسفة
٢٣٨	واختلاف المصلين	٣٤٥	مباهج الألباب المصرية
٣٢٢	مقامات البديع	٣٥٤	المحروسة
٣٢٣، ٣٢٢	مقامات الحريرى	٢٦٣، ١٨٠	المحلى فى الفقه المعلى
١٠١، ١٠٢، ١٣١،	مقدمة ابن خلدون	٣٥٢، ٣٥١	محمد عبده
١٣٢، ١٣٨، ١٣٩،		٢٩٦	محنة الحلاج
١٤٠			مختصر جغرافية
	المكتبة العربية	٣٥٥	الإدرسى
٣٥٥	الاسكورية	٣١	مدام ريكاميه
٨١	الملل والنحل	١٦٤	مدونة جستان
٣٥٤	المنار	١١٤، ١٢٢، ١٢٣،	مروج الذهب
٣٣٣	المنزل	٣١٦، ١٥٦، ١٢٤	
٢٨٣	المنطق	٣٠٨، ٣١٠	مسالك الأبصار
٢٤٩، ٢٤٨، ٢٤٧	المنفذ من الضلال	٥٠	مسرحية روميو وجوليت
٣٥٦	المؤيد (جريدة)		مسرحية كليوباترا
٢٤٩	مؤلفات الغزالي	٥٠	وأنطونيو
١٦٤، ١٧٢، ١٧٣،	الموطأ	٥٠	مسرحية ماكبت
١٧٧، ١٧٨، ١٨٠،		٥٠	مسرحية الملك لير
١٨٧		٣١٩	مسرحية النوء
		٥٠	مسرحية هاملت
		٥٠	مسرحية يوليوس قيصر
		٢٣١، ٢٤٤، ٣٠٤	مسند أحمد
		١٨٠	مسند أبى حنيفة
			مظهر التقديس فى خروج
		٣٤٣	الفرنسيس
		٩٨	المعتزلة وأصول الحكم
		٣٠٢	معجم الأدباء
		٣٠٣، ٣٠٢	معجم البلدان
		١٧٤، ١٠٥، ١٠٣، ٤٠	المغازى (الواقدى)
		١٧٥	
			المغنى فى أبواب التوحيد
		٩٧	والعدل

(ن)

٣٤١، ٣٣٨	نابليون فى مصر		
٢٨٥	النجاة (مختصر الشفاء)		
٣٥٤	نزهة الأفكار		
	نزهة الألباب بما لا يوجد		
٣٠٩	فى كتاب		
	نزهة المشتاق فى اختراق		
١٣٥، ١٣٤، ١٣٢	الآفاق		
٧٤	نسب قریش		
٢٩٢	نشور المحاضرة		
٣٥٤	أبو نظارة معظمة		
٣٩، ٣٨	نقائض جرير والفرزدق		

٣٣٩	ودخلت الخيل الأزهر	٣١٠ ، ٣٠٨ ، ٢٢٣	نهاية الإرب
٢٨	الوزراء والكتاب	٣٠٨	النوازل
١٦٨ ، ١٥٩ ، ١٥٧	وفيات الأعيان		(هـ)
٢٣٧ ، ٢١٣ ، ٢٠٧			
٣٥٧ ، ٣٥٤ ، ٣٥٠	الوقائع المصرية (جريدة)	٥١	هرمان (جيتيه)
	(ي)		(و)
٣٣٨ ، ٣٣٧	يتيمة الدهر	٣٥٤ ، ٣٤٦	وادي النيل (جريدة)
		١٣٣	الوافي بالوفيات

الموضوع	فهرس الموضوعات	الصفحة
❖ مقدمة		٥
❖ أنا أفكر ، إذن أنا غير موجود		٩
❖ اثنان لا يجتمعان : رجل الفكر والطاغية		٢١
❖ المفكر والتسول والنديم والمهرج والمعلم		٣٣
❖ المفكرون فى وادى عبقر والناس فى وادى سقر		٤٧
❖ مع الخليفة الملك اختل ميزان المجتمع كله		٥٩
❖ علم الكلام ... والطريق المسدود		٧١
❖ موقف المعتزلة .. من قضايا الإسلام		٧٩
❖ درس من فقيه معتزلى مسيحى : مارتن لوثر		٨٩
❖ القرن الهجرى الثالث ربيع الفكر العربى		٩٩
❖ أهل الفكر وبناء وحدة الأمة وعالم العروبة : المفكرون		١٠٩
❖ المسعودى والمقدسى والبيرونى : ثلاثة نجوم مضيئة فى سماء الفكر البشرى		١٢١
❖ الإدريسى وابن خلدون : علمان فى تاريخ حضارة البشر		١٣١
❖ الفقهاء وبناء القاعدة الصلبة لأمة الإسلام		١٤٣
❖ الإسلام دين وأمة		١٥٣
❖ الطريق إلى الموطأ		١٦٣
❖ أبو حنيفة ، والمشى على حدّ موسى		١٧٣
❖ الإمام الشافعى : العالم المفكر الإنسان فى أرفع صورة		١٨٣
❖ أحمد بن حنبل وصراع الدين والدولة		١٩٣
❖ أحمد بن حنبل وانتصار الدين على الدولة		٢٠٥
❖ البداية العظيمة أصبحت نهاية أليمة		٢١٧

الموضوع	الصفحة
* الطريق إلى الماضي	٢٢٩
* أبو حامد الغزالي : يفتح للناس أبواب عالم القلوب	٢٤١
* ابن حزم القرطبي : صرخة في سكون الليل	٢٥٣
* أبو العلاء المعري : نور الظلام	٢٦٥
* أبو الطيب المتنبي : ظلام النور	٢٦٥
* فلاسفة العرب : وضعوا الفكر العربي في صميم الفكر الإنساني	٢٧٧
* الصوفية : وصفة شعبية لعلاج أمة الإسلام من حالة اكتئاب نفسى جماعى	٢٨٩
* الفكر العربى يدخل العصر الحجرى	٣٠١
* الأدب الشعبى العربى أجمل هداياه للفكر العالمى	٣١٣
* عصر الركود ومداه	٣٢٥
* بداية النهوض	٣٣٧
* النهوض ومعناه	٣٤٩
* نحو أدب عربى جديد	٣٥٩
* الفهارس العامة	٣٦٧
فهرس الآيات القرآنية	٣٦٩
فهرس الأحاديث النبوية	٣٧٠
فهرس الأشعار	٣٧٠
فهرس الأعلام	٣٧٣
فهرس البلدان والبحار والأنهار والجبال	٤٠٦
فهرس القبائل والفرق والطوائف والجماعات والشعوب	٤١٢
فهرس الكتب والمجلات والدوريات	٤١٩
* فهرس الموضوعات	٤٢٥

كتب للمؤلف ملك للدار

- ١ - معالم تاريخ المغرب والاندلس
- ٢ - تاريخ موجز للفكر العربي
- ٣ - المساجد في العالم
- ٤ - الامبراطورية البيزنطية
- ٥ - الزفاف الدامي
- ٦ - أحاديث عن الإسلام
- ٧ - الشعر الأندلسي
- ٨ - تنقية أصول التاريخ الإسلامي
- ٩ - كتب وكتاب
- ١٠ - الطريق إلى الرسالة والنبوة
- ١١ - دراسات في ثورة ١٩١٩
- ١٢ - النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم
- ١٣ - ابن بطوطة ورحلاته
- ١٤ - الحلة السيرة
- ١٥ - رحلة الأندلس
- ١٦ - فجر الأندلس
- ١٧ - تاريخ قریش
- ١٨ - تاريخ الدولة العربية
- ١٩ - موسوعة تاريخ المغرب العربي
- ٢٠ - ظلمات بعضها فوق بعض
- ٢١ - شيوخ العصر في الأندلس
- ٢٢ - كيف نفهم اليهود ؟
- ٢٣ - التاريخ والمؤرخون
- ٢٤ - صور من البطولات العربية والأجنبية
- ٢٥ - عصر الفتوات
- ٢٦ - أحاديث منتصف الليل
- ٢٧ - دستور أمة الإسلام
- ٢٨ - الإسلام في عشرين آية

هذا الكتاب

* هذه محاولة لإعادة النظر فى التراث العربى الفكرى كله ، منذ العصر الجاهلى وحتى عصرنا الحديث ، وهو ليس تأريخاً للأدب العربى أو أدباء العربية ، إنما هو تأريخ للفكر العربى ، وقد عنيت هنا بتتبع الأفكار والحركات وتطوراتها ، واهتمت بالجوانب الإنسانية والصدق وأمانة الفكر ومسئوليته ، ورأيت أن أساس أى فكر نافع هو الحرية والعدل .

* لقد كانت غايتى - منذ البداية - أن أعيد تقييم الفكر العربى ووزن رجاله وثمراته بالميزان الصحيح الذى ينبغى أن يوزن به كل عمل فكرى . وهو ميزان الصدق والجدوى العائدة منه على الإنسان ، والاحترام لحقوقه وحرياته وكيانه وكرامته .. ونحن ما زلنا - مع الأسف - ندرس تاريخنا الفكرى ونُقومُه ونزنه بمقاييس وضعها رجال من أهل القرن الرابع الهجرى .

* نحن هنا نبحث عن الأفكار الأصيلة النابعة من الإسلام أولاً . ثم من العروبة ثانياً ، والآراء التى تعطى الفكر العربى قيمته الحقيقية .

* وأقول فى النهاية : إن تجديد الفكر العربى يقوم أساساً على تجديد العلم أو توسيع قاعدة المعرفة والاطلاع ، وليس هناك - فى الحقيقة - كاتب كبير ، بل هناك قارئ كبير ، فلندخل معاً أيها القارئ فى هذه الندوة عن الفكر العربى .

المؤلف



طبع - نشر - توزيع

١٤ شارع جواد حسنى القاهرة ت ٢٩٩٢١١٥-٣٩٢٤١٠٥